



مركز المنهاج للإشراف والتدريس التربوي
سلسلة إصدارات المركز

صِفْوَةُ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي ضَوْءِ الْمَصَادِرِ الْأَصْلِيَّةِ

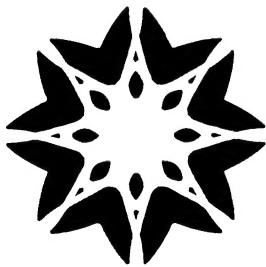
تأليف

أ.د. مهدي رزق الله

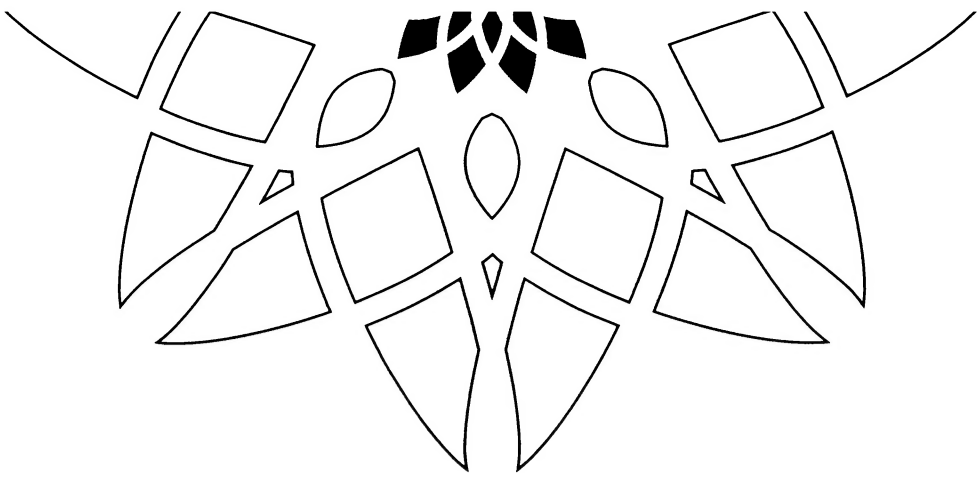
مصادر

مركز المنهاج للإشراف والتدريس التربوي

الكتاب
العلمية



صَفْوَةُ السَّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ
فِي ضَوْءِ الْمَصَادِرِ الْأَصْلِيَّةِ



ح دار أصول المنهاج للنشر، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر.
أحمد، مهدي رزق الله.
صفوة السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية. / مهدي
رزق الله أحمد - ط ٣ - الرياض، ١٤٤٢هـ
٨٢٤ ص، ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٥٤٤-٢-٦
١- السيرة النبوية أ. العنوان
ديوي ٢٣٩ ١٤٤٢/٣٤٠٣

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٣٤٠٣

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٥٤٤-٢-٦

محفوظة
جميع الحقوق

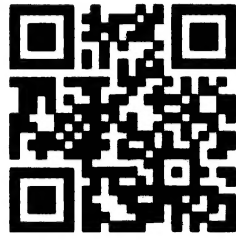


مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي
Almenhaj Center for Educational Supervision and Training

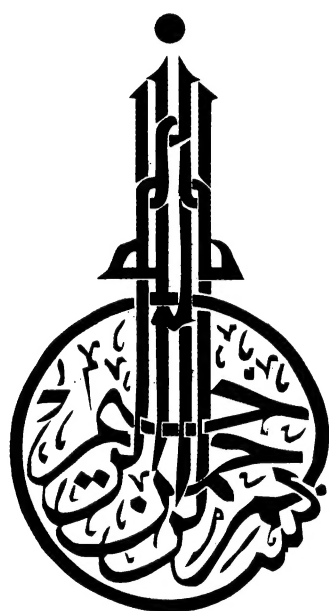
الملكة العربية السعودية - الرياض - هاتف: ٩٥٣.٥٩٠٠.٩٦٦٥

الموقع الإلكتروني: www.kholasah.com

البريد الإلكتروني: info@kholasah.com



الملحوظات
والمقترحات





شكر وتقدير

أشكر الله ﷻ أولاً الذي وفقني لتأليف هذا الكتاب، وأشكر كل من كان سبباً في جعل هذا الكتاب مقررًا دراسيًا في الجامعات والمعاهد العليا، خاصة بالملكة العربية السعودية؛ أو جعله مرجعًا معرفيًا لحلقاته الإذاعية أو المسجدية في دراسة السيرة النبوية؛ أو جعله المرجع الوحيد في مسابقات السيرة النبوية.

وأشكر كل من أشاد بهذا العمل ووصفه بأكثر مما يستحق، وذلك عبر الفضائيات أو مجالس العلم أو الأشرطة التسجيلية وغيرها من الوسائل.

وأشكر القائمين على أمر الندوة العالمية للشباب الإسلامي، مكتب الدمام، خاصة الأستاذ الدكتور محمد الجار الله، الذين بادروا إلى طلب ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية، وتم التعاقد على ترجمته إلى عدة لغات آسيوية وأوربية. وترجم فعلاً إلى الإنجليزية والأردية. كما أشكر الذين اتصلوا بي لترجمته إلى لغات عالمية حية.

وأشكر كل من أعانني بنصيحة أو بمشورة أو بتشجيع معنوي، أو بإعارته إياي بعض المصادر والمراجع؛ وذلك عملاً بقوله عليه الصلاة والسلام: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله».

وأشكر ابن أخي - يحيى دفع الله - وابنة أخي - رحمة يوسف رزق الله - وأفراد أسرتهما، الذين هياؤوا الجو المناسب لنا للأسفاده من الوقت لإنجاز هذه الطبعة الثالثة من هذا الكتاب، بالرياض.

المؤلف



الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى أساتذة السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بصفة خاصة بالمؤسسات التعليمية المختلفة، وإلى الدعاة إلى الله وطلبة العلم الباحثين عن الحقيقة، وإلى عامة المسلمين وغير المسلمين الذين يرغبون في معرفة سيرة وسنة الرسول ﷺ في ضوء الروايات الموثقة، ووفق مناهج المحدثين رواية ودراية بصفة عامة. سائلًا الله ﷻ أن ينفع به ويتقبله.

ونهديه بصفة أخص إلى القائمين على أمر التربية والتعليم بالمعاهد العليا والجامعات، وعلى رؤساء الدول والوزراء، آمليْن أن يجعلوا سيرة الرسول ﷺ متطلبًا دراسيًا إجباريًا على كل طلاب المؤسسات التعليمية.

وأسأل الله العليّ القدير أن يوفّقهم في هذا الاتجاه، وهذا ما نملكه.

ونهديه إلى كل من أشاد بهذا العمل ودعمنا دعمًا معنويًا شجعنا على مواصلة التنقيح والزيادة والاختصار.

ونهديه إلى أفراد أسرتي وعلى رأسهم الزوجة أم تماضر، لصبرها على ضررتها - مكتبتني - التي تأخذ معظم وقتي وتترك لهم فضول الوقت، وليس أدل على صبرها من أن زوجها لم يعرف في حياته ما يسمونه الإجازات أو العطل، حتى الجمعة والسبت.

ونهديه إلى أهلنا ببلدة الجابرية بمحلية الدبة بشمال السودان، الذين تعلمنا منهم أهمية العمل الدؤوب، وغرست حلق ذكرهم لقراءة البرزنجي في السيرة النبوية ومدح الرسول ﷺ، خاصة سيرته في المعجزات والشئال، غرست فينا حب الرسول ﷺ منذ نعومة الأظفار. ونهديه إلى كل أهل السودان والسعودية الذين اشتهروا بحب سيرة خير الأنام، وأسهموا في ميلاد هذا العمل الذي بين أيديهم الآن.



المقدمة

منهج البحث ومميزات الطبعة الثالثة:

إن مرويات سيرة الرسول ﷺ كثيرة جدًا، ولذا يلحظ القارئ لكتابنا هذا أننا قد أهملنا طائفة من الروايات الضعيفة التي لا تنجبر، وإن أكثر من روايتها بعض أهل المغازي والسير والتاريخ والشمال والخصائص، لأن هدف البحث ليس استقصاء جميع مرويات السيرة النبوية، بل الهدف رسم هيكل عام للسيرة العطرة يستوعب معظم الصحيح والحسن لذاته والحسن لغيره. وإذا استأنست بما دون ذلك من الروايات الضعيفة سندًا ولا تنجبر، اخترت منها ما لا يتعارض متنه مع الروايات التي يحتج بها. تمتاز هذه الطبعة بأن الاختصار كان في الحواشي، ووضعها في المتن، باستثناء حواشي وصف النبي ﷺ الخَلْقِي، وبقي أصل المادة العلمية لأهميتها لمعظم المستويات الثقافية.

واختصرت في ذكر عدد مصادر الروايات، واختصرت اسم المصدر، فمثلاً: إذا قلت: أحمد، فيعني في المسند، وإذا قلت: ابن إسحاق، فيعني عند ابن هشام في السيرة، وإذا قلت: ابن إسحاق في السيرة، يعني السير والمغازي، وعلى القارئ - إذا أراد - أن يرجع إلى ثبت المصادر والمراجع ليقف على كامل العنوان. ومن أراد التفصيل في الحواشي فليرجع إلى كتابنا: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية.

لقد حرصت أن تكون معلوماتي موثقة - أي منسوبة إلى مصادرها والحكم على أسانيدنا ومتونها - ليتيسر للقارئ التأكد من صحة النقل أو الاستزادة من المعلومات التي وردت مختصرة. علماً بأن المصادر ليست على درجة واحدة من الالتزام بإيراد



الروايات الصحيحة أو الحسنة أو المقبولة عند الاحتجاج بها حسبما فصله علماء الحديث، هذا مما لا يخفى على المبتدئين من طلاب هذا العلم الجليل.

ورأيت أن يعتمد هذا الكتاب في معلوماته على مصادر السيرة النبوية المختلفة الدرجات، وعلى رأسها كتاب الله - ﷻ - ثم الروايات المعتمدة عند المحدثين في كتب التفسير، وكتب الحديث، وعلى رأسها الصحيحان، والروايات المعتمدة في كتب المغازي والسير، وأن أذكر درجة إسناد ومتن الرواية باختصار - إذا لم تصدرها روايات الصحيحين -؛ ليعرف ما إن كانت مما يحتج بها أو لا، وذلك في ضوء آراء أهل الحديث ونقاده ومحققيه، وما سكت عنه فهو من باب الضعيف الذي لا ينجبر، ورأيت أن استنبط من كثير من أحداث السيرة بعض رؤوس المسائل الفقهية والحكم والدروس والعبر.

أما مميزات هذه الطبعة الثالثة فإضافة الأربعة فصول الأخيرة وتعديل طفيف في العنوان.

أهداف دراسة السيرة النبوية:

١ - أن يقف الدارس للسيرة النبوية على التطبيق العملي من قبل الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم لأحكام الإسلام التي تضمنتها آيات القرآن الكريم والسنة النبوية العطرة في مجالات الحياة المختلفة.

٢ - أن الاقتداء برسول الله ﷺ يقتضي معرفة شأئله وأحواله ودلائل نبوته وخصائصه، يقول الله ﷻ في هذا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].



٣- إن معرفة ما حفلت به السيرة من مواقف إيمانية عقدية، وقفها الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم لإعلاء كلمة الله تعالى، تقوي من عزائم المؤمنين السائرين على درب الرسول ﷺ، وتثبتهم للدفاع عن الدين والحق، وتقذف في قلوبهم الطمأنينة.

٤- أن السيرة النبوية هي المثل الأعلى للإنسان شبه الكامل - والكمال لله ﷻ - في جميع الجوانب.

٥- أن يجد المرء في السيرة النبوية ما يعينه على فهم كتاب الله ﷻ في جميع الجوانب، ففي السيرة بيان لأسباب نزول القرآن الكريم.

٦- أن يحصل دارس السيرة النبوية على قدر كبير من المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة: من عقيدة وشريعة وأخلاق وتفسير وحديث وسياسة ودعوة وتربية واجتماع... إلخ.

٧- أن يتعرف الدارس للسيرة على تطور الدعوة الإسلامية، وما كابده الرسول ﷺ وأصحابه لإعلاء كلمة الله ﷻ، وما واجهه هو وأصحابه رضي الله عنهم من مشكلات، وكيفية التصرف في تذليل تلك العقبات، وحل تلك المشكلات.

٨- أن المعجزات التي أجراها الله ﷻ على يدي نبيه محمد ﷺ لا تفهم جيداً إلا في ضوء معرفة وقائع أحداث السيرة النبوية التي حدثت من خلالها تلك المعجزات التي تقوي وتزيد إيمان المسلم. وأن ما وجد في مصدر السيرة الأول - القرآن الكريم - من معجزات حسية تدل على وجود الله ﷻ وصدق رسالة النبي محمد ﷺ.

٩- أن يقف الدارس المحقق على الروايات الصحيحة التي يمكن الاحتجاج بها في مجالات الدراسات الإسلامية المختلفة، وهو مطلب ملح جداً لطلاب العلم الأصيل.



تمهيد [١]

● مكة قبل الإسلام:

● نشأة مكة:

هاجر إبراهيم عليه السلام من العراق إلى الشام، ثم من الشام إلى مصر. وكان يحمل معه في ترحاله هذا رسالة التوحيد، وكانت ترافقه زوجته سارة. وكانت امرأة جميلة، وكان من عادة ملك مصر آنذاك أن يستأثر لنفسه بكل امرأة جميلة. وشاء الله ﷻ أن يصرفه عن سارة. وتنقلب منه بجارية لتخدمها، وهي هاجر أم إسماعيل عليه السلام [البخاري].

ولما كانت سارة عقيمًا، وطعن إبراهيم عليه السلام في السن، وابيض شعره، رأت أن تهب له الجارية هاجر ليتزوجها، لعل الله يرزقه منها ذرية صالحة. وشاء الله ﷻ أن تلد له هاجر ابنه الأول، فسماه إسماعيل [فتوح مصر؛ الأزرق].

واشتدت الغيرة بسارة عندما ولدت هاجر إسماعيل، فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء [الفتح]. فاتخذت هاجر منطلقًا له ذيل. فشددت به وسطها، وهربت مع زوجها، وهي تجر ذيلها لتخفي أثرها عن سارة. ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند مكان البيت الحرام، عند دوحة فوق مكان زمزم، في أعلى مكان المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء. ووضع عندها جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفل راجعًا، فتبعته هاجر، فقالت: «يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟» فقالت له ذلك مرارًا، وهو



لا يلتفت إليها، فقالت له أخيرًا: «آله الذي أمرك بهذا؟» قال: «نعم»، قالت: «إذن لا يضيعنا». ثم رجعت. فانطلق إبراهيم عليه الصلاة والسلام حتى إذا كان عند الشية حيث لا يرى، استقبل بوجهه مكان البيت، ثم دعا الله عز وجل قائلاً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾، حتى بلغ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧).

لم يلبث أن نفذ ما عند هاجر من ماء، فعطشت هي وابنها، فكرهت أن تنظر إلى ابنها وهو يتلوى من العطش، فانطلقت حتى قامت على أقرب جبل منها، وهو الصفا، ثم استقبلت الوادي لتتنظر، هل ترى أحدًا. فلما لم تر أحدًا هبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا. فلم تر أحدًا. ففعلت ذلك سبع مرات، وذلك سعي الناس بينهما كما قال الرسول ﷺ. وفي نهاية المرة السابعة جاءها الملك جبريل عليه السلام وأخذ يبحث بعقبه أو بجناحه عند موضع زمزم، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه، ثم تغرف منه في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف منه، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم»، أو قال: «لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم اليوم عينًا معينًا» [البخاري]. فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: «لا تخافوا الضيعة، فإن هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله» [البخاري].

وبينما هي على هذه الحال، مر بهم أهل بيت من قبيلة جرهم اليمنية القحطانية؛ وعندما وجدوا الماء، استأذنوها في النزول عندها، فأذنت لهم بشرط أن لا يكون لهم حق في الماء، فوافقوا، وأرسلوا إلى بقية أهلهم فنزّلوا معهم، وشب الغلام إسماعيل بينهم، وتعلم اللغة العربية منهم، وأعجبهم حين شب، فلما كبر زوجه امرأة منهم. [وقيل إن زوجته الأولى كانت من العماليق] [البداية].



وعندما ماتت هاجر جاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولم يجد حينها ولده إسماعيل بالبيت، فأخبرته زوجته أنه خرج في حاجتهم، وعندما سأها عن عيشهم، شكت إليه مر الشكوى مما يلاقينه من شدة، فأوصاها أن تقرئه السلام، وتقول له: أن يغير عتبة بيته. فعندما عاد إسماعيل أخبرته زوجته بالذي حدث، فعرف من وصفها أنه أبوه، وفهم الوصية، وفهم أن العتبة تعني زوجته، فطلقها، وتزوج امرأة أخرى. وبعد فترة من الزمان عاد إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - مرة أخرى فلم يجد إسماعيل بالمنزل، وسأل زوجته عن عيشهم، فحمدت الله، وأثنت عليه بما وسع عليهم في الرزق، فأوصاها بأن تقرئه السلام وتقول له أن يثبت عتبة بيته. فعندما عاد إسماعيل وأخبر بما حدث، عرف أباه وفهم وصيته، فأمسك عليه زوجته.

ثم غاب إبراهيم عليه السلام ما شاء الله، ثم عاد، ووجد ابنه من وراء زمزم يصلح نبلاً له، تحت دوحة عظيمة قريبة من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد مع الولد - أي تعانقا -.

فطلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام من ابنه أن يعينه بما أمره الله تعالى به، وهو بناء الكعبة على مكان مرتفع قرب زمزم، ففعل، فكان إبراهيم عليه السلام يبني، ويأتيه إسماعيل بالحجارة، حتى ارتفع البناء، فجاء بحجر المقام فوضعه له، فقام عليه، وكانا يقولان وهما يبنيان - : ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] [البخاري].

ليست هذه هي المرة الأولى التي يعين فيها إسماعيل عليه السلام أباه على طاعة الله تعالى وتنفيذ أمره. فقد ثبت أن إبراهيم عليه السلام عاد إلى مكة عندما شب إسماعيل، وقد أوحى الله تعالى إليه مناماً أن يذبحه قرباناً لله تعالى.



فاستشار إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل في ذلك قائلًا: ﴿يَبْنِيْٓ اِيَّ اَرَىٰ فِي الْمَنَامِ اِيَّ اَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] فأجاب إسماعيل قائلًا: ﴿يَنَابِتُ اَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيْ اِنْ شَاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰبِرِيْنَ﴾ [الصافات: ١٠٢] [انظر الصافات: ١٠٢-١٠٧].

وخرج به إلى منى لتنفيذ أمر ربه، ولما تله للجبين - والسكين بيده - ناداه ربه: ﴿اَن يَّبٰرِئِهِمْ﴾ [١٠٤] قَدْ صَدَقْتَ الرَّيَّاءُ. وفداه الله تعالى بذبح عظيم ﴿وَقَدَّيْنَتْهُ بِذَبْحٍ عَظِيْمٍ﴾ [الصافات: ١٠٢-١٠٧]، أي بكبش أملح كبير، فترك الولد وذبح الكبش، وفاز الوالد والولد برضا الله تعالى [زاد المسير].

وعندما فرغ إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام من بناء البيت، أمر الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، ف قيل: صعد عليه السلام جبل أبي قبيس أو الحجر أو الصفا، ونادى باسم الله تعالى قائلًا: «أيها الناس! إن ربكم بنى لكم بيتًا فحجوه». فأسمع الله نداءه كل مخلوق، ومن كتب الله تعالى أنه يحج إلى يوم القيامة، فلبى قائلًا: «لبيك اللهم لبيك» [تفسير ابن كثير].

ودعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ربهما عز وجل بما حكاها عنهما القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] [تفسير الطبري]. قال الطبري [التفسير]: (وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد ﷺ خاصة، وهي الدعوة التي كان نبينا محمد ﷺ يقول عنها: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى...»). وعاش إسماعيل بجوار البيت الحرام مع أصهاره جرحهم إلى أن بعثه الله رسولاً إليهم وإلى كافة من بالحجاز من قبيلة العماليق وأهل اليمن [البداية]. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].



وأنجب اثني عشر ولدًا ذكرًا. وقد سباهم محمد بن إسحاق، ونقل ذلك عنه ابن كثير [في البداية]، وأولهما نابت وقيدار. ونابت هو الذي اختير لأن يكون من آباء دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. واختفت حلقات السلسلة الذهبية فيما بين نابت وعدنان لظروف غامضة غير معروفة. وكان عدد الآباء ما بين نابت وعدنان يقدر بستة آباء، وقد عاشوا جميعًا بالحرم المكي، ومع هذا لم تضبط أسماء هؤلاء الآباء الستة. وقد جزم الرسول ﷺ بنسبه إلى عدنان، أما أجداده ما بين عدنان وإسماعيل فمختلف فيهم. [ابن عساكر].

وعندما مات إسماعيل عليه السلام دفن مع أمه في الحجر، وكان عمره مائة وسبعًا وثلاثين سنة. ويتنسب كل عرب الحجاز إلى ولديه نابت وقيدار [البداية]. هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن عهد إبراهيم عليه السلام كان في القرن التاسع عشر قبل الميلاد [أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ].

تعدد بناء الكعبة:

المرّة الأولى: عمارة الملائكة، كما روى الأزرقى.

المرّة الثانية: عمارة آدم عليه السلام كما روى البيهقي [الدلائل]، وغيره [السبل].

المرّة الثالثة: عمارة أولاد آدم عليه السلام كما روى الأزرقى وغيره، عن وهب ابن منبه، وذكره السهيلي، أن الذي بناها شيث بن آدم عليه السلام.

المرّة الرابعة: عمارة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام التي ذكرناها، وجزم ابن كثير [البداية] بأن هذا كان أول بناء. قال: «ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام ومن تمسك في هذا بقوله: ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦] فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله، المقرر في قدرته، المعظم



عند الأنبياء موضعه، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم». وقال الشامي معلقًا على كلام ابن كثير هذا: (... وفيه نظر لما ذكر من الآثار السابقة واللاحقة).

المرّة الخامسة والسادسة: عمارة العماليق ثم جرهم، كما نقل الشامي من رواية ابن أبي شيبة وإسحاق بن راهويه في مسنده، وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن علي رضي الله عنه. قال السهيلي: (وقد قيل: إنه بني في أيام جرهم مرة أو مرتين؛ لأن السيل كان قد صدع حائطه، ولم يكن ذلك بنيانًا على نحو ما قدمنا، إنما كان إصلاحًا لما وهى منه، وجدارًا بني بينه وبين السيل، بناه عامر الجارود، وقد تقدم هذا الخبر). [وانظر بناء العماليق في دلائل البيهقي (٢/ ٥٦-٥٧)؛ وأخرج الحاكم الرواية (١/ ٤٥٨) وصححها وأقره الذهبي].

المرّة السابعة: عمارة قصي بن كلاب - جد النبي ﷺ - قال الشامي: (نقله الزبير بن بكار في كتاب النسب، وجزم به الإمام أبو إسحاق الماوردي في الأحكام السلطانية).

المرّة الثامنة: عمارة قريش، حين كان للرسول ﷺ من العمر خمسة وثلاثون عامًا، كما سيأتي ذكره هنا في المبحث الخاص بمشاركة الرسول ﷺ في بناء الكعبة.

المرّة التاسعة: عمارة عبد الله بن الزبير، كما روى الشيخان وغيرهما. وسيأتي ذكرها.

المرّة العاشرة: عمارة الحجاج بن يوسف بأمر عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، كما روى الإمام مسلم. وعندما شكك عبد الملك في سماع ابن الزبير من خالته عائشة رضي الله عنها حديث الرسول ﷺ: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أو قال: بكفر - لهدمتها وجعلت لها غلقًا وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحجر»، أكد له الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة - المعروف بالقباع، وأخو عمر بن أبي ربيعة، الشاعر المشهور - أنه سمعه منها، فندم على نقضه وإعادته. [مسلم].



وروي أن الرشيد العباسي عزم على نقضها وإعادتها كما بناها ابن الزير، فقال له مالك ابن أنس: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك، لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره، فتذهب هيئته من قلوب الناس. فصرفه عن رأيه فيه. [البداية].

المرّة الحادية عشر: بناء السلطان مراد خان العثماني، سنة ١٠٤٠هـ - ١٦٣٠م، ذكره محمد علي بن علان في رسالته التي بهذا الشأن، وسببه ما فعله السيل بالكعبة، حيث أسقط منها بعض الأجزاء. [إخبار الأكرام للمكي].

دلت الآيات القرآنية التي نزلت في شأن بناء الكعبة والأحاديث الصحيحة التي رواها البخاري وغيره على أن أول من بنى الكعبة هو إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام. وقد كان مكان البيت ربوة عالية مشرفة على ما حولها، معروفة للملائكة، ولمن سبق من الأنبياء، ويقعة مشرفة معظمة من قديم الزمان حتى جاء الخليل فأسس قواعده وبناه.

أما الروايات التي تقول ببناء الكعبة قبل هذا فأغلبها موقوفة على بعض الصحابة أو التابعين، ورواها أهل التاريخ والسير كالأزرقي والفاكهي وبعض المفسرين والمحدثين الذين لا يلتزمون إخراج الروايات الصحيحة أو الحسنة. وقد مريبك قول ابن كثير: (ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام).

ويقول أبو شهبة [السيرة] بعد ترجيحه كلام ابن كثير:- (ولا ينافي ما رجحناه وذهبنا إليه ما روي: أنه ما من نبي إلا وقد حج البيت)، ما رواه أبو يعلى في مسنده بسنده عن ابن عباس قال: حج رسول الله ﷺ، فلما أتى وادي «عُسقَان» قال: «يا أبا بكر، أي وادٍ هذا؟»، قال: هذا وادي عُسقَان، قال: «لقد مرَّ بهذا نوح وهود وإبراهيم



على بَكَرَاتٍ لَّهُمْ مُخْمَرٌ، خَطْمُهُمُ اللَّيْفُ، وَأَزْرُهُمُ الْعَبَاءُ، وَأَزْدِيَّتُهُمُ النَّارُ، يحجون البيت العتيق»، وما رواه الإمام أحمد في مسنده بسنده عن ابن عباس، قال: لما مر النبي ﷺ بوادي عُسْفَانَ حين حج قال: «يا أبا بكر، أي وادٍ هذا؟»، قال: وادي عُسْفَانَ، قال: «لقد مرَّ به هود وصالح عليهما السلام على بَكَرَاتٍ لَّهُمْ مُخْمَرٌ، خَطْمُهَا اللَّيْفُ، أَزْرُهُمُ الْعَبَاءُ، وَأَزْدِيَّتُهُمُ النَّارُ، يلبون يحجون البيت العتيق»، إسناده حسن. وقد تقدم في قصة نوح (١/ ٢٧٨) عليه السلام «وفيه نوح وهود وإبراهيم» وقال أبو شعبة: لأن المقصود الحج إلى محله، وبقصته المعروفة، وإن لم يكن ثم بناء. [بكرات: جمع بكرة، وهي الناقة الفتية القوية؛ وخطم: جمع خطام، وهو الزمام الذي تشد به الناقة، والأزر: جمع إزار، وهو ما يستر به أسفل الجسم من الوسط؛ والأردية: جمع رداء، وهو ما يوضع على الكتفين ويستر به النصف الأعلى. والنار جمع نمرة، وهو الكساء المخطط].

عمل ابن الزبير وغيره في عمارة الكعبة:

عندما قرر ابن الزبير تجديد الكعبة، باشر المسلمون نقضها حتى بلغوا بها الأرض، فأقاموا أعمدة من حولها وأرخوا عليها الستور، ثم باشروا في رفع بنائها، وزادوا عليها الأذرع الستة التي أنقصتها منه قريش، وزادوا في طولها إلى السماء عشرة أذرع، وجعلوا لها بايين من الشرق والغرب، أحدهما يدخل منه والآخر يخرج منه. وذلك استنادًا إلى قول الرسول ﷺ الذي رواه الشيخان: «يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا فبلغت به أساس إبراهيم»، أو في معنى هذا.

وذكر الأزرقي، أن إبراهيم عليه السلام جعل طول بناء الكعبة في السماء تسعة أذرع، وطولها في الأرض اثنين وثلاثين ذراعًا، وعرضها في الأرض اثنين وعشرين ذراعًا، وكانت بغير سقف. وحكى السهيلي أن طولها في السماء كان تسع أذرع من عهد إسماعيل، فلما بنتها قريش قبل الإسلام، زادوا فيه تسع أذرع، فكانت ثمانية عشر ذراعًا،



ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يُصعد إليها إلا في دَرَج أو سُلَّم، وقد ذكرنا أن أول من عمل لها غَلَقًا هو ثُبَّع، ثم لما بناها ابن الزبير زاد فيها تسع أذرع، فكانت سبعًا وعشرين ذراعًا، وعلى ذلك هي الآن.

لم يكن للمسجد الحرام سور. وكانت تحيط به الدور من كل الجهات، وعندما رأى ابن الخطاب أن المسجد قد ضاق بالحجاج والزوار، اشترى الدور التي حوله من أهلها فوسَّعه وجعل له سورًا على قامة الرجل، وأثاره [الأزرقى؛ السهيلي] وعندما رأى عثمان رضي الله عنه أن المسجد أيضًا قد ضاق بالحجاج والمعتمرين، اشترى دورًا أخرى فوسع بها الحرم [الأزرقى]، وكذلك فعل ابن الزبير [الأزرقى].

ولم يزل الخلفاء الأمراء من ذلك الزمان يتعهدون الحرم بالتوسعة [الأزرقى] إلى زماننا هذا الذي يشهد فيه أضخم توسعة على يد الحكومة السعودية، فجزاهم الله خيرًا. وانظر في هذا بحثنا المشار إليه قبل صفحتين. [عمارة الكعبة...].

مقام إبراهيم عليه السلام:

المقام: هو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام لما ارتفع البناء عن قامته كما ذكرنا، وقد تركت قدماه أثرًا فيه، وظل هذا الأثر إلى أول الإسلام، غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم، وفي هذا يقول أبو طالب:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافيًا غير ناعل

[البداية].

وقد روي أن المقام كان ملصقًا بحائط الكعبة، على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخره عن البيت قليلًا، توسعة على الطائفين والمصلين عند المقام، ووافق الصحابة رضي الله عنهم على عمل الفاروق [عبد الرزاق، صحيح؛ البيهقي، صحيح].



وقد سبق وأن وافق الله تعالى على قول عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: «لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلًى»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] [البخاري، أحمد، صحيح].
وتجدر الإشارة هنا إلى أن إبراهيم عليه السلام بنى أيضاً المسجد الأقصى، وقيل: إن يعقوب عليه السلام هو الذي أسسه. وقد كان بين البنائين أربعون عاماً، كما قال الرسول ﷺ [متفق عليه].

أما الحديث الذي رواه النسائي [السنن، صحيح]، وفيه أن سليمان بن داود عليهما السلام هو الذي بنى المسجد الأقصى، فالمقصود بالبناء هنا هو التجديد كما ذكر السيوطي وابن القيم وابن حجر، واستعمال البناء بمعنى التجديد وارد في اللغة العربية، كما قال الدكتور أبو شهبه.



لقد عاشت البشرية في ظلام من الجاهلية في القرنين السادس والسابع الميلاديين، إذ سادت الوثنيات والخرافات والعصبية والقبلية والطبقيات والمفاسد الاجتماعية والسياسية. وحرفت معظم الأفكار الإصلاحية السليمة، سواء التي جاء بها أنبياء الله تعالى المرسلون، أو الحكماء الذين استقامت فطرتهم على الحق. وقد عبر الرسول ﷺ عن هذه الحقيقة في قوله: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم جميعاً إلا بقايا من أهل الكتاب» [مسلم].

وفي الصفحات القليلة التالية، نذكر باختصار، ما كانت عليه الجزيرة العربية في تلك الفترة، لبيان ضرورة رسالة النبي ﷺ وما تضمنته من أسس ومعايير، كانت وما زالت وستظل، عوامل رئيسة في بناء الحضارة الإنسانية.

١ - في الجزيرة العربية:

• أولاً: الحالة السياسية:

أ - الملك باليمن:

إن من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ، الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم بأحد عشر قرناً. وفي سنة ثلاثمائة الميلادية غلبت على ملكهم قبيلة حمير، ثم بدأت اليمن في دور الانحطاط، وأخذت القبائل القحطانية في الهجرة إلى البلاد المختلفة.



وتوالت عليهم الاضطرابات والحروب الأهلية في المئتين والسبعين سنة التي سبقت دخول الإسلام اليمن، مما أتاح للأجانب القضاء على استقلالهم. فدخلت الرومان عدن، وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة، سنة ٣٤٠م، مستغلين التنافس بين قبيلتي همدان وحير، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨م. ثم نالت اليمن استقلالها، ولكن سلط الله تعالى عليهم سيل العرم سنة ٤٥٠ أو ٤٥١م فهدم سد مأرب الذي جعله الله تعالى مصدر نعمة ورخاء لهم [تاريخ اليعقوبي]. وكل ذلك بسبب عتوهم وفسادهم وانحرافهم. وهذه سنة الله تعالى في ذلك.

وفي سنة ٥٢٣م قام ملكهم ذو نواس بحملة ضد المسيحيين لصرفهم عن دينهم، فلما أبوا، حضر لهم أخذودًا، وأوقد فيه نارًا، فقتلهم فيها، وهم الذين حكى الله تعالى خبرهم في الآيات: ﴿قِيلَ أَخَذُوا الْأَخْذُودَ﴾ ١ ﴿النَّارِذَاتِ الْوَقُودَ﴾ ٢ [البروج: ٤-٥]، وكان سببًا في تحريض الروم الأحباش ليحتلوا اليمن للمرة الثانية بقيادة أرياط سنة ٥٢٥م، وظل حاكمًا على اليمن إلى أن اغتاله أبرهة - أحد قواد جيشه - وحكم مكانه بعد أن نال رضى ملك الحبشة. وقام أبرهة بمحاولة هدم الكعبة بمكة، ولكن الله رده بقوته، كما حكى ذلك القرآن الكريم في سورة الفيل.

واستنجد اليمنيون بالفرس فأعانوهم على إجلاء الأحباش سنة ٥٧٥م، بقيادة معد يكرب بن سيف بن ذي يزن الحميري، وملكوه عليهم. وكان قد أبقى جمعًا من الحبشة لخدمته، فاغتالوه، وبموته انقطع الملك عن بيته، وولى كسرى عاملًا فارسيًا على صنعاء، وجعل اليمن ولاية فارسية. وكان آخر ولائهم باذان، الذي اعتنق الإسلام، وبإسلامه انتهى نفوذ الفرس في بلاد اليمن [نفسه]، وكان إسلام باذان في جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة - ٦٢٨م [ابن سعد].



ب - الملك بالحيرة:

حكمت الفرس العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير (٥٥٧-٥٢٩ ق.م) ثم فرق شملهم الإسكندر المقدوني سنة ٣٢٦ ق.م عندما هزم ملكهم دارا الأول، ودخلت البلاد في حكم الطوائف إلى سنة ٣٣٠ م. وفي عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون وسكنوا جزءًا من ريف العراق، ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين، فزاحموهم حتى سكنوا جزءًا من الجزيرة الفراتية.

وجمع أردشير الفارسي - مؤسس الدولة الساسانية منذ سنة ٢٢٦ م - شمل الفرس، وسيطر على العرب المقيمين على تخوم مملكته، وكان ذلك سببًا في رحيل قضاة إلى الشام، ودان له أهل الحيرة والأنبار، ولصعوبة حكم المناطق البعيدة رأى أن ينصب عليهم ملكًا منهم، اسمه جذيمة الوضاح، ويعينه بكتيبة من الفرس، ليقفوا جميعًا في وجه مطامع الروم وعرب الشام، الذين اضطنعمهم الروم. واشتهر من ملوك الحيرة النعمان بن المنذر، وهو الذي خاض حربًا ضد ملك الفرس، وهزم جيش الفرس في موقعة ذي قار، بعد ميلاد الرسول ﷺ، وهو أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم، وقيل: إن الرسول ﷺ قال عنه: «هذا أول يوم انتصف العرب فيه من العجم، وبني نصرُوا» [الطبري: التاريخ].

ج - الملك بالشام:

في العهد الذي ماجت فيه العرب بهجرات القبائل صارت بطون من قضاة إلى مشارف الشام وسكنت بها، وكانوا من بني سليح بن حلوان، الذين منهم بنو ضجعم ابن سليح، المعروفون باسم الضجاعة؛ فاضطنعمهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العبث، وليكونوا عدة ضد الفرس، وولوا منهم ملكًا، ثم تعاقب الملك فيهم زمانًا إلى



أن غلبهم عليه الغساسنة. وظل الغساسنة في الملك من قبل الروم إلى أن كانت وقعة اليرموك سنة ١٣ هـ - ٦٣٤ م، ودخل في الإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم، في عهد عمر رضي الله عنه [تاريخ يعقوبي].

د - مكة:

إن مكة من بلدان الحجاز، ولم يقد بالحجاز كيان سياسي موحد يمكن أن يسمى بالدولة، وإنما قامت بها مدن، لكل منها نظامها السياسي الذي هو أقرب إلى المشيخة منه إلى نظام الملك. ومن أشهر المدن: مكة ويثرب والطائف.

تناولت فيما سبق طرفاً من تاريخ نشأة مكة، وذكرنا أصل سكانها، وهم جرهم، وقيل: كان قبلهم العماليق، الذين كانوا يسكنون خارجها، أي من حولها [الأزرق].

لم تحافظ جرهم على حرمة الحرم بعد إسماعيل، فكثرت في أيامهم البغي والفساد. واغتصب كثير منهم مال الكعبة الذي كان يهدى إليها. ويقال: إن ماء زمزم نصب في عهدهم، كما أن البئر نفسها زالت معالمها، وعندما تفرق بعض عرب اليمن بعد سيل العرم، هاجر ثعلبة بن عمرو بن عامر مع قومه إلى مكة، ولم تقبلهم جرهم، ودارت بينهم حرب انتهت بهزيمة جرهم.

وعندما مرض ثعلبة، رحل إلى الشام، وولى أمر مكة وحجابه الكعبة ابن أخيه ربيعة بن حارثة بن عمرو، وهو لحي، وعرف قومه بخزاعة. وقد انحاز إليهم بنو إسماعيل ابن إبراهيم. وكانوا قد اعتزلوا الحرب التي دارت بين جرهم وثلعة [الأزرق].

ظلت خزاعة تلي أمر البيت الحرام نحوًا من ثلاثمئة سنة، وقيل: خمسمئة سنة. وكانت قريش إذ ذاك متفرقة في بني كنانة حتى تزعمها قُصَيُّ بن كِلَاب ووحد بطونها، وخاض حربًا ضد خزاعة حول ولاية البيت. وأعانت خزاعة في حربه، وتدخلت قبائل العرب، وانتهت الحرب بالتحكيم الذي نتج عنه أحقية قصي بولاية الكعبة.



ومنذ ذلك اليوم ارتفعت مكانة قريش بين العرب [نفسه].

قام قصي بتقطيع مكة رباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة، وكانت له جميع الرئاسة من حِجَابَةِ وَسْقَايَةِ وَسِدَانَةِ وَلِوَاء. وبنى داراً لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات، سماها دار النَّدْوَةِ، وكان يرأس اجتماعاتها ويدير شؤونها. وفرض على قريش خراجاً سنوياً يؤدونه إليه لينفق منه على إطعام فقراء الحجاج.

وعندما كبر قصي فوض أمر هذه الوظائف والرئاسات إلى أكبر أبنائه عبد الدار، ولما مات عبد الدار وإخوته: عبد مَنَافٍ وعبد شمس، وعبد العُزَّى، اختلف أبنائهم في هذه الرئاسة، وافترقوا إلى فرقتين، فرقة بايعت بني عبد الدار، وفرقة بايعت بني عبد مناف، ووضع حلف بني عبد مناف أيديهم عند الحلف في جَفْنَةٍ فيها طيب، ثم لما قاموا مسحوا أيديهم بأركان الكعبة، فسموا حلف المُطَيِّين.

أما بنو عبد الدار ومن حالفهم. فقد أخرجوا جَفْنَةً مملوءة دماً، وفعلوا ما فعله بنو عبد مناف عند الكعبة، وسموا الأحلاف.

ثم أخيراً اصطلح الفريقان على أن تكون الرِّفَادَةُ والسقاية لبني عبد مناف، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار [ابن إسحاق] وقسمت الرئاسة التي نالها بنو عبد مناف بين هاشم وأخيه عبد شمس، فكانت السقاية والرفادة لهاشم، والقيادة لعبد شمس [الأزرقى].

وعندما علت مكانة هاشم بين قومه حسده ابن أخيه أمية بن عبد شمس، وحاول أن ينافسه في إطعام الحجاج فعجز، فشمت به بعض قومه فزاد حسده وحقده على عمه.



وولي السقاية والرَّفَادَةَ المطلب بعد وفاة أخيه هاشم، ثم عندما مات المطلب خلفه ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم، ثم عندما مات خلفه ابنه العباس بن عبد المطلب، وقد أبقاهما الرسول ﷺ في يده بعد فتح مكة.

أما بنو عبد الدار فقد توارثوا الحجابة واللواء ورئاسة دار الندوة. وقد أبقى الرسول ﷺ الحجابة بأيديهم عندما فتح مكة ودفع بمفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة، وهي فيهم إلى اليوم، وقيل: إن الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، قد نزلت بهذا الخصوص [تفسير الطبري]، ولم يستبعد الطبري ذلك، وساق أقوالاً أخرى في ذلك.

هـ - يثرب:

كان أول من سكنها العمالقة، ثم تغلبت عليهم بعض القبائل اليهودية، فأقاموا بها، خاصة في القرنين الأول والثاني الميلاديين، إثر الحروب التي شنّها الرومان ضد اليهودية بسورية، فتفرقوا في البلاد، فلجأت قبائلهم وعلى رأسهم بنو النضير وبنو قريظة إلى يثرب. وأقاموا بها حتى نزح إليهم من بلاد اليمن قبائل الأوس والخزرج عندما تهدم سد مأرب [المقرئزي: إمتاع الأسماع].

عاش اليهود والأوس والخزرج في وئام فترة من الزمان، وتحالفوا ليأمن بعضهم بعضاً، وعندما قويت شوكة الأوس والخزرج تنمّر اليهود عليهم ونقضوا الحلف الذي بينهم، فاستنجد العرب ببني عمومته الغساسنة، فأنجدوهم أنفة من تسلط اليهود عليهم [صبح الأعشى].

وكذلك عاش الأوس والخزرج في وئام في بداية أمرهم، ثم وقعت بينهما حروب طويلة، كان النصر في أغلب الأحيان للخزرج، ولهذا حاولت الأوس محالفة قريش

ضد الخزرج، فلم تفلح، فلجئوا إلى الحلف مع بني قريظة وبني النضير. وسمعت الخزرج بهذا فأرسلت تستوضح الموقف، فأفادتهم يهود بأنها لا ترغب في الحرب، فأرادت الخزرج أن تتأكد من هذا، فطلبت منهم أربعين غلامًا، ليتخذوهم رهائن لديهم، وعندما استجابوا لهم، خيروهم بين الجلاء عن يثرب أو قتل الغلمان، فأثروا الخروج من ديارهم، غير أن كعب بن أسد القرظي أقنعهم بالبقاء والتضحية بالرهائن، فقتل الخزرج الغلمان، فغضب يهود وجاهروا بحلفهم مع الأوس، ووقفوا معهم في موقعة بُعاث، فانتصر الأوس، بعد أن أوقعوا في الخزرج مقتلًا عظيمًا، ثم تصالح الفريقان، واتفقا على إقامة حكومة تعمل على استقرار الأمور يثرب، برئاسة عبد الله ابن أبي بن سلول الخزرجي. [الوفا]، وبينما كانوا يستعدون لذلك قدم الرسول ﷺ المدينة مهاجرًا، فدان الجميع لسلطان الإسلام. ولم يجد ابن أبي بدًا من الدخول في الإسلام ظاهرًا بعد موقعة بدر، ودلت مواقفه بعد ذلك على نفاقه كما سيأتي بيانه. وهو ممن اتفق على نفاقه أهل الحديث والتفسير والمغازي والسير.

أما زعيم الأوس: أبو عامر بن صيفي بن النعمان، والد أبي حنظلة الغسيل، فقد أبى إلا الكفر فخرج إلى مكة، ثم إلى الطائف، ثم إلى الروم بالشام، محاولًا في كل أطوار حياته القضاء على الإسلام، وكان قد ترهب في الجاهلية، فسموه الراهب، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا الراهب، ولكن قولوا الفاسق» [ابن إسحاق]. وله قصة في أحداث غزوة أحد، سيأتي ذكرها في مكانها.

و- الطائف:

كانت الطائف تعرف باسم (وَجَّ)، نسبة إلى وَجَّ بن عبد الحي، أحد العمالقة الذين سكنوها. رحلت إليها قبيلة هوازن من وادي القُرَى، وتزوج زعيمها قسب بن منبه



ابن بكر بن هوازن بابنة زعيم وج عامر العدواني، واشتهر قسب باسم ثقيف فيما بعد....، وعندما تكاثروا بنوا سورًا ليكون حصنًا، وأطلقوا عليه الطائف، لإطافته بهم، ومن ثم عرفت هذه المدينة بالطائف بدلًا من وج. [معجم ما استعجم؛ معجم البلدان].

وعندما ظهر الإسلام كانت ثقيف مقسمة إلى فرقتين: الفرقة الأولى: هم بنو مالك والثانية الأحلاف. وكانت بينهم شحنة أدت إلى حرب بينهما، انتصر فيها الأحلاف وأخرجوا بني مالك إلى واد وراء الطائف. ثم رأى بنو مالك أن يعززوا موقفهم العسكري بالتحالف مع بعض القبائل، فحالفوا دوسًا وخثعمًا وغيرهما على الأحلاف. ولكن لم تقع بينهم بعد ذلك حروب ذات بال [الكامل في التاريخ].

ثانيًا: الحالة الدينية عند العرب في الجزيرة العربية:

استمرت خزاعة على ولاية الكعبة نحوًا من ثلاثمئة سنة، وقيل: خمسمئة سنة. وكانوا قوم سوء في ولايتهم، وذلك لأنه كان في زمانهم أول عبادة الأوثان بالحجاز، بسبب رئيسهم عمرو بن لحي. [يأتي ذكره]، الذي زار الشام ووجد العماليق بمؤاب من أرض البلقاء (مكان بالأردن الآن) يعبدون الأصنام، وقالوا له إنهم يعبدونها لأنهم يستمطرونها فتمطرهم ويستنصرونها فتنصرهم، فطلب صنمًا فأعطوه صنم هُبَل، فجاء به مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه، لأنه كان سيدًا مطاعًا فيهم. وعندما بدأ بنو إسماعيل يتفرقون في البلاد أخذوا يحملون معهم من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالبيت، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسّنوا من الحجارة وأعجبهم، وخلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه من دين إبراهيم. [ابن هشام].

وكثر فيهم الأصنام، فكان (وَدٌ) لبني كَلْب بن وَبَرَة بدوَمَة الجَنْدَل، و(سُوع) لبني هُدَيل بمكان تسمى رُهاط، على ثلاث ليال من مكة، و(يَعُوث) لبني أُنْعم من



طيء ولأهل جُرش من مَذْحِج اليمنية، وكان منصوبًا بجُرش، و(يَعُوقُ) لبني خَيَوَانَ الهمدانيين، و(نَسْرَ) لقبيلة ذي الكَّلَاع الحِميرية. [ابن إسحاق].

وهذه الأصنام هي التي عبدها قوم نوح، وحكى خبرها القرآن الكريم، قائلًا: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٣١) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴿[نوح: ٢٣-٢٤]، فعندما فارق ولد إسماعيل وغيرهم دين إبراهيم ﷺ عبدوا هذه الأصنام. [انظر البخاري].

وكان لخلولان صنم يدعى (عَمُّ أَنَس) وقيل: (عُمَيَانِسُ)، يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسمًا بينه وبين الله - فيما يزعمون - وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]. وكان لبني مِلْكَانَ بن كِنَانَةَ صنم يقال له: (سَعْدُ). وكان لدَوْسِ صنم لعمر بن حُمَمَةَ الدَّوْسِيِّ. وكان لقريش مع هبل صنمًا: (إِسَاف) و(نائلة)، على موضع زمزم، ينحرون عندهما، قالت عائشة رضي الله عنها: «ما زلنا نسمع أن إسافًا ونائلة كانا رجلًا وامرأة من جرهم أحداثًا في الكعبة فمسخهما الله ﷻ حجرين» [ابن إسحاق، حسن لذاته].

واتخذ أهل كل دار في دارهم صنمًا يعبدونه، وكان آخر ما يفعلونه عند الشروع في السفر وأول ما يفعلونه حين العودة منه، التمسح بالصنم، فلما بعث الله محمدًا ﷺ بالتوحيد، عابوا عليه ذلك وقالوا: ﴿أَجْعَلِ آلِهَةً إِلَهًُا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (٥) [ص: ٥].

وفي الصحيح عن أبي الرجاء العطاردي، قال: «كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثُوءَ من التراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه، ثم طفنا به» [البخاري].

وروى ابن كثير [في البداية] عدة أحاديث صحيحة تدل على ما ابتدعه عمرو بن لحي في الدين واتبعه العرب في ذلك، فضللوا ضلالًا بعيدًا؛ من ذلك رواية الشيخين: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي [أي عمرو بن لحي] يجر قُصْبَهُ [أي أمعاءه]



في النار، كان أول من سيَّب السوائب...»، ورواية ابن إسحاق [السيرة، حسن] الأكثر تفصيلاً وبإسناد صحيح، ولفظها: «... إنه كان أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وبحر البحيرة، وسيَّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحى الحامي». وقد أنكر الله تعالى عليهم ذلك في أكثر من آية، فقد قال ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦].

قال ابن عباس [كما في تفسير الطبري]: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقراً ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام...» ففيها خلاصة عبادة العرب وما نتج عن ذلك من ممارسات اجتماعية ضارة.

ولم يبق من دين إبراهيم إلا القليل، مثل تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة، والوقوف بعرفات والمزدلفة وإهداء البدن مع إدخالهم في هذا ما ليس منه. فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا بالحج أو العمرة قالوا: «ليبك اللهم ليك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك»، فيوحدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده [ابن إسحاق]. وكانوا يطوفون بالبيت عراة وهم يصرخون.

واتخذت العرب طواغيت مع الكعبة، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدة وحجاب، ويهدى لها، ويطاف بها، وينحر عندها. فكانت لقريش وبني كنانة (العُزَّى) بَنَخْلَةَ، وكان سدنتها وحجابها من بني شَيْبَانَ، من سُلَيْمٍ، حلفاء بني هاشم، وكانت (الَلَاتُ) لثقيف بالطائف. وكان سدنتها وحجابها من بني مُعْتَبٍ، من ثقيف. وكانت (مَنَاة) للأوس والخزرج ومن دان بدينهم، بناحية المُشَلَّل بِقُدَيْدٍ. وهذه الطواغيت هي التي أشار إليها القرآن الكريم في الآية: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ (١٦) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۚ﴾ [النجم: ١٩-٢٠]. وكان (ذو الحَلَصَةِ) لدؤسٍ وخثعم وبَجِيلَةَ ومن كان



ببلادهم من العرب بَتَبَالَّةً، وكان يقال له: (الكعبة اليمانية)، ويُقال لبيت مكة: (الكعبة الشامية). وكان (فَلْسٌ) لطيء ومن يليها بَجَبَلِي طيء، يعني أَجَا وَسَلْمَى. وكان (رِثَام) بيتًا لحمير وأهل اليمن. وكانت (رُضَاءُ) بيتًا لبني ربيعة بن كعب. وكان (ذو الكَعْبَات) لِبَكْرِ وتغلب ابني وائل وإياد، بَسْنَدَادَ [يأتي ذكرها]. وكان للعرب أصنام أخرى غير التي ذكرنا، حفلت بذكرها المصادر المختلفة. [تاريخ يعقوبي والأصنام لابن الكلبي].

وهناك روايات طريفة عن موقف بعض العرب من أصنامهم. من ذلك ما روي من أن السائب بن عبد الله كان له حجر نحته بيده ليعبده، فيجيء باللبن الخاثر الذي ينفسه على نفسه فيصبه عليه، فيجيء الكلب فيلحسه، ثم يَشْغُر [يرفع إحدى رجليه] فيبول... الأثر. وما يروى من أن بني حنيفة اتخذوا في الجاهلية إلهًا من حيس [الأقط - اللبن المجفف - يخلط بالتمر والسمن]، فعبدوه دهرًا طويلًا، ثم أصابتهم مجاعة، فأكلوه، فقال رجل من بني تميم يعيرهم بذلك:

أكلت رها حنيفة من جو ع قديم بها ومن إعواز
وقال فيهم آخر:

أكلت حنيفة رها زمن التقحم والمجاعة
لم يحذروا من رهم سوء العواقب والتباعة

[المعارف]

وهناك قصة الرجل الذي قال شعرًا في صنمهم عندما رأى ثعلبين يبولان عليه [ابن سعد]، وقصة عمر بن الخطاب الذي أكل صنمه من العجوة عندما جاع... إلخ، وهي قصص وإن لم يثبت بعضها حديثًا إلا أنها تصور الحالة التي كان عليها العرب في جاهليتهم. ظهرت في بلاد العرب إلى جانب عبادة الأصنام، عبادة النجوم والكواكب، خاصة في حوران والبحرين والبادية. ويقال: إنه كان بمكة رجل يدعى (أبو كبشة) عبد نجمًا



اسمه (الشعري)، ودعا قريشاً إلى عبادته. وانتشرت هذه العبادة بين بعض قبائل لخم وخزاعة وقريش. وعندما دعا الرسول ﷺ إلى عبادة الله وحده سموه ابن أبي كبشة لمخالفته إياهم في العبادة كما خالفهم في عبادتهم من قبله ابن أبي كبشة [بلوغ الأرب].

وعبدت الشمس في بلاد اليمن، وفي ذلك قال تعالى في قصة ملكة سبأ: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ

أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: ٢٣-٢٤].

وتسربت بعض فرق المجوسية الفارسية إلى بلاد العرب. وفي ذلك يقول ابن قتيبة [في المعارف]: (وكانت المجوسية في تميم، منهم زرارة وحاجب بن زرارة... وكانت الزندقة في قريش، أخذوها من الحيرة). وكان الأقرع بن حابس وأبو سود - جد وكيع ابن حسان - ممن دان بالمجوسية [نفسه]، وتسربت إلى هجر [البخاري] من البحرين. وكانوا يقولون: إن قتل عدوهم على أرضهم ينجسها عليهم [الحاكم، صحيح].

ودخلت اليهودية بلاد العرب بصفة عامة والمدينة وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء [بأتي خبرهم] بصفة خاصة عندما نزح إليها اليهود. ووصلت إلى اليمن، ودان بها ذو نواس الملك الحميري، وحاول حمل النصارى على اعتناقها كما ذكرنا سابقاً. وانتشرت في بني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة، وربما وصلتهم من يهود يثرب وخيبر [بلوغ الأرب].

وتسربت المسيحية إلى الغساسنة والمناذرة، ومن أشهر الأديرة في الحيرة: (دير هند الأقدم، ودير اللج، ودير حارة مريم) (معجم ما استعجم). وتسربت إلى جنوبي الجزيرة العربية، وأنشئت كنيسة بظفار وأخرى بعدن [بلوغ الأرب]، ولنصارى نجران قصة مع الرسول ﷺ في مكة وأخرى بالمدينة. سيأتي ذكرها.



ودانت بعض قبائل قريش بالمسيحية، منها: بنو أسد بن عبد العزى. كما اعتنقها بنو امرئ القيس بن تميم، وبنو تغلب بن ربيعة، وبعض قبائل قضاة، وكأنهم تلقوا ذلك عن الروم [اليقوي]. ومن تنصر بنصرانية محرقة من العرب: عدي بن حاتم الطائي [البخاري. أحمد، حسن].

لم تنتشر اليهودية والنصرانية انتشاراً واسعاً في بلاد العرب كما هو واضح من تاريخها وسيرتها وسط القبائل والأفراد. ولم تندثر تماماً ديانة إبراهيم عليه السلام بل تمسك بها نفر قليل جداً وسط دياجير ظلام الجاهلية وعبادة الأوثان. وعرف هؤلاء النفر بالحنفيين أو الحنفاء، فقد كانوا يؤمنون بالله تعالى ويوحدونه، توحيد ألوهية وتوحيد ربوبية، وينتظرون النبوة [بلوغ الأرب].

وكان من مشاهير هؤلاء الحنفاء: قس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نُفيل، وأمّية بن أبي الصَّلْت، وأبو قيس بن أبي أنس، وخالد بن سنان، والنابعة الذبياني، وزُهَيْر بن أبي سُلمى، وكعب بن لؤي بن غالب - أحد أجداد النبي ﷺ [البداية].

وقد سموا بالحنفاء نسبة إلى ما وصف به دين إبراهيم في القرآن الكريم ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَفَاكِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٧٩]، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٧] [آل عمران: ٦٧]، ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٥] [آل عمران: ٩٥].

ولنقف وقفة قصيرة مع أشهر هؤلاء الحنفاء، لإلقاء بعض الضوء على سيرهم ومعتقداتهم:

١ - محمد ﷺ:

من المعلوم بداهة أن الرسول ﷺ كان على رأس أشهر الحنفاء والشاهد سيرته.



٢- زيد بن عمرو بن نفيل:

روى ابن إسحاق [كما في البداية، بسند حسن]، بإسناده إلى أسماء بنت أبي بكر، قالت: «لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة، يقول: «يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري». ثم يقول: «اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم». ثم يسجد على راحلته. وكان يصلي إلى الكعبة ويقول: «إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم».

وكان يحبي المؤودة، ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: «لا تقتلها، أنا أكفيك مؤونتها، فياخذها»، فإذا ترعرعت قال لأبيها: «إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها» [صحيح البخاري].

وروى البخاري عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن دين صحيح يتبعه، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم، لعله يتبعه، فقال له اليهودي: (إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله). قال زيد: «وما أفر إلا من غضب الله تعالى ولا أحمل من غضب الله شيئاً ولا أستطيع، فهل تدلني على غيره؟» قال: (ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً). قال زيد: «وما الحنيف؟» قال: (دين إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله). فخرج زيد، فلقي عالماً نصرانياً، فدار بينهما مثل ما دار بينه وبين اليهودي. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم، خرج، فلما برز رفع يديه فقال: «اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم».

وكان زيد يرفض الأكل من ذبائح قريش، ويقول: «إني لست أكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا أكل إلا ما ذكر اسم الله عليه»، ويعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: «الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟»، إنكاراً لذلك وإعظاماً له [البخاري].



ورويت أحاديث أخرى من طرق ضعيفة، لكنها تعضد وتتقوى بعضها ببعض وبأحاديث البخاري، فترتفع إلى درجة الحسن لغيره، دلت على أن زيدًا كان يبحث عن الدين الصحيح، وأخيرًا استقر على دين إبراهيم عليه السلام [البداية؛ ابن سعد].

ولهذا قال عنه الرسول ﷺ: «يُحْشَرُ ذَاكَ أُمَّةٌ وَحْدَهُ بَيْنِي وَبَيْنَ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ» [البداية؛ جيد حسن]. وقال: «دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو دوحتين» [البداية، جيد].
لقد لقي زيد بن نفيل الرسول ﷺ ومات قبل أن يبعث الرسول ﷺ [البخاري].

٣- ورقة بن نوفل:

روي أنه خرج مع زيد بن نفيل يبحث عن دين صحيح يتبعه، وبعد البحث تنصّر ورقة، ولم يرتض زيد سوى دين إبراهيم عليه السلام [الطيالسي، يتقوى].
قال النبي ﷺ يومًا لخديجة رضي الله عنها إنه يرى ضوءًا ويخشى أن يكون به جنن، فطمأنته، ثم أتت به ورقة، وذكرت له ما يقع له، فقال ورقة: «إن يك صادقًا فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي فسأعززه وأنصره وأؤمن به» [أحمد، مرسل حسن].
وسياتي خبره والآثار الواردة في إسلامه عند الكلام عن بداية نزول الوحي على الرسول ﷺ والمسلمين الأوائل، وله أبيات شعرية رائعة في التوحيد والبعث [ابن إسحاق في السيرة].

٤- قس بن ساعدة الإيادي:

روي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وغيره أنه عندما قدم وفد إياد على الرسول ﷺ سأله عن قس بن ساعدة، فذكروا له أنه هلك. فقال النبي ﷺ: «لقد شهدته يومًا بعكاظ على جبل أحمر يتكلم بكلام مُعْجِبٍ مُؤْنِقٍ لا أجِدُنِي أَحْفَظُهُ». فذكر أحد أفراد الوفد أنه يحفظه، فهو: «يا معشر الناس اجتمعوا، فكل من مات فات، وكل شيء آت



آت، ليل داج وسهاء ذات أبراج، وبحر عجاج، نجوم تزهّر، وجبال مرسية، وأنهار مجرية، إن في السماء خبراً، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا، أقسم قس بالله قسماً لا ريب فيه، إن الله ديناً هو أرضى من دينكم هذا» وأنشد في ذلك شعراً.

وروى ابن عباس أنه عندما قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ سألهم عن قس، فقالوا: «هلك». قال: «...» فذكر كلاماً بنحو ما جاء في رواية ابن الصامت [البداية].

وروى ابن كثير [البداية، يعتضد] والبيهقي [الدلائل] أحاديث أخرى بهذا المعنى في قصة قس وتعبده بالحنيفية وأقواله، وأشعاره في ذلك، دلت على أن لقصته أصلاً تاريخياً، كما ذكر ابن كثير والبيهقي.

٥- أمية بن أبي الصلت:

هو الذي قال فيه الرسول ﷺ: «كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم» [متفق عليه]. وفي رواية: «فلقد كاد أن يسلم في شعره» [مسلم]. ويقال إنه ممن دخل في النصرانية وأكثر في شعره من ذكر التوحيد والبعث يوم القيامة [ابن إسحاق، الفتح]، فقد كان من فحول الشعراء [ابن إسحاق، مسلم]، عاش إلى زمان البعثة ولم يؤمن تكبراً على أن يكون تابعاً للرسول ﷺ [الطبري: التفسير]، وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] [ابن مردويه، بسند قوي كما في الفتح].

قيل إنه مات سنة تسع، وقيل سنة اثنتين [ابن حجر]، وله شعر في رثاء قتلى قريش يوم بدر الكبرى [ابن إسحاق].

٦- لبید بن ربیعۃ العامري ثم الكلابي ثم الجعفري:

كان من فحول شعراء الجاهلية، ومن شعراء المعلقات. قال الرسول ﷺ عنه: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبید: ألا كل شيء ما خلا الله باطل» [متفق عليه].



وله قصة مع عثمان بن مظعون، وسنذكرها عند الكلام عن أساليب حرب المشرّكين للدعوة - الأسلوب العاشر.

وقد أسلم ليبد، ومات في خلافة عثمان رضي الله عنه، بعد أن عاش مائة وخمسين عامًا، وقيل أكثر [الفتح].

ومن ذكر من مشاهير الخنفاء غير هؤلاء: أرباب بن رثاب، والشاعر سويد بن عامر المصطلق، وأسعد أبو كرب الحميري، ووكيعة بن سلمة بن زهير الإيادي، وعمير بن حنبل الجهنمي، وعدي بن زيد العبادي - تنصر -، وأبو قيس صرة ابن أبي أنس البخاري، وسيف بن ذي يزن الحميري، وعامر بن الظرب العدواني، والشاعر عبد الطانجة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة، وعلاف بن شهاب التميمي، والمتمسك ابن أمية الكناني، والشاعر زهير بن أبي سلمى، وخالد بن سنان بن غيث العبسي، وعبد الله القضاعي، وعبيد بن الأبرص الأسدي، وكعب بن لؤي بن غالب القرشي أحد أجداد النبي ﷺ [بلوغ الأرب]، وعثمان بن الحويرث، الذي رحل في طلب الدين، فاستقر به المقام عند قيصر، فتنصر وأقام عنده بأحسن مقام [ابن إسحاق في السيرة]، وعمرو ابن عبسة السلمي، الذي أكرمه الله بالإسلام [تاريخ الطبري، صحيح]، وأكثم ابن صيفي بن رباح [البلوغ]، وعبد المطلب - جد النبي ﷺ [مروج الذهب، الملل والنحل] -.

ثالثاً: الحياة الاجتماعية عند العرب في الجزيرة العربية؛

إن الحياة الاجتماعية في أي مجتمع من المجتمعات لا تكاد تنفصل عن الحياة الدينية والاقتصادية، ولأن الوثنية التي سادت بين العرب كانت ضد الفطرة والمنطق، فقد نتج عن ذلك مظاهر اجتماعية ضد الفطرة والمنطق.

ومن بين تلك المظاهر: الانحطاط الأخلاقي، الذي تمثل في ممارسة كثير من الرذائل، مثل شرب الخمر ولعب الميسر، والزواج بغير عدد، وقتل بعضهم الأولاد



خشية الفقر أو بسبب الفقر، وقتل بعضهم الإناث بالذات خوف العار، وإثارة الحروب لأتفه الأسباب، وأخذ الثأر، وقد حكى عنهم الله تعالى كل هذه الرذائل في القرآن الكريم، وعلى لسان رسوله، وعابها عليهم، وظل الرسول ﷺ يجارها طوال حياته كما هو معروف، ومثال ذلك: ما قاله ابن عباس. إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرا ما فوق الثلاثين ومئة من سورة الأنعام. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْنُوءُ دَةُ سِيلَتْ ۖ يَأْتِي زُنُبٌ قُلْتُ ۖ﴾ [التكوير: ٨-٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ۖ وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ۖ وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [٥٨]، يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْخَلْقُ وَالْبَيْسُ وَالْأَفْصَابُ ۚ وَالَّذِينَ لَا يَرْضَوْنَ عَمَلَ الشَّيْطَانِ فَاجْتَبَوْهُ لِمَلَائِكَةٍ يُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١].

وسادت في بعض أوساط غير الأشراف أنواع من الأنكحة التي لا تختلف عن الدعارة. فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فكان منها نكاح الناس اليوم... ونكاح الاستبضاع، وهو أن يصيب الرجل الأجنبية امرأة غيره في طهر لم يجامعها فيه زوجها ولا يقربها زوجها حتى يتبين حملها، ونكاح الرهط، وهو أن يجتمع الرهط دون العشرة، فيصيب كل منهم المرأة، فعندما تضع حملها ترسل إليهم فيجتمعون عندها، فتلحق المولود بمن تريد منهم، ونكاح رابع، وهو أن يجتمع الرجال الكثير على المرأة التي تنصب راية في بيتها، فإذا حملت فوضعت حملها جُمعوا لها، ودعوا لهم القافة (جمع قائف)، وهو الذي يعرف شبه الولد بالآثار الخفية)، ثم ألحقوا ولدها بالذي يروونه أكثر شَبَهًا به، وقد أبطل الإسلام



كل هذه الأنكحة ما عدا نكاح الناس اليوم»، ولم يكن يحس بعضهم بعار هذه الممارسات، فقد روى الشيخان أن رجلاً قام فقال: يا رسول الله: إن فلاناً ابني، عاهرت بأمه في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «لا دعوة في الإسلام. ذهب أمر الجاهلية. الولد للفراش وللعاهر الحجر».

وسياقي ذكر قصة اختصام سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في ابن أمة زمعة - وهو عبد الرحمن بن زمعة - في فقه عمرة القضاء.

وكانوا يجمعون بين الأختين، ويتزوجون بزوجات آبائهم إذا طلقت أو ماتوا عنهن وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]، ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٢].

ولم يكن للطلاق عدد معين [أبو داود، صحيح]، فحدده الإسلام بثلاث، كما في قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وعلى الرغم من وجود هذه الأمراض الخلقية عند عرب الجاهلية إلا أن هناك جوانب مضيئة في حياتهم السياسية والاجتماعية لا يمكن إنكارها، ولعلها كانت سبباً في اختيار الله تعالى لهم لحمل رسالته إلى العالمين، ومثال ذلك أن جاهليتهم لم تكن مركبة تقوم على فلسفة معقدة يصعب إزالتها، كما كان الحال في المجتمعات الأخرى المجاورة، وكانوا أصحاب عزيمة قوية يصدقون عندما يؤمنون، وقد وصفهم القرآن بهذا في قوله تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وكان كثير منهم يتمسك بالفضائل ويقدرّون من يتصف بمكارم الأخلاق، كما كان موقفهم من الرسول ﷺ في هذا الجانب بالذات، وهو موقف عبر عنه أبو سيفان في حديثه المشهور لهرقل، كما سياقي.



وكانوا من أصفى الناس ذهناً، وتحكى في ذلك الحقائق والغرائب، فقد ذكر ابن عبد البر [جامع بيان العلم]، أن ابن شهاب الزهري كان يقول: (إني لأمر بالبقيع فأسد آذاني مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا) (الكلام الفاحش) فوالله ما دخل آذني شيء قط فنسيته). وقال ابن عبد البر [نفسه] أيضاً: (كان أحدهم يحفظ أشعار بعض في سمعه واحدة. وقد جاء أن ابن عباس رضي الله عنه حفظ قصيدة عمر بن أبي ربيعة:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجـر
في سمعة واحدة على ما ذكروا، وليس أحد اليوم على هذا، ولولا الكتاب لضاع كثير من العلم...).

وليس بعد هذا يستغرب عدد الأحاديث التي رواها ابن عباس وأبو هريرة، وابن مسعود، وعائشة رضي الله عنهن. فقد روى أبو هريرة خمسة آلاف حديث وثلاثمئة وأربعة وسبعين حديثاً، وروى عبد الله بن عمر ألفي حديث وستمئة وثلاثين حديثاً... إلخ [ابن حزم: جوامع السيرة].

وكانوا يحبون الحرية، ولم يعرفوا الخضوع إلا لذوي الأسنان منهم، ممن تتوافر فيهم شروط النجدة، والبسالة، والرجولة، والصبر، والحلم، والأناة، وكل خصال الخير. ومع عبادتهم الأوثان، فقد كانوا لا ينكرون وجود الله تعالى، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

ويعرف هذا بتوحيد الربوبية، وهو الاعتقاد الجازم بأن الله ﷻ رب كل شيء وخالقه ومليكه.

وكانوا أصحاب لغة واحدة، ذات سحر وبيان، عبرت عن الإسلام أحسن تعبير.



٢- في خارج الجزيرة العربية:

أ - جوانب من الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في ظل اليهودية:

أولاً: جوانب من الحياة الدينية:

لقد تعرضت الديانتان السماويتان اليهودية والنصرانية إلى تحريف وتبديل، ومن ثم فقدتا الروح، ولم تعودا تمثلان دورهما الأساس في إصلاح الناس الذين جاءتا من أجلهم.

فاليهودية، بالإضافة إلى التحريف الذي حدث في أصولها، كانت ديانة أراد الله أن تكون لبني إسرائيل خاصة. غير أنها أصيبت في عقيدة التوحيد التي فضل الله بها بني إسرائيل على أهل زمانهم، إذ اقتبس اليهود كثيرًا من العقائد والتقاليد الوثنية الجاهلية للأمم التي جاؤوها أو سيطروا عليها أو عاشوا وسطها. وقد اعترف بهذه الحقيقة مؤرخو اليهود المنصفون. ومثال ذلك ما جاء في دائرة المعارف اليهودية ما معناه:

(إن سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان تدل على أن عبادة الأوثان والآلهة كانت قد تسربت إلى نفوس الإسرائيليين، ولم تستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد قبلوا معتقدات خرافية ومشركة، وإن التلمود أيضًا يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود...).

هذا بالإضافة إلى أن توراتهم وتلمودهم قد طفحوا بأوصاف ونعوت لا تليق بذات الله ووحيه وأنبيائه ورسالاتهم.

فتراهم في توراتهم المحرفة وعهدهم القديم - مثلاً - يذكر أن الله قد تعب في اليوم السادس وهو يخلق الكون، واستراح في اليوم السابع، وبارك اليوم السابع وقدهس لأنه استراح فيه من جميع أعماله. ولذلك كان تحريم اليهود للعمل يوم السبت.

وجاء في عهدهم القديم في قصة آدم وزوجه حواء عليهما السلام: (وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة، عند هبوب رياح النهار، فاختم آدم وامرأته من وجه الرب



الإله في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاخبتأت. فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟..).

وهكذا يصورون الله وكأنه بشر لا يعرف ما يحدث في حديقة منزله.

وقد أعقب هذا قولهم: إن آدم عندما أكل من شجرة المعرفة ارتفع بهذا العصيان إلى مراتب الآلهة، وأدرك الخير والشر، على الرغم من أن الرب عندما خلقه كان حريصاً على بقاءه جاهلاً بهما. وعندما خشي الرب على ازدياد تمرد آدم واستفحال أمره، أخرجه وزوجه من الجنة حتى لا تمتد أيديهما إلى شجرة الحياة فيكتب لهما الخلود. ولم ترضه أيضاً سيرة آدم وأبنائه في الأرض، لأنه فوجئ بهم يملؤونها بالشرور والآثام، فحزن وتأسف على خلقهم.

والله في كتابهم المقدس يندم على إغراق الأرض بالطوفان. ويقبل ضيافة نبيه إبراهيم عليه السلام ويأتي إلى منزله بصحبة اثنين من ملائكته ويأكلون من مائدة إبراهيم عليه السلام الدسمة.

والله في توراتهم المحرفة يدخل في عراك ومصارعة مع عبده ونبيه يعقوب، دامت ليلة كاملة. وعندما أوشك يعقوب أن ينتصر عليه، لجأ إلى خدعة مكنته من كسب الجولة والغلبة، وهي أنه ضرب حُقّ (الثقرة التي فيهارأس الفخذ) فخذ يعقوب حتى انخلع. وعلى الرغم من ذلك لم يتركه يعقوب إلا بعد أن باركه ونال منه لقب إسرائيل.

والله ﷻ في توراتهم إله خاص بهم: لا يجب غيرهم، لأنهم شعبه المختار. وأمّا الأمم الأخرى فهي كالأنعام لا يأبه بها الإله. وبينون كراهيتهم للأجناس الأخرى، وعلى رأسهم العرب، على أساس من دينهم المحرف. فتراهم يذكرون في توراتهم قصة



يزعمون فيها أن نوحًا - نبي الله تعالى - سكر حتى استلقى وانكشفت سواته، ولما رآه ابنه حام - أبو كنعان - ضحك منه وفضحه عند أخويه سام وياث، اللذين ستراه دون النظر إلى عورته. وعندما أفاق نوح من سكرته، وعلم بما حدث من ابنه الأصغر حام، استنزل عليه لعنة الله قائلاً: (ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته. مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبدًا لهم، ليفتح الله لياث، فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبدًا لهم..). وظهر في هذه القصة إرادة اليهود استعباد الكنعانيين أبناء حام - وهم لا ذنب لهم - وتزكية الإسرائيليين أبناء سام.

وكما صور اليهود نوحًا سكيرًا ليصلوا إلى أهداف معينة، تراهم أيضًا يصورون لوطًا عليه السلام سكيرًا وعاهرًا يزني بابنتيه في حالة سكر، وتحبلان منه وتلدان. وزعموا أن ابن البنت البكر عرف بـ (مؤاب)، أبو المؤابيين إلى اليوم، ليصلوا بذلك إلى هدف واضح أيضًا وهو تجريح أعدائهم المؤابيين، وكل ذلك باسم الوحي.

وصدق الله العظيم الذي قال في القرآن الكريم:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨].
﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَّهُمْ مِمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ وَقَوْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

وتدعي توراتهم أن كل النساء غير اليهوديات مومسات. ويستحق القتل كل الجويم - غير اليهود - أو العبيد أو الحمير حتى ذوو الفضل منهم. وأن من يقتل غير اليهودي يقدم قربانًا للرب [د. عويس: ثقافة المسلم...].

هل يمكن أن يكون هذا كتابًا إلهيًا مقدسًا لتعريف البشر بالله ﷻ وهدايتهم إلى طريقه؟!



إن هذا الاعتقاد الباطل هو الذي جعلهم لا يبالون بكل القيم في سبيل الوصول إلى أهدافهم كما هو واضح من بروتوكولات حكماء صهيون. ولا يبالون في وصف أنبياء الله ﷺ بأوصاف لا تليق بهم كما قلنا. فها هم مثلاً - يصورون إبراهيم عليه السلام ديوثاً في سبيل حرصه على الحياة والمنافع الدنيوية.

فيذكرون في توراتهم أنه أغرى زوجته سارة بالذهاب إلى بيت فرعون بصفتها أخت إبراهيم من أجل الحصول على حظيرة من الغنم والحمير، قال لها: «قولي إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك..» [نفسه].

ويصورون يعقوب ﷺ بأنه محتال، سرق النبوة من أخيه البكر بأسلوب قذر.

ويصورون ابنة يعقوب ﷺ المسماة (دينة) بأنها زانية، زنا بها ابن رئيس المدينة المجاورة.

ويقولون في تلمودهم بأن عيسى بن مريم عليه السلام ابن غير شرعي، حملته أمه سفاحاً وهي حائض، من العسكري (باندارا)، وإنه كذاب ومجنون ومضلّل وساحر ومشعوذ ووثنّي. ووصف تلمودهم المسيحيين بأنهم ليسوا أكثر من خرق حيض المرأة التي تُرمى في القاذورات، وأنهم وثنيون وقتلة وفسقة وحيوانات قذرة وحمير وخنازير وكلاب.

ويصورون نبيهم داود عليه السلام يزني بامرأة أحد ضباطه، وتحبل منه، وذلك عندما رآها على السطوح فأعجبه جمالها، وأرسل زوجها الضابط إلى ميادين القتال ليهلك، ثم يتزوجها.

أي بشاعة هذه؟ إن هذا الكلام لا يمكن أو يعقل أن يكون من عند الله ﷻ، وبالتالي لا يمكن أن يكون صالحاً لهداية البشرية.

لقد حكى القرآن الكريم عن جوانب كثيرة من تفكير اليهود الديني وموقفهم من كتابهم ورسولهم. ومن ذلك ما حكاه عن:

ميلهم إلى الوثنية على الرغم من وجود نبيهم موسى عليه السلام بينهم، فقد قالوا له: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وعندما عاد إليهم موسى بعد ملاقة ربه، وجدهم عاكفين على عبادة عجل، قائلين: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩١].

وعدم تخليهم عن شغفهم بالوثنية بعد موسى ﷺ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿١١﴾ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٢-٩٣].

وذكر القرآن نوعاً من تعنتهم مع موسى عليه السلام ويتمثل ذلك في قولهم له: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَكَ جَاهِلٌ مِنْ عِنْدِ آلِهَةٍ قَدْ قَالَ إِنَّهُ مُوسَى رَسُولُ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٣]. وذكر نوعاً من سوء أدبهم مع الله، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدْعَى اللَّهُ مَغْلُولَةً غَلَتْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: ٦٤].

ونسبهم بنوة البشر لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. وألّهُوا أحبارهم، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وعدم تورعهم في تحريف كلام الله ﷻ كما حكى عنهم القرآن الكريم في الآية: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، وفي الآية: ﴿أَفَنْظَمُونَ أَنْ يُؤْمُوا بِكُلِّ كَلَمٍ مِنْهُ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].



ومما حكاه القرآن الكريم عن موقفهم من رسلهم قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقوله: ﴿فَلَمَّ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

ويتضح لك مما سقناه من أدلة من كتب اليهود ومن كتاب الله تعالى إلى أي درك وصلت هذه الديانة على أيدي هؤلاء البشر.

ثانياً: جوانب من الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات اليهودية:

إن الله تعالى لا يرضى لدينه أن يكون عنصرياً بعيداً عن الإنسانية، ولكن اليهود بدلوا دين الله ﷻ وجعلوه عنصرياً لا يحمل للإنسانية رحمة، وافتروا على أنبياء الله تعالى ووصفهم بكل النقائص والردائل البشرية كما رأينا. ولهذا فلا غرابة أن يعيشوا في صراع وفتن مع الشعوب غير اليهودية إلى يومنا هذا.

ففي القرن السابع الميلادي بالذات، أوقعوا بين النصارى في أنطاكية والقائد الفارسي فوكاس، مما ترتب عليه وقوع مذابح فظيعة في نصارى أنطاكية. وساعدوا جيوش الفرس في محاربة نصارى الشام، وقتلوا بأنفسهم النصارى في الشام مثلما حدث في صور. وكان جزاؤهم أن عاقبهم هرقل ملك الروم عقوبة قاسية عندما علم بما ارتكبه من مآسٍ في حق النصارى بالشام [خطط المقرئ].

لقد وصفهم القرآن الكريم وصفاً دقيقاً، يصور ما كانوا عليه في القرنين السادس والسابع الميلاديين من تدهور خلقي وانحطاط نفسي وفساد اجتماعي، جعلهم غير أهل لإمامة الأمم وقيادتها. ومن ذلك قول الله تعالى فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].



وقد ذاق العرب في يثرب (طيبة، المدينة، طابة) الويلات نتيجة لحرص اليهود على إثارة الفرقة والحروب بين الأوس والخزرج، واحتكارهم التجارة، وتسخير العرب في مصالحهم الاقتصادية. وعادوا الرسول ﷺ وكادوا له كيدًا عظيمًا، ومكروا به كثيرًا، ولكن الله ﷻ مكرهم، وكانت مشيئة الله أن أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة، وأجلاهم عمر بن الخطاب عن الجزيرة العربية تنظيمًا للمجتمع الإسلامي من شروهم وآثامهم.

ب - جوانب من الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في ظل المسيحية؛ أولاً: الحياة الدينية؛

وكذلك المسيحية؛ فبالإضافة إلى ما لحق بها من تحريف، فقد شابتها ألوان شتى من الوثنية والخرافات اليونانية والرومانية، اضمحلت في جانبها تعاليم المسيح الميسرة، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية تحول بين الإنسان والعلم والفكر والمنطق.

ومن الأدلة الواضحة على ذلك ما ذكره باكستر الأوروبي Rev. James Houstom Baxter: History of Chrisianity in the Light of Modern Knowledge Glasgo, ١٩٢٦, p.٤٠٧ [نقلًا عن د. الفرت في بحثه المشار إليه سابقًا]، والذي ترجمته:

(لقد انتهت الوثنية، ولكنها لم تلق إبادة كاملة، بل إنها تغلغت في النفوس واستمر كل شيء فيها باسم المسيحية وفي ستارها، فالذين تجردوا عن آلهتهم وأبطالهم وتخلوا عنهم أخذوا شهيدًا من شهادتهم ولقبوه بأوصاف الآلهة، ثم صنعوا له تماثلاً. وهكذا انتقل الشرك وعبادة الأوثان إلى هؤلاء الشهداء المحليين، ولم ينته هذا القرن حتى عمت فيه عبادة الشهداء والأولياء، وتكونت عقيدة جديدة وهي أن الأولياء يحملون صفات الألوهية، وصار هؤلاء الأولياء والقديسون خلقًا وسطًا بين الله والإنسان، ويحمل صفة الألوهية على أساس عقائد الأريسيين (يأتي شرحها في كتابه ﷺ إلى قيصر) وأصبحوا رمزًا



لقداسة القرون الوسطى ووعيتها وطهرها. وغيرت أسماء الأعياد الوثنية بأسماء جديدة، حتى تحول في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح).

وما ذكره الدكتور أبو الغيط في كلامه عن الوثنية في المسيحية ختمه بقوله:

(.. وهكذا كانت عبادة الأوثان في عصور الاضطهاد هذه يرتفع سوقها وينخفض تبعاً لتأييد النصارى للحكام الرومانيين وإقبالهم على تلبية رغباتهم في الولاء لتمثال القيصر، ومن يتباطأ عن ذلك كان مصيره الحرق والهدم والتدمير كما يقول بذلك التاريخ المسيحي كله، حتى طأطأت المسيحية رأسها أخيراً للوثنية وغطرستها بعد طول التجاذب والصراع بينهما، فحيثما دخلت المسيحية بلدًا ووجدت أهلها مقيمين على الوثنية أقروهم على عبادتهم بالإضافة إلى المعتقدات المسيحية).

وابتدع النصارى الرهبانية، وأدخلوا في أناجيلهم ما لا تستسيغه الأفهام. فابن حزم [الفصل] - أحد رواد علم مقارنة الأديان - انتهى إلى نتائج خطيرة عندما درس المصادر الأصلية للمسيحية. ومن مناقشاته للنصارى في عقيدتهم قوله:

(.. وقالت (اليقوبية): إن المسيح هو الله تعالى نفسه، وإن الله - تعالى عن كفرهم - مات وصلب وقتل، وإن العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبر، والفلك بلا مدبر، ثم قام ورجع كما كان. وإن الله تعالى عاد محدثًا، وإن المحدث عاد قديمًا، وإنه سبحانه تعالى هو كان في بطن مريم محمولًا به..).

(ولولا أن الله تعالى وصف قولهم في كتابه العزيز إذ يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢] وإذ يقول تعالى حاكياً عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وإذ يقول تعالى: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا مِنِّي آلِهَتِينَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾

[المائدة: ١١٦].



لولا ذلك لما انطلق لسان مؤمن بحكاية هذا القول العظيم الشنيع السمج السخيف. وتالله لولا أننا شاهدنا النصاري ما صدقنا أن في العالم عقلاً يسع هذا الجنون. ونعوذ بالله من الخذلان...).

ويقول في دحض هذا القول:

(.. ويلزم هؤلاء القوم أن يعرفونا من دبر السماوات والأرض، وأدار الفلك هذه الثلاثة الأيام التي كان فيها ميتاً... ثم يقال للقائلين بأن البارئ تعالى ثلاثة أشياء أب وابن وروح القدس. أخبرونا إذ هذه الأشياء لم تزل كلها وأنها مع ذلك شيء واحد إن كان ذلك كما ذكرتم فبأي معنى استحق أن يكون أحدهما يسمى أباً والثاني ابناً وأنتم تقولون إن الثلاثة واحد، وإن كان منها هو الآخر فالأب هو الابن والابن هو الأب وهذا هو عين التخليط. وإنجيلهم يبطل هذا بقولهم فيه: (سأقعد عن يمين أبي)، وبقولهم: إن القيامة لا يعلمها إلا الأب وحده، وإن الابن لا يعلمها، فهذا يوجب أن الابن ليس هو الأب... وإن كانت الثلاثة متغايرة - وهم لا يقولون بهذا - فيلزمهم أن يكون في الابن معنى من الضعف أو من الحدوث أو من النقص، به وجب أن ينحط عن درجة الأب. والنقص ليس من صفة الذي لم يزل...).

وخلاصة قول ابن حزم في عقيدتهم التي جاءت في أناجيلهم: (فهذه سبعون فصلاً من أناجيلهم من كذب بحت ومناقضة لا حيلة فيها، ومنها فصول يجمع الفصل من ثلاث كذبات فأقل على قلة مقدار أناجيلهم).

وجملة أمرهم في المسيح عليه السلام أنه مرة بنص أناجيلهم ابن الله ومرة هو ابن يوسف وابن داود وابن الإنسان، ومرة هو إله يخلق ويرزق، ومرة هو خروف الله، ومرة هو في الله والله فيه، ومرة هو في تلاميذه وتلاميذه فيه، ومرة هو علم الله وقدرته،



ومرة لا يحتكم على أحد ولا ينفذ إرادته، ومرة هو نبي و غلام الله، ومرة أسلمه الله إلى أعدائه، ومرة قد انعزل الله له عن الملك وتولاه هو وصار يولي أصحابه خطة التحريم والتحليل في السموات والأرض، ومرة يجوع ويطلب ما يأكل ويعطش ويشرب ويعرق من الخوف ويلعن الشجرة إذا لم يجد فيها تيناً يأكله، ويفشل فيركب حماره ويأخذ ويلطم وجهه ويضرب رأسه بالقصبة، ويزق في وجهه ويضرب ظهره بالسياط ويميته الشرط، ويتهمون به ويسقى الخل في الحنظل ويصلب بين سارقين ويسمر يدها ومات الساعة ودفن ثم يحيا بعد الموت ولم يكن له هم إذا حيي بعد الموت واجتمع بأصحابه إلا طلب ما يأكل فأطعموه الخبز والحوت المشوي، وسقوه العسل، ثم انطلق إلى شغله..).

ثم أخذ ابن حزم في بيان الكذب والكفر والهوس الذي جاء في كتبهم غير الأنجيل. إن هذا المآل الذي آلت إليه المسيحية واليهودية، اقتضى أن يرسل الله ﷺ رسولا آخر، هو محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، لإنقاذ البشرية من هذا الضلال، ويكون الدين الخاتم لكل البشرية بعد أن أعدت لتلقيه.

ثانياً: الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات النصرانية:

حل القرن السادس الميلادي والحرب قائمة بين نصارى الشام والدولة الرومانية وبين نصارى مصر، أو بين الملكانية - التي يمثلها حزب الدولة - والمنوفيسية - التي يمثلها حزب القبط - بعبارة أخرى، وذلك لاختلافهم حول حقيقة وطبيعة المسيح ﷺ، إذ يعتقد الملكانية في ازدواج طبيعة المسيح بينما يعتقد المنوفيسيون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة. وأصبح العالم المسيحي في شغل بنفسه عن محاربة الفساد والإصلاح ودعوة الأمم إلى الخير. وابتلي القبط بمصر لاعتقادهم المخالف لاعتقاد الدولة.

وفي الدولة الرومانية الشرقية - بالذات - ساءت أحوال الناس حتى فضلوا الحكومات الأجنبية على حكوماتهم. وقامت فتن وثورات.



وقد هلك في عام ٥٣٢ م - مثلاً - في اضطراب واحد ثلاثون ألف شخص في القسطنطينية. وأمعنوا في أساليب التسلية التي وصلت إلى حد الوحشية.

وفي مصر البيزنطية ساد الاضطهاد الديني والاستبداد السياسي والبؤس والفقر، إذ كانت شاتهم الحلوب التي يحسنون حلها ويسئون علفها. ولم ينقذ المصريين من هذا الحال إلا المسلمون، كما يعترف بذلك من ينتسبون إلى النصرانية، أمثال غوستاف لوبون [في حضارة العرب].

وفي سورية البيزنطية سادت المظالم إلى الحد الذي اضطّر كثيرًا من السوريين لبيع أبنائهم ليوفوا ديونهم [خطط الشام].

أما الأمم الأوروبية في الغرب والشمال فكانت تعيش حروبًا دامية وجهلاً مطبقًا وغلوًا في الدين. وكانوا يبحثون في قضايا مثل: هل المرأة حيوان أم إنسان، وهل لها روح خالدة أم لا؟ وهل لها حق الملكية والبيع والشراء؟... إلخ.

**ج - جوانب من الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في ظل المجوسية؛
أولاً: الحياة الدينية؛**

لقد شاع في إيران قبل ظهور زرادشت - نبي قدماء الإيرانيين -، الاعتقاد بألوهية (ميثرا) و(بيما) و(آشاه)، وظل ذلك حتى بعد ظهور الزرادشتية، التي تأثرت بهذه الديانة الوثنية القديمة، التي تقدس بعض عناصر الطبيعة، مثل: النار والكواكب، ويعبد فيها آلهة متعددة.

أما الزرادشتية في أصلها فقد كانت حربًا على عقيدة ميثرا وبيما وآشاه، تلك العقيدة الوثنية [الشهرستاني]، إذ كان من أبرز مبادئ الزرادشتية دعوة الناس إلى عبادة إله واحد وهجر الوثنية والصابئية التي كانت تتمثل في عبادة بعض الكواكب وغيرها من القوى الطبيعية [نفسه]، والدعوة إلى تقديس عنصرَي الشمس والنار على أنهما رمزان لتلك



القوة الواحدة التي لا تفتأ تفيض رحمة ونورًا وعطفًا وطهورًا، وتعمل على إنقاذ الإنسان من البلاء [نفسه]، وتقديس التراب والماء والهواء لأهميتهما في حياة الإنسان.

وبعد موت زرادشت، ظهرت فرقة المجوس الذين يعبدون النار ويرونها إلهًا ويستعملونها في شعائرهم الدينية، متناسين أنها كانت فقط رمزًا للضعفاء، حتى أصبحوا يعرفون بأنهم عبدة النار، وأحيانًا كهنة المجوسية. ومن الطقوس التي كانت موجودة من قبل زرادشت: عبادة الأصنام وتقديم القرابين، وبخاصة للإله (ميثرا) الذي أصبح أبرز الآلهة [آرثر].

ولما غزا الإسكندر المقدوني بلاد إيران في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، اختفت الزرادشتية ولم تظهر إلا بعد خمسة قرون عندما قامت الدولة الساسانية التي حاولت العودة إلى الزرادشتية باعتبارها جزءًا من تراث إيران، ولكن الزرادشتية الساسانية كانت بعيدة كل البعد عن اتجاهات زرادشت، وكانت تحقق أهداف الملوك وطغيان الكهنة.

وفي القرن الثالث بعد الميلاد ظهر (ماني) بمذهبه الذي كان مزيجًا من الزرادشتية والمسيحية والديسانية، وعده الزرادشتيون ملحدًا خارجًا عن الزرادشتية الدين الحق - أي عدوه زنديقًا - لأن ديانته ثنوية صريحة، إذ تقول بوجود كائن ثنائي الطبيعة، وبوجود مبدأ أو كائنين يسيطران على العالم، هما: مبدأ النور ومبدأ الظلام. الأول مصدر الخير والثاني مصدر الشر، ولكل منهما قدرة على الإدراك [الملل]. وعند امتزاج هذين الكائنين نشأ الكون بما فيه من ظواهر وحوادث وأجسام كثيفة وكائنات حية [نفسه]..

ويرون أن كل من يساعد على إطالة أمد امتزاج النور بالظلام هو شر كله، وفي مقدمة ذلك: الزواج والتناسل، ولذلك رأوا أن من الواجب أن يسلك الإنسان مسلك العزلة والرهبة وأن يقطع دابر التناسل حتى يفنى العالم المادي ويتخلص النور من الظلام.



وفي سنة ٢٧٦م، قتله الملك الإيراني (بهرام بن هرمز بن شاپور)، وقال عنه: (إن هذا الرجل قد جاء يدعو الناس إلى تدمير الكون، فالواجب أن يبدأ بتدمير نفسه) [الملل].

ومع هذا الاضطهاد، استمرت المانوية وتحولت إلى حركة سرية، وبقيت كذلك في الفترة الإسلامية [نفسه].

وظهر مَزْدَكُّ في أواخر القرن الخامس الميلادي (٤٧٨م)، وسار على تعاليم مَاني، معلناً شيوعية المال والنساء [نفسه؛ الغلو].

وأخذ الملك الإيراني قباد بآراء مزدك وطبقها في المجتمع في السنوات العشر الأولى من حكمه، وعندما وقف على بطلانها وحقيقتها تحول عنها وقتل مزدكاً وأوقع بأنصارها سنة ٥٢٩م، فتحولوا إلى العمل السري أيام الدولة الساسانية، ثم عادت إلى الظهور من جديد في العصور الإسلامية [الملل؛ الغلو].

وظهرت في إيران كذلك الديانة المرقونية - نسبة إلى واضع أسسها (مريقيون) [الملل، الغلو] وعقيدتها ثنوية، لزعمهم أن النور خالق الخير والظلمة خالقة الشر [نفساهما]. وتأثرت بالزرادشتية والنصرانية

وكذلك ظهرت في إيران الديانة الديصانية [نسبة إلى واضع أسسها ابن ديسان]. وهي من الديانات الثنوية. وذهبت إلى ما ذهبت إليه المرقونية من وجود عالم ثالث إضافة إلى النور والظلمة، مهمته أن يفصل بين عالم النور وعالم الظلمة، ولم توضح كيفية وجود هذا العالم الثالث [نفساهما].

وابن ديسان الذي تنسب إليه هذه النحلة أول من مهد لفكرة الحلول، حيث زعم أن نور الله قد حل في قلبه [نفساهما].



ثانياً: الحياة السياسية والاجتماعية في ظل المجوسية:

لقد شاع الفساد في إيران في ظل دياناتها الوثنية القديمة التي سبقت الزرادشتية، خاصة سكان البادية، فقد كان بعضهم يتعدى على بعض بالسلب والنهب وإزهاق الأرواح [زرادشت].

وعندما جاءت الزرادشتية حاولت القضاء على هذه المفاسد، ولكن إلى حين، وذلك لظهور عقائد أخرى مثل المانوية، والمزدكية.

وفي ظل المجوسية المنبثقة عن الزرادشتية، وفي ظل بقايا المانوية والمزدكية والديانات الإيرانية القديمة عاشت إيران في فوضى أخلاقية، وتشتت عقدي، وحروب دامية داخلية، وخارجية. فكثيراً ما كان مقدسو النار يهزمون عبدة المسيح وينهبون أموالهم ويأسرون منهم. وأحياناً كانت الدائرة تدور على الفرس - الإيرانيين - فيغلبهم الروم [تفسير ابن كثير].

وكان المجوس من الفرس لا يعبدون الإله الحق، ولم تتمكن الأخلاق الفاضلة في نفوسهم. وكان الأكاسرة يضطهدون الفرق الدينية المخالفة لهم في العقيدة.

ومن الممارسات الاجتماعية البارزة استحلال الزرادشتيين زواج المحارم، وقالوا: (الابن أحرى بتسكين شهوة أمه، وإذا مات الزوج فابنه أولى بالمرأة) [الغلو]، ولذلك تزوج ملكهم يزدجرد الثاني - حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي - ابنته، ثم قتلها. وتزوج بهرام جوبين - الذي ملك في القرن السادس الميلادي - بأخته [تاريخ الطبري].

وحظيت الدعوة المزدكية بتأييد الشباب والأغنياء والمترفين والطبقة العامة لما صادفته من هوى في نفوسهم، وحظيت بتأثير الحاكم كما قلنا لفترة، مما كان له أكبر الأثر في نشاطها. وانغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية [الملل].



وكان للإيرانيين اعتقاد في البوينات الروحية والأشراف من قومهم، إذ يرونهم فوق العامة في طيبتهم، وفوق مستوى الناس في عقولهم ونفوسهم، ويمنحونهم سلطة روحية لا حدَّ لها، ويخضعون لها خضوعًا كاملاً.

وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تمييزًا واضحًا. وكان لكل طبقة مركز محدد في المجتمع [ماذا خسر العالم؛ آرثر].

وكانوا يبالغون في تمجيد القومية الفارسية، ويرون أن لها فضلًا على سائر الأجناس والأمم، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحدًا. وكانوا ينظرون إلى الأمم من حولهم نظرة ازدراء وامتهان، ويلقبونها بالألقاب تدل على هذه النظرة [تاريخ الطبري].

ولما كانت النار لا توحى إلى عبادها بشريعة، ولا ترسل رسلاً، ولا تتدخل في شؤون حياتهم، ولا تعاقب العصاة المجرمين، فقد أصبحت الديانة عند المجوس - الذين حرفوا الزرادشتية الأصلية - عبارة عن طقوس وتقاليد تؤدي في أمكنة خاصة وفي ساعات خاصة. أما خارج المعابد، وفي دورهم وأماكن أعمالهم وفي الشارع وفي السياسة والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك، فقد كانوا أحرارًا، يسرون على هواهم شأن المشركين في كل عصر [الملل].

وهكذا حرمت الأمة الفارسية في حياتها - في ظل المجوسية - دينًا عميقًا جامعًا يكون مربيًا ومهذبًا وحاتًا على عمل الخيرات، ويكون نظامًا لكل أنشطة الإنسان والمجتمع والدولة، وحاتًا بين الناس وطغيان الأحكام [ماذا خسر العالم]. وهو ما وجدوه في ظل الإسلام.

وحرمت حكمًا رشيدًا لقمع الفساد، بل كان ملوكها عنصرًا أساسيًا من عناصر الإفساد، لأنهم تأهلوا عندما لم يعبد الناس إلا اله الحق. وتنافسوا على العرش حتى إن ستة



منهم تولوا العرش في أشهر قليلة، وبذلك تدهورت حتى قيمة العرش وأصبحت كل موارد البلاد ملكًا لملوكها الذين وصل بهم الترف والبذخ إلى حد خرافي، ومثال ذلك أن يزدجرد، آخر ملوكهم، عندما فر أمام الفتح الإسلامي، كان معه ألف طاه وألف مغن وألف قيم على النمر وألف قيم على البزاة، وحاشية أخرى، ومع ذلك كان يعتبر نفسه لاجئًا حقيرًا في حالة يرثى لها من قلة الحاشية وفقدان أسباب التسلية. وعاش الشعب في بؤس وشقاء تثقل كاهله الضرائب والحروب [آرثر، الطبري في التاريخ].

د - جوانب من الحياة الدينية والاجتماعية في ظل الديانات الصينية؛ أولاً: الحياة الدينية؛

كانت تسود الصين في القرن السادس الميلادي ثلاث ديانات: ديانة لاتسو وديانة كونفوشيوس، والبوذية. أما الأولى فقد كانت وثنية، تعنى بالنظريات أكثر منها بالعمليات. وعاش أتباعها زاهدين رهبانًا، فانفض عنها إلى غيرها الذين جاءوا بعد مؤسسها [ماذا خسر العالم].

وأما كونفوشيوس فقد كان يعنى بالأمر العملية أكثر من النظريات، ولكن انحصرت تعاليمه في شؤون الدنيا. وكان أتباعه لا يعتقدون - في بعض الأزمنة - بعبادة إله معين، ويعبدون ما يشاؤون من الأشجار والأنهار [نفسه].

واتجهوا إلى كونفوشيوس يبنون له الهياكل ويعبدونه، ويقدمون أمام تماثيله الذبائح والقرايين ويركعون لها.

وشاعت في الصين قبيل الإسلام عبادة الأرواح، وبخاصة عبادة أرواح الآباء والأجداد، إذ كانوا يعتقدون أن هذه الأرواح تعيش معهم بعد وفاة أصحابها [شلي: الإسلام].

وأما البوذية الصينية فقد فقدت حتى القدر القليل جدًا من بساطتها، وابتلعتها البرهمية الثائرة المتوترة، فتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سادت، وتبني



الهيكل وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت. وغمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التي ظهرت في عهد ازدهار البوذية [ماذا خسر العالم]. وتسربت إلى مناهج الحياة والعبادة السحر والأوهام، وبدأت تتقهقر وتنحط بعد أن سادت ألف سنة [نفسه].

ثانيًا: الحياة الاجتماعية؛

ليس في الديانات الصينية، الكونفوشيوسية أو التي سبقتها نور من يقين ولا باعث من إيمان ولا شرع سماوي يحلون به مشاكل العالم، وإنما هي حكم حكماء وتجارب خبراء، يستفيد بها الإنسان إذا شاء، ويرفضها إذا شاء [ماذا خسر العالم]. ونتج عن ذلك - مثلاً - تجميد الذكور كما كان يفعل العرب في جاهليتهم، فعندما يبشر الصيني بالذكر يعلق القوس والنشاب على الباب، دليل مولد الذكر الذي يحمي العشيرة، أما إذا بشر بالأنثى علق على بابه مغزلاً، دليل الخنوع والضعف [شلي الإسلام].

وفي ظل البوذية الصينية قامت دول تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل. وتغير محيط الروابط الأخوية البوذية وظهرت البدع والخزعבלات ولم تمنع الفلسفة الكونفوشيوسية وجود نظام طبقي اجتماعي، وإن كان أقل حدة من النظام الطبقي البوذي الذي ساد في الهند كما سنرى في الصفحات التالية [نفسه].

هـ - جوانب من الحياة الدينية والاجتماعية في ظل الديانات الهندية؛ أولاً: الحياة الدينية؛

سادت في الهند الديانة البرهمية التي عبد أتباعها القوى المؤثرة في الكون، والتي جسدوها ثم اعتقدوا حلولها في بعض الأجسام، فعبدوا الأصنام لحلولها فيها. وتعددت آلهتهم. ثم حل بعقائدهم التغير والتبديل حتى انحصرت الآلهة في ثلاثة أقانيم: براهما، وسيفا أو سيو، ويشنو [الديانات القديمة لأبي زهرة].



ومن بعد البرهمية سادت البوذية في الهند. والبوذية لم تكن بالبحث عما وراء الطبيعة، بل كانت عنايتها تتجه إلى الإصلاح الاجتماعي عن طريق رياضة الإرادة على الحرمان، وتعويدها السيطرة والرغبة في الملاذ لكيلا تشقى بطلبها ويحز فيها الحرمان [نفسه].

وبمرور الزمن، أظلت الأفكار العلية تعاليم بوذا الخلقية، حتى توارت وراء التخيلات السقيمة بسبب الترقيعات الكلامية والتنطعات. وانحطت البوذية كما انحطت البرهمية ودخلت فيها العادات الساقطة، وأصبح من العسير التمييز بينهما. لقد اندمجت البوذية في البرهمية وذابت فيها [ماذا خسر].

وسادت الوثنية المجتمع الهندي بأسره حتى وصل عدد الآلهة حدًا خرافيًا، ووجدت في كل مرفق من كل نوع. فمنها أشخاص تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله - حسب زعمهم - وجبال تجلس عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله، ومنها نهر الكنج وآلات الحرب والكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة، والأجرام الفلكية [نفسه].

ثانيًا: الحياة الاجتماعية:

اتفقت كلمة المؤرخين على أن أحط أدوارها ديانة وخلقًا واجتماعًا ذلك العهد الذي يتدنى من مستهل القرن السادس الميلادي. إذ انتشرت فيه المفاسد حتى في المعابد الدينية. وعبد بعض رجال الفرق الدينية النساء العاريات، وعبدت النساء الرجال العراة [نفسه]. ولم تعد للمرأة قيمة أو كرامة، حتى أن الرجل ليخسر امرأته في القمار، ولا تتزوج بعد وفاة زوجها.

وانتشرت عادة إحراق الأيامى نفوسهن على وفاة أزواجهن، خاصة في الطبقات العليا [نفسه]، وأنزلت النساء في هذا المجتمع منزلة الإماء [نفسه].



وقامت فلسفتهم الدينية على تقسيم المجتمع إلى أربع طبقات، وهي:

١ - البراهمة - الكهنة ورجال الدين.

٢ - شترى - رجال الحرب.

٣ - ويش - رجال الزراعة والتجارة.

٤ - شودر - رجال الخدمة - خدمة الطبقات الثلاث السابقة.

وهذه الطبقة الأخيرة تعد نجسة، لا تتخالط ولا تتعلم حتى الكتب المقدسة [نفسه].
وكفارة قتل الكلب والقطعة والضفدعة والغراب والبومة ورجل الطبقة المنبوذة سواء
[نفسه]. أما البراهمة فهم فوق القانون ويحل لهم إبادة الآخرين [نفسه].

هذا الفساد والضياع الذي عاشه العالم في الجزيرة العربية وخارجها كان يقتضي
إرسال رسول، فأرسل الله سبحانه محمدًا ﷺ للناس كافة عربهم وعجمهم لينقذهم من
هذا الضياع والانحراف، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.





الفصل الأول من المولد إلى المبعث

• المبحث الأول: نسب الرسول ﷺ

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

أخرج هذا القدر من نسبه البخاري في صحيحه، وهو المجمع عليه بين العلماء، أما ما بعده إلى آدم عليه السلام فمختلف فيه كثيرًا، وليس فيه ما يعتمد عليه. ولكن مما لا خلاف فيه أن عدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام

وأحواله من بني زهرة [نفسه]، لأن أمه آمنة بنت وهب كانت منهم [الفتح]. ويلتقي نسبه بنسبها في كلاب بن مرة [ابن حبان: السيرة، ابن عساكر].

وشاء الله ﷻ أن يكون من أعلى وأطهر أهل الأرض نسبًا وأشرفهم قومًا وقبيلةً وفخذًا. وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [مسلم]. ويقول: «إن الله ﷻ يوم خلق الخلق جعلني في خيرهم، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين، ثم حين جعل القبائل جعلني في خير قبيلة، ثم حين جعل البيوت جعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نسبًا، وخيرهم بيتًا» [الترمذي، حسن صحيح].



ولم يستطع أبو سفيان أن ينكر علو وسمو نسب الرسول ﷺ، على الرغم مما كان له من عدا للرسول ﷺ قبل إسلامه، فقال له رقل - ملك الروم بالشام - : «هو فينا ذو نسب» [البخاري].

ذلكم هو نسب محمد ﷺ، الذي سماه جده عبد المطلب وأمه آمنه بهذا الاسم رغبة منهما عن أسماء أهل بيته، وأرادا أن يحمده الله في السماء وخلقته في الأرض [البهقي: الدلائل، مرسل].

حكم وفوائد من هذا الاصطفاء:

١ - ما دامت العرب لا تسمع إلا لذوي الأنساب العالية فيهم، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون نبيه محمد ﷺ من أعلاهم نسباً، حتى لا يكون لأعداء الإسلام سلاح في أيديهم للصد عن سبيل الله، وحتى لا يتوهم متوهم أن رسالته ما هي إلا وسيلة لغاية، وهي تغيير وضعه الاجتماعي.

٢ - إن اختيار الله تعالى لنبيه محمد ﷺ من العرب يقتضي من المسلم أن يحبهم من حيث الجنس، لا من حيث الأفراد، لأن الأفراد قد ينحرفون عن الإسلام، فينبغي هنا كره أفعالهم المنحرفة لا كره جنسهم العربي.

المبحث الثاني: الختان والتسمية

• اختلف العلماء في أمر ختانه، فمنهم من قال (إنه ولد مختوناً)، ومنهم من قال: ختنه جده عبد المطلب يوم سابعه، وصنع له مأدبة، وسماه محمداً [الذهبي: السيرة]، والذي رجحه بعض كبار العلماء القدماء أنه ولد مختوناً [أمثال: أبو نعيم والطبراني والبغدادي وابن عساكر والحاكم].



وعندما سأله قومه عن سبب رغبته عن أسماء أهل بيته، أجابهم بأنه يريد أن يحمده الله في السماء ويحمده خلقه في الأرض.

وعرف الرسول ﷺ بأسماء أخرى، فقد قال [كما في الصحيحين]: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». وقال الراوي - الزهري: (والعاقب الذي ليس بعده نبي). وزاد ابن سعد: «... والخاتم...»، وزاد مسلم أسماء أخرى، وهي المقفى ونبي الرحمة، وزاد الترمذي [في الشئائل] «... نبي الملاحم...». وقد وردت أخبار بأن أمه سمته أحمد. فقد روى ابن سعد بإسناد حسن عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سميت أحمد». وثبت الاسم أحمد ومحمد بنصوص القرآن الكريم.

ولما كان والده قد توفي وهو في بطن أمه، فينصرف القائم بالتسمية إلى الأم. ويشهد لذلك ما رواه ابن سعد من طريق الواقدي بسنده إلى أبي جعفر محمد بن علي، قال: «أمرت أمّنة وهي حامل برسول الله ﷺ أن تسميه أحمد»، ويشهد له أيضًا ما رواه أبو نعيم عن بريدة وابن عباس قالا: «رأت أمّنة في منامها فقيل لها: إنك قد حملت بخير البرية وسيد العالمين، فإذا ولدته فسميه أحمد ومحمدًا... إلخ». ويشهد له ما رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل، وقال: «وكانت أمّنة تحدث أنها أتيت حين حملت بمحمد ﷺ فقيل لها: فإذا وقع فسميه محمدًا، فإن اسمه في التوراة والإنجيل أحمد، يحمده أهل السماء وأهل الأرض واسمه في القرآن محمد. فسمته بذلك. وفي آخر الرواية أنها أخبرت عبد المطلب بما أمرت أن تسميه. فقال شعرًا وفي آخره: «أحمد مكتوب على اللسان». وقد رواه ابن عساكر أيضًا.



وكني بأبي القاسم، [كما في البخاري وغيره]، وأمر أن نسمي باسمه ولا نكني بكنيته [كما في الصحيحين وغيرهما]. وكناه جبريل عليه السلام بأبي إبراهيم، ولكنه كره أن يحول كنيته التي عرف بها. واختلف العلماء في أمر التكني بكنيته، وفي أمر الجمع بين اسمه وكنيته، فقليل إنما نهى عن التكني بكنيته في حال حياته، وقيل إنما نهى أن يجمع بين اسمه وكنيته فقط [ابن عساكر].

ولم يعرف اسم: أحمد قبله، وسمت بعض العرب باسم محمد لما شاع قبيل وجوده أن نبياً سيعت اسمه محمدًا [السبل].

• المبحث الثالث: اليتيم ورعاية الجد ثم العم

اختلف أهل المغازي والسير في تاريخ وفاة والده. والذي قاله ابن إسحاق [في السيرة]، ورجحه ابن سعد، إن ذلك كان وهو في بطن أمه، وهو المشهور، الذي رجحه كثير من العلماء [البداية]، وجزمت الآية القرآنية الكريمة: ﴿الْمَحْدُوكِ يَتِيمًا فَتَوَّيْ﴾ (الضحى: ٦)، بأنه كان يتيمًا.

وقال السهيلي في الروض عن تحديد تاريخ وفاة والده: (وذكر أنه مات أبوه وهو حمل، وأكثر العلماء على أنه كان في المهد، ذكره الدواليبي وغيره، وقيل: ابن شهرين، ذكره ابن أبي خيثمة، وقيل: أكثر من ذلك،...، وقيل: مات أبوه وهو ابن ثمان وعشرين شهرًا، وأنشدوا رجزًا لعبد المطلب يقول لابنه أبي طالب:

أوصيك يا عبد مناف بعدي بمؤتم بعد أبيه فرد

فارقه وهو ضجيع المهد



والمشهور أنه ولد بمكة يتيم الأب، في يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، في العام المشهور بعام الفيل [طهوني].

وعندما مات والده كفله جده عبد المطلب، وهو تحت رعاية أمه آمنة بنت وهب.

وكانت وفاة والده بالمدينة، عند أخواله - أي أخوال أبيه عبد المطلب - بني عدي ابن النجار، عندما أرسله والده عبد المطلب إليها ليشتري منها تمرًا [الاستيعاب؛ ابن سعد]. ودفن في دار النابغة، تحت عتبة البيت الثاني على يسار من يدخل دار النابغة. [ابن شبة، ضعيف] وكانت وفاته عن خمس وعشرين سنة [ابن سعد، ضعيف].

ظل الرسول ﷺ في رعاية أمه آمنة وكفالة جده عبد المطلب بعد أوبته من بادية بني سعد. وعندما بلغ من العمر ست سنين توفيت والدته آمنة بالأبواء، [والأبواء قرية بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلًا، ومصدر الخؤولة أن هاشم بن عبد مناف تزوج بالمدينة سلمى بنت عمرو النجارية، فولدت له عبد المطلب [شيبه]، وهي راجعة به إلى مكة من زيارة قامت بها معه إلى أخوال جده عبد المطلب بني عدي بن النجار بالمدينة المنورة [ابن إسحاق في السيرة، مرسل صحيح عبد الرزاق، مرسل صحيح].

وحملته مولاته وحاضنته أم أيمن إلى جده عبد المطلب بمكة، فأخذ يحوطه بعنايته إلى أن توفي وللنبي ﷺ ثمان سنوات من العمر [ابن إسحاق، مرسل صحيح؛ الأزرق، حسن؛ الذهبي: السيرة]، فأوصى به إلى عمه أبي طالب [ابن هشام؛ ابن سعد؛ الذهبي: السيرة]. وقد رويت أخبار في مدى عناية جده عبد المطلب به. من ذلك ما رواه أبو يعلى، أن عبد المطلب أرسل محمدًا ذات مرة في إثر إبل له ضلّت، فاحتبس عليه حتى حزن حزناً شديداً، وأخذ يطوف بالبيت وهو يقول مرتجراً:

رَبِّ رُدِّ إِلَيَّ رَاكِبِي مُحَمَّدًا يَا رَبِّ رده واصنع عندي يداً



وعندما عاد محمد بالإبل أقسم ألا يبعثه في حاجة له أبداً، ولا يفارقه بعد هذا أبداً. وكان يقربه ويدنيه منه، ولا يدع أحداً يدخل عليه وهو نائم. وكان له مجلس لا يجلس عليه غيره. وكان له فراش في ظل الكعبة، يجلس حوله بنوه ويجلس النبي ﷺ عليه مع جده.

وترى كتب السير أن أبا طالب كان شديد الاعتناء أيضاً بابن أخيه محمد ﷺ. فكان لا ينام إلا ومحمد إلى جنبه، ولا يخرج إلا معه، ويخصه بالطعام، ولا يأكل إلا عندما يحضر محمد. وظل يحوطه بعنايته إلى أن توفي قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين.

حكمة يتم الرسول ﷺ:

١ - لقد شاء الله ﷻ أن ينشأ الرسول ﷺ يتيمًا بعيداً عن تربية أبيه وأمه وجده، لأن والده قد توفي وهو في بطن أمه، وقضى معظم فترة طفولته الأولى ببادية بني سعد، بعيداً عن أسرته كلها، ثم ما لبث أن توفيت أمه، ولم يمكث معها سوى مدة يسيرة، وبعدها بمدة يسيرة توفي جده عبد المطلب. كل ذلك لحكم، لعل من أبرزها أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة في القلوب، أو إيهام الناس بأن محمداً إنما رضع لبان دعوته ورسالته منذ صباه بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده ليصل إلى جاه الدنيا باصطناع النبوة. فقد كان لجده مكانة مرموقة في قومه، فلقد كانت إليه الرفادة والسقاية، أي إطعام الحجاج وسقايتهم [ابن إسحاق].

٢ - ولعل في يتمه أسوة للأيتام في كل زمان ومكان، ليعرفوا أن اليتيم ليس نقمة، وإنه لا يجب أن يقعد بصاحبه عن بلوغ أسمى المراتب.

• المبحث الرابع: من إرهاصات النبوة عند ميلاده

• وصاحبت ولادته بعض الإرهاصات الدالة على نبوته. وما ثبت منها بطرق صحيحة، [عند أحمد وابن إسحاق]، قوله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، رأيت أمي حين حملت بي كأن نورًا خرج منها أضواء له قصور بُصرى من أرض الشام». [والإرهاص: المقدمة للشيء والإيذان به، فالبرق - مثلاً - يؤذن بنزول المطر].

وجاء في رواية مرضعته حليلة السعدية عند ابن إسحاق [في السيرة] وابن سعد وأحمد [في المسند، بإسناد حسن، والحاكم، بإسناد صحيح]، أن والدته آمنة قالت: «وقع حين ولدته، وإنه لو اضع يديه بالأرض، رافعاً رأسه إلى السماء». وفي رواية: أن أمه عندما ولدته وضع تحت بُرْمَةٍ، كعادة أهل الجاهلية، فلما أصبحت نظرت إليه فإذا البرمة قد انفلقت ثنتين، وإذا هو قد شخص بصره إلى السماء.

وما لم يثبت بطرق صحيحة، ولكنه اشتهر، مثل قولهم [كما في دلائل البیهقي]: إنه حين ولد سقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخدمت النار التي كان يعبدها المجوس، وغاصت بحيرة (ساوة)، وانهدمت المعابد التي كانت حولها.

• المبحث الخامس: رضاعة الرسول ﷺ

• اشتهر عند أهل المغازي والسير أن ممن أرضعنه حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية، حين أخذته معها إلى بادية قومها، فأقام معها نحو أربع سنين، ثم ردت إلى أمه.

لقد تفرد ابن إسحاق برواية خبر إرضاع حليلة الرسول ﷺ وإقامته معها ببادية بني سعد. وحكم محققا سيرة ابن هشام (د.همام وزميله) والشيخ الألباني بضعف إسناد هذا الخبر. ونص رواية ابن إسحاق:



(كانت حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية، أم رسول الله ﷺ التي أرضعته، تحدث: أنها خرجت به من بلدها مع زوجها، وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء، قالت: وذلك في سنة شهباء [فيها قحط] لم تبق لنا شياء فخرجت على أتان [أنثى الحمير] لي قمرء [بيضاء]، معنا شارف [الناقة المسنة] لنا، والله ما تبص [تسيل] بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتانتي تلك، فلقد أدمت [أطلت السفر] بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً [هزألاً]، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أننا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده! فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي زوجي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاخذه؛ قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، ولما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل [ممتلئة حلياً]، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا ريثاً وشبعاً، فبتنا بخير ليلة. قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليلة، لقد أخذت نسمةً مباركة. قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت أتانتي، وحملت عليها معي. فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حُرهم، حتى إن صواحيبي ليقلن لي: يا بنت أبي ذؤيب، ويحك! اربعي [انتظرينا] علينا، أليست هذه أتانك التي



كنت خرجت عليها؟ فأقول لمن: بلى والله، إنها لهي هي؛ فيقلن: والله إن لها لشأنا. قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضا من أرض الله أجذب منها، فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شِباعاً لبناً [غزيرات الحليب]، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم: ويلكم اسرّحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياحاً ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شِباعاً لبناً. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته [فطمته]، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جَفُراً [قويّاً]. قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرصُ على مكثه فيها، لما كنا نرى من برّكته. فكلّمنا أمه، وقلت لها: لو تركت بُنيّ عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردهه معنا).

ثم ذكرت حليلة قصة شق صدره وما فيها من معجزة.

ومع ما قيل في إسناد هذا الخبر إلا أن مما لا شك فيه ثبوت استرضاع الرسول ﷺ في بادية بني سعد، وذلك لأن رواية الصحيح [مسلم] تتفق مع رواية ابن إسحاق في أن حادثة شق الصدر قد وقعت للرسول ﷺ وهو صغير مسترضع في بادية بني سعد، وكذلك رواية الحاكم [صحيح]، وأحمد وابن إسحاق [في السيرة، جيد] في حديث: «أنا دعوة أبي إبراهيم.... واسترضعت في بني سعد بن بكر....»، وفي الحديث الذي رواه ابن إسحاق بإسناد حسن، قال وفد هوازن للرسول ﷺ وهو بالجعرانة حين منصرفه من حنين: (إنما في الحظائر -أي: الأشر- عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك...). في هذا الخبر إشارة إلى رضاعة النبي ﷺ في أهل مناطق الطائف، أي في هوازن، التي منها بنو سعد، قوم حليلة بنت أبي ذؤيب [ابن حبان: السيرة؛ ابن هشام].



وروى ابن سعد [برجال ثقات، مرسلاً] أن النبي ﷺ كان مسترضعاً في بني سعد بن بكر. وفي رواية أخرى لابن سعد: أن أم النبي ﷺ دفعته إلى السعدية التي أرضعته فالروايات تعتضد.

ويضاف إلى هذا الآثار التي تدل على مجيء أبوي الرسول ﷺ من الرضاعة إليه وتعرفه على الشياء - أخته من الرضاعة - التي جيء بها ضمن أسرى غزوة حنين وسيأتي ذكرها في أحداث حنين.

وخلال حياته في رعاية حليلة السعدية وقعت للنبي ﷺ إرهاصات دلت على بركته وعناية الله تعالى به، وحفظه له. وأشهر ما روي في ذلك حديث حليلة السعدية الطويل المشهور، الذي فيه أنه بحلول محمد ﷺ عليها، در ثديها اللبن، فارتوى منه محمد وابنها الذي كانت تحمله بعد أن كان يبكي من الجوع لجفاف ثدي أمه، ولا ينام هو وأهله، وامتلاً ضرع راحلتها باللبن بعد أن كان يابساً، فشبت منها مع زوجها وأضحت الراحلة نشطة قوية، تسير في مقدمة الركب، بعد أن كانت عاجزة تسير في مؤخرة الركبان. وحيثما حلت أغنام حليلة، تجد مرعى خصباً، فتشبع ولا تجد أغنام غيرها شيئاً، وكان ينمو نمواً سريعاً، لا يشبه نمو الغلمان [ابن هشام].

حكمة الرضاعة في البداية:

كانت عادة الحضر من العرب أن يسترضعوا أبناءهم في البدو، ابتعاداً بهم عن أمراض المدن، ورغبة في تقوية أجسادهم، وتعويداً وتربية لهم على الاعتماد على النفس منذ الصغر، بعيداً عن تدليل الأمهات والجندات وبقية الأقارب، وتقويماً لألستهم من اللحن وغيره من مفسدات اللغة في المدن [البداية؛ الذهبي: السيرة، صحيح].



• المبحث السادس: الرضاعة في بادية بني سعد وحادثة شق الصدر

وقعت للرسول ﷺ وهو في بادية بني سعد حادثة شق الصدر، كما جاء ذلك صريحاً في رواية أبي نعيم عند ابن كثير [في البداية، بإسناد صحيح]، ونصها: قال رسول الله ﷺ: «... كانت حاضتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بهم [صغار الغنم] لنا، ولم نأخذ معنا زاداً، فقلت: يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ فقال نعم! فأقبلا يبتدراني، فأخذاني فبطحاني للققا، فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقا، فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بهاء ثلج فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بهاء برد، فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة فذرهما في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خطه، فخاطه، وختم على قلبي بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة واجعل ألفاً من أمته في كفة، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخر عليّ بعضهم، فقال: لو أن أمته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا فتركاني وفرقت فرقاً شديداً، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي لقيت، فأشفقت أن يكون قد لبس بي، فقالت: أعيدك بالله، فرحلت بغيرها لها وحملتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، فقالت: أديت أمانتي وذمتي، وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها، وقالت: إني رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام».

وروى قصة هذا الشق مسلم، باختصار، ولم يصرح بمكان وقوعها، ونصه عن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل رضي الله عنه وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه. فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست من ذهب بهاء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظره - مرضعته) فقالوا: إن محمداً قد قتل. فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره».



لقد سكنت بعض المصادر - منها مسلم - عن تحديد سنة ﷺ حين وقعت له هذه الحادثة لأول مرة. أما البعض الذين حددوا سنة، فلم يتفقوا على سن محددة. فيفهم من رواية ابن إسحاق [في السيرة] أن ذلك كان وعمره ﷺ نحو الستين إذ تقول حليلة: «فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفراً... فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم لنا خلف بيوتنا...» وفي رواية ابن سعد أن القصة وقعت وللرسول ﷺ أربع سنين، وقال بهذا أبو نعيم من طريق ضعيفة أيضًا. ويذكر آخرون أنه كان في الخامسة [دلائل البيهقي] أو بعدها [المواهب].

ونحن نميل مع الزرقاني [في شرحه على المواهب] ونرجح رواية ابن سعد في أنه كان في الرابعة، لأنها السن التي يمكن أن يارس فيها رعي البهم، ويفهم شيئًا مما يدور حوله. ولقد تكرر حادث شق صدر الرسول الله ﷺ مرات أخرى غير هذه التي في بادية بني سعد. فقد روى أحمد وغيره أن شق الصدر قد وقع له وهو ابن عشر سنين وأشهر. وروى البخاري ومسلم وغيرهما أن شقًا لصدره قد وقع له وقد تجاوز الخمسين من العمر، حين أسري به إلى بيت المقدس. وذكر الذهبي [في السيرة]، الروايات الدالة على أن شق صدره كان مرتين: في صغره ووقت الإسراء به. وهناك من ذكر وقوعها مرة رابعة [دلائل البيهقي].

لقد ذهب بعض أصحاب المدرسة العقلية من المستشرقين والمتأثرين بهم من المسلمين إلى تأويل حادث شق الصدر. فمنهم من قال إنها أسطورة، ومنهم من قال إنها أمر معنوي، و... و... إلخ.

ومن أوجز ما قيل في حادثة شق الصدر قول ابن حجر [في الفتح]: (إن جميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصالحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك).



وينبغي على المسلم أن يعلم بأن ميزان قبول الخبر إنما هو صحة الرواية، فإذا صحت فلا يجدي البحث بعد هذا عن صرف الكلام إلى غير حقيقته أو تأويله تأويلاً عقلياً مجوجاً كما يفعل أصحاب المدرسة العقلية.

حكمة شق الصدر:

- ١ - يبدو أن هذه الحادثة كانت إعلاناً لرفعة شأن الرسول ﷺ والتهيئة للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل مادية، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته. إنها إذاً عملية تطهير معنوي، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي، ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي برفعة الشأن بين أبصار الناس وأسماعهم - كما قال البوطي.
- ٢ - فيها بيان إعداد الله تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ لتلقي الوحي عنه.
- ٣ - تشير الحادثة إلى تعهد الله ﷻ نبيه عن مزالق الطبع الإنساني، ووساوس الشيطان، وهي حصانة أضفاها الله ﷻ على نبيه محمداً ﷺ.

المبحث السابع: رحلته إلى الشام

• روى الترمذي [بسنده صحيح] بسنده إلى أبي موسى الأشعري، أنه قال: «خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله ﷺ في أشياخ من قريش. فلما أشرفوا على الراهب - يعني بحيرى - هبطوا، فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم، قال: فنزل وهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبي ﷺ فقال: هذا سيد العالمين، بعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخ من قريش: وما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجداً، ولا يسجدون إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه. ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاها به - وكان هو في رعية الإبل -



قال: أرسلوا إليه، فأقبل وغمامة تظله، فلما دنا من القوم قال: انظروا إليه عليه غمامة، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء - ظل - شجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، قال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. قال: فبينما هو قائم عليهم وهو ينشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه، ثم التنت فإذا هو بسبعة من الروم قد أقبلوا، قال: فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا لأن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس، وإنا أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: فهل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا: لا، إنما أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحد من الناس رده؟ فقالوا: لا. قال: فبايعوه وأقاموا معه. قال: فقال الراهب: أنشدكم الله! أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى رده وبعث معه أبا بكر وبلالاً، وزوده الراهب من الكعك والزيت».

اختلف العلماء في هذا الأثر، فقد حسنه الترمذي وصححه الحاكم، والألباني [في دفاع]، وابن حجر. وقال ابن حجر: (رجاله ثقات، وليس فيه سوى هذه النقطة - أي ذكر أبي بكر وبلال - فيحتمل أن تكون مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهما من أحد روايته). وقال ابن القيم [في زاد المعاد]: (إن هذه النقطة من الغلط الواضح).

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] القصة بنحو سياق الترمذي، وليس فيه ذكر أبي بكر وبلال، ولكنها بدون إسناد، فيستأنس بروايته لإمامته في المغازي، ويكاد يكون لكل رواياته غير المسندة أصل.

وروى الأموي [كما في البداية] أن الرسول ﷺ سافر مع عمه الزبير في تجارته إلى اليمن، عندما كان له من العمر بضع عشر سنة.



وذكروا أنهم رأوا منه آيات في تلك الرحلة، من ذلك: إن فَحَلًا من الإبل كان يقطع الطريق في واد يمرون عليه، فلما رأى الفحل رسول الله ﷺ برك حتى حك بكلِّكليه [صدره] الأرض، فركبه رسول الله ﷺ. وأنه اعترضهم سيل عرم فأيسسه الله تعالى حتى جَاوَزُوا الوادي.

الحكمة من أقوال أهل الكتاب في صفة محمد ﷺ:

إن في قصة الراهب بَحِيرَى مع الرسول ﷺ دليل على معرفة أهل الكتاب صفة رسول الله ﷺ وزمانه كما هي عندهم في كتبهم، وهي تفسير لنا قوله تعالى في اليهود: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

روى البخاري من حديث عطاء بن يسار، أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه كان يقول إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥]، هي في التوراة: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً وحرزاً للأُميين، أنت عبيدي ورسولي، سميتك: المتوكل. ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ولن أقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً).

ولقد كان سبب إسلام سلمان الفارسي وغيره رضي الله عنهم، تتبع خبر النبي ﷺ وصفاته من أخبار اليهود ورهبان النصارى.

ومن المعلوم أن أهل الكتاب حاولوا طمس هذه الحقيقة فيما بعد، كما حكى ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ



لِيَسْتَرَوْا بِهِ ثُمَّ قَالَ قَلِيلًا ﴿البقرة: ٧٩﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعِي لِإِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٥]، ولم يوفقوا في طمس كل الحقيقة كما هو واضح من عبارات وردت في بعض أناجيل النصارى - مثل برنابا - خاصة ببيان اسم النبي ﷺ المنتظر وصفته وزمانه ومكانه.

ومن كتب مباشرة في موضوع بشارات التوراة والإنجيل بنبوّة محمد ﷺ:

(١) الأستاذ إبراهيم خليل أحمد، القس المصري - سابقاً - إبراهيم خليل فيلبس، الذي هداه الله إلى الإسلام منذ أكثر من أربعين سنة، بعد أن قام بدراسة مقارنة لما في الإسلام، وما في الديانات السماوية السابقة عليه. ونشرها في كتاب عنوانه: (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن).

وقد مكنته معرفته العميقة بالعهد القديم [التوراة] والجديد [الإنجيل] من إجراء الدراسة الجادة التي قادته في النهاية إلى أن الإسلام هو الحق، فاعتنقه، وأصبح من دعائه. ومما قاله في دراسته القيمة المذكورة: (نستطيع بعد هذه الدراسة التحليلية أن نضع الصورة الكاملة التي نستمدّها من نصوص الكتاب المقدس، والتي لم يطرأ عليها تغيير ولا تبديل ولا تحريف، لأن الله شاء فحفظها حرصاً على نبيه محمد ﷺ).



ومن ثم إننا نحصل على تصور معين لصورة الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، هذا الرسول بدا شاخًا بشيمة السماء، وهي من شقين:

- (أ) أنه الرسول النبي الخاتم، ولا نبي بعده.
 - (ب) أنه رسول الله للعالمين كافة للأسباب التالية:
 - ١- لأنه متمكن ورحيم.
 - ٢- لأنه مؤسس لأمة على الحق والبر.
 - ٣- لأنه بفضل الله نور للأمم.
 - ٤- لأنه وثيق الصلة بسلالة قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام.وهذه الحقائق مؤسسة على سفر أشعيا ٤٢: ١-١١:
 - ٥- لأنه سليل إسماعيل، وإسماعيل أخو إسحاق، فهو عم العبرانيين كافة.
 - ٦- لأن فيه يتحقق مواعيد الله لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.
 - ٧- لأن فيه تتبارك كل شعوب الأرض.
 - ٨- لأنه الوارث الحقيقي لإسماعيل، وإسماعيل هو بكر إبراهيم عليهما السلام فله النصيب المضاعف.
 - ٩- لأنه يتلقى الوحي مباشرة من الله ﷻ.
- وهذه الحقائق مؤسسة على سفر التكوين ١٧: ٢٠-٢٢: ١٦-١٨: وسفر التثنية ٢١: ١٥-١٧: ١٨-١٩:
- لأنه يأتي على أثر اختتام رسالة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام
 - لأنه يعزي ويرشد جماعة المؤمنين من أتباع المسيح (الباراقليط) Paraclete.



- لأن أفعاله وأقواله وخصاله تنبؤ أنه المحمد (The Praised one (Pericyte).
 - لأنه الصادق الأمين، وشهرته ذائعة في العالمين بالصدق والأمانة.
 - لأنه يتلقى الوحي مباشرة من الله ﷻ.
 - لأن رسالته خالدة أبدية.
 - لأنه يرشد إلى الحق... إلى جميع الخلق.
 - لأنه يدافع عن المسيح عيسى بن مريم وأمه (ذاك يمجدني) ويدفع عنهما الشبهات.
- هذه الحقائق مؤسسة على إنجيل يوحنا ١٤: ١٦، ١٧-١٤: ٤٥: ٢٦: إنجيل يوحنا ١٥: ٢٦، ٢٧- إنجيل يوحنا ١٦: ١٣، ١٤.
- ولتصفية هذه الشواهد في تركيز وإيجاز أوضح فإن هذا النبي الخاتم يختلف عن الآخرين من أنبياء العبرانيين في ثلاثة وجوه حيوية ورئيسة على الأقل:
- ١- أنه سيكون صاحب رسالة عالمية.
 - ٢- أنه سيصبح خاتم النبيين ولا نبي بعده ولا نبوة بعده.
 - ٣- أنه من ذرية إسماعيل ﷺ، الذي خلعت عليه بنو إسرائيل (العرب)، وأنه سليل قيدر بن إسماعيل.
- هذه الحقائق مؤسسة على إنجيل يوحنا ١٦: ١٢-١٤، وسفر إشعياء ٦٠: ١-٧).
- وذكر الأستاذ إبراهيم في كتابه هذا أمثلة كثيرة لبشارات من التوراة والإنجيل بنبوة ورسالة محمد ﷺ.
- والكتاب جدير بالقراءة لأهميته في إجلاء الحقائق الغائبة عن الناس.

وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمَ الْقَائِلُ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، والقائل: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

(٢) الدكتور الشفييع الماحي أحمد، وعنوان كتابه: (محمد ﷺ في بشارات التوراة والإنجيل)، نشر مركز البحوث التربوية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ١٧٠ صفحة. هدف ببحثه إلى عرض بشارات أنبياء بني إسرائيل بمقدمه ﷺ، وكما وردت في التوراة والإنجيل، وذلك من حيث الزمن الذي سيظهر فيه، والأرض التي يبعث منها، واسمه، وصفاته وأحواله، ومنهج رسالته الخاتمة، وأمته، وأخيرًا دوام دولته.

(٣) أحمد ديدات: (ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ)، ترجمة إبراهيم خليل أحمد، القاهرة، دار المنار، ١٩٨٩ م.

(٤) محمود الشرقاوي: (محمد ﷺ في بشارات الأنبياء)، القاهرة، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٧م.

(٥) رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي: (إظهار الحق)، دراسة وتحقيق وتعليق الدكتور محمد أحمد عبد القادر ملكاوي، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، السعودية، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م في (٤) مجلدات. تناول المسلك السادس من الباب السادس، الجزء الرابع (إخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته ﷺ)، [ص ١١١٦ - ١١٩٨]، وعد من البشارات ثمانية عشر بشاراً، معتمداً على نصوص من التوراة والإنجيل. وكان تحقيق الدكتور الملكاوي رسالة علمية حصل بها على الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، وعمل معنا بقسم الثقافة الإسلامية، جامعة الملك سعود.



لم يكن أهل الكتاب وحدهم الذين كانوا يعرفون اسم وصفة النبي العربي الخاتم، بل شاركهم وسبقهم في هذا غير أهل الكتاب. فقد اطلعت على بحث موثق، باللغة الإنجليزية، ومن مصادر هندية أصيلة، للأستاذين: أنور حسين ووقار عظيم الندوي، بعنوان: (محمد ﷺ في الكتب الهندية المقدسة) [Mohammad (P.B.U.H.) in Hindu, s Sacred Books و خلاصته:

أولاً: إن الاسم (محمد)، ومعانيه وأشكال رسمه ونطقه المختلفة في اللغة السنسكريتية، ذكر في كتب هندية مقدسة، هي:

- .A) Riga Veda, Kand ٥, mandal ٢٧, mantra ١)
- .B) Atherva Veda, Kand ٢٠, Sukt ١٢٧, mantra ٣)
- .c) Bhavishya purana, Kand ٣, Surg ٣/٣, mantra ٥ and ١٢)
- .D) Srimad Bhagawat, mahtampurana, chapter ٢, ShloK ٧٦)
- .E) Tulas, s Ramacharitamans, deriving from)
- .Sangrampurana, Kand ١٢, chapter ٦

ثانياً: ذكر الاسم (أحمد) ومعانيه وأشكال رسمه ونطقه المختلفة في اللغة السنسكريتية، ذكر في كتب هندية مقدسة، هي:

- .A) Riga Veda, madal ٨, mantra ١٠)
- .B) Sama veda, prapathak ٢, dashti ٦, mantra ٨)
- .c) Athara Veda, Kand ٢٠, Sukt ١٢٦, mantra ١٤)
- .D) Yajur Veda, Sukt ٣١, mantra ١٨)

ثالثاً: ذكرت هذه الكتب الهندية المقدسة السابقة للكتب السماوية أوصافاً للنبي محمد ﷺ وأحداثاً، طابقت سيرة النبي ﷺ، وهي:



(أ) إنه سيركب الجمل.

(ب) إنه سيتزوج اثنا عشرة امرأة، ذكرهن الباحثان وهن: خديجة وسودة وعائشة وحفصة وزينب بنت خزيمة وأم سلمة وزينب بنت جحش وأم حبيبة وصفية وجويرية وربحانة وميمونة. (ج) سيكون مختوناً وملتحياً. (د) سيلتقي بعدو تعداده الكلي في المواقع الكبرى ٦٠.٠٩٠، ذكر المؤلفان تفاصيل ذلك. (هـ) سيصعد إلى السماء بسرعة خيالية ويعود إلى الأرض - يعني المعراج.

رابعاً: ذكرت هذه الكتب بعض فضائل أصحاب النبي ﷺ والعدد الحقيقي لبعض فئاتهم أو أصنافهم.

خامساً: ذكرت هذه الكتب معاني اسم والد ووالدة النبي محمد ﷺ. وفي ختام البحث ذكر المؤلفان خمسة مراجع باللغة الأردنية لمزيد من القراءة في هذا الموضوع، وهي:

١) Dr. Kamalakant Tiwari, Kali Yuga Ke Antima Rishi .

٢) Pundit Dharam Veda Upadhyay, Antim I Shwer Doot .

٣) Veda Prakash Upadhyay, Kalki Avatara .

٤) Ibn Akbar Azmi, Mohammad Hindu Kitabon men .

ونبه الباحثان إلى أن المعلومات الأساسية لهذا البحث مأخوذة من كتاب ابن أكبر الأعظمي - رقم ٤ - (محمد ﷺ في الكتب الهندية المقدسة)، وهو من منشورات دار الصفة، براقي رابطة، رابطة دوكان رقم ١٤، الطابق الأول، مؤسسة بلازه ٤٠، لاهور.



• المبحث الثامن: رعيه الغنم في صباه، والحكم من ذلك

• روى البخاري بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم، كنت أرهاها على قَرَارِيط لأهل مكة». [والقيراط جزء من الدينار أو الدرهم، أو اسم موضع بمكة] (الفتح ١٠ / ٥).

وروى البخاري ومسلم من حديث جابر أن الرسول ﷺ رعى الغنم.

ومن أبرز الحكم والعبر في هذا الرعي:

١ - قال ابن حجر [في الفتح]: (قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة، لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة...) ثم قال:

(وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله، ما كان عليه من عظيم التواضع لربه والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء).

٢ - يتجلى لنا في رعيه الغنم الذوق الرفيع والإحساس الدقيق للذات جمل الله ﷻ بهما نبيه محمداً ﷺ. إذ أن الرسول ﷺ ما أن أنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب لرفع بعض ما يمكن رفع من مؤنة الإنفاق على عمه الذي وفر له وسائل العيش الكريم، على الرغم من أنه كان ذو عيال كثيرين.



٣- إن الله ﷻ لا يعجزه أن يهيئ لمحمد ﷺ كل وسائل الرفاهية ويغنيه عن الكدح سعيًا وراء القوت، ولكن اقتضت حكمة الله أن تعلمنا أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بجهده، وأن قيمة الإنسان هي فيما يقدمه لمجتمعه من خدمات قدر طاقته.

٤- لن تكون لأصحاب الدعوات قيمة معتبرة عند الناس إذا كان كسبهم من عطايا الناس وصدقاتهم، ولذا فإن صاحب الدعوة أخرى الناس باعتماد على نفسه وجهده الشخصي في معيشته، والابتعاد عن الاستجداء، حتى لا يكون لأحد عليه منة أو فضل في دنياه، فيعيقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق في وجهه [البوطي: فقه السيرة].

• المبحث التاسع: عناية الله له وحفظه من أمور الجاهلية

• لقد شارك الرسول ﷺ في إعادة بناء الكعبة عندما تهدمت. فكان ينقل معهم الحجارة للبناء وعليه إزاره. فاقترح عليه عمه العباس أن يجعل إزاره على منكبيه ليقيه الحجارة. وعندما فعل ذلك، سقط مغشيًا عليه، فما رئي بعد ذلك عريًا.

وكان يومًا ينقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، وذلك عندما كان صغيرًا يلعب مع أترابه غلمان قريش، فأخذ إزاره فجعله على رقبته ليحمل عليه الحجارة، فتعري، وحينها لكمه من لم يره لكمة موجعة، وقال له: «شد عليك إزارك»، فشده عليه، وذلك دون غيره من الغلمان الذين كانوا معه.

وروي أن الله تعالى عصمه مرتين عندما حاول أن يسمر كما يسمر الشباب. ولكن اختلف العلماء في تصحيح هذا الخبر. فبينما صححه الحاكم والذهبي وغيرهما، ضعفه ابن كثير [في البداية] والألباني [في دفاع]، لعلل ذكروها، وحججها قوية.

وخالف الرسول ﷺ قومه من أهل الحرم الذين عرفوا بـ(الحمس)، إذ كان يفيض مع الناس من عرفات حيث كانت الخمس تفيض من مزدلفة (جمع). وقد تعجب جُبَيْر



ابن مُطعم من الرسول ﷺ لهذا الفعل، كما روى الشيخان، وكان ذلك توفيقاً من الله تعالى له، كما قال جبير بن مطعم بعد إسلامه، وكما روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن]. [والخُمْس: هم أهل الحرم ومن ولدوا من العرب من ساكني الحل والحرم ومن دخل معهم من العرب مثل كنانة وجديلة، رأوا أن لهم منزلة فوق منزلة بقية العرب؛ ولذلك ميزوا أنفسهم عنهم بأن تركوا الوقوف بعرفات والإفاضة منها، وقيل: سمّوا حمسًا لأنهم اشتدوا في دينهم على زعمهم، مأخوذ من الحماسة، وهي الشدة].

وجاء الإسلام، فوضع الله تعالى أمر الخمس وما كانت قد ابتدعته قريش، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وروى البيهقي [في الدلائل بسند حسن] أن الرسول ﷺ ما استلم صنماً قط، وكان ينهى عن ذلك في الجاهلية. ورفض أن يمس صنم إِسَاف أو نَائِلَة عند طوافه، كما كانت عادة أهل الجاهلية.

وروى ابن إسحاق [في السيرة] أن بَحِيرَى الراهب عندما حلف باللات والعزى، متابعة لقريش في طريقة حلفهم، قال له النبي ﷺ: «لا تسألني باللات والعزى شيئاً، فوالله ما أبغضت بغضها شيئاً قط».

وحفظه الله ﷻ من كيد الشياطين، في الجاهلية والإسلام.

ورفض الرسول ﷺ أن يعتكف عند صنم بوانة - حيث كان لقريش عيد عنده مرة كل عام - فغضب منه عمه أبو طالب وعماته غضباً شديداً، فعندما هم بمطاوعتهم عصمه الله تعالى من مس الأصنام، حيث تمثل له رجل أبيض طويل منعه من مسها، فلم يشارك في عيد لهم في حياته.

وروى البيهقي [في دلائله، بسند حسن، كما قال طرهوني]، أن ملكين منعه أن يشهد مع المشركين مشاهدتهم، فانتهى عن ذلك.

ومن أبرز الحكم والعبر من أخبار عناية الله وحفظه من أمور الجاهلية:



- ١- إن في هذه الأخبار دليلاً على أن الرسول ﷺ كان مصوناً عما يستقبح من أمور الجاهلية قبل البعثة وبعدها، وذلك من حماية الله تعالى له عما يسيء إلى شخصه ودعوته.
- ٢- إن من الأمور المستقبحة عند الله تعالى التعرّي بحضرة الناس. وقد حرم الإسلام ذلك إلا للضرورة، مثل العلاج ونحوه كما قال ابن حجر في [الفتح].
- ٣- إن عصمة الله تعالى له من ممارسة أفعال الجاهلية لدليل عن تهيئة الله تعالى له لأمر جليل.

• المبحث العاشر: حرب الفجار

سميت الحرب التي دارت بين كنانة وقريش من جهة، وقيس عيلان من جهة أخرى بحرب الفجار، لأنهم استحلوا المحارم بينهم كما ذكر ابن حجر [في الفتح]. وكان سببها تافهاً، لم يعد قتل رجل من قريش، تداعى بعده الأحلاف للقتال، كما ذكر ابن هشام [في السيرة].

ذكر ابن إسحاق [في السيرة] أن هذه الحرب عندما هاجت كان لرسول الله ﷺ عشرون سنة. وقال ابن هشام إنها هاجت ولرسول الله ﷺ أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة، وأن رسول الله ﷺ شهد بعض أيامهم مع أعمامه، وقال: «كنت أنبل على أعمامي» - أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

ولما كانت حرب الفجار قد استمرت زمناً طويلاً فيمكن الجمع بين قولي ابن إسحاق وابن هشام بأن عمر الرسول ﷺ كان في مبتدئها نحو خمس عشرة سنة، ولذا كان ينبل على أعمامه. وعند انتهائها كان عمره عشرين سنة.

ومما يلفت النظر أنه لم يرد ذكر لاشتراك الرسول ﷺ مباشرة في هذه الحرب وقد كان بلغ سن القتال، كما في رواية ابن إسحاق المذكورة. وعلل السهيلي ذلك لأنها



كانت حرب فجار بين كفار، ولم يأذن الله تعالى لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله تعالى هي العليا.

قلت: لو صح حديث نبهه على أعمامه، فهو دليل على اشتراكه في الحرب اشتراكاً رمزياً غير مباشر، ويمكن تفسيره بأن الرسول ﷺ اشترك بهذه الكيفية في الدفاع عن المقدسات والمحارم، وخاصة أن قيس عيلان هي المعتدية، وهذا من القيم الإنسانية العليا التي اهتم بها الرسل والمصلحون، أي نصره المظلوم.

● المبحث الحادي عشر: شهوده حلف الفضول أو المطيبين

● [المطيبون: هاشم، وزهرة، ومخزوم. قاله بعض رواة حديث أبي هريرة عند البيهقي في الدلائل (٣٨/٢)]. وقال البيهقي: (كذا روي هذا التفسير من رجال الحديث، ولا أدري قائله...) وقد سبق القول: إن ابن إسحاق [ابن هشام ١/ ١٧٩ - ١٨١]، أشار إلى حلف المطيبين، وهو اختلاف قريش بعد قصي: بني عبد مناف ومن حالفهم، وبني عبد الدار ومن حالفهم... فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً عند الكعبة... ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم فسموا بالمطيبين. وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة على أن لا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضاً لعدو، فسموا بالأحلاف...

روى أحمد [في المسند بسند صحيح] أن الرسول ﷺ قال: «شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، وما أحب أن لي حمراً النعم وأني أنكته». وقال في رواية البيهقي [في الدلائل بسند قوي]: «ما شهدت حلفاً لقريش إلا حلف المطيبين، وما أحب أن لي حمراً النعم وأني كنت نقضته».



قال البيهقي [في دلائله] معلقاً على هذا الحديث: (زعم بعض أهل السير أنه أراد حلف الفضول، فإن النبي ﷺ لم يدرك حلف المطيعين). والراجح عندي قول أهل السير. والبيهقي نفسه يقول في السنن الكبرى إن الرسول ﷺ لم يدرك حلف المطيعين). ذكر ابن الأثير [في النهاية] أنه يمكن الجمع بين رواية أحمد والبيهقي ورواية أهل السير أن حلف المطيعين قد تجدد في حياة الرسول ﷺ وعرف باسم آخر هو (حلف الفضول)، والله أعلم.

وروى الحميدي [كما في البداية لابن كثير، بسند صحيح]، أن رسول الله ﷺ قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يعز ظالم مظلوماً». وروى ابن إسحاق [في السيرة، بسند مرسل صحيح]، أن الرسول ﷺ قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت».

لقد عقد هذا الحلف بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم، على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم، [كما روى ابن إسحاق في السيرة]. وكان ذلك في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة، منصرف قريش من حرب الفجار، ولرسول الله ﷺ يومئذ عشرون سنة. وكان أول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ.

وكان سببه، أن رجلاً من زبيد، قدم مكة ببضاعة له، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وكان ذو شرف، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف: عبد الدار ونخزوماً وجمحاً وسهماً، فأبوا أن يعينوه على العاص، وزجروه. فلما رأى الزبيدي الشر، رقى على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فقال بأعلى صوته:



«يا آل فهر لظلموم بضاعته
وبمحرم أشعث لم يقض عمرته
يا للرجال وبين الحَجَر والحَجَر
ولا حرام لمن تمت مكارمه
ببطن مكة نائي الدار والنفر
إن الحرام لمن تمت مكارمه

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: «ألهذا مترك؟» فاجتمعت قريش وزهرة وتيم، في دار عبد الله بن جدعان، فتحالفوا وتعاهدوا في ذي القعدة الحرام ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم.

حتى يؤدي إليه حقه ما بلَّ بحر صوفة^(١)، وما رسا ثبير وحرء مكانهما، وعلى التأسي في المعاش. فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول. وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر. ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه [رواه ابن سعد].

ومن أبرز الحكم والعبر من خبر شهوده حلف الفضول:

١ - إذا كان بعض أهل الجاهلية يرفضون الظلم بدوافع فطرية أو انسانية فأولى بأهل الإسلام رفضه بدوافع عقدية، لأن الإسلام، جاء حاثاً على عدم الظلم و متمشياً مع الفطرة ومقومًا لها من أي انحراف.

ولا غرابة أن يؤكد الرسول ﷺ على أهمية ذلك الحلف لأن مضمونه هو مضمون ما دعا إليه الإسلام في أمر إحقاق الحق وإبطال الظلم.

٢ - إن الدور الذي قام به الزبير في هذا الحلف لدليل على مروءة رجال البيت الهاشمي، وبيان فضلهم على غيرهم في مثل هذه المواطن، وحسبهم فضلاً وشرفاً أن الرسول ﷺ كان منهم.

(١) يعني إلى الأبد، أي: ما قام في البحر ماء ولو قطرة.



أ- زواجه من خديجة

روى ابن إسحاق أن خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب كانت امرأة حازمة شريفة لبيبة، من أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكان رجال قومها يحرصون على الزواج منها. وكانت تستأجر الرجال من مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم. فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها، من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجرًا إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فوافق، وخرج مع غلام لها يدعى ميسرة. ومن خلال معايشة ميسرة للرسول ﷺ رأى من الآيات والمعجزات ما حكاها لسيدته خديجة، فرغبت في الزواج منه.

ومن تلك الآيات أن الرسول ﷺ عندما قدم بصرى من أرض الشام، نزل في ظل شجرة، فقال نسطورًا الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم قال لميسرة: (أفي عينيه حمرة؟ قال: نعم، لا تفارقه، قال: هو نبي، وهو آخر الأنبياء).

وكان ميسرة يرى ملكين يظلاله إذا اشتدت الهاجرة. وتقول الرواية إن خديجة رأت ذلك عندما دخل محمد ﷺ مكة في ساعة الظهيرة. وفي القصة أنه وقع بين الرسول ﷺ ورجل تلاح في البيع، فقال الرجل للنبي ﷺ: احلف باللات والعزى، فقال النبي ﷺ: «ما حلفت بهما قط، وإني لأمرٌ فأعرض عنهما».

وقال لميسرة: (هذا والله نبي تجده أخبارنا منعوتًا في كتبهم). وفي القصة أيضًا أن تجارة الرسول ﷺ ربحت ضعف ما كانوا يربحون، وأضعفت خديجة للنبي ﷺ ضعف ما سمّت له من قبل، وهو أصلاً ضعف ما كانت تعطي لغيره من قريش.

وذكرت خديجة لابن عمها ورقة بن نوفل قول الراهب نسطورًا الذي سمعه منه ميسرة، وهو: «ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي»، وما كان يرى ميسرة من إظلال



الملكين له، فقال ورقة: «لئن كان هذا حقًا يا خديجة، إن محمدًا لنبي هذه الأمة، وقد عرفت إنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، هذا زمانه» [رواه الطبراني في الأوسط بسند حسن].

كان هذا الذي سمعته خديجة من ميسرة وورقة تأكيدًا لما كانت تعرفه من أخلاقه وعلو شأنه، لذا رغبت في الزواج منه، فأرسلت صديقتها نفيسة بنت منية تعرض عليه ذلك، فوافق ﷺ على ذلك، فتم الزواج [رواه المحامي كما ذكر الذهبي في السيرة].

وقد أخرج البزار والطبراني عن جابر، بسند حسن، أن أختًا لخديجة استكرت رسول الله ﷺ وشريكًا له. فلما قضيا السفر بقي لهما عليها شيء، فجعل شريكه يأتيهم ويتقاضاهم، وعندما يطلب من محمد ﷺ أن يفعل مثله يعتذر بحجة أنه يستحي من ذلك. فذكرت ذلك لخديجة فأعجبت به وطلبت منه أن يخطبها إلى أبيها، فقال: «أبوك رجل كثير المال وهو لا يفعل. قالت: انطلق فאלقه وكلمه، ثم أنا أكفيك، واثت عند سكره».

روى ابن إسحاق في السير والمغازي، أن خديجة تزوجت قبل الرسول ﷺ، عتيق ابن عائد المخزومي فولدت له امرأة، ومن بعده تزوجت أبا هالة بن النباش التميمي، وولدت منه ابنها هندًا وامرأة، ومات أبو هالة في الجاهلية. [قاله ابن حجر في الفتح. وعند ابن سعد: ابن عابد].

وذكر ابن سعد أن أول من تزوجها هو أبو هالة، واسمه هند بن النباش بن زرارة، فولدت له رجلًا يقال له هند ثم خلف عليها بعده عتيق بن عابد بن عبد الله المخزومي، فولدت له جارية يقال لها هند، فتزوجها صيفي بن أمية بن عابد بن عبد الله. قلت: ولمحمد بن صيفي ترجمة في الإصابة والاستيعاب. أما الرسول ﷺ فكان أول من تزوجها هي خديجة، ولم يتزوج عليها حتى ماتت، [كما في صحيح مسلم].

وكان ذلك سنة خمس وعشرين من مولده ﷺ في قول الجمهور، منهم ابن إسحاق.



واختلف العلماء في الذي تولى أمر زواجها. فقد ذكر البيهقي أن الذي زوجه إياها هو أبوها خويلد، وهو سكران، وفي نهاية الخبر يقول الراوي - المؤملي - عمر ابن أبي بكر: «والمجتمع أن عمها عمرو بن أسد الذي زوّجها». وقد ضعف الهيثمي هذا الخبر لأن فيه عمر بن أبي بكر - المؤملي - وهو متروك. وذكر ابن إسحاق أن الذي زوّجها هو أبوها خويلد، وقال السهيلي وابن كثير والشامي: إن ابن إسحاق ذكر في السيرة أن أخاها عمرو بن خويلد هو الذي زوجه، ولكن لم نجد ذلك في المطبوع من سيرة ابن إسحاق. وذكر الواقدي أن عمها عمرو بن أسد هو الذي ولي نكاحها، وخطأ من قال بغير هذا، لأن والدها - كما ذكر - مات قبل حرب الفجار، ووافقه على هذا السهيلي، وابن سيد الناس وابن عبد البر، والشامي.

قال طرهوني أنه إذا ثبت هلاك والدها قبل الفجار فيلزم أن يكون الذي تولى نكاحها هو عمها. والظاهر أن أحاديث ولاية أبيها لنكاحها أقوى، لأنها جاءت من عدة طرق تعتضد لترتقي إلى درجة الحسن لغيره، وعلى أقل تقدير تدل على أن للقصة أصلاً، والله أعلم.

وكان الذي ذهب مع الرسول ﷺ لخطبة خديجة، عمه حمزة. لقد كان لخديجة ^{رضي الله عنها} مكانة عظيمة عند الرسول ﷺ. ورويت في الصحيحين وغيرهما عدة أحاديث في مناقبها الكثيرة. ولا غرابة في ذلك، فهي ذات الخصال الحميدة التي ذكرنا طرفاً منها. وفوق ذلك فهي التي عرفت بين قومها بـ (الطاهرة العفيفة)، كما ذكر ابن عساكر [في تاريخه]. وهي التي رزق منها الرسول ﷺ جميع أبنائه ما عدا إبراهيم، فهو من مارية القبطية، كما ذكر ابن إسحاق وغيره. والمتفق عليه من أولاده منها: القاسم - وبه كان يكنى - ومات صغيراً قبل المبعث أو بعده، وبناته الأربع: زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم،



ثم فاطمة - وقيل كانت أم كلثوم أصغر من فاطمة - ثم ولده عبد الله، الذي ولد بعد المبعث، وكان يقال له الطاهر والطيب، كما ذكر ابن عساكر ويقال هما أخوان له. ومات الأبناء الذكور صغارًا باتفاق. أما البنات فأدركن البعثة ودخلن في الإسلام، وهاجرن معه ﷺ، كما روى البيهقي [في الدلائل وابن كثير].

وماتت خديجة عن خمس وستين سنة كما روى الواقدي، كما هو المشهور. وكان عمرها عندما تزوجها الرسول ﷺ أربعين سنة، كما هو المشهور [الواقدي].

ب- حكم وفوائد من هذا المقطع:

- ١- إن في إظلال الملكين له وشهادة الراهب له بالنبوة دليلًا على النبوة.
- ٢- إن في رغبة خديجة الزواج منه دليلًا على ما كان يتميز به الرسول ﷺ من أخلاق عالية.
- ٣- إن الأحاديث الصحيحة الواردة في فضل خديجة دليل على شرفها وعلو مكانتها عند الله تعالى ورسوله ﷺ والناس.
- ٤- لا غضاضة في أن تبدي المرأة الصالحة رغبة الزواج من الرجل الصالح كما فعلت خديجة ؓ عندما خطبت محمدًا إلى نفسها، رغبة فيه لصلاحه.
- ٥- إن أول ما يدركه الإنسان من هذا الزواج هو عدم اهتمام الرسول ﷺ بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها، فلو كان مهتمًا بذلك كبقية أقرانه من الشبان لطمع بمن هي أقل منه سنًا أو بمن ليست أكبر منه سنًا على أقل تقدير، أو بمن ليست ثيبًا. ويتجلى لنا أنه ﷺ إنما رغب فيها لشرفها ونبلها حتى إنها كانت تلقب بالعفيفة الطاهرة. ولقد ظل هذا الزواج قائمًا حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عامًا. وقد ناهز هو الخمسين من العمر، وفي تلك الفترة - من فترة الشباب إلى الخمسين - تكون رغبة الرجال في النساء



والميل إلى التعدد لدوافع الشهوة. ولكن الرسول ﷺ لم يفكر في ذلك، ولو شاء لوجد الكثير من النساء الراغبات أو الإماء، دون أن يخرج عن مألوف قومه.

٦- إن في التقاء العفيفة الطاهرة بالصادق الأمين، وإنجاب الذرية الصالحة من هذا الزواج، لمكرمة أكرم الله تعالى نبيه ﷺ بها، ليظل في مكانة اجتماعية مرموقة لا مطعن فيها.

• المبحث الثاني عشر: مشاركته في بناء الكعبة

• أ- مشاركته في بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود في مكانه:

روى البيهقي [في الدلائل والحاكم والطبري في التفسير، بسند صحيح]: «أن الله أوحى إلى إبراهيم ﷺ أن ابن لي بيتاً في الأرض، فضايق به ذرعاً، فأرسل الله ﷻ إليه السكينة، وهي ريح [شديدة خجوج] لها رأس، فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت، ثم تطوقت إلى موضع البيت تطوق الحية، فبنى إبراهيم، فكان بيني ساقاً كل يوم، حتى إذا بلغ مكان الحجر، قال لابنه: ابغني حجراً، فالتمس حجراً حتى أتاه به، فوجد الحجر الأسود قد ركب، فقال له ابنه: من أين لك هذا؟ قال جاء به من لم يتكل على بنائك، جاء به جبريل ﷺ من السماء فأتته».

وروى البيهقي [في الدلائل والحاكم، بسند صحيح] من طريق آخر بمعناه، وزاد فيه، أنه عندما انهدم بنته العمالقة، وعندما انهدم للمرة الثانية بنته جرهم وعندما انهدم للمرة الثالثة بنته قريش ورسول الله ﷺ يومئذ رجل شاب. وروى عبد الرزاق والذهبي بسند صحيح أنه عندما أرادوا هدمه إذ هم بحية على سور البيت فروعتهم، فلم يقدروا على هدمه. فاجتمعت قريش عند البيت، وتضرعوا إلى الله ليزيل عنهم هذا البلاء، فأرسل الله طائراً فغرز مخالبه في قفا الحية، ثم انطلق بها يجرها حتى انتهى بها نحو أجياد، فتمكنت قريش من هدم الكعبة لإعادة البناء. وروى الحاكم بسند صحيح أنه عندما



أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود إلى مكانه، اختصموا فيه. فقالوا نحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السَّكَّة، فكان رسول الله ﷺ أول من خرج عليهم، ففضى بينهم أن يجعلوه في مِرْط، ثم ترفعه جميع القبائل.

وروى الإمام أحمد [في المسند بسند حسن]، وأهل السير أن قريشاً عندما اختلفت في وضع الحجر الأسود في مكانه، قالوا: اجعلوا بينكم حكماً، فقالوا أول رجل يطلع من الفج، فجاء رسول الله ﷺ فقالوا: أتاكم الأمين، فقالوا له، فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم، فرفعوا نواحيه، فوضعه النبي ﷺ في مكانه المطلوب.

ولولا حكمة الله ﷻ وهداية رسوله ﷺ إلى هذا الحل، لسفكت الدماء؛ فقد روى ابن إسحاق أن الخلاف في وضع الحجر الأسود قد وصل إلى أن قرَّبَتْ بنو عبد الدار جَفَنَةً مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، ومكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً، دون أن يردّها إلى الوفاق أي رأي أو تدبير، حتى كان خمود نار الفتنة على يد رسول الله ﷺ.

وروى عبد الرزاق بسند صحيح، أنه عندما أكملوا البناء ساق الله إليهم سفينة من أرض الروم، فانكسرت قريباً من جدة، فخرجت قريش ليأخذوا خشبها، فوجدوا رومياً نجاراً عندها، فأخذوا الخشب بإذنه، وقدموا بالخشب والنجار الرومي، ليبنى لهم به عرش الكعبة.

وقد جزم عبد الرزاق - وسنده صحيح - وابن إسحاق، أن عمر النبي ﷺ إذ ذاك كان خمسة وثلاثين عاماً، وهو المشهور.



ب- حكم وعبر من هذا المقطع:

١- إن قبول قريش تحكيم الرسول ﷺ في أمر وضع الحجر الأسود في مكانه من البيت الحرام، ووصفهم له بالأمين، دليل على تربية الله ﷻ لنبيه صلى الله عليه على مكارم الأخلاق التي كان من بينها الصدق والأمانة.

٢- إن الاقتراح الذي توصل إليه الرسول ﷺ لحل هذه الأزمة كان بتوفيق من الله تعالى ليلفت أنظار الناس إلى ما سيختاره له الله من القيام بأمر أكبر من هذا لتوحيد الناس... وهو الإسلام.

٣- جاء إسهام الرسول ﷺ في القضايا الكبرى التي عاشتها مكة آنذاك، متنوعاً شاملاً مغطياً شتى مساحات العمل البشري الجماعي، وكأنه أريد له أن يجرب كل شيء، وأن يسهم عاملاً في كل اتجاه، وأن يبني عبر نشاطاته المتنوعة جميعاً شخصية قادرة على التصدي لكل مشكلة، والإسهام الإيجابي الفعال في كل ما من شأنه أن يعيد حقاً أو يقيم عدلاً... وكان إسهامه في بناء الكعبة، وحل مشكلة وضع الحجر الأسود التي كادت تؤدي إلى فتنة، اثنين من بين عدة أنشطة متنوعة قام بها الرسول ﷺ فأكسبته خبرة في مجال التعامل مع الأحداث [انظر: د. عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، ص ٤٨-٤٩].

• المبحث الثالث عشر: من إرهابات النبوة:

• أ- من إرهابات النبوة عند أهل الكتاب وكهان العرب عندما قارب زمن بعثة الرسول ﷺ:

عقد ابن إسحاق [في السيرة] فصلاً عن أخبار الكهان من العرب والأخبار من اليهود والرهبان من النصارى بقرب مبعث النبي ﷺ.

ومما روي في أمر كهان العرب بطرق صحيحة حديث ابن عباس - عند مسلم - في رمي الجن بالنجوم قطعاً لمصدر كهانة العرب في الجاهلية. وخبر سواد بن قارب



الأزدي السدوسي الكاهن مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما روى البخاري وابن إسحاق، حيث كان سواد يقول: «إن الشياطين قد سكنت ذليلة مغلوبة قبيل مبعث النبي ﷺ»، وكان سبب إسلامه هو ما رواه من إرهاصات عن طريق ممارسته الكهانة والاستعانة بالجن في ذلك، كما جاء ذلك في خبره.

وفي القصة [عند أحمد في المسند والبيهقي في الدلائل]، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يحدث الناس: «والله إني لعند وثن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش قد ذبح له رجل من العرب عجلًا، فنحن نتنظر قسمه ليقسم لنا منه إذ سمعنا من جوف العجل صوتًا ما سمعت صوتًا قط أنفد منه، وذلك قبيل الإسلام بشهر أو شيعه، يقول: يا ذريح، أمر بـجريح، رجل يصيح، يقول: لا إله إلا الله».

روى ابن إسحاق بسند حسن، في إخبار يهود برسول الله ﷺ أن يهوديًا كان من جيران بني عبد الأشهل، حدثهم عن البعث والجزاء فاستنكروا ذلك وطالبوه بآية ذلك، فقال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده جهة مكة واليمن.

وروى ابن إسحاق أن من أسباب إسلام نعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد ابن عبيد من يهود بني هدل، إخوة بني قريظة، ما أخبرهم به يهودي يقال له ابن الهيثبان، قدم من الشام إلى المدينة قبيل البعثة بسنين. قال لهم إن سبب قدومه المدينة توقع خروج نبي فيتبعه، ودعا اليهود إلى اتباعه وألا يسبقهم إليه أحد، وذكر لهم بعض صفاته. فعندما تأكدوا منها يوم حصار قريظة أسلموا.

وفي قصة سلمان الفارسي [عند البخاري وابن إسحاق]، وخروجه من بلاده بحثًا عن الدين الحق وتقلبه في الرق إلى أن جاء إلى المدينة، وقصة ورقة بن نوفل - عند البخاري



وأحمد في المسند والحاكم - وزيد بن عمرو بن نفيل وخروجهما من مكة بحثًا عن الدين الحق حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، قال الراهب لزيد: (إن الذي تلتمس يوشك أن يظهر في أرضهما). في هذه القصص وغيرها دليل على ما كان سائدًا عن اليهود والنصارى في ذلك الوقت، من اعتقاد بقرب ظهور النبي ﷺ. وللصفات التي عرفت من الأخبار والرهبان عن الرسول ﷺ أسلم سلمان الفارسي.

وجاء في صحيح الأخبار [مثل الذهبي في السيرة وابن حبان في الصحيح والطبراني والحاكم] أن الله تعالى لما أراد هدي زيد بن سحنة - الحبر اليهودي - قال: «إنه لم يبق من علامات النبوة إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهلة، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا»، فخالط الرسول ﷺ حتى تأكد من هاتين الخصلتين. [يأتي تفصيل هذا الخبر في فصل الشرائع]

وجاء في الأخبار [كما عند ابن سعد وأبي نعيم في الدلائل، بسند مقبول عند ابن حجر] أن سبب إسلام عامر بن ربيعة العدوي هو ما كان يقوله زيد بن عمرو بن نفيل من أنه ينتظر نبيًا من ولد إسماعيل من بني عبد المطلب اسمه أحمد، ولا يرى أن يدركه، وكان ينعته للناس، لما عرفه عنه من أهل الكتاب.

وروى أبو نعيم [في دلائله، بإسناد حسن] أن قس بن ساعدة الإيادي كان يقول: «أقسم قس قسًا براء لا إثم فيه، ما لله على الأرض دين هو أحب إليه من دين أظلكم إبانته وأدرككم أوانه، طوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن أدركه ففارقه...».

وقال المفسرون - مثل الطبري - وأهل السير - مثل ابن إسحاق - إن الآية: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا



جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ [البقرة: ٨٩] نزلت في اليهود الذين كانوا في صراع مع الأوس والخزرج. وإذا نال الأوس والخزرج منهم قالوا لهم إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما ظهر اتبعه الأوس والخزرج وكفرت به اليهود.

وقصة هرقل مع أبي سفيان [في الصحيحين] تدل على ذلك، خاصة قول هرقل لأبي سفيان: «إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمِي هَاتَيْنِ».

وجاءت الأحاديث النبوية مصرحة بأن محمداً ﷺ قد كتب نبياً منذ القدم. فقد روى الإمام أحمد [في مسنده بسند صحيح]، والترمذي [في سننه بسند صحيح]، قول الرسول ﷺ: إنه كان نبياً «وآدم بين الروح والجسد». وعند أحمد من حديث العرياض بن سارية: «وإن آدم لَمُنْجِدٌ فِي طَيْتِهِ». وعند أبي نعيم [في الدلائل]، قال: قال رسول الله ﷺ: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث».

ب- بعض الحكم والعبر:

١ - وخلاصة القول إن علماء اليهود والنصارى كانوا يعرفون الرسول ﷺ قبل مبعثه مما يجدونه من أوصافه وزمان خروجه في التوراة والإنجيل. وقد أشار القرآن إلى ذلك في عدة آيات. [مثل الآية ١٤٦] من سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ولذلك أسلم بعض اليهود وفي مقدمتهم عبد الله بن سلام وبعض النصارى وفي مقدمتهم النجاشي ملك الحبشة. وإن ممن امتنع عن الدخول في الإسلام لأسباب مادية أو سياسية كما هو الحال في قصة حيي بن أخطب وهرقل ومقوقس مصر.



٢- ويضاف إلى هذا ما سبق أن قلناه عند الكلام عن رحلته ﷺ إلى الشام والحكم المستفادة من ذلك.

• المبحث الرابع عشر: التحنث في غار حراء

• كان رسول الله ﷺ ينفرد إلى نفسه متقرباً إلى الله ﷻ في غار معروف بغار حراء. وقد حُبب الله إليه ذلك، لم يأمره بذلك أحد. فكان يبقى في هذا الغار الأيام والليالي إلى أن أتاه الوحي فيه [كما في البخاري]، وكانت سنه آنذاك أربعين سنة.

وكان يمكث في حراء شهراً من كل سنة، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية، كما ذكر ابن إسحاق، ويطعم من جاءه من المساكين. وإذا قضى جواره من شهره هذا، كان أول ما يبدأ به الطواف بالكعبة، وكان ذلك الشهر رمضان.

وقد اختلف العلماء في تعبدته ﷺ قبل البعثة، هل كان على شرع أم لا؟ وما ذلك الشرع؟ ف قيل شرع نوح، وقيل شرع إبراهيم، وهو الأشبه الأقوى، وقيل موسى، وقيل عيسى، وقيل كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به. ولبسط هذه الأقوال ومناسبتها مواضع أخرى، مثل كتاب البداية. وذكر ابن حجر - في الفتح - عن بعض المشايخ أنه كان يتعبد بالتفكر.

وذكر قول ابن أبي جمرة - في بهجة النفوس - أن الحكمة في تخصيصه بالتخلي في حراء أن المقيم فيه كان يمكنه رؤية الكعبة فيجتمع لمن يخلو فيه ثلاث عبادات: الخلوة، والتعبد، والنظر إلى البيت الحرام.

ولم تنازع قريش النبي ﷺ في غار حراء مع مزيد الفضل فيه على غيره، لأن جده عبد المطلب أول من كان يخلو فيه من قريش، وكانوا يعظمونه لجلالته وكبر سنه، فتبعه على ذلك من كان يتأله. [الفتح].



• المبحث الخامس عشر: الإرهاصات قبيل البعثة

• أ- من إرهاصات النبوة قبيل البعثة:

قالت عائشة رضي الله عنها: «إن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيًا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث - يتعبد - فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله. ويتزود لذلك. ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء...» [متفق عليه].

وروى مسلم والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأعرف حجرًا بمكة، كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث. إني لأعرفه الآن».

وروى ابن عساكر أن ملكين أتياه وهو ببعض بطحاء مكة، فقال أحدهما للآخر: «زنه برجل، فوزنه، فرجع به محمد ﷺ إلى أن وزنه بألف من أمته فرجحهم، ثم قال له: لو وزنته بأمته لرجحها. ثم قال أحدهما للآخر: شق بطنه، فشقه، ثم أخرج منه فَعَمَ - حظ - الشيطان، وعَلَقَ الدم، فطرحها، فقال أحدهما للآخر: اغسل بطنه غسل الإناء، ففعل، ثم دعا بالسكينة فأدخلت قلبه، ثم قال أحدهما للآخر: خط بطنه، ففعل، وجعلنا الخاتم بين كتفيه، ثم وليا عنه، وكأنها يعاين الأمر معاينة».

وروى البيهقي [في دلائله] أنه خرج من عند خديجة، ثم عاد فأخبرها أنه رأى بطنه قد شق، ثم طهر وغسل، ثم أعيد كما كان، فقالت: «هذا والله خير فأبشر».

وقال النبي ﷺ لخديجة [كما روى أحمد في مسنده بسند حسن]: «إني أرى ضوءًا وأسمع صوتًا وإني أخشى أن يكون بي جنن». قالت: «لم يكن الله ليفعل ذلك بك يا ابن عبد الله»؛ ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت ذلك له، فقال: «إن يك صادقًا فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي فسأعزره، وأنصره، وأومن به».



ب- العبر والعظات:

١- إن الآيات والمعجزات التي وقعت للرسول ﷺ من قبيل الإرهاصات الدالة على تميزه عن غيره من الحنيفيين الذين عاصروه، وأن الله ﷻ سيختاره هو بالذات لأمر عظيم.

٢- تقرير أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، إذ إن فترة الوحي كانت ثلاثاً وعشرين سنة منها ستة أشهر كانت مناماً.

٣- استحباب العزلة لفترات تعين المسلم على التفكير في أحوال المجتمع إذا سادت فيه الجاهلية والفساد. أما الاعتزال الدائم للمجتمع والذي ابتدعته جماعة من الجماعات الدينية في زماننا هذا فهو مخالف لسنته ﷺ العملية والقولية. فلم يعرف عن الرسول ﷺ أنه اعتزل المجتمع، وقال في نبذ مثل هذه الاتجاهات:

«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» [أحمد: المسند، بسند صحيح].

«المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس» [الدارقطني، بسند صحيح].

● المبحث السادس عشر: الوحي

● أ- نزول الوحي:

روى الشيخان أن أمين الوحي فجأ الرسول ﷺ لأول مرة في يوم الاثنين، الحادي والعشرين من شهر رمضان، من العام الأربعين لميلاده ﷺ، بينما كان يتحنّث بغار حراء. وقال له: اقرأ، قال في الحديث: «فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني الثانية فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني الثالثة حتى



بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) [العلق: ١] حتى بلغ إلى قوله: ﴿مَا تَرَىٰ فِيهِ عَاقِبَةً﴾ [العلق: ٥]. قالت عائشة رضي الله عنها - راوية الحديث -: «فرجع بها ترَجُفُ بَوَادِرُهُ حتى دخل على خديجة، فقال زَمَلُونِي، فزَمَلُوهُ حتى ذهب عنه الرَّوْعُ، فقال: يا خديجة، ما لي! وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا، فوالله لا يُخْزِيكَ الله، إنك لَتَصِلَ الرَّحِمَ وَتَصْدُقَ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ [الذي لا يستقل بأمره] وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وكان امرأتَنَصَّرَ في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِيَ. فقالت: اسمع من ابن أخيك، فقال: يا ابن أخي ما ترى؟ فأخبره. فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعًا أكون حيًا حين يخرجك قومك، قال: أو مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأتي أحد بها جئت به إلا عُوْدِي أو أُوْدِي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزَّرًا. ثم لم يلبث ورقة أن توفي».

أما الخبر الذي أورده ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن] عن كيفية بدء الوحي، والذي قال فيه: «فجاءني جبريل وأنا نائم بِنَمَطٍ من دِيْبَاج فيه كتاب، فقال: اقرأ...» فهو يخالف في الظاهر حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري ومسلم الذي فيه التصريح بأن مجيء الوحي كان في حالة اليقظة، وأن الرؤيا الصادقة كانت قبل نزول الوحي، ولذا قال السهيلي: (وقد يمكن الجمع بين الحديثين بأن النبي ﷺ جاءه جبريل في المنام قبل أن يأتيه في اليقظة، توطئة وتيسيرًا عليه ورفقًا به، لأن أمر النبوة عظيم، وعبوها ثَقِيل، والبشر ضعيف).

وقال ابن كثير [في البداية] بما قاله السهيلي، ثم زاد: (...) وقد جاء مصرحًا بهذا في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري، إنه رأى ذلك في المنام، ثم جاءه الملك في اليقظة،



وقال في مكان آخر: «ويحتمل أن هذا المنام كان بعدما رآه في اليقظة صبيحة ليلتئذ، ويحتمل أنه كان بعده بمدة، والله أعلم».

ب- العبر والعظات والدلائل:

١- دل تصرف خديجة إزاء ما وقع للرسول ﷺ في الغار على رجاحة عقلها، وحسن تصرفها، وفضلها، وسلامة فطرتها.

٢- دل تحليل ورقة لظاهرة ما حدث للرسول ﷺ في الغار على صحة علمه وفضله.

٣- يتبين من رؤية الرسول ﷺ جبريل بعينية، يقظة، أن ظاهرة الوحي ليست أمرًا ذاتيًا داخليًا مرده إلى حديث النفس المجرد أو ما شابه ذلك من التمحلات، وإنما هي استقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات. وضم الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات، قائلًا في كل مرة: «اقرأ...» يعتبر تأكيدًا لهذا التلقي الخارجي ومبالغة في نفي ما قد يتصور من أن الأمر لا يعدو كونه خيالًا داخليًا فقط.

٤- أ- يدل خوفه مما حدث له مع جبريل على أنه ﷺ لم يكن متوقعًا الرسالة التي سيدعى إلى حملها وبثها في العالم. وبذلك يتضح لكل عاقل مفكر أن ظاهرة الوحي هذه لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما قد يتصوره أن يخطر في باله، وإنما طرأت طروءًا على حياته وفوجئ بها دون أي توقع سابق. ولا شك أن هذا ليس شأن من يتدرج في التأمل والتفكير إلى أن تتكون في نفسه - بطريقة الكشف التدريجي المستمر - عقيدة يؤمن بالدعوة إليها!، كما يدعي بعض المستشرقين مثل كارادوفو الفرنسي.

ب- الله ﷻ قادر على أن يربط على قلب رسول الله ﷺ ويطمئن نفسه بأن الذي كلمه ليس إلا جبريل - ملك من ملائكة الله ﷻ جاء ليخبره أنه رسول الله إلى الناس - ولكن الحكمة الإلهية الباهرة تريد إظهار الانفصال التام بين شخصية



محمد ﷺ قبل البعثة وشخصيته بعدها، وبيان أن شيئاً من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامي لم يكن في ذهن الرسول ﷺ مسبقاً ولم يتصور الدعوة إليه سلفاً.

ج- إن فيما ألهم الله ﷻ به خديجة من الذهاب به ﷺ إلى ورقة، تأكيداً من جانب آخر بأن هذا الذي فوجئ به ﷺ إنما هو الوحي الإلهي الذي كان قد أنزل على الأنبياء من قبله، وإزالة لغاشية اللبس التي كانت تحوم حول نفسه بالخوف والتصورات المختلفة عن تفسير ما رآه وسمعه [البوطي].

د- لو كان الوحي أمراً ذاتياً لما جاءت آيات في القرآن تعتب عليه أو تلومه لبعض التصرفات. مثل: عتابه له حين أعرض عن صاحبه عبد الله بن أم مكتوم، حين حضر إليه ليعلمه مما علمه الله، وفي حضرته بعض كبار كفار قريش. وسميت سورة في القرآن بمضمون هذا الموقف. وهي سورة (عبس)، وعتابه له في أسرى بدر كما سيأتي ذكره، وفي زواجه من زينب بنت جحش عليها السلام كما سيأتي ذكره، وعتابه له حين أذن لمن طلب منه التخلف عن غزوة تبوك: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكِ الْذِينَ صدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، وعتابه حين أراد أن يعطي كفار قريش ما أرادوا، حين طلبوا عدم الجلوس مع الموالي، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ﴾ [الأنعام: ٥٢].

هـ- لو كان الوحي أمراً ذاتياً لما خاطب الله تعالى نبيه بقوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أنزلنا إليك فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]

و- لو كان الوحي أمراً ذاتياً لما كان الرسول ﷺ يسكت عن إجابات السائلين لفترة زمنية قد تطول وقد تقصر، ولما عانى من نتائج بعض الأحداث، مثل حادث الإفك الذي استمرت محنته لشهر... إلخ.



٥ - اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الرسول ﷺ أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وفي ذلك إبعاد لشبهة الشك في مصدر القرآن، وفي ذلك يقول المولى رحمه الله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَّا تَبَآبَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

• المبحث السابع عشر: انقطاع الوحي

• أ- فترة انقطاع الوحي ثم تتابعه:

انقطع جبريل ﷺ عن النبي ﷺ بعد هذا فترة من الزمان، اختلف العلماء في مدتها. قال البوطي: (والراجح ما رواه البيهقي من أنها كانت ستة أشهر). وقيل إن الأقرب إلى الصواب هو ما روي عن ابن عباس أن فترة انقطاع الوحي كانت أربعين يوماً، وقيل إنها كانت أياماً. وجزع الرسول ﷺ من هذا الانقطاع. [ولم يذكر البوطي مكان الشاهد من مؤلفي البيهقي: الدلائل والسنن الكبرى، أو غيرهما. والذي وقفنا عليه في السنن الكبرى (٦/٩) أن الوحي انقطع، ولم يذكر أنها ستة أشهر.]

بعد فترة الفتور أو الانقطاع المذكورة، نزل عليه الوحي مرة أخرى. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله ﷻ: ﴿تَأْتِيهَا الْمَدَائِرُ ۝١ قُلْ فَانذَرِ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿وَالرُّجُفَ فَهْجُرْ﴾ [الدثر: ١-٥]، فحامي الوحي وتواتر» [متفق عليه].

ب- الحكمة من هذا الانقطاع:

١ - ليحصل للرسول ﷺ التشوق إلى العود بعد أن تثبت لديه الحقيقة أنه أضحى نبياً [ابن حجر: الفتح].

٢ - إن في انقطاع الوحي ثم استمراره تأكيداً للحقيقة التي ذكرناها، وهي أن الوحي ظاهرة منفصلة عن ذات الرسول ﷺ.



• المبحث الثامن عشر: مراتب الوحي

قال ابن القيم في زاد المعاد: إن الله تعالى قد كمل لنبيه من مراتب الوحي مراتب عديدة: أحدها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحي الله إليه، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح...» [متفق عليه].

الثانية: ما كان يلقيه الملك في رُوعه وقلبه من غير أن يراه كما قال النبي ﷺ: «إن روح القدس نفث في رُوعي إنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب... الحديث» [الحاكم وغيره، صحيح بشواهده].

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً [مسلم].

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض... [متفق عليه].

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما في سورة النجم [مسلم].

السادسة: ما أوحاه الله ﷻ وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله ﷻ إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وثبوتها لنبينا ﷺ وهو في حديث الإسراء والمعراج، [من رواية مسلم]، الذي فيه قول الرسول ﷺ: «.... ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف



الأقلام»، ويفهم من حديث مراجعة محمد ﷺ ربه ﷻ في أمر تخفيف الصلاة من خمسين إلى خمس، أنه كان يكلمه بلا واسطة.

• المبحث التاسع عشر: مراتب الدعوة ومراحلها

• أ- مراتب الدعوة:

ذكر لها ابن القيم [في زاد المعاد] خمس مراتب:

الأولى: النبوة، الثانية: إنذار عشيرته الأقربين، الثالثة: إنذار قومه، الرابعة: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله، وهم العرب قاطبة، الخامسة: إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

• ب- مراحل الدعوة خلال حياة الرسول ﷺ:

المرحلة الأولى: الدعوة سرًا، واستمرت ثلاث سنين.

المرحلة الثانية: الدعوة جهراً والكف عن القتال. واستمرت إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهراً مع قتال المبتدئين بالقتال، واستمرت إلى صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: الدعوة جهراً، مع قتال كل من يقف في سبيل سير الدعوة

[البوطي والباركفوري].

• وقفت عند فقه هذه المراحل:

ربما يتبادر سؤال إلى الذهن، وهو: هل يجب على دعاة قيام الدولة الإسلامية - خاصة في العصر الحديث - التقيد بهذه المراحل بمداها الزمني كما وقعت للرسول ﷺ؟ والجواب عن هذا السؤال، وهو أنه ليس عليهم التقيد بهذه المراحل ولا بالمدى الزمني الذي مرت به في حياة الرسول ﷺ. وذلك لأن المدى الزمني لتلك المراحل تقدير رباني وليس جهداً بشرياً فقط. فالتقيد بهذه المراحل لا يتمشى مع مرونة الإسلام في معالجة الأمور ومواجهة الأحداث. والسيرة النبوية التي تمثل حركة



الإسلام تفتح أمام الدعاة نماذج للخيارات المتعددة التي يقدمها المنهج الإسلامي بحركته الفذة الفريدة... وما السرية، أو طلب النصرة، أو الهجرة إلا وسائل اتخذها رسول الله ﷺ لنشر دعوته، ضمن ظروف ومواصفات معينة...

فمثلاً نجد في زماننا هذا أن الدول الغربية الديمقراطية لا تحجر أي نشاط لرجال الأديان المختلفة، فلا ضرورة هنا للتقيد بمرحلة السرية في الدعوة. بينما نجد الدول الشيوعية لا تسمح للمسلم بممارسة أي نشاط دعوي أو سياسي، فيضطر أن يستخفي بدينه حتى يتمكن، وهنا تصبح السرية ضرورة اقتضتها ظروف معينة. وإذا اقتضت حكمة الدعوة أن يكون هناك عمل سري وآخر علني فلا بأس، وذلك في مثل البلاد التي تسمح بنشاط المسلمين في حدود ضيقة جداً.

وخلاصة القول: إن السرية تقدر بقدرها، حسب ظروف البيئة التي يعيشها المسلم [زهير سالم: عثرات وسقطات].

• المبحث العشرون: بداية الدعوة

• أ- المرحلة الأولى: الدعوة السرية؛

استجاب الرسول ﷺ للأوامر الإلهية التي صدرت له بالتبليغ، وقد جاءت هذه الأوامر واضحة في الآيات التي نزلت بعد آيات سورة العلق: ﴿تَبٰرَكَ الَّذِيْٓ اَنْزَلَ الْقُرْآنَ ذِكْرًا ۝١ وَرَبِّكَ فَكَّرَ ۝٢ وَبِاٰتِكَ فَطَعَزَ ۝٣ وَالتَّجْرَفَ فَهَجَزَ ۝٤ وَلَا تَمَنَّٰنْ تَسْتَكْبِرُ ۝٥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٦﴾ [المدر: ١-٧].

لقد لخصت هذه الآيات الكريبات مضمون الدعوة التي أنيط به تبليغها إلى الناس. ولا تكاد الآيات القرآنية التي نزلت في مكة تخرج عن إطارها العام.

ففي قوله تعالى له: ﴿تَبٰرَكَ الَّذِيْٓ اَنْزَلَ الْقُرْآنَ ذِكْرًا ۝١﴾، إشارة إلى أن زمان التدثر والخلود إلى الراحة في المضجع بين الزوجة والأبناء قد ولى، وجاء زمان المجاهدة بكل أبعادها، المادية والمعنوية.



وفي قوله: ﴿قُلْ أَذِذُوا﴾، إشارة إلى تكليفه بأمر دعوة كل الناس إلى الإسلام. وفي قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ فَكْبَرُ﴾، إشارة إلى أن ليس في الوجود أكبر من الله تعالى خالق الوجود. ولذا عليه أن يُعلم الناس بهذه الحقيقة ليتواضع الناس كلهم لله الكبير المتعال. وهذا هو التوحيد المطلق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، إشارة إلى أن الداعية إلى الله ﷻ لابد أن يبدأ بتطهير نفسه ظاهراً وباطناً حتى يكون المثل الأعلى لمن يدعوهم إلى الطهارة بكل معانيها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالْزُّجَرُ فَهَاجِرُونَ﴾، إشارة إلى أن التوحيد الخالص يقتضي عدم تعظيم أو تقديس أي شيء سوى الله تعالى الخالق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ﴾، إشارة إلى أن ما خص به من منع إعطاء الشيء ابتغاء شيء أكثر منه هو أنه مأمور بأجل الأخلاق وأشرف الآداب ليكون مثلاً أعلى للبشرية وهو يدعوها إلى مكارم الأخلاق.

وللقيام بهذه الأمور كان لابد من ختمها بحقيقة هامة للوصول إلى الأهداف المرجوة من هذه الأوامر، هذه الحقيقة هي أن تحمّل أمانة الدعوة في عناصرها المذكورة لابد له من الصبر على كل أصناف أذى المعارضين، والصبر على تربية الأتباع، والصبر على الإبتلاء، قال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

نهض الرسول ﷺ من فراشه وأخذ يدعو إلى ما أمر به سرّاً لمدة ثلاث سنين كما ذكر ابن إسحاق، ولفظه: «وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين - فيما بلغني - من مبعثه». ومما يدل على السرية في الدعوة ما جاء في خبر إسلام عمرو بن عَبَسَةَ ؓ عند مسلم، حيث قال:



«أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعث وهو بمكة وهو حينئذٍ مُسْتَخْفٍ...». وبدأ بالدعوة إلى التوحيد ونبذ كل مظاهر الشرك.

وكان تحركه في هذه الفترة [كما روى ابن هشام] وسط الذين تربطهم به صلات، مثل زوجته وبناته ومولاه زيد بن حارثة وربيبه علي بن أبي طالب وأصدقائه وكل من يطمئن إلى أنه يكتم السر. ولهذا يلحظ أن من أوائل الذين دخلوا في الإسلام:

١ - زوجته خديجة عليها السلام التي كانت أول من آمن بالله وبرسوله - كما هو مشهور - وهونّت عليه أمر الناس، وكانت بذلك أول مَنْ أَمَرَ الرسول ﷺ بتبشيره بالجنة، قال رسول الله ﷺ [في الحديث المتفق عليه]: «أمرت أن أبشر خديجة بيت من قصب، لا صخب فيه ولا نصب». وقد جاءت الأحاديث الصحيحة كثيرة في فضائلها وأخبارها.

٢ - ابن عمه علي بن أبي طالب الذي كان في حجره، وهو يومئذٍ ابن عشر سنين على أصح الأقوال [ابن إسحاق في السيرة بسند حسن].

٣ - مولاه زيد بن حارثة، الذي قال له الرسول ﷺ عندما جاء أبوه يطلبه [كما في صحيح الترمذي]: «إن شئت فأقم عندي، وإن شئت فانطلق مع أبيك، فقال: بل أقيم عندك»، فأقام عنده وحرره وتبناه، وعرف بـ(زيد بن محمد) حتى نزلت آية: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، وبذلك أبطلت عادة التبني.

٤ - أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو أول من صدق وأسلم من الرجال، وفيه قال الرسول ﷺ لعمر [من رواية البخاري]: «إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق...». وقال [من رواية ابن إسحاق في السير والمغازي بسند منقطع]: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر، ما عتَمَ حين ذكرته وما تردد فيه». وقال هو عن نفسه عندما اختير خليفة للمسلمين: «أَلَسْتُ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَا؟ أَلَسْتُ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ؟...» [صحيح الترمذي].



وفي إطار هذه السرية تحرك أبو بكر وسط أقاربه ومواليه وأصدقائه ومن يثق به من قومه. فاستجاب له نفر كريم، منهم: عثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف - [ابن إسحاق] -، وعثمان بن مظعون وأبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم رضي الله تعالى عنهم أجمعين. [ابن كثير: البداية].

ومن خلال علاقات هؤلاء وغيرهم أخذ الإسلام ينتشر في مكة وخارجها، ودخل فيه أناس من بطون قريش ومواليها كافة.

ومن اشتهروا بين السابقين إلى الإسلام من الموالى: بلال بن رباح وصهيب ابن سنان وعمار بن ياسر ووالده وأمه سمية بنت خباط [أحمد: فضائل الصحابة بسند حسن] [والخطأ المشهور (خياط)].

وفي فترة وجيزة وصل عدد الذين سبقوا إلى الإسلام من بطون قريش إلى أكثر من أربعين نفرًا، كما عدّهم ابن هشام، وأكثر من خمسين كما عدّهم اليعمري - ابن سيد الناس.

٥ - وثبت، من رواية أحمد [في المستند بسند حسن؛ وابن سعد (٣/ ٢٣٣)، مرسلاً صحيحاً]، أن ورقة بن نوفل كان من المسلمين الأوائل، وذلك بدليل قول الرسول ﷺ: «لقد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بياض». وقال ﷺ في رواية أخرى [عند أبي يعلى، بسند حسن]: «قد رأيته فرأيت عليه ثياب بياض أبصرته في بطنان الجنة، وعليه السندس»، وقال ﷺ [من رواية البزار بسند جيد، والحاكم بسند صحيح]: «لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين»، وقال: «يبعث يوم القيامة أمة وحدة» [الطبراني، رجال الصحيح].

ويتضح من سجل أسماء السابقين الأولين إلى الإسلام أنهم كانوا من خيرة أقوامهم، ولم يكونوا كما يذكر بعض الكتاب المسلمين وغيرهم أنهم كانوا في



معظمهم خليطاً من الفقراء والضعفاء والأرقاء الذين أرادوا استعادة حريتهم أو كرامتهم.

والقول السديد في هذا هو أن الذين تحملوا القسط الأكبر من التعذيب هم الأرقاء والموالي، وكانت فتنهم على ملأ من الناس، ولذا انتشر أمرهم، بينما امتنع الآخرون بأقوامهم، ومن عذب منهم عذب ضمن قبيلته.

ولذا لم ينتشر أمرهم، ولم يذكروا كثيراً [الشامي: المعين].

وفي هذه المعاني رويت عدة أحاديث، منها ما رواه أحمد [في الفضائل بسند حسن] عن ابن مسعود، قال: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس...».

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] إن قريشاً عدت على من أسلم ووثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم. وذكر أن رجلاً من بني مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد حين أسلم أخوه الوليد يستأذنونهم في اتخاذ ما يرونه من وسائل لصده عن الدين هو ومن أسلم معه من فتية بني مخزوم، الذين كان منهم سلمة ابن هشام وعياش بن أبي ربيعة. فسمح لهم بما يريدون وحذرهم من قتله.

وروى ابن إسحاق [بسند حسن] في قصة هجرة عمر وقصة عياش معه أن قريشاً منعت هشام بن العاص بن وائل السهمي من الهجرة مع عمر وعياش وفتنته فافتتن، واحتالوا على عياش فردوه من المدينة إلى مكة مقيداً.

وروى البخاري أن عمر بن الخطاب كان قبل أن يسلم يوثق سعيد بن زيد، ابن عمه وزوج اخته، ويكرهه ليرجع عن الإسلام. ولم يستطع الرسول ﷺ أن يفعل لهم شيئاً.



وحتى عندما استقر الرسول ﷺ بالمدينة لم يملك هؤلاء غير الدعاء، حيث كان يقول: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين بمكة، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» [متفق عليه؛ وأحمد في المسند].

وقد أوضح ابن حجر [في الفتح] معنى كلمتي (الضعفاء) و (الشرفاء) اللتين وردتا في حديث هرقل مع أبي سفيان. [يأتي ذكره]

فمعنى الأولى عنده أن أتباع الرسل في الغالب أهل الاستكانة لا أهل الاستكبار الذين أصروا على الشقاق بغياً وحسداً، كأبي جهل وأتباعه. وفي معنى الثانية أن الشرف يقصد به ما يرادف التكبر. وهذا هو التفسير الذي ينبغي أن نفهم في ضوئه ما يرد من عبارات تتعلق بالشرفاء أو المستضعفين.

هذا ويلحظ أن من مجموع السبعة والستين الذين سبقوا إلى الإسلام ثلاثة عشر فقط ممن هم من الفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء والأخلاق من مختلف الأعاجم. فهم إذن الخمس من المجموع. وما كان كذلك لا يقال عنه (أكثرهم) ولا (معظمهم) ولا (عامتهم) [الشامي: من معين السيرة].

ب- العبر والعظات في هذا المقطع:

١ - إن في إلهام الله تعالى لرسول الله ﷺ بأن يبدأ الدعوة سرّاً، تعليماً للدعاة في كل زمان ومكان، وإرشاداً لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيلة والحذر والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها. على أن لا يتغلب ذلك كله على الاعتماد والالتكال على الله تعالى وحده، وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيها معنى



التأثير والفعالية في تصوره وتفكيره. فهذا يחדش أصل الإيمان بالله تعالى، فضلاً عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام.

ومن هنا تدرك، أن أسلوب دعوته ﷺ في هذه الفترة كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماماً، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبياً [البوطي: فقه السيرة].

٢- أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم إذا ما أجمعوا على حربهم، فينبغي أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس، لأن المصلحة المقابلة، وهي مصلحة حفظ الدين، موهومة أو منفية الوقوع، وهذا ما يقرره العز بن عبد السلام [في قواعد الأحكام]. ويقول الدكتور البوطي في تعليقه على هذا القول إنه من حيث حقيقة الأمر وممراته البعيد، فإنها في الواقع مصلحة دين، إذ المصلحة الدينية تقتضي - في مثل هذه الحال - أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكي يتقدموا ويجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى. وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضراراً بالدين ذاته، وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقتاحوا ما كان مسدوداً أمامهم من السبل. وهو بهذا يعني أن عدم القتال تقديم لمصلحة الدين المتينة على مصلحة الدين المرجوحة.

• المبحث الحادي والعشرون: تطور الدعوة

• أ- المرحلة الثانية: الجهر بالدعوة

روى أحمد - في المسند، بسند حسن - عن علي رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال: جمع النبي ﷺ أهل بيته، فاجتمع ثلاثون، فأكلوا وشربوا، فقال لهم: «من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة



ويكون خليفتي في أهلي؟»، فقال رجل: يا رسول الله، أنت كنت بحرًا، من يقوم بهذا؟... فعرض ذلك على أهل بيته، فقال علي: أنا.

وفي رواية ابن إسحاق [في السيرة، بسند يتقوى بغيره]: أن الرسول ﷺ قال لهم في ذلك اللقاء: «يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شابًا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به، إني قد جئتمكم بأمر الدنيا والآخرة».

ثم خطا الرسول ﷺ خطوة أخرى لتنفيذ أمر الله تعالى. فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس، قال: «لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم». قال أبو لهب: تبًا لك، ما جمعنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

وروى الشيخان عن أبي هريرة، قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا. فاجتمعوا فعَمَّ وخص، فقال: «يا بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هشام!... يا بني عبد المطلب!... يا فاطمة!... فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رَحْمًا سَابِلُهَا بِلَالُهَا». [أي: سأصلها، شبهت قطعة الرحم بالحرارة، ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة الماء].

كانت هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ. فقد فاصل الرسول ﷺ قومه على دعوته، وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه



وبينهم، وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله ﷺ [البوطي].

ب- دروس وعبر من هذا المقطع:

١ - إن الموقف السلبي لعشيرة الرسول ﷺ بصفة خاصة والعرب القرشيين بصفة عامة من الدعوة في هذه الفترة، فيه الرد القاطع على من يحاولون تصوير هذا الدين بأنه ثمرة من ثمار القومية، ويدعون أن محمدًا ﷺ إنما كان يمثل بدعوته التي دعا إليها آمال العرب ومطامعهم في ذلك الحين.

٢ - إن في تباطؤ الناس عن الدخول في الإسلام، لدليلاً على مدى قوة وتغلغل العادات والتقاليد في المجتمعات التي تعيش ردحاً من الزمان في الجاهلية وفساد الفطرة. وهو وضع يواجهه الدعاة في كثير من المجتمعات قديماً وحديثاً، حتى المجتمعات الإسلامية، عندما يخبو فيها صوت الدعوة المهتدية بسنة الرسول ﷺ تجدد أثراً كبيراً للعادات والتقاليد في تسيير حركة المجتمع في المجالات المختلفة، وتجد استنكاراً ممن وقعوا في أسر هذه العادات والتقاليد، لصوت العقل المهتدي بسنة الرسول ﷺ والسلف الصالح، في فهم الإسلام.

٣ - إن في خصوصية الأمر بإنذار العشيرة، إشارة إلى درجات المسؤولية التي تتعلق بكل مسلم عموماً والدعاة منهم خصوصاً. فقد كان الرسول ﷺ يتحمل المسؤولية تجاه نفسه، بوصف كونه مكلفاً. ويتحملها تجاه أسرته وأهله، بوصف كونه رب أسرة وذا أسرة قربي، ثم كان يتحمل المسؤولية تجاه الناس كلهم بوصف كونه نبياً ورسولاً من الله ﷻ.

ويشارك مع النبي ﷺ في الأولى، كل مكلف، وفي الثانية كل صاحب أسرة، أو كل فرد له عشيرة، وفي الثالثة العلماء والحكام [البوطي].



• المبحث الثاني والعشرون: المشركون والدعوة

• أ- أساليب المشركين في محاربة الدعوة الإسلامية:

لم تنزل أصداء تلك الصيحة ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٣١٦) مدوية في جنبات أم القرى، حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) [الحجر: ٩٤] فقام الرسول ﷺ مشمراً عن ساعد الجد، صادعاً بالحق، داعياً إلى هجر الأوثان، مسفهاً عقول المؤمنين بها، مبيناً حقائق الإسلام، داحضاً الأباطيل العقدية التي تعشعش في عقول أهل الجاهلية.

عندما رأت قريش أن أثر هذه الدعوة لم يكن محدوداً كما كان الحال مع من دعا إلى نبذ الأصنام قبل محمد ﷺ، أمثال زيد بن نفيل وورقة وابن صيفي، قامت في وجه محمد ﷺ ومن تبعه، وأخذت تمارس شتى أساليب ووسائل الترغيب والترهيب، لصدهم عن هذا الطريق الذي هدد مصالحهم، التي يجنونها من وجود الحرم في أرضهم، وخط من تكبرهم على غيرهم، ووقف أمام شهواتهم في السيطرة واقتراف السيئات والموبقات. وقد كان أكثر هؤلاء من أصحاب النفوذ والمصالح.

ومن أبرز تلك الأساليب:

الأسلوب الأول: محاولة التأثير على عمه أبي طالب:

وهذا أول أسلوب لجأ إليه المشركون حتى يكفّ أبو طالب الرسول ﷺ عن الدعوة أو تجريده من جواره - أي حمايته - فقد ذهبت مجموعة من أشرافهم إلى عمه أبي طالب وقالوا له: إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تحلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً وردهم ردّاً جميلاً فانصرفوا عنه [ابن إسحاق].



الأسلوب الثاني: التهديد بمنازلة الرسول ﷺ وعمه أبي طالب:

ولما مضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يُظهر دين الله ويدعو إليه، غضبت منه قريش، وعادوه وحقدوا عليه وأكثروا من ذكره، وحض بعضهم بعضاً ومشوا إلى عمه مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنًا وشرفاً ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا. وأقسموا بأنهم لن يصبروا على أفعاله حتى يكفه عنهم أو ينازلوه وإياه في ذلك، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه، ولذا أبلغ الرسول ﷺ بالذي قالوه، وطلب منه أن يبقى عليه وعلى نفسه ولا يحمل من الأمر ما لا يطيق [ابن إسحاق].

وفي رواية ضعيفة لابن إسحاق: أن الرسول ﷺ ظن أن عمه قد ضعف عن نصرته، ولذا قال له: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته»، ثم بكى رسول الله ﷺ وقام من عند عمه، فلما ولّى ناداه عمه، فقال: «أقبل يا ابن أخي»، فلما أقبل قال له: «اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً». وفي رواية أخرى لابن إسحاق [بسند حسن] من حديث عقيل بن أبي طالب: أن أبا طالب أرسل عقيلاً إلى النبي ﷺ، فلما حضر الرسول ﷺ قال له عمه: «إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أن تؤذيهم في ناديتهم ومسجدهم، فانتبه عن أذاهم، فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: «أَتَرُونَ هذه الشمس؟» قالوا: نعم، قال: «فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة»، فقال أبو طالب: والله ما كذبنا ابن أخي، فارجعوا». وهذه الرواية هي الصحيحة.

ومن أبرز الحكم والعبر في هذين الأسلوبين، أن هذا الموقف القوي للرسول ﷺ من قومه ينسجم مع ما أمر به من البلاغ. أما موقف أبي طالب فعجيب حقاً، ولم يجد



ابن كثير [في البداية] تفسيراً له سوى قوله: (إن الله تعالى قد امتحن قلبه بحب محمد ﷺ حباً طبيعياً لا شرعياً. وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه. ولتجرؤوا عليه، ولمدوا أيديهم وألستهم بالسوء إليه، وربك يخلق ما يشاء ويختار.

وقد قسم خلقه أنواعاً وأجناساً، فهذان العمان كافران: أبو طالب وأبو لهب. ولكن هذا يكون يوم القيامة في ضحضاح من نار، [إشارة إلى الحديث المتفق عليه عن العباس رضي الله عنه أنه قال: «يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: نعم، هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار». والتخفيف عنه بسببه، والضحضاح: مارق من الماء على جه الأرض، ما يبلغ الكعيبين] وذلك أي أبو لهب في الدرك الأسفل من النار، وأنزل الله عز وجل فيه سورة في كتابه تتلى على المنابر وتقرأ في المواعظ والخطب تتضمن أنه سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب).

وظل أبو طالب طوال حياته ينهى الناس عن إيذاء الرسول ﷺ ويحميه وينأى عن الدخول في الإسلام. وقد روي أن الآية: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦]، قد نزلت فيه [تفسير الطبري وابن الجوزي].

الأسلوب الثالث: الاتهامات الباطلة لصد الناس عنه:

من تلك الاتهامات:

أ- اتهموه بالجنون. وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]. وقد أجابهم الله في آية القلم: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢]. وحكى عنهم في قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].



ب- اهتموه بالسحر. وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

وقد تحير الوليد بن المغيرة فيما يصف به القرآن. فعندما أوشك دخول موسم الحج جمع فريقه من عتاة المعاندين، فقال لهم: «يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأيا واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً...». وعلى الرغم من استبعادهم أنه كاهن أو شاعر أو ساحر إلا أنهم اتفقوا على أن يقولوا للناس إنه ساحر، لأنه يفرق بين الأقارب، فأنزل الله ﷻ في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١]، ثم أخذوا يتلقون الناس يحذرونهم من أمر محمد ﷺ. وشاء الله تعالى أن تصدر العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها [الطبري: التفسير].

وكان مثل هذه المواقف من أسباب إسلام الناس في المواسم. وما روي في قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي الدليل على ذلك [ابن إسحاق].

وخلاصة قصته: أنه عندما قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، مشى إليه رجال من كفار قريش، وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، فقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل [اشتد أمره، ومنه الداء المعضل أو العضال والمعضلة] بنا، وفرق جماعتنا وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئاً. فما زالوا به حتى وضع كُرْسَفاً [قطناً] في أذنيه، ولكن أراد الله ﷻ أن يسمع من النبي ﷺ عندما كان يصلي عند الكعبة، فيسلم، ويسلم قومه. إلخ.



ج- واتهموه بالكذب، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾

[ص: ٤]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّخْرُوتٌ﴾ [الفرقان: ٤].

د- واتهموه بالإتيان بالأساطير. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ

تُثْلَى عَلَيْهِ بِغُرَّةٍ وَأَصِيلٍ﴾ [الفرقان: ٥].

هـ- وقالوا إن القرآن ليس من عند الله، وإنما هو من عند البشر ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ

يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾

[النحل: ١٠٣].

و- واتهموا المؤمنين بالضلالة... ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءَ لَضَالُونَ﴾ [المطففين: ٣٢].

[من هؤلاء المؤمنين: عمار، وبلال، وخبَّاب، كما ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٦٠)].

الأسلوب الرابع: السخرية والاستهزاء والضحك والغمز واللمز والتعالي على المؤمنين؛

يقول الله تعالى عن سخريتهم من الذين آمنوا: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا

أَهَؤُلَاءَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. وروى البخاري:

أن امرأة قالت للرسول ﷺ ساخرة مستهزئة: «إني لأرجو أن يكون شيطانك قد

تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً!»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضَّحَىٰ ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾ [الضحى: ١-٣].

وروى البخاري أن أبا جهل قال مستهزئاً: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك

فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»، فنزلت: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن

كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ارْسِلْ عَلَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٣﴾ وَمَا

كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٤﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ

اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٢-٣٤].



وذكر ابن إسحاق [في السيرة] حديث الإراشي الذي اشترى منه أبو جهل الإبل، ومطله بأثانها، ودلالة قريش إياه على رسول الله ﷺ لينصفه من أبي جهل، استهزاء لما يعلمون من العداوة بينهما. وعندما جاء الإراشي إلى الرسول ﷺ شاكيًا، مشى معه إلى أبي جهل، وأخذ له بحقه. وعندما سألت قريش عن صنيعه هذا، قال: (ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابي، وسمعت صوته، ملئت رعبًا، ثم خرجت إليه، وإن فوق رأسه لفحلًا من الإبل، ما رأيت مثل هامته [رأسه] ولا قصرتة [أصل عنقه] ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيت لأكلني).

وقال الله تعالى عن ضحكهم وغمزهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ

﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣١].

وثبت من طرق صحيحة [في مسند أحمد ومصنف ابن أبي شيبة وسيرة ابن إسحاق] أن أشراف قريش اجتمعوا يومًا في الحجر يتذكرون أمر الرسول ﷺ وما جاء به. وبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ ليطوف بالبيت، فلما مرّ بهم غمزوه ببعض القول ثلاث مرات، فقال لهم: «يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح...»، وقد فزعوا من هذا الموقف.

ومن منطلق الاستعلاء والسخرية، قال المشركون للنبي ﷺ: «لا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء - يعنون صهيبيًا وبلاًا وخبابًا - فاطردهم عنك»، فهم النبي ﷺ بذلك طمعًا في إسلامهم وإسلام قومهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢]، [الطبري: التفسير، أثر ١٣٢٥٨، صحيح].



ومر الرسول ﷺ يوماً بجماعة من زعماء قريش فهمزوه واستهزؤوا به، فغاضه ذلك،
فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، [ابن إسحاق].

ومن كبار المستهزين والساخرين: الأسود بن عبد المطلب بن أسد، [ابن إسحاق]،
الأسود بن عبد يغوث بن وهب الزهري، الوليد بن الغيرة المخزومي، العاص بن وائل
السهمي، [ابن هشام]، الحارث بن الطلائة الخزاعي [ابن إسحاق]. وروى أبو نعيم، من
حديث ابن إسحاق، أن الله تعالى أنزل فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].
وروي أن جبريل ﷺ رمى في وجه الأسود بن عبد المطلب ورقة خضراء فعمي.

ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه [أي أصابه مرض
الاستسقاء] فمات من ذلك. ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى جرح بأسفل كعب
رجله، وكان أصابه قبل ذلك بسنين، فانتقض به فقتله. ومر به العاص بن وائل، فأشار
إلى أخمص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف فربض به حماره على نبات خفيف
فدخلت في أخمص رجله منها شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلائة فأشار إلى
رأسه فتحرك القيح فيه فقتله [ابن إسحاق، مرسل صحيح].

والوليد بن المغيرة هو القائل: أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها؛
ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظميا القريتين! [يعني مكة
والطائف]، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾
[الزخرف: ٣١]، وللمفسرين أقوال أخرى في الرجلين المعنيين في الآية. [انظر: تفسير
ابن كثير (٧/ ٢١٢-٢١٣)].

ومن كبار المستهزئين الساخرين - أيضًا -: أبو جهل وأمية بن خلف والنضر ابن الحارث والأخنس بن شريق وأبي بن خلف [ابن هشام، وغيره].

الأسلوب الخامس: التشويش:

كان المشركون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية وصياح منكر عندما يقرأ القرآن، حتى لا يسمع فيفهم فيترك أثرًا في عقل نقي وقلب طيب. وفي ذلك قال المولى ﷺ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

الأسلوب السادس: طلبهم أن تكون للرسول ﷺ معجزات أو مزايا

ليست عند البشر العاديين:

من ذلك قولهم: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشِئُ فِي الْأَنْتَوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلِ إِلَهِهُ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿٧﴾ أو يُلقِ إِلَهُهُ كَذْرًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧-٨]. وقولهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِفِرْعَوْنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

ورد عليهم الله تعالى في الآية نفسها: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٥﴾ [يونس: ١٥].

وقولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا﴾ ﴿١٠﴾ أو تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَنْفَجِرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿١١﴾ أو تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالَهُ وَالْمَلَأِجِكَةَ فَيَلًا﴾ ﴿١٢﴾ أو يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُخْرٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]، ولذا قال لهم الرسول ﷺ كما جاء في الآية نفسها: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿١٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿١٤﴾ [الإسراء: ٩٣-٩٤].



وسألوه أن يسير لهم جبال مكة، ويقطع لهم الأرض ليزرعوها، ويبعث لهم من مضى من الآباء الموتى، أمثال قصي، ليسألوه عن صدق محمد. ورد الله تعالى عليهم في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَل لَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، أي لا أصنع من ذلك إلا ما شاء الله [الطبري: التفسير].

ولقد كان طلبهم على وجه العناد، لا على وجه طلب الهدى والرشاد. فلهذا لم يجابوا إلى كثير مما طلبوا، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ وَنَقَلِبُ أَفْقِدْتُمْ وَأَبْصَرْتُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْتُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٩﴾﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَلَكَّمْهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وروى أحمد، [في المسند، بسند جيد]، من حديث ابن عباس قال: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي عنهم الجبال فيزدرعوا - أي يزرعوا مكانها - فقبل له: إن شئت أن تستاني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألو، فإن كفروا هلكوا كما أهلك من قبلهم الأمم، قال: «لا، بل أستاني بهم»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآلَيْنَا نَمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وروي أنهم طلبوا منه أن يجعل صخرة معينة ذهباً لينحتوا منها وتغنيهم عن رحلتي الشتاء والصيف. وروى مسلم أنهم طلبوا أن يريهم آية، فأراهم القمر قد انشق.

الأسلوب السابع: المساومات:

لقد حاولت قريش من خلال هذا الأسلوب أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق، وذلك بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه، ويترك النبي ﷺ بعض ما هو عليه. قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ نَدَاهُنَّ فَيَذَرُوهُنَّ﴾ [القلم: ٩].



وعندما قالوا له اعبدْ ألهتنا يومًا ونعبدْ إلهك يومًا، أنزل الله تعالى سورة الكافرون:

﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ لَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾ [الكافرون: ١ - ٦]، وحسم هذه المساومة الهزلية.

لقد ساوموا عمه فيه، حين اقترحوا على عمه بأن يعطوه عمارة بن الوليد بن المغيرة بدلًا عن محمد ﷺ فيأخذوه ويقتلوه [ابن هشام].

وعندما اشتكى [مرض] أبو طالب وبلغ قريش ثقله [شدة مرضه] قال بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا، فإننا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا. وعندما جاء وفد هم إلى أبي طالب، قال لمحمد ﷺ: يا ابن أخي، هؤلاء أشرف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك. فقال رسول الله ﷺ: «نعم كلمة واحدة يعطونها يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم - وفي رواية: تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية -» ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة! قال: «نعم». فقال أبو جهل: نعم وأبيك عشر كلمات، قال: «تقولون لا إله إلا الله وتحلعون ما تعبدون من دونه». فصفقوا بأيديهم استنكارًا ثم قالوا: يا محمد تريد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! إن أمرك لعجب!

ثم قال بعضهم لبعض: ما هذا الرجل بمعطيك شيئًا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دينكم حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا؛ فأنزل الله فيهم أول سورة (ص)... [أحمد: المسند، بسند صحيح].



الأسلوب الثامن: سب القرآن ومنزله ومن جاء به:

روى البخاري ومسلم وغيرهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُهَا وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أن ابن عباس قال: «نزلت ورسول الله ﷺ مخف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون ذلك سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾، أي بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافُهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم، ﴿وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]».

وروى ابن إسحاق [في السير]، أن رسول الله ﷺ كان إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي، يسترق السمع دونهم فرقا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم ولم يستمع، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته، فظن الذي يستمع أنهم لم يسمعوا شيئا من قراءته، وسمع من دونهم، التفت إليه يستمع، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ فيتفرقوا عنك، ﴿وَلَا تُخَافُهَا﴾، فلا يسمع من أراد أن يستمعها ممن يسترق ذلك دونهم لعله يرعوي إذا استمع إلى بعض ما يسمع فيقتنع به ﴿وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

وعندما كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، أخذ المشركون يسبون الله ﷻ عدواً بغير علم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] [الطبري: التفسير].

وهذا النهي عن سب آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسبب إله المؤمنين [ابن كثير: التفسير].



ومن هذا القبيل - وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها - ما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه»، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه». وقوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «لولا حداثة عهد قومك بالكفر، لنقضت الكعبة، ولجعلتها على أساس إبراهيم...». وكان هذا الحديث سنداً لابن الزبير في بناء الكعبة على قواعد إبراهيم [متفق عليه].

الأسلوب التاسع: الاتصال باليهود للإتيان منهم بأسئلة تعجيزية للرسول ﷺ:

أوفدت قريش نفرًا منهم إلى المدينة، على رأسهم: النضر بن الحارث وعقبة ابن أبي مَعْيط، ليأتوا من اليهود بأسئلة تعجيزية فيطرحونها على الرسول ﷺ. فقالت لهم يهود: سلوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين والروح. ولكن الله تعالى أبطل كيدهم عندما أنزل قرآنًا في شأن الإجابة عن أسئلتهم. [أحمد: المسند، بسند صحيح].

الأسلوب العاشر: الترغيب:

أرادت قريش أن تجرب أسلوب الترغيب، فأرسلت عتبة بن ربيعة، الذي قال للرسول ﷺ: «يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا لعلك تقبل بعضها: إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا فلا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا مللناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك ريثا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرا».

وروى ابن إسحاق [في السيرة بسند مرسل حسن] أن النبي ﷺ لما فرغ من قوله تلا صدر سورة (فصلت) إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١١٣].



وعندها وضع عتبة يده على جنبه وقام كأن الصواعق ستلاحقه، وعاد إلى قريش مخبراً إياهم بأن ما سمع ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة، واقترح على قريش أن تدع محمداً وشأنه. وفي رواية البيهقي [في الدلائل]، وابن أبي شيبه [في مصنفه] وابن حميد [في المنتخب، حسن] من حديث جابر، زادوا: «وإن كان بك الباء زوجناك عشر نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت».

وفي رواية [عند الحاكم والبيهقي في الدلائل، بأسانيد تعتضد]، إن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال: «يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مآلاً»، قال: «لم؟»، قال: «ليعطوك، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله..»، ثم قال عن القرآن الذي سمعه من محمد ﷺ: «ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلو عليه، وإنه ليحطم ما تحته...».

الأسلوب الحادي عشر: الترهيب:

كان أبو جهل، إذا سمع عن رجل قد أسلم وله شرف ومنعة، أئبه وأخزاه، وقال له: «تركت دين أبيك وهو خير منك! لَنُسْفِهَنَّ حُلْمَكَ، وَلَنُضْعِفَنَّ رَأْيَكَ، وَلَنُضْعِفَنَّ شَرَفَكَ»، وإن كان تاجرًا قال له: «لَنُكْسِدَنَّ تِجَارَتَكَ، وَلَنُهْلِكَنَّ مَالَكَ»، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به [ابن إسحاق في السيرة].

الأسلوب الثاني عشر: الاعتداء الجسدي:

أ- الاعتداء الجسدي على الرسول ﷺ:

عندما لم تثمر كل الأساليب السابقة وغيرها في صد الرسول ﷺ وأصحابه عن دينهم، لجأت قريش إلى أسلوب الاعتداء الجسدي والتصفية الجسدية.



لقد استفحل إيذاؤهم للرسول ﷺ في الفترة العلنية لغضبهم منه حين أضحى يظهر شعائر دينه مثل الصلاة عند الكعبة. فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: «هل يُعَفِّرُ محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى! لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب. قال فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي - زعم ليطأ على رقبته - قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهو لا وأجنحة». فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ (١) أَن رَّاهُ اسْتَفْتَىٰ (٢) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۚ (٣) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (٤) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهَدْيِ (٥) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (٦) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٧) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٨) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٩) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١١) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٤) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٥) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٨) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٩)﴾ [العلق: ٦-١٩]. [ورواه البخاري مختصراً].

وروى البخاري بسنده إلى عروة بن الزبير، قال: «سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: رأيت عقبة ابن أبي معيط، جاء إلى النبي ﷺ، وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه ﷺ، فقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟».

وروى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود، قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نُحِرَتْ جَزَورٌ بِالْأَمْسِ، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فَاسْتَضَحَّكُوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر. لو كان لي منعة طرحته عن ظهر



رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جُورِيَّةٌ، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم. فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم.. فوالذي بعث محمدًا ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر».

قال ابن حجر [في الفتح]: (وقد أخرج أبو يعلى والبخاري بإسناد صحيح عن أنس، قال: «لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم، أقتلونا رجلاً أن يقول ربي الله؟ فتركوه وأقبلوا على أبي بكر...») [مسند أبي يعلى، برقم ٣٦٩١].

وتسلط عليه عتية بن أبي لهب بالأذى، وشق قميصه، وتفل في وجهه ﷺ إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذ دعا عليه النبي ﷺ، وقال: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك». واستجيب دعاؤه، فذبحه السبع وهو بالزرقاء بالشام. وحاولت أم جميل أروى أو العوراء بنت حرب، أخت أبي سفيان - زوجة أبي لهب - أن تعتدي عليه بحجر، فحماه الله ﷻ منها - كما روى البيهقي [في الدلائل]. وكانت تحمل الحطب لتضعه في طريقه - كما حكاه القرآن الكريم [المسد: ٤] [وإسناد البيهقي حسن لغيره].

وروى أحمد [في المسند، بسند صحيح]، أن الملاء من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف: لو قد رأينا محمدًا لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله... وأخبرته ابنته فاطمة بالذي قالوا، فجاءهم وحصبهم بقبضة من تراب، من أصابته منهم قتل يوم بدر كافراً.

وروى الإمام أحمد [في المسند، بسند صحيح] من حديث أنس، أن جبريل ﷺ جاء ذات يوم إلى النبي ﷺ وهو جالس حزينا قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له مَالِك؟ قال: «فعل بي هؤلاء وفعلوا، فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟ قال: نعم. فنظر



إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع بتلك الشجرة، فدعاها، فجاءت حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع، فأمرها فرجعت إلى مكانها. فقال رسول الله ﷺ: «حسبي».

يرى ابن كثير [في البداية]، أن غالب ما وقع للرسول ﷺ من اعتداء جسدي وما يشبه ذلك، كان بعد وفاة عمه أبي طالب.

ب- الاعتداء الجسدي على الصحابة من قريش بمكة:

ونال أبو بكر رضي الله عنه نصيبه من الأذى، حتى فكر في الهجرة إلى الحبشة - كما فعل آخرون غيره - فرارًا بدينه [البخاري].

وذات يوم قام أبو بكر خطيبًا في المسجد الحرام، فضربه المشركون ضربًا شديدًا، ومن ضربه عتبة بن ربعة، حيث جعل يضربه على وجهه بنعلين مخصوفتين حتى ما يعرف وجهه من أنفه. وجاء بنو تيم - قومه - يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملوه في ثوب إلى منزله، ولا يشكون في موته، وأقسموا لئن مات أبو بكر ليقتلن عتبة ابن ربعة [ابن كثير: البداية].

وكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، على الرغم من تحذير المسلمين له من عدوان المشركين وخشيتهم عليه. فعندما فعل ذلك، ضربه على وجهه حتى أثروا فيه. وعندما قال له الصحابة: «هذا الذي خشينا عليك»، قال: ما كان أعداء الله أهون منهم الآن، ولئن شئت لأغادينهم بمثلها غدًا. قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهما ما يكرهون» [ابن إسحاق كما في السيرة].

وكان عمُّ عثمان بن عفان يلفه في حصير من أوراق النخيل، ثم يدخنه من تحته. وروي أنه عندما أسلم أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطًا، وأقسم ألا يحله إلا إذا ترك الإسلام، فأقسم عثمان رضي الله عنه على عدم تركه الإسلام، فلما رأى عمه صلابته في دينه تركه [ابن سعد].



ولما علمت أم مصعب بن عمير رضي الله عنه بإسلامه أجاعته وأخرجته من بيته. وكان من أنعم الناس عيشًا، فتخشف جلده تخشف الحية، حتى حمله أصحابه على قسيهم؛ لشدة ما به من الجهد [ابن إسحاق: السيرة].

واعتدوا على عمر بن الخطاب عندما أسلم، وحاولوا قتله لولا أن أنقذه الله عز وجل بالعاص بن وائل [ابن إسحاق: السير والمغازي].

وممن أوذى عثمان بن مظعون. فقد روي أنه عندما رجع من الهجرة الأولى إلى الحبشة، دخل في جوار [حمية] الوليد بن المغيرة، فلما رأى المشركين يؤذون المسلمين وهو آمن، رد جوار الوليد. وعندما قدم لبيد بن ربيعة إلى مكة، وكان في مجلس لقريش ينشد لهم شعره، قال لبيد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»، قال عثمان بن مظعون: «صدقت، وعندما قال: وكل نعيم لا محالة زائل، قال له عثمان: «كذبت. نعيم الجنة لا يزول»، قال لبيد: «يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟»، فقال رجل من القوم: «إن هذا أيضًا في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله»، فرد عليه عثمان حتى تفاقم أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه فحَصَرَها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: «أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابت لغنيّة، لقد كنت في ذمة منيعة»، قال عثمان: «بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس»، فقال له الوليد: «هلم يا ابن أخي، إن شئت فعد إلى جوارك»، فقال: «لا» [ابن إسحاق: السيرة، والبيهقي في الدلائل، والطبراني في الكبير].

وكان عم الزبير بن العوام يعلقه في حصير، ويدخن عليه النار، ويقول: «ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبدًا» [الحاكم، وأبو نعيم في الحلية].



وكان أبو جهل قد حبس أخاه سلمة بن هشام بن المغيرة رضي الله عنه عندما عاد من الحبشة، وأجاعه، ولكن تمكن من الانفلات واللاحاق بالرسول ﷺ بالمدينة بعد غزوة الخندق [ابن سعد]. وكان ممن دعا لهم الرسول ﷺ ربه في القنوت أن ينجيهم الله من أعدائهم [البخاري].

جـ - الاعتداء الجسدي على المسلمين العرب من خارج مكة:

ولم يقتصر التعذيب الجسدي على المسلمين بمكة، بل امتد إلى بعض الأفراد الذين أسلموا من القبائل البعيدة عن مكة. فقد روى ابن سعد أن أم شريك غزية بنت جابر ابن حكيم عندما أسلمت هي وزوجها، وهاجر زوجها مع أبي هريرة وجماعة من قومها، جاءها أهل زوجها أبي العكر فسألوها إن كانت على دينه، فأقرت بإسلامها، فأقسموا على تعذيبها. فعندما ارتحلوا من مكان إلى آخر، حملوها على شركابهم وأغلظها، ثم أطعموها خبزاً وعسلاً ومنعوا عنها الماء، وتركوها في الشمس حتى ذهب عقلها وسمعها وبصرها، وكرروا ذلك لمدة ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث، طلبوا منها ترك دينها، فلم تفعل غير الإشارة بأصبعها إلى السماء بالتوحيد ولا تعي ما يقولون من شدة الإعياء والإغماء، وأكرمها الله ﷻ بدلو من ماء شربت منه، فكان ذلك سبباً في إسلام أهل زوجها وهجرتهم إلى النبي ﷺ.

وعندما سمع أبو ذر الغفاري رضي الله عنه بخبر النبي ﷺ جاء ودخل مكة، وأخذ يسأل عن الرسول ﷺ، فضربه أهل مكة حتى أغشي عليه، وكاد أن يموت، فخلصه العباس رضي الله عنه منهم [متفق عليه].

وروى قصة إسلامه مطولة مسلم، وأحمد [في المسند]، وأبو نعيم [في الدلائل]، والحاكم. وفيها أن أبا ذر أول من حيّا رسول الله ﷺ بتحية أهل الإسلام، السلام



عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال الرسول ﷺ في رده عليه: «وعليك السلام ورحمة الله...». [ابن سعد من طريق الواقدي] ولفظ أحمد: «عليك ورحمة الله»، ولفظ مسلم: «وعليك ورحمة الله» في رواية، وفي أخرى «وعليك السلام»؛ ولفظ أبي نعيم: «وعليك ورحمة الله».

د - الاعتداء الجسدي على الموالي؛

لقد نفّس الكفار كل أحقادهم على الإسلام ومعتقيه في أشخاص الموالي؛ لأنه لم تكن لهم منعة. فكان العذاب أقسى وأفظع.

وقد عذر الله ﷻ المعذنين فيما يقولون حينما يبلغ الجهد منهم مبلغه. قال سعيد بن جبير لابن عباس: «أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟»، قال: «نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجوعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضرب الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولون له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده» [ابن إسحاق: السيرة]. قال ابن كثير في البداية: (وفي مثل هذا أنزل الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه في الله تعالى، وهان على قومه، فأخذوه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد» [أحمد: المسند، بسند صحيح].



ومن أبرز من نالهم الاعتداء الجسدي من الموالى بمكة:

أ- آل ياسر رضي الله عنهم:

كانت هذه الأسرة ممن يضرب بها المثل فيما لاقاه المستضعفون من الابتلاءات في تاريخ الإسلام. فقد كان بنو مخزوم يخرجون بهم إذا حمت الظهيرة فيعذبونهم برمضاء مكة وغطوا عمار في الماء [ابن إسحاق: في السيرة والسير والمغازي].

ومرَّ بهم الرسول ﷺ ذات مرة وهم يعذبون، فقال لهم: «أبشروا آل عمار وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة» [الحاكم، بسند صحيح].

وكان أول من استشهد في سبيل الله ﷻ من هذه الأسرة خاصة، وفي الإسلام عامة: أم عمار - سمية بنت خباط - فقد طعنها أبو جهل بحربة في قُبلها فماتت من جراء هذا الاعتداء الآثم [البیهقي: الدلائل، من مرسل مجاهد].

ومات ياسر في العذاب، ورمي ابنه عبد الله فسقط ميتا [ابن حجر: الفتح]. وتفتنوا في إيذاء عمار، حتى أجبروه على أن يتلفظ بكلمة الكفر بلسانه. وذكر جمهور المفسرين أن من أسباب نزول الآية الكريمة: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] هو موقف عمار بن ياسر هذا [ابن الجوزي والطبري].

قال ابن حجر [في الفتح (٩/ ٢٨١)]: (وكان عمار عربياً عنسياً، ما وقع عليه سبي، وإنما سكن أبوه ياسر مكة، وحالف بني مخزوم، فزوّجوه سمية، وهي من مواليتهم، فولدت له عماراً، فيحتمل أن يكون المشركون عاملوا عماراً معاملة السبي لكون أمه من مواليتهم). وقال ابن إسحاق [في السيرة، ص ١٩٢]: (إن ياسراً كان عبداً لبني بكر من بني الأشجع، فاشتروه منهم، فزوّجوه سمية أم عمار، فولدت عماراً، وكانت سمية أمة لهم، فأعتقوا سمية وعماراً).



ب- بلال رضي الله عنه:

كان بلال مولى لبعض بني مُجَح. وهو بلال بن رَبَاح، وأمه حَمَامَة. ذكر أنه كان حبشياً، وهو المشهور، وقيل: كان نوبياً [ابن حجر: الفتح].

كان طاهر القلب صادق الإسلام. وكان مولاه أمية بن خلف يخرجها إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: «لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى»، فيقول وهو في ذلك البلاء: «أحد أحد» [ابن إسحاق: السيرة يعتضد].

وروى البلاذري [في أنساب الأشراف]، عن عمرو بن العاص قال: «مررت ببلال وهو يعذب في الرمضاء، ولو أن بضعة لحم وضعت عليه لنضجت، وهو يقول: أنا كافر باللات والعزى، وأمية مغتاظ عليه، فيزيده عذاباً، فيقبل عليه فيدغته في حلقه، فيغشى عليه ثم يفيق».

وروى البلاذري - كذلك - عن مجاهد، قال: «جعلوا في عنق بلال حبلاً، وأمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشي مكة - يعني جبليةا - ففعلوا ذلك وهو يقول: أحد أحد». وقال البلاذري - أيضاً - : (وروي أن بلالاً قال: «أعطشوني يوماً وليلة، ثم أخرجوني فعذبوني في الرمضاء في يوم حار»).

وعندما رآه أبو بكر رضي الله عنه في هذه الحالة، ساوم سادته على شرائه، فاشتراه وأعتقه. فقد روى ابن أبي شيبة [كما قال ابن حجر في الفتح] بإسناد صحيح، والبلاذري بإسناد جيد، وابن عبد البر [في الاستيعاب، بسند قوي]: أن «أبا بكر اشترى بلالاً بخمس أواق وهو مدفون بالحجارة». وروى البخاري أن بلالاً قال لأبي بكر: «إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت اشتريتني لله فدعني وعمل الله».



ج- خباب بن الأرت رضي الله عنه :

[سمي الأرت للكنة في لسانه العربي - البلاذري].

هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة... بن تميم التميمي، ويقال الخزاعي [ابن هشام]... سبي في الجاهلية، فبيع بمكة. وكان مولى لأم أنسار الخزاعية، وقيل غير ذلك، ثم حالف بني زهرة. كان يعمل قيناً - حداداً - في صناعة الأسنّة، وبخاصة السيوف. وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام [متفق عليه].

وعندما أظهر إسلامه لاقى صنوفاً شتى من العذاب في المال والنفس، وضمن سائر المستضعفين [حلية الأولياء، بسند صحيح]. ومما روي في ذلك أنهم كانوا يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذباً، ويلوون عنقه بعنف، وأضجعوه مرات عديدة على صخور ملتهبة، ثم وضعوا عليه حجراً حتى لا يستطيع أن يقوم [ابن الجوزي: التلخيص]. وأوقدوا له ناراً ووضعوه عليها، فما أطفأها إلا ودك ظهره، كما ذكر خباب نفسه، وقد كشف عن ظهره وأرى أثر ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه [الحلية، بسند حسن بشواهد]، وذكر أيضاً أنهم كانوا يضجعونه على الرّصَف [الحجارة الممحاء]، ومع ذلك لم ينالوا منه ما أرادوا [الحلية، بسند صحيح].

وله قصة مشهورة مع العاص بن وائل، رواها البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث خباب نفسه قال: «كنت قيناً بمكة فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفاً، فجئت أقتضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت: لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يملكك الله ثم يحبك، قال: إذا أمانني الله ثم بعثني ولي مال وولد فسأقضيك، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَدًا ۖ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۚ﴾ [مریم: ۷۷-۷۸].



وعندما اشتد البلاء بخباب عليه السلام وإخوانه المسلمين المستضعفين، شكوا إلى الرسول ﷺ حالهم. فقد روى البخاري عن خباب قوله: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد برداً له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

د- عامة الموالى المستضعفين:

منهم حمامة، والددة بلال، وعامر بن فهيرة، وأم عُبَيْس، وزنيرة، والنهدية، وابنتها، وجارية بني عدي، التي كان يعذبها عمر بن الخطاب قبل أن يسلم [ابن كثير: الفصول]، وجارية بني مؤمل وقد أعتقهم أبو بكر جميعاً [ابن إسحاق: السيرة، والسير].

وعندما رأى أبو قحافة ابنه أبا بكر يعتق هؤلاء المستضعفين، قال له: «يا بني، إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جُلُداً يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر: «يا أبت، إني إنما أريد ما أريد الله ﷻ». فأنزلت فيه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيرُهُ لِلْيسْرَى ۝﴾ [٧] إلى قوله ﷻ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝﴾ [الليل: ٥-٢١] [الحاكم، وصححه من حديث ابن إسحاق وسكت عنه الذهبي].

وقد أصيب بصر زنيرة حين أعتقها أبو بكر، فقالت قريش: «ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى»، فقالت: «كذبوا وبيت الله، ما تضران اللات والعزى وما تنفعان». فرد الله بصرها [ابن إسحاق: السيرة، بإسناد حسن مرسل].



وكان أفلح - أبو فُكَيْهَة - مولى لبني عبد الدار - كانوا يشدون به بالحبل من رجله ثم يجرونه على الأرض، ليفتنوه عن دينه [الإصابة، بدون إسناد].

العبر والعظات:

١ - ربما يتساءل المرء: فيم هذا العذاب الذي لقيه الرسول ﷺ وأصحابه وهم على الحق؟ ولماذا لم يعصمهم الله تعالى منه وهم جنوده وفيهم رسوله؟ والجواب: أن أول صفة للإنسان في الدنيا، أنه مكلف، وأمر بالدعوة إلى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمته من أهم متعلقات التكليف، والتكليف من أهم لوازم العبودية لله تعالى. وعبودية الإنسان لله ﷻ ضرورة من ضرورات ألوهيته ﷻ، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فقد استلزمت العبودية - إذًا - التكليف، واستلزم التكليف تحميل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء، والصمود في وجه الفتن والابتلاءات.

والفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب، وفي ذلك يقول المولى ﷻ: ﴿الَّذِي أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَآمَنَّا بِهِمْ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]، ويقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وما دام الأمر كذلك فلا ينبغي للمسلم أن يتوهم اليأس إذا ما عانى شيئاً من المشقة والمحنة. بل العكس هو المنسجم مع طبيعة هذا الدين، أي إن على المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيداً من الضر والنكبات سعياً إلى تحقيق أمر ربهم ﷻ، ويتجلى برهان ذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] [البوطي: فقه السيرة].



٢- المقرر عند علماء المسلمين أن الأخذ بالعزيمة في ميدان الإكراه أولى من الرخصة، وأن أخذ الأئمة والقادة بالعزيمة هو الأولى والأجمل. ويعتبر الفقهاء الإكراه بمدى قدرة المكره على إيقاع ما هدد به [الموصلي: الاختيار لتعليل المختار].
وإن أخذ عامة المسلمين بالرخصة ليس دليلاً على فساد في العقيدة، بدليل قول الرسول ﷺ لعمار بن ياسر: «إن عادوا فعد»، أي إذا عادوا وطلبوا منك ذكر آلهتهم بخير، فاذكرها، ما دام قلبك مطمئناً بالإيمان [زهير سالم: عثرات].

يقول ابن كثير [في التفسير]، في تعليقه على موقف عمار بن ياسر من التعذيب: (ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوالي المكره على الكفر، إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يستقتل كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل،... وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري [رسول رسول الله ﷺ إلى مسيلمة]، لما قال له مسيلمة الكذاب: «أشهد أن محمداً رسول؟» فيقول: «نعم» فيقول: «أشهد أني رسول الله؟» فيقول: «لا أسمع». فلم يزل يقطعه إرباً وإرباً وهو ثابت على ذلك... والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظ ابن عساكر، في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي...). فقد عرض على الموت مرتين ولم يتزعزع.

وفي تعليقه على الموقف ذاته قال ابن الجوزي [في تفسيره]: (الإكراه على كلمة الكفر يبيح النطق بها. وفي الإكراه المبيح لذلك عن أحمد روايتان إحداهما: أنه يخاف على نفسه أو على بعض أعضائه التلف إن لم يفعل ما أمر به. والثانية أن التخويف لا يكون إكراهاً حتى ينال بعذاب. وإذا ثبت جواز «التقية»، فالأفضل ألا يفعل...).

ويرى بعض السلف أمثال معاذ بن جبل رضي الله عنه ومجاهد رضي الله عنه أن مثل هذه التقية كانت في بدء الإسلام، قبل استحكام الدين وقوة المسلمين، وأما اليوم فقد أعز الله الإسلام، فليس ينبغي لأهل الإسلام أن يتقوا من عدوهم [تفسير البغوي].



إن في مواقف المؤمنين - بمختلف قبائلهم - وثباتهم على دينهم ورضاهم بجوار ربهم، مثلاً عالياً في التوكل على الله تعالى، ولن ينسى التاريخ تلك المواقف الإيمانية البطولية لهؤلاء المسلمين الأوائل، الذين كانوا قدوة لأصحاب المبادئ في كل زمان ومكان.

إن أعداء الإسلام في كل زمان ومكان، لم يكفوا ولن يكفوا عن استخدام كافة الوسائل والأساليب لإطفاء نور الإسلام ومحاربة دعاته، وربما تتجدد الأساليب والوسائل، ولكنها لا تخرج في مضمونها عن تلك الأساليب التي مارسها كفار قريش ضد المسلمين المستضعفين بمكة.

وسيطول بنا الشرح إذا وقفنا عند كل أسلوب، وذكرنا له أمثلة من واقع حركة الإسلام وسط المجتمعات والشراذم الرافضة لتحكيم شرع الله ﷻ.

كان من جليل حكمة الله تعالى أن يقوم مشركو قريش بسلسلة من المساومات مع الرسول ﷺ بعد أن صوّروا في أنفسهم كل ما يمكن أن يظنوه سبباً أو هدفاً وراء دعوته، ورفض الرسول ﷺ قبول كل العروض التي قدموها له مقابل أن يتخلى عن دعوته ليثبت للتاريخ أن هدفه شيء واحد، وهو الإسلام، وليقطع الطريق أمام المتشككين في أهداف دعوته ﷺ، أو فهموا فهمًا مغايرًا لما كشفت عنه تلك اللقاءات بين الرسول ﷺ وبين مساوميه من الكفار، وكانت سيرته ﷺ فيما بعد تأكيداً ودليلاً على أنه لم يكن يطلب شيئاً غير الإسلام [البوطي: السيرة].

الأسلوب الثالث عشر: ملاحقة المسلمين خارج مكة والتحريض عليهم؛

عندما هاجر بعض المسلمين إلى النجاشي، أرسلوا خلفهم من حاول اللحاق بهم قبل العبور إلى الحبشة، وعندما استقروا بالحبشة وكثر عددهم، أرسلوا في طلبهم، واستخدموا في ذلك الرشوة والحيلة للوقية بين المسلمين والنجاشي، ولكنهم فشلوا في ذلك.

وسيأتي بيان ذلك في هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة وهجرة المدينة.



الأسلوب الرابع عشر: المقاطعة العامة: سيأتي ذكرها في مكانها من هذا الكتاب (مبحث ٢٨).

الأسلوب الخامس عشر: محاولة قتل الرسول ﷺ: يأتي ذكره مفصلاً.

الأسلوب السادس عشر: شن الحرب عليه: سيأتي ذكر ذلك من خلال أبحاث وفصول الكتاب.

• المبحث الثالث والعشرون: مكان اللقاء

• كان الرسول ﷺ يلتقي سرّاً بالداخلين في الإسلام، ليعلمهم ما ينزل به الوحي من تعاليم الدين. وفي السنة الخامسة من ابتداء الدعوة اختار الرسول ﷺ منزل أحد المسلمين، وهو الأرقم بن أبي الأرقم، ليلتقي بأكبر عدد منهم، وحافظوا على كتمان سرية هذا المكان [البداية]، لأن عامة الصحابة كانوا يخفون إسلامهم، ولذا فمن الحكمة اتباع السرية لما فيها من مصلحة للمسلمين وللإسلام، أما لماذا اختار الرسول ﷺ دار الأرقم بالذات؟ أجاب عن هذا السؤال - استنتاجاً - المباركفوري، فقال: (لأن الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه، ولأنه من بني مخزوم التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم، إذ يستبعد أن يختفي الرسول ﷺ في قلب العدو، ولأنه كان فتى صغيراً عندما أسلم، في حدود الست عشرة سنة، إذ إنه في هذه الحالة تنصرف الأذهان إلى منازل كبار الصحابة).

ويلحظ أن دار الأرقم [هي الدار التي تعرف الآن بدار الخيزران عند الصفا كما قال الشامي في السبل (٢/ ٤٣٠)] كانت قرب الصفا، وهي منطقة تشتد فيها حركة الناس بصورة طبيعية، مما يصعب معه إدراك وجود حركة خاصة بأناس تجتمع وتنفض في هذه الدار. وعندما شك الكفار في وجود مكان يلتقي فيه المسلمون، كان كل الذي توصلوا إليه أنه يلتقي بهم في دار عند الصفا [ابن إسحاق].



إن مراعاة السرية والكتمان في حياته ﷺ واضحة في مواقف كثيرة منها هذا الموقف. وهذا من باب أن اتخاذ الأسباب لا يتنا في مع التوكل على الله ﷻ.

• المبحث الرابع والعشرون: الهجرة إلى الحبشة

• أ- الهجرة الأولى إلى الحبشة:

كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة، فرارًا بدينهم من بلاد الفتنة إلى بلاد الأمان [البخاري].
روى ابن إسحاق [في السير، بسند حسن]، من حديث أم سلمة، قالت: «لما ضاقت علينا مكة، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه، فخرجنا إليها حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنا على ديننا، ولم نخش منه ظلمًا...».

روى ابن سعد أنهم خرجوا متسللين سرًا، وكانوا أحد عشر رجلًا وأربع نسوة، حتى انتهوا إلى الشعيبة، منهم الراكب والماشي، ووفق الله تعالى للمسلمين ساعة جاؤوا سفينتين للتجار حملوهم فيها إلى أرض الحبشة بنصف دينار. وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حين نبي رسول الله ﷺ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا، فلم يدركوا منهم أحدًا.

وذكر ابن سعد في رواية ثانية أسماء اثني عشر رجلًا وأربع نسوة، ووافقه في ذلك ابن سيد الناس، وزاد عليه امرأة خامسة، وهي أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، زوجة



أبي سبرة. وروى ابن إسحاق [في السيرة والسير] أنهم كانوا عشرة من الرجال وأربع نسوة. إذ إنه لم يذكر فيهم ابن مسعود، وذكر حاطبًا بالشك: (ويقال...).

ووافق الذهبي [في السيرة]، ابن إسحاق في عدد الرجال والنساء ولكنه ذكر أبا سبرة ولم يذكر أبا حاطب أو حاطبًا، ولم يذكر ابن مسعود. وذكر عروة [في مغازيه]، أنهم كانوا أحد عشر رجلًا وأربع نسوة، وذكر فيهم ابن مسعود ولم يذكر حاطبًا.

وكان ضمن هؤلاء المهاجرين: أبو سلمة بن عبد الأسد، وزوجه أم سلمة بنت أبي أمية، أم المؤمنين فيما بعد، وراوية الحديث الطويل في قصة الهجرة، وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وعثمان بن عفان، وامراته رقية بنت رسول الله ﷺ.

وقد قال الرسول ﷺ في عثمان ورقية رحمتهما: «إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام» [البيهقي: الدلائل]. ولعل المعنى: من أول بيت نبي

وعرفت هذه الهجرة بالهجرة الأولى إلى الحبشة، وذكر ابن هشام أنه كان عليهم عثمان بن مظعون رحمته.

لم يمكث هؤلاء المهاجرون طويلاً بالحبشة حتى بلغتهم الأخبار بأن أهل مكة قد أسلموا، فلذا قرروا العودة إلى وطنهم مكة في شوال من السنة نفسها.

وعندما اقتربوا من مكة علموا بأن الذي بلغهم كان مجرد إشاعة، وعرفوا أن نار العداوة ما زالت مشتعلة. فرجع منهم من رجع إلى الحبشة، ومن دخل منهم مكة دخلها مستخفياً أو في جوار رجل من قريش [ابن سعد وابن إسحاق].

ويزعم بعض الناس أن سبب رجوعهم كان لوقوع هدنة حقيقية بين الإسلام والوثنية، أساسها أن محمداً ﷺ تقرب إلى المشركين بممدح أصنامهم والاعتراف بمنزلتها، إذ زعموا أنه قرأ على المشركين سورة النجم حتى وصل قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ



اللَّتْ وَالْعَرَىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْزَةُ الثَّالِثَةِ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾ [النجم: ١٩-٢٠]، ألقى الشيطان في أذان المشركين قوله: (تلك الغرائق العلى وأن شفاعتهن لترجي) فسجد وسجد معه كفار مكة. فلما بلغهم ذلك في الحبشة ظنوا أن القوم قد أسلموا لهذه القصة المزعومة.

ومن روى هذه القصة ابن سعد، والطبري [في التفسير]، والبيهقي [في الدلائل]، ولم يروها أحد من أصحاب الكتب الستة والإمام أحمد ولا غيرهم من أصحاب الكتب المعتمدة على التحرير. وهي باطلة من حيث السند والمتن.

والذي ثبت في الصحيح [البخاري] أن الرسول ﷺ قرأ سورة النجم، في جماعه من المسلمين والمشركين، وخواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب. فلما أخذ صوت الرسول ﷺ يهدر بها ويرعد بنذرهما حتى وصل إلى قول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةُ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنْكُمْ رَسُولٌ مِّنْ لَّدُنْكَ تَخْلِفُكَ ﴿٥٤﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ ﴿٥٥﴾ أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ﴿٥٦﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٧﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٨﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النجم: ٥٣-٦١]، كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين، مع غيرهم من المسلمين، حتى إن الوليد بن المغيرة - وكان كبير السن - أخذ كفًا من البطحاء وسجد عليه. فلما نكسوا على رؤوسهم وأحسوا أن جلال الإيمان لوى زمامهم، ندموا على ما كان منهم، وأحبوا أن يعتذروا عنه، بأنهم ما سجدوا مع محمد ﷺ إلا لأن محمداً ﷺ عطف على أصنامهم بكلمة تقدير... [الغزالي: فقه السيرة].

ب- الهجرة الثانية إلى الحبشة:

عندما عاد بعض من هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة، ووجدوا أن الابتلاء الواقع على المسلمين أصبح أشد مما كان، ولما رأى الرسول ﷺ حالهم، أذن لهم بالهجرة مرة ثانية، وكانوا هذه المرة نيفاً وثمانين رجلاً وتسع عشرة امرأة. [ابن إسحاق] وقيل غير ذلك.



فقد روى الإمام أحمد [في المسند، بسند حسن] أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحوًا من ثمانين رجلًا، فيهم جعفر، وعبد الله بن عرفة وعثمان بن مظعون، وأبو موسى،...» ولم يذكر عدد النساء. وذكر ابن سعد أن عدد الرجال ثلاثة وثمانين رجلًا وعدد النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وسبع غرائب. وذكر ابن إسحاق [في السيرة] أنهم كانوا نيفًا وثمانين رجلًا، وذكر أسماء ست عشرة امرأة، وذكر في السيرة أنهم كانوا ثلاثة وثمانين رجلًا، وإذا اعتبرنا من ولدت ريطة بنت الحارث، فيكون عدد النساء عنده عشرين امرأة، وقد ذكر ابن القيم [في الزاد، من حديث ابن إسحاق] أنهن تسع عشرة امرأة، والله أعلم. ويبدو أن الاختلاف في عدد النساء يرجع إلى أن البعض يعد فيهن بعض الفتيات الصغيرات.

ويشهد بقبول ما جاء عند أهل المغازي والسير في عدد المهاجرين هذه المرة، رواية أحمد المذكورة من حديث ابن مسعود.

ج - قريش تسعى لإعادة المهاجرين:

روى ابن إسحاق [في السيرة والسير، بسند حسن]، من حديث أم سلمة رضي الله عنها في هجرة الحبشة، أنها قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة جاوزنا بها خيرَ جَارٍ النجاشي، أَمِنَّا على ديننا، وَعَبَدْنَا الله تعالى لَا نُؤْذِي وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُه. فلما بلغ ذلك قريشًا اتتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جُلْدَيْن، وأن يَهْدُوا للنجاشي هدايا مما يُسْتَطَرَف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأَدَمُ [الجلود]، فجمعوا له أَدَمًا [جلودًا] كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقه بطريقًا إلا أهدوا له هدية. ثم بعثوا بذلك عبد الله ابن أبي ربيعة [أحمد: المسند، بسند حسن] وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعنا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلم النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي



هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم. فخرجا حتى قدما على النجاشي... فلم يبق من بطارقه بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمها النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم: إنه قد صَوَّى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم...».

وفي الحديث أن الوفد اتفق مع البطارقة أن يشيروا على النجاشي بأن يسلمهم إليهم ولا يكلمهم. ولكن النجاشي عندما أشير إليه بذلك رأى أن يدعو المسلمين ويستمع بنفسه إلى ما يقولونه. وعندما حضروا أمامه تكلم نيابة عنهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فأوضح للنجاشي حقيقة الدين الذي جاء به محمد ﷺ، وموقف قومهم منه.

وعندما طلب النجاشي شيئاً مما جاء به ﷺ قرأ عليه جعفر صدر سورة مريم. فبكى النجاشي حتى ابتلت لحيته، وبكى أساقفته حتى ابتلت كتبهم التي يحملونها.

ثم قال النجاشي مخاطباً سفيرو قريش: «إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبداً».

وعندما خرجا، قال عمرو لعبد الله: «والله لأتينه غداً بما يبید خضراءهم».

فلما كان الغد جاء عمرو إلى النجاشي وقال له: «إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً». فأرسل النجاشي إليهم، وعندما جاؤوه سأهم عن قولهم في المسيح، فقال جعفر: «نقول فيه الذي جاءنا به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول».

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض، وقال لجعفر: «ما عدا عيسى ما قلت قدر هذا العود». ولم يأبه لا متعاض بطارقه، فأعطى المسلمين الأمان في بلاده، ورد هدية قريش [ابن إسحاق: السير والمغازي، حديث أم سلمة].



أخفقت سفارة قريش في مهمتها، ولم تجد قريش أمامها غير التشفي ممن هم تحت أيديها. أما الإسلام فقد كسب إلى جانبه النجاشي وعمر بن العاص، كما سيأتي ذكره. ومكث المسلمون ما شاء الله لهم، فعاد من عاد منهم بعد هجرة المسلمين إلى المدينة وقبل وقعة بدر، وهم ثلاثة وثلاثون رجلاً وثمانية نسوة [البخاري وغيره]. وعاد الباقر مع جعفر عليه السلام عندما فرغ الرسول ﷺ من فتح خيبر في العام السابع الهجري [البخاري وغيره].

د - حكم وعظات وعبر من هذا المقطع:

١ - إن في هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة دليلاً على مشروعية الهجرة، وهي الانتقال من بلد الكفر حيث يتعذر على العبد أن يعبد الله ﷻ، إلى دار يتمكن فيها من عبادة الله ﷻ بدون فتنة. وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام عن هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

٢ - إن من أسس ودعامات الدين التضحية بالمال والوطن والنفس في سبيله، لأن الدين إذا فقد لم يغن من ورائه المال والوطن والنفس، بل سرعان ما يذهب كل ذلك أيضًا من ورائه، أما إذا قوي شأنه وقامت في المجتمع دعائمه ورسخت في الأفئدة عقيدته، فإن كل ما كان قد ذهب في سبيله من مال وأرض ووطن يعود أقوى من ذي قبل، حيث يجرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة. ولذا كانت الهجرة نفسها ضرباً من ضروب العذاب والألم في سبيل الدين وتضحية بالوطن والمال، وتبديل محنة أقسى بأخرى أقل قسوة ريثما يأتي الفرج والنصر.

٣ - يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، سواء أكان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي النصراني، والذي أسلم بعد ذلك، أو كان مشركاً كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم، وكأبي طالب الذي حمى الرسول ﷺ، والمطعم بن عدي الذي حمى النبي ﷺ عندما عاد من الطائف [البوطي].



٤- إن في ارتداد عبيد الله بن جحش - إن صحت الرواية - عظه لمن يتعظ أو عبرة لمن يعتبر. فقد استكبر على المسلمين، لأنه كان أولاً من الحنفاء، ثم أسلم وهاجر مع زوجه أم حبيبة رضي الله عنها إلى الحبشة، ثم ارتد إلى النصرانية، وكان يقول للمسلمين: «فَتَّخْنَا وَصَاصَاتُمْ»، أي قد أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر ولم تُبصروا بعد. وذلك أن ولد الكلب إذا أراد أن يفتح عينيه للنظر صاصاً قبل ذلك، فضرب ذلك له ولهم مثلاً [ابن هشام، بسند صحيح]، [يأتي تحقيق العوشن لهذه الرواية].

● المبحث الخامس والعشرون: إسلام النجاشي

● ذكر ابن إسحاق [في السيرة] في رواية له أن النجاشي لما مات كان يُتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور. ويفهم من هذه الرواية الصحيحة أنه قد أسلم.

وذكر في رواية أخرى أن قومه خرجوا عليه لأنه أسلم، وقبل أن يخوض حرباً ضدهم هياً للمسلمين سفناً ليركبوها إذا انهزم، وكتب كتاباً يشهد فيه بإسلامه.. وبلغ ذلك النبي ﷺ. فلما مات النجاشي استغفر له [والبخاري ومسلم].

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق موافق في جوهره لما في الصحيحين فيما يتعلق بإسلام النجاشي. فقد روى البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، في العام التاسع الهجري، وصلى بالمسلمين صلاة الغائب عليه. وروى البخاري ومسلم أيضاً أن الرسول ﷺ قال: «قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش فهلّم فصلوا عليه»، وهذا لفظ البخاري.

وهذا النوع من النعي هو الجائر لأنه لمجرد الإخبار ليدعوا له إخوته في الله ﷻ. أما النعي للمفاخرة والمكاثرة فمكروه، والنعي بصفات الميت فحرام [انظر موطأ مالك في تبويب هذه المسألة].



وفي رواية لمسلم، قال الرسول ﷺ: «إن أخوا لكم قد مات فقوموا فصلوا عليه...». وهذا الحديث صريح في أنه مات على الإسلام. واسمه أصحمة [مسلم برقم ٩٥٢].

ويفهم من عموم النصوص الواردة عن إسلام النجاشي في المصادر المختلفة أنه جهر بإسلامه أمام الصحابة رضي الله عنهم وبمحضر من أسأفته، ولم يقبل البطارقة والأساقفة هذا التحول، فغضبوا منه وألبوا عليه الناس، وقامت ضده ثورة ولكن الله نصره عليهم، ولم تتوقف الحرب إلا بعد أن خدعهم تقية، «والحرب خدعة» كما صح عن الرسول ﷺ: «وذلك أنه عمد إلى كتاب كتب فيه إقراره بالتوحيد ونبوة محمد ﷺ، ويشهد أن عيسى عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله في قبائه [ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويتمنطق عليه] عند المنكب الأيمن، وخرج إلى الحبشة، وصفوا له، فقال: يا معشر الحبشة ألسن أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة، قال: فما بكم؟ قالوا: فارقت ديننا!!! وزعمت أن عيسى عبده ورسوله، قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول هو ابن الله، فقال النجاشي: ووضع يده على صدره على قبائه: وهو يشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا، وإنما يعني على ما كتب، فرضوا، وانصرفوا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ. فلما مات النجاشي صلى عليه واستغفر له» [البخاري وغيره].

• المبحث السادس والعشرون: إسلام حمزة وعمر

• أ- إسلام حمزة رضي الله عنه:

لم يوقف اضطهاد المشركين للمسلمين دخول صناديد قريش في الإسلام. ففي هذا الجو المشحون بالأحقاد على المسلمين عامة والرسول ﷺ خاصة، شاء الله تعالى أن يكون حقد أبي جهل على الرسول ﷺ سبباً في إسلام حمزة عم الرسول ﷺ وأحد أشداء



قريش. فقد روى ابن إسحاق [في السيرة] وابن سعد أن أُمَّةً لعبد الله بن جُدعان أخبرت حمزة أن أبا جهل قد أساء إلى ابن أخيه محمد ﷺ إساءات بذيئة. فلم يتردد في المجيء إلى أبي جهل وهو في مجلسه من قومه، فضربه بالقوس على رأسه فشجّه شجة منكّرة، وقال له: «أتشتّمه وأنا على دينه؟»... فكانت تلك بداية انشراح صدر حمزة للإسلام.

وعندما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع، وأن حمزة سيمنع عنه الأذى، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه [ابن إسحاق: السيرة].

وكان إسلام حمزة بعد دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم في السنة السادسة من النبوة [ابن سعد].

ب- إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

لقد كان عمر رضي الله عنه من ألد خصوم الإسلام، وكان معروفًا بحدة الطبع وقوة الشكيمة، وكثيرًا ما لقي بعض المسلمين منه صنوفًا من الأذى والتنكيل.

قال سعيد بن زيد رضي الله عنه، قريبه وزوج أخته [من رواية أحمد في الفضائل، بسند صحيح]: «والله لقد رأيته وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قبل أن يسلم...». وفي رواية: «لو رأيته موثق على الإسلام أنا وأخته وما أسلم...» [البخاري].

وروى ابن إسحاق [في السيرة والسير، بسند حسن] أن ليلى - أم عبد الله - زوجة عامر ابن ربيعة، قالت: «والله إنا لنرتحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر لبعض حاجته، إذ أقبل عمر - وهو على شركه - حتى وقف عليّ، وكنا نلقى منه البلاء، فقال: أتنتلقون يا أم عبد الله؟ قالت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، فقد آذيتونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجًا. قالت: لو رأيته عمر ورقته وحزنه علينا... قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت: نعم. فقال: لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب»، وذلك لما كان يراه عامر من شدة عمر وغلظته على المسلمين.



وفي هذا الخبر دليل على نوازع الفطرة السليمة التي كانت تصطرع في نفسه مع غشاوات الجاهلية، إلى أن حانت ساعة جلاء هذه الغشاوة عن فطرته السليمة، فدخل في الإسلام، وتحولت شدته من شدة في الباطل إلى شدة في الحق.

وعندما شرح الله ﷺ صدره للإسلام قال: «أي قريش أنقل للحديث؟» ف قيل له: جَمِيل بن مَعْمَر الجُمَحِيّ، فجاء عمر فأخبره بإسلامه. فأسرع جميل إلى الكعبة، وصرخ في القوم بأعلى صوته، قائلاً: «ألا إن عمر صبأ»، وعمر خلفه يقول: «كذب، ولكن قد أسلمت...» ودخلوا معه في عراك طويل حتى أنقذه الله ﷺ منهم بالعاص بن وائل السهمي [أحمد: الفضائل؛ ابن إسحاق: السيرة والسير، بسند حسن].

أما القصة المشهورة في سبب إسلامه والتي تقول إنه كان في طريقه إلى محمد ﷺ لينال منه، فلقى رجل علم منه ما يريد فتعجب منه لأن لا يعلم بإسلام أخته وزوجها. فغضب عمر وذهب إلى أخته وزوجها ووجد معها خبأباً... فضربها حتى سال الدم منها، ثم وجد معهم آيات من سورة طه، فقرأها بعد أن أمرته أخته بالاغتسال إذا أراد مسّها... ثم أسلم وذهب إلى الرسول ﷺ ليعلن إسلامه... ورد جوار خاله العاصي ليضرب ويضرب كما هو حال المستضعفين من المسلمين إلى أن أعز الله الإسلام... هذه القصة لم ترد بإسناد صحيح مقبول عند المحدثين، وإن كان بعض أجزاءها قد ورد بأسانيد حسنة. فقد ضعفها وصي الله [حاشية الفضائل لأحمد]، وهمام، وأبو صعيلىك، [حاشية سيرة ابن هشام] وغيرهم.

لقد كان إسلام عمر استجابة من الله تعالى لدعاء النبي ﷺ الذي كان يدعوه، وهو: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر ابن الخطاب» [أحمد: المسند، بسند حسن].



فقد أعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب. وفي هذا روى البخاري عن ابن مسعود أنه قال: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب».

ورويت آثار كثيرة في إعزازه الإسلام، دلت على دوره الكبير في نصرة الإسلام، من ذلك:

روى ابن إسحاق [في السيرة] عن عمر رضي الله عنه، قال: «لما أسلمت تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة، قال: قلت: أبو جهل، فأتييت حتى ضربت عليه بابه، فخرج إليّ، وقال: أهلاً وسهلاً، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد ﷺ، وصدقت بما جاء به. قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به».

وروى ابن مسعود قال: «إن إسلام عمر كان فتحاً وإن هجرته كانت نصراً وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه» [ابن إسحاق: السيرة].

وروي عن صهيب الرومي أنه قال: «لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعا إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقاً، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به» [ابن سعد].

وروي عن ابن عباس أنه قال: «لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منا» [أحمد: فضائل الصحابة].

وروى ابن سعد من حديث محمد بن عبيد: «لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر، قاتلهم حتى تركونا نصلي».



وروي أن رسول الله ﷺ سماه الفاروق، أي الذي فرق بين الحق والباطل. [الذهبي:

السيرة؛ ابن سعد].

ومع أن هذه الآثار لا تقبل بميزان المحدثين إلا أنه لا بأس من الاستئناس بها فيما لا يترتب عليه حكم شرعي أو لا يمس العقيدة.

ومما لا خلاف فيه أن إسلام عمر كان إعزازاً للإسلام، لقول الرسول ﷺ: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب».

ج- عضات وعبر وحكم من هذا المقطع:

١ - إن الرجال ذوي القوة والشكيمة في المجتمع الجاهلي يمكن أن يكونوا سنداً قوياً للدعوة الإسلامية إذا أسلموا... ولذا كان الرسول ﷺ حريصاً على إسلام رجال أمثال أبي جهل وعمر بن الخطاب، وقال إن خيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا [البخاري]... فليحرص الدعاة دائماً على عدم إهمال دعوة الشخصيات القوية والمؤثرة في مجتمعاتها، لأن إسلام هذه الشخصيات سوف يزيل الكثير من التردد الذي يقع فيه من يأتمرون بأمرهم أو يقتدون بهم، كما هو واقع في كل زمان ومكان، وكما حكى عن ذلك القرآن، في مخاطبة الكفار الذين أضلهم الزعماء والسادة والكبراء: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ٦٦ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ ٦٧ ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَا بِكَ الْغَافِلِينَ وَأَلْعَلَّكُمْ لَنَا كَبِيرٌ﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]. ولا تقتصر الدعوة على زعماء المشركين وآحادهم، بل لا بد أن تتعدى إلى الزعامات المنحرفة عن الإسلام والتي تقود شعوبها أو أحزابها إلى غير طريق الإسلام في مجالات الحياة المختلفة.



٢- إن في نهوض الرسول ﷺ للقاء عمر بن الخطاب عندما جاء إلى المسلمين في دار الأرقم، وأخذه بِحُجْزَتِهِ [أي معقد السراويل والإزار] أو بمجمع رداءه، ثم جبذه جبذة شديدة، ثم تهديده، إن في هذا مثالاً عاليًا للشجاعة في موطن الشدة. وهو ما ستلمسه يتكرر في مواطن أخرى كثيرة، مثل موقفه يوم أحد ويوم حنين.

• المبحث السابع والعشرون: المقاطعة

• أ- المقاطعة العامة:

لما رأت قريش أن عدد الداخلين في الإسلام قد ازداد، وأن وسائلها وأساليبها السابقة في محاربتهم وقمعهم لم تُجد شيئًا، خاصة بعد إسلام حمزة وعمر، أعادت النظر في تلك الأساليب والوسائل، ثم اتخذت أسلوبًا آخر، أقسى وأشمل من الأساليب السابقة، وهو أسلوب المقاطعة العامة.

قال ابن إسحاق [في السيرة والسير] وموسى بن عقبة [كما في دلائل البيهقي] وعروة ابن الزبير [في معازيه] وابن سعد وغيرهم من أصحاب المغازي إنه لما رأت قريش أن الصحابة قد نزلوا أرضًا أصابوا بها أمنًا وأن عمر وحمزة أسلموا، وأن الإسلام فشا في القبائل، أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني المطلب، فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ومنعوه ممن أراد قتله، فأجابوه إلى ذلك حتى كفارهم فعلوا ذلك حمية على عادة الجاهلية. فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا واثتمروا بينهم أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على أن لا يعاملوهم ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ. ففعلوا ذلك وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، وكان كاتبها منصور بن عكرمة، الذي دعا عليه الرسول ﷺ فشلت بعض أصابعه، ويقال النضر بن الحارث، وقيل طلحة بن أبي طلحة. فانحازت بنو هاشم وبني المطلب إلى أبي طالب. فكانوا معه كلهم إلا أبا لهب، فكان مع



قريش. وقيل كان ابتداء حصرهم في المحرم سنة سبع من المبعث. فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً. وجزم موسى بن عقبة [كما نقله عنه الذهبي في السيرة وابن حجر في الفتح] بأنها كانت ثلاث سنين، حتى جهدوا، ولم يكن يأتيهم شيء من الأقوات إلا خفية، حتى كانوا يؤذون من اطلعوا على أنه أرسل إلى بعض أقاربه شيئاً من الصلوات، إلى أن قام في نقض الصحيفة نفر من أشدهم في ذلك ضيقاً، وهم: هشام بن عمرو ابن الحارث، وزهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وزمعة بن الأسود، وأبو البخترى ابن هشام بن الحارث. وكانت تربطهم ببني هاشم والمطلب صلوات الأرحام.

روى ابن أبي شيبه [في مغازيه]: «نادى منادي رسول الله ﷺ يوم بدر: ليس لأحد من القوم - يعني أماناً - إلا أبا البخترى، فمن كان أسره فليخل سبيله، فإن رسول الله ﷺ قد أمّنه، فوجدوه قد قتل». قلت: وذلك للمعروف الذي أداه إلى المسلمين حين سعى مع غيره لنقض صحيفة المقاطعة الجائرة.

وذكر ابن هشام أنهم وجدوا الأرضة قد أكلت جميع ما فيها إلا اسم الله تعالى. وأما ابن إسحاق [في السيرة] وموسى بن عقبة [كما ذكر ابن حجر في الفتح] وعروة [في مغازيه] فذكروا عكس ذلك.

قالوا إن الأرضة لم تدع اسماً لله إلا أكلته، وبقي ما بها من الظلم والقطيعة. والمعنى المقصود عندهم جميعاً واحد، وهو أنهم أرادوا أن يقولوا أن اسم الله تعالى لا يجتمع مع عبارات الظلم والقطيعة.

قال السهيلي: (وفي الصحيح: أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الحَبَطَ وورق السَّمُرِ، حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة، وكان فيهم سعد بن أبي وقاص، الذي روي أنه قال: لقد جعت حتى أني وطئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعت في فمي وما أدري ما هو إلى الآن).



وفي رواية يونس بن بكير [ابن إسحاق في السير] أن سعدًا قال: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة، فخرجت من الليل أبول، فإذا أنا أسمع قعقة شيء تحت بولي، فنظرت فإذا قطعة جلد بعير، فأخذتها فغسلتها، ثم أحرقتها [أي: شواها]، فرفضتها [أي سحنها] بين حجرين، ثم استفتتها، فشربت عليها الماء، فقويت عليها ثلاثًا».

وكانوا إذا قدمت العير مكة يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئًا من الطعام لعياله، فيقوم أبو لهب - عدو الله - فيقول: «يا معشر التجار: غالوا على أصحاب محمد، حتى لا يدركوا معكم شيئًا، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم»، فيزيدون عليهم في السلعة أضعافًا حتى يرجع إلى أطفاله، وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشترؤا من الطعام واللباس، حتى جهد المؤمنون، ومن معهم جوعًا وعريًا... وهلك من المحاصرين من هلك كما قال ابن عباس [أبو نعيم: الدلائل].

ومع هذه المقاطعة وما جرى للمسلمين وراءها من معاناة لم يتوقف الرسول ﷺ عن الدعوة، فقد كان يخرج في المواسم، ويلتقي القادمين على مكة، ويعرض عليهم الإسلام، ويعرض ذلك على كل من يتصل به من قومه [ابن هشام]. ولما أفسد الله ﷻ الصحيفة، خرج رسول الله ﷺ ورهطه وصحابته ٧٠٠، وخالطوا الناس [عروة: والمغازي؛ الذهبي: السيرة، من حديث ابن عقبة].

ب- عظات وعبر من هذا المقطع:

إضافة إلى ما ذكرته عند الكلام عن العظات والعبر المستفادة من أساليب المشركين فإنني أضيف إلى ذلك هنا:

١ - لا يخلو زمان ولا مكان من أهل المروءة، وعلى الدعاة أن يسعوا دائمًا إلى الاهتمام بمن يتوسم فيهم هذه الخصلة للاستفادة منهم في أوقات الشدائد والمحن.



٢- إن أعداء الله ﷺ في كل زمان ومكان يلجؤون إلى استخدام سلاح محاربة الدعاة في أرزاقهم ليستكينوا ويرجعوا عما يدعون إليه. وهو أسلوب يتفق عليه المشركون والمنافقون. ولو كان المسلمون الأوائل موظفين أو مستخدمين في دولة تحالفهم فيما يدعون إليه، للجات تلك الدولة إلى فصلهم من أعمالهم كوسيلة من وسائل الحرب التي تتخذها ضدهم.

ولكن الوسيلة المتاحة في ذلك الزمان في هذا الميدان كانت المقاطعة العامة بتلك الكيفية التي وقفنا عليها. وعلى الدعاة أن يعوا هذه الحقيقة بأبعادها المختلفة.

٣- إن ما أصاب الرسول ﷺ من ابتلاءات عزاء لكل مؤمن فيما يصيبه في هذه الحياة من بلاء ومصائب.

٤- لا تكاد تخلو جاهلية من الجاهليات القديمة أو الحديثة من قيم يمكن الاستفادة منها، فقد ضحى بنو هاشم تضحيات كبيرة في سبيل قيمهم الجاهلية الخاصة بحماية القريب، واستفاد الإسلام من هذه التضحيات. وإذا وجدت قيم في مجتمعاتنا المعاصرة، مثل قوانين حقوق الإنسان أو اللجوء السياسي أو الحرية الفكرية، فلا ضير في الاستفادة منها كما استفاد المسلمون الأوائل من مؤازرة بني هاشم لهم في حصار الشعب.

• المبحث الثامن والعشرون: وفاة عمه

• أ- وفاة أبي طالب:

مات أبو طالب سنة عشر من المبعث، بعد الخروج من الشعب بزمن يسير [كما روى ابن سعد]. وقيل توفي في رمضان، قبل خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام [كما روى الحاكم والبلاذري]، وقبل الهجرة بثلاث سنين، [كما روى ابن إسحاق في السيرة وابن سعد]. وقيل كان بين وفاته ووفاة خديجة شهر وخمسة أيام، [كما روى ابن سعد].



وقد ثبت في الصحيح أنه مات كافرًا على الرغم من حمايته للرسول ﷺ طوال حياته. فقد روى البخاري ومسلم عن ابن المسيب أن الرسول ﷺ دخل على أبي طالب عندما حضرته الوفاة، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال له النبي ﷺ: «يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله ابن أبي أمية: «يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟». فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] الآيتين، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

وروى مسلم أيضًا بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة»، قال: «لولا أن تعيرني قريش، يقولون إننا حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك». فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

وروى مسلم وعبد بن حميد [في المنتخب] وأحمد [في المسند]، من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أهون أهل النار عذابًا أبو طالب، وفي رجليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه»، واللفظ لابن حميد. ومن ألفاظ مسلم: «... وهو متعل بنعلان يغلي منهما دماغه»، وفي رواية أخرى له: «... وهو متعل نعلان من نار يغلي منهما دماغه». أما الروايات التي تدل على أن أبا طالب قد نطق بكلمة الإسلام عند موته فلم يصح منها شيء. وما في الصحيح صريح على وفاته كافرًا، فلا يعارض. [ابن حجر: الفتح؛ والإصابة؛ الذهبي: السيرة].



ب- الحكمة من وفاة أبي طالب قبل قيام الدولة الإسلامية:

- ١- سبق القول إن موت أبي طالب كافرًا كان لحكمة يعلمها الله تعالى.
- ٢- لقد شاء الله ﷻ أن لا يسلم أبو طالب، ويموت قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات، حتى لا يتوهم أحد أن له مدخلًا في دعوة الرسول ﷺ، أو يظن أن المسألة قبيلة أو أسرة وزعامة ومنصب [البوطي]. وربما هناك حكم يعلمها الله ﷻ ولم نتوصل إليها.

فائدة:

يروى أن أبا لهب حمى الرسول ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب ونال من أبي الغيطة عندما سب رسول الله ﷺ، واحتالت قريش عليه ليرفع حمايته عن الرسول ﷺ، فأرسلت عقبة بن أبي معيط وأبا جهل إلى أبي لهب ليسأل الرسول ﷺ عن عبد المطلب، فقال له الرسول ﷺ: «مع قومه»، فخرج إليهما أبو لهب وقال: «قد سألته، فقال: مع قومه، فقالا: يزعم أنه في النار. فقال: يا محمد! أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار، فقال أبو لهب: والله لا برحت لك إلا عدوًّا أبدًا، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار»، واشتد عند ذلك أبو لهب وسائر قريش عليه. [البداية].

انظر كيف كان ﷺ صريحًا، لا يجامل ولا يميّع قضية الإسلام مهما كانت النتائج.

• المبحث التاسع والعشرون: وفاة خديجة رحمها الله

تبانت الروايات حول تاريخ وفاتها، فقيل: بعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين، أو شهر وخمسة أيام، أو بثلاثة أيام، وقيل غير ذلك. وقيل: إن ذلك كان في رمضان من السنة العاشرة من المبعث وقبل الهجرة بنحو ثلاث سنين، وهو المشهور [قلعه جي: حاشية دلائل البيهقي].



وعندما مات أبو طالب وخديجة في عام واحد وبينهما مدة يسيرة، تابعت المصائب. فقد كان أبو طالب درعاً حصيناً للنبي ﷺ، وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام، يسكن إليها عند الشدائد [كما روى ابن إسحاق في السيرة والسير]. وقد وردت آثار كثيرة تدل على فضلها ومكانتها عند الله ورسوله [أحمد: فضائل الصحابة].

ومما يروى في ذلك أنه لما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياته، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فشر على رأسه تراباً [ابن إسحاق: السيرة]، ودخل على بيته وعلى رأسه التراب، فغسلته عنه إحدى بناته وهي تبكي، والرسول ﷺ يقول لها: «لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك»، ويقول بين ذلك: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب» [ابن هشام بسند مرسل حسن]. وقد سبق القول إنهم تجرؤوا على وضع سلا الجزور بين كتفيه وهو ساجد.

ولتوالي مثل هذه الآلام في هذا العام، فقد ساء بعض المؤرخين عام الحزن، ولم يرو أن النبي ﷺ ساء بهذا الاسم، كما ذكر السيوطي وغيره [الألباني: دفاع].

ونميل إلى أن سبب حزنه كان لشدة ما كابد في هذا العام من الشدائد في سبيل الدعوة، وتضييق قريش الخناق عليه في محاولة منهم لإغلاق أبواب الدعوة في وجهه.

● المبحث الثلاثون: زواجه من سودة رحمته الله

● ومع المحن والشدائد التي كان يعيشها الرسول ﷺ في هذه الفترة إلا أنه لم يألو جهداً في مواصلة أصحابه في مصائبهم.

ففي شوال من السنة العاشرة لمبعثه تزوج سودة بنت زمعة رحمته الله. لقد كانت سودة من أوائل المسلمين، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة مع زوجها السكران بن عمرو، فتوفي عنها، وتقديراً لها تزوجها الرسول ﷺ. وسيأتي ذكر حكمة هذا الزواج عند الكلام عن أمهات المؤمنين.



• المبعث الحادي والثلاثون: رحلة الطائف

أ- هجرته ﷺ إلى الطائف:

لما مات أبو طالب ونالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه الإسلام [أحمد: المسند، بسند جيد؛ ابن هشام].

روى ابن حبيب في (المحبر) أنه خرج إلى الطائف بعد موت خديجة بثلاثة أشهر وثمانية أيام. وعند مغلطاي [في السيرة] بثلاثة أشهر، في ليالٍ بقين من شوال سنة عشر من البعثة، ومعه زيد بن حارثة رضي الله عنه، كما روى ابن سعد.

وروى ابن إسحاق [في السيرة] أن الرسول ﷺ عندما ذهب إلى الطائف التقى سادة ثقيف يومذاك، أبناء عمرو بن عُمَيْر الثلاثة: عَبْدُ يَالِيلٍ ومسعود وحبيب، وعرض عليهم الإسلام، فلم يقبلوه منه، وسخروا منه، وعندما يئس من خير في ثقيف طلب منهم أن يكتموا عنه ما دار بينهم وبينه حتى لا يثيروا عليه الناس.

ولكنهم لم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، فأخذوا في سبِّه والصياح به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من كان يتبعه من سفهاء ثقيف، وجلس في ظل شجرة عنب، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء الطائف.

فلما اطمأن في جلوسه، قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكَلِّمُنِي؟ إلى بعيد تَتَجَهَّـمُنِي؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن



عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصَلِّحْ عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزلَ بي غَضَبَكَ، أو يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وعندما رآه ابنا ربيعة على هذه الحال، تحركت فيهما عاطفة الرحم، فأمرَا غلامًا نصرانيًا يدعى عَدَّاسًا أن يقدم له عنبًا.

وتعجب عداس من قول الرسول ﷺ: «بسم الله» قبل أن يأكل. وزال عجبه عندما أعلمه الرسول ﷺ بأنه نبي، فأخذ يقبل رأس النبي ﷺ ويديه وقدميه. وحاول ابنا ربيعة أن يصداه عن النبي ﷺ قائلين له: «لا يصرفك عن دينك، فإن دينك خير من دينه».

وفي رواية موسى بن عقبة [في دلائل البيهقي]، أن سفهاء الطائف قعدوا للرسول ﷺ صَفَيْنَ على طريقه، فلما مرَّ بين صَفِيَّهِم جعلوا لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة، وكانوا أعدُّوها، حتى أدموا رجله. وكان ذلك من أشد ما لقي الرسول ﷺ في جهاده.

وعندما لاقى الرسول ﷺ ما لاقى من الابتلاء والشدة في الطائف، عاد إلى مكة مهمومًا. وعندما بلغ قرن الثعالب - قرن المنازل - بعث الله ﷻ إليه جبريل ﷺ، ومعه ملك الجبال، وجعله رهن إشارته، إذا أراد أن يطبق الْأَخْشَبَيْنِ على أهل الطائف، وكان ذلك دعمًا معنويًا كبيرًا له. [والأخشبان جبلا مكة: أو قُبَيْس والذي يقابله، وهو قُعيْقَعان، وقيل: الأحمر وجبلا منى].

وكانت إقامته بالطائف عشرة أيام، كما روى ابن سعد. وذكر مغلطاي [في سيرته] أن إقامته كانت شهرًا.



وروى البخاري ومسلم في هذا أن عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله ﷺ: «هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟» قال: «لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أضلنتني، فنظرت فإذا بجبريل، فناداني، فقال: «إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: «يا محمد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»، فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً».

وجاءه دعم معنوي آخر قبل أن يصل مكة. ألا وهو إيمان بعض الجن برسالته. ففي وادي نخلة، قرب مكة، أقام الرسول ﷺ أياماً. وخلال هذه الإقامة بعث الله ﷻ إليه نفرًا من الجن، استمعوا إلى القرآن، فأمنوا به. وقد ذكر الله ذلك في سورتي الأحقاف والجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ۚ﴾ (٢٩) قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ﴾ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، وَلَن تُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝﴾ (٢) [الجن: ١ - ١٥].

وقد ثبت خبر قدوم الجن على الرسول ﷺ في [الصحيحين] أيضًا. وذكر ابن حجر - في الفتوح -، أدلة تؤيد ما ذهب إليه ابن إسحاق - في السيرة - وابن سعد، في أن ذلك كان عندما رجع الرسول ﷺ من الطائف.



لقد شد الله ﷻ أزر نبيه بهاتين الحادثتين، فقام نشطاً في الدعوة إلى الله ﷻ غير آبه بما يواجهه من أساليب الخصوم. فعندما عزم على دخول مكة في عودته من الطائف قال له زيد: «كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك؟» فقال: «يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه».

وأرسل في طلب جوار الأحنس بن شريق، فجَبْن، وتعلل بأنه حليف، والحليف لا يجير كما يقول. وطلب جوار سهيل بن عمرو فرفض بحجة أن بني عمرو لا تجير على بني كعب. وأخيراً أرسل في طلب جوار المطعم بن عدي، فاستجاب لذلك، وتنبأ هو وبنوه لحماية الرسول ﷺ [ابن هشام؛ الفاكهي: أخبار مكة].

ومما قال حسان بن ثابت [ابن هشام] في رثائه له، يشيد بهذا الموقف النبيل:

| | |
|---|---|
| عَيْدَكَ مَا لَبَى مُهْلٌ وَأَحْرَمًا | «أَجَرَتْ رَسُولَ اللَّهِ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا |
| وَقَحْطَانُ أَوْ بَاقِي بَقِيَّةِ جُرْهُمَا | فَلَوْ سُئِلْتُ عَنْهُ مَعْدٌ بِأَسْرِهَا |
| وَذِمَّتْهُ يَوْمًا إِذَا مَا تَذَمُّمَا | لَقَالُوا هُوَ الْمُؤَفِّي بِخُفْرَةِ جَارِهِ |

[والخفرة العهد. وتذم: أي طلب الذمة والعهد والجوار. وذكر الفاكهي، بإسناد حسن، أن حسان بن ثابت رثى المطعم بن عدي لما مات مجازاة له على ما صنع للنبي ﷺ].

وحفظ رسول الله ﷺ للمطعم بن عدي هذا الصنيع، ومن قبله صنيعه في نقض صحيفة المقاطعة، فقال يوم أسرى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء التثني لتركتهم له» [البخاري].

[قال ابن حجر: (وأن المراد باليد المذكورة ما وقع منه حين رجع النبي ﷺ من الطائف ودخل في جوار المطعم بن عدي). والتثني: العفنين].

لم يقيد هذا الجوار حركة الرسول ﷺ وأصحابه في الدعوة إلى الإسلام. فعندما هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة، خرج أبو بكر ﷺ فيمن خرج مهاجرًا إليها، حتى



إذا بلغ بَرَكُ الغِمَادِ، لقيه ابنُ الدُّغْنَةِ - سيد القارة، وعند ابن إسحاق - سيد الأحابيش - فرده إلى مكة، وأدخله في جِوَارِهِ، قائلًا له: «مثلك يا أبا بكر لا يُخْرُجُ ولا يُخْرَجُ...». واشترطت عليه قريش أن يأمر أبا بكر فيعبد الله في داخل داره، ففعل أبو بكر ما طلب منه. وبني مسجدًا في فناء داره ليصلي فيه. فكان إذا صلى وقرأ القرآن وقف عليه نساء المشركين وأبنائهم، يعجبون منه، لأنه كان يبكي، وهو يقرأ القرآن. فأفزع ذلك قريشًا خشية إيمان الناس بالقرآن، فطلبوا من ابن الدُّغْنَةِ أن يطلب من أبي بكر عبادة ربه في داخل داره من حيث لا يسمعه أحد، وليس في فناء الدار حيث يسمعه الناس. وجاءه ابن الدغنة وقال له: «فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترد ذمتي...» فرد عليه أبو بكر قائلًا: «فإني أرد عليك جوارك، وأرضى بجوار الله ورسوله» [البخاري؛ البيهقي: الدلائل؛ ابن إسحاق: السيرة والسير]. [ويقال: الدُّغْنَةُ، واسمه: الحارث بن يزيد؛ والدغنة أمه].

وهذا الموقف يشبه موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما رد جوار خاله العاص، رغبة منه أن يكون في جوار الله ﷻ ورسوله ﷺ كسائر المستضعفين ممن يرفع الكفار عن إجارتهم.

ب- عظات وعبر:

١- إن اختيار الرسول ﷺ الثلاثة الذين كانوا سادة ثقيف يومذاك لدليل على أهمية دعوة الزعماء الذين ينساق وراءهم الناس، وعندما رفضوا دعوته علم أن غيرهم سيرفضها، فلذا لم يستغرق مقامه بالطائف وقتًا طويلاً.

٢- إن صبر الرسول ﷺ على معارضيهِ قد بلغ حدًا عظيمًا. فعلى الرغم مما واجهه به أهل الطائف من سوء في المعاملة إلا أنه لم يطلب من الله تعالى عقابهم، بل دعا الله ﷻ أن يهديهم، فاستجاب الله ﷻ لدعائه، وذلك بدليل قدوم ثقيف عليه مسلمة بعد حصار الطائف ورجوعه إلى المدينة.



٣- إن لقاء بعض الجن بالرسول ﷺ بنخلة وإيمانهم به فيه عظة وعبرة للبشر الذين لا يؤمنون بالله ﷻ وبرسالة محمد ﷺ.

٤- لقد كان إيمان الجن برسول الله ﷺ بعد أن ناله ما ناله على أيدي ثقيف تسلية من الله ﷻ له أنسته آلامه، وأكدت له أن الله تعالى لن يتركه. فإن تخلى عنه أهل الأرض إلى حين ففي العوالم الأخرى من الجن والملائكة من يشد أزره ويؤمن به، وأن الله ﷻ الذي حول الجن إلى مؤمنين ودعاة إلى هذا الدين الجديد، لقادر على تحويل عتاة كفار قريش وثقيف إلى مؤمنين ودعاة بعد حين. وقد كان ذلك كذلك. [قلعة جي - رواس: قراءة جديدة للسيرة].

٥- إن من مآثر الجاهلية ذلك العرف الذي كانوا يحترمونه، ألا وهو الجوار، وهو ما يعد من مآثر كثير من الدول الحديثة، ويعرف بـ (حق اللجوء السياسي)، بمصطلح (الدبلوماسية) الحديثة. وهو ما يمكن أن يستفيد منه الدعاة لتبليغ دعوتهم إلى الناس.

٦- إن إسلام عداس دليل على أن الرسول ﷺ لم يرجع من الطائف من دون نتائج إيجابية، بل رجع بها هو خير من حُمر النعم، فقد هدى الله ﷻ عداسًا على يديه، والرسول ﷺ يقول: «لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم» [مسلم].

٧- إن في قصة هجرته ﷺ إلى الطائف وما لاقاه من أذى من سفهاء ثقيف لعظة وعبرة للدعاة الذين يتأسون بسيرة الرسول ﷺ، فإذا كان الرسول ﷺ لقي ما لقي من المشاق في سبيل إقامة الدين، فمن باب أولى أن يلقي الدعاة أشد من ذلك، فعليهم أن يتهيؤوا لذلك، لأنه طريق الأنبياء والصالحين، ولأن حكمة الله ﷻ اقتضت أن لا ينتصر هذا الدين بدون عمل وجهد البشر.



• المبحث الثاني والثلاثون: التسلية الربانية

• أ- الإسراء والمعراج:

تأتي هذه المعجزة تكريمًا وتثبيتًا للرسول ﷺ بعد وفاة عمه الذي كان يحميه وزوجته التي كانت تواسيه، وبعدهما أصابه في الطائف ومكة ما أصابه من الأذى. فهي بعد العام العاشر من البعثة كما تدل على ذلك مجريات الأحداث، ولكن اختلف في تحديد زمانها بعد العام العاشر [ابن كثير: البداية (٣/ ١١٩)].

بعد دراسة الآثار الواردة في تحديد الشهر واليوم الذي حدث فيه الإسراء والمعراج، خلص الشيخ طرهوني [صحيح السيرة] إلى أنه يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول. فقد ذكر موسى بن عقبة عن الزهري [مغازي عروة] وعروة بن الزبير [مغازي عروة]، أن الإسراء إلى بيت المقدس كان قبل خروج النبي ﷺ إلى المدينة بسنة. ومما لا جدال فيه أن الإسراء والمعراج ثابت بالقرآن والسنة.

فقد أشار القرآن الكريم إلى الإسراء والمعراج في سورتي الإسراء والنجم. ففي السورة الأولى ذكر قصة الإسراء وحكمته، في قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ دَلِيلًا لِرَبِّهِ، مَنْ أَيْنِنَّا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١) [الإسراء: ١].

وذكر في السورة الثانية قصة المعراج وثمرته، في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۖ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ إِذْ يَنْفُسُ الْسِدْرَةَ مَا يَعْنَىٰ ۖ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۖ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (١٨) [النجم: ١٣-١٨].

إن من أكثر أحداث السيرة بمكة مرويات هي هذه الحادثة، فمجموع رواياتها عند البخاري عشرون رواية، عن ستة من الصحابة رضي الله عنهم.

وعند مسلم نحوًا من ثماني عشرة رواية، عن سبعة من الصحابة رضي الله عنهم. [عرجون: محمد رسول الله ﷺ].

ولا توجد رواية واحدة تجمع ما ورد من أحداث خلال هذه الرحلة، وإنما هناك روايات أشارت كل واحدة منها إلى بعض الأحداث. ومن خلال مجموع الروايات التي وردت عند البخاري ومسلم وغيرهما يمكن تلخيص مضمون تلك الروايات.

شق الصدر:

بعد صلاة العشاء من تلك الليلة المباركة نزل جبريل عليه السلام وفرج عن سقف بيت الرسول ﷺ بمكة، وشق صدره ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه في صدره، ثم أطبقه ثم أخذ بيده فعرج به [البخاري ومسلم وغيرهما].

الإسراء:

عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته، فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فأتاني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة. قال: ثم عرج بي...» [متفق عليه].

وفي رواية أخرى أنه صلى بالأنبياء قبل المعراج، ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام فأمرهم رسول الله ﷺ تلك الليلة. [البيهقي: الدلائل].

المعراج:

ثم عرج به إلى السماوات، وفي كل سماء يستفتح جبريل، ثم يسأل، ومن معك؟ فيقول: «محمد» فيرحب به. فرأى في السماء الدنيا آدم، وفي الثانية عيسى ويحيى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي



السابعة إبراهيم، مستنداً إلى البيت المعمور، ثم ذهب إلى سدره المنتهى وفرض الله ﷻ عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم واللييلة. وفي طريق عودته من معراجيه، انتهى إلى موسى، فسأله موسى: «ما فرض ربك على أمتك؟» فأخبره، فطلب منه موسى أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف، ففعل وخفف الله ﷻ عنه خمس صلوات. ثم ما زال صاعداً ونازلاً بين ربه وموسى، وفي كل مرة يطلب منه موسى أن يرجع لربه ليخفف عنه، حتى خففها الله تعالى، فأصبحت خمس صلوات بأجر خمسين صلاة. وعندما طلب منه موسى الرجوع بعد هذا، قال: «قد سألت ربي حتى استحييت»، فنادى مناد: «قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي» [البخاري ومسلم وغيرهما].

وفي رواية أنس عن أبي ذر، قال بعد ذكر السماوات: «ثم عرج بي حتى ظهرت في مستوى أسمع فيه صريف الأقلام»، ثم ذكر فرض الصلاة، وقال: «ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدره المنتهى وغشيها ألوان لا أدري ما هي؟ ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبال اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك» [متفق عليه].

وتناول النووي [شارح مسلم] قضية رؤية محمد ﷺ الله ﷻ في المعراج واختلاف العلماء في ذلك، ثم رجح أن الرسول ﷺ رأى ربه، استناداً إلى حديث ابن عباس رضي الله عنه في هذا، الذي قال فيه: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين».

قلت: وهذا الشاهد يؤيد من يقول بعدم الرؤية.

العودة:

يتبين من الروايات أن طريق العودة كان من السماوات العلا إلى بيت المقدس ثم إلى مكة. فقد روى الترمذي عن شداد بن أوس: «... ثم انصرف بي فمررنا بغير لقريش بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بغيراً لهم، قد جمعة فلان، فسلمت عليهم فقال بعضهم: هذا صوت محمد، ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة» [دلائل البيهقي بسند صحيح].



كانت وسيلة الإسراء البراق، بينما في المعراج استعملت الروايات الفعل المبني للمجهول «عُرِّجَ» فلم تبين الوسيلة، وفي بعضها: «نصب لي المعراج»، قال ابن كثير [في البداية]: (وهو السُّلَم، فصعد فيه إلى السماء، ولم يكن الصعود على البراق كما توهمه البعض).

موقف قريش من الإسراء والمعراج:

خشي الرسول ﷺ أن يكذبه قومه، فأصبح في ذلك اليوم مهمومًا. فجلس إليه أبو جهل وهو في هذه الحال، وسأله مستهزئًا، «هل كان من شيء؟» فأخبره النبي ﷺ بالإسراء. فلم يشأ أن يكذبه ساعته خشية أن يكتم ذلك أمام الناس، واكتفى بقوله: «أرأيت إن دعوت قومك إليك، أتحدثهم بما حدثتني؟»، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فأسرع إلى قومه، فدعاهم، فجاءوا إليه، وطلب منه أبو جهل أن يحدثهم فحدثهم. فتعجبوا من حديثه، وطلب منه من رأى المسجد الأقصى أن يصفه لهم. فرفعه الله ﷻ له، فأخذ يصفه لهم، وهو ينظر إليه، فقالوا: «أما النَّعْتُ فقد والله أصاب» [البخاري ومسلم وغيرهما].

وفي رواية أنهم استنكروا أن يذهب الرسول ﷺ إلى الشام ثم يعود في جزء من ليلة واحدة، وهم يذهبون ويعودون في مدة شهرين، ولذا ارتد ناس ممن كان قد أسلم [أحد في المسند والحاكم بسند صحيح].

أما أبو بكر فعندما أخبر بالخبر، صدقه دون تردد، قائلًا: «والله لئن كان قاله لقد صدق، وما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فهذا أبعد مما تعجبون منه»، ثم أقبل على النبي ﷺ يسأله عن وصفه، وكلما ذكر شيئًا قال: صدقت. أشهد إنك رسول الله... فقال النبي ﷺ: «وأنت يا أبا بكر الصديق»، فيومئذ سمَّاه الصديق. [الحاكم بسند صحيح].



الأدلة على أن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معاً:

قال القاضي عياض [في الشفا]: (اختلف العلماء في الإسراء والمعراج برسول الله ﷺ، ف قيل إنما كان جميع ذلك في المنام، والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أُسري بجسده ﷺ، والآثار تدل عليه لمن طالعتها وبحث عنها ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل، ولا استحالة في حملها عليه فيحتاج إلى تأويل...).

وقال ابن حجر [في الفتح]: (إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اللحظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد البعث، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل...).

ب- دلالات وعظات وعبر:

١- إن حديث الإسراء والمعراج متفق عليه بين أهل الحديث والمغازي، وثبت بآيات قرآنية وبأحاديث نبوية، فهو قطعي الثبوت. وهو بإجماع جماهير المسلمين من معجزاته ﷺ. وفي إنكاره إنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة.

٢- جاءت هذه المعجزة بعد المحن التي ابتلي بها الرسول ﷺ لتجدد عزيمة الرسول ﷺ ولتدلل على أن هذا الذي يلاقه من قومه ليس سببه تخلي الله عنه، وإنما هي سنة الله مع أحبائه في كل عصر ومصر؛ وبينت للرسول ﷺ أن المستقبل لدينه، وذلك بإقرار إمامته للأنبياء السابقين، وما تمثل له من رموز لهذا المعنى؛ وبينت له أن الأرض إذا ضاقت في وقت، فإن السماء تفتح أبوابها لتستقبله، ولئن آذاه بعض أهل الأرض في وقت ما، فإن أهل السماء يقفون له مستقبلين ومرحبين.



٣- إن الاقتران الزمني والمكاني بين إسرائئه ﷺ إلى بيت المقدس والعروج به إلى السموات السبع، لدلالة باهرة على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالى. وفيه دلالة واضحة أيضًا على العلاقة الوثيقة بين ما بعث به كل من عيسى ومحمد ﷺ، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذي بعثوا به^(١)؛ وفيه دلالة على واجب المسلمين في الحفاظ على هذه الأرض وحمايتها من مطامع أعداء الإسلام.

٤- ولعل الحكمة في مرور هذه الرحلة ببيت المقدس، ولم تكن من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة، هو أنه عندما أهدر اليهود كرامة الوحي وأسقطوا أحكام الله حلت بهم لعنة الله، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد، على الرغم من أنها ظلت فيهم زمانًا طويلاً، ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد ﷺ انتقالًا بالقيادة في العالم من أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد، ومن ذرية إسرائيل إلى ذرية إسماعيل، وهو انتقال فيه احترام للإيمان الذي درج - قديمًا - في رحابه. [الغزالي ورواس].

٥- إن في اختيار رسول الله ﷺ اللبن على الخمر حينما قدمهما له جبريل ﷺ، دلالة على أن الإسلام هو دين الفطرة. لأن اللبن مادة لم تتغير طبيعتها، والخمر نتيجة تغيير كيمياوي في طبيعة العنب وغيره من مصادر الخمر، إضافة إلى أن الخمر يغير فطرة الإنسان؛ لأنه يذهب العقل.

٦- إن في جمع الله ﷻ المرسلين السابقين من حملة الهداية في هذه الأرض وما حولها، ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة دل على أن النبوات يصدق بعضها بعضًا، وأن محمدًا هو خاتمهم الذي اكتمل به الدين، وأبان مكانة محمد ﷺ عند ربه.

(١) إشارتي هنا إلى الحديث الصحيح: «...والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.



٧- إن رؤية طرف من آيات الله ﷻ الكبرى في ملكوت السماوات والأرض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين ومعرفة عقابهم، ورفع لمعنويات نبيه ﷺ وأصحابه ليواجهوا قوى الكفار المتألبة عليهم.

٨- إن وقوع مثل معجزة الإسراء والمعراج للرسول ﷺ بعد مضي اثني عشر عامًا من مبعثه دَلٌّ على أن الخوارق والمعجزات تأتي في طريق محمد ﷺ ضربًا من التكريم والإيناس لشخصه، غير معكرة ولا معطلة للمنهج العقلي العادي، وذلك على عكس ما وقع لبعض الأنبياء، مثلما وقع لموسى ﷺ، حيث إن الخوارق في سير هذا البعض قصد بها قهر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة.

وتأكيدًا لهذا، فعندما اقترح المشركون على النبي ﷺ أن يرقى في السماء، جاء الجواب من الله ﷻ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]. فلما رقى في السماء بعد ذلك، لم يذكر قط أن ذلك ردًا على التحدي أو إجابة على الاقتراح السابق.

٩- إن فرض الصلوات الخمس في ليلة المعراج دليل على أهمية هذا الركن من أركان الإسلام، الذي يجب أن يكون معراجًا يرقى بالناس كلما تدلت بهم شهوات النفوس وأغراض الدنيا [الغزالي].

● المبحث الثالث والثلاثون: البحث عن وطن الدعوة

● أ- عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل:

كان الرسول ﷺ في حركة دائبة للبحث عن مكان يعبد الله ﷻ فيه آمنًا، ولذا كان أمره للصحابة بالهجرة إلى الحبشة، وهجرته هو إلى الطائف، ثم عرض نفسه على القبائل. وكان عرض نفسه على القبائل بأمر من الله ﷻ، ودليل هذا قول ابن حجر [في الفتح]: (وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقي [كلاهما في الدلائل] بإسناد حسن عن



ابن عباس: «حدثني علي بن أبي طالب قال: لما أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب...». وكانت مواسم الحج وأسواق العرب مناسبات هامة للالتقاء بذوي الشأن من رؤساء القبائل وغيرهم من الأفراد العاديين. وكان يطلب من ذوي الشأن أن يحموه، دون أن يكرههم على دعوته.

ومما كان يقوله في هذه المواسم [كما روى أحمد وأبو داود وابن ماجه والذهبي]: «هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي».

و: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به...» [أحمد: المسند، بسند جيد؛ ابن إسحاق: السيرة].

وتقول الرواية نفسها إن عمه أبو لهب - عبد العزى بن عبد المطلب - كان يسير خلفه، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من حديثه، قال: «هذا يدعوكم إلى أن تفارقوا دين آبائكم وأن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلال...» وفي رواية عند ابن إسحاق في السير، بسند حسن، أنه كان يتبعه ويرميه بالحجارة، وقد أدمى قدميه.

ومن القبائل التي عرض رسول الله ﷺ نفسه عليها ودعاها إلى الإسلام فأبوا: كندة، وفيهم سيدهم مُلَيْح - أو فُلَيْح [ابن إسحاق: السيرة والسير]، وبنو عبد الله من كلب [المصدران نفسهما]، وبنو حنيفة، وكان ردهم عليه قبيحاً [ابن إسحاق: السيرة]، وبنو عامر ابن صَعَصَعَة، وقال رجل منهم يدعى بَيْحَزة بن فِرَاس: «والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب...» أرأيت إن تابعتك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك،



أَيُكُونُ لَنَا الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِكَ؟» قَالَ: «الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»، قَالَ: «أَفَنُهِدُ نَحُورَنَا لِلْعَرَبِ دُونَكَ، فَإِذَا أَظْهَرَكَ اللَّهُ كَانَ الْأَمْرُ لغيرنا، لَا حَاجَةَ لَنَا بِأَمْرِكَ؛ فَأَبُوا عَلَيْهِ.

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كانت أدركته السن، حتى لا يقدر أن يُؤاَفِّيَ معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثم أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا، قال: فوضع الشيخ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلافٍ، هل لذنابها [أي ذنبها] من مطلب، والذي نفسُ فلان بيده، ما تقوَّها إسماعيلي قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟»، ومُحَارِبُ بْنُ حَصَفَةَ وَفَزَارَةُ وَغَسَّانُ وَمُرَّةُ وَسُلَيْمُ وَعَبْسُ وَبَنُو النضر وَبَنُو البكاء، وَعُذْرَةُ وَالْحَضَارِمَةُ، [ابن سعد] وربيعة وَبَنُو شيبان الذين كان فيهم وعلى رأسهم: مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، وقد تعللوا بحجج منها الرغبة في التريث إلى حين أخذ مشورة من وراءهم من قومهم، وفي هذا قال المثنى: «وإننا نزلنا على عهد أخذنا علينا كسرى، لا نحدث حَدَثًا وَنُؤْوِي حَدَثًا، وَإِنِّي أَرَى هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ مِمَّا تَكْرَهُهُ الْمُلُوكُ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ نُؤْيِدَكَ وَنَنْصُرَكَ مِمَّا يَلِي مِيَاهَ الْعَرَبِ فَعَلْنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَسَأْتُمْ فِي الرَّدِّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالْصَدَقِ، وَإِنْ دِينَ اللَّهِ لَنْ يَنْصُرَهُ إِلَّا مَنْ أَحَاطَهُ اللَّهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبِشُوا إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يُوْرَثَكُمُ اللَّهُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَيَفْرَشَكُمُ نِسَاءَهُمْ، أَتَسْبِّحُونَ اللَّهَ وَتَقْدِّسُونَهُ؟»، فَقَالَ النعمان بن شريك: «اللهم! نعم»، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ ﴿٤٦﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

وقد سر رسول الله ﷺ من أخلاقهم. [ابن حبان: السيرة؛ البيهقي: الدلائل، بسند حسن؛ الحاكم وأبو نعيم، بسند حسن].



لقد كان أهل المدينة أكثر الناس تجاوبًا مع دعوة الرسول ﷺ عندما عرض عليهم الإسلام. فعندما عرض الرسول ﷺ الإسلام على سُويّد بن الصامت، لم يعلن الإسلام ولم يبعد عنه، واستحسن ما سمع من القرآن. وعندما عاد إلى بلاده، وقتل في حرب بُعَاث - بين الأوس والخزرج -، كان رجال من قومه يقولون إنه مات مسلمًا. [ابن إسحاق: السيرة].

وروى ابن إسحاق [في السيرة بسند حسن] أن وفدًا من بني عبد الأشهل على رأسه أبو الحيسر، أنس بن رافع، وفيه إياس بن مُعاذ، قدموا مكة يلتمسون الحلف مع قريش ضد قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: «هل لكم خير مما جئتم له؟»، فقالوا له: «وما ذاك؟»، قال: «أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليّ الكتاب». ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ، وكان غلامًا حديثًا: «أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له». فزجره أبو الحيسر، فصمت، وسمعه قومه عند موته يهلل الله تعالى ويكبره ويمجده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلمًا.

لقد استشعر إياس الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من الرسول ﷺ ما سمع. وفي السنة الحادية عشرة من البعثة عرض نفسه على نفر - قيل ستة وقيل ثمانية - من الخزرج، عند العقبة، فجلسوا معه. فدعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن [ابن إسحاق: السيرة؛ ابن كثير: البداية: من حديث ابن عقبة].

وكان مما مهد أفئدتهم لقبول الإسلام أن اليهود كانوا معهم في بلادهم، ومعلوم أنهم أهل كتاب وعلم، فكان إذا وقع بينهم وبين اليهود نفرة أو قتال قال لهم اليهود: «إن نبيًا مبعوثًا الآن قد أطل زمانه، سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم!».



فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام نظر بعضهم لبعض وقالوا: «تعلمون والله أنه للنبي الذي تدعوكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه». فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من الإسلام. وقالوا: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك. ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين. فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك».

ثم انصرفوا، ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن].

وهناك سبب آخر أدى إلى تمهيد أفئدة أهل المدينة لقبول الإسلام، وهو يوم بُعث. فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان يوم بعثت يومًا قدمه الله لرسوله ﷺ، فَقَدِمَ رسول الله ﷺ وقد افترق مَلَأُهم وَقُتِلَتْ سَرَائِهم [خيارهم وأشرافهم] وَجَرَّحُوا، فَقَدَّمَهُ الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام».

ب- عضات وعبر:

١ - إن أمثال أبي لهب لا ينعلم في مجتمعات الكفر والانحراف العقدي الصريح، وهي نماذج من الناس مثل سلوك وتفكير أبي لهب، تقف في وجه الدعاة في كل زمان ومكان، بمثل موقف أبي لهب من ابن أخيه محمد ﷺ، ويصدون عن سبيل الحق ويبغونها عِوَجًا، بما يتاح لهم من وسائل، فيصفون دعاة الدين الحق بأنهم دعاة بدعة وضلالة، ودعاة دين جديد أو مذهب خامس، أي ليس من بين المذاهب الأربعة المشهورة. ولم يتأثر الرسول ﷺ لموقف عمه أبي لهب، بل استمر في دعوته. فعلى الدعاة أن يتأثروا بمواقف المغرضين.



٢- على الدعاة أن يطرقوا جميع الأبواب التي يمكن أن تقود إلى التمكين للدين في الأرض، وعدم اليأس مهما تكررت محاولات الاتصالات الفردية والجماعية، ومهما كانت النتائج القريبة سلبية.

• المبحث الرابع والثلاثون: البيعة

• أ- بيعة العقبة الأولى:

في الموسم التالي من العام الثاني عشر للبعثة، جاء إلى أداء مناسك الحج اثنا عشر رجلاً من المسلمين من المدينة بعضهم ممن لقي النبي ﷺ في الموسم السابق وآمن به، فلقوا الرسول ﷺ مع جماعة من أصحابه حتى بايعوه. وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث عبادة بن الصامت الذي كان ضمن حجاج المسلمين من المدينة، روي صيغة هذه البيعة، وهي:

قال عبادة: إن الرسول ﷺ قال لهم: «تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً، فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه»، فبايعوه على ذلك.

قال عبادة بن الصامت في رواية ابن إسحاق [في السيرة بسند حسن] «فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب». [أي: على غرار بيعة النساء ثاني أيام فتح مكة، وليس فيها الجهاد].

وعندما أرادوا العودة إلى بلادهم، بعث رسول الله ﷺ مُضْعَب بن عُمَيْر ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يسمى (مقرئ المدينة). وكان منزله على أشعد ابن زُرَّارة [رواه أئمة السيرة، وإسناده في الدلائل (٤٣٨/٢) مرسل حسن، ورجاله ثقات].



روى أبو داود وابن إسحاق [في السيرة بسند حسن]، وغيرهما من طريق عبد الرحمن ابن كعب بن مالك أن أول من أقام صلاة الجمعة بالمدينة هو أسعد بن زرارة، وكانوا أربعين رجلاً أمّهم مصعب بن عمير. فقد كتب إليه الرسول ليجمع بهم [الدار قطني: السنن].

أسلم خلق كثير من الأنصار على يد مصعب بمعاونة أسعد بن زرارة، ومن أسلم من أشرفهم [كما روى ابن إسحاق في السيرة بسند مرسل حسن]: أُسَيْدُ بْنُ الْحَضَيْرِ وَسَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ، وَأَسْلَمَ بِإِسْلَامِهَا يَوْمَئِذٍ جَمِيعُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، إِلَّا أُصَيْرِمَ عَمْرُو بْنُ ثَابِتٍ وَنَقِشٌ، فَإِنَّهُ تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُ إِلَى يَوْمٍ أَحَدٍ، وَأَسْلَمَ حِينَئِذٍ وَقَاتَلَ فَقُتِلَ قَبْلَ أَنْ يَسْجُدَ لِلَّهِ سَجْدَةً وَاحِدَةً، فَأَخْبَرَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «عَمِلَ قَلِيلًا، وَأُجِرَ كَثِيرًا» [البخاري وابن إسحاق في السيرة بسند حسن].

ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف (وتلك أوس الله)، وهم الأوس ابن حارثة؛ وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسَلْتِ الشاعر - وكانوا يطيعونه - فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة [ابن إسحاق: السيرة، مرسلًا].

وقبل حلول موسم الحج التالي - أي حج السنة الثالثة عشرة - عاد مصعب ابن عمير إلى مكة ليبشر الرسول ﷺ بنجاح مهمته، بتوفيق الله تعالى [ابن إسحاق: السيرة].

ب- بيعة العقبة الثانية:

وفي موسم الحج التالي من العام الثالث عشر للبعثة، قدم مكة لأداء مناسك الحج مجموعة كبيرة من مسلمي المدينة، ضمن حجاج كثيرين من مشركي المدينة، وكان زعيمهم جميعًا البراء بن معرور [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن].

وقد تساءل مسلمو الأنصار فيما بينهم حتى متى يتركون رسول الله ﷺ يطوف ويطرده في جبال مكة ويخاف [أحمد: المسند، وسنده صحيح].



وجرت بينهم وبين الرسول ﷺ اتصالات سرية أدت إلى الاتفاق على تحديد زمان ومكان اللقاء؛ لإبرام اتفاق من أعظم وأهم الاتفاقيات في تاريخ الإسلام.

وقد روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن] قصة هذا اللقاء عن كعب بن مالك، قال **رحمته**: «... ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق. فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها... فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا في رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ تسلل تسلل القطاً مستخفين، حتى اجتمعنا في الشَّعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نساتنا: نَسِيَةُ بنت كَعْب - أُمُّ عُمَارَةَ - وأسماء بنت عمرو بن عدي... وهي أُمُّ مَنِيع.

«فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس ابن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: «يا معشر الخزرج - وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها - إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن رأيناهم مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللاحق بكم، فإذا كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. فإنه في عِزٍّ وَمَنْعَةٍ من قومه وبلده». قال: فقلنا له: «قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت».

فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم»، فأخذ البراء بن معرور بيده



ثم قال: «والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أَرْزَنَا، فَبَايَعْنَا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة [السلاح]، ورثناها كَابِرًا عن كابر». فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ، أبو الهيثم بن التيهان، فقال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حَبَالًا، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عَسَيْتَ إِنْ نحن فعلنا ذلك ثم أظهركَ الله أن ترجع إلى قومك وَتَدْعَنَا؟»، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، وَالهَذْمُ الهَذْمُ [أي: ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم]، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».

بعد الاتفاق على شروط هذه البيعة، وقبل الشروع في عقدها، أراد اثنان من الأنصار، ممن أسلم في مواسم حج عام إحدى عشرة واثنتي عشرة من المبعث، وهما: العباس بن عَبَادَةَ بن نُضَلَّة وأُسْعَد بن زُرَّارَة، أرادا أن يبينَا لقومهما حقيقة وخطورة الالتزام بهذه البيعة، حتى يبايعوا على علم ويقين تام، وليعرفا ويتأكدا من مدى استعداد الأنصار للجهاد والاستشهاد.

قال العباس بن نضلة: [كما روى ابن إسحاق في السيرة بسند مرسل] «هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟» قالوا: «نعم»، قال: «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإذا كنتم ترون أنكم إذا نَهَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ مُصِيبَةً، وَأَشْرَافُكُمْ قِتْلًا، أَسَلَمْتُمُوهُ، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكِه الأَمْوَالِ، وَقَتْلِ الْأَشْرَافِ، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة»، قالوا: «فإننا نأخذ على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فبالنا بذلك يا رسول الله إِنْ نحن وفينا بذلك؟»، قال: «الجنة»، قالوا: «أبسط يدك»، فبسط يده فبايعوه».

وقال أسعد بن زرارَة عندما قام الناس للبيعة: «رويدًا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجَه اليوم مفارقة العرب كافة،



وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإمّا أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإمّا أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله»، فقالوا له: «يا أسعد، أمط عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقبلها» [أحمد: المسند، بسند صحيح].

وعندما تأكد لأسعد موقف قومه، ضرب على يد الرسول ﷺ - أي صافحه - مبايعاً، ثم تتابع القوم رجلاً رجلاً لمبايعة الرسول ﷺ، مبشراً بالجنة من وفى بها [المصدر نفسه]. وذكر ابن إسحاق [في السيرة بسند حسن]، أن أول من ضرب على يد الرسول ﷺ البراء بن معرور.

وأما عن كيفية مبايعة المرتين فقد قال ابن إسحاق [في السيرة]: (يزعمون أنها قد بايعتا - يعني صافحتا - وكان رسول الله ﷺ لا يصفاح النساء، إنما كان يأخذ عليهن، فإذا أقررن قال: «أذهبن فقد بايعتكن»).

وعندما تمت البيعة قال لهم رسول الله ﷺ [كما روى ابن إسحاق في السيرة]: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم» فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وهم:

عبادة بن الصامت، البراء بن معرور، عبد الله بن رواحة، سعد بن الربيع، أبو أمامة أسعد بن زرارة، سعد بن عباد، المنذر بن عمرو، أسيد بن حضير، سعد بن خيثمة، عبد الله بن حزام، رافع بن مالك، أبو الهيثم ابن التيهان. وذكر ابن إسحاق [في السيرة] جميع من حضر البيعة.

وروى ابن إسحاق [في السيرة بسند مرسل حسن] أن رسول الله ﷺ قال للنقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الخواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا: نعم».



لقد روى البخاري ومسلم وابن إسحاق [في السيرة بسند حسن] بنود هذه البيعة. ولكن رواها أحمد [في المسند، بسند حسن] من حديث جابر، والبيهقي [في الدلائل بسند جيد] من حديث جابر وعبيد بن رفاعه بتفصيل أكثر مما جاء عند البخاري ومسلم وابن إسحاق.

قال جابر: «قلنا يا رسول الله علام نبأيعك؟ قال:

١- على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

٢- وعلى النفقة في العسر واليسر.

٣- وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤- وعلى أن تقولوا في الله، ولا تأخذكم في الله لومة لائم.

٥- وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم، ولكم الجنة»، وهو لفظ أحمد والبيهقي مع اختلاف يسير.

أما لفظ ابن إسحاق المشار إليه فهو، قال ابن الصامت: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم».

بعد أن تمت البيعة وتعين النقباء، كان القوم على وشك مغادرة مكان اللقاء، فإذا بالشیطان يكتشف هذا اللقاء. وليتمكن زعماء المشركين من المجيء والقبض على المسلمين قبل أن ينفضوا، صرخ الشيطان على العقبة بأنفذ صوت سُمع، قائلاً: «يا أهل الجباجب [منازل منى]، هل لكم في مُذَمَّم [المذموم] والصُّبَاة معه، قد اجتمعوا على حربكم؟» فقال رسول الله ﷺ: «هذا أَرَبُ [اسم شيطان] العقبة، هذا ابن أَرَبٍ، اسمع أي عَدُوَّ الله، أما والله لأَفْرُغَنَّ لك». ثم قال رسول الله ﷺ: «أَرَفِضُوا [تفرقوا] إلى رحالكم» [ابن إسحاق في السيرة بسند حسن]. [ويقال: ابن أَرَب].



وعند سماع صراخ وقول هذا الشيطان، قال العباس بن عباد بن فضالة: «والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فإنا». فقال لهم رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم». فرجعوا وناموا حتى أصبحوا [المصدر نفسه].

قال كعب بن مالك: «فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه - والله - ما من حي من العرب أبغض إلينا إن نشبت الحرب بيننا وبينهم منكم. قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه. قال: وقد صدقوا، لم يعلموه. قال: وبعضنا ينظر إلى بعض... قال: ونفر الناس من منى فتنطس [بالغوا في التحري عنه] القوم الخبر، فوجدوه قد كان».

وتقول الرواية: إنهم خرجوا في طلب القوم، ولم يدركوا غير سعد بن عباد والمندر بن عمرو. فأفلت منهم المندر وقبضوا على سعد، وعادوا به، مغلوله يده إلى عنقه، ويجذبونه من شعره، ويلكزونه، حتى أنقذه الله منهم بجبير بن مطعم والحارث بن حرب، إذ كان سعد يجير لهما قوافلها المارة بالمدينة المنورة في طريقها من الشام وإليها [المصدر نفسه].

نتائج وعبر من بيعة العقبة الثانية:

لقد كان لهذه البيعة نتائج عظيمة قريبة وأخرى بعيدة. فمن النتائج القريبة:

١ - إن الأنصار قد فهموا أن حماية الرسول ﷺ سوف تعرضهم لعداوة واعتداء أعداء الرسول ﷺ من المشركين واليهود.

وهذا يعني الجهاد، على الرغم من أن بنود البيعة لم تنص صراحة على أبعد من ذلك، أي التصدي لمن يقف في طريق الدعوة الإسلامية.

٢ - إن سعي مشركي مكة للقبض على مسلمي المدينة عندما اتضح لهم أن هناك ثمة تدبيراً منهم لحماية رسول الله ﷺ، يدل على أن عداء الشرك والكفر للإيمان في كل مكان.



٣- إن السرية التي أحيطت بهذه البيعة وغيرها دليل على مشروعية أخذ الحذر والحيلة عند تدبير الأمور، لا سيما الأمور التي تتعلق بمستقبل الدعوة.

٤- لقد كانت هذه البيعة الأساس الذي هاجر عليه المسلمون - بمن فيهم الرسول ﷺ - إلى المدينة المنورة.

٥- أضحى الإسلام عزيزاً في المدينة، فاستعلن بإسلامه من كان قد استخفى به.

٦- ضيق كفار مكة الخناق على المسلمين عندما عرفوا خطورة اتصال الرسول ﷺ بمسلمي المدينة. وكان هذا التضييق سبباً في تعجيل الرسول ﷺ بأمر هجرتهم إلى المدينة.

٧- أما على المدى البعيد، فقد كانت هذه البيعة الأساس الذي قامت عليه الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وانطلاقاً من هناك إلى أنحاء الدنيا [الشامي: المعين؛ البوطي: السيرة].

٨- ولأهمية هذه البيعة، ولما ترتب عليها من نتائج عظيمة قريبة وبعيدة، فقد كان للمبايعين فيها وفي التي قبلها فضل لا يكاد يقل عما لأهل بدر والهجرتين - هجرة الحبشة وهجرة المدينة - وبيعة الرضوان، من شرف وفضل.

٩- إن عداوة الشيطان للحق وتألمه من علو نجمه ظاهرة ماضية، فهو دائماً ما يغري أعداء الإسلام بالمؤمنين من أهل المدينة والرسول ﷺ.

١٠- كانت بيعة العقبة الثانية شاملة للمبادئ التي سيتم مشروعيتها بعد الهجرة إلى المدينة، وفي مقدمتها الجهاد والدفاع عن الدعوة، وهو حكم وإن لم يكن قد أذن الله ﷻ بشرعيته في مكة إلا أن الله ﷻ قد ألهم نبيه محمداً ﷺ أن ذلك سيشرع في المستقبل القريب؛ والدليل على ذلك رد الرسول ﷺ على العباس بن عباد الذي أبدى الاستعداد على حرب أهل منى، فقال له الرسول ﷺ: «لم نؤمر بذلك...».



ومن المتفق عليه أن أول آية نزلت في مشروعية الجهاد قوله تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، حيث نزلت عندما قال أبو بكر رضي الله عنه مستنكراً إخراج قريش الرسول ﷺ من مكة: «أخرجوا نبيهم! إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن». وعندما نزلت الآية، قال أبو بكر: «فعرفت أن سيكون قتال» [الترمذي، وحسنه وصححه الألباني].

١١ - اقتضت رحمة الله ﷻ بعباده أن لا يحملهم واجب القتال، إلى أن توجد لهم دار إسلام، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه، ولقد كانت المدينة أول دار في الإسلام [البوطي]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى حتى يتربوا التربية التي تؤهلهم للجهاد.

١٢ - ومن هنا تعلم أن مشروعية القتال في الإسلام لم تكن إلا بعد هجرته على الصحيح، وليس كما يفهم من كلام ابن إسحاق [في السيرة]، إنه إنما شرع قبل الهجرة عند بيعة العقبة الثانية [ابن هشام، بسند حسن]، من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

فائدة:

روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن]، أن البراء بن معرور رضي الله عنه، عندما جاء إلى مكة لمبايعة الرسول ﷺ في العقبة الثانية، كان يصلي - في تلك السفارة - إلى الكعبة، وعندما التقى بالرسول ﷺ قال: يا نبي الله، إني خرجت في سفري هذا، وقد هداني الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر، فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها. فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ، وصلى ﷺ إلى الشام...».

وبذلك يكون البراء أول من صلى إلى الكعبة في الإسلام.





الفصل الثاني الهجرة إلى المدينة

• المبحث الأول: أسبابها:

• أولًا: الابتلاء والاضطهاد:

منذ أن أعلن الرسول ﷺ الدعوة ظل يتعرض لشتى أنواع المضايقات، هو ومن أسلم. وقد ذكرنا ذلك في المباحث السابقة، ولذا كان رسول الله ﷺ يفكر دائمًا في طلب الحماية خارج مكة، عندما استعصت عليه مكة. فكانت هجرة الحبشة وهجرة الطائف، وأخيرًا هجرة المدينة.

ومما يؤكد أن الابتلاء والاضطهاد كانا سببًا من أسباب الهجرة إلى المدينة قول بلال رضي الله عنه عندما هاجر: «... اللهم العن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء...» [البخاري].

وقول عائشة رضي الله عنها في سبب هجرة أبيها إلى المدينة: «استأذن النبي ﷺ أبو بكر في الخروج حين اشتد عليه الأذى...» [البخاري].

وكان ذلك هو السبب نفسه في محاولته الهجرة إلى الحبشة من قبل هو وسائر المسلمين كما قالت عائشة رضي الله عنها: «... فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة...» [البخاري].

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] أن من أسباب الهجرة تعذيب المسلمين.



ثانياً: وجود حماية للدعوة تمكّنها من السير في طريقها:

يفهم ذلك من نصوص بيعة العقبة الثانية كما رواها الإمام أحمد عن جابر، وكما رواها غيره، وفي حديث ابن إسحاق.

ثالثاً: التكذيب والإخراج:

تكذيب كبار زعماء قريش ومعظم عامتهم الرسول ﷺ فأجبروه أن يفكر في قوم آخرين يصدقونه، كما رأينا. وقد عبر سعد بن معاذ عن هذا المعنى في قوله: «اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدكم فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ وأخرجوه». وفي رواية: «... من قوم كذبوا نبيك وأخرجوه من قريش» [البخاري].

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] من بين ما ذكر من أسباب، أن تكذيب قريش الرسول ﷺ كان من أسباب الهجرة.

رابعاً: مخافة الفتنة في الدين:

وذلك واضح من قول عائشة ؓ عندما سئلت عن الهجرة: «كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله مخافة أن يفتن عليه...» [البخاري].

ومن قول ابن إسحاق [في السيرة]: (وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم، ونفوهم من بلادهم، فهم من بين مفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فراراً منهم...).

خامساً: الإذن للمسلمين بالقتال:

ذكر ذلك ابن إسحاق [في السيرة] وقال إن الآيات ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ [الحج: ٣٩] هي أول آيات أنزلت في إذنه له بالحرب لمن بغى عليهم.



وتابع في هذا ابن عباس [كما عند أحمد في المسند بسند صحيح]. وفي كل ذلك كان المسلمون يبتغون وجه الله تعالى، ويتحملون في سبيله كل ما يقع عليهم من الإيذاء الحسي والمعنوي ومفارقة الأهل والعشيرة والموطن.

وفي هذا يقول خباب رضي الله عنه: «هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله فوق أعرجنا على الله...» [البخاري].

وقد أفاضت الأحاديث في فضل الهجرة والمهاجرين [خاصة في الصحيحين]، لأن الإسلام لا تقوم له قائمة إلا بدولة تحميه، ولا يتصور وجود دولة بدون أرض تقوم عليها ورعية تسمع وتطيع لحاكمها.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال النبي ﷺ للمسلمين بمكة: «إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين - وهما الحَرَّتَانِ - فهاجر من هاجر قبَل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة...».

أول المهاجرين:

ذكر البخاري أن أول من هاجر إلى المدينة مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم. وذكر ابن إسحاق [في السيرة] وابن سعد أن أول من هاجر هو أبو سَلَمَةَ بن عبد الأسد، وجزم بذلك موسى بن عقبة [كما رواه الذهبي في السيرة]. وذكر ابن حجر [في الفتح] أنه يمكن الجمع بين حديث أهل المغازي والسير وحديث البخاري بحمل الأولوية على صفة خاصة، هي أن أبا سلمة خرج لا لقصد الإقامة بالمدينة، بخلاف مصعب، فكان عليه نية الإقامة بها، ليعلم من أسلم من أهلها بأمر النبي ﷺ، فلكل أولوية من جهة.



ما وقع للمسلمين في سبيل الهجرة:

ذكرت أم سلمة رضي الله عنها أن زوجها أبا سلمة عندما أراد الهجرة حملها مع ابنه سلمة، فرآه أهلها، فلحقوا به، وقالوا له: «هذه نفسك غلبتنا عليها، أرايت صاحبك هذه؟ علام نترك تسير بها في البلاد»، وانتزعوها منه، وغضب عند ذلك رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا الطفل بينهم حتى خلعوا يده، وذهبوا به، وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة، فكانت أم سلمة - بعد هجرة زوجها وانتزاع ابنها منها - تخرج كل غداة فتجلس بالأبطح، تبكي حتى تسمي، نحو سنة، فرق لها أحد ذويها، فقال لرهطه: ألا تخرجون من هذه المسكينة؟ فرقم بينها وبين زوجها وولدها، فقالوا لها: إن شئت الحقي بزوجك، فاسترجعت ابنها من آل سلمة، وهاجرت إلى المدينة بصحبة عثمان بن أبي طلحة رضي الله عنه [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن].

وعندما أراد صهيب الهجرة، قال له المشركون: «أتيتنا صعلوكًا حقيرًا، فكثرت مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك»، فقال لهم صهيب: «أرايتم إن جعلت لكم مالي، أتحلون سبيلي؟» قالوا: «نعم»، قال: «فإني قد جعلت لكم مالي». فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «رَبِّعْ صَهِيْب..» [الحاكم، من حديث ابن إسحاق بسند صحيح] وفي رواية عنه أنه قال لهم عندما لحقوا به: «هل لكم أن أعطيكم أواقي من ذهب وتخلوا سبيلي؟ ففعلوا، فقلت: احفروا تحت أسكفة الباب، فإن تحتها الأواقي. وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قُبَاءً، قبل أن يتحول منها، فلما رآني قال: يا أبا يحيى، رَبِّعْ الْبَيْعُ، ثم تلا هذه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] [الحاكم، وصحح إسناده]. [الأسكفة والأسكفة: عتبة الباب التي يوطأ عليها].

ورويت عدة روايات مرسلة في أن آية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْهَقَاتِ اللَّهِ﴾ قد نزلت فيه بمناسبة قصة هجرته. وعلق الطبري [في تفسيره] على هذه الروايات بعد أن أوردتها، فقال في تعليقه: (وأما ما روي من نزول الآية في أمر صهيب، فإن ذلك غير مستنكر، إذ كان غير مدفوع جواز نزول آية من عند الله على رسول الله ﷺ بسبب من الأسباب، والمعني بها كل من شمله ظاهرها). وقال ابن كثير [في تفسيره] - بعد أن أورد الروايات في هذا الشأن -: (وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله...)، ولا تعارض بين ما ذكر الطبري وهذا الذي ذكره ابن كثير، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما يقول الفقهاء.

هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن معه من المسلمين:

روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن] عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «أتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي التناضب من أضاة بني غفار، [وقال البلاذري: (التناضب وأضاة بني غفار، موضع واحد. الأضاة: أرض تمسك الماء فيتكون فيها الطين. والتناضب: شجرات في هذه الأضاة، وهي لا زالت مشاهدة على جانب وادي سرف الشمالي إلى جوار قبر أم المؤمنين ميمونة، وقام بجانبها الغربي حي على بعد ثلاثة عشر كيلاً من مكة، نحو الشمال)، وانظر محمد شراب: المعالم الأثرية، مادة: التناضب.]. فوق سرف، وقلنا: أينما لم يصبح عندها فقد حُسِّس فليمض صاحباه. فأصبحت أنا وعياش عند التناضب، وحبس عنا هشام، وفتن فافتتن». [وهذا الأثر أو الخبر الصحيح في قصة هجرة عمر رضي الله عنه يخالف الأثر الضعيف المشهور عند كثير من الناس من أن عمر رضي الله عنه أعلن هجرته، وقال للمشركين: من أراد أن تشكله أمه، وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي الأثر، وأصل الأثر عند ابن الأثير: أسد الغابة (٤/ ٥٨)، وقد خرجه الألباني في دفاع، ص ٤٣، وحكم عليه الضعف. ورواه كذلك ابن عساكر: مختصر تاريخ دمشق (١٨ / ٢٧٨)].



وعندما نزلت الآية: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) [الزمر: ٥٣-٥٥]، كتبها عمر وأرسل [ابن إسحاق، بسند حسن] بها إلى هشام بن العاص بمكة، فوجد صعوبة في فهمها، فدعا الله أن يفهمه إياها، فألقى الله في قلبه أنها نزلت في أمثاله، فلاحق برسول الله ﷺ بالمدينة. وعند ابن عبد البر [في الاستيعاب] أنه هاجر بعد الخندق.

وقد ثبت أنه ﷺ كان يقنت في صلاته بعد الركوع الأخير داعياً: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة...» الحديث، وفي رواية: «... اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين...» [البخاري]. وقد أنجا الله هؤلاء الثلاثة وغيرهم.

وروى البخاري أن عمر بن الخطاب قدم مهاجراً إلى المدينة في عشرين راكباً من أصحاب النبي ﷺ. وقد سمى ابن إسحاق [في السيرة] جماعة منهم، وصدر الرواية بقوله: «ونزل عمر بن الخطاب حين قدم المدينة ومن لحق به من أهله وقومه...»، وختمها بقوله: «... وقد كان منزل عياش بن أبي ربيعة معه حين قدما المدينة». قلت: فرواية ابن إسحاق تفسر رواية البخاري، وتدل على أن هؤلاء العشرين من أهل عمر، من غير عياش، لحقوا به ولم يرافقوه ابتداءً، إذ أن من رافقه عياش. وبهذا يزول التعارض الظاهر بين الروایتين.

أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فعندما أراد أن يهاجر، استبقاه الرسول ﷺ ليصحبه في هجرته عندما يؤذن له بذلك. وظل يستعد لذلك اليوم، فاشترى راحلتين، وأخذ يعلفهما لمدة أربعة أشهر [ابن هشام].



وقد روى الحاكم [وصححه، وقال الذهبي: (صحيح غريب)]، أن الرسول ﷺ قال لجبريل ﷺ: «من يهاجر معي؟ قال: أبو بكر الصديق».

وتتابعت مواكب المؤمنين إلى دار الهجرة، دار الإسلام، ولم يبق أحد في دار الكفر، دار الحرب، إلا مستضعف مغلوب على أمره، أو صاحب عذر.

وكان آخر من بقي ممن هاجر عبد الله بن جحش ~~هشاش~~. وكان قد كف بصره، فلما أجمع على الهجرة كرهت امرأته ذلك، وجعلت تشير عليه أن يهاجر إلى غير المدينة، فهاجر بأهله وماله سرًا، حتى قدم المدينة، وسطا أبو سفيان على داره بمكة فباعها. ومر بها بعد ذلك أبو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والعباس بن عبد المطلب وحويطب بن عبد العزى، وفيها أُهْبُ [جلود غير مدبوغة] معطوبة، فذرفت عينا عتبة، وتمثل بيت من شعر، هو:

وكل دار وإن طالَّت سلامتها
يوماً سيدرُكها النكباء والخبوب
وأقبل أبو جهل على العباس قائلاً: «هذا ما أدخلتم علينا» [الطبراني].

وروى هذه القصة ابن إسحاق [في السيرة] بنحو رواية الطبراني عند الهيثمي، ولكن في روايته أن الكفيف هو عبد بن جحش وكنيته (أبو أحمد)، وهو أخو عبد الله بن جحش، وأن زوجته هي الفرعة ابنة سفيان بن حرب، وأن أخاه عبد الله حمله معه عندما هاجر إلى المدينة مع أهله. ويبدو أن رواية ابن إسحاق هي الأقرب إلى الصواب، فقد ذكرها ابن حجر [في الإصابة]، ولم يذكر غيرها.

وفي هذه القصة وغيرها دليل على أن كثيرًا من الدور بمكة قد خلت من أصحابها.



• المبحث الثاني: هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة

• أولاً: تأمر قريش:

عندما علم المشركون بما تم بين الرسول ﷺ والأنصار في بيعة العقبة الثانية، وعندما رأوا المسلمين يهاجرون إلى المدينة زرافات ووحداناً، خشوا من تجمع المسلمين بالمدينة، وخروج الرسول ﷺ إليهم ليقودهم نحو تحقيق ما يريد، ولذا قرروا التخلص منه ﷺ. فعقد زعماءهم اجتماعاً خطيراً في دار الندوة، ليتشاوروا في أنجع الوسائل للتخلص من الرسول ﷺ.

وقد ذكر القرآن الكريم مضمون الآراء التي طرحت في ذلك الاجتماع. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] [أحمد: المسند، وحسن ابن كثير في البداية إسناده. [ليثبوك: ليسجنوك].

وجاءت الأحاديث والآثار مفصلة ما أجملته هذه الآية. فإضافة على ما جاء في رواية ابن عباس عند أحمد في سبب نزول الآية ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] هناك رواية أخرى عن ابن عباس عند ابن إسحاق [في السيرة] فيها تفصيل أكثر عن هذه المؤامرة [ورواه الطبري في تاريخه موصولاً من حديث ابن إسحاق، بسند حسن].

ففي هذه الرواية أنهم عندما اجتمعوا في دار الندوة للتشاور في أمر رسول الله ﷺ جاءهم إبليس في صورة رجل شيخ، مدعيًا أنه من أهل نجد، قال إنه سمع بالذي اجتمعوا له وأراد أن يشاركهم الرأي والنصيحة فأذنوا له... [يذكر السهيلي في الروض (٢/ ٢٢٩) أنه ادعى ذلك، لأنهم قالوا لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة، لأن هواهم مع محمد].



وعندما دارت المناقشة واقترح أحمد المؤتمرين أن يجسوا الرسول ﷺ، قال الشيخ النجدي: «لا والله، ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب هذا الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلا وشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم...».

ثم اقترح أحدهم أن ينفوه، فدحض النجدي الاقتراح مبيناً أن حسن حديث الرسول ﷺ ومنطقه الذي يأسره القلوب سيجذب الناس إليه ويغلب بهم قريشاً. وأخيراً اقترح أبو جهل أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً نسيباً وسيطاً فيهم، ويعطى كل واحد منهم سيفاً صارماً، فيضربون جميعاً بأسيا فيهم محمداً ضربة رجل واحد، ليتفرق دمه بين القبائل، ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فيرضوا بالدية.

أيد النجدي هذا الاقتراح، ووافق عليه الجميع، وتفرقوا على ذلك ولم يبق إلا التنفيذ. لم تحدد الرواية الساعة التي اجتمعوا فيها، هل كانت ليلاً أم نهاراً، ولم نقف على المدة الزمنية بين اتخاذ قرار القتل وبين الشروع في التنفيذ.

ثانياً: الإذن بالهجرة، والتخطيط لها ثم الشروع فيها:

بعد اتخاذ هذا القرار، أتى جبريل ﷺ رسول الله ﷺ وأخبره به، وأمره بعدم المبيت على فراشه هذه الليلة، والهجرة.

روى البخاري والطبري [في التاريخ، بسند حسن]، من حديث ابن إسحاق أنه عندما أذن للرسول ﷺ وأمر بالهجرة جاء متقنعا إلى منزل أبي بكر رضي الله عنه في وقت لم يعتد أن يزوره فيه، في نحر الظهر - أو النهار - وهو أشد ما يكون في حرارة النهار. وعندما أخبر أبو بكر بقدومه، علم أن قدومه في تلك الساعة وتلك الكيفية، إنما هو لأمر خطير.

وعندما أذن له أبو بكر بالدخول، طلب أن يخرج من عنده حتى لا يعرف ما يقول له، وطمأنه أبو بكر بأن من عنده هم أهل الرسول ﷺ، ثم أخبر أبا بكر بأن



الله قد أذن له بالهجرة، وطلب أبو بكر أن يصحبه، فأكد له ما سبق أن ألمح له به من قبل. وأراد أبو بكر من الرسول ﷺ أن يأخذ إحدى الراحلتين، فوافق الرسول ﷺ، ولكن على أن يدفع ثمنها.

إن قول أبي بكر للرسول ﷺ بأن من عنده هم أهل الرسول ﷺ يريد بذلك عائشة وأسماء رضي الله عنهما، وهما مسلمتان، وعائشة رضي الله عنها قد عقد عليها الرسول ﷺ، فهي زوجته، فلا خوف منهما. وقد صرح بهذا المعنى موسى بن عقبة في روايته، [عند ابن حجر في الفتح]، فقال: «أخرج من عندك، قال: لا عين عليك، إنما هما ابتتاي»، وفي روايته عن ابن شهاب، قال: «قالت عائشة: وليس عند أبي بكر إلا أنا وأسماء» - وفي رواية ابن إسحاق [في السيرة، ووصلها الطبري في تاريخه، بسند حسن]: «إنما هما ابتتاي».

عند لقاء الرسول ﷺ بأبي بكر أخذا في وضع خطة للهجرة تبطل كيد الكافرين. وكانت الخطة كالآتي، كما ذكرها البخاري وابن إسحاق:

١ - أن يخرجوا ليلاً إلى غار ثور [البخاري]، في الجهة الجنوبية الغربية من مكة، وفي هذا تمويه على الكفار، لأن أنظارهم ستتجه للبحث عن الرسول ﷺ في الجهة الشمالية - جهة المدينة.

٢ - أن يمكثا في الغار لمدة ثلاثة أيام [المصدر نفسه، وغيره]، حتى يخف الطلب عنهما.

٣ - استأجرا دليلاً ماهراً عارفاً بمسلك طرق الصحراء، ليقودهما إلى المدينة، وهو عبد الله بن أرقم [و: أريقط تصحيف] الديلي، وكان مشركاً. واستكتماه الخبر. واتفقا معه على أن يلحق بهما في غار ثور بعد ثلاثة أيام. ودفعاً إليه بالراحلتين اللتين اشتراهما أبو بكر، وكان يعلفهما لهذا اليوم [البخاري].



٤- أعدت لها أسماء زادًا ووضعته في جراب، وقطعت من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق، وفي رواية: ذات النطاقين [البخاري؛ ابن إسحاق: السيرة؛ ابن سعد].

٥- وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقوله الناس عنهما في النهار، فيأتيهما به بالليل في الغار، ثم يرجع إلى مكة في السَّحَر، ليصبح مع قريش. [البخاري وابن إسحاق في السيرة].

٦- وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يُريحها عليهما في الغار إذا أمسى، ليطعما من ألبانها [البخاري]، ويدبحا منها للأكل، ويزيل بها آثار أقدام عبد الله ابن أبي بكر. [ابن إسحاق: السيرة].

٧- وأمر أسماء أن تأتيهما من الطعام بما يصلحهما في كل مساء [المصدر نفسه].

٨- وانطلق رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب، فأمره أن يتخلف بعده بمكة ريثما يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع والأمانات التي كانت عنده للناس، إذ لم يكن أحد من أهل مكة له شيء يخشى عليه إلا استودعه عند رسول الله ﷺ لما يعلمون من صدقه وأمانته. [ابن إسحاق في السير معلقًا، ووصله الطبري في تاريخه بسند حسن].

٩- وأمره أن ينام على فراشه ويتسجى ببرده الأخضر، الذي ينام فيه، وطمأنه بأنه لن يصل إليه منهم شيء يكرهه، وذلك للتمويه [أحمد: المسند، بسند حسن؛ الحاكم؛ ابن إسحاق: السيرة، وهو حسن بشواهد].

١٠- وأمر أبو بكر عامر بن فهيرة أن يصحبهما في هجرتها ليخدمهما ويعينهما في الطريق [البخاري].

لقد أمر الله الرسول ﷺ بهذه الهجرة بعد أن مكث في مكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه [البخاري]. وعندما أمره بالهجرة، أنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ [الإسراء: ٨٠] [أحمد: المسند، بسند



صحيح]. وكان ما أراده من الله له في هذا الدعاء الموجز المعبر، والذي اختاره له الله ليجعله مفتاحًا للطمأنينة.

أما في الجانب الآخر، فقد اختار زعماء قريش في ندوتهم أحد عشر زعيمًا يمثلون قبائل قريش المعادية للإسلام، ففضوا نهار يومهم ذاك في الإعداد لتنفيذ القرار الذي اتخذوه في دار الندوة.

ومع علم الرسول ﷺ بهذا القرار، لم ينس أن يقوم بعمل إيماني بطولي، يعد بمفهومنا المادي اليوم (مغامرة)، بل قال عنه الذهبي (منكر)، أي غير منطقي. وهو أنه ذهب في تلك الليلة مع علي إلى الكعبة، وأمره أن يصعد على منكبه إلى فوق الكعبة، ليرمي صنم قريش الذي كان من نحاس وموتد بأوتاد من حديد. وعندما كان علي يعالج الصنم ليفكه، كان الرسول ﷺ يقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا».

وتمكن علي من فكه ورميه وتكسيه، وانطلقا ولم يرها أحد، ولم يرفع الصنم بعد ذلك [الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي وأكر متنه].

وهذا التصرف عندنا لمن المعجزات الدالة على عناية الله ﷻ برسوله ﷺ.

فلما كانت عَتَمَةٌ من الليل اجتمع القوم المنوط بهم تنفيذ الخطة على باب الرسول ﷺ يترقبون نومه، ليثبوا عليه، وكان معهم أبو جهل، ليطمئن على سير الخطة، ويشجعهم على التنفيذ. ومما كان يفعله بهذا الصدد: السخرية من محمد ﷺ والتشكيك في دعوته، فتراه يقول لهم: «إن محمدًا يزعم أنكم إذا تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها» [ابن إسحاق: السيرة، وسنده مرسل حسن].



وبينما هم على هذه الحالة خرج عليهم رسول الله ﷺ، وقد سمع كلام أبي جهل، فأخذ حفنة من تراب، ثم قال: «أنا أقول ذلك، أنت أحدهم، فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهم لا يرونه، لأن الله قد أخذ على أبصارهم، وهو يتلو الآيات من سورة (يس): ﴿يَسۜٓ ۝١ وَالْقُرٰۜٔنَ الْكَيۜٔمِ ۝٢﴾... إلى قوله تعالى: ﴿فَآغَشَيْنٰهُمۡ فَهَمَّ لَا يَبۜٔصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩]. وتركهم على هذه الحالة، ثم خرج» [ابن إسحاق: السيرة].

قال السهيلي: (...) فذكر بعض أهل التفسير السبب المانع لهم - أي الكفار - من التقحم عليه في الدار مع قصر الجدار، وأنهم إنما جاءوا لقتله، فذكر في الخبر أنهم هموا بالولوج عليه، فصاحت امرأة من الدار، فقال بعضهم لبعض: والله إنها للسبة في العرب أن يتحدث عنا أننا تسورنا الحيطان على بنات العم، وهتكنا ستر حرمتنا، فهذا هو الذي أقامهم بالباب حتى أصبحوا ينتظرون خروجه، ثم طمست أبصارهم عنه حين خرج...). وعبرة الشامي [في السبل]: (... أن بعض أهل السير ذكروا السبب المانع من ذلك مع قصر الجدار)، فذكر هنا أن المصدر هو أهل السير وليس أهل التفسير كما عند السهيلي.

وعندما خرج أبو بكر كان يحمل معه كل ماله، وقدره خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم [ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن].

وفي طريقهما إلى الغار، وقبل أن تختفي مكة عن الأنظار، نظر إليها الرسول ﷺ بعاطفة مشحونة بالذكريات، تدل على حبه لها لما بها من رموز في حياته. فكيف لا يحبها وقد أحبها الله ﷻ وجعل بها بيته المقدس، وفيها أرسله الله إلى العالمين.

وقف ينظر إليها وهو يقول: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك لما خرجت» [الألباني: صحيح الترمذي].

وقال عنها في رواية أخرى: «ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك».



أما المتآمرون، فعندما رأهم أحد الناس أمام الباب، سألهم عن سبب وجودهم أمامه، فأخبروه الخبر، فأعلمهم أن النبي ﷺ قد خرج فلم يصدقوه، لأنهم يرون علياً نائماً على فراش النبي ﷺ، فظنوه محمداً ﷺ. ولم يكتشفوا الحقيقة إلا عندما قام علي من الفراش في الصباح [ابن إسحاق: السيرة، مرسلاً، يعتضد بغيره].

وعند هذا أخذوا في وضع الخطط للعثور عليه، ومن ذلك:

١ - إلقاء القبض فوراً على علي وضربه وسجبه إلى الكعبة، ثم اعتقاله بعضاً من الوقت، لحين التحقيق معه، للوصول إلى معلومات تفيدهم في العثور على الرسول ﷺ. ولكنهم فشلوا معه [المباركفوري والمنصورفوري ولم يحددوا المصدر].

٢ - جاء نفر منهم إلى منزل أبي بكر ﷺ وفيهم أبو جهل، لعلهم يجدونه هناك ويفعلون به مثلما فعلوا بعلي. فخرجت إليه ابنته أسماء، فسألوها عن والدها، فقالت: إنها لا تدري أين هو، فغضب أبو جهل لهذا الجواب، فلطمها لكمة طرح منها قرطها [ابن إسحاق: السيرة].

٣ - وضعوا جميع الطرق النافذة من مكة تحت المراقبة الدقيقة.

٤ - قرروا منح جائزة مقدارها دية كل من الرسول ﷺ وأبي بكر ﷺ لمن يعثر عليهما حيناً أو ميتين [البخاري، ابن إسحاق: السيرة، وقال إن الجائزة مئة ناقة لمن يرد الرسول ﷺ إليهم].

٥ - استأجروا قصاص الآثار، ليتبعوا آثارهما حيثما حلا [ابن حجر: الفتح. وقال ابن حجر في الإصابة (٣/ ٢٩٣): (ذكر أبو سعيد - في شرف المصطفى - أن المشركين كانوا استأجروا كُرُز ابن علقمة لما خرج النبي ﷺ مهاجراً، ففقا أثره حتى انتهى إلى غار ثور، فرأى نسج العنكبوت على باب الغار، فقال: «إلى هنا انتهى أثره، ثم لا أدري أخذ يميناً أو شمالاً أو صعد الجبل»)].



الطريق إلى الغار:

روى البيهقي [في الدلائل] وغيره [منهم الحاكم، مرسلاً على شرط الشيخين، وابن حجر في الفتح، ابن هشام، وابن كثير في البداية، يتقوى بشواهد] أنها عندما انطلقا إلى الغار جعل أبو بكر يمشي ساعة بين يدي الرسول ﷺ وساعة خلفه، وعندما فطن له سألته عن السبب، قال يا رسول الله: «أذكر الطَّلَب، فأمشي خلفك، ثم أذكر الرَّصَدَ فأمشي بين يديك»، فقال له الرسول ﷺ: «يا أبا بكر، لو كان شيء أحببت أن تكون دوني؟»، قال: «نعم»، والذي بعثك بالحق ما كان لتكون من ملمة إلا أحببت أن تكون لي دونك».

أما الخبر الذي يروى عن عمر وفيه أن رسول الله ﷺ عندما خرج من مكة ليلاً ومعه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه يحرسه، وعندما حفيت قدما الرسول صلى الله عليه وسلم حمله على كاهله إلى فم الغار، وسده أحجار الغار بقدمه، والحيات تلسعه، ودموعه تسيل على الرسول ﷺ... هذا الخبر قال عنه الذهبي [في السيرة]: (وهو منكر، سكت عنه البيهقي [في الدلائل]، وساقه من حديث يحيى بن أبي طالب، أخبرنا عبد الرحمن بن إبراهيم الراسبي.... وأفتُّه من هذا الراسبي، فإنه ليس بثقة، مع كونه مجهولاً، ذكره الخطيب في تاريخه فغمزه).

وقال ابن كثير [في البداية] عن هذا الحديث بعد أن ساقه من رواية البيهقي المشار إليها: (وفي هذا السياق غرابة ونكارة).

وزاد الدكتور السعود [رسالة الهجرة] بعد قول ابن كثير هذا: (نعم، لأنه أيضاً في سنده فرات بن السائب - ضعفه أبو حاتم وأبو زرعة - وقال أبو حاتم: منكر الحديث. وقال البخاري: تركوه، منكر الحديث؛ فهذا الخبر ضعيف منكر).



في الغار:

وعندما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر للرسول ﷺ: «مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار»، فدخل فاستبرأه، ثم تذكر أنه لم يستبرئ الجحر الذي فيه، فقال: «مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ»، فدخل فاستبرأ، ثم قال: «انزل يا رسول الله»، فنزل الرسول ﷺ إلى الغار [البیهقي في الدلائل، مرسلاً؛ الحاكم، مرسلاً، صححه ووافقه الذهبي]. [والاستبراء: التأكد من سلامة المكان من الآفات الضارة].

ركبت قريش في كل وجه يطلبون النبي ﷺ. وبعثوا إلى أهل المياه يأمرؤهم، ويعملون لهم الجعل العظيم، وأتوا على جبل ثور الذي فيه الغار، الذي فيه النبي ﷺ، وصعدوا فوقه، وسمع الرسول ﷺ وأبو بكر أصواتهم، فأشفق أبو بكر وأقبل عليه لهم والخوف والحزن، وقال: «يا رسول الله ﷺ لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه». فقال النبي ﷺ: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما» [متفق عليه]. وفي هذا نزل قول الله تعالى: ﴿لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] [متفق عليه].

وحمل الله نبيه في الغار من كل سوء. ومن أدلة حماية الله له ولصاحبه: ما روى أحمد [في المسند، بسند حسن] أن قريشاً اقتفوا أثرهما، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت. فقالوا: لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه. وروي مثله عن الحسن البصري، وزاد فيه أن النبي ﷺ كان يصلي في تلك اللحظات وأبو بكر يرتقب [ابن كثير: البداية، حسن بشواهد].

ومرت أيام الغار بسلام، إلا ما ذكر من أن حجراً أصاب يد رسول الله ﷺ فقال:

«هل أنت إلا أصبع دमित وفي سبيل الله ما لقيت»



وقد رويت بعض الأخبار الواهية فيما يتعلق بفترة وجود النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه بغار ثور، ومن أشهرها:

١ - ما رواه ابن سعد والبخاري [في كشف الأستار] من أن الله أمر شجرة فنبتت في وجه النبي ﷺ فسترته، وأمر الله العنكبوت فنسجت على وجهه فسترته، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقعتا بفم الغار، وأن فتیان قريش عندما وصلوا إلى قدر أربعين ذراعاً من فم الغار، نظر أولهما فرأى الحمامتين، فرجع فقال له أصحابه: «مالك لم تنظر في الغار؟» قال: «رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار، فعرفت أن ليس فيه أحد»، فسمع النبي ﷺ قوله، فعرف أن الله قد درأ عنه بهما فَسَمَّتْ [أي بارك بالدعاء] عليهن وفرض جزاءهن وانحدرتا في حرم الله فأفرختا، وأن نسل حمام الحرم منهما.

٢ - روى بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال للرسول ﷺ: «لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا تحت قدميه»، قال النبي ﷺ: «لو جاؤونا من ههنا لذهبنا من هنا»، فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به، وسفينة مشدودة إلى جانبه [ابن كثير: البداية].

٣ - ما روي من أن أبا بكر قال لابنه عبد الله: «يا بني إن حدث في الناس حدث فأت الغار الذي رأيتني اختبأت فيه أنا ورسول الله ﷺ فكن فيه، فإنه سيأتيك فيه رزقك غدوة وعشية [البزار، كما في البداية]».

٤ - ما روي من أن رجلاً من المشركين جاء حتى استقبل رسول الله ﷺ بعبورته بيول، فقال أبو بكر: «يا رسول الله: أليس الرجل يرانا؟» قال: «لو رآنا لم يستقبلنا بعبورته». [الهيتمي: المجمع].



٥- ما روي أن أبا بكر عطش في الغار، فقال له رسول الله ﷺ: «أذهب إلى صدر الغار فاشرب»، فانطلق أبو بكر إلى صدر الغار فشرب منه ماء أحلى من العسل وأبيض من اللبن وأذكى رائحة من المسك، ثم عاد، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله أمر الملك الموكل بأنهار الجنة أن أخرج نهرًا من جنة الفردوس إلى صدر الغار لتشرب». [السيوطي: الخصائص].

التوجه إلى المدينة:

ولما انقطع الطلب عنهما، جاءهما الدليل - ابن أرقد - بعد ثلاث ليال من بقائهما في الغار ومعه الراحلتان. وكان معهما عامر بن فهيرة. انطلق الأربعة إلى المدينة، عن طريق الساحل [البخاري وابن إسحاق في السيرة].

بعد أن اتخذ الرسول ﷺ جميع الأسباب التي في مقدور البشر لينجو من الأعداء، كان مطمئنًا، ولسانه رطب بذكر الله، بالدعاء، بينما أبو بكر يكثّر الالتفات؛ حرصًا منه على سلامة الرسول ﷺ. [البخاري].

وعندما حانت ساعة المقيّل في يومهم ذاك، وخلا الطريق، رفع الله لهم صخرة طويلة لها ظل، لم تأت عليها الشمس، فنزلوا عندها، وسوى أبو بكر بيده مكانًا تحتها، وبسط عليها فروة، وطلب من الرسول ﷺ أن ينام، وخرج هو ليراقب المكان، فإذا هو براع مقبل بغنمه إلى الصخرة، يريد منها مثل ما أرادوا. وتكلم معه أبو بكر ليعرف أمره، فعرف أنه رجل من أهل مكة. ورضي أن يحلب لهم من شاة له. وطلب منه أبو بكر أن ينظف الضرع قبل الحليب، وكره أن يوقظ الرسول ﷺ للشرب، فانتظره حتى استيقظ، فشرب حتى رضي أبو بكر، ثم أمر بالرحيل. [البخاري].

وكان الرسول ﷺ يردف أبا بكر معه على راحلته، وكان إذا سأل أحد أبا بكر في الطريق عن الرسول ﷺ، يقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب السائل أنه يعني الطريق، وإنما كان يعني سبيل الخير. [البخاري].



وروى البخاري ومسلم من حديث سُرَاقَةَ بن مالك المدلجي أنهم مروا في طريقهم بحبي بني مُذَلِّج، فرآهم رجل منهم، فجاء إلى مجلس من مجالس قومه وفيهم سُرَاقَةُ بن مالك، فقال: «يا سُرَاقَةُ، إني قد رأيتَ آنفًا أسودَّةً بالساحل، أراها محمدًا وأصحابه». قال سُرَاقَةُ: «فعرفت أنهم هم: فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيتَ فلانًا وفلانًا، انطلقوا بأعيننا»، ثم لبث في المجلس ساعة، ثم قام فدخل داره، وأمر جاريته أن تخرج بفروسه إلى ما وراء الأَكَمَةِ، ثم تجهز هو وتسلك إلى مكان فروسه، فركبها وانطلق بها. وعندما دنا من محمد ﷺ وأصحابه، عثرت به فروسه، فنزل عنها وأخرج الأُزْلَامَ، فاستقسم بها ليعرف: هل يضرهم أم لا؟ فخرج السهم الذي يكره، وهو ألا يضرهم، ولكنه عصى فركب فروسه، وعندما انطلق إلى أن وصل مكانًا يسمع منه دعاء الرسول ﷺ ساخت يدا فروسه في الأرض حتى بلغت الركبتين. فنزل عنها ثم زجرها، فنهضت. وعندما انتزع الفرس يديه من الأرض، تبعهما دخان كالإعصار، فعرف حين رأى ذلك أن رسول الله ﷺ قد منع منه، وأن أمره سيظهر، فاستقسم بالأزلام، فخرج الذي يكره، فناداهم بالأمان، فوقفوا، فركب فروسه حتى جاءهم، ووقع في نفسه حين لقي ما لقي من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فأخبر الرسول ﷺ أن قومه قد جعلوا فيه الدية، وأخبرهم أخبار ما يريد الناس، وعرض عليهم الزاد والمتاع، ولكنهم لم يطلبوا منه شيئًا سوى أن الرسول ﷺ طلب منه أن يخفي عنهم. وسأل سُرَاقَةُ أن يكتب له كتاب أمان، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب له ما أراد في رقعة من جلد، ثم مضوا.

روى البخاري بسنده إلى أبي بكر رضي الله عنه: «ارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا منهم أحد غير سُرَاقَةَ بن مالك بن جُعْشُم على فرس له، فقلت هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال: لا تحزن، إن الله معنا».

وعندما رجع سُرَاقَةُ إلى قومه، جعل يقول لهم: «قد استبرأت لكم الخبر. قد كُفِّيتُمْ

ما ههنا». [البخاري].



وهكذا كان أول النهار جاهداً عليهما وآخره حارساً لهما. [البخاري].

وكان كتاب الأمان مع سراقه إلى أن جاء به الرسول ﷺ، عندما فرغ من غزوتي حنين والطائف، فوفاه له رسول الله ﷺ، وقال: «يوم وفاء وبر». ويومها أسلم سراقه. [ابن إسحاق في السيرة بإسناد حسن].

روى ابن حجر [في الإصابة] وابن عبد البر [في الاستيعاب] وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال لسراقه بن مالك: «كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟» قال: فلما أتى عمر بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه، دعا سراقه بن مالك فألبسه إياهما، وكان سراقه رجلاً أذب كثير شعر الساعدين، وقال له: ارفع يديك، فقال: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقه بن مالك بن جُعْشُم، أعراي من بني مدلج، ورفع بها عمر صوته.

وذكر ابن إسحاق [من رواية ابن بكير كما ذكر البيهقي في الدلائل] أبياتاً من الشعر يخرص فيها أبو جهل قوم سراقه على سراقه، ورد عليه سراقه أيضاً بأبيات من الشعر [ابن كثير: البداية].

ثم مر رسول الله ﷺ وصحبه في مسيره ذلك بخيمتي أم مَعْبَد الخَزَاعِيَّة، فسألوها إن كان عندها طعام، فاعتذرت بالجدب، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة قرب الخيمة، فسألها عنها، فقالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال: «هل بها من لبن؟» قالت: «هي أجهد من ذلك». فاستأذنها في حلبها، فأذنت له قائلة: «إن رأيت بها حلباً فاحلبها». فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها، وسمى الله ودعا، فدرت، فدعا بإناء لها، فحلب فيه، فسقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب وحلب فيه ثانياً، حتى ملأ الإناء وتركه لها، ثم ارتحلوا.



وعندما جاء زوجها أبو معبد ورأى اللبن عجب من ذلك، فأخبرته بالذي حدث من محمد ﷺ، فقال: «والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه»، وطلب منها أن تصفه له، فوصفته له، وعندما سمع وصفها، قال: «والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً»، وأصبح صوت بمكة عاليًا يسمعونونه ولا يرون القائل:

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن تسألوا الشاء تشهد

[الحاكم، بسند حسن لغيره]. [ويأتي نص وصفها للنبي ﷺ في فصل الشائل].

ومرَّ الركب في طريقه بعدد يرعى غنماً، فطلبوا منه طعاماً، فاعتذر لهم بأن لا لبن في شياهه، إلا شاة - أو عناقاً - جف لبنها قريباً، فاستأذنه الرسول ﷺ، فمس ضرعها فحلبت، ورووا منها جميعاً، وعندما رأى الراعي ذلك أسلم، وطلب أن يتابع الرسول ﷺ، ولكن الرسول ﷺ طلب منه أن يأتي عندما يسمع بظهوره، يعني بعد التمكن [الحاكم؛ ابن كثير: البداية].

وروى أحمد [المسند، بسند حسن]، عن ابن مسعود رضي الله عنه والطيايلى [منحة المعبود، بسند صحيح]، قال: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة، فأتى عليَّ رسول الله ﷺ وأبو بكر، وقد فرا من المشركين، فقال: أو فقلا: «عندك يا غلام لبن تسقين؟ قلت: إني مؤتمن، ولست بساقيكما، فقال: «هل عندك من جذعة لم ينزُ عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم، فأتيتهما بها، فاعتقلها [أمسك بها] أبو بكر، وأخذ رسول الله ﷺ الضرع، ودعا، فحفل الضرع، وأتاه أبو بكر بصخرة متقكرة فحلب فيها، ثم شرب هو وأبو بكر، ثم سقياني، ثم قال للضرع: أقلص، فقلص. فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ فقلت: علمني من هذا القول الطيب، يعني القرآن، فقال: «إنك غلام مُعَلَّم»، فأخذت من فيه سبعين سورة، ما ينازعني فيها أحد». [ابن كثير: السيرة].



ويذكر ابن كثير أن هذه القصة وقعت قبل الهجرة بمدة طويلة .

ولقوا في طريقهم ركبًا من المسلمين كانوا تجارًا قافلين من الشام، فيهم الزبير ابن العوام رضي الله عنه، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه بثياب بيض . [البخاري].

وعندما وصلوا العرج، احتاجوا للاستفسار عن الطريق، فدلهم أحد القاطنين على الطريق وبين لهم أن الطريق القريب عليه لصان من قبيلة أسلم، يقال لهما: (المهانان)، ولم يبال الرسول ﷺ بهما، وعندما لقيهما عرض عليهما الإسلام، فأسلما، وسماهما (المكرمان)، وطلب منهما القدوم عليه في المدينة [عبد الله بن الإمام أحمد: الزوائد على المسند].

وروى البزار [كشف الأستار] وابن الأثير [أسد الغابة] يسنديهما إلى بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب الأَسْلَمِي، أن رسول الله ﷺ لما أقبل في مهاجره لقي ركبًا، فقال: «يا أبا بكر: سل القوم فممن هم؟» قالوا: من أسلم، قال: «سلمت يا أبا بكر، سلمهم من أي أسلم؟» قالوا: من بني سهم، قال: «ارم بسهمك يا أبا بكر».

وروي أنهم عندما وصلوا الجحفة وجدوا إبلاً، فقال رسول الله ﷺ: «لئن هذه الإبل؟» فقالوا: «لرجل من أسلم»، فتفأل ﷺ: وقال لأبي بكر: «سلمت إن شاء الله»، وسأل الراعي عن اسمه، فقال: «مسعود»، فتفأل ﷺ وقال لأبي بكر: «سعدت إن شاء الله» [البداية والمعرفة لأبي نعيم].

وقيل: إن إحدى راحلتيهما تخلفت عنهما، فعندما جاء صاحب الإبل، وهو أوس ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن حُجْر الأسلمي، فأعطاهما فحلاً، وطلب من غلامه مسعود أن يصحبهم إلى المكان الذي يريدونه، فوصل معهم إلى قباء. [الاستيعاب، بسند حسن].

وروي أن أوساً بن عبد الله بن حجر الأسلمي مر برسول الله ﷺ ومعه أبو بكر «بحدوات»، بين الجحفة وهرشى، وهما على جمل واحد متوجهين إلى المدينة، فحملهما



على فحل إبله «ابن الرداء»، وبعث معها غلامه مسعود، وطلب منه أن يسلك بهما حيث يعلم من الطريق، ولا يفارقهما حتى يقضيا حاجتهما منه... فأوصلهما المدينة ثم عاد، وقد حمله وصية إلى سيده، وهي أن يسم إبله على أعناقها. [ابن هشام؛ ابن حجر: الإصابة؛ ابن عبد البر: الدرر، وحسنه].

ولقي ركب الهجرة عند الغميم بريدة بن الحصيب الأسلمي - زعيم قومه حينذاك - وكان قد خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر، أملًا في الفوز بالجائزة المعلنة من قبل قريش. وعندما التقى برسول الله ﷺ، وحدثه الرسول ﷺ في أمر الإسلام، أسلم وأسلم معه زهاء ثمانين بيتًا من قومه، وقيل: سبعين [أهل التراجم]. وبات بريدة مع الرسول ﷺ، وفي الصباح قال بريدة: «يا رسول الله: لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء». فحمل عمامته ثم شدها في رمح ثم مشى بين يديه حتى دخل المدينة. [الديار بكرى].

الوصول إلى المدينة:

روى البخاري وابن إسحاق [في السيرة؛ بسند حسن] والحاكم [بسند صحيح] وغيرهم أنه عندما بلغ الأنصار مخرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرين إلى المدينة، كانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه أول النهار، فإذا اشتد الحر رجعوا إلى منازلهم. فلما كان يوم الإثنين، ١٢/٣/١هـ، خرجوا على عادتهم، فلما همي الحر رجعوا. وصعد رجل من اليهود على أطم من أطام المدينة لبعض شأنه، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه، فصرخ بأعلى صوته: «يا معشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون»، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، وسمعت الرّجّة والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحًا بقدومه وخرجوا للقاءه، فتلقوه وحيّوه بتحية النبوة. وكان مَنْ لم ير الرسول ﷺ من قبل يحجي أبا بكر ظنًا منهم أنه الرسول ﷺ. وعندما اشتد الحر، قام أبو بكر فأظّل النبي بردائه، فعرفوا الرسول ﷺ فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة



تغشاه والوحي ينزل عليه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤]، وصاح النساء والخدام والغلمان: جاء محمد، جاء رسول الله، الله أكبر، جاء محمد. [الحاكم، بسند صحيح]، وأنشد المستقبلون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا الله داع

[لقد وقف بعض العلماء عند هذا النشيد، وناقشوه من حيث السند والمتن، لوجود إشكال في روايته؛ إذ وردت فيه كلمة (ثنيات الوداع) التي اشتهر أنها من جهة الشام، وليس من جهة مكة. ويرى عرجون صحة نسبة النشيد إلى حادثة قدومه إلى داخل المدينة، دار أبي أيوب، ويوفق بين الروايات ويناقش هذا، ولا يستبعد تكرار إنشاد النشيد في زمن عودته من تبوك، فليراجع عرجون (٢/ ٦٠٢ - ٦١١). ونحن نميل مع عرجون إلى تعدد إنشاء النشيد وإلى أن ثنيات الوداع ليست من جهة الشام فقط].

ثم سار حتى نزل قباء في بني عمرو بن عوف - من الأوس - على كُثُوم بن الهذم، لمدة أربع عشرة ليلة، فيها أسس مسجد قباء، وهو أول مسجد أسس بعد الهجرة.

وبعد ذلك ركب رسول الله ﷺ بأمر الله، وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى بني النجار أخواله، فجاؤوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة، فأدركته الجمعة في بني سالم ابن عوف، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي، وكانوا مئة رجل [ابن سعد، بسند صحيح؛ ابن إسحاق: السيرة]. وكانت أول جمعة للنبي ﷺ داخل المدينة. [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن]. وعرف هذا المسجد ب: (مسجد الجمعة).

دخل رسول الله ﷺ المدينة بعد الجمعة، في جو مشحون بالفرح والبهجة والسرور، وكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته قائلين: هلم إلى العَدَدِ والعُدَّةِ والسَّلَامِ والمنعة، فكان يقول لهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة فلم تزل تسير به



حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم، فبركت فلم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً، ثم التفتت ورجعت وبركت في موضعها الأول، فنزل عنها وذلك في بني النجار، أمام دار أبي أيوب الأنصاري. وبادر أبو أيوب إلى الرحل فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «المرء مع رحله»، وأخذ أسعد بن زرارة الراحلة. [ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن؛ البيهقي: الدلائل، وفيه الحديث: (المرء مع رحله)].

نزل رسول الله ﷺ في القسم الأسفل من دار أبي أيوب، وأبو أيوب في القسم العلوي. فانتبه أبو أيوب ذات ليلة، فقال: «نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ!» فتنحوا إلى جانب. وفي الصباح طلب من الرسول ﷺ الانتقال إلى القسم العلوي، فقال النبي ﷺ: «السفل أرفق» ولكن أبا أيوب قال: «لا أعلو سقيفة أنت تحتها». فتحول الرسول ﷺ إلى القسم العلوي، ونزل أبو أيوب إلى القسم السفلي.

وكان أبو أيوب يصنع للنبي ﷺ طعاماً. فإذا جيء به إليه سأل عن موضع أصابعه، فيتبع أصابعه، فصنع له طعاماً فيه ثوم. فلما رد إليه سأل موضع أصابع النبي ﷺ فقيل له: لم يأكل. ففرغ وصعد إليه، فقال: «أحرام هو؟» فقال النبي ﷺ: «لا، ولكنني أكرهه»، قال: «فإني أكره ما تكره...»؛ وذلك لأن الرسول ﷺ كانت تأتيه الملائكة. [مسلم].

وعندما انكسرت جرّة ماء أبي أيوب ذات يوم، عندما كان بالعلوي، نشف هو وأم أيوب ماءها بقطيفتها الوحيدة التي يلتحفان بها؛ تخوفاً من أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه. [ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن].

وروي أن أبا أيوب سأل الرسول ﷺ أن ينتقل إلى القسم العلوي من داره، بسبب هذه الحادثة، فاستجاب الرسول ﷺ لطلبه [ابن حجر: الإصابة]. وروى مسلم وأحمد



[أحمد: المسند] أن سبب الانتقال هو كراهة أبي أيوب وأم أيوب أن يمشيا فوق رأس رسول الله ﷺ. كما سبق ذكره. وما في الصحيح أصح. وكانت مدة إقامته ﷺ في دار أبي أيوب شهرًا واحدًا [ابن حجر: التهذيب؛ ابن سعد] على الأرجح.

وما كانت تمر ليلة إلا على باب رسول الله ﷺ الثلاثة والأربعة من الصحابة الأنصار، يتناوبون في حمل طعامهم إلى رسول الله ﷺ، حتى تحول من منزل أبي أيوب إلى داره. [ابن سعد].

ونزل أبو بكر رضي الله عنه على حبيب - ويقال خبيب - بن يساف، بالسنع، ويقال: نزل على خارجة بن زيد. [ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن].

الأحكام والدروس المستفادة من أحداث الهجرة إلى المدينة:

١- أوضح الرسول ﷺ في خطبة له أيام فتح مكة: أن لا هجرة بعد فتح مكة ولكن جهاد ونية. [متفق عليه]، فلم تعد الهجرة من مكة إلى المدينة واجبًا، وإن بقي حكمها من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام واجبًا إلى يوم القيامة. [ابن حجر: الفتح]. فقد شرعت الهجرة إلى المدينة ليعبد المسلمون ربهم بأمان وقيموا كيان الدولة الإسلامية ويحموه، ثم يوسعوا رقعة هذه الدولة بالدعوة إلى الله؛ والهجرة بعد فتح مكة لم تعد ضرورة؛ لأن كيان الإسلام قد قوي وصارت للمسلمين دولة، فأصبح وجود المسلمين في ديارهم أجدى لإقامة شعائر الإسلام ونشر تعاليمه في سائر الأرجاء، أما الجهاد فهاض إلى يوم القيامة. ولذلك بايع النبي ﷺ المسلمين بعد الفتح على الإسلام والإيمان والجهاد، ولم يبايعهم على الهجرة. [البخاري]. وقد بين ابن عمر رضي الله عنهما ذلك بقوله: «انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله ﷺ، ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار»، أي ما دام في الدنيا دار كفر، فالهجرة واجبة على من أسلم وخشي أن يفتن في دينه. [ابن حجر: الفتح].

ويستدل في ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَافِرِينَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَكُمَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٧-٩٨] [الفتح].

وهكذا اقتضت ظروف قيام الدولة الإسلامية في المدينة، وحاجتها إلى جنود يحمونها؛ أن تكون الهجرة إلى المدينة واجبة على كل مسلم قادر. قال الخطابي: (كانت الهجرة إلى المدينة إلى حضرته للقتال معه وتعلم شرائع الدين).

وقد أكد الله تعالى هذا الأمر في عدة آيات حتى قطع المواصلة بين من هاجر ومن لم يهاجر، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يهاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَدَّعَةٍ وَلَنْ يَنْتَفِعُوا مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يهاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢] [الطبري: التفسير]، فلما فتحت مكة، ودخل الناس في الإسلام من جميع القبائل، سقطت الهجرة الواجبة وبقي الاستحباب [ابن حجر: الفتح].

وفي ضوء هذا يمكن القول بأنه إذا كان أي بلد من بلاد الكفر أعون للمسلم على ممارسة دينه والدعوة إليه، فهو أجدر بالإقامة فيه إذا تيسر سبيل ذلك للمسلم، ولا تجب عليه الهجرة، لأن هذه البلاد أصبحت مثل دار الإسلام، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام. [ابن حجر: الفتح].

٢- استخدم الرسول ﷺ كل الأسباب والوسائل المادية التي يهتدي بها العقل البشري في مثل هذا العمل. وليس ذلك بسبب خوف على نفسه، أو شك في إمكان وقوعه في قبضة المشركين؛ وإنما هو تشريع للأمة ليتأسى الناس به، فيأخذوا بالأسباب في كل أعمالهم، وأن سنة الله أن السبب إذا وجد، وجد معه المسبب ما لم يبطل الله ذلك كما فعل في جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم ﷺ، فعندها تكون هذه معجزة للنبي،



وإن كانت لغيره فهي كرامة للصالحين، واستدراج للطالحين من الناس؛ والدليل على ذلك أنه بعدما استنفد الأسباب المادية كلها كان مطمئناً، وصاحبه أبو بكر كان خائفاً، وكان من مقتضى اعتياده على تلك الاحتياطات أن يشعر بشيء من الخوف والجزع؛ لقد كان كل ما فعله من الاحتياطات إذًا، وظيفة تشريعية قام بها، فلما انتهى من أدائها، عاد قلبه مرتبطاً بالله ﷺ، معتمداً على حمايته وتوفيقه، ليعلم المسلمون أن الاعتماد في كل أمر لا ينبغي أن يكون إلا على الله ﷻ، وأن ذلك لا ينافي اتخاذ الأسباب والتدبير للوصول إلى الأهداف [البوطي: السيرة].

٣- إن قبول علي بن أبي طالب النوم على فراش الرسول ﷺ ليلة الهجرة منقبة عظيمة لعلي، دلت على إيمانه وشجاعته، وهذا يدل على جواز خدع العدو والتمويه عليه عملاً بأسباب النجاة.

٤- إن العمل الذي قام به الشباب في تنفيذ خطة الرسول ﷺ للهجرة، مثل دور علي وأبناء أبي بكر، يعد دوراً نموذجياً رائداً لشباب الإسلام.

٥- إن المعجزات التي أجراها الله تعالى لحماية نبيه ﷺ في هذه الرحلة، جاءت كما جاء غيرها، كضرب من ضروب التكريم للرسول ﷺ وإشارة إلى أن الله ﷻ ناصره ويمكن لدينه في أرضه، طال الزمن أم قصر.

٦- إن العمل الذي قام به أبو بكر ﷺ في الهجرة يعد منقبة كبرى له، ويكفيه تكريماً أن يذكر في القرآن بمناسبة هذا الدور، ﴿ثَاقِبَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذِ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

٧- يفهم من إرداف الرسول ﷺ لأبي بكر ﷺ على راحلته، حين دخولهما المدينة، على الرغم من وجود راحلة أخرى، أن الرسول ﷺ آثر عامر بن فهيرة وعبد الله ابن أرقد بركوب الراحلة الثانية، وذلك من كمال تواضعه.



٨- إذا تأملنا في قصة تبرك أبي أيوب الأنصاري وزوجه بآثار الرسول ﷺ، وإقرار الرسول ﷺ لذلك، تبين لنا مشروعية التماس البركة من آثار النبي ﷺ، إن وُجِدَتْ، [الألباني: التوسل] وفي وجودها شك كبير جدًا.

٩- دل تصرف أبي أيوب وأم أيوب على مدى محبة الصحابة ﷺ للرسول ﷺ وهي صورة متكررة في كل مقطع من مقاطع هذه السيرة.

١٠- إن في إعراض الرسول ﷺ عن أكل الثوم النيء دليل على أن ذلك من خصوصياته ﷺ، وقد أحله للمسلمين بشرط ألا يأكلوه ثم يرتادوا المساجد قبل أن تزول رائحته، وقد وجه الرسول ﷺ إلى من يريد أكل الثوم فليمته طبخًا. [مسلم وغيره].

فائدة:

روى ابن أبي شيبه [المغازي، بسند صحيح] من حديث ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ أنزل عليه وهو ابن أربعين سنة، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين. هذا هو المشهور، وروى كذلك آثارًا أخرى صحيحة تخالف في بعض أجزائها هذه الرواية.



الفصل الثالث

أسس بناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية بالمدينة

المبحث الأول: بناء المسجد

كان رجال من المسلمين يصلون في ذلك المكان الذي بركت فيه ناقة الرسول ﷺ، وكان مربدًا للتمر لسَهْل وسَهْل، غلامين يتيمن من بني النجار، في حجر أسعد ابن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل». ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: «بل نهبه لك يا رسول الله». فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً. [البخاري]. وفي رواية أخرى [للبخاري]، أنه ﷺ عندما أمر ببناء المسجد، أرسل إلى ملأ من بني النجار، وعندما جاؤوه، قال لهم: «يا بني النجار، ثامنوني بحائطكم هذا»، فقالوا: «لا والله، لا نطلب ثمنه إلا إلى الله».

قال ابن حجر [في الفتح]: (واحتج من أجاز بيع غير المالك بهذه القصة لأن المساومة وقعت مع غير الغلامين، وأجيب باحتمال أنها كانا من بني النجار، فساومهما وأشرك معهما في المساومة عمهما الذي كانا في حجره، كما تقدم في الحديث...).

وفي الصحيح أن مكان المسجد كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خرب، وكان فيه نخل. فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، فصفوا النخل قبله المسجد، وجعلوا عِضَادِيَه حجارة، وجعلوا ينقلون ذلك الصخر [البخاري].



وظفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن لبنيناه، ويقول وهو ينقله:
هَذَا الْحِمْلُ لَا حِمْلَ خَيْرٍ هَذَا أَبْرُ رَبَّنَا وَأَطْهَرُ
ويقول:

اللهم إِنْ الْأَجَرَ أَجَرَ الْآخِرَةَ فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ
وفي رواية أنهم كانوا ينقلون الصخر ويرتجزون ورسول الله ﷺ معهم، يقولون:
اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة
[البخاري]

وقال قائل من المسلمين في ذلك:
لئن قعدنا والرسول يعمل ذَاكَ إِذَا لِلْعَمَلِ الْمَضَلُّ
[ابن حجر: الفتح]

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام:
لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْمُرُ الْمَسَاجِدَ يَدَأُ فِيهَا قَائِمًا وَقَاعِدًا
ومن يُرَى عن التراب حَائِدًا [البخاري]

وكان الرسول ﷺ يقدم في العمل من يجيد جانباً منه. ففي حديث طَلْقِ بْنِ عَلِيٍّ
الِيَّامِي الحنفي أن الرسول ﷺ كان يقول للعاملين في بناء المسجد من الصحابة، «قربوا
اليامي من الطين، فإنه أحسنكم له مساً، وأشدكم له سَبْكَاً». وفي رواية: «فأخذت
المسحاة فخلطت الطين فكانه أعجبه، فقال: دعوا الحنفي والطين، فإنه أضبطكم
للطين». [ابن حجر: الفتح]، وفي رواية البيهقي [في الدلائل، بسند صحيح]: «قربوا اليامي
من الطين، فإنه من أحسنكم له بناء».



وكان عمار بن ياسر من أنشط العاملين في البناء، فبينما كان كل واحد يحمل لبنة، كان عمار يحمل لبنتين، لبنة عنه ولبنة عن الرسول ﷺ، فمسح رسول الله ﷺ ظهره، وقال: «ابن سمية: للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك شربة من لبن، وتقتلك الفئة الباغية». [مسلم وأحمد].

وهذا الحديث من دلائل النبوة، لأن عمارة قتل في الفتنة التي نشبت بين علي ومعاوية رضي الله عنه، وكان في جيش علي، فقتله جنود معاوية رضي الله عنه، ومات بالكيفية التي ذكرها الرسول ﷺ. وقد أجاد ابن كثير [في البداية] وابن حجر [في الفتح] في شرح هذا الحديث. وقتله أبو الغادية، كما في الإصابة.

واستغرق البناء اثني عشر يومًا [البیهقي: الدلائل]، وبعد الفراغ منه، بنيت حجر لأزواج النبي ﷺ بنفس كيفية بناء المسجد. وبعد اكتمالها انتقل الرسول ﷺ إليها من بيت أبي أيوب، فكان لسودة بنت زمرة بيت وآخر لعائشة رضي الله عنها: [ابن حجر: الفتح، من رواية الطبراني]، وهما أول بيتين بنيا، ثم تتابع بناء حجر نسائه الأخريات كلما تزوج بواحدة منهن؛ وكانت قصيرة البناء قريبة الفناء. [البخاري المفرد، بسند صحيح وغيره]، بعضها مبنية من جريد وطين، وبعضها من حجارة مرصوفة، وسقفها من جريد. [ابن أبي الدنيا برقم ٢٤٤ صحيح، المفرد برقم ٤٥١ بسند صحيح، الشعب؛ الحلية]، وقيل: كانت من شعر - شجر - مربوطة بخشب من عرعر - شجر السرو [نفسها] - ولم يكن لأبوابها حلق. [نفسها]. وقد أضيفت هذه البيوت إلى المسجد بعد موت أزواج الرسول ﷺ، وذلك في زمن الوليد بن عبد الملك [نفسها، والشامي في السبل]. [وانظر أنت عن وصف مكونات حجر وبيوت زوجاته ﷺ].

وفرض الأذان بالكيفية التي عليها الآن، في السنة الأولى على الأرجح، وذلك عندما رأى عبد الله بن زيد رضي الله عنه في منامه صيغة الأذان، فأمر الرسول ﷺ بلالًا فأذن



بها، وعندما سمعه عمر رضي الله عنه جاء إلى الرسول ﷺ. وقال إنه رأى ما رأى عبد الله ابن زيد. [الألباني: صحيح الترمذي].

ظل المسجد على حاله الذي بناه عليه الرسول ﷺ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر بأن أعاد عمدته وجعلها خشباً، وحى سقفه من المطر، ثم غيره عثمان رضي الله عنه فزاد فيه زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة، وجعل عمدته من حجارة منقوشة وسقفه من ساج [البخاري]. والساج نوع من الأخشاب الهندية.

وحذر عمر من تحمير وتصفير المسجد حتى لا يفتن الناس، وكره أنس المباهاة في تعمير المساجد بالتزين، وعاب على الناس عدم تعميرها بالصلاة. [البخاري].

ولم يكن في مسجد النبي ﷺ أول ما بُني منبر يخطب الناس عليه، بل كان النبي ﷺ يخطب الناس وهو مستند إلى جذع نخلة عند مصلاه، فلما اتخذ للرسول ﷺ منبر وعدل إليه ليخطب عليه، خار ذلك الجذع وحن حنين النوق العِشَار، لما كان يسمع من خطب الرسول ﷺ عنده، فرجع إليه النبي ﷺ فاحتضنه حتى سكن كما يسكن المولود الذي يُسَكَّت [البخاري]، وهذا من دلائل نبوته ﷺ. [والعشار: الناقة الحامل لعشرة أشهر].

وروى الدارمي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن المسجد ارتج لخواره، وكثر بكاء الناس حتى وضع النبي ﷺ يده عليه فسكت، وقال: «إن هذا بكى لما فقد من ذكر الله، والذي نفسي بيده، لو لم ألزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة»، ثم أمر به فدفن تحت المنبر.

وما أحسن ما قال التابعي الحسن البصري بعد رواية هذا الحديث عن أنس، قال باكيًا: (يا معشر المسلمين، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقًا إليه، أو ليس الرجال الذين يرجون لقاءه أحق أن يشاققوا إليه؟). [البيهقي: الدلائل].



وأصبح المسجد منذ بنائه مكاناً للعبادة في المقام الأول، ثم بعد ذلك مكاناً لكل أمر يهم المسلمين، مثل:

١ - إيواء بعض ضعفاء وفقراء المهاجرين الرجال العزاب الذين لم يتمكنوا من الحصول على منازل خاصة بهم، وعرفوا بأهل الصُّفَّة [البخاري].

٢ - إيواء ضعفاء النساء اللاتي أسلمن من أحياء العرب ولم يجدن مأوى غير المسجد حين قدومهن المدينة، مثل الوليدة السوداء التي اتخذت حِباءً أو حَفْشاً في المسجد [البخاري].

٣ - كان مكاناً لتعليم المسلمين أمور دينهم.

٤ - كان مكاناً لإنشاد الشعر ذباً عن الدعوة الإسلامية وقائدها محمد ﷺ وأصحابه [البخاري].

٥ - كان مكاناً لاعتقال أسير الحرب المشرك، إذا كان في ذلك عظة لمن يراه من الناس، وعظة له عندما يرى الصلاة ويسمع القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، كما في قصة ثمامة بن أثال [البخاري]. [يأتي ذكرها في أخبار السرايا].

٦ - نصب الخيمة فيه لعلاج جرحى المسلمين في الحرب، كما في قصة خيمة ربيعة، أيام غزوة الأحزاب [البخاري]. [يأتي ذكرها].

٧ - كان مكاناً لاستقبال الرسل - السفراء - الذين يفدون على الرسول ﷺ.

٨ - كان مكاناً لعقد ألوية جيوش وسرايا المجاهدين.

٩ - كان مكاناً لاجتماع المسلمين بقائدهم، وفي هذا فائدة من وجهين:

أ - احتكاك القائد بالرعية عن قرب، ودراسة أحوالهم، وبث الرعية شجونهم لقائدهم.

ب - احتكاك المسلمين بعضهم مع بعض، وتألف قلوبهم، وقد غاب هذا الفهم

عن كثير من قادة وأفراد في زماننا هذا، وفهموا أن المسجد مكان عبادة الصلاة فقط.



أحكام وحكم في قصة بناء المسجد النبوي الشريف:

١ - استدل جمهور الفقهاء بحديث شراء الرسول ﷺ المربد من الغلامين بوساطة عمهما الذي كانا في حجره وكفالتهم، على عدم صحة تصرف غير البالغ سن الرشد، ولهم دليل آخر من القرآن يؤكد صحة استدلالهم وهو الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٣].

أما الحديث الذي يشير إلى أن الشراء تم مباشرة بين الرسول ﷺ والغلامين فيوجه إلى أن للنبي ﷺ ولاية خاصة في مثل هذه الأمور، وأنه عليه الصلاة والسلام إنما اشترى الأرض منهما بوصف كونه ولياً عاماً لجميع المسلمين، لا بوصفه كونه فرداً منهم، ولا وجه في هذا الحديث لاستدلال الحنفية به على صحة تصرف غير البالغ، لأن الآية رجحت حديث ابن عيينة على هذا الحديث. [الزركشي: إعلام الساجد؛ البوطي: السيرة].

وللعلماء كلام فوق هذا عن تصرف غير البالغ إذ قالوا:

- أ- إن تصرفاته النافعة نفعا محضاً كقبوله الهبة لنفسه جائزة.
- ب- إن تصرفاته الضارة ضرراً محضاً كهبته لغيره غير جائزة.
- ج- إن تصرفاته الدائرة بين النفع والضرر كالبيع والشراء موقوفة على إجازة الولي أو الوصي.

٢- قال ابن حجر عند شرح حديث نبش قبور المشركين لبناء مسجد في مكانها: (فيه جواز التصرف في المقبرة المملوكة بالهبة والبيع وجواز نبش القبور الدارسة إذا لم تكن محترمة، وجواز الصلاة في مقابر المشركين بعد نبشها وإخراج ما فيها، وجواز بناء المساجد في أماكنها).

٣- كما أن الحديث يدل على أن الأرض التي دفن فيها الموتى ودرست، يجوز بيعها، وأنها باقية على ملك صاحبها وورثته من بعده، إذا لم توقف [إعلام الساجد؛

ابن حجر: الفتح؛ السيوطي].



إن في تمثل الرسول ﷺ برجز أو شعر غيره دليل على جواز قول الشعر وأنواعه خصوصًا الرجز في الحرب، والتنشيط على سائر الأعمال الشاقة، لما فيه من تحريك الهمم وتشجيع النفوس وتحركها على معالجة الأمور الصعبة. [قاله ابن حجر في شرحه حديث الباب].

٤ - استنادًا إلى عدم التكلف المظهري في بناء الرسول ﷺ مسجده، واستنادًا إلى ما نبه إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله: «أَكِنَّ النَّاسَ مِنَ الْمَطَرِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَحْمُرَّ أَوْ تَصْفُرَّ، فَتَفْتِنَ النَّاسَ» [إعلام الساجد]، كره عامة العلماء نقش وزخرفة المساجد، وقال بعضهم بحرمة ذلك. [ابن حجر: الفتح].

٥ - اختلف العلماء في كتابة آية من القرآن في قبلة المسجد، هل هي داخلية من النقش الممنوع أم لا؟ يقول الزركشي: (ويُكره أن يكتب في قبلة المسجد آية من القرآن أو شيئًا منه، قال مالك: وجوزه بعض العلماء، وقال: لا بأس به لما روي من فعل عثمان ذلك بمسجد رسول الله ﷺ، ولم ينكر ذلك عليه).

• المبحث الثاني: المؤاخاة والحكمة منها

• أ- المؤاخاة:

لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة لم يكن بأيدي معظمهم شيء، لأنهم تركوا أموالهم خلفهم، ولهذا، وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا أهل زراعة، والأنصار أهل زراعة، فقد أعطتهم الأنصار كل ما يستطيعونه من فضل، أعطتهم النخل والأرض ليعملوا فيها بنصف ثمارها، ومنهم من أعطيت له مَنِيحَة محضة، واستغنوا عنها عندما فتح الله عليهم خيبر [مسلم]. وقد رد النبي ﷺ نفسه ما أعطوه من نخل عندما فتحت عليهم قريظة والنضير [مسلم].



وكان ذلك الفعل من الأنصار دليلاً على مدى حبهم وإيثارهم المهاجرين. وقد شهد الله تعالى لهم بذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُودْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. [البخاري].

ووصل بهم الإيثار إلى أن قالوا للرسول ﷺ: «إن شئت فخذ منا منازلنا»، فقال لهم خيراً، وابتنى لأصحابه في أرض وهبتها لهم الأنصار، وفي أراضٍ ليست ملكاً لأحد. [البخاري؛ البلاذري].

وقالت الأنصار للرسول ﷺ: «اقسم بيننا وبينهم النخل»، قال: «لا. قال: يكفونكم المؤونة ويشركونكم في الثمر، قالوا: سمعنا وأطعنا». [البخاري].

وقال الرسول ﷺ للأنصار: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم»، فقالوا: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل، فتكلفونهم وتقاسمونهم الثمر» قالوا: نعم. [ابن كثير: البداية].

وروى البخاري عن أنس، قال: «دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: إما لا، فاصبروا حتى تلقوني، إنه سيصيبكم بعدي أثرٌ».

ولم يتوانوا في استضافة ضيف رسول الله ﷺ. فقد روى البخاري أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ جائعاً، فلم يجد له رسول الله ﷺ شيئاً عند زوجاته، فطلب من أصحابه استضافته، فاستضافه أنصاري لم يكن عنده إلا عشاء أهله وصبيانته، فأنام صبيانته، وقدم طعام أهله إلى ضيفه، وجلس معه، فأطفأت المرأة السراج، وجعل يريانه كأنهما يأكلان، ولكنهما باتا جائعين، وفيهما نزل قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ومع هذا الإيثار، فقد أراد الرسول ﷺ أن يوجد تشريعاً يعالج للمهاجرين أوضاعهم الاقتصادية، ويشعرهم بأنهم ليسوا عالة على إخوانهم الأنصار، فكان أن شرع نظام المؤاخاة في السنة الأولى من الهجرة. [ابن حجر: الفتح].

وروى البعض أن إعلان المؤاخاة كان في دار أنس بن مالك [متفق عليه]. وذكر البعض أن المؤاخاة كانت في المسجد. [ابن حجر في الفتح عن شرف المصطفى] وقيل إن المؤاخاة كانت مرتين: مرة بين المهاجرين خاصة، وذلك بمكة، ومرة بين المهاجرين والأنصار، وهي المقصودة هنا [ابن عبد البر: الدرر].

ذكر ابن سعد بأسانيد شيخه الواقدي إلى جماعة من التابعين، أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض، وآخى بين المهاجرين والأنصار، آخى بينهم على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الممات، دون ذوي الأرحام. وكانوا تسعين رجلاً، خمسة وأربعين من المهاجرين، وخمسة وأربعين من الأنصار، ويقال: كانوا مائة، خمسين من كل فريق.

وروى البخاري عن ابن عباس: «كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي الرحم؛ للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم».

وذكر ابن حجر [في الفتح] أن من أغراض المؤاخاة أن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى، فأخى بين الأعلى والأدنى ليرتفع الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلي، لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا، من قبل البعثة، واستمر إلى ما بعدها، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة؛ لأن زيداً مولاهم، فقد ثبتت أخوتها، وهما من المهاجرين. [ابن إسحاق: السيرة].

لقد آخى الرسول ﷺ بينه وبين علي بن أبي طالب - كما ذكرنا - [الحاكم، بسند يعتضد]، وبين الزبير وابن مسعود [نفسه، وابن حجر في الفتح وحسن سنده]، وبين



عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع [البخاري]، وبين سلمان الفارسي وأبي الدرداء [نفسه]، وبين أبي عبيدة وأبي طلحة [مسلم]، وبين عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك [ابن إسحاق في السيرة]، وبين أبي بكر وخارجة بن زيد [ابن إسحاق في السيرة].

وقد ذكر ابن إسحاق [في السيرة] عددًا كبيرًا ممن ألقى الرسول ﷺ بينهم. ونقل عنه ذلك ابن حجر [في الفتح]، وأجاب عن ما يمكن أن يكون فيه إشكال [الشامي: السبل].

ومما روي في أمر التطبيقات العملية لهذه المؤاخاة، قصة عبد الرحمن بن عوف وسعد ابن الربيع، حين قال سعد لعبد الرحمن: «إني أكثر الأنصار مالا، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها، فقال له عبد الرحمن: «لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟» وفي رواية أخرى عند البخاري أيضًا زيادة في قول عبد الرحمن: «... بارك الله لك في أهلك ومالك...» فدلَّ على سوق بني قينقاع؛ فما انقلب إلا ومعه فضل من أقطٍ وسمن، ثم أخذ يتردد على السوق، يبيع ويشترى حتى استغنى بهاله عن مال أخيه سعد، وتزوج امرأة من الأنصار، أمهرها بنواة من ذهب، وطلب منه الرسول ﷺ أن يولم ولو بشاة بهذه المناسبة. [البخاري].

ألقى الرسول ﷺ بين أصحابه ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويستأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بعضهم أزر بعض، فلما عز الإسلام، واجتمع الشمل، وذهبت الوحشة، وانخرطوا في الحياة، وعرفوا وسائل اكتساب الرزق، أبطل الله ﷻ التوارث بالمؤاخاة، وأبقى أخوة المؤمنين، وأنزل في ذلك: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٧] ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾



[الأحزاب: ٦]: [ابن كثير: التفسير، بسند صحيح]. وكان ذلك حين وقعة بدر [ابن سعد]. وروي أنه كان بعد أحد. [ابن سعد؛ الحاكم، بسند صحيح].

وذكر ابن عباس [البخاري] أن ما أُلغي من نظام المؤاخاة هو الإرث، أما النصر والرفادة والنصيحة فباقية، ويمكن أن يوصى ببعض الميراث بين المتآخين، وإلى هذا المعنى ذهب النووي. [مسلم].

ومما يدل على بقاء واستمرارية المؤاخاة دون الإرث، مؤاخاة الرسول ﷺ بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء؛ لأن سلمان أسلم بين أحد والخندق [الإصابة والاستيعاب]، ومؤاخاة معاوية بن أبي سفيان والختات التميمي؛ لأن معاوية من مسلمي الفتح [الإصابة]، والختات أسلم عندما جاء في وفد بني تميم في أوائل السنة التاسعة الهجرية - عام الوفود [الإصابة]، ومؤاخاة جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل؛ لأن جعفرًا قدم من الحبشة والرسول ﷺ قد فرغ من خير لثوه، في أول سنة سبع من الهجرة [يأتي في غزوة خيبر].

ب- حكم وعبر من المؤاخاة:

١- إن أي جماعة تسعى لهدف واحد لا بد من قيام العلاقات بين أفرادها على التأخي الذي يجعلهم يقفون بعضهم إلى جانب بعض في السراء والضراء. وإن هذا التأخي المنطلق من العقيدة هو أساس قوة هذه الجماعة، وهو الأساس الذي يمكنهم من تحقيق أهداف الدين في الحياة، ولذا كان حرص الرسول ﷺ على ذلك التأخي، الذي كان مضرب الأمثال في صدقه، والذي كان من ثماره رضا الله ﷻ عنهم والتمكين لهم في الأرض، وتحقيق النموذج العملي لمبادئ الإسلام في أشخاصهم.

٢- بناء على ما حدث في المؤاخاة، فبوسع المؤمنين في كل عصر أن يتآخوا بينهم على المواساة والارتفاق والنصيحة، ويترتب على مؤاخاتهم حقوق أخص من المؤاخاة بين المؤمنين. [العمرى: المجتمع المدني].



٣- إن في موقف عبد الرحمن بن عوف من أخيه سعد بن الربيع نموذجًا واضحًا على عفة المهاجرين واستعدادهم للعمل الذي يقدرون عليه.

● المبحث الثالث: صحيفة المدينة

● عندما استقر الرسول ﷺ بالمدينة وأراد أن ينظم العلاقات بين أهل المدينة، كتب كتابًا بهذا الشأن. عرف في المصادر القديمة باسم (الكتاب) و(الصحيفة)، وأسماء الكتاب المحدثون (الدستور) أو (الوثيقة).

ولأهمية هذه الوثيقة واعتماد الباحثين المعاصرين عليها، وجعلها أساسًا في دراسة تنظيمات الرسول ﷺ في المدينة المنورة، ونظم الدولة الإسلامية، وعلاقاتها مع الدول والملل الأخرى، والنظام السياسي في الإسلام، فقد تناولناها بالعرض والدراسة باختصار في الطبعة المطبوعة.

أولًا: مضمون الصحيفة:

أ- بنود الصحيفة المتعلقة بالمسلمين:

- المؤمنون من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس.

- كل فريق من المؤمنين (المهاجرين، بني ساعدة، من الأوس...) على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يقدون غانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإن المؤمنين لا يتركون مفرحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. [الربعة: الحال التي جاء الإسلام وهم عليها؛ والعاني: الأسير؛ والمفرح: كثير العيال].

- المؤمنون المتقون على من بغى منهم، وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.

- ذمة الله واحدة، يجير على المسلمين أديانهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس.



- من تبع المؤمنين من يهود، فإن له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

ب- بنود الصحيفة المتعلقة بالمشركيين:

- لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على المؤمنين.

- لقريش وحلفائها حق الصلح إذا طلبوه، إلا من حارب منهم الإسلام.

- لا تجار قريش ولا من نصرها.

ج- بنود الصحيفة المتعلقة باليهود:

- يتفق اليهود مع المؤمنين ما داموا محاربين.

- يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، مواليهم وأنفسهم... ولبقية اليهود

من بني النجار، يهود بني الحارث... ما ليهود بني عوف. وإن بطانة يهود كأنفسهم.

- لا يخرج من يهود أحد إلا بإذن محمد ﷺ.

- على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل

هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح... والنصر للمظلوم.

د- بنود الصحيفة المتعلقة بالقواعد العامة:

- يثرب حرام جوفها لأهل الصحيفة، وإن الجار كالنفس، غير مُضَار، ولا آثم،

وإنه لا تُجَارُ حرمة إلا بإذن أهلها.

- ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى

الله ﷻ وإلى محمد رسول الله ﷺ.

- وإن بينهم - أهل الصحيفة - النصر على من دهم يثرب.

- من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو آثم، وإن الله جار لمن بر

واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.



ثانياً: إسناد الصحيفة:

ذكر هارون [في رسالته للماجستير] شواهد كثيرة على فقرات هذه الصحيفة... أما الآيات القرآنية، فقد أورد سبعة وعشرين آية توافق فقرات جاءت في الصحيفة.

والخلاصة: إن جميع فقرات الصحيفة لها شواهد من صحيح السنة والقرآن الكريم. ولولا خشية الإطالة لذكرنا ولو طرفاً منها. جزي الله خيرًا الباحث هارون. ولذا حكم الباحثون على أن إسنادها عند ابن إسحاق يتقوى بالشواهد ليصل إلى درجة الحسن لغيره. [انظر الطبقات المطولة لكتابتنا السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية].

أما ما جاء في الصحيفة عن الصلح مع اليهود والمشركين بغير الجزية فهو منسوخ بآية الجزية: ﴿فَتِلْكَ الْأَيَّاتُ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وكان ذلك في سنة تسع [ابن كثير: التفسير]، ومن المعروف أن سورة (التوبة) من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخاري.

ثالثاً: دلالات وأحكام وعبر من صحيفة المدينة:

- ١- إن هذه الوثيقة تعد أقدم دستور مكتوب في العالم.
- ٢- لم يذكر العلماء أن حكماً من أحكامها قد نسخ، ما عدا قولهم: إن المعاهدة مع اليهود، أو مع غير المسلمين بدون الجزية، منسوخة بآية الجزية - الآية (٢٩) من سورة التوبة - كما ذكرنا قبل عدة أسطر.



الفصل الثالث: أسس بناء المجتمع بالمدينة

٣- وقال بعض العلماء إن العلاقة مع اليهود، والتي تضمنتها الوثيقة، توافق حكم

الآية: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة: ٨).

٤- نظمت الوثيقة جوانب مختلفة لحياة الناس.

٥- فيها مبادئ دستورية عديدة على سبيل المثال:

١- تشكيل الأمة من حيث العقيدة والدين تشمل على كل المسلمين حيثما كانوا.

٢- تشكيل الأمة - أي الجماعة - من حيث المواطنة تشمل على غير المسلمين في الدولة.

٣- المساواة في المعاملات العامة.

٤- منع إيواء المجرمين.

٥- منع خروج اليهود من دون إذن محمد ﷺ.

٦- منع الظلم والعدوان في المال والعرض وغيرهما.

٧- منع الضلع المنفرد مع العدو.

٨- منع إجارة قريش - أي منع إجارة العدو.

٩- القود من القاتل - أي حرمة الحياة.

١٠- الإسهام في نفقة الدفاع عن الدولة والوطن.

١١- فداء الأسرى.

١٢- وفاء الدين عن الغارمين.

١٣- الإبقاء على الأعراف الصالحة.

١٤- حق الحرية في العقيدة والدين.

١٥- حقوق الجار.



١٦ - حرمة المسلم - أي مبدأ لا يقتل مسلم بكافر.

١٧ - تحريم المدينة.

١٨ - عدم إعطاء حقوق الحرمة للآخرين في المدينة إلا بإذن أهلها.

١٩ - مرجع حسم الخلاف حول بنود هذه الوثيقة الله ﷻ ورسوله محمد ﷺ.

وهناك مبادئ دستورية يمكن استنباطها من الوثيقة، والمبادئ المذكورة ينطوي كل واحد منها على أحكام شرعية، وما عدا المبادئ الخاصة بالمسلمين فإن المبادئ التي انطوت عليها توجد في أي دستور، حتى الدساتير الوضعية. [هارون رشيد محمد إسحاق: صحيفة المدينة].

٢٠ - ومع هذا الموقف المتسامح تجاه اليهود، إلا أنهم ظلوا يكيّدون للإسلام بشتى الوسائل والأساليب، كما سنرى في الأحداث القادمة. ومن الميادين التي نشطوا فيها ولم يولها المؤرخون المحدثون كبير اهتمام، نشاطهم في ميدان الجدل العقيم، رغبة منهم في الصد عن سبيل الله ﷻ، وليس بغرض الدخول في الإسلام.

وسجل القرآن الكريم كثيرًا من جدالهم وعنادهم، ومن أظهرهم في ذلك: رافع ابن خُزَيْمَةَ، وسَلَام بن مِشْكَم، ونعمان بن أوفى، ومحمود بن دَحِيَّة، وشَّاش بن قيس، ومالك ابن الصيف، وجَبَل بن أبي قُشَيْر، وشُمُوِيل ونعمان بن أحنأ، وبحري بن عمرو، وشَّاش بن عَدِي، ورافع بن حارثة، والنَّحَام بن زيد، وكردم بن كعب... [ابن هشام] إلخ.

• المبحث الرابع: إنشاء السوق الإسلامية

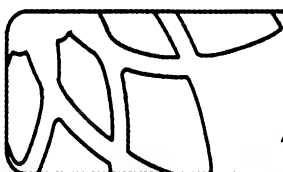
• عندما استقر الرسول ﷺ بالمدينة بعد الهجرة كان من أوائل مشاريعه لأسلمة الحياة في جميع المجالات بعد بناء المسجد الجامع والمؤاخاة وكتابة صحيفة المدينة، إنشاء سوق خاص بالمسلمين، ليتحرروا من سيطرة اليهود على الأسواق التجارية التي فرضوا عليها قيمهم في المعاملات التجارية القائمة على الربا والتدليس والغش وبيع الغرر



والاحتكار وفرض الخراج أو الأتاوات. وكان أكثر المتضررين من هذه الممارسات هم من المسلمين الذين يسموهم (الأميين)، كما حكى القرآن: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ سَكِيلٌ﴾ [آل عمران ٧٥].

روى عمر بن شبة [بإسناد مرسل لابأس به] في كتابه: (أخبار المدينة)، عن عطاء ابن يسار، والطبراني [في الكبير من وجه آخر متصلًا]، أن الرسول ﷺ عندما أراد أن يقيم سوقًا خاصًا بالمسلمين أتى سوق يهود بني قينقاع، ثم جاء إلى مكان اختاره لسوقه قريبًا من سوقهم، فضرب المكان برجله وقال: «هذا سوقكم، فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج». وفي رواية أخرى لابن شبة عن صالح بن كيسان أنه ﷺ ضرب قبة [خيمة] في موضع بقيع الزبير، وقال: «هذا سوقكم»، فجاء كعب بن الأشرف -الزعيم اليهودي- النصيري -مغتاضًا، فقطع أطناب [حبال] القبة. فقال ﷺ: «لا جرم، لأنقلنها إلى موضع هو أغيب له من هذا» فنقلها باقتراح من أحد الصحابة إلى موضع سوق المدينة الذي عرف بسوق المناخة [نسبة إلى مكان مناخ أو مبرك جمال الحجاج والقوافل]، وقال: «هذا سوقكم، لا تتحجروا [أي: لا يضيق بعضكم على بعض، ولا حيازات للأماكن في السوق، أي: لا تقام فيه مبانٍ ثابتة]، ولا يضرب عليه الخراج». وموقعه غرب المسجد النبوي؛ وتبدأ حدوده من مسجد المصلى (الغمامة) جنوبًا وحتى قلعة باب الشامي سابقًا، والتي كانت تقع على جبل سليع خلف مكتبة الملك عبد العزيز حاليًا. وأخيرًا دخلت ضمن مشاريع تحسين المناطق المحيطة بالمسجد النبوي. [ارجع إلى التفاصيل على النت].





الفصل الرابع القسم الأول: متفرقات

• المبحث الأول: تسمية يثرب بطيبة، وطابة والمدينة:

• يلحظ أن المدينة المنورة سميت في الصحيفة بـيثرب. ولكن فيما بعد كره الله ﷻ ورسوله ﷺ هذا الاسم، فاستبدلت بها أسماء طيبة وطابة والمدينة.

فقد روى مسلم عن جابر أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى سمى المدينة: طابة».

وروى - مسلم أيضًا - أن رسول الله ﷺ قال: «إنها طيبة - يعني المدينة - وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة».

وروى الطيالسي [في مسنده] بطريق مسلم نفسها قائلًا: «كانوا يسمون المدينة بـيثرب، فسماها رسول الله ﷺ طيبة».

وقال ابن حجر [في الفتح] إنه ورد من طريق أبي سهل بن مالك عن كعب الأحبار، قال: «نجد في كتاب الله الذي أنزل على موسى أن الله تعالى قال للمدينة: يا طيبة، يا طابة...».

وردت في بعض أحاديث الرسول ﷺ باسم آخر هو: المدينة. فقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال».

وروى أحمد [في المسند، بسند يعتضد] أن الرسول ﷺ قال: «من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله ﷻ، هي طابة، هي طابة».

وذكر السيوطي [في الدر المنثور] أن الرسول ﷺ قال: «لا تدعوها يثرب، فإنها طيبة - يعني المدينة - ومن قال يثرب فليستغفر الله ﷻ ثلاث مرات، هي طيبة، هي طيبة، هي طيبة».

وروى البخاري عن أبي حميد أنه قال: أقبلنا مع النبي ﷺ من تبوك حتى أشرفنا على المدينة، فقال: «هذه طابة».

وروى ابن شبة [في تاريخ المدينة، بسند يعتضد] أن رسول الله ﷺ نهى أن يقال للمدينة يثرب. وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت بقرية تأكل القرى [تغلبهم]، يقولون يثرب، وهي المدينة. تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد». وسماها القرآن الكريم المدينة في مواضع متعددة.

وقال ابن حجر [في الفتح] في سبب كراهة تسمية المدينة يثرب، لأن يثرب إما من الثريب الذي هو التوبيع والملامة، أو من الثرب، وهو الفساد، وكلاهما مستقبح. وكان ﷺ يحب الاسم الحسن، ويكره القبيح.

● المبحث الثاني: بعض المتاعب الصحية

لقد واجه المهاجرون حين مقدمهم من مكة إلى المدينة بعض المتاعب الصحية، إذ أصابتهم حمى يثرب [أحمد: المسند، بسند جيد]، حتى أنهم كانوا يصلون وهم قعود [أحمد: المسند، بسند صحيح]، وصرف الله ﷻ ذلك عن نبيه محمد ﷺ. [المصدر نفسه].

لقد وعك أبو بكر وبلال بالحمى. فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ والموتُ أَذْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته، ويقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَ لَيْلَةً بَوَادٍ وَحَوْلِي إِذْ خِرُّ وَجَلِيلُ؟
وَهَلْ أَرَدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ جَنَّةٍ؟ وَهَلْ يَنْدُونُ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ؟



وجاءت عائشة رضي الله عنها إلى النبي ﷺ فأخبرته بما يقولان، فقال: «اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة، أو أشد، وصَحِّحْها وبارك في صَاعِهَا وَمُدَّهَا، وانْقُلْ حُمَاهَا فاجعلها في الجُحْفَةِ». [البخاري].

ووعكت عائشة [البخاري] وابن فهيرة [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن]، وغير هؤلاء، لأن المدينة كانت مشهورة بالحمى، حتى قال مشركو مكة عن مسلمي المدينة في عمرة القضاء: «إنه يقدم عليكم وفد وھنتهم حمى یترب»، فأمرهم النبي ﷺ أن یرملوا الأشواط الثلاثة، وأن یمشوا ما بین الركنین، لیروا المشركین قوتهم، وأن الحمى لم تنھكهم كما یزعم الكفار.

واستجاب الله ﷻ دعاء نبيه فجعلها من أطيب البلاد بعد ذلك.

● المبحث الثالث: قريش تهدد المهاجرين والأنصار

● كان عبد الله بن أبي بن سلول أكبر زعماء المدينة. وعندما جاءها الرسول ﷺ مهاجرًا كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ملكًا عليهم، ولم يتم ذلك لأن الرسول ﷺ أصبح زعيمًا بتاج النبوة. ولذا تأخر في إسلامه؛ لأنه كان يرى أن الرسول ﷺ قد سلبه ملكه، فأخذ يناصبه العدااء. وبعد أن أعلن إسلامه ظل على عداائه للرسول ﷺ، ولكن بأسلوب آخر، وهو أسلوب النفاق. وله مواقف تدل على نفاقه كما سيأتي.

ففي أحد هذه المواقف، روى البخاري ومسلم وأحمد [المسند، بسند صحيح]، ثلاثتهم من حديث الزهري بإسناده إلى أسامة بن زيد، أن سعد بن عبادة قال: «يا رسول الله، اعف عنه، واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرَةِ على أن يتوجوه فَيَعَصُّوهُ بِالْعَصَابَةِ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله، شَرِّقَ بذلك، فلذلك فَعَلَ به ما رأيت...».



وفي رواية ابن إسحاق [السيرة، حسن] قال سعد: «يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإننا لننظم له الخرز لتوجه، فوالله إنه ليرى أنه قد سلبته ملكاً».

لقد وجد مشركو مكة ضالتهم في ابن سلول هذا، لأنه على ملتهم، فكاتبوه ليكيد للمسلمين ويقوم بالدور الذي كانوا يقومون به ضد الرسول ﷺ وأصحابه في مكة. قالوا له في كتبهم إليه: «إنكم آويتم صاحبنا، وإننا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم». [أبو داود، بسند صحيح].

وامثل ابن أبي لأمر الكفار، فجمع كفار المدينة لمحاربة الرسول ﷺ. وعندما بلغ الرسول ﷺ أمره، قال لهم: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم»، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا. [نفسه].

وأرسل كفار مكة إلى مسلمي المدينة يقولون لهم: «لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم» [المنصور فوري: رحمة للعالمين، ولم يذكر مصدره].

واحترازاً من مكائد قريش حرص المسلمون على حراسة الرسول ﷺ ليلاً حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فقال لأصحابه: «يا أيها الناس، انصرفوا عني، فقد عصمني الله عز وجل». [الألباني: صحيح الترمذي، وحسنه].

وقد دعا رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص عندما جاء يحرسه ذات ليلة، خوفاً عليه [متفق عليه].

ولم يكن الخطر مقتصرًا على الرسول ﷺ فقط، بل تعداه إلى أصحابه. فقد قال أبي ابن كعب: «لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه». [الحاكم (٣/١٦٥) -



١٦٦/ علوش)، وصححه، الشوكاني: الفتح (٤/ ٤٩) - وصححه، الطبراني في الأوسط مختصرًا - كما في المجمع (٧/ ٨٣)، ووثق رجاله وعزاه في الدر المنثور (٥/ ١٠٠) لابن مردويه وابن المنذر في الضياء و(المختارة)، والبيهقي في الدلائل].

وكجزء من مخططات قريش وأساليها للصد عن سبيل الله ﷺ، فقد حاولت صد الأنصار عن المسجد الحرام. وقد ظهر هذا جليًا في قصة سعد بن معاذ وأبي جهل. وخلاصتها عند البخاري، أن سعد بن معاذ جاء مكة معتمرًا، وطلب من مضيفه أمية ابن خلف أن ينظر له ساعة خلوة ليطوف بالبيت آمنًا. فأخذه أمية ليطوف في منتصف النهار حين غفلة الناس، ومع ذلك لقيه أبو جهل وسأل عنه أمية، فأخبره به، فقال له: «تطوف بالكعبة آمنًا وقد آوئتم محمدًا وأصحابه؟ وتشاجرا؟ وما قاله سعد له: «والله لئن منعني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام...» وهدده بأن الرسول ﷺ سيقته، وقد كان أن قتله الله ﷻ ببدر [البخاري].





القسم الثاني: النشاط الجهادي العسكري والسياسي قبل غزوة بدر الكبرى

المبحث الأول: الإذن بالقتال

• روى الطبري [في التفسير] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لما أخرج النبي ﷺ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم. إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. فأنزل الله ﷻ: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٢٣) قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال».

وزاد أحمد [التفسير، بسند صحيح] في روايته لهذا الخبر، أن ابن عباس قال: «وهي أول آية في القتال».

وقال العوفي عن ابن عباس: إن الآية نزلت في محمد ﷺ وأصحابه حين أخرجوا من مكة [الطبري وابن كثير في تفسيرهما].

لقد شرع الجهاد في الوقت الأنسب له، لأن المسلمين بمكة كانوا أقل من عشر المشركين، ولذا لم يأمرهم الله بالقتال. وعندما بغى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ من مكة وهموا بقتله، وشرّدوا أصحابه ما بين الحبشة والمدينة؛ وعندما استقر المسلمون بالمدينة وهاجر إليهم الرسول ﷺ وأصبحت المدينة دار إسلام ومعقلاً يلجؤون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك. ولم يكن القتال هنا فرضاً عليهم وإنما أذن بالقتال لمن ظلم، ثم فرض عليهم فيما بعد قتال من يقاتلهم عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ﴾.



ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾.

وهكذا مر تشريع الجهاد بأربع مراحل رئيسة، وهي:

- ١ - مرحلة الصبر دون القتال - بمكة.
 - ٢ - مرحلة الإذن بالقتال - بعد الهجرة.
 - ٣ - مرحلة الأمر بقتال من يبدؤهم بالقتال.
 - ٤ - مرحلة الأمر بقتال جميع المشركين الذين يقفون في طريق إبلاغ الدعوة.
- [ابن القيم: زاد المعاد].

● المبحث الثاني: الغزوات والسرايا قبل غزوة بدر

● [والغزوة: ما يخرج على رأسها الرسول ﷺ، والسرية: ما يكلف أحد الصحابة بقيادتها] أولًا: أهداف الغزوات والسرايا:

عندما أذن الله لنبهه والمؤمنين بالقتال، أخذوا في إعداد القوة لرد عدوان قريش، ومن على شاكلتها. فلما أرادت قريش أن تري المسلمين أن لها يدًا في داخل المدينة، أراد المسلمون أن يروا قريشًا أن المسلمين ليسوا بذلك الهوان الذي تتصوره قريش، وأنهم قادرون على كسر شوكة قريش، وحصارها سياسيًا واقتصاديًا، ورد حقوقهم المسلوبة. وكانت أول خطوة في هذا الميدان أن ييسط المسلمون سيطرتهم على طرق قريش التجارية، شمالًا وجنوبًا، شرقًا وغربًا.

واختار الرسول ﷺ لبسط هذه السيطرة خطتين متلازمتين:

الأولى: إرسال السرايا والبعوث لمهاجمة قوافل قريش التجارية.

الثانية: السعي إلى عزل قريش بالدخول في معاهدات دفاعية وعدم اعتداء مع القبائل المحيطة بالمدينة، والتي تخترق قوافل قريش أراضيها وهي في طريقها إلى الشام،



فكسب إلى جانبه في السنوات الأولى من الهجرة: بني ضَمْرَةَ وجُهَيْنَةَ، وخُزَاعَةَ وغِفَارَ وأُسْلَمَ. وسيأتي ذكر هذا من خلال الكلام عن السرايا. وكسب غيرها بعدها خلال سني حياته بالمدينة كما سنرى إن شاء الله تعالى.

ولقد نجحت هذه السرايا في كل أهدافها، لا سيما إرباك قريش وحلفائها وإضعاف معنوياتهم، وضرب نشاطهم التجاري في جميع الاتجاهات، والحصول على مورد للتموين والتسليح. ونجحت في إنذار الأعداء بأن للمسلمين المقدرة على التصدي والردع. واكتسبت القوات الإسلامية مزيد خبرة في مجال التدريب العسكري، والمناورة وجس نبض الأعداء، ومعرفة دروب الصحراء وأحوال الأعداء.

ثانياً: الغزوات والسرايا والأحلاف والأحداث الهامة:

١- غزوة الأبواء (وَدَّان):

غزاها رسول الله ﷺ في صفر على رأس أحد عشر شهراً من الهجرة، كما عند الواقدي، وفي صفر على رأس اثني عشر شهراً، كما عند ابن سعد، يريد الاعتراض على غير لقريش ويريد بني ضَمْرَةَ. فسار حتى بلغ الأبواء من ديار بني ضَمْرَةَ، فلم يلق حرباً، وكانت فرصة لموادعة بني ضَمْرَةَ من كنانة، على أن لا يكثرُوا عليه، ولا يعينُوا عليه أحداً. وكتب في ذلك كتاباً لزعيمهم مُحْثِي بن عمرو الضمري. [ابن سعد]. وكانت أول غزوة غزاها النبي ﷺ بنفسه. [ابن إسحاق: السيرة؛ ابن سعد؛ ابن عقبة كما في الفتح؛ الطبراني كما في المجمع وبسند حسن].

وقال ابن حجر في الفتح (١٤٢/١٥): (وذكر أبو الأسود في مغازيه عن عروة، ووصله ابن عائد من حديث ابن عباس: أن النبي ﷺ لما وصل إلى الأبواء بعث عبيدة ابن الحارث في ستين رجلاً فلقوا جمعاً من قريش فتراموا بالنبل، فرمى سعد ابن أبي وقاص بسهم، وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله).



٢- غزوة بواط من ناحية رَضَوَى،

خرج الرسول ﷺ في مائتين من أصحابه يعترض عيرًا لقريش فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ بواط، وهي جبال من جبال جهينة من ناحية رَضَوَى، ثم رجع حين لم يعثر على القافلة، ولم يلق حربًا. وكان ذلك في ربيع الأول، على رأس ثلاثة عشر شهرًا من الهجرة. [ابن إسحاق: السيرة؛ ابن سعد؛ الواقدي].

٣- غزوة سَفْوَان (بدر الأولى - بدر الصغرى):

عندما أغار كُرْزُ بن جابر الفهري على سرح المدينة في ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهرًا من الهجرة، خرج رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ واديًا يقال له سفوان، من ناحية بدر، فلم يدركه، فعاد إلى المدينة. وعند ابن إسحاق [في السيرة] أنها بعد غزوة ذي العُشَيْرَةِ. [ابن إسحاق: السيرة؛ ابن سعد؛ الواقدي].

٤- غزوة العُشَيْرَةِ،

خرج الرسول ﷺ في خمسين ومائة - ويقال في مائتين - من أصحابه، يعترض قافلة كبيرة لقريش في طريقها إلى الشام، وبلغ العُشَيْرَةِ وهي لبني مدلج، بناحية ينبع. فقاتته العير. وهي التي خرج يريد لها حين عادت، ولكنها أيضًا أفلتت، وكان لقاء بدر الكبرى بسببها. ووادع في هذه الغزوة بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم عاد إلى المدينة، ولم يلق حربًا.

وكان ذلك في جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهرًا من الهجرة. [المصادر نفسها].

وقد ثبت في الصحيح وقوع هذه الغزوة، ولكن بدون ذكر لأي تفاصيل عنها. [البخاري].

وتفيدنا المصادر أن الرسول ﷺ عقد معاهدات دفاع مشترك وأمان مع غير من ذكرنا، في وقت مبكر من حياته بالمدينة، ولم يرتبط وقوع ذلك بخروج المسلمين في غزوة أو سرية معينة. مثال ذلك:

كتاب الرسول ﷺ إلى بُدَيْل بن ورقاء وبُسْر وسَرَوَات بنى عمرو الخزاعيين، يفيدهم فيه أنه لم يخنهم منذ أن سالمهم، وأكد لهم الأمان من جانبه. [أسد الغابة؛ ابن سعد].

وكتاب الرسول ﷺ إلى أسلم من خزاعة، وفيه الإقرار بالمناصرة. [ابن سعد].

وكتاب الرسول ﷺ إلى بنى غفار، وفيه اتفاقية دفاع مشترك ضد من يحاربهم أو يحارب المسلمين في دينهم [نفسه].

وكتاب النبي ﷺ إلى نُعَيْم بن مسعود بن رُخَيْلَة الأشجعي، وفيه المحالفة على النصر والنصيحة. [نفسه].

٥- سرية نخلة:

بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهرًا من الهجرة ومعه ثمانية رهط [أي دون العشرة] من المهاجرين. وكتب له كتابًا، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، وذلك إمعانًا في السرية، وحتى لا يعلم أحد أين الاتجاه.

وفعل ما أمر به. وعندما فض الكتاب وجد فيه الأمر بأن يمضي حتى ينزل نخلة، بين مكة والطائف، ليرصد بها قريشًا ويعلم له من أخبارهم، وألا يستكره أحدًا من أصحابه. وعندما أخبر أصحابه بأمر الرسول ﷺ مضوا معه جميعًا إلى وجهته.

وعندما نزلوا نخلة، مرت عير لقريش فيها ابن الحضرمي وعثمان بن عبد الله ابن المغيرة، وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة.

وتشاور الصحابة في أمر الاستيلاء على هذه العير، لأن ذلك كان في آخر يوم من رجب، وهو شهر حرام، فخشوا أن يترتب على هذا القرار نتائج غير مرضية. وعندما وجدوا أنهم لو تركوهم هذه الليلة ليدخلن الحرم وليمتنعن به منهم، تشجعوا وأجمعوا أمرهم على قتل من يقدرون عليه منهم وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي



عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان، وأفلت نوفل. وأقبل ابن جحش وأصحابه بالعر والأسيرين إلى رسول الله ﷺ بالمدينة. وقال لهم الرسول ﷺ إنه لم يأمرهم بقتال في الشهر الحرام، وأبى أن يأخذ العير والأسيرين. وظن القوم أنهم هلكوا، وعنفهم إخوانهم المسلمون فيما فعلوا. وقالت قريش: إن محمدًا وأصحابه قد استحلوا الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال.

فلما أكثر الناس في ذلك، أنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْهَرَامِ فَقُلْ فِيهِ قُلٌ وَقَتَالٌ فِيهِ كَثِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْأَحَرِّ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٧-٢١٨]. وبها فرج الله ﷻ على المسلمين ما كانوا فيه من الهم، وقبض الرسول ﷺ العير والأسيرين.

وعندما أرسلت قريش في فداء الأسيرين، اشترط الرسول ﷺ أن يكون ذلك بعد مجيء سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان، خشية منه عليهما من قريش. وكانا قد تخلفا عن القوم قبل وصولهم نخلة، بحثًا عن بغيرهم الذي أضلاه. [الطبراني، بإسناد حسن كما قال الهيثمي في المجمع].

أحكام وعبر في قصة سرية نخلة:

١ - لقد بينت هاتان الآيتان اللتان نزلتا في التعليق على ما حدث في هذه السرية أن الذي فعله المشركون بالمسلمين من صد عن سبيل الله ﷻ وكفر به، وصد عن المسجد



الحرام وإخراج المسلمين من بلدهم وسلب أموالهم وفتنتهم عن دينهم، بينت الآية أن كل هذا أكبر عند الله ﷻ مما فعله المسلمون، أي القتال في الشهر الحرام.

فإذا كان المشركون يرتكبون هذه الجرائم الكبرى كلها في حق المسلمين فلا تثريب على المسلمين من قتالهم في الشهر الحرام، وإنما التثريب أن لا يقاتل في الشهر الحرام من يرتكب تلك الجرائم، إذا دعت الضرورة.

وفي هذا التعليق بيان لسياسة الإسلام في تقدير القيم الدينية والخلقية وسموه بالمعاني الروحية والإنسانية، وعدم إغفاله للبواغث النبيلة التي دعت رجال السرية للقتال في الشهر الحرام، دون الوقوف عند الظواهر والرسوم، وما التزمه الناس من تقاليد كريمة مشروعة أو موروثة.

٢- وبينت الآية أن بعض الناس يقدر ويشيد بالقوانين عندما تكون في مصلحته. فإذا رأى هذه المصلحة مهددة بما ينتقصها، هدم القوانين والدساتير جميعاً.

٣- وبينت الآية أن لا هوادة مع المشركين المعتدين، مما كان له أثره البعيد لدى المسلمين وأعدائهم.

٤- إن استخدام الرسول ﷺ أسلوب الرسائل السرية، دل على مشروعية الأخذ بالأسباب، ودل على سبق الإسلام في استخدام هذا الأسلوب، الذي لم يعرفه الغرب إلا في الحرب العالمية الثانية.

٥- لقد كانت سرية نخلة أول عملية توغل قريباً من مكة، مركز العدو. ولذا فهي عملية فدائية، قامت على الطوعية، إذ لم يكره عبد الله أحدًا من أفراد السرية على المضي في الخطة المرسومة في رسالة النبي ﷺ السرية. [وانظر: أبي شهبه والغزالي، والشامي في المعين].



وهذه السرية تدل على أن خطة المسلمين في ملاحظة قوافل قريش لم تكن خاصة المنطقة الشمالية من الحجاز، بل تعدت ذلك إلى المنطقة الجنوبية من طريق قوافل قريش إلى اليمن.

- تحويل القبلة:

قال الجمهور: إنه في النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهرًا من الهجرة أمر الله ﷺ بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، بعد أن صلى إلى بيت المقدس بالمدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا. وكان عليه الصلاة والسلام يحب أن يصرف قبلته نحو الكعبة، قبله إبراهيم، وكان يكثر الدعاء والتضرع، فأُنزل الله تعالى: ﴿قَدْ رَأَى نَفْلًا وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلْتَوَلَّيْنَاكَ قِبْلَةً رَضِينَا قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فكان أول صلاة صلاها إلى المسجد الحرام صلاة العصر، وبلغ الخبر أهل قباء في اليوم التالي وهم يصلون الصبح، فتحولوا إلى المسجد الحرام [متفق عليه؛ البداية].

- فريضة صيام رمضان:

قال الطبري [في تاريخه] في حوادث السنة الثانية الهجرية: (...) وفي هذه السنة فرض صيام شهر رمضان، وقد قيل: إنه فرض في شعبان منها (...). وثبت في الصحيحين، أن الرسول ﷺ عندما قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فصامه، وأمر بصيامه، فلما نزل الأمر بصيام شهر رمضان، كان رمضان الفريضة، وخير الناس في صيام عاشوراء.





الفصل الخامس غزوة بدر الكبرى: الأحداث والنائج

عندما سمع الرسول ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام في تجارة لقريش، ندب المسلمين إليه، وقال لهم: «هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكُمُها». [ابن إسحاق: السيرة، حسن].

وفي رواية عن أبي أيوب الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: «إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قِبَل هذه العير، لعل الله يَغْنَمَناها؟ قلنا: نعم. فخرج وخرجنا معه» [الميثمي: المجمع، وعزاه إلى الطبري، وسنده حسن].

والمخبر في رواية مسلم (١٩٠١): بُسِيسَة، وعند أهل السير والمغازي: بَسْبَس ابن عمرو، ويقال: ابن بشر.

ولم يستنفر الرسول ﷺ كل الناس، بل طلب أن يخرج معه من كان ظهره [راحلته] حاضراً، ولم يأذن لمن أراد أن يأتي بظهره من علو المدينة [مسلم]، ولذا لم يعاتب أحداً تخلف عنها. [البخاري]. وكان عددهم ما بين الـ ٣١٣ والـ ٣١٩ رجلاً [متفق عليه، وعند مسلم: ٣١٩ رجلاً، وهو ما نعتمه]، منهم ما بين الـ ٨٢ والـ ٨٦ من المهاجرين و ٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج [البخاري؛ ابن إسحاق في السيرة]، معهم سبعون بعيراً، [فاعتقبوها - أي تعاقبوا على ركوبها، وفرسان فقط] [أحمد: المسند، حسن؛ ابن إسحاق، حسن].

وكان أبو لُبَابَة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ، فعندما جاء دوره في المشي، قال له: «نحن نمشي عنك». فقال لهما: «ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما». [نفسه].



وفي الطريق، وعندما بلغوا الرّوحاء، رد الرسول ﷺ أبا لبابة وأمره على المدينة، وسبق ذلك أن جعل عبد الله بن أم مكتوم على الصلاة. [الحاكم]، وأصبح مكانه في زمالة الرسول ﷺ على البعير مرثد [ابن إسحاق، حسن] بن أبي مرثد. ولذلك فلا خلاف بين رواية ابن إسحاق ورواية أحمد.

وعندما علم أبو سفيان بالخطر المُخْدِق بقافلته، أرسل ضَمْضَم بن عمرو الغِفَارِيّ إلى مكة يستنجد بقريش.

وجاء ضَمْضَم مسرعاً إلى مكة، وعندما دخلها وقف على بعيره، وقد جدد أنفه، وحول رحله وشق قميصه، وهو يصيح: «يا معشر قريش، اللَّطِيْمَة، اللَّطِيْمَة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث». [نفسه].

وخرجت قريش مسرعة لإنقاذ عيرها ورجالها، ولتلتقي بالمسلمين في حرب تراها قاضية على قوة المسلمين التي ظلت تهدد تجارتهم. ولم يتخلف من أشرفهم سوى أبي لهب، فإنه أرسل مكانه العاص بن هشام، مقابل دين كان عليه، مقداره أربعة آلاف درهم. [نفسه]. ولم يتخلف من بطون قريش سوى بني عدي. [نفسه].

وبلغ عددهم في بداية مسيرهم نحو ألف وثلاثمائة محارب، معهم مائة فرس وستائة درع وجمال كثيرة، بقيادة أبي جهل [البداية، من حديث الأموي بإسناد مرسل، وفيه أنه كان مع المشركين ستون فرساً].

وعندما خشوا أن تعذر بهم بنو بكر لعداوتها معهم، كادوا أن يرجعوا عما أرادوا. [ابن إسحاق، حسن مرسل]، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك المدلجي، سيد بني كنانة، وقال لهم: «أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه». [نفسه]. فخرجوا من ديارهم كما حكى عنهم القرآن: ﴿بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن

سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧] [تفسير الطبري، مرسل صحيح].



رأت عاتكة بنت عبد المطلب فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم بن عمرو بخبر أبي سفيان بثلاث ليال، فقالت: رأيت رجلاً أقبل على بعير له فوقف بالأبطح، فقال: انفروا يا آل بدر لمصارعكم في ثلاث، فذكرت المنام، وفيه: ثم أخذ صخرة فأرسلها من رأس الجبل، فأقبلت تهوي حتى ترضضت، فما بقيت دار ولا بنية إلا ودخل فيها بعضها. وفي القصة إنكار العباس على أبي جهل قوله: «حتى حدثت فيكم هذه النبىة»، وإرادة العباس أن يشاعره، واشتغال أبي جهل عنه بمجيء ضمضم يستنفر قريشاً لصد المسلمين عن غيرهم، فتجهزوا وخرجوا إلى بدر، فصدق الله ﷻ رؤيا عاتكة. [ابن إسحاق، حسن لغيره].

لقد كان أبو سفيان متيقظاً للخطر المتكرر من جانب المسلمين. ولذا عندما اقترب من بدر لقي مجدي بن عمرو وسأله عن جيش الرسول ﷺ، فأفاده مجدي بأنه رأى راكبين أناها إلى تل، ثم استقيا في شن لهما، ثم انطلقا، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما، فأخذ من أبعاد بعيريهما، ففته، فعرف منه أنه من علائف المدينة، فأسرع تاركاً الطريق الرئيس الذي يمر على يسار بدر، واتجه إلى طريق الساحل غرباً، ونجا من الخطر. ثم أرسل رسالة أخرى إلى جيش قريش، وهم بالجحفة، يخبرهم فيها بنجاته، ويطلب منهم الرجوع إلى مكة. [ابن إسحاق، حسن].

وهمَّ جيش مكة بالرجوع، ولكن أبا جهل رفض ذلك، قائلاً: «والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا، فننحر الجزور ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فامضوا». [الطبري: التفسير، حسن]. [وبدر: اسم لبئر حفرها بدر بن قريش بن الحارث بن مغلدة ابن النضير بن كنانة، فنسبت له].

فأطاعه القوم ما عدا الأخنس بن شريق، حيث رجع بقومه بني زهرة، وطالب ابن أبي طالب، لأن قريشاً في حوارها معه، اتهمت بني هاشم بأن هواهم مع محمد ﷺ.



وساروا حتى نزلوا قريباً من بدر، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى، على حدود وادي بدر [ابن إسحاق، حسن].

وبلغ خبر ذلك الرسول ﷺ، فاستشار أصحابه. [متفق عليه]. وخشي فريق منهم المواجهة في وقت لم يتوقعوا فيه حرباً كبيرة، ولم يستعدوا لها بكامل عدتهم وعتادهم، فجادلوا الرسول ﷺ ليقنعوه بوجهة نظرهم. وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ٥﴾ يُجِدُّونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ٧﴾ [الأنفال: ٥-٧] [المجمع، حسن، والطائفتان: غير أبي سفيان وجيش قريش].

وتكلم قادة المهاجرين، وأيدوا الرأي القائل بالسير لملاقاة العدو، منهم أبو بكر وعمر والمقداد بن عمرو. ومما قاله المقداد: «يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه» [ابن إسحاق، حسن]. وفي رواية قال: «لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك»، وسر النبي ﷺ من قوله [البخاري وأحمد].

وبعد سماعه كلام قادة المهاجرين، قال: «أشيروا علي أيها الناس»، وكان بذلك يريد أن يسمع رأي قادة الأنصار، لأنهم غالبية جنده، ولأن نصوص بيعة العقبة الكبرى لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول ﷺ خارج المدينة [مسلم]، وأدرك سعد ابن معاذ - حامل لواء الأنصار - مراد الرسول ﷺ، فنهض قائلاً: «والله لكأنك تريدنا



يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فقد آمنّا بك فصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُورٌ في الحرب صُدُقٌ في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله». [ابن إسحاق، حسن].

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشّطه ذلك، ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم. [ابن إسحاق، حسن بشواهده].

ورد الرسول ﷺ عمير بن أبي وقاص لصغر سنه (١٦ سنة)، فبكى، فأجازه، فاستشهد يوم بدر. [الطبراني، رجال الصحيح كما قال الهيثمي].

وفي الطريق وعند حَرَّةِ الوَبَرَةِ [موضع على ٤ ميل من المدينة] أدركه رجل من المشركين، قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، أراد أن يحارب معه، فقال له الرسول ﷺ: «ارجع فلن أستعين بمشرك»، ثم عرض له مرة ثانية بالشجرة، ومرة ثالثة بالبيداء، والرسول ﷺ يقول له ما قاله أول مرة، وأخيرًا أقر بالإسلام، فقبله الرسول ﷺ. [مسلم].

وعندما وصل قريبًا من الصَّفْرَاء، بعث بسبس بن الجهني وعدي بن أبي الزغباء الجهني إلى بدر يتحسسان له الأخبار عن أبي سفيان وعيره. [ابن إسحاق، حسن].

ويروى أنه خرج هو وأبو بكر لهذا الغرض، ولقيا شيخًا فسألاه عن جيش قريش، فاشترط عليهما أن يخبراهما، فوافقا، وطلبا منه أن يخبرهما هو أولاً، فأخبرهما بأنه قد بلغه أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدق الذي أخبره فهم اليوم



بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش المسلمين - وإن صدق الذي أخبره بجيش قريش فهم اليوم بمكان كذا - للمكان الذي به جيش قريش.

ولما فرغ من كلامه قال: ممن أنتم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نحن من ماء»، ثم انصرفا عنه، وتركاه يقول: من ماء؟ أمن ماء العراق؟ [ابن إسحاق].

وفي مساء ذلك اليوم أرسل عليًا والزبير وسعدًا بن أبي وقاص في نفر من أصحابه لجمع المعلومات عن العدو، فوجدوا على ماء بدر غلامين يستقيان لجيش مكة، فأتوا بهما إلى الرسول ﷺ وهو يصلي، وأخذوا في استجوابهما. فأفادا أنها سقاة جيش قريش، فلم يصدقوهما، وكرهوا هذا الجواب، ظنًا منهم أنها لأبي سفيان، إذ لا يزال الأمل يحدوهم في الحصول على العير. وضربوهما حتى قالوا إنها لأبي سفيان.

وعندما فرغ الرسول ﷺ من صلاته عاتب أصحابه لأنهم يضربونها إذا صدقا، ويتركونها إذا كذبا. ثم سألهما الرسول ﷺ عن مكان الجيش المكي، فقالا: هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى.

وعندما سألهما عن عدد جيش مكة وعدته لم يستطيعا تحديد ذلك، ولكنها حددا عدد الجزور التي تنحر يوميًا بأنها ما بين التسعة والعشرة، فاستنتج الرسول ﷺ بأنهم بين التسعمائة والألف، وذكر له من بالجيش من أشرف مكة. [مسلم وأحمد بسند صحيح]، فقال الرسول ﷺ لأصحابه: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها». [ابن إسحاق]. وأشار إلى مكان مصارع جماعة من زعماء قريش، فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ. [مسلم].

وأُنزل الله تعالى في هذه الليلة مطرًا طهر به المؤمنين وثبت به الأرض تحت أقدامهم، وجعله وبالًا شديدًا على المشركين. [أحمد: المسند، بسند صحيح؛ ابن إسحاق]. وفي هذا قال



تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

ومن نعمه على المسلمين يوم بدر أيضاً أن غشيهم النُّعَاسُ أمنة منه، كما في صدر آية نعمة إنزال المطر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الأنفال: ١١]. [أحمد: المسند، بسند صحيح] الآية.

وروى في ذلك أحمد بسنده إلى أنس بن مالك: أن أبا طلحة قال: «غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم بدر، فكنت فيمن غشيه النعاس يومئذ فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه ويسقط وأخذه».

وزاد الله ﷻ المؤمنين فضلاً بأن أوقع الخلاف في صفوف عدوهم. فقد روى أحمد أن عتبة بن ربيعة أخذ يثني قومه عن القتال محذراً من مغبته، لأنه علم أن المسلمين سوف يستमितون، فاتهمه أبو جهل بالخوف. [ابن إسحاق، حسن]. وروى البزار أن عتبة قال لقومه يومذاك: «إن الأقارب سوف تقتل بعضهم بعضاً، مما يورث في القلوب مرارة لن تزول. فاتهمه أبو جهل بالخوف، وليريه شجاعته، دعا أخاه وابنه وخرج بينهما داعياً إلى المبارزة». [المجمع، ورجاله ثقات؛ الطبري: التاريخ، مرسل حسن؛ البداية، بسند صحيح].

وكان الرسول ﷺ قد رأى عتبة على جمل أحمر، فقال: «إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يَرْشُدُوا». [أحمد: المسند، بسند صحيح]. وشاء الله أن يعصوه، وضاع رأيه وسط إثارة أبي جهل الثارات القديمة.

سبق الرسول ﷺ المشركين إلى ماء بدر، ليحول بينهم وبين الماء. وهنا أبدى الحُجَّابُ ابن المُنْذِرِ رأيه قائلاً: «يا رسول الله، أرايت هذا المنزل، أمتزلاً أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟»، قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».



قال الحباب: «يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم [قريش] فننزله ونغور [نخرب] ما وراءه من القلب [الآبار] ثم نبني عليه حوضًا فنملاؤه ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون»، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي». وفعل ما أشار به الحباب بن المنذر رضي الله عنه. [ابن إسحاق، حسن لغيره].

وعندما استقروا في المكان، قال سعد بن معاذ مقترحًا: «يا نبي الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك»، فوافق الرسول ﷺ على هذا الاقتراح. [ابن إسحاق، حسن لغيره].

ويفهم من النصوص الواردة في شأن القتال بيد أن الرسول ﷺ شارك في القتال، ولم يمض كل وقته داخل هذا العريش أو في الدعاء، كما فهم بعض كتاب السيرة.

فقد روى أحمد [في المسند، بسند صحيح] عن علي، قال: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا من العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا»، وفي موضع آخر بالسند نفسه: «لما حضر البأس يوم بدر، اتقينا برسول الله ﷺ، وكان من أشد الناس، ما كان أو لم يكن أحد أقرب إلى المشركين منه». [أحمد: المسند، بسند صحيح].

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «لا يتقدم أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه».



وقال ابن كثير [في البداية]: (وقد قاتل بنفسه الكريمة قتالاً شديداً ببدنه، وكذلك أبو بكر الصديق، كما كانا في العريش يجاهدون بالدعاء والتضرع، ثم نزلا فحرضا وحثا على القتال، وقاتلا بالأبدان جمعاً بين المقامين الشريفين).

وبعد أن اتخذ الرسول ﷺ كل الوسائل المادية الممكنة للنصر في حدود الطاقة البشرية، بات ليلته تلك يتضرع إلى الله ﷻ أن ينصره، ومن دعائه كما جاء في رواية عند مسلم: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» وتقول الرواية: «فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبِدِّكُمْ بِالْفَيْنِ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فأمدّه الله بالملائكة».

ومما رواه البخاري من دعائه في ذلك اليوم: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تُعبد بعد اليوم»، وتقول الرواية: «فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، وهو يثب في الدرع فخرج وهو يقول: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]».

وروى ابن أبي حاتم بإسناده إلى عكرمة أنه قال: لما نزلت: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ قال عمر: «أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾»، فعرفت تأويلها يومئذ». [البخاري، النسائي، ابن كثير: التفسير، أحمد، صحيح].

وفي صباح يوم الجمعة، السابع عشر من رمضان - السنة الثانية من الهجرة. [ابن حجر: التلخيص الحبير، ومتفق عليه عند أئمة المغازي]. وعندما تراءى الجمعان، دعا



رسول الله ﷺ ربه قائلاً: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة». [رواه ابن إسحاق معلقاً كما في (ابن هشام ٢/ ٣١٤)]، وقد ثبت أن أبا جهل قال حين التقى القوم: «اللهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرفه فأحنه [أي أهلكه] الغداة». فكان هو المستفتح، أي الحاكم على نفسه بهذا الدعاء، والفتاح الحاكم. وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩] [وقد روى الخبر بإسناد صحيح أحمد: الرباني (٢١/ ٤٤)، والطبري في التفسير (١٣/ ٤٥٤، شاکر) بإسناد صحيح، والحاكم (٢/ ٣٢٨) وصححه. والدعاء إلى قول الراوي: (فكان هو المستفتح)، رواه ابن إسحاق بإسناد مرسل، ابن هشام (٢/ ٣٢٣). والخيلاء: التكبر والإعجاب، وتحادّك: تعاديك، أحنهم: أهلكهم الآن].

وعندما وقف المسلمون في صفوف القتال، أخذ الرسول ﷺ في تعديل صفوفهم وفي يده قِدْح [سهم بلا ريش] فطعن به سَوَادُ بْنُ غَزِيَّةٍ في بطنه، لأنه كان مستتبلاً [متقدماً] من الصف عمداً، وقال له: استو يا سواد، فقال سواد: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق، فأقطني القود من نفسك، أو القصاص، فكشف عن بطنه وقال: استقد، فاعتنقه سواد وقبل بطنه، فقال النبي ﷺ: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدك جلدي، فدعا له رسول الله ﷺ بخير. [ابن إسحاق؛ عبد الرزاق، مرسلًا يتقوى بغير؛ الهيثمي برجال ثقات].

وشهد سواد المشاهد كلها بعد هذا، كما ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب [من حديث ابن عقبة].

ثم أخذ في توجيههم في أمر الحرب، قائلاً: إِذَا أَكْثَبُوكُمْ [قربوا منكم] فارموهم واستبقوا نبلكم [البخاري]. ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم [أبو داود]. وحرصهم



على القتال، قائلاً: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة». [ابن إسحاق]، وفي رواية عند مسلم أنه عندما دنا المشركون قال النبي ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض». وعندما سمع ذلك عمير بن الحُثَماء الأنصاري، قال: «يا رسول الله! أجنة عرضها السماوات والأرض؟! قال: نعم. قال: بَخِ بَخِ. فقال رسول الله ﷺ: «ما يملكك على قولك بَخِ بَخِ؟». قال: لا، والله! يا رسول الله! إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قَرْنِهِ [جعبة الشاب]، فجعل يأكل منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بها كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل». [ابن إسحاق].

وقال عوف بن الحارث - بن عفراء -: «يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده، قال: «غمسه يده في العدو حاسراً»، فنزع درعاً كانت عليه، فكدفها، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل. [نفسه].

وطلب الرسول ﷺ من أصحابه، قبل بدء المعركة، ألا يقتلوا نفرًا من بني هاشم وغيرهم لأنهم خرجوا مكرهين، وسمى منهم أبا البخثري بن هشام - الذي كان ممن سعى لنقض صحيفة المقاطعة ولم يؤذ النبي ﷺ - والعباس بن عبد المطلب. وعندما سمع أبو حذيفة ذلك قال: «أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيت لأحمنه - أو لأجمنه - بالسيف»، فبلغت مقالته رسول الله ﷺ، فقال لعمر: «يا أبا حفص؟ أ يضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟» فقال عمر: «يا رسول الله، دعني فلاضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق». فكان أبو حذيفة يقول: «ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذٍ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة»، فقتل يوم اليامة شهيداً. [ابن إسحاق، حسن].



وقبل ابتداء القتال خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي، فقال: «أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه»، وتصدى له حمزة، وضربه ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه، ثم حبا إلى الحوض مضرجاً بدمائه ليبر قسمه، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض. [نفسه، حسن].

● المبارزة:

● بعد هذا خرج ثلاثة من فرسان قريش يطلبون المبارزة، وهم: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، والوليد بن عتبة. فخرج لهم ثلاثة من شباب الأنصار وهم: عوف ومعوذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء - وعبد الله بن رواحة. فلم يقبل فرسان قريش بغير بني أعمامهم من المهاجرين، فأمر الرسول ﷺ عبدة بن الحارث وحمزة وعلي أن يبارزوه. وكان حمزة لعتبة، وعبدة للوليد، وعلي لشيبة، وقتل علي وحمزة صاحبيهما وأعانا عبدة على قتل الوليد، واحتملا عبدة الذي أثخنه الوليد بالجراح. [أبو داود، وقال ابن حجر في الفتح إنها أصح الروايات].

وفي هؤلاء الستة نزل قول الله تعالى: ﴿ هَٰذَا خِطْمَانِ أَخْضَصُوا فِي رَيْهِمُ فَأَلْزَيْنَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن تَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ [الحج: ١٩].
ثم طلب الرسول ﷺ من علي أن يناوله كفاً من حصي، فناوله ذلك، فرمى به وجه القوم، فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء، فنزلت الآية الكريمة: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]. [المجمع، موصولاً، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح].

● الملائكة تشهد بدراً:

● ونزل المسلمون ساحة المعركة بقوة إيمانية كبيرة، وشدوا على المشركين، وأخذوا في اقتطاف رؤوسهم، وأمدهم الله بالملائكة لينصرهم على عدوهم، كما في قوله تعالى:



﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] الآيات، و ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَكَةِ مَرْثُومَةٍ﴾ [الأنفال: ٩] و ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

وكما روي من الأحاديث في هذا الشأن. فقد روى مسلم في هذا: «بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أَقْدِمَ حَيْزُومُ، فنظر إلى المشرك أمامه، فخرَّ مُسْتَلْقِيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشَقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فاخْضَرَ ذلك أَجْمَعُ. فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت. ذلك من مَدَدِ السَّمَاءِ الثالثة». [وخطم: أصيب بضربه، وتركت الضربة أثرًا].

وروى أحمد أن رجلاً من الأنصار قصير القامة جاء بالعباس أسيرًا، فقال العباس: «يا رسول الله، إن هذا والله ما أسرنى، لقد أسرنى رجل أَجْلَحُ من أحسن الناس وجهًا، على فرس أَبْلَق، ما أراه في القوم»، فقال الأنصاري: «أنا أسرته يا رسول الله. فقال: اسكت، فقد أيدك الله تعالى بملك كريم». [المسند، بسند صحيح].

وروى الأموي أن الرسول ﷺ خفق خفقة في العريش ثم انتبه، فقال: «أبشر أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل معتمر بعمامة، آخذًا بِعَنَانٍ فرسه يقوده على ثَنَائِيهِ النَّقْعُ، أتاك نصر الله وعدته». [ابن إسحاق، حسنه الألباني في حاشية سيرة الغزالي].

ورويت أحاديث في مشاركة الملائكة المسلمين يوم بدر ولم تصرح بالقتال. فقد روى البخاري أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»، وقال في رواية أخرى: «جاء جبريل النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: أفضل من المسلمين - أو كلمة نحوها - قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة». [البخاري].



وروى الحاكم [بسند حسن] أنه كانت على الزبير يوم بدر عمامة صفراء معتجرة بها، فنزلت الملائكة عليهم عمام صفراء، على سيما الزبير. وروى ذلك كذلك ابن سعد. [وصحه ابن حجر في الإصابة].

لقد أكرم الله عباده المؤمنين يوم بدر ببعض الكرامات. فقد روي أن عكاشة ابن محصن قاتل بسيفه يوم بدر حتى انقطع يده، فأعطاه الرسول ﷺ جذاً من حطب ليقاتل به، فإذا هو في يده سيفاً طويلاً شديد المتن أبيض الحديد، فقاتل به يوم ذاك وفي المعارك الأخرى التي شهدا بعد ذلك، وآخرها يوم اليمامة - أحد أيام حروب الردة - حين قتل شهيداً. [ابن إسحاق، الواقدي؛ ابن سعد].

وعندما رأى إبليس - وكان في صورة سراقه بن مالك - ما تفعل الملائكة والمؤمنون بالمشركون، فر ناكصاً على عقبيه، حتى ألقى بنفسه في البحر. [الطبري: التفسير، بطرق تعتضد].

● مصرع الطفافة:

● أبي جهل وأمية بن خلف والعاص بن المغيرة:

أ- أبو جهل:

روى البخاري ومسلم من حديث عبد الرحمن بن عوف أنه قال: «إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يميني وعن يساري فتیان حديثا السن، فكأنني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرًا من صاحبه: يا عم، أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي، فما تصنع به؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، قال: والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك. وغمزني الآخر فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا



إلى رسول الله ﷺ فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلت، قال: هل مسحتما سيفيكما؟ فقالا: لا. فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين، فقال: كلاكما قتله، وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح [لأن الثاني استشهد]، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عَفْرَاءَ واستشهد معاذ في المعركة.

وروى ابن إسحاق [بسنن حسن] من حديث معاذ بن الجموح أنه قال: «سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحَرْجَةِ، وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، قال: فلما سمعتها جعلته من شأني، فصمدت نحوه، فلما أمكنتني حملت عليه، فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه... وضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي، فتعلقت بجلدته من جنبي، وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي وأنا لأسحبها خلفي، فلما آذنتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها، ثم مر بأبي جهل - وهو عقير - معوذ ابن عفراء - فضربه حتى ثبته فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قتل».

وروى البخاري أن النبي ﷺ قال: عندما انجلت المعركة: «من ينظر ما صنع أبو جهل؟ فانطلق ابن مسعود، فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى بَرَدَ، قال: أنت أبو جهل؟ قال: فأخذ بلحيته، قال: وهل فوق رجل قتلتموه، أو رجل قتله قومه؟».

وفي رواية أحمد أن الرسول ﷺ ذهب مع ابن مسعود ليرى جسد أبي جهل، وقال: «كان هذا فرعون هذه الأمة». [المسند].

وفي رواية ابن إسحاق أن أبا جهل قال لابن مسعود عندما جثا عليه: «لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويحي الغنم».

ب- أمية بن خلف:

تمكن عبد الرحمن بن عوف من أسر أمية، وعندما رآه بلال معه، قال: «رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا»، وحاول عبد الرحمن أن يثنيه عن عزمه فلم يستطع،



بل استنفر بلال الأنصار، فلحقوا به معه وقتلوه، مع أن ابن عوف ألقى عليه نفسه وأمية بارك. فكان عبد الرحمن يقول: «يرحم الله بلالاً، ذهب أدري، وفجعني بأسيري». [البخاري؛ ابن إسحاق، بسند حسن].

وعندما طرح قتلى المشركين في القليب، لم يطرح معهم، لأنه انتفخ في درعه فملأها، وعندما ذهبوا ليحركوه تفرقت أعضاؤه، فتركوه في مكانه، وألقوا عليه ما غييه من الحجارة والتراب [ابن إسحاق، حسن].

ج- العاص بن هشام بن المغيرة:

كان العاص بن هشام بن المغيرة خال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولذا حرص عمر على قتله، فقتله حتى يعلم أن ليس في قلبه ولاء إلا لله وحده. [ابن هشام].

لقد انجلت معركة بدر عن نصر كبير للمسلمين، إذ قتلوا سبعين من المشركين، وأسروا سبعين [مسلم؛ أحمد في المسند بسند صحيح]، ولم يقتل من المسلمين سوى أربعة عشر رجلاً، ستة من قريش وثمانية من الأنصار. [البداية من حديث ابن عقبة].

لقد كان جزاء الله عادلاً في هؤلاء ﴿الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَسْكُنُ الْفَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩] [البخاري].

• دفن قتلى المشركين في القليب [البئر التي لم تطوى]:

• روى البخاري ومسلم وأحمد وابن إسحاق والطبراني وغيرهم أن الرسول ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش [كان مجموع قتلى المشركين سبعين كما سبق ذكره، وكما سيأتي ذكره، فلعل الآخرين دفنوا في أماكن أخرى كما في الفتح] فدفنوا في طوي من أطواء بدر حيث حُبِث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى



ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شَفَةِ الرِّكْيَةِ فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان ابن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعم الله ورسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟» فقال عمر: «يا رسول الله، ما تُكَلِّمُ من أجسادٍ لا أرواح لها»، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». [وإسناد أحمد وابن إسحاق والطبراني صحيح].

وعندما ألقوا في القليب، وفيهم عتبة بن ربيعة، نظر رسول الله ﷺ إلى وجه ابنه أبي حذيفة، فإذا هو كتيب قد تغير لونه، فقال له النبي ﷺ: «لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟» فقال: «لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأيًا وحلمًا وفضلًا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنت أرجو له، أحزنني ذلك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيرًا». [ابن إسحاق، حسن].

وبعد نهاية المعركة وانتصار المسلمين وأخذ الأسرى، قيل للرسول ﷺ: «عليك بالعير، ليس دونها شيء». فناداه العباس أن ذلك لا يصلح له، قال: ولم؟ قال: «لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك». [مسند أحمد، وصححه شاكر، وجوده ابن كثير في التفسير، وحسنه الترمذي].

وكانت وقعة بدر الكبرى يوم الجمعة صبيحة سبع عشر من رمضان، العام التالي للهجرة. [ابن إسحاق، ابن سعد].

● الغنائم:

● وقع خلاف بين المسلمين حول الغنائم، لأن حكمها لم يكن قد شرع يومذاك. وقد حكى عبادة بن الصامت ما حدث قائلًا: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا. فالتقى الناس، فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم، يهزمون



ويقتلون، وأكبت طائفة على المعسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، فنحن نفينا عنها العدو، وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة، واشتغلنا به، فنزلت: ﴿سَتَلُونَا عَنْ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] [تفسير الطبري، بأسانيد بعضها صحيح، ابن إسحاق، حسن]، فقسمها رسول الله ﷺ على فُواق بين المسلمين أي بالتساوي، أو بسرعة قدر فواق ناقة، والفواق ما بين حلتي الناقة. وقيل أراد التفضيل في الغنيمة كأنه جعل بعضهم أفوق من بعض على قدر غنائمهم وبلائهم. [أحمد: المسند، جيد].

ومما يدل على أن الغنائم قد خست ووزعت على المشاركين فيها ما رواه البخاري عن علي أن الرسول ﷺ أعطاه مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ. وقد أسهم الرسول ﷺ لتسعة من الصحابة لم يشهدوا بدرًا لأعمال كلفوا بها في المدينة أو لأعذار مباحة، منهم عثمان بن عفان، لأنه كان يمرض زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ. وقد توفيت ودفنت يوم عودة الرسول ﷺ وأصحابه من بدر. [أحمد: المسند، بسند صحيح].

وكان تقسيم الغنائم في منطقة الصَّفراء في طريق العودة إلى المدينة [ابن إسحاق]. وأخذت الأسرى إلى المدينة. وقد أرسل زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ليزفا البشرى إلى أهل المدينة. وقد تلقوا النبأ بسرور بالغ مشوب بالحذر من أن لا يكون مؤكَّدًا، قال أسامة بن زيد: «فوالله ما صدقت حتى رأينا الأسارى». [البداية، من رواية البيهقي، بسند صحيح، الحاكم، صحيح؛ ابن أبي شيبة؛ ابن إسحاق].



ودهشت سودة عليه السلام عندما رأت سهيل بن عمرو ويدها معقودتان إلى عنقه بحبل فقالت: «أبا يزيد، أعطيتكم بأيديكم، ألا متم كراماً!!»، فقال رسول الله ﷺ: «أعلى الله وعلى رسوله؟!» - أي تؤلبين - فقالت: «يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما ملكت حين رأيت أبا يزيد مجموعة يدها إلى عنقه بالحبل أن قلت ما قلت». [الحاكم من حديث ابن إسحاق، وصححه هو والذهبي].

• الأسرى:

• استشار الرسول ﷺ الصحابة في أمر الأسرى. فأشار أبو بكر بأخذ الفدية منهم بحجة أن في ذلك قوة للمسلمين على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام. ورأى عمر قتلهم، لأنهم أئمة الكفر. ومال الرسول ﷺ لرأي أبي بكر. فنزل القرآن موافقاً لرأي عمر، وهو قوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَنْخُضَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٦٧﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨] [تفسير الطبري، بسند حسن] إلى قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩] [مسلم].

وكان أخذ الفداء حلالاً في أول الإسلام، ثم جعل فيما بعد الخيار للإمام بين القتل أو الفداء حلالاً في أول الإسلام، ثم جعل فيما بعد الخيار للإمام بين القتل أو الفداء أو المن ما عدا الأطفال والنساء، إذ لا يجوز قتلهم، ما داموا غير محاربين [المغني].

قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوا فَشُدُّوا الرِّبَاقَ فَمَا مَتَّعُوا بِدَاءِ فِدَاءٍ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

وقد تباين فداء الأسرى. فمن كان ذا مال أخذ فداؤه أربعة آلاف درهم. ومن أخذ منه أربعة آلاف درهم أبو وداعة. [الطبراني في المجمع، عبد الرزاق؛ أبو داود؛ ابن هشام،

وأسانيدهم تعتضد]. وأخذوا من العباس مائة أوقية، ومن عقيل بن أبي طالب ثمانين أوقية، دفعها عنه العباس، وأخذوا من آخرين أربعين أوقية فقط. [دلائل أبو نعيم، حسن ابن حجر في الفتح].

وأطلق الرسول ﷺ سراح عمرو بن أبي سفيان مقابل أن يطلقوا سراح سعد ابن النعمان بن أكال، الذي أسره أبو سفيان وهو يعتمر. [ابن إسحاق].

ومن لم يكن لديهم مقدرة على الفداء، وكانوا يعرفون الكتابة، جعل فداؤهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة. فقد روى أحمد عن ابن عباس، قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، فجاء غلام يومًا يبكي إلى أبيه، فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي، قال: الخبيث! يطلب بذخل [ثأر] بدر! والله لا تأتیه أبدًا». [المسند، بسند صحيح].

وكانوا يقبلون من بعض الأسارى ما عندهم إذا تعذر المفروض، فقد أرسلت زينب بنت رسول الله ﷺ قلادة لها لتفدي زوجها أبا العاص بن الربيع، الذي فرق بينهما الإسلام، فردوها لها، وأطلقوا لها أسيرها لمكانتها عند والدها محمد ﷺ [أحمد: المسند، بسند صحيح؛ ابن إسحاق بسند صحيح]، وبهذا كان ابن الربيع ممن أطلق بدون فداء، وأطلق الرسول ﷺ ممن لم يقدر على الفداء بأي شكل من الأشكال، منهم: المطلب بن حنطب المخزومي، وصيفي بن أبي رفاعه، وأبو عزة الشاعر. [ابن إسحاق].

ومما يدل على أنه كان بالإمكان إطلاق سراحهم جميعًا بدون فداء، قول الرسول ﷺ: «لو كان المطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء التثني [العنفين] لأطلقتهم له» [البخاري]. وذلك لما قام به من حماية للرسول ﷺ عندما عاد من هجرته إلى الطائف، ودوره في تمزيق صحيفة المقاطعة.



وعندما استأذن رجال من الأنصار النبي ﷺ في ترك فداء العباس، قال: «والله لا تذرون منه درهما»، [البخاري]، وذلك على الرغم من أن العباس ذكر أنه كان مسلماً، وأنه خرج مستكرهاً. [تفسير الطبري، بسند حسن].

وأخبر الرسول ﷺ عمه العباس - وهو أسير هنا - بما دفن هو وزوجته أم الفضل من المال تحت عتبة بابهم، فأقر له العباس بذلك [أحمد: المسند، بسند صحيح]. وفي طريق العودة إلى المدينة، قتل النضر بن الحارث بمنطقة الصفراء - قتله علي -، وقتل عقبة بن أبي معيط بمنطقة عرق الظبية - قتله عاصم بن ثابت [ابن إسحاق]، ويقال: قتله علي، [ابن هشام (٣٤٧/٢) بإسناد منقطع]، وروي أن الآية: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [٢٧] يَتَوَلَّى لَيَتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَا تَخْلِيلًا ﴿٢٨﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٨] قد نزلت فيه. أخرج ابن جرير عن ابن عباس [(١٩/٦)]: «كان أبي بن خلف يحضر النبي ﷺ فزجره عقبة بن أبي معيط، فنزل: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [٢٩] [الفرقان: ٢٩] قال: ﴿الظَّالِمِ﴾ عقبة، و﴿فَلَا تَخْلِيلًا﴾ [٢٨] أبي بن خلف». [انظر: ابن كثير: التفسير (١١٦/٦)، حاشية رقم (٥)].

وقال ابن كثير هنا: (وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره، فإنها عامة في كل ظالم). وذلك لعداوتها الشديدة لدعوة الرسول ﷺ، وتلك نهاية الجبروت والشجاعة الزائفة. فقد رأينا عقبة، لصيق قريش، واليهودي الأصل، يعود إلى حقيقته عندما قال للرسول ﷺ مسترحماً: «من للصنيعة يا رسول الله؟ فأجابه: النار». [الطبراني: الكبير، والأوسط، برجال الصحيح].

وروى الطبراني [كما في سبل الشامى] بسنده إلى ابن عباس، وابن زنجويه في كتاب الأموال [بسند مرسل صحيح]: أن الرسول ﷺ قتل صبراً كذلك طُعَيْمَةُ بن عَدْيٍ.



أما بقية الأسرى فقد استوصى بهم الرسول ﷺ خيرًا [الطبراني، كما في المجمع بسند حسن]، فقد حكى أبو عزيز - شقيق مصعب بن عمير - وهو بين رهط من أسريه الأنصار - أن أسريه كانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوه بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بالأسرى. حتى ما تقع في يد أحدهم خبزة إلا ناوله إياها، فيستحيي فيردها على أحدهم، فيردها عليه ما يمسه. [ابن إسحاق].

وأسلم كثير من هؤلاء الأسرى على فترات مختلفة قبل فتح مكة وبعدها، منهم: العباس، عقيل بن أبي طالب، نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، خالد بن هشام، عبد الله بن السائب، المطلب بن حنطب بن الحارث، أبو وداعة الحارث بن صبيرة، الحجاج ابن الحارث بن قيس، عبد الله بن أبي بن خلف، وهب بن عمير، سهيل بن عمرو، عبد ابن زمعة، قيس بن السائب، نسطاس مولى أمية بن خلف،... [السهيلي]. ولسهيل بن عمرو هنا قصة، فقد روى ابن أبي شيبة [في المغازي بسند مرسل صحيح] من حديث عطاء قال: كان سهيل بن عمرو رجلاً أعلم [مشقوق] من شفته السفلى، فقال عمر بن الخطاب عليه السلام لرسول الله ﷺ يوم أسر بدير: يا رسول الله! أنزع ثيبي السفليين، فيدلع لسانه [أي يخرج لسانه عند الكلام]، فلا يقوم عليك خطيبًا بموطن أبدًا، فقال: «لا أمثل فيمثل الله بي». [يلدغ: يخرج لسانه حين الكلام].

وزاد ابن إسحاق [مرسل متصل ورجاله ثقات] في روايته: «... وإن كنت نبيًا»، ثم قال ابن إسحاق: (وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال لعمر في هذا الحديث: «إنه عسى أن يقوم مقامًا لا تدمه»). وقال الشامي [في السبل]: (روى الحاكم والبيهقي... عن محمد ابن الحنفية، قال: قال عمر:... فقال رسول الله ﷺ: «دعه، فلعله أن يسرك يومًا»، وقال الراوي -سفيان بن عيينة-: فلما مات النبي ﷺ نفر منه أهل مكة، فقام سهيل



ابن عمرو عند الكعبة، فقال: «من كان محمد إلهه فإن محمدًا قد مات، والله حي لا يموت» [المستدرک؛ ابن هشام؛ الخصائص].

وروى ابن سعد - كما ذكر الشامي [في السبل] - بسنده إلى أبي عمرو بن عدي بن الحمراء الخزاعي، قال: نظرت إلى سهيل بن عمرو يوم جاء نبي ﷺ إلى مكة وقد خطبنا بخطبة أبي بكر التي خطبت بالمدينة، كأنه سمعها، فلما بلغ ذلك عمر قال: «أشهد أن محمدًا رسول الله، وأن ما جاء به حق، هذا هو المقام الذي عني رسول الله ﷺ حين قال لي: «لعله يقوم مقامًا لا تكرهه».

● مكانة غزوة بدر في التاريخ:

● كانت موقعة بدر ذات أثر كبير في إعلاء شأن الإسلام، ولذا سميت في القرآن بيوم الفرقان. وأوضحت الأحاديث فضل البدرين وعلو مقامهم في الجنة. فقد عقد البخاري بابًا في فضل من شهدها. وفيه قصة حارثة بن سراقة الذي أصابه سهم طائش يوم بدر، وهو غلام، وجاءت أمه تسأل عن مصيره يوم القيامة، فبشرها الرسول ﷺ بأن له جناتًا كثيرة وأنه في جنة الفردوس.

وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة الذي أرسل إلى قريش يخبرهم بنية الرسول ﷺ فتح مكة، فكشفه الوحي، وعفا عنه الرسول ﷺ، وقال لعمر حين طالب بقتله: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو: فقد غفرت لكم». [مسلم]. ولما قال عبد من عبيد حاطب: «يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار». قال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بدرًا والحديبية». [المصدر مسلم].

وكانت لبدر الأثر العميق في المدينة وبقية حواضر وبادي الجزيرة العربية، فقد استعلى المؤمنون في المدينة على اليهود وبقايا المشركين. فانخذل اليهود، وجأهروا بالعداوة مما كان سببًا في إجلاء بني قينقاع عن المدينة - كما سيأتي.



وأسلم من زالت الغشاوة عن عينيه، ونافق من أضله الله حفاظًا على مصالحه الخاصة، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، الذي قال حينذاك: «هذا أمر قد تَوَجَّه -أي: استقر- فلا مطمع في إزالته». [البخاري].

ومن بين من عرف بالنفاق من أحبار اليهود بالمدينة: زيد بن اللصيت - رافع ابن حريملة - رفاعه بن زيد بن التابوت - سويد بن الحارث - سعد بن حنيف - نعمان بن أوفى بن عمرو - وأخوه عثمان بن أوفى - سلسلة بن يرهام - كنانة بن صوريا. ومن بين من عرفوا بالنفاق من مشركي المدينة، إضافة إلى عبد الله بن أبي بن سلول: زوى بن الحارث - جلاس بن سويد - وأخوه الحارث بن سويد - نبتل بن الحارث - مربع بن قيظي - وأخوه أوس بن قيظي - حاطب بن أمية بن رافع - بشير بن أبيرق أبو طعمة - قُزمان.

وقد أسلم من أسلم منهم وحسن إسلامه، ومات على النفاق من مات منهم، وستأتي أخبار كثير منهم ومواقفهم من الإسلام من خلال أحداث السيرة.

● أحكام وحكم من غزوة بدر:

● لقد تضمنت أحداث غزوة بدر أحكامًا وحكمًا كثيرة، من أهمها:

- ١ - جواز النكاية بالعدو، بقتل رجالهم وأخذ أموالهم وإخافة طرقهم التي يسلكونها، لما في ذلك من إضعافهم معنويًا واقتصاديًا.
- ٢ - جواز استخدام العيون لكشف أحوال العدو وإفشال خططه.
- ٣ - تأكيد الرسول ﷺ على مبدأ الشورى لأهل الحل والعقد وعامة المسلمين، وقد وردت أدلة على حجية الشورى في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وسنة الخلفاء الراشدين.



فالأدلة من القرآن، قول الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، و﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]؛ ومن السنة استشارة الرسول ﷺ لأصحابه في الخروج أو البقاء في المدينة يوم أحد، وفي مصلحة بعض الأحزاب يوم الخندق على ثلث نهار المدينة، وغير ذلك كثير مما سنقف عليه في هذا الكتاب. وقد قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ». [الترمذي، ومعناه صحيح].

أما أدلة حجيتها من سنة الخلفاء الراشدين قول ابن الخطاب في الشورى عند اختيار الحاكم: «الإمارة شورى»، «من دعا إلى إمارة نفسه أو غيره من غير مشورة من المسلمين فلا يحل لكم إلا أن تقتلوه»، «فمن بايع أميراً عن غير مشورة المسلمين فلا بيعه له ولا الذي بايعه». [البخاري؛ عبد الرزاق، بأسانيد صحيحة].

٤- جواز المبارزة بإذن الأمير، وهذا قول عامة أهل العلم [ابن قدامة].

٥- المساواة بين الجندي وقائده في السلم والحرب سواء، وقد اتضح ذلك من قصة سواد بن غزية مع الرسول ﷺ، إذ كشف الرسول ﷺ عن بطنه ليقتاد منه سواد. وهو فعل الخلفاء من بعده: أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

٦- جواز فداء الأسارى أو المن عليهم.

٧- لا حرج من قتل الأسير قبل أن يصل إلى يد الإمام، كما فعل بلال ومن معه من الأنصار عندما قتلوا أمية بن خلف وهو في أسر عبد الرحمن بن عوف.

٨- أحلت الغنيمة لهذه الأمة، وقسمتها على المقاتلين بعد تخميسها.

٩- من قتل قتيلاً فله سلبه، على شرط: أن يكون المقتول من المقاتلة وليس ممن نهي الرسول ﷺ عن قتلهم، وهم النساء والصبيان والشيخوخة... إلخ، وأن يكون في



المقتول منقعة وغير مشخن بالجراح، أن يقتله أو يشخنه بجراح تجعله في حكم المقتول، وأن يقرر بنفسه في قتله، فأما إن رماه بسهم من صف المسلمين فقتله فلا سلب له. [ابن قدامة: المغني].

١٠ - دلت واقعة قضية الأسرى على أن الرسول ﷺ كان له أن يجتهد، والذين ذهبوا إلى هذا - وهم جمهور علماء الأصول - استدلو على ذلك بمسألة أسرى بدر. وإذا صح للرسول ﷺ أن يجتهد، صح منه بناء على ذلك أن يخطئ في الاجتهاد ويصيب. غير أن الخطأ لا يستمر، بل لا بد من أن تنزل آية من القرآن تصح له اجتهاده، فإذا لم تنزل آية فهو دليل على صحة اجتهاده ﷺ.

١١ - الأصل أن يبذل المسلمون كافة جهودهم في الإعداد للمعركة وفي مجابهة العدو، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ومع ذلك فإن الله يؤيد جنده بخوارق لتعينهم على النصر، إذا كانوا أهلاً له، كما حصل بإمداد الملائكة في بدر، وبأن غشى الله النعاس عيون المؤمنين، وأنزل عليهم المطر.

١٢ - نبه الله المؤمنين إلى حقيقة هامة وهي أن لا يجعلوا حب المال يسيطر عليهم عند النظر في قضاياهم الكبرى التي قامت على أساس النظرة الدينية وحدها، مهما كانت الحال والظروف، ولذا عالج الله تجربة رؤية الغنائم مع الحاجة والفقر واختلافهم فيها، ومسألة الأسرى، بوسائل تربوية دقيقة، كما في قوله تعالى: ﴿سَتَلُونَكُمْ عَنِ الْآلِفَالِ قُلِ الْآلِفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولُ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] و﴿مَا كُنْتُ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى﴾ [الأنفال: ٦٧]... ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧] [البوطي: السيرة].

١٣ - إن أهل بدر مغفور لهم يوم القيامة، أما أحكام الدنيا فإنها تؤخذ منهم، ويعاقبون عليها إن أتوها كما وقع لقدامة بن مظعون، عندما حد في الخمر.



١٤ - إن من سنة الرسول ﷺ بعد انتهاء المعركة أن يقيم في العرصة - مكانها - ثلاثة أيام.

١٥ - السنة في الشهداء أن يدفنوا في مضاجعهم، كما حدث لشهداء بدر وأحد، ولا يصلى عليهم كما ثبت بالنسبة لشهداء أحد، ولم يذكر أنه صلى على شهداء بدر. [انظر في هذا كله: مرويات بدر لبازير].

١٦ - لقد تجلت في بدر بطولات إيمانية كثيرة، على سبيل المثال: ما روي من أن أبا عبيدة عامر بن الجراح قتل والده الجراح يوم بدر. فقد جعل والد أبي عبيدة يتصدى لابنه أبي عبيدة يومذاك فيحيد عنه الابن، فلما أكثر قصده فقتله، فنزلت الآية: ﴿لَا تَحِدُوا قَوْمًا يُتَوَكَّلُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] [الطبراني، بسند جيد كما ذكر في الإصابة والخبير].

وروى ابن إسحاق من حديث أبي عزيز بن عمير قال: «مر بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شُدَّ يديك به فإن أمه ذاتُ متاع، لعلها تفديه منك!..».

وزاد ابن هشام على هذه الرواية فقال: «فلما قال أخوه مصعب بن عمير لأبي اليسر - وهو الذي أسره - ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي، هذه وصاتك بي! فقال له مصعب: إنه أخي دونك!..».





الفصل السادس

النشاط الجهادي والأحداث بين غزوتي بدر وأحد

• المبحث الأول: سرية قتل عصماء بنت مروان

كانت عصماء بنت مروان ممن يؤذي النبي ﷺ وتعيب الإسلام وتحرض على النبي ﷺ. وقالت في ذلك شعراً. فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك: «ألا آخذُلي من ابنة مروان؟» فسمع ذلك عمير بن عديّ الخطمي - من قوم زوجها - فجاءها في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها، وحولها نفر من ولدها منهم من ترضعه في صدرها، فجسها بيده، لأنه كان أعمى، ونحى الصبي عنها ثم قتلها، ثم صلى الصبح مع النبي ﷺ، فقال له: «أقتلت ابنة مروان؟ قال نعم، فقال له النبي ﷺ: نصرت الله ورسوله يا عمير [ابن إسحاق، بسند حسن لغيره]، فقال عمير: هل علي في ذلك شيء؟ فقال: لا ينتطح فيها عنزان». [أبو داود، صحيحه ابن حجر في بلوغ المرام، وغيره]. فكانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله ﷺ، وسماه رسول الله ﷺ «عميراً البصير». وكان ذلك في الخامس والعشرين من رمضان، على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة، بعد عودته من بدر مباشرة.

وأسلم يومئذ رجال من بني خزيمة لما رأوا من عز الإسلام، وجهر بإسلامه من كان يستخفي به. [ابن إسحاق، بسند يتقوى بغيره].

• المبحث الثاني: مؤامرة لاغتيال الرسول ﷺ

تذاكر عمير بن وهب - قتل ابنه وهب يوم بدر - وصفوان بن أمية - قتل والده وأخوه - مصابهم في بدر. فأسرَّ عمير بن وهب إلى صفوان بأن لولا دين عليه وعيال



يخشى عليهم الضيعة لركب إلى محمد حتى يقتله، فاغتنم صفوان الفرصة، فالتزم له بقضاء دينه وضم عياله إلى عياله إن هو قتل محمدًا وأصابه شر. واستكتمه الخبر.

وعندما جاء المدينة رآه عمر فتوجس منه خيفة، فاقطعه إلى الرسول ﷺ، ودار بينهما حوار، جاء فيه أن الرسول ﷺ طلب منه أن يصدقه القول في سبب مجيئه، فذكر أنه جاء ليفتدي ابنه وهبًا. وعندما أصر على الكذب، كشف له الرسول ﷺ عما دار بينه وبين صفوان، وهما بمكة، وهو بالمدينة فتعجب عمير من هذا، وكان ذلك سببًا في إسلامه. فطلب الرسول ﷺ من أصحابه أن يفقهوه في الدين ويطلقوا له أسيره.

وأذن له الرسول ﷺ في أن يعود إلى مكة ليدعو إلى الإسلام بالحماسة نفسها التي كان يدعو بها إلى الكفر. فأسلم على يديه خلق كثير. [رواه ابن إسحاق، ابن عقبة والأسود، وابن منده والطبراني، كما ذكر ابن حجر في الفتح].

• المبحث الثالث: سرية سالم بن عمير لقتل أبي عَفَك

• لقد نجم نفاق أبي عَفَك، أحد بني عمرو بن عوف، حين قتل رسول الله ﷺ الحارث بن سويد بن صامت، وقال في ذلك شعرًا. فقال رسول الله ﷺ: «من لي بهذا الخبيث؟». فخرج سالم بن عمير، فقتله. وكان ذلك في شوال على رأس عشرين شهرًا من الهجرة. [ابن إسحاق؛ ابن سعد؛ الواقدي؛ الإصابة].

• المبحث الرابع: غزوة بني قَيْنُقَاع

• أ- تاريخ الغزوة:

ذكر معظم أهل المغازي والسير أنها وقعت بعد بدر، ورجح ذلك ابن حجر [في الفتح]، مستندًا إلى رواية ابن عباس في سنن أبي داود، وحكم عليها بالحسن، وقواه



برواية عبادة بن الوليد في مغازي بن إسحاق. وقد حدد الزهري [في تاريخ الطبري] أنها كانت في شوال من السنة الثانية الهجرية، ويضيف الواقدي وابن سعد: أنها كانت يوم السبت للنصف من شوال. [وأسانيدهم تعضد].

ب - أسبابها:

تذكر كتب السيرة سببين لهذه الغزوة، الأول: أن يهود بني قينقاع أظهروا الغضب والحسد عندما انتصر المسلمون ببدر، ويظهر ذلك في موقفهم من الرسول ﷺ عندما جمعهم في سوقهم بعد بدر، وقال لهم: «يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا، فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا في قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا»، فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْرُوكُمْ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسُوءُ أَلْسِنَاهُمْ ۚ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ آلِ النَّفِثَةِ تَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأًى الْقَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَنَصِرِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝١٣﴾ [آل عمران: ١٢-١٣] [أبو داود، وحسبها ابن حجر في الفتح].

والسبب الثاني: هو أن أحدهم عقد طرف ثوب امرأة مسلمة في سوق بني قينقاع، فلما قامت انكشفت، فصاحت مستنجدة، فقام أحد المسلمين فقتل اليهودي، وتوالت عليه اليهود فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود. فغضب المسلمون، ووقع الشر بينهم وبين بني قينقاع. [ابن هشام، برواية يستأنس بها كما ذكر الألباني في دفاع].

وإذا قبلنا تحسين ابن حجر لرواية ابن إسحاق في السبب الأول، فهذا لا يعني أن سبب إجلائهم يعود إلى رفضهم الدخول في الإسلام، لأن الإسلام في هذه المرحلة كان يقبل التعايش السلمي معهم، وأن نصوص صحيفة المدينة تؤكد إعطاء اليهود حريتهم الدينية في المدينة، وإنما يعود سبب الإجماع إلى ما أظهره من روح عدائية ضد



المسلمين، انتهت إلى الإخلال بالأمن داخل المدينة، ومن ذلك قصة المرأة المسلمة معهم. [د. العمري: المجتمع المدني].

وكذلك قصة شاس بن قيس القينقاعي الذي مر على نفر من أصحاب الرسول ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم، فغاضه ما رأى من ألفتهم في الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فأمر أحد شباب اليهود ليجلس معهم ويذكرهم بحروبهم في الجاهلية، مثل يوم بعاث. [ابن إسحاق؛ الطبري: التفسير، وأسانيدهم تعتضد].

ج- الحصار والإجلاء:

إن خبر إجلاء بني قينقاع ثابت في الصحيحين، وأما تفاصيل الحصار فقد أورده ابن إسحاق والواقدي وابن سعد، وتابعهم المؤرخون في ذلك. وإسناد ابن إسحاق يتقوى مع المتابعة.

وقد ورد في تفاصيل خبر حصارهم أنهم كانوا صاغة وحلفاء عبد الله بن أبي ابن سلول، وكانوا أشجع اليهود. فلما أظهروا العداوة والبغضاء، خشي الرسول ﷺ خيانتهم، فنبذ إليهم على سواء كما أمره الله ﷻ في مثل هذه الحالات، إذ يقول الله: ﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَاْنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ٥٨﴾. وحاصرهم خمس عشرة ليلة. وعندما اشتد عليهم الحصار نزلوا على حكم الرسول ﷺ على أن لهم أموالهم، وأن لهم النساء والذرية، فأمر بهم فكتفوا، ثم كلمه فيهم حليفهم ابن سلول، وألح في ذلك قائلاً: «أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع منعوني من الأحمر والأسود وتحصدهم في غداة واحدة؟»، فقال رسول الله ﷺ: «هم لك [ابن إسحاق، من مرسل عاصم وعبادة، يعتضدان]، وأمر بهم أن يجلوا عن المدينة. وتولى أمر ذلك عبادة ابن الصامت، فلحقوا بأذرعات، وتولى قبض أموالهم محمد بن مسلمة، فقسمت بين الصحابة بعد إخراج الخمس للرسول ﷺ». [ابن سعد].



وكان عبادة بن الصامت قد تبرأ من حلفهم عندما حاربوا الرسول ﷺ، وفيه وفي ابن سلول نزل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥١﴾ فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْتَرْعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ٥٢﴾ [المائدة: ٥١-٥٢] [ابن إسحاق، مرسلًا، يعتضد].

د- أحكام وعبر:

١ - دلت هذه الحادثة على حقد وعداوة اليهود واتخاذ ما يستطيعون من وسائل للغدر بالمسلمين وإمامهم.

٢ - هذه الحادثة وما أعقبها من دفاع عبد الله بن أبي بن سلول عن اليهود بالكيفية التي علمنا، ودوره في كثير من أحداث الفتن، والتخذيّل والترويج للإشاعات المغرضة في صفوف المسلمين، دليل قاطع على نفاقه. ومع ذلك عامله الرسول ﷺ على أنه مسلم. وهذا يدل - كما أجمع العلماء - على أن المنافق إنما يعامل في الدنيا من قبل المسلمين على أنه مسلم، ويتولى الله أمر باطنه يوم القيامة. ومن الأدلة على ذلك قول عمر رضي الله عنه: «إن أناسًا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع، وإننا نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرًا أمناء وقربناه، وليس إلينا من سريرته شيء، والله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه ولم نصدق، وإن قال إن سريرته حسنة» [البخاري].

والحكمة من معاملة الناس للمنافقين بحسب الظاهر، أن تظل العدالة بين الناس في مأمن من التلاعب، إذ ربما اتخذ بعض الحكام من حجة الأدلة الوجدانية والاستنتاجية وحدها ذريعة إلى الإضرار ببعض الناس بدون وجه حق. [البوطي: السيرة].



٣- لا يجوز موالاة غير المسلمين، بل يجب البراءة منهم، إلا إذا كان المسلمون في حالة ضعف يضطرونهم إلى الموالاة، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

• المبحث الخامس: سرية قتل كعب بن الأشرف

• ينتسب كعب إلى بني نبهان، وهم عشيرة من طيء، وكان أبوه قد أصاب دماً في الجاهلية، فأتى المدينة، فحالف بني النضير، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق، فولدت له كعب بن الأشرف. [ابن إسحاق، مرسلاً صحيحاً؛ الطبري: التاريخ؛ ابن حجر: الفتح].

كان كعب شاعراً. وقد غاظه انتصار المسلمين ببدر، فسافر إلى مكة ليواسي المشركين في قتلاهم ويحرضهم على أخذ الثأر، ويهجو الرسول ﷺ. وعندما سألته أبو سفيان قائلاً: «أناشدك الله! أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأينا أهدى إلى ربك وأقرب إلى الحق؟ قال كعب: أنتم أهدى منهم سبيلاً»، فأنزل الله على رسوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقْبَلُوهُ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

وعندما عاد إلى المدينة أخذ يقرض الشعر متشبيهاً بنساء المسلمين، فأهدر الرسول ﷺ دمه. وتصدى لمهمة إنزال العقاب الرادع به: محمد بن مسلمة وأبو نائلة، أخو كعب من الرضاع! ووضع ابن مسلمة خطة محكمة لذلك. فاستأذن الرسول ﷺ أن يقول فيه ما يطمئن اليهودي، أي يبدي تبرمه بمحمد ﷺ. وعندما جاءه طلب منه أن يقرضه تمراً ليدفعه للرسول ﷺ، مبدياً تدمره منه لما يكلفهم به، فطلب كعب رهينة من النساء أو الأبناء، فاعتذر ابن مسلمة، لما يجبر عليهم ذلك من عار، واقترح عليه أن يرهن عنده بدل هذا سلاحاً، فرضي كعب. فجاءه ابن مسلمة ليلاً ومعه أبو نائلة - سَلَكَانَ



ابن سَلَامَة بن وَفْش - وَعَبَّاد بن بَشْر والحارث بن بشر وأبو عبس بن جبر، من الأوس، فنادوه، فنزل، إليهم، على الرغم من تحذير امرأته له من مغبة ذلك، ومشى معهم، فاحتالوا لقتله، متظاهرين بشم عطر شعره، فاستمكنوا منه ثم قتلوه، حتى إن أحدهم أصيب بسيف أصحابه. [البخاري].

وعندما احتجت اليهود على هذا الفعل، بين لهم الرسول ﷺ ما صدر من كعب من أفعال. وعندما فزعت يهود وبقايا المشركين مما حدث وخافوا على أنفسهم، دعاهم الرسول ﷺ إلى كتابة معاهدة بينهم، فكتب صحيفة عامة كما تذكر رواية لأبي داود. والراجح أن كتابة هذه الصحيفة جاء تأكيداً لما في المعاهدة التي كتبت قبل بدر بين المسلمين واليهود، والمشهورة بصحيفة المدينة. [د. العمري: المجتمع المدني].

وكان مقتله بعد بدر وقبل غزوة بني النضير، وحدده الواقدي بالسنة الثالثة لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهراً من الهجرة.

عظات وعبر:

١- إن في قتل ابن الأشرف دليلاً على مشروعية الاحتيال على قتل من وجب قتله لغدره وخيانه.

٢- جواز الكذب على الأعداء وخداعهم، لأن الحرب خدعة.

٣- إن في قتل الغادر الخائن تخويفاً لمن وراءه حتى لا يسلك مسلكه غيره ممن هم على شاكلته.

• المبحث السادس: غزوة ذي أمر

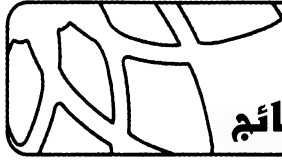
• بلغ الرسول ﷺ أن غطفان قد تجمعت في ذي أمر من نجد، فسار إليهم.



وعندما علموا بذلك فروا أمامه [ابن إسحاق]. وذكر الواقدي وابن سعد أن المجتمعين على ماء ذي أمر هم من غطفان من بني ثعلبة بن مُحَارِب، وكان عدد جيش المسلمين أربعمائة وخمسين رجلاً، وكان خروج المسلمين إليها لثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، سنة ثلاث من الهجرة. وحددها الواقدي بيوم الخميس.

وذكر الواقدي وابن سعد وقوع قصة دَعُثُور المحاربي في هذه الغزوة. وخلاصتها أن المسلمين قد أصابهم مطر في طريق عودتهم، فابتل ثوب الرسول ﷺ، فجعل وادي ذي أمر بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه فنشرها على شجرة لتجف، ثم اضطجع تحت الشجرة، والأعداء ينظرون إلى كل ذلك خلسة، فأغروا سيدهم الفاتك دعثور ليفتك بالرسول ﷺ وهو على هذه الحال. وعندما وقف بالسيف على رأس الرسول ﷺ قال: «من يمنعك مني اليوم؟»، قال رسول الله ﷺ: «الله»، ودفعه جبريل ﷺ عنه حتى وقع السيف من يده، فأخذه الرسول ﷺ ووقف على رأسه قائلاً: من يمنعك مني اليوم؟ قال: لا أحد». فأسلم وعاد وحكى لقومه ما حدث، وأخذ يدعوهم إلى الإسلام، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ ۚ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [المائدة: ١١]. [قصة دعثور المحاربي ثابتة في الصحيحين، ولكن بغير هذا السياق، وفي غير هذه الغزوة، وبغير هذا الاسم، بل اسمه: غورث ابن الحارث، وأنه لم يسلم، والمتفق عليه بين أهل السير والصحيحين هو أن الله ﷻ عصمه منه، وما في الصحيح أصح. وسيأتي ذكر القصة في غزوة ذات الرقاع من رواية البخاري ومسلم وابن إسحاق، إن شاء الله].





الفصل السابع غزوة أحد: الأحداث والننائج

• تاريخ الغزوة:

• اتفق كتاب السيرة على أنها كانت في شوال من السنة الثالثة الهجرية، واختلفوا في اليوم الذي وقعت فيه. وأشهر الأقوال إنه السبت [الواقدي؛ ابن سعيد؛ البلاذري]، للنصف من شوال [الطبري: التفسير، وروايته أصح ما في الباب؛ ابن إسحاق في السير، وابن حبان].

• أسبابها:

• لقد كان السبب المباشر لها، كما أجمع على ذلك أهل السير، هو أن قريشاً أرادت أن تنتقم لقتلها في بدر، وتستعيد مكانتها التي تزعزت بين العرب بعد هزيمتها في بدر. [ابن إسحاق في السيرة والسير، مرسلاً].

أما من بين الأسباب الأخرى الهامة التي يمكن استنتاجها من مجريات الأحداث، فهي أن قريشاً تريد أن تضع حداً لتهديد المسلمين طرق تجارتهم إلى الشام، والقضاء على المسلمين قبل أن يصبحوا قوة تهدد وجودهم.

• عدة المشركين:

• خصصت قريش أرباح قافلة أبي سفيان التي نجت من المسلمين [ابن إسحاق في السيرة والسير]، لتجهيز جيشهم لغزوة أحد [الواقدي]، وجمعت ثلاثة آلاف مقاتل من قريش ومن أطاعها من كنانة وأهل تهامة، ومعهم مئتا فرس، وسبعمئة دارع. وجعلت على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وخرجت معهم مجموعة من النساء لإثارة حماسهم وخوفهم من العار إذا فروا.



وذكر ابن إسحاق أنهم كن ثمانياً، وقال الواقدي: إنهن كن أربع عشرة، وقد سمّياهن. وقال ابن سعد: إنهن كن خمس عشرة امرأة.

وأري الرسول ﷺ في منامه ما سيحدث في أحد، وذكره لأصحابه، قائلاً: «رأيت في رؤيائي أني هزرت سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هزرتة أخرى فعاد كأحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت بقرأ - والله خير - فإذا هم المؤمنون يوم أحد». [متفق عليه]. وفي رواية أخرى: «ورأيت أني في درع حصينة فأولتها المدينة». [أحمد: المسند، بسند صحيح].

وفسر الرسول ﷺ هذه الرؤيا بأن هزيمة وقتلاً سيقعان في أصحابه. [المصدر نفسه]. عندما علم الرسول ﷺ بمجيء جيش مكة لحرب المسلمين، شاور أصحابه، بين أن يبقوا داخل المدينة أو أن يخرجوا لملاقاة العدو خارجها. فقال جماعة من الأنصار: «يا نبي الله، إنا نكره أن نقتل في طرق المدينة، وقد كنا نمتنع من الغزو في الجاهلية، فبالإسلام أحق أن نمتنع منه، فابرز إلى القوم، فانطلق رسول الله ﷺ فلبس لأمته. فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبي الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل للنبي ﷺ: «أمرنا لأمرك تبع»، فأتى حمزة فقال: «يا نبي الله، إن القوم قد تلاوموا، فقالوا: أمرنا لأمرك تبع. فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يُناجز». [البيهقي: الدلائل، بسند حسن؛ الحاكم، وصححه هو والذهبي] [الأمة: الدرع الحصينة وسائر أداة الحرب. وقد ترك الهمة للتخفيف].

إن ما ذكره ابن إسحاق وغيره من أن عبد الله بن أبي كان موافقاً لرأي رسول الله ﷺ في البقاء داخل المدينة، فقد روى الطبري في التفسير عن السدي خلاف ذلك، وهو أثر إسناده صحيح ورجاله ثقات ولكنه مرسل، وفيه من يهمل ويكثر الخطأ، ولذلك رجح الباكري [مرويات أحد] رواية ابن إسحاق لصحتها ولإجماع أهل السير على ذلك، وأن حجة ابن سلول في الرجوع عن أحد أن الرسول ﷺ لم يطعه.



ومما ذكره أهل السير أن من دوافع الراغبين في الخروج، إظهار الشجاعة أمام الأعداء والرغبة في المشاركة في الجهاد لما فاتهم من فضل الاشتراك في بدر.

أما دوافع الرسول ﷺ ومن كان على رأيه في البقاء داخل المدينة فهو الاستفادة من حصون المدينة وطاقات كل المواطنين، مما يرجح فرصة دحر المهاجمين. [ابن إسحاق، الواقدي؛ ابن سعد].

- وبعد أن حسم الرسول ﷺ أمر الخروج رفعت راية سوداء [ابن خياط، من مرسل ابن المسيب، ومراسيله قوية] وثلاثة ألوية: لواء للمهاجرين، حمله مصعب بن عمير وحمله بعد استشهاد علي بن أبي طالب، ولواء للأوس حمله أسيد بن حضير، ولواء للخزرج، حمله الحباب بن المنذر [الواقدي]. وبلغ عدد من سار تحتها ألفاً من المسلمين ومن ظاهريهم، وكان معهم فرسان ومائة دارع [ابن سعد؛ الطبري في التاريخ]. وكان الرسول ﷺ يرتدي درعين. [الحاكم، ووافقه الذهبي على تصحيحه؛ الواقدي].

وعندما تجاوز الرسول ﷺ في مسيره إلى أحد ثنية الوداع رأى كتيبة خشناء [كثيرة السلاح]، فقال: «من هؤلاء؟ قالوا: هذا عبد الله بن أبي بن سلول في ستمائة من مواليه من اليهود من أهل قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام. قال: وقد أسلموا؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: قولوا لهم فليرجعوا فإننا لا نستعين بالمشركين على المشركين» [ابن سعد، يعتضد]. وإذا صح هذا الخبر يكون جلاء قينقاع بعد أحد. وعندما وصل جيش المسلمين الشُّوط [مكان ملعب التعليم الآن]، انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمائة من المنافقين، بحجة أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعتزلاً على قرار القتال خارج المدينة، قائلاً: «أطاع الولدان ومن لا رأي له، أطاعهم وعصاني، عَلَامَ نَقْتُلُ أنفسنا؟». [البخاري؛ البيهقي: الدلائل من مرسل ابن عقبة، ابن إسحاق].



ورأت فرقة من الصحابة قتال هؤلاء المنافقين، ورأت الفرقة الأخرى عدم ذلك، فنزلت الآية الكريمة: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسُهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨] [البخاري، وأركسهم: بددهم].

واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام عند انسحابهم، وأخذ يقول لهم: «أذكركم الله أن تتخذلوا قومكم ونيبكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقتاتلون ما أسلمناكم ولكننا لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا عليه، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه»، وقد أشار القرآن إلى هذا الحوار في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ التَّنَافُتِ أَجْمَعِينَ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧]. [ابن إسحاق، مراسلاً].

وكادت بنو سلمة - من الخزرج - وبنو حارثة - من الأوس - أن تتخذل مع المنافقين لولا أن الله ثبتهم مع المؤمنين، وفيهم قال الله ﷻ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] [متفق عليه].

ورد الرسول ﷺ في معسكره بشيخان جماعة من الفتیان لصغر أسنانهم، إذ كانوا في سن الرابعة عشرة أو دون ذلك، منهم: عبدالله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسماء ابن زيد، والنعمان بن بشير، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وعرابة بن أوس، وأبو سعيد الخدري،.. بلغ عددهم أربعة عشر صبياً، وقد ذكرهم ابن سيد الناس، وقد ثبت أن ابن عمر كان منهم [متفق عليه]، وأجاز منهم رافع بن خديج لما قيل له: إنه رام، وسمرة بن جندب؛ لأنه احتج بأنه أقوى من رافع، ويصرعه [ابن هشام]. وفي تلك الليلة قام ذكوان بن عبد القيس بحراسة الجيش، ويقال: كان يحرس رسول الله ﷺ لم يفارقه [الواقدي].



وعندما تحرك الجيش في صباح السبت لملاقاة العدو مروا بحائط مِرْبَع بن قيطي، وكان أعمى البصر منافقاً، فأخذ يحثو التراب في وجوه المسلمين، ويقول: «إن كنت رسول الله فإني لا أحل لك أن تدخل حائطي، والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك - يا محمد - لضربت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه»، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر»، وقد شجّه سعد بن زيد قبل هذا النهي [ابن إسحاق، الواقدي].

وفي الطريق إلى ميدان المعركة طلب عمر من أخيه زيد أن يأخذ درعه، فقال له زيد: «إني أريد من الشهادة مثل الذي تريد»، فتركه كلاهما [الطبراني، كما في المجمع، وصححه الباكري في مرويات أحد].

وعندما وصل جيش المسلمين إلى جبل أحد جعل الرسول ﷺ ظهورهم إلى الجبل ووجههم إلى المدينة، وانتقى خمسين من الرماة تحت إمرة عبد الله بن جبير، ووضعهم فوق تل عينين المقابل جبل أحد، خشية أن يطوق المشركون المسلمين، وأصدر أوامره إليهم قائلاً: «إن رأيتمونا نخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا، حتى أرسل إليكم». [البخاري]. وبذلك سيطر المسلمون على المرتفعات، وتركوا الوادي لجيش مكة ليواجه أحداً، وظهره إلى المدينة.

وعند التحام الجيشين نادى أبو عامر - عبد عمرو بن صيفي - قومه من الأوس لينضموا معه للحرب في صفوف المشركين، الذين انضم إليهم في مكة، وحرصهم على الغزو، ولكنهم أغلظوا له في الرد قائلين له: «فَلَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِكَ عَيْنًا يَا فَاسِقَ»، ولم يملك أن قال: «لقد أصاب قومي بعدي شر». وأخذ في قتالهم بالحجارة. [ابن إسحاق؛ ابن سعد؛ الواقدي، عرف بـ«الراهب»].



وبدأ القتال بمبارزة بين علي وطلحة بن عثمان، حامل لواء المشركين، فقتل علي طلحة [الطبري: التفسير، من مرسل السدي، صحيح]. ثم التحم الجيشان واشتد القتال، واستبسل المسلمون حتى تمكنوا من دحر المشركين إلى معسكرهم، وأخذ الرسول ﷺ في زيادة رفع روحهم المعنوية بأن أخذ سيفاً وقال: «من يأخذ مني هذا؟ فَبَسَطُوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول: أنا أنا. قال: من يأخذه بحقه؟ فأحجم القوم، فقال أبو دُجَانَةَ: - سَمَاكَ بن خَرَشَةَ - وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني، قال: أنا آخذه بحقه، فأخذه بحقه. فأخذه فَفَلَقَ به هَامَ المشركين». [مسلم وغيره].

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد: أَمِتْ، أَمِتْ. [الحاكم، أبو داود، أحمد في المسند؛ الدارمي، ابن هشام، الواقدي، وإسناد أحمد وأبو داود والحاكم حسن] فقد استماتوا تحت هذا الشعار، وسجل التاريخ استماتة حمزة وبسالته في القتال. فقد تصدى في المبارزة لِسَبَاع بن عبد العزى فقتله [البخاري]، وتصدى لغيره من عتاة المشركين [الواقدي] أمثال عثمان بن أبي طلحة، أبي شيبه، أحد حملة لواء المشركين يومذاك.

وكان وَحْشِيٌّ، مولى جُبَيْر بن مُطْعِم، قد اشترط عليه مولاه أن يعتقه إن هو قتل حمزة، ثأراً لعمه طُعَيْمَةَ بن عدي، الذي قتله حمزة يوم بدر، فكمن لحمزة تحت صخرة، فلما دنا منه رماه بحرته فقتله غَدْرًا. [البخاري].

روى الواقدي أن وحشياً عندما أيقن بموت حمزة تذكر هنذاً وما لقيت على أبيها وعمها وأخيها حين مصرعهم يوم بدر، ذهب خلصة إلى جثة حمزة فأخرج كبده وجاء بها إلى هند ليدلل على قتل حمزة، فمضغتها ثم لفظتها، ونزعت ثيابها وحليها فأعطتها وحشي ووعدته بدنانير حين الرجوع إلى مكة، وأراها جثته، فقطعت مذاكيره، وجدعت أنفه وأذنيه، وجعلت منها أسورة وخلاخل.



وقاتل مُضْعَب بن عُمَيْر حتى استشهد، وأخذ الراية بعده علي [ابن خياط، من مرسل ابن المسيب]. وصدق المسلمون في اللقاء، فأوقعوا في المشركين القتل، وقتلوا أصحاب اللواء، حتى تركه المشركون وما يدنو منه أحد منهم [ابن إسحاق، بسند حسن]. وانتصروا عليهم في هذه الجولة الأولى من القتال، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢] [البخاري، والحسن: القتل].

وعندما انهزم المشركون بنسائهم - وقد بدت سوقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن - قال أصحاب ابن جبير: «الغنيمة، أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنائين الناس فلنصيب من الغنيمة»، ثم هرعوا إلى جمع الغنائم.

وكانت هذه فرصة مواتية لابن الوليد ليلتف حول المسلمين، فيراه المشركون فيعودوا إلى ميدان القتال مرة أخرى [الطبري: التفسير، من مرسل السدي، ابن إسحاق بسند حسن] محيطين بالمسلمين. وارتبك المسلمون إلى الحد الذي لم يقدر أن يميز بعضهم المسلم من الكافر. وفي هذه اللحظات قتل المسلمون السيمان - والد حذيفة - وابنه حذيفة يصرخ فيهم: «أي عباد الله، أبي، ثم قال لهم عندما قتلوه: يغفر الله لكم» [البخاري وغيره]. واستشهد من المسلمين جماعة كثيرة، وغاب الرسول ﷺ عن أعينهم، وشاع أنه قد قتل. [ابن إسحاق، حسن؛ ورواه غيره].

وفر جمع من المسلمين من الميدان. وجلس بعضهم دون قتال، وتصدى آخرون للمشركين، وحرصوا المؤمنين على القتال حتى نالوا الشهادة. ومن هؤلاء أنس ابن النَّضَر، الذي كان يتشوق لتعويض ما فاته من فضل بدر. فقال عندما رأى بعض المسلمين قُعودًا: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما



صنع هؤلاء، يعني المشركين، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع أنس». وعندما انجلت الغمة وجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة ورمية وطعنة، ولم يعرفه أحد إلا أخته الرُبَيْع، عرفته بينانه. ونزلت فيه وفي أمثاله من المجاهدين الصادقين الآية: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]. [متفق عليه].

وكان الفارزون لا يلوون على شيء على الرغم من دعوة الرسول ﷺ لهم بالثبات معه. وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنَهَا عَلَىٰ أَكْثِدٍ أَرْتَسُونَ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

وقد عفا الله عن الذين فروا. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا مِنكُم يَوْمَ التَّفَقَّى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]. [أحمد وأبو يعلى والطبري في التفسير، بسند حسن]. وذكر ابن الجوزي في التفسير أن أحد سببي فرارهم هو سماعهم إشاعة مقتل النبي ﷺ.

وكان أول من علم بأن الرسول ﷺ حي بعد الانتكاسة، هو كعب بن مالك، فنادى مبشراً بذلك، فأسكته الرسول ﷺ حتى لا ينتبه المشركون له. [الحاكم، وصححه وأقره الذهبي؛ أبو نعيم: الدلائل، حسن].

وتمكن بعض المشركين من الوصول إلى الرسول ﷺ وقد أفرد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رَهَقُوهُ قال: «من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة؟». فتقدم الواحد تلو الآخر للدفاع عنه حتى استشهد الأنصار السبعة، فقال النبي ﷺ لصاحبيه القرشيين: «مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا». [مسلم].



ومن قاتل دون الرسول ﷺ قتالاً عظيماً سجله التاريخ: طلحة بن عبيد الله، حتى شلت يده التي وقى بها النبي ﷺ [البخاري، وابن إسحاق، حسن]، وسعد بن أبي وقاص، الذي كان الرسول ﷺ يناوله السهام ويقول له: «يا سعد، إزمِ فِدَاكَ أبي وأمي» [البخاري]، ولم يجمع النبي ﷺ أبويه لأحد إلا لسعد بن مالك بن أبي وقاص كما قال علي رضي الله عنه [نفسه]، وكما قال هو عن نفسه [نفسه]، وأبو طلحة الأنصاري، أمهر الرماة، والذي كان الرسول ﷺ إذا مر به أحد بجعبته نبل يقول له: «انثرها لأبي طلحة»، وعندما يَشْرِفُ النبي ﷺ على القوم يقول له أبو طلحة: «بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك» [نفسه]، وهو الذي قال عنه الرسول ﷺ معجباً به: «لصوتُ أبي طلحة في الجيش أشد على المشركين من فئة» [أحمد: المسند، حسن]، وأبو دُجَانَةَ الذي كان يحمي الرسول ﷺ بظهره، حتى كثر النبل فيه وهو مُنْجِنٌ عليه. [ابن إسحاق].

وقد ورد أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى اندقت طرفها فأخذها قَتَادَةُ ابن النعمان، فكانت عنده.

وأصيب يومئذٍ عين قتادة حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما. [ابن إسحاق، حسن، وغيره، بأسانيد تعتضد].

وفي هذه الظروف العصيبة اضطرت أم عُمَارَةُ - نَسِيَّة بنت كعب المازنية - أن تدافع عن الرسول ﷺ، حتى جرحها ابن قَمِيَّة جرحاً أجوف له غور على عاتقها. [ابن هشام، الواقدي].

وقاوم الرسول ﷺ مقاومة شديدة، فأصيب إصابات كثيرة، فكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ وَشَجَّ في وجهه، وسال دمه، فجعل يمسحه ويقول: «كيف يُفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو



يدعوهم إلى الإسلام؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. فقال رسول الله ﷺ لما طمع في إسلامهم: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» [مسلم]. وفي روايات عند البخاري: أن الرسول ﷺ كسر رباعيته يومئذ وجرح وجهه وكسرت البيضة على رأسه.

وقال ﷺ عندما فعل به المشركون ذلك: «اشتد غضب الله على قوم فعلوا هذا بنيه، - يشير إلى رباعيته - اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله»، وفي رواية: «اشتد غضب الله على من قتله النبي في سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دَمُوا وجه نبي الله ﷺ [ابن إسحاق]. وكانت فاطمة ابنته تغسل دماءه وعلي يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير، وأحرقتها وألصقتها، فاستمسك الدم». [البخاري].

وقد ظهرت بطولات إيمانية كثيرة في هذه الغزوة، ومن ذلك:

قال رجل للنبي ﷺ: «أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: في الجنة». فألقى تمرات كن في يده ثم قاتل حتى نال الشهادة. [البخاري].

وقال عبد الله بن جحش، قبل المعركة: «إني أقسم أن نلقى العدو، فإذا لقينا العدو، أن يقتلوني ثم يبقروا بطني، ثم يمثلوا بي، فإذا لقيتك سألتني: فيم هذا؟ فأقول: فيك»، وعندما لقي العدو، وفعل بهم ما فعل، وجدوه بالحالة التي وصفها. [الحاكم، مرسل صحيح].

وشهد عمرو بن الجموح القتال مع أبنائه الأربعة، على الرغم من محاولتهم إنشاءه عن الخروج بحجة أن الله يعذره لشدة عَرَجِهِ، وطلب منهم الرسول ﷺ أن يدَعُوهُ ما دام راغباً في الشهادة، ومما قاله للرسول ﷺ: «أرأيت إن قتلت اليوم أأطأ بعرجتي هذه الجنة؟ قال نعم. قال: فوالذي بعثك بالحق لأطأَنَّ بها الجنة اليوم إن شاء الله. ثم قاتل حتى نال ما أراد من الشهادة». [أحمد: المسند، حسن].



وروى أهل المغازي والسير [الحاكم، من حديث ابن إسحاق بسند حسن، وغيره] أن رسول الله ﷺ قال عن سعد بن الربيع: «من يأتيني بخبر سعد بن الربيع؟ فأني قد رأيته - وأشار بيده إلى ناحية من الوادي - وقد شُرع فيه اثنا عشر سنًا، قال: فخرج محمد بن مسلمة - ويقال أبي بن كعب - فخرج نحو تلك الناحية، قال: وأنا وسط القتلى أتعرفهم، إذ مررت به صريعًا في الوادي، فناديته فلم يُجب، ثم قلت: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليك! فتنفس كما يتنفس الكير، ثم قال: وإن رسول الله ﷺ حي؟ قلت: نعم، وقد أخبرنا أنه شرع لك اثنا عشر سنًا. قال: طُعنْتَ اثنتي عشرة طعنة، كلها أجافني - أي وصلت إلى جوفه -؛ أبلغ قومك الأنصار السلام وقل لهم: الله، الله! وما عاهدتم عليه رسول الله ليلة العقبة! والله ما لكم عذر عند الله إن خُلصَ إلى نبيكم ومنكم عين تطرف! ولم أرم من عنده حتى مات. قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته. قال: فرأيت رسول الله ﷺ استقبل القبلة رافعًا يديه يقول: «اللهم القَّ سعد بن الربيع وأنت عنه راض!».

هذا نص رواية الواقدي، أما رواية ابن إسحاق فقد أبهم من أرسله الرسول ﷺ لينظر له ما فعل سعد، ولفظه: «.. من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد، فنظر فوجده جريحًا في القتلى وبه رمق. فقلت له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر، أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال: أنا في الأموات، أبلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلصَ إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف. قال: ثم لم أبرح حتى مات؛ قال: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته خبره».



ومع أن الله قد عذر الشيوخ الضعفاء إلا أن اليَمان وثابت بن وَقْش أبيا البقاء مع الذرية في الحصون، فلحقا بالميدان طلبًا للشهادة، وقد استشهد ثابت على يد الكفار، وقتل المسلمون اليَمان خطأً، وَوَدَاهُ الرسول ﷺ، ولكن ابنه حذيفة تصدق بدية أبيه، مما زاده عند الرسول ﷺ خيرًا. [ابن إسحاق، بإسناد حسن].

وكان حَنْظَلَةَ بن أبي عامر عَرُوسًا ليلة أحد، فعندما سمع النداء، عجل بالخروج ولم يغتسل، وقاتل حتى استُشهد. وعندما رآه الرسول ﷺ قال: «إن صاحبكم لتغسله الملائكة»، ولذا عرف بعد ذلك بـ: (غَسِيلُ الملائكة) أو (الغسيل) [الحاكم، من حديث ابن إسحاق، بسند حسن].

وقاتل مُخَرِّيق مع رسول الله ﷺ حتى قتل، وكان مثالا وقدوة حسنة لليهود الذين أسلموا. وحين خرج إلى المعركة قال: «إن أصبت فمالي لمحمد ﷺ، يصنع فيه ما يشاء» [ابن إسحاق]. فقال رسول الله ﷺ: «مُخَرِّيق خير يهود». [ابن إسحاق، ابن سعد؛ الواقدي؛ الإصابة].

وكان أَصِيرِم بن عبد الأشهل - عمرو بن أَقْيَش - كارها للإسلام حتى كان يوم أحد، أسلم ولحق بالمسلمين في أحد، فقاتل حتى نال الشهادة، وما صَلَّى لله صلاة واحدة. [ابن إسحاق، بسند حسن].

وإن كان قد فات حسان بن ثابت رضي الله عنه شرف الجهاد بالسيف في هذه الغزوة وغيرها، إلا أنه لم يفته شرف الكلمة القوية في تخليد ذكرى بطولات المسلمين في هذه الغزوة وغيرها.

لقد كان حسان من أصحاب الأعداء. فقد ذكر الكلبي [كما في تاريخ دمشق] أن الجبن لم يكن من عادة حسان، بل كان شجاعًا لِسْنًا، فأصابته علة منعه من شهود القتال. وأوضح الواقدي هذه العلة، وهي: أن أكحله [عرق في اليد] كان قد قطع، فلم يكن



يستطيع الضرب بيد. وهذا يفسر لنا الروايات التي وردت في تخلفه عن القتال، مثل رواية الطبراني [في المجمع] التي فيها أنه كان مع الذرية في حصن فارع يوم أحد، فجاء يهودي وأخذ يطل على الحصن، فطلبت صفية بنت عبد المطلب من حسان أن يقوم إليه فيقتله، فقال: «ما ذاك فيّ ولو كان لكنت مع رسول الله ﷺ»، فقتلته صفية وطلبت من حسان أن يرمي برأسه إلى اليهود أسفل الحصن، فاعتذر أيضًا، فرمته إليهم، فتفرقوا لأنهم ظنوا أن بالحصن رجالًا محاربين.

وذكر البلاذري [في الأنساب] واليعقوبي [في تاريخه] كذلك أن القصة كانت يوم أحد. والذي ذكره ابن إسحاق وغيره أنها كانت يوم الخندق.

ولم تأت قصة حسان مع صفية بطريق يحتج بها، ومما يجعلنا نقبل رواية الواقدي والكلبي - على ما بهما من علل - لأننا نعلم أن حسانًا كان يهاجي الشعراء في الجاهلية والإسلام، ولم يرمه أحد منهم بجبن، ولو كان مثل حديث الطبراني صحيحًا لكان مما يذكر في الشعر ويذم به كما ذم هو غير واحد، وهجاه بالفرار من القتال والجبن، إضافة إلى أن عدم شهود حسان القتال كان لكبر سنه كما ذكر محققا سيرة ابن هشام. وزاد ابن عبد البر [في الدرر] ما قيل في تفسير تخلف حسان عن المواقع، فقال: «... وَهَجِيْ بِذَلِكَ ابْنَهُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَإِنَّهُ كَانَ كَثِيرًا مَا يَهَاجِي الشُّعْرَاءَ الْعَرَبَ مِثْلَ النَّجَاشِيِّ وَغَيْرِهِ».

قلت: ولو كان الجبن من طبع حسان لما عاب الجبن في الرجال، كما في قوله:

وإنالقوم ما نُسودُّ غادرًا ولا نأكِلًا عند الحمالة زُمَلًا
ولا مانعًا للمال فيما يُنوبه ولا عاجزًا في الحرب جُبَسًا مغفلًا
وأصيد تهاضًا إلى السيف صارمًا إذا ما دعا داعٍ إلى الموت أرقلا

[انظر: شرح ديوان حسان، لعبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠١هـ -

١٩٨١م، ص ٤٠٣-٤٠٦. والناكل عند الحمالة: الذي ينكص على عقبيه عند تحمل الديات.



والزمل: الضعيف الجبان الرذل. والجبس: الثقيل الذي لا يجيب إلى خير. وأصيد: من معانيها اصطيد الأقران في الحرب. وأرقل: أسرع.]

ومعظم أبيات هذه القصيدة اللامية في الفخر بالشجاعة، فانظرها. بل لا تخلو قصيدة من قصائده في الفخر والهجاء من هذه المعاني، فانظر ديوانه كله.

ومن قاتل يوم أحد، وليس بنية الجهاد في سبيل الله، ولكن بنية حماية الأحساب، فكان من أهل النار: قُزَمان، الذي قتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان الرسول ﷺ إذا ذكر له يقول: «إنه لمن أهل النار»، ولما كان يوم أحد قتل نفسه عندما أئختته الجراح. وكان هذا من دلائل نبوة محمد ﷺ ودليل على أن النية في الجهاد هي الأساس. [هذا مضمون رواية الشيخين وأبو يعلى كما في المجمع وأحمد في المسند والواقدي].

لقد رافقت بعض النسوة جيش المسلمين ليسقين العطشى، ذكر منهم أم عمارة [ابن هشام والواقدي]، وَحَمَّة بنت جَحْش الأَسَدِيَّة [الطبراني كما في المجمع، وسنده حسن] وأم سُلَيْط [البخاري]، وأم سُلَيْم، وعائشة أم المؤمنين. [متفق عليه].

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ كان يغزو بأمر سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء ويداوين الجرحى.

وقد أرسل الله تعالى جبريل وميكائيل ليقاتلا دفاعاً عن الرسول ﷺ [متفق عليه].

وكان الله قد وعد المؤمنين إن هم صبروا واتقوا وأتوا الأعداء من فورهم، فسيمدهم بالملائكة، ولما لم يحصل ذلك منهم فلم يتحقق الوعد، وفي هذا يقول تعالى:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رَبُّكُمْ بِنُكْثَةِ الْفِرْعَوْنَ الْمَلِكَةِ مُنْزِلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٥]

[١٢٥] [الطبري: التفسير؛ الطبراني].



وأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى النعاس على طائفة المؤمنين الذين اغتتموا بما وقع للرسول ﷺ وإخوانهم يوم أحد فناموا يسيرًا ثم أفاقوا، وقد قذف الله في قلوبهم الطمأنينة، التي أعادت لهم بعض نشاطهم ليواصلوا الدفاع عن نبيهم. وكان أبو طلحة الأنصاري فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفه من يده مرارًا فبأخذه [البخاري]. وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْنَا مِنَ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾، أما طائفة المنافقين، سواء التي انسحبت مع ابن سلول أو فلولهم التي سارت مع المؤمنين فقد قال الله عنهم في الآية نفسها: ﴿قَدْ أَهْمَتَهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] [الطبري: التفسير؛ منها آثار صحيحة].

لقد حاول المشركون جهد طاقتهم قتل الرسول ﷺ ولكن الله عصمه منهم. فقد روي أن أبي بن خلف كان يتوعد الرسول ﷺ بمكة بأنه سيقته يومًا ما، فيقول الرسول ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله» [ابن سعد، من مرسل ابن المسيب، وغيره]، فلما كان يوم أحد لحق بالنبي ﷺ في الشعب وهو يقول: «أي محمد، لا نجوت إن نجوت، فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: دعوه. فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصَّمَّة، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة مال منها على فرسه مرارًا [ابن إسحاق]، ورجع إلى قريش وبه خدش غير كبير، فاجتقن الدم، فقال: «قتلني والله محمد!»، وطمأنه قومه بأن ليس به بأس، فقال لهم ما قال له محمد ﷺ بمكة، ثم قال: «فوالله لو بصق عليّ لقتلني». فمات عدو الله بسرف، وهم قافلون به إلى مكة [ابن إسحاق]. وهذا من علامات ودلائل نبوة محمد ﷺ.

وعندما صمد المسلمون واستماتوا دفاعًا عن النبي ﷺ فشل المشركون في محاولات الاختراق إليه، وأعيتهم المجالدة، ولم يملك أبو سفيان إلا أن يتوعد المسلمين بحرب



أخرى في العام القادم، فوافق الرسول ﷺ على ذلك [ابن إسحاق، والواقدي]. وقد ثبت أن أبا سفيان أشرف على المسلمين وقال: «أفي القوم محمد؟ فقال ﷺ: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: لا تجيبوه، قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقي الله عليك ما يحزنك، قال أبو سفيان: اعلُ هبل، فقال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل. قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم. قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال. وتجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤني» [البخاري]. وفي رواية عند أحمد وابن إسحاق قال عمر: «لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار». [ورواية أحمد في المسند حسنة].

وعندما انصرف المشركون مكتفين بما نالوه من المسلمين، بعث رسول الله ﷺ علياً بن أبي طالب، وقال له: «أخرج آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون بمكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأنجزنهم»، وفعل علي ما أمر به، فوجدهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة. [البخاري؛ ابن إسحاق؛ الواقدي].

وانجلت المعركة عن سبعين شهيداً من المسلمين [البخاري]، واثنين وعشرين قتيلاً من المشركين. [ابن إسحاق، ابن سعد؛ الواقدي].

وخرج رسول الله ﷺ يلتمس حمزة فوجده بطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده، ومثل به، فجدع أنفه وأذناه [ابن إسحاق]. وقال رسول الله ﷺ حين رأى ما به: «لولا أن تحزن صفة ويكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم»، فلما رأى المسلمون



حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لَنُمَثِّلَنَّ بهم مُثْلَةً لم يمثلها أحد من العرب. [ابن إسحاق، وسنده يعتضد].

ونزل قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦)، فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المثلثة. [أحمد؛ ابن إسحاق؛ الترمذي؛ الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي].

وعن قصة التمثيل بجثة حمزة عليه السلام، فقد روى موسى بن عقبة [في البداية] أن وحشياً بقر عن كبدة حمزة وحملها إلى هند بنت عقبة فلاكتها فلم تستطع أن تستيغها. وروى ابن إسحاق [في السيرة] أن هنداً هي التي بقرت عن كبدة حمزة، وزاد أن هنداً اتخذت من آذان الرجال وأنفهم خَدَمًا (أي خلاخل) وقلائد، وأعطت خَدَمَهَا وقلائدها وقِرطها وحشياً. [والقرط: حلي الأذن]. وروى الواقدي: أن وحشياً عندما قتل حمزة حمل كبده إلى مكة ليراها سيده جبير بن مطعم.

وذكر الشامي [في السبل] أن الواقدي والمقرئزي -في الإمتاع- روى أن وحشياً شق بطن حمزة وأخرج كبده وجاء بها إلى هند فمضغتها ثم لفظتها، ثم جاءت معه إلى حيث جثة حمزة، فقطعت من كبده وَجَدَعَتْ أَنْفَهُ وقطعت أُذُنَيْهِ، ثم جعلت مَسَكَتَيْنِ وَمِعْصِدَيْنِ وَخَدَمَتَيْنِ، حتى قَدِمَتْ بذلك مكة.

وروى ابن أبي شيبة [في المغازي، بسند متصل رجاله ثقات] وأحمد [في المسند، بسند صحيح]: «... فنظروا، فإذا حمزة قد بُقِرَ بطنه، وأخذت هند كبده، فلاكتها، فلم تستطع أن تأكلها...».

ولعل رواية الواقدي والمقرئزي التي أشار إليها الشامي تفيد الجمع بين روايتي ابن عقبة وابن إسحاق، وتوافقهما في المضمون. أما التمثيل بجثة حمزة فقد ثبت بطرق



صحيحة كما ذكرنا، مما يدل على أن قصة بقر كبد حمزة - التي ذكرها بعض أهل المغازي والسير - لها أصل، ويضاف إلى هذا رواية ابن أبي شيبة.

وسجلت لبعض النساء المسلمات مواقف إيمانية رائعة في تقبلهن مصابهن في أهليهن وفرحهن بحياة الرسول ﷺ. ومن أمثلة ذلك أن الرسول ﷺ مرَّ هو وأصحابه بامرأة من بني دينار [الواقدي؛ واسمها عنده: السميرة بنت قيس]، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نُعُوا لها قالت: «فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان. هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟ فأشير إليه حتى إذا رآته قالت: كل مصيبة بعدك جليل» - أي صغيرة. [ابن كثير: التاريخ، من حديث ابن إسحاق، بسند حسن].

وعندما أقبلت صفية - أخت حمزة - لتنظر إليه، طلب الرسول ﷺ من ابنها الزبير أن يرجعها حتى لا ترى ما بأخيها من مثلة، فقالت: «ولم؟ وقد بلغني أن قد مُثِّلَ بأخي، وذلك في الله، فما أَرْضَانَا بما كان من ذلك! لا تحسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله». وعندما أخبر الزبير النبي ﷺ بقولها، أمره بأن يخلي سبيلها، فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه واسترجعت واستغفرت له، ثم أمر به فدفن. [ابن إسحاق؛ أحمد؛ البزار؛ أبو يعلى البيهقي في الدلائل، وأسانيدهم صحيحة بمجموع طرقها].

وعندما انصرف رسول الله ﷺ راجعًا من أحد إلى المدينة. لقيته حمّة بنت جحش، فنعى لها الناس أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له، ثم نُعِيَ لها خالها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت. فقال رسول الله ﷺ: إن زوج المرأة منها ليمكن، لما رأى من صبرها عند أخيها وخالها وصياحها على زوجها. [ابن إسحاق، ابن ماجه].



وقد روى البخاري وأبو داود أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: «أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟ فإذا أشير لأحد قدمه في اللحد، وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة»، وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصل عليهم، ولم يغسلوا...، ودفن الاثنان والثلاثة في قبر واحد [الترمذي، صحيح]، وأمر الرسول ﷺ أن يدفنوا حيث صرخوا، فأعيد من أخذ ليدفن داخل المدينة، منهم عبدالله بن حرام -والد جابر- [أحمد: المسند، وإسناده ضعيف (١٥٢٥٨)].

وبعد الدفن، صف الرسول ﷺ أصحابه، وأثنى على ربه، ثم دعا الله أن يعطيهم نعيم الدنيا والآخرة، وأن يقتل الكفرة المكذبين. [الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي].
وكان يتمنى أن يمضي شهيداً مع أصحابه الذين استشهدوا يوم أحد، وقد أثنى عليهم عندما سمع علياً يقول لفاطمة: «هالك السيف فإنها قد شفتني»، فقال له: «لئن كنت أجدت الضرب بسيفك، لقد أجاد سهل بن حنيف وأبو دجانة وعاصم بن ثابت الأفلح والحارث بن الصّمة». [الحاكم، وصححه، وأقره الذهبي].

وبشر الرسول ﷺ المسلمين بما نال الشهداء من عظيم الأجر، فقد قال عندما سمع بكاء فاطمة بنت عبد الله بن عمرو والد جابر: «ولم تبكي؟ فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفِعَ [مسلم]، وفي رواية قال عن بكائها: «تبكيه أو لا تبكيه، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه». [متفق عليه].

ونزل في شهداء أحد قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] [الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي]. فقد روى مسلم أن الصحابة رضِيَ عَنْهُمْ سألوا ابن مسعود عن هذه الآية، فقال: «أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرَ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ



شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل...»، ولذا قال العلماء إن حياة الشهداء حياة محقة حسبما جاء في هذا الحديث [فتح القدير للشوكاني، في ضوء حديث للترمذي].

وعندما عاد الرسول ﷺ من أحد سمع بكاء نساء الأنصار - من بني عبد الأشهل وظفر - على من استشهد من أزواجهن، فقال: «ولكن حمزة لا بواكي له»، وعندما استيقظ من نومه سمع بكاءهن ونذبهن بحمزة [أحمد: المسند، بسند صحيح؛ وغيره]، ونهى يومئذ عن النوح. [ابن هشام؛ ابن سعد].

لقد نزلت حول موضوع هذه المعركة ثمان وخمسون آية من سورة آل عمران، تبتدئ بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]، وتترك في نهايتها تعليقاً جامعاً على نتائج المعركة وحكمتها: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَإِنْ تَوَلَّوْا فَتَقَافُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ب- أحكام وحكم وعظات وعبر من غزوة أحد:

عقد ابن القيم [في الزاد] فصلاً فيما اشتملت عليه هذه الغزوة من الأحكام الفقهية، نقلها هنا باختصار لتعميم الفائدة: [ما بين المعكوفتين من كلامي]:

١ - إن الجهاد يلزم بالشروع فيه، حتى إن استعد له وتأهب للخروج، ليس له أن يرجع عن ذلك حتى يقاتل عدوه.

٢ - إنه لا يجب على المسلمين إذا طرقتهم عدوهم في ديارهم الخروج إليه، بل يجوز لهم أن يلزموا ديارهم، ويقاثلوهم فيها إذا كان ذلك أنصر لهم على عدوهم، كما أشار به رسول الله ﷺ عليهم يوم أحد.

٣ - جواز سلوك الإمام بالعسكر في بعض أملاك رعيته إذا صادف ذلك طريقه، وإن لم يرض المالك، كما كان حال مربع بن قيظي مع الرسول ﷺ وجيشه.



٤ - إنه لا يأذن لمن لا يطيق القتال من الصبيان غير البالغين، بل يردهم إذا خرجوا، كما رد رسول الله ﷺ ابن عمر ومن معه.

٥ - جواز الغزو بالنساء والاستعانة بهن فيما دون القتال مثل السقي والتطبيب، [إذا أُمنِتِ الفتنة].

قلت: أخرج ابن أبي شيبة [في المصنف، بسند ضعيف كما حققه د. خالد الدريس]، بسنده إلى سعيد بن عمرو القرشي، أن أم كبشة، امرأة من بني عذرة - عذرة قضاة - قالت: يا رسول الله! إني لست أريد أن أقاتل، إنما أريد أن أدوي الجريح والمريض أو أسقي المريض، فقال: «لولا أن تكون سنة، ويقال فلانة خرجت، لأذنت لك، ولكن اجلسي».

ذكرت هذا الحديث لأن بعض طلاب العلم يحتج به على أن الرسول ﷺ نهى في آخر حياته عن خروج النساء في الغزو. وقد علمت درجته، ولكن إذا ترجح احتمال وقوع نساء المسلمين في أسر الكفار وتعرضهن للاغتصاب، فالذي أميل إليه الاحتجاج بحديث أم كبشة على الرغم من ضعفه، لأن الاحتجاج بالضعيف في فضائل الأعمال قال به بعض العلماء، وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل، خاصة أن حديث أم كبشة كان بعد الفتح وحنين، وهما آخر غزوتين خرجن فيهما بعض النساء كما علمت من أحداثهما وأحداث ما بعدهما من غزوات.

٦ - جواز الانغماس في العدو، كما انغمس أنس بن النضر وغيره. [ولابن تيمية كتاب في هذا].

٧ - إن الإمام إذا أصابته جراحة صلى بأصحابه قاعدًا، وصلوا وراءه قعودًا كما فعل رسول الله ﷺ واستمرت على ذلك سنته إلى حين وفاته [المغني والمحلى ونيل الأوطار].

٨ - جواز دعاء الرجل وتمنيه أن يقتل في سبيل الله، وليس ذلك من تمنى الموت المنهي عنه، كما فعل عبد الله بن جحش.



٩- إن المسلم، إذا قتل نفسه، فهو من أهل النار، كما في حال قزمان.

١٠- السنة في الشهيد أن لا يغسل ولا يكفن في غير ثيابه، بل يدفن فيها بدمه، إلا أن يسلبها العدو، فيكفن في غيرها. والحكمة في ذلك كما روى الترمذي: «حتى يلقوا ربهم بَكُلِّهِمْ - جُروحهم -، ریح دمهم ریح المسك، واستغنوا بإكرام الله لهم». وكما روى ابن إسحاق [بسنَد حسن] أن الرسول ﷺ قال عن شهداء أحد: «أنا شهيد على هؤلاء، ما من جريح يُجرح في الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة يَدْمَى جرحه، اللون لون دم والريح ریح مسك...».

١١- أما الصلاة على الشهيد فقد اختلف فيها العلماء، وقد رجح ابن القيم أن الإمام مخير بين الصلاة عليه وتركها لمجيء الآثار بكل واحد من الأمرين. وقد خَرَجَ محققا الزاد تلك الآثار وبيَّنَا درجتها من الصحة، ثم قالوا: «ففي هذه الأحاديث مشروعية الصلاة على الشهداء، لا على سبيل الإيجاب، لأن كثيرا من الصحابة استشهد في غزوة بدر وغيرها، ولم ينقل أن النبي ﷺ صلى عليهم، ولو فعل لنقل عنه، وقد جنح المؤلف رحمه الله في [تهذيب السنن: (٤/ ٣٢٩٥)] إلى هذا.

١٢- السنة في الشهداء أن يدفنوا في مصارعهم.

١٣- إن من عذره الله في التخلف عن الجهاد، لمرض أو عرج [شديد أو شيخوخة]، يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجموح وهو أعرج، [والبيان والد حُدَيْفَة، وثابت بن وَقَش، وهما شيخان كبيران].

١٤- إن المسلمين إذا قتلوا واحداً منهم في الجهاد يظنونونه كافراً، فعلى الإمام دفع ديته من بيت المال، كما في واقعة قتل البيان.

وذكر ابن القيم بعض الحكم والغايات المحموده التي كانت في غزوة أحد.



وقد أشار الله ﷻ إلى أمهاتها وأصولها في سورة آل عمران، حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام نحو ستين آية من هذه السورة.

نذكر هنا باختصار ما ذكره ابن القيم:

١- تعريف المؤمنين بسوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم هو لذلك السبب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۖ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول ﷺ وتنازعهم وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذرًا ويقظة، وتحرزًا من أسباب الخذلان.

٢- إن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يُدَالوا مرة ويُدَال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين، لتمييز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاؤوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة، خاصة وإن هذا من أعلام الرسل، كما قال هرقل لأبي سفيان: «هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: سِجَالٌ، يدال علينا المرة، وندال عليه الأخرى، قال: كذلك الرسل تُبْتَلَى، ثم تكون لهم العاقبة» [متفق عليه].

٣- ميزت محنة أحد بين المؤمن والمنافق الذي دخل الإسلام ظاهراً بعد انتصار المسلمين ببدر، وفي ذلك قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].



٤- استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون، فهم عبيده حقاً، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.

٥- لا يصلح عباده إلا السراء والضراء، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته، فهو (سبحانه) إذا أراد أن يعز عبده ويجره وينصره، كسره أولاً، ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره.

وهذا ما وقع للمسلمين بيد: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وبحنين: ﴿كَثِيرٌ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥].

٦- إنه سبحانه هياً لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيا إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

٧- إن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً وركوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والآخرة، فإذا أراد الله بها الرحمة والكرامة قيض لها من الابتلاء ما فيه دواء وشفاء لذلك المرض.

٨- إن الشهادة عند الله من أعلى مراتب أوليائه، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو وغيره.

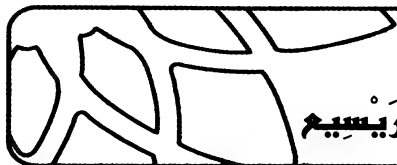
٩- إن في الابتلاء من الله تمحيص وتكفير لذنوب عباده وفرصة لهم لنيل الشهادة، قال تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ

الَّذِينَ آمَنُوا وَيُمَحِّقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤١].



- ١٠ - إن الأنبياء ﷺ إذا أصيبوا ببعض العوارض الدنيوية من الجراحات والآلام والأسقام - تعظيماً لأجرهم - تأسى بهم أتباعهم في الصبر على المكاره والعاقبة للمتقين، وهذه سنة الله فيهم. [الباكري].
- ١١ - إن اشتراك الرسول ﷺ في القتال مثله كأى فرد من أفراد جيشه دليل على حرصه ﷺ على عدم تميزه عن جنده ومساواة نفسه بهم. وفيه دليل على شجاعته وصبره وتحمله الأذى في سبيل دعوته.





الفصل الثامن

الغزوات والسرايا والأحداث بين أحد والمريسيه

• المبحث الأول: غزوة حمراء الأسد

• أ- معالم غزوة حمراء الأسد

فكر المشركون في الكرة مرة أخرى على المسلمين ليقضوا عليهم قضاء مبرماً، وعندما علم الرسول ﷺ بنيتهم ندب الناس إلى المسير إلى لقائهم، وقال: «لا يخرج معنا إلا من شهد القتال» فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرع الشديد والخوف، وقالوا سمعاً وطاعة، وأذن لجابر بن عبد الله بالمسير معه لأنه لم يشهد أحداً، إذ كان أبوه قد خلفه على بناته، وساروا حتى بلغوا حمراء الأسد.

وعندما أقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ، أمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذه، فلحقه بالروحاء، ولم يعلم بإسلامه، فخذله وأخبره بخروج المسلمين إلى حمراء الأسد ونصحهم بالعودة إلى مكة. [ابن إسحاق].

وقال الله تعالى في هذه الغزوة: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢] [متفق عليه وفي البخاري أن الزبير وأبا بكر كانا من هؤلاء].

روى ابن إسحاق أنهم في طريق عودتهم من حمراء الأسد أسروا معاوية بن المغيرة، جد عبد الملك بن مروان لأمه، وأبا عزة الجمحي الذي من الرسول ﷺ عليه بغير فداء من بين أسرى بدر، فقال: «يا رسول الله! أقلني»، فقال رسول الله ﷺ: «والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمدًا مرتين». وضرب الزبير عنقه بأمر الرسول ﷺ.



وروي أن الرسول ﷺ قال لأبي عزة: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُلْدَغُ مِنْ جَحْرٍ مَرَّتَيْنِ»، وأمر عاصم بن ثابت فضرب عنقه. [أصله في الصحيحين؛ ابن هشام، بلاغاً عن ابن المسيب].

لقد كانت هذه الغزوة في الثامن من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة وقيل غير ذلك [الواقدي، وابن سعد]، إذ قال ابن إسحاق: (إنها في يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال).

ب - عبر في هذه الغزوة:

١- إن خروج الرسول ﷺ إلى حمراء الأسد، يُعدُّ مظهرًا من مظاهر الكمال المحمدي من: شجاعة وتحمل وصبر وعدم الاستسلام لأي مظهر من مظاهر الهزيمة، وحسن سياسة، وبيانا لفضل أصحاب محمد ﷺ وما كانوا عليه من طاعة وصبر وتحمل واستجابة لله والرسول. وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ إِذَا دُعُوا إِلَيْهِمْ قَالُوا لَا مَنَاعَ لَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا حَتَّىٰ هَلَكَ جَمْعُهُمْ فَقَالُوا لَا مَنَاعَ لَنَا وَلَا لِمَنْ أَتَانَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ أُولَٰئِكَ سَيُعَذِّبُ اللَّهُ النَّاسَ فِي عَذَابٍ عَظِيمٍ ۝١٧٢﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٤]. [تفسير الطبري، وفيه طرق صحيحة].

المبحث الثاني: سرية الرجيع

• روى البخاري أن الرسول ﷺ بعث بسرية عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عُسْفَانَ ذَكَرُوا لِحِيٍّ مِنْ هَذِيلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لِحْيَانَ، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصوا آثارهم، حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فَرْفَدٍ - مرتفع من الأرض - وجاء القوم فأحاطوا بهم،



فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم اخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل. وبقي خُبَيْبٌ وزيدٌ ورجل آخر. فأعطوهم العهد والميثاق، فنزلوا إليهم. فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها. فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخُبَيْبٍ وزيد حتى باعوهما بمكة.

فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله، استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها، فأعارته، وقالت: «فغفلت عن صبي لي، فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني، وفي يده الموصى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى. وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقاً رزقه الله» [ابن إسحاق].

فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: «دعوني أصل ركعتين»، ثم انصرف إليهم فقال: «لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت». فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو، ثم قال: «اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تُبق منهم أحداً، ثم قال:

ما إن أبالي حين أُقتل مسلماً على أي شق كان في الله مصرعي

[وفي رواية: فلست أبالي...].

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يُبارك على أوصال شلوي مُمزع



[البخاري، الفتح (٢٥٩-٢٦٥، ح ٤٠٨٦)، وقال ابن حجر في شرحه لحديث الباب (٢٦٥/١٥)]: وعند أبي الأسود عن عروة زيادة في هذا الشعر، ثم ذكر البيتين الآتين:

لقد أجمع الأحزاب حولي وألبوا قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
إلى الله أشكو غُرْبَتِي بعد كُرْبَتِي وما أَرَصَدَ الأحزابُ لي عند مَضْرَعِي
وروى أبو الأسود من حديث عروة: «وقال خبيب حين رفعوه إلى الخشبة:

لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم وقُرْبْتُ من جذعٍ طويل مُنْتَعٍ
إلى الله أشكو غُرْبَتِي ثم كُرْبَتِي وما أَرَصَدَ الأحزابُ لي عند مَضْرَعِي
فذا العرش صَبْرَنِي على ما يُرَادُ بي فقد بَضَعُوا الحِمِي وقد يَاسَ مَطْمَعِي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصالِ شِلْوِ مُنْزَعٍ
لَعْمَرِي ما أَحْفَل إذا مِتُّ مسلماً على أي حال كان الله مَضْجَعِي

وقال ابن حجر: إن ابن إسحاق ساقها ثلاثة عشر بيتاً، والذي وقفنا عليه لابن إسحاق في سيرة ابن هشام عشرة أبيات، والأبيات الزيادة على ما ذكرناه هنا عن عروة، وهي:

وكلُّهُم مَبْدِي العداوةَ جَاهِدُ عليّ لأني في وِثَاقٍ مُضَيِّعٍ
وقد خَيَّرُونِي الكُفْرَ والموتُ دونه وقد هَمَلْتُ عَيْنَايَ من غيرِ مُجْزَعٍ
وما بي حِذَارُ الموتِ إِنِّي لَمَيْتُ ولكن حِذَارِي جَحْمُ نَارٍ مُلْفَعٍ
فوالله ما أَرَجُو إذا مِتُّ مسلماً على أي جنب كان في الله مَضْرَعِي
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ للعدو تَحْشَعَا ولا جَزَعَا إِنِّي إلى الله مَرْجَعِي

[انظر: مغازي عروة، ص ١٧٧، وقال ابن هشام (٢٥٠/٣)]: وبعض أهل العلم بالشعر

ينكرها له، أي لخبيب.



ثم قام إليه عقبة بن الحارث [وفي رواية ثانية عند البخاري أن الذي قتله هو أبو سُرْوَعَة (الفتح ١٥/٢٦٦) وفي رواية ثالثة أنه أبو سروعة عقبة بن الحارث، الفتح (١٥/١٧٧) وقال ابن حجر: إن أبا سروعة هو أخو عقبة، وليس أبو سروعة وعقبة اسمًا واحدًا. وفي رواية لابن إسحاق بإسناد حسن صحيح أن عقبة بن الحارث لم يقتل خبيبًا لأنه كان صغيرًا، وأن الذي قتله هو أبو ميسرة العبدري، أخذ الحربة فجعلها في يده، ثم أخذ بيده وبالحربة ثم طعن بها خبيبًا حتى قتله]. وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قد قتل عظيمًا [هو عقبة بن أبي معيط، الذي أسر بيدر وقتله عاصم صبرًا بأمر الرسول ﷺ كما مر بنا]. من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدُّبُر فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء. [عند ابن إسحاق أن هذيلًا أرادت أخذ رأسه لبيعوه من شُلَاقَة بنت سعد بن شُهَيْد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد: لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قَعْفِهِ الخمر...].

وقال حسان بن ثابت شعرًا رائعًا في رثاء خبيب ورفقائه الكرام، [انظره عند ابن إسحاق: ابن هشام (٣/٢٥٠ - ٢٦٠)، وعروة: المغازي، ص ١٧٧، قال الأعظمي: (رواه الطبراني وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف)] ومثاله قوله:

مَا بَالُ عَيْنَيْكَ لَا تَرْقَا مَدَامِعُهَا سَحَا عَلَى الصَّدْرِ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ الْقَلْبِ
عَلَى خُبَيْبٍ فَتَى الْفَتِيَانِ قَدْ عَلِمُوا لَا فَشِلَ حِينَ تَلَقَّاهُ وَلَا نَزِقَ
[لا ترقى مدامعها، أي: لا تنقطع. والسَّحُّ: الصَّبُّ. والقلق: المتحرك الساقط. الفشل: الجبان، والنزق: السَّيِّءُ الْخُلُقِ].
وقوله:

يَا عَيْنُ جُودِيْ بَدَمْعٍ مِنْكَ مُنْسَكِبٍ وَابْكِي خَبِيْبًا مَعَ الْفَتِيَانِ لَمْ يَوْبِ
صَقْرًا تَوْسَطَ فِي الْأَنْصَارِ مَنْصَبِهِ سَمَحَ السَّجِيَّةَ مُحْضًا غَيْرَ مُؤْتَسِبِ
قَدْ هَاجَ عَيْنِي عَلَى عِلَّاتِ عَزَبَتِهَا إِذَا قِيلَ: نُصَّ إِلَى جِذْعٍ مِنَ الْخَشَبِ

[السَّجِيَّة: الطيبة، والمحض: الخالص النسب، والمؤتسب: المُخْتَلَط. العِلَّات: المشقات، والعَبْرَةُ: الدمعة، ونص: رفع].

وهجا كذلك هذيلًا وبني لحيان - بطن من هذيل.

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صَفْوَان بن أمية ليقته بأبيه، أمية بن خَلَف. وعندما أخرجوه من الحرم إلى التنعيم ليقته، اجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان، فقال أبو سفيان حين قدم ليقته: «أَتَشُدُّكَ اللَّهُ يَا زَيْد، أَتَحِبُّ أَنْ مُحَمَّدًا عِنْدَنَا الْآنَ فِي مَكَانِكَ نَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَأَنْتَ فِي أَهْلِكَ؟» قال: «والله ما أَحِبُّ أَنْ مُحَمَّدًا الْآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ وَإِنِّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي»، فقال أبو سفيان: «ما رأيت من الناس أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا». ثم قتله نِسْطَاسُ مَوْلَى صَفْوَان. [ابن إسحاق؛ ابن سعد، من طريق ابن إسحاق مرسلًا].

لما قُتِلَ أَصْحَابُ الرَّجِيعِ، قَالَ نَاسٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: «يَا وَيْحَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ هَلَكُوا هَكَذَا، لَا هُمْ أَقَامُوا فِي أَهْلِهِمْ وَلَا هُمْ أَدَّوْا رِسَالَةَ صَاحِبِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ آيَةً: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] وما بعدها، وأنزل في أصحاب السرية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْهَقَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] [ابن إسحاق، منقطعًا، ووصله ابن كثير في البداية بسند ضعيف].

بعث الرسول ﷺ عمرو بن أمية الضمري وحده إلى قريش، قال: «فجئت إلى خشبة خبيب وأنا أتخوف العيون، فرقيت فيها، فحللت خبيبا، فوقع إلى الأرض، فانتبذت غير بعيد، ثم التفت فلم أر خبيبا، ولكنها ابتلعت الأرض، فلم ير لخبيب أثر حتى الساعة». [أحمد في المسند وابن أبي شيبة].

كانت هذه السرية في صفر على رأس ستة وثلاثين شهرا من الهجرة [الواقدي؛ ابن سعد].



• المبحث الثالث: سرية بئر معونة

• وفي الشهر ذاته الذي أرسل فيه الرسول ﷺ سرية الرجيع، أرسل الرسول ﷺ سرية بئر معونة [ابن إسحاق؛ ابن سعد؛ الواقدي].

فقد ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ أرسل إلى نجد سبعين من خيار الصحابة ~~ههنا~~ عُرِفُوا بالقراء، كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل [البخاري]، وينفقون ثمن حطبهم على أهل الصُّفَّة [مسلم].

وذكر مسلم: أن سبب إرسالهم هو أن أناسًا جاءوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يبعث معهم رجالًا يعلمونهم القرآن والسنة.

وذكر البخاري سببًا آخر لا يختلف عن هذا في جوهره، وهو: أن بطونًا من بني سُليم، هم: رِعلٌ وذُكوانٌ وعُصَيَّةٌ وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو، فأمدهم بأولئك السبعين، وقد وافق البخاري ابن سعد في هذا السبب.

وذكر بعض أئمة المغازي [ابن هشام؛ ابن سعد؛ الواقدي]: أن أبا براء عامر بن مالك، المدعو «مُلاعِبُ الأَسِنَّة» قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد، وقال: «يا رسول الله لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك، لرجوت أن يجيبوهم، فقال: إني أخاف عليهم أهل نجد، فقال أبو براء: أنا جارٌ لهم».

ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأن يكون كلا من الأمرين قد وقعا، أي إرسال الرسول ﷺ هؤلاء السبعين بناء على طلب أبي براء وبني سليم.

عندما نزلوا ببئر معونة بين أرض عامر وحرّة بني سُليم، بعثوا حرام بن ملحان - أخوا سليم - بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر



رجلاً - إيهاء - قطعن حراماً بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم، قال حرام: «الله أكبر، فُزْتُ وَرَبَّ الكعبة» [هنا يتفق أهل المغازي مع رواية الصحيحين].

وعندما خرج الدم من حرام ~~فمنه~~ نَصَحَهُ على وجهه ورأسه [البخاري]، وكأنه يريد أن يلقي ربه وكل جسمه ملطخ بدم الشهادة، فيزيده الله من الأجر.

ثم استنفر ابن الطفيل بني عامر إلى قتال المسلمين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سُليم فأجابته عَصِيَّة ورِعْل وذَكْوَان، وخاضوا مع المسلمين معركة ضارية، قتل فيها المسلمون جميعاً، إلا كعب بن زيد بن النجار، الذي ترك وبه رَمَق، فعاش حتى استشهد في غزوة الخندق، وعمرو بن أمية، الذي كان قد تأخر عنهم هو والمُنْذِر عُقْبَةُ ابن عامر، وعندما وجدا أصحابهما قد صرعوا قاتلا المشركين، فقتلوا المنذر وأسروا عمراً، ثم أعتقه عامر عن رقبة كانت على أمه.

وعاد عمرو بن أمية بالخبر الأليم إلى الرسول ﷺ بالمدينة، وفي الطريق فتك برجلين من بني كِلَاب، هو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا معها عهد من رسول الله ﷺ، لم يعلم به، ولذا التزم الرسول ﷺ بأداء ديتهما، فأخذ في تحصيل الدية من المسلمين وأهل الصحيفة من اليهود.

وعندما ذهب إلى اليهود للإعانة في دية الكلابيين حاولوا قتله، مما كان من أسباب غزوة بني النضير - كما سنرى.

وقد تألم الرسول ﷺ لهاتين الفاجعتين - معونة والرجيع - فأخذ يدعو في صلاة الصبح ثلاثين صباحاً على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة والرجيع: رعل وذكوان ولحيان وعصية. [خلاصة البخاري ومسلم].



وظهرت لعامر بن فهيرة كرامة في هذه الموقعة. فقد روى البخاري أنه لما قتل الذين بيئر معونة وأسر عمرو والضمري، قال له ابن الطفيل: من هذا؟ فأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة، فقال: «لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثم وضع». وكان الذي قتله جبار بن سلمى الكلابي، وقد أسلم نتيجة ما رأى من حال عامر بن فهيرة رضي الله عنه [الواقدي؛ ابن سعد]. ولم نقف على كيفية نجاة كعب بن زيد رضي الله عنه. تقول المصادر إنه ارتث من بين القتلى. وارث: أي حمل رثيثاً - أي جريحاً - وبه رمق.

حكم وأحكام وعبر ودروس من سريتي الرجيع ومعونة

١ - تدل هاتان الحادثتان على اشتراك المسلمين كلهم في مسؤولية الدعوة إلى الإسلام وتبصير الناس بحقيقته وأحكامه. فليس أمر الدعوة موكولاً إلى الأنبياء والرسل وحدهم أو خلفائهم والعلماء دون غيرهم.

وعلى الرغم من استشعار الرسول ﷺ الخوف على القراء نتيجة لما وقل لأهل الرجيع، إلا أنه لم يتوقف عن إرسال بعث القراء، ومن بعده أرسل بعوثاً أخرى حتى تاريخ وفاته، لأنه كان يرى أن القيام بأعباء تبليغ الدعوة أهم من كل شيء، ليكون ما يريد الله في سبيل القيام بأمره وتبليغ دعوته.

٢ - إن معجزة التربية الإسلامية تتجلى في موقف خبيب بن عدي عندما لم يمس طفل آل الحارث بسوء، على الرغم من موادة فرصة الانتقام لنفسه من المشركين الذين حبسوه ليقتلوه، وتتجلى نذالة الكافرين في الغدر بأصحاب الرجيع وأصحاب بيئر معونة، ولم يشفع لخبيب عندهم موقفه النبيل من طفل آل الحارث. والغدر والخيانة وصف لازم في الغالب لأهل الكفر والشرك.



٣- إن للأسير في يد العدو أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكن نفسه ولو قتل، ترفعاً عن أن يجري عليه حكم الكافر، كما فعل عاصم رضي الله عنه، فإن أراد الترخص فله أن يستأمن، مترقباً الفرصة للخلاص، كما فعل زيد وخبيب رضي الله عنهما.

٤- إن ما ظهر من أمر خارق للعادة لخبيب عندما كان أسيراً، دل على أن كل ما أمكن أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي.

٥- مشروعية الصلاة عند القتل، وأن خبيباً هو الذي سنّها، وأقر ذلك الرسول ﷺ.

٦- تتجلى قوة إيمان ابن الدثنة في حبه لرسول الله ﷺ ورضائه بالموت ولا يصاب رسول الله ﷺ بشوكة تؤذيّه، وهو آمن في أهله، وكذا كان حب أصحاب رسول الله ﷺ له، وذلك واجبه وواجب كل مؤمن ومؤمنة، وإن ذلك من دلائل إيمان العبد.

٧- إن أصحاب رسول الله ﷺ هم أحب الخلق إلى الله ﷻ ورسوله، ممن يضعهم الله تعالى في محك الامتحان.

٨- مشروعية القنوت في الصلاة للدعاء على الظلمة، ولرفع البلاء النازل على المؤمنين.

[ملخصاً عن: فقه السيرة للبوطي؛ هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب، فقه السيرة للغزالي].

• المبحث الرابع: غزوة بني النضير

• أولاً: تاريخ غزوة بني النضير:

روى عبد الرزاق من حديث الزهري، والحاكم، من حديث عروة، إنها كانت بعد غزوة بدر الكبرى. وذكر البخاري في رواية معلقة من الترجمة عن عروة بأنها كانت على رأس ستة أشهر من بدر، قبل وقعة أحد. وذكر ابن حجر [في الفتح]، أن عبد الرزاق قد وصلها في مصنفه عن معمر عن الزهري بآتم مما عند البخاري، وقد رواه البيهقي من هذا الطريق. وروى البيهقي [في الدلائل]، رواية عن الزهري عن عقيل بمثل رواية البخاري وعبد الرزاق.



ثانياً: سبب الغزوة:

تشير المصادر إلى ثلاثة أسباب لهذه الغزوة:

الأول: أرادت بنو النضير قتل الرسول ﷺ بعد بدر الكبرى عندما حرصتهم قريش على ذلك.

الثاني: محاولتهم قتل الرسول ﷺ عندما جاءهم ليستعين بهم في دية الكلابيين اللذين قتلها الضمري.

الثالث: حضهم قريش على قتال الرسول ﷺ، ودلوهم على العورة.

تقول المصادر عن السبب الأول، إن قريشاً أرسلت إلى اليهود وهددتهم بالحرب إن لم يقاتلوا الرسول ﷺ، فاستجاب بنو النضير لذلك، ووضعوا خطة يقتلون بها الرسول ﷺ غدراً. فقد طلبوا منه أن يخرج إليهم في ثلاثين رجلاً من أصحابه ليلتقي بثلاثين من أحبارهم في موضع وسط ليحدثهم، فإن صدقوه آمنت يهود. فلما جاءوا قريباً من المكان، اقترحوا على النبي ﷺ أن يجتمع ومعه ثلاثة من أصحابه وثلاثة من أحبارهم، وقد حمل هؤلاء اليهود الثلاثة خناجرهم، ولكن امرأة منهم أفشت سرهم لأخ لها مسلم، فأخبر النبي ﷺ، فرجع عنهم، ثم استعد وحاصرهم بجنوده حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح. [عبد الرزاق، بإسناد صحيح].

أما السبب الثاني فتقول عنه المصادر إن النبي ﷺ عندما ذهب إليهم في دية الكلابيين، لما كان بينه وبينهم من الحلف، جلس إلى جدار لهم في انتظارهم ليأتوا بما وعدوا به من المساهمة في الدية، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فانفقوا على أن يعلو عمرو بن جحاش ذلك الجدار، فيلقي صخرة على الرسول ﷺ فيقتله. فأخبر الله رسوله بما أرادوا، فخرج راجعاً إلى المدينة. وعندما



تأخر عن أصحابه الذين كانوا معه، سألوا عنه، فعلموا رجوعه إلى المدينة، فأتوه فأخبرهم الخبر، ثم أمر بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم، ومحاصرتهم، فنزلوا على الصلح بعد حصار دام ست ليال، على أن لهم ما حملت الإبل. [ابن إسحاق، مرسلاً، يتقوى بغيره]. أما السبب الثالث فقد انفرد به موسى بن عقبة [ابن حجر: الفتح]، حيث قال: (كانت [بنو] النضير قد دسوا إلى قريش وحضوهم على قتال رسول الله ﷺ ودلوهم على العورة). وقال إن ذلك كان عندما نزلوا بأحد لقتال رسول الله ﷺ. [البيهقي: الدلائل، من حديث ابن عقبة مرسلاً].

ولعل الدكتور العمري [في المجتمع المدني] لم يطلع على الرواية التي عند البيهقي وما فيها من الزيادة عن رواية موسى بن عقبة عند ابن حجر، وهذه الزيادة هي: «حين نزلوا بأحد...»، ولذا قال العمري: (إن رواية موسى بن عقبة لم تحدد وقتاً للأعمال التي ارتكبتها اليهود ضد المسلمين) ولعله يقصد أعمالاً معينة.

ومن المعروف أنهم حرّضوا المشركين على قتال المسلمين فكانت أحد، وأعانوا أبا سفيان في إغاراته على أطراف المدينة مما أدى إلى مطاردة المسلمين له فيما عرف بـ(غزوة السويق)، وأنّ كعباً بن الأشرف كان يقرض الشعر في هجاء المسلمين وتحريض قريش عليهم. كل هذا يدل على حالهم مع المسلمين إلى أن كانت محاولتهم قتله، وتسبب ذلك في قرار لوضع حد لممارساتهم الإجرامية، فكان القرار طردهم من المدينة. [نفسه].

ثالثاً: الإنذار:

عندما صدر منهم ما صدر طلب منهم الرسول ﷺ الخروج من المدينة خلال عشرة أيام، فمن رأوه بعد ذلك ضربت عنقه.

وعندما استعدوا للخروج حرضهم عبد الله بن أبي بن سلول على عدم الخضوع، ومناهم بالوقوف إلى جانبهم، فأعلنوا العصيان، فحاصروهم المسلمون [ابن إسحاق،



ابن سعد؛ الواقدي]، وقد أشارت آيات في سورة الحشر إلى هذا، مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر: ١١] [الطبري: التفسير؛ ابن إسحاق؛ بأسانيد تتقوى بالمتابعة].

رابعاً: الجلاء وشروطه:

ثبت في الصحيح [البخاري] أن الرسول ﷺ أجلى بني النضير عندما حاربوا، وفصلت الكتب الأخرى، وخاصة كتب المغازي والسير، كيفية هذا الجلاء ونوعية الحرب التي حاربوها.

وصح أن الرسول ﷺ حاصرهم بالكتائب، وقال لهم: «إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخیل والكتائب، وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة - السلاح - فجاءت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم، فكانوا يخربون بيوتهم، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها». [عبد الرزاق؛ أبو داود؛ البيهقي في الدلائل].

وقد ثبت بنص القرآن ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْ هَا فَاقِمْهَا عَلَىٰ أَرْسُلِهَا فَاِذْنِ اللَّهِ﴾ روى البخاري أنها نزلت عندما حرق وقطع الرسول ﷺ نخل بني النضير، [وهي البويرة]. أن النبي ﷺ حرق وقطع بعض نخل بني النضير خلال مدة الحصار، وثبت في الحديث الشريف [أحاديث البخاري في باب بني النضير، المصدر نفسه، وسنن الترمذي (١٥٧/٥ - ١٥٨/١ تحفة الأحوذى)، وسنن ابن ماجه] أن النبي ﷺ حرق وقطع بعض نخل بني النضير خلال مدة الحصار.



وتذكر بعض الروايات أنهم أُجِّلُوا إلى الشام [عبد الرزاق، بسند صحيح] والبعض الآخر يذكر أنهم توجهوا إلى خيبر [ابن هشام]. وفي رواية ابن إسحاق ما يجمع بين هذه الروايات، حيث قال: «فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، فكان أشرفهم من سار منهم إلى خيبر: سَلَام بن أَبِي الْحَقِّيق وَكِثَانَة بن الربيع بن أَبِي الْحَقِّيق وَحُيَيِّ ابن أَخْطَب. فلما نزلوها دان لهم أهلها». ويؤيده في ذلك الأحداث اللاحقة الثابتة بالمرويات القوية، مثل أخبار قتالهم في غزوة خيبر، وقتل كنانة وأسر صفية، وخبر سلام ابن أبي الحقيق. [انظر د. العمري: المجتمع المدني].

وقد أسلم منهم اثنان، هما: يَامِين بن كعب وأبو سعد بن وهب، ولذا أحرزا أموالهما. [ابن إسحاق].

أما الأموال والنخيل فكانت لرسول الله ﷺ وذلك بنص الآية: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦] ونزول سورة الحشر في بني النضير [كما روى البخاري]، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عُدَّة في سبيل الله. [البخاري].

وقسم الرسول ﷺ أرضهم بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار أحدًا سوى سهل ابن حَنيف وأبي دُجَانَة، وذلك لفقرهما. [عبد الرزاق؛ أبو داود؛ ابن إسحاق]. ولم يتوقف زعماء بني النضير عن مكائدهم بعد كل هذا، فقد حرصوا الأحزاب، فكانت غزوة الخندق. [يأتي ذكره].



خامساً: حكم وعبر من غزوة بني النضير:

- ١- إن في إخبار الله نبيه بما بيته اليهود للغدر به دليلاً على تكرار الغدر من اليهود، والوفاء من الله تعالى بوعده القاطع لرسوله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وفي هذه المعجزة وغيرها ما يجب أن يحمل الناس على الإيمان بنبوته محمد ﷺ.
- ٢- إن قطع وإحراق الرسول ﷺ لبعض نخيل بني النضير، دليل على أن الحكم الشرعي في أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام أو القائد من مصلحة في النكاية بالأعداء. وأن ذلك من قبيل ما يدخل تحت اسم السياسة الشرعية، وهو مذهب نافع ومالك والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق وجمهور الفقهاء.
- ورُوي عن الليث وأبي ثور والأوزاعي القول بعدم جواز قطع شجر الكفار وإحراقه. [شرح النووي على مسلم].

- ٢- اتفق الأئمة على أن ما غنمه المسلمون من أعدائهم من دون قتال، وهو (الفيء) يعود النظر والتصرف فيه إلى ما يراه الإمام من المصلحة، وأنه لا يجب عليه تقسيمه بين الجيش كما تقسم عليهم الغنائم التي غنموها بعد قتال وحرب، مستدلين على ذلك بسياسة ﷺ في تقسيم فيء بني النضير، ونزول القرآن الكريم مصوباً لذلك. [البوطي: فقه السيرة].
- ٤- في موقف الرسول ﷺ من بني النضير تقرير لمبدأ أن نقض المعاهدة إعلان للحرب.

• المبحث الخامس: غزوة بدر الموعود

- خرج رسول الله ﷺ في شعبان [عند ابن إسحاق] سنة أربع من الهجرة لموعده الذي التزم به لأبي سفيان يوم أحد. وكان معه ألف وخمسمائة من الصحابة وعشرة أفراس، ووصل إلى بدر، وانتظر بها المشركين ثمانية أيام.



أما المشركون فقد خرج بهم أبو سفيان حتى وصل إلى مر الظهران، ونزل بمياه مجنة على بعد أربعين كيلا من مكة، ثم عاد بهم بحجة أن العام عام جذب، وكان لهذا الموقف منه أثر كبير في استعادة هبة المسلمين بعد انتكاسة أحد. [ابن إسحاق؛ ابن سعد؛ الواقدي].

• المبحث السادس: غزوة ذات الرقاع

• [اختلف في تسميتها، والراجح ما ذكره أبو موسى الأشعري في الصحيح من أنها سميت بذلك لأنهم لفوا في أرجلهم الخرق بعد أن تنقبت خفافهم، إذ كان لكل ستة بغير يتعاقبون على ركوبه، [انظر: البخاري].

اختلف أهل المغازي والسير في تاريخ هذه الغزوة، وقد جنح البخاري إلى أنها كانت بعد خير، وذهب ابن إسحاق إلى أنها بعد غزوة بني النضير، وقيل بعد الخندق سنة أربع، وعند الواقدي وابن سعد أنها كانت في المحرم سنة خمس، وجزم أبو معشر [كما ذكر ابن حجر في الفتح] أنها كانت بعد بني قريظة والخندق. والراجح عند ابن حجر ما ذهب إليه البخاري وأبو معشر، لأن أبا موسى الأشعري شهدا وقد قدم من الحبشة بعد فتح خير مباشرة، وشهدا أبو هريرة وقد أسلم حين فتح خير، وصلى فيها رسول الله ﷺ صلاة الخوف، ولم تكن شرعت في الخندق، بل شرعت في عسفان أيام الحديبية، والحديبية سنة ست.

ومال الدكتور الحكمي [مرويات الحديبية]، والدكتور العمري [المجتمع المدني]، إلى ما ذهب إليه البخاري وابن حجر، والذي نميل إليه هو ما ذهب إليه الدكتور البوطي أنها قبل الخندق لأن حجته الخاصة بزواج جابر قبل الخندق لا تدفع وهي في الصحيحين، إضافة إلى أن البخاري قد ذكر رأيه معلقًا، وحجته فقط مجيء أبي موسى من الحبشة بعد خير، وهي حجة دفعها البوطي بترجيح تعدد الغزوة.



لم يقع في هذه الغزوة قتال بين المسلمين وغطفان، ولكنهم أخافوا بعضهم بعضاً، فصلى المسلمون صلاة الخوف.

وكانت هذه الصلاة بمنطقة نخل التي تبعد عن المدينة بيومين. [البخاري].

لقد وقعت في هذه الغزوة أحداث ذات دلالات ومغزى كبير، منها:

١ - قصة الأعرابي؛

روى البخاري ومسلم عن جابر - وغيرهما - عندما قفل رسول الله ﷺ قفلاً معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العِصاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون الشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة علق بها سيفه، قال جابر: فمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعوننا، فجئناه فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا اختلط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتاً، فقال لي: من يمنعك مني؟ فقلت له: الله، فها هو ذا جالس...» لم يعاقبه رسول الله ﷺ. واسم الأعرابي: غُورث بن الحارث.

ويذكر قتادة [في تفسير الطبري بسند صحيح]، وابن إسحاق، أن قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ ءَن يَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [المائدة: ١١] قد نزلت في هذا الأعرابي.

وفي رواية مسدد [عن ابن حجر في الفتح] عن جابر أن الأعرابي غورث عاهد الرسول ﷺ أن لا يقاتله ولا يكون مع قوم يقاتلونه، فخلى سبيله، فجاء إلى أصحابه فقال: «جئتمكم من عند خير الناس».

دروس وعبر من هذه القصة؛

وفي هذه القصة دليل على نبوة محمد ﷺ، وفرط شجاعته، وقوة يقينه، وصبره على الأذى، وحلمه على الجهال. وفيها جواز تفرق العسكر في النزول، ونومهم إذا لم يكن هناك ما يخافون منه. [ابن حجر في الفتح].



٢- قصة الحراسة:

وفي مرجعهم من غزوة ذات الرقاع، سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يهريق دمًا في أصحاب محمد ﷺ، فجاء ليلاً وقد جعل الرسول ﷺ رجلين على الحراسة أثناء نومهم، وهما عبّاد بن بشر وعمار بن ياسر، فضرب عبّادًا بسهم وهو قائم يصلي، فنزعه، ولم يقطع صلاته، حتى رشقه بثلاثة سهام، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه، فقال: «سبحان الله، هلا نبهتني، فقال كنت في سورة اقرأها فلم أحب أن أقطعها، فلما تابع عليّ الرمي ركعت فأذنتك، وإيّم الله، لولا أن أضيّع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها». [البخاري معلقًا؛ ابن إسحاق، حسن].

دروس وعبر في هذا المقطع من السيرة:

في قصة هذين الصحابين الجليلين كشف لطبيعة الجهاد الإسلامي، وكيف كان يمارسه ويفهمه أصحاب رسول الله ﷺ. فعباد ﷺ أراد أن يشغل شطرًا من زمن حراسته الليلية بركعات خاشعة، يقف فيها أمام الله تعالى ولم يقطع صلاته لألم يشعر به، وإنما قطعها استشعارًا بمسؤولية الحراسة التي كلف بها. وهذا درس بليغ في مفهوم العبادة والجهاد عند سلفنا الصالح، ولا وجه للمقارنة بينه وبين ما عليه نحن الآن!! [البوطي: السيرة].

٣- قصة جمل جابر:

روى البخاري ومسلم وغيرهما من أهل الحديث، وابن إسحاق [بسند حسن] وغيره من أهل السير عن جابر أنه عندما أبطأ في السير، وهم في طريق العودة من غزوة ذات الرقاع، سأله الرسول ﷺ عن السبب فقال إن جملة قد أعياه، فنزل رسول الله ﷺ يحججه بمحجنه، ثم دعاه فركب، فأصبح الجملة يسابق جمل رسول الله ﷺ وجابر يكفه



عن ذلك. ثم سأله عن حالته الاجتماعية، فذكر أنه تزوج ثيبًا، فقال له الرسول ﷺ: «أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟»، فعلم سبب زواجه من الثيب بأن له أخوات فأحب أن يتزوج امرأة تجمعهن وتمشطهن وتقوم عليهن. وطلب منه الرسول ﷺ إذا قدم المدينة أن يعمل عملاً كسبًا، ثم قال له: «أتبيع جملك؟» فوافق جابر، فاشتراه منه بأوقية، وعندما أتى بالجمل من الغد إلى الرسول ﷺ أمر الرسول ﷺ بلالاً أن يعطيه الأوقية. فوزن له بلال فأرجح له في الميزان، وعندما ولى دعاه الرسول ﷺ ورد عليه جملة.

وفي رواية ابن إسحاق أن الرسول ﷺ قال لجابر عندما علل سبب زواجه من ثيب: «أصبت إن شاء الله»، وفيها أنه قال له: «... أما أنا لو قد جئنا صرًا أمرنا بجزور فنحرت، وأقمنا عليها يومنا ذاك، وسمعت بنا فنفضت نهارقها».

فقال جابر: «والله يا رسول الله ما لنا من نهارق، فقال النبي ﷺ: إنها ستكون... وفيها قول جابر عن الأوقية التي أعطيت له: فوالله ما زال ينمي عندي، ويرى مكانه من بيتنا...».

درس وعبرة في هذه القصة:

في هذه القصة صورة كاملة ودقيقة لخلق رسول الله ﷺ مع أصحابه من حيث اللطف في المعاشرة ورقة الحديث، وفكاهة في المحاوراة ومحبة شديدة لأصحابه والوقوف على أحوالهم والمواساة في مشكلاتهم الاجتماعية ماديًا ومعنويًا. فقد شعر الرسول ﷺ أن سبب تأخر جابر عن الركب هو ضعف جملة الذي لا يملك غيره لبؤس حاله، حيث إن والده مات شهيدًا في أحد وترك له مجموعة من البنات والأولاد ليرعاهم، وهو مقل في الرزق، فأراد الرسول ﷺ أن يتنزه هذه الفرصة ليواسيه ويقدم له ما يستطيع من مال مبارك. [البوطي: السيرة].



• المبحث السابع: غزوة دومة الجندل

• يتفق جمهور أهل المغازي والسير أنها كانت في ربيع الأول سنة خمس من الهجرة، وبالتحديد لخمس ليال بقين من ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهرًا من الهجرة. [ابن إسحاق؛ ابن سعد؛ الواقدي].

لم يذكر ابن إسحاق سببها، بل الذي ذكره الواقدي وابن سعد، وخلاصته: بلغ رسول الله ﷺ أن بدومة الجندل جمعًا كثيرًا، وأنهم يظلمون من مر بهم من الضافطة [جمع ضافط، وهو الذي يجلب الميرة والمتاع إلى المدن. وكانوا يومئذ قومًا من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت]، وكان بها سوق عظيم وتجار، وصَوَى إليهم قوم من العرب كثير، وهم يريدون أن يدنوا من المدينة. فندب رسول الله ﷺ الناس فخرج في ألف من المسلمين، ومعهم دليل من بني عُذْرَة يسمى مَذْكُور، وقبل وصول دومة الجندل بيوم أو ليلة هجم على ماشيتهم ورعاتهم، فأصاب من أصاب وهرب من هرب. وعندما وصل الخبر دومة الجندل، تفرقوا. وعندما وصلهم لم يجد أحدًا في المكان، فأقام بها أيامًا، وبث السرايا التي كانت ترجع بالإبل فقط، إلا سرية محمد بن مسلمة، فقد أخذ رجالًا منهم، وعرض عليه الإسلام، فأسلم. ثم عاد الرسول ﷺ إلى المدينة.

وزاد الواقدي سببًا آخر لهذه الغزوة، وهو أن الرسول ﷺ أراد أن يدنو من الشام ليفزع قيصر.





الفصل التاسع غزوة (بني المصطلق) أحداث ونتائج

عندما أصابت قريش ما أصابت من المسلمين في أحد تجراً فيمن تجراً من الأعراب على المسلمين بنو المصطلق. فقد أخذ زعيمهم الحارث بن أبي ضرار في جمع السلاح والرجال وتأليب القبائل المجاورة للقيام بهجوم على المدينة.

وعندما شعر الرسول ﷺ بهذه الحركة المريبة، أرسل بُرَيْدَةَ بن الحَصِيب الأسلمي للتأكد من نيتهم، وأظهر لهم بريدة أنه جاء لعونهم، فتأكد من نيتهم، فأخبر الرسول ﷺ بذلك. [ابن سعد].

وفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة [البداية؛ البيهقي: السنن الكبرى، من حديث ابن عقبة] خرج الرسول ﷺ من المدينة في سبعمائة مقاتل [الذهبي: المغازي] وثلاثين فرساً [الواقدي] متوجّهاً إلى بني المصطلق.

ولما كان بنو المصطلق ممن بلغتهم دعوة الإسلام، واشتركوا مع الكفار في غزوة أحد، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين، فقد روى البخاري ومسلم، أن الرسول ﷺ أغار عليهم وهم غارون - أي غافلون - وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذ جُوَيْرِيَّة بنت الحارث بن أبي ضرار.

ويروي ابن إسحاق - بإسناد ضعيف - أن ثمة قتالاً قد وقع على ماء المريسيع، ثم انهزم بنو المصطلق، وقتل بعضهم وأخذ المسلمون أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فتمت قسمة ذلك بينهم. وما في الصحيح أصح وأولى بالاحتجاج به.



ويذكر الواقدي أن المسلمين قتلوا عشرة من بني المصطلق وأسروا سائرهم ممن وجدوه على الماء، وهم مائتا أهل بيت، وغنموا ألفي بعير وخمسة آلاف شاة. ويذكر ابن إسحاق أن الأسرى كانوا مائة أهل بيت، وهو الصحيح. ويذكر الزرقاني أنهم أكثر من سبعمائة، ولا تعارض بين القولين كما قال، لأن أهل البيت الواحد يمكن أن يكونوا أكثر من واحد. [أسد الغابة].

أصيب رجل من المسلمين من بني كلب بن عوف يدعى هشام بن صُبَابَة، أخو مقيس بن صُبَابَة، وذلك أثناء المعركة، أصابه رجل من الأنصار، من رهط عُبَادَة ابن الصامت، وهو يرى أنه من العدو، فقتله خطأ. وقدم مقيس من مكة مظهرًا الإسلام، وطالب بدية أخيه، فأعطي الدية، ولكنه لم يكتف بهذا، بل عدا على قاتل أخيه فقتله، وفر إلى مكة مرتدًا. وقد أهدر النبي ﷺ دمه يوم فتح مكة، فقتله نُمَيْلَة بن عبد الله، وكان من قومه. [أسد الغابة؛ الإصابة؛ ابن إسحاق؛ الواقدي].

وخرج في هذه الغزوة جماعة من المنافقين، وقد سجل لهم التاريخ موقفين آخرين من مواقف الخزي في هذه الغزوة، أولهما: محاولتهم إثارة الفتنة والعصبية بين المهاجرين والأنصار. وثانيهما: السعي لإيذاء الرسول ﷺ بالطعن في عرضه، حين افتروا على عائشة رضي الله عنها في ما يعرف بحديث الإفك.

• الموقف الأول:

• حكي زيد بن أرقم رضي الله عنه وجابر بن عبد الله هذا الموقف. قال زيد: «كنت في غَزَاة، فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ، حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت لعمي - أو لعمر - فذكره للنبي ﷺ، فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه،



فحلفوا ما قالوا. فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ، ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] فبعث إليّ رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله قد صدّقك يا زيد» [البخاري]، ولهذا قال رسول الله ﷺ عن زيد: «هذا الذي أوفى الله بأذنه» [نفسه]، وفي رواية: «وَقَدْ أَذْنُكَ يَا غُلَامَ». [ابن حجر: الفتح، من مرسل البصري].

أما رواية جابر رضي الله عنه فهي أكثر تفصيلاً، وقد أشارت إلى سبب ما قاله ابن أبي. قال جابر: «كنا في غزاة فكسّع [المشهور فيه: ضرب الدبر باليد أو بالرجل] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: دعوها فإنها متنتة. فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة، ثم إن المهاجرين كثروا بعد». [متفق عليه]. [والمهاجري: جهجاه بن مسعود الغفاري - أجير عمر، وقيل: والأنصاري: سنان بن وبر الجهني ابن قيس و: ابن سعيد. انظر الفتح].

وقد وردت روايات قوية [عند الترمذي والنسائي] أخرى تفيد أن ابن أبي قال هذا الكلام في غزوة تبوك، وهو وهم، والصحيح أنه لم يشهد تبوك. [ابن كثير: التفسير؛ ابن حجر: الفتح].

وأراد الرسول ﷺ أن يعالج هذا الموقف علاجاً عملياً، فلذا أمر بالرحيل فوراً، وسار بهم بقية يومهم ذلك والليل كله، ثم نهار اليوم التالي، حتى أذتهم الشمس، ثم



نزّلوا، وناموا من فورهم من شدة الإجهاد، وكل ذلك ليشغل الناس عن الخوض في حديث يمكن أن يؤدي إلى فتنة. [ابن إسحاق، بسند حسن لغيره].

وعندما بلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ما قاله والده، أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإنني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: بل نترقب به، ونحسن صحبته ما بقي معنا [ابن إسحاق وغيره]. ومنع عبد الله أباه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله ﷺ بدخولها. [الترمذي، بسند صحيح].

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت، لَأَزَعَدْتُ لَهُ أَنْفٌ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري». [ابن إسحاق؛ الواقدي].

• الموقف الثاني: حديث الإفك:

• حاك المنافقون في هذه الغزوة حادثة الإفك، بعد أن فشل كيدهم في المحاولة الأولى لإثارة النعرة الجاهلية، وخلاصتها:

كان قدر عائشة رضي الله عنها أن تخرج في هذه الغزوة مع الرسول ﷺ [البزار، بسند حسن كما في المجمع]. وفي طريق العودة، وقرب المدينة، نزل المسلمون للراحة، فنزلت من هَوْدَجِهَا لبعض شأنها، فلما عادت افتقدت عقدًا لها، فرجعت تبحث عنه. وعندما عادت وجدت الرجال قد حملوا هودجها ووضعوه على بعيرها وهم يحسبونها داخله، لأنها كانت حينذاك خفيفة الوزن. فانتظرت في مكانها، فمر بها صَفْوَانُ بْنُ الْمُعْطَلِّ



السُّلَمِي، [كان ثقیل النوم، ولذا تأخر في الرحيل مع الجيش] وعرفها، لأنه كان رآها قبل أن يفرض الحجاب، فحملها على بعيره وانطلق بها إلى المدينة ودخلها بعد دخول الرسول ﷺ.

لقد استغل المنافقون هذه الحالة ونسجوا حولها قصة الإفك، وتولى كبر ذلك عبدالله بن أبي بن سلول. وأغرى بالخوض فيه رجالاً ونساء أمثال: مسطح بن أثانة وحمّة بنت جحش وحسان بن ثابت.

واغتم الرسول ﷺ بهذه الإشاعة، وأعلن على الملأ وفي المسجد ثقته بزوجه وبصاحبه ابن المفضل، وأبدى سعد بن معاذ استعدادة لقتل من يخوض في هذا الافتراء إن كان من الأوس، ولم يرض سعد بن عبادة الخزرجي هذا القول من سعد، لأن أصابع الاتهام كانت تشير إلى واحد من قوم عبادة، فكادت تقع الفتنة بين الحيين، كما يريد المنافقون. ولكن الرسول ﷺ فوت عليهم الفرصة مرة أخرى وأطفأ نيران الفتنة.

واستأذنت عائشة النبي ﷺ لتمرض في بيت أبيها عندما لحظت فتور العلاقة بينها وبين الرسول ﷺ، وهناك علمت بخبر الإفك، ففارقها النوم، وهي تنتظر إعلام الله نبيه ببراءتها برؤيا صادقة، وترى أنها أقل شأناً من أن ينزل في أمرها وحى.

وبعد شهر من معاناتها ومعاناة الرسول ﷺ من هذا الحديث، نزل الوحي بآيات في براءتها وموقف الناس من هذه الفرية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: ١١].

وكان أبو بكر ينفق على قريبه مسطح بن أثانة - ابن خال أبي بكر - فعندما خاض في تلويت سمعة عائشة أقسم ألا ينفق عليه، فنزلت الآية: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمُ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى﴾ [النور: ٢٢] إلى قوله: ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فعاد أبو بكر إلى النفقة عليه، رغبة في المغفرة. [متفق عليه].

وعاتب القرآن أولئك النفر الذين وقعوا في حبال المنافقين: حمّة ومسطح وحساناً، فقال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].



وسجل القرآن ذلك الموقف الرائع لأولئك نفر من المؤمنين الذين وقفوا من هذا الإفك موقف المؤمن اليقظ والواثق ثقة كبيرة بآل بيت النبوة الذين طهروا من الدنس والأرجاس، منهم أبو أيوب الأنصاري وأم أيوب، فقد نزل في هؤلاء قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

روى الواحدي [وابن الجوزي في تفسيرهما] بإسناد متصل إلى عائشة رضي الله عنها في سبب نزول هذه الآية: «كان أبو أيوب الأنصاري حين أخبرته امرأته وقالت: يا أبا أيوب ألم تسمع بما تحدث الناس؟ قال: وما يتحدثون؟ فأخبرته بقول أهل الإفك، فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم، قالت: فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾».

وروى البخاري أن رجلاً من الأنصار عندما سمع هذه الفرية، قال: «سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم».

وقال ابن حجر في الشرح: (وقع عند ابن إسحاق أنه أبو أيوب الأنصاري، وأخرجه الحاكم من طريقه، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين، وأبو بكر الأجري في طرق الإفك من طريق عطاء الخراساني عن الزهري عن عروة عن عائشة... ويلحظ أن الآية التي أشار إليها ابن إسحاق هي التي فيها: سبحانك ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، وليست التي فيها: ﴿هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]. وعموماً فالمعنى واحد، وقد نزلنا في وقت واحد وبمناسبة واحدة، فليس ببعيد أن من بين أسباب نزولها موقف أبي أيوب وأم أيوب. وقد وافق الواقدي ابن إسحاق، وزاد بصيغة التمریض أنها نزلت في أم الطفيل وزوجها أبي بن كعب.

وفي تفسير سنيّد من مرسل سعيد بن جبیر أن سعد بن معاذ لما سمع ما قيل في أمر عائشة، قال: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] [ابن حجر: الفتح].



وخلاصة الأمر أن رواية الواحدي تتقوى برواية الأجري وابن إسحاق والواقدي، ويكون الخبر على أقل تقدير حسناً لغيره [قريباً: مرويات غزوة بني المصطلق].

وأقام الرسول ﷺ حد القذف على حسان ومسطح وحمنة، أما عبد الله بن أبي ابن سلول الذي تولى كبر الإفك فلم يقيم عليه الحد، لأنه لم يترك دليلاً ضده، إذا كان يستوشيه - أي يستخرجه بالبحث والمسألة ثم يفشيه ويشيعه ويحركه، ولا يدعه يخمد. [مسلم].

وعندما عاد الرسول ﷺ جاءته جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، وذكرت له مكائنها في قومها، وطلبت منه أن يعينها في قضاء كتابها لعنق رقبتها من ثابت بن قيس ابن الشَّاس، الذي وقعت في سهمه. فعرض عليها الرسول ﷺ أن يقضي عنها كتابتها ويتزوجها فقبلت.

فلما علم الناس بذلك أعتقوا من بأيديهم من السبي، وهم مائة أهل بيت، إكراماً لإصهار الرسول ﷺ فيهم، «فما كانت امرأة أعظم على قومها بركة منها» [ابن إسحاق؛ بسند حسن]. وكان عتقها صداقها، كما هو واضح من الخبر.

وقدم والدها الحارث إلى المدينة وطلب من الرسول ﷺ أن يخلي سبيلها، فأذن له أن يخيرها، فاختارت البقاء مع رسول الله ﷺ. [تاريخ ابن خياط، بسند مرسل رجاله ثقات].

وأسلم الحارث بن أبي ضرار وقومه، وولاه الرسول ﷺ على صدقات قومه.

[أحمد: المسند، بسند حسن].

● أحكام وعبر في غزوة المريسيع:

١ - مشروعية تقسيم الغنائم بين المقاتلين بعد استثناء السلب والخمس من الغنيمة.

٢ - دلت معالجة الرسول ﷺ للمشكلة التي حاول ابن سلول استغلالها على حسن سياسة الرسول ﷺ في تدبير الأمور وتجنب المشاكل وتقوية الفرص على المغرضين



المندسّين بين صفوف المؤمنين. وكان نتيجة ذلك أن جافى ابن سلول قَوْمُهُ، فكانوا هم الذين يعنفونه ويفضحون دسائسه.

كانت قصة الإفك حلقة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين. وكان من لطف الله تعالى بنبيه وبالمؤمنين أن كشف الله زيفها وبطلانها، وسجل التاريخ بروايات صحيحة مواقف المؤمنين من هذه الفرية، لا سيما موقف أبي أيوب وأم أيوب، وهي مواقف يتأسى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفرية. فقد انقطع الوحي، وبقيت الدروس التي تركها لنا لنستفيد منها ونقوم بها المواقف المماثلة.

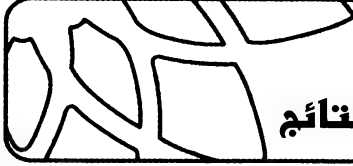
٤ - جاءت محنة الإفك منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية النبي ﷺ وإظهارها صافية مميزة عن كل ما يلتبس بها، فلو كان الوحي أمرًا ذاتيًا غير منفصل عن شخصية الرسول ﷺ لما عاش الرسول ﷺ تلك المحنة بكل أبعادها شهرًا كاملاً. ولكن الحقيقة التي تجلت للناس بهذه المحنة أن ظهرت بشرية الرسول ﷺ ونبوته. فعندما حسم الوحي اللغظ الذي دار حول أم المؤمنين عائشة ؓ عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين الرسول ﷺ، وفرح الجميع بهذه النتيجة بعد تلك المعاناة القاسية، فدل ذلك على حقيقة الوحي، وأن الأمر لو لم يكن من عند الله تعالى لبقيت رواسب المحنة في نفس الرسول ﷺ بصفة خاصة، ولانعكس ذلك على تصرفاته مع زوجته عائشة ؓ. وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلاً كبيراً على نبوة محمد ﷺ.

٥ - بينت هذه القصة مشروعية حد القذف الذي أقيم على من ثبتت إدانته، وبينت حرمة قذف المحصنات المؤمنات، وكذا المحصن المؤمن، وإنه من كبائر الذنوب، وعقوبته ثمانون جلدة.



- ٦- بيان مشروعية الاقتراع والأخذ بنتائجه بدل التخيير لما فيه من تطيب النفوس، كما في خبر اقتراع الرسول ﷺ بين نسائه عند السفر.
- ٧- مشروعية أخذ المجاهد امرأته للجهاد إذا كانت الظروف مواتية لذلك.
- ٨- إن نزول ست عشرة آية من سورة النور، تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: ١١] وتنتهي بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦] وهي في تكذيب من قذف عائشة، ومن أبرز الأدلة على فضل عائشة ولم يقع في القرآن الكريم التخليط في معصية مثلما وقع في قصة الإفك [انظر ابن حجر: الفتح (١٨/ ٨٦)].





الفصل العاشر غزوة الخندق (الأحزاب) أحداث ونتائج

• تاريخ الغزوة:

وقعت هذه الغزوة في شوال سنة خمس كما قال ابن إسحاق ومن تابعه، وهو قول الجمهور، وقال الواقدي إنها وقعت في يوم الثلاثاء الثامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجري، وقال ابن سعد إن الله استجاب لدعاء الرسول ﷺ فهزم الأحزاب يوم أربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمس من مهاجره. ونقل عن الزهري ومالك ابن أنس وموسى بن عقبة أنها وقعت سنة أربع هجرية. [البخاري].

• سبب الغزوة:

لم تضع الحرب أوزارها بين مشركي مكة والمسلمين إلا بعد فتح مكة في العام الثامن الهجري، ولذا فمن البدهي أن تحاول قريش في كل مرة القضاء على قوة المسلمين التي ترى فيها تهديدًا مستمرًا لطرق قوافلها وخطرًا على مكائنتها بين العرب.

أرادت قريش في هذه المرة أن تحسم هذا الصراع مع المسلمين لصالحها، فحشدت له أكبر قوة ممكنة، حيث لجأت إلى التحالف مع كل من له مصلحة في القضاء على المسلمين. ووجدوا أكبر ضالة لهم في يهود بني النضير الذين أجلوا عن المدينة، ووجد اليهود ضالتهم في قريش، فقد التقت أهداف الفريقين، وهو القضاء على المسلمين.

كان أول ما فكر فيه زعماء بني النضير الذين خرجوا إلى خيبر أن يتصلوا بقريش والقبائل الأخرى للثأر لأنفسهم والطمع في العودة إلى ديارهم وأملاكهم في المدينة. فخرج وفد منهم إلى مكة، منهم: سلام بن أبي الحقيق، وحبي بن أخطب،



وكنانة بن أبي الحقيق النضريون، وهوذة بن قيس وأبو عمار الوائليان، في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل، فدعوا قريشاً إلى حرب رسول الله ﷺ ووعدوهم بالقتال معهم، حتى يستأصلوه، وأفتوهم بأن دينهم خير من دين محمد ﷺ، وأنهم أولى بالحق منه، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاتِ وَالطَّلْعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۚ ﴾ [النساء: ٥١] [ابن إسحاق، والبداية وتفسير الطبري]. ثم اتجهوا بعد هذا إلى قبيلة غطفان النجدية الكبرى، وأغروها بالتحالف معهم ومع قريش على حرب المسلمين [ابن كثير في التفسير من حديث ابن إسحاق بسند حسن]، على أن يكون لهم نصف ثمر خير، إذا اشتركت معهم في الحرب، [الواقدي]. وكان وافدهم إلى غطفان كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فأجابه عيينة ابن حصن الفزاري إلى ذلك. [البيهقي في الدلائل، وابن حجر في الفتح من حديث ابن عقبة].

وكتب المشركون إلى حلفائهم من بني أسد، فأقبل إليهم طلحة بن خويلد فيمن أطاعه، وخرج أبو سفيان بقريش ومن اتبعه من قبائل العرب، فنزلوا بمر الظهران؛ فجاءهم من أجابهم من بني سليم مدداً لهم بقيادة سفيان بن عبد شمس، والد أبي الأعور [المصدرين نفسهما]، وبنو مرة بقيادة الحارث بن عوف، وأشجع بقيادة مسعر بن رُخَيْلَة [ابن إسحاق]. وسارت مع قريش الأحابيش [قبائل تحالفت عند جبل حبشي] ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة [نفسه]، فصاروا في جمع عظيم، فهم الذين ساءم الله تعالى الأحزاب [ابن هشام]، وذكر ابن إسحاق أن عدتهم عشرة آلاف بينما كان المسلمون ثلاثة آلاف.

تحرك هذا الجيش العرمرم من مر الظهران في طريقه إلى المدينة. فنزلت قريش ومن سار معها بمجتمع الأسيال من رومة، بين الجُرُف ورُغابة. ونزلت غطفان بذنب نَقْمِي إلى جانب أحد [ابن إسحاق]، ونزل معهم بنو أسد. [البيهقي في الدلائل وابن حجر في الفتح

من حديث ابن عقبة].



فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر، استشار الصحابة، وقد أشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق [ابن سعد؛ الواقدي، ابن حجر: الفتح من حديث أبي معشر] في المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة، أما الجهات الأخرى فكانت كالحصن تتشابك فيها الأبنية وأشجار النخيل وتحيطها الحُرَّات التي يصعب على الإبل والمشاة التحرك فيها. [البيهقي: الدلائل؛ ابن حجر: الفتح من حديث ابن عقبة مرسلاً].

ووافق الجميع على هذه الفكرة لعلمهم بكثرة الجموع القادمة لحربهم، وشرعوا في حفر الخندق الذي يمتد من أجم الشيخين طرف بن حارثة شرقاً حتى المذاذ غرباً، وكان طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة. وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً [تفسير الطبري؛ المجمع، فتح الباري، تعضد]. حفر المهاجرون من ناحية حِصْن رَاجٍ في الشرق إلى حصن ذُباب، والأنصار من حصن ذُباب إلى جبل بني عُيَيْد في الغرب. [أحمد: المسند؛ ابن سعد؛ الواقدي].

وكان طعامهم أثناء الحفر القليل من الشعير يخلط بدهن متغير الرائحة لقدمه، ويطيخ فيأكلونه على الرغم من بشاعة طعمه في الحلق ورائحته المُتِنِّتَة، وذلك لشدة جوعهم [البخاري]. وحتى هذا لا يجدونه أحياناً فيأكلون التمر [ابن إسحاق]، وأحياناً لا يجدون هذا ولا ذاك لمدة ثلاثة أيام متتالية، إلى الحد الذي يعصب فيه النبي ﷺ بطنه بحجر من شدة الجوع [البخاري].

وشارك جميع المسلمين في الحفر، لا فرق بين غني وفقير ومولى وأمير، وأسوتهم في ذلك الرسول ﷺ الذي حمل التراب حتى اغبر بطنه ووارى التراب جلده؛ وكان الصحابة يستعينون به في تفتيت الصخرة التي تعترضهم ويعجزون عنها، فيفتتها لهم [متفق عليه].



ويردد معهم الأهازيج والأرجاز لتنشيطهم للعمل، فيقول:

«اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلّينا
فأنزلن سكينه علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا»

وكان يمد بها صوته بآخرها [متفق عليه].

ويرتجز المسلمون وهم يعملون:

«نحن الذين بايعوا محمداً على الإسلام ما بقينا أبداً
فيجيئهم بقوله:

«اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك في الأنصار والمهاجرة» [متفق عليه]. وربما يبدؤهم بقوله فيردون عليه بقولهم. [نفسه].

• من دلائل النبوة أثناء حفر الخندق:

• أجرى الله ﷻ على يدي نبيه محمد ﷺ عدة معجزات أثناء حفر الخندق، ومن ذلك:

١ - عندما لحظ جابر بن عبد الله رضي الله عنه ما يعانیه الرسول ﷺ من الجوع، استأذنه وذهب إلى زوجته وأخبرها بما رأى من المَحْمَصَةِ [الجوع] على الرسول ﷺ وطلب منها أن تصنع له طعاماً، فذبح عَنَاقاً له وطحنت زوجه صاعاً من شعير بقي لهما، وصنعت بُرْمَةً، وذهب جابر فدعا النبي ﷺ إلى الطعام وسارره بكمية الطعام، وأنه طَعِيم يكفي لرجل أو رجلين، فدعا النبي ﷺ كل من كان حاضراً وعددهم ألف، وتحير جابر وزوجته، لكن الله ﷻ بارك في البرمة، فأكل منها كل الناس حتى شبعوا وتركوا فيها الكثير الذي أكل منه أهل جابر وأهدوا. [متفق عليه]. [وانظر التفاصيل في المصدرين].



٢- أخبر عمار بن ياسر، وهو يحفر معهم الخندق، بأن ستقتله الفئة الباغية، فقتل في صفين، وكان في جيش علي [مسلم].

٣- وعندما اعترضت صخرة للصحابة وهم يحفرون، ضربها الرسول ﷺ ثلاث ضربات فتفتت. قال إثر الضربة الأولى: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة؛ ثم ضربها الثانية، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض؛ ثم ضرب الثالثة، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة». [أحمد: المسند وضعفه محققو الموسوعة الحديثية (١٨٦٩٤)؛ النسائي، بسند حسن وأصله عند البخاري (٤٠٩٨) ومسلم (١٨٠٣)].

وفي هذا الحديث بشارة بأن هذه المناطق سيفتحها المسلمون مستقبلاً، وهو ما حدث فعلاً، وكان موقف المؤمنين من هذه البشارة ما حكاه القرآن الكريم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَسَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وموقف المنافقين الذين سخروا من البشارة: ﴿وَلَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] [قال الواحدي: (وزعم ابن السائب أن القائل مُعْتَبَرُ بْنُ قُشَيْرٍ)].

وصورت الآيات من [١٣ إلى ٢٠] من سورة الأحزاب نفسية المنافقين تصويراً دقيقاً، وحكت أقوالهم في الإرجاف والتخذيل، وأساليبهم في التهرب من العمل في حفر الخندق وجهاد العدو.

ومع تخذيل المنافقين وقلة الطعام وشدة البرد، فقد تم حفر الخندق ليكون خط دفاع متين؛ ثم جمع النساء والأطفال وأصحاب الأعدار في حصن فارع [مسلم]، وهو لبني حارثة، لأنه كان أ منع حصون المسلمين آنذاك. [ابن إسحاق؛ الطبراني، برجال ثقات كما في المجمع؛ الواقدي].



وكانت خطة المسلمين أن يكون ظهرهم إلى جبل سَلْعٍ داخل المدينة [ابن إسحاق] ووجوههم إلى الخندق الذي يحجز بينهم وبين المشركين الذين نزلوا رومة بين الجرف والغابة ونقمت. [الطبري: التفسير، من مرسل عروة].

وعندما نظر الرسول ﷺ في حال العدو وحال المسلمين ورأى ضعف المسلمين وقوة المشركين، أراد أن يكسر شوكة المشركين، فبعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عباد زعيم الأنصار، فاستشارهما في الصلح الذي عرضته عليه قبيلة غطفان، وهو أن يعطوا ثلث ثمار المدينة لعام كي ينصرفوا عن قتال المسلمين، ولم يبق إلا التوقيع على صحيفة الصلح، فقالا له: «لا والله ما أعطينا الدنية من أنفسنا في الجاهلية فكيف وقد جاء الله بالإسلام». وفي رواية الطبراني أنها قالوا: «يا رسول الله: أوحى من السماء فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك؟ فأبينا تبع هواك ورأيك، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فو الله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ما ينالون منا ثمرة إلا شراء أو قرى». فقطع رسول الله ﷺ المفاوضة مع الأعراب الذين كان يمثلهم الحارث الغطفاني، قائد بني مُرَّة. [البزار والطبراني، بإسنادين حسنين؛ ابن إسحاق؛ ابن سعد؛ ابن أبي شيبة في المصنف].

وفي الجانب الآخر أراد يهود بني النضير أن يجروا معهم إخوانهم يهود بني قريظة إلى نقض العهد والغدر بالمسلمين والوقوف مع الأحزاب. فأوفدوا حييًّا بن أخطب للقيام بهذه المهمة. فجاء حيي إلى كعب بن أسد القرظي. وبعد حوار طويل بينهما أقنعه بنقض العهد مع المسلمين بحجة قوة الأحزاب ومقدرتهم على استئصال المسلمين، وأغراه بأن يدخل معه حصنه عندما ينصرف الأحزاب، بعد أداء مهمتهم. [ابن إسحاق؛ البيهقي: الدلائل، من حديث ابن عبة].

وكان يومًا عصيبًا من الدهر، ذلك اليوم الذي علم فيه المسلمون نقض بني قريظة ما بينهم وبين المسلمين من عهد. وتكمن خطورة ذلك في موقعهم الذي يمكنهم من



تسديد ضربة غادرة للمسلمين من الخلف. فقد كانت ديارهم في العوالي، إلى الجنوب الشرقي للمدينة على وادي مهزور. [الحموي: معجم البلدان].

لقد أتاه الزبير بما يدل على غدرهم، ويومها قال له الرسول ﷺ: «فداك أبي وأمي، إن لكل نبي حوارياً، وحواريّ الزبير» [متفق عليه]. ولزيادة الحيلة والحذر والتأكد من مثل هذه الأمور الخطيرة، أرسل الرسول ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عباد وعبدة الله بن رواحة وخوات بن جبير، فجاءوا إلى بني قريظة وتحدثوا معهم، ووجدوهم قد نكثوا العهد ومزقوا الصحيفة التي بينهم وبين الرسول ﷺ إلا بني سعية [ابن إسحاق]، فإنهم جاؤوا إلى المسلمين وفاء بالعهد. وعاد رسل المسلمين إلى الرسول ﷺ بالخبر اليقين. [ابن إسحاق؛ دلائل البيهقي، من حديث ابن عتبة؛ ابن سعد؛ الواقدي].

وعندما شاع هذا الخبر خاف المسلمون على ذرايعهم من بني قريظة [نفسه]، ومروا بوقت عصيب وابتلاء عظيم. ونزل القرآن واصفاً هذه الحالة: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ١١﴾ [الأحزاب: ١٠-١١]. [ابن إسحاق؛ الطبري: التفسير، والأسانيد تعتضد].

فالذين جاؤوهم من فوقهم هم الأحزاب، وبني قريظة من أسفل منهم، والذين ظنوا بالله الظنون هم المنافقون. أما المؤمنون فقد صمدوا لهذا الامتحان. واتخذوا كل الوسائل الممكنة لاجتياز الامتحان، فنظموا فرقاً للحراسة، فكان سلمة بن أسلم الأوسي أميراً لماثي فارس وزيد بن حارثة أميراً لثلاثمئة فارس، يطوفون المدينة ويكبرون لإشعار بني قريظة باليقظة حتى لا تحدثهم أنفسهم بأن يغدروا بالذرية التي في الحصون. [ابن سعد؛ الواقدي].



وعندما وصلت الأحزاب المدينة فوجئوا بوجود الخندق، فقاموا بعدة محاولات لاقتحامه، ولكنهم فشلوا لأن المسلمين كانوا يمطرونهم بوابل سهامهم كلما هموا بذلك، ولذا استمر الحصار لمدة أربع وعشرين ليلة. [ابن سعد، من مرسل ابن المسيب، وهو قوي].

وذكر ابن إسحاق وابن سعد أن بعض المشركين اقتحموا الخندق، وعد ابن إسحاق منهم: عمرو بن عبد ودّ، وعكرمة بن أبي جهل، وهُبَيْرَةُ بن أبي وهب، وضَرَّار ابن الحَقَّاب الشاعر بن مِرْدَاس، وزاد ابن سعد واحدًا على هؤلاء وهو: نَوْفَل ابن عبد الله. وذكر أن عليًا بارز عمرو بن عبد ود - فارس قريش - وقتله، وأن الزبير قتل نوفلاً المخزومي، وأن الثلاثة الآخرين فروا إلى معسكرهم.

وظلت مناوشات المشركين للمسلمين وتراشقهم معهم بالنبل دون انقطاع طيلة مدة الحصار، حتى إنهم شغلوا المسلمين يومًا عن أداء صلاة العصر، فصلوها بعد الغروب [البخاري]. وذلك قبل أن تشرع صلاة الخوف، حيث شرعت في غزوة ذات الرقاع [البخاري] على رأي من يرى أن ذات الرقاع كانت بعد غزوة الخندق.

وقتل في هذه المناوشات ثلاثة من المشركين واستشهد ستة من المسلمين [ابن إسحاق؛ ابن سعد، الواقدي] منهم سعد بن معاذ، الذي أصيب في أَكْحَلِهِ - عِرْقٌ في وسط الذراع - رماه حَبَّان بن العَرِقة. وقد نصبت له خيمة في المسجد ليعوده الرسول ﷺ من قريب، ثم مات بعد غزوة بني قريظة، حين انتقض جرحه [البخاري]. وكانت تقوم على تمريضه رُفيدة الأسلمية [ابن إسحاق]. وكان قد دعا الله أن يبقيه لحرب قريش إن كان قد بقي منها شيء ليجاهد فيهم وأن يفجر جرحه فيموت إن كان الله قد وضع الحرب بين قريش والمسلمين - إشارة - إلى هذه الحرب. فانفجر جرحه، فكان سبب موته [البخاري] وزاد ابن إسحاق أنه دعا الله قائلاً: «ولا تمنني حتى تفر عيني من بني قريظة».



وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق وبني قريظة: «حم، لا ينصرون» [ابن إسحاق؛ أبو داود؛ الترمذي؛ أحمد: المسند؛ الحاكم؛ ويصح الخبر بشواهده ومتابعته].

لقد كفى الله المؤمنين القتال فهزم الأحزاب بوسيلتين: الأولى: تسخير الله نعيم ابن مسعود ليخذل الأحزاب، والثانية: الرياح الهوجاء الباردة.

١- دور نعيم بن مسعود:

روى ابن إسحاق والواقدي وعبد الرزاق وموسى بن عقبة [البیهقي: الدلائل، مرسلاً عن الزهري] أن نعيم بن مسعود الغطفاني، أتى النبي ﷺ مسلماً وعرض عليه أن يقوم بتنفيذ أي أمر يريده النبي ﷺ فقال له ﷺ: «إنما أنت رجل واحد فينا، ولكن خذل عنا إن استطعت. فإن الحرب خدعة». [والحرب خدعة حديث متفق عليه].

وقبل أن يُعرف إسلام نعيم، أتى بني قريظة، فأقنعهم بعدم التورط مع قريش في قتال حتى يأخذوا منهم رهائن، لكيلا يولوا الأدبار، ويتركوهم وحدهم يواجهون مصيرهم مع المسلمين بالمدينة. ثم أتى قريشاً فأخبرهم أن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا، وأنهم قد اتفقوا سراً مع رسول الله ﷺ على أن يُختطفوا عدداً من أشرف قريش وغطفان فيسلموهم له ليقتلهم دليلاً على ندمهم، وقال لهم: فإن أرسلت إليكم يهود يلبسون منكم رهناً من رجالكم فإياكم أن تسلموهم رجلاً منكم. ثم أتى غطفان وقال لهم مثل الذي قاله لقريش. وبذلك زرع بذور الشك بينهم. وأخذ كل فريق يتهم الفريق الآخر بالخيانة.

٢- معجزة الرياح والبرد:

هبّت ريح هوجاء في ليلة مظلمة باردة، فقلبت قدور المشركين، واقتلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، ودفنت رحالهم، فما كان من أبي سفيان إلا أن ضاق بها ذرعاً فنادى



في الأحزاب بالرحيل [ابن سعد؛ البيهقي: الدلائل، من مرسل ابن عقبة]. وكانت هذه الريح من جنود الله ﷺ الذين أرسلهم على المشركين، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الأحزاب: ٩).

وروى مسلم بسنده عن حذيفة بن اليمان طرفاً مما حدث في تلك الليلة الحاسمة، قال حذيفة: «لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقرٌّ، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة»، فسكتنا فلم يجبه منا أحد،... (ردد ذلك ثلاثاً) ثم قال: قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم، فلم أجد بُدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم. قال: اذهب فأتني بخبر القوم ولا تَدْعَرْهُمْ عَلِيًّا. فلما وليت من عنده جعلت كأنها أمشي في حَمَام، حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يُصلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كَبِدِ القوس، فأردت أن أَرْمِيَهُ، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «ولا تَدْعَرْهُمْ عَلِيًّا»، ولو رَمَيْتُهُ لأَصَبْتَهُ، فرجعت، وأنا أمشي في مثل الحمام. فلما أتيتهُ فأخبرته بخبر القوم، وَفَرَّغْتُ، قُرِزْتُ، فألبسني رسول الله ﷺ من فَضْلِ عَبَاءَةٍ كانت عليه يصلي فيها. فلم أزل نائماً حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: قُمْ يَا نَوْمَانُ».

وزاد ابن إسحاق [من مرسل القرظي] في روايته لهذا الخبر: «... فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تُفَرُّهُمْ قَدَرًا وَلَا نَارًا وَلَا بِنَاءً، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جلسيه؟ فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جانبي فقلت له: من أنت؟ قال: فلان بن فلان. ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون... فارتحلوا فإني مرتحل».



وفي رواية الحاكم [صححها ووافقه الذهبي] والبزار [برجال ثقات، كما في المجمع]:
 «... فانطلقت إلى عسكرهم فوجدت أبا سفيان يوقد النار في عُصْبَةٍ حوله، قد تفرق
 الأحزاب عنه، حتى إذا جلست فيهم فحسب أبو سفيان أنه دخل فيهم من غيرهم، قال:
 ليأخذ كل رجل منكم بيد جلسه، فضربت بيدي على الذي يميني وأخذت بيده، ثم
 ضربت بيدي على الذي عن يساري فأخذت بيده، فلبثت هُتَيْهَةً، ثم قمت فأتيت رسول
 الله ﷺ... قلت: يا رسول الله، تفرق الناس عن أبي سفيان، فلم يبق إلا عصبة توقد النار
 قد صب الله عليه من البرد مثل الذي صب علينا، ولكننا نرجوا من الله ما لا يرجون».

وختم الله هذا الامتحان الرهيب بهذه النهاية السعيدة، وجنب المسلمين شر القتال،
 قال تعالى معلقاً على هذه الخاتمة: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمَنَائُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
 الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وكانت هذه الخاتمة استجابة لضراعة النبي ﷺ إلى الله أثناء محنة الحصار: «اللهم
 منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم». [مسلم].

لقد بذلت الأحزاب أقصى ما يمكنهم لاستئصال المسلمين، ولكن الله ﷻ ردهم
 خائنين، وهذا يعني أنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً في المستقبل، ولذا قال
 الرسول ﷺ: «الآن نفزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم». [البخاري]. وهذا عَلمٌ من
 أعلام النبوة، لأن الذي حدث بعد هذا هو ما ذكره الرسول ﷺ.

● حكم وعبر في غزوة الخندق:

١- إن حفر الخندق يدخل في مفهوم المسلمين لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا
 اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فينبغي على المسلمين اتخاذ وسائل القوة المتاحة مهما كان
 مصدرها، لأن الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجدها التقطها.



٢- لقد ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى للحكام والمحكومين في العدالة والمساواة وعدم الاستئثار بالراحة يوم وقف جنباً إلى جنب مع أفراد جيشه ليعمل بيده في حفر الخندق. وهذه هي صفة العبودية الحقة التي تجلت في شخصية الرسول ﷺ.

٣- أعطى الرسول ﷺ مثلاً آخر على رأفته بالمؤمنين، يوم شاركهم في حفر الخندق ويوم أشركهم معه في طعيم جابر، ولم يستأثر به مع قلة من الصحابة. وفي ضوء هذه المعاني يفهم قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

٤- إن مجموعة المعجزات التي أجراها الله على يد نبيه محمد ﷺ أيام الخندق، سواء التي كانت في حفر الخندق أو تكثير طعيم جابر أو الرياح التي كانت نقمة على المشركين، هي مجموعة أخرى في سلسلة المعجزات الكثيرة التي أيد الله بها نبيه، ليقطع الحجة لدى المعاندين من المنافقين والمشركين وكل صنف من أصناف أعداء الدين. وقد أفردنا فصلاً لها.

٥- إن الحكمة في استشارته ﷺ لبعض أصحابه في الصلح الذي اقترحه غطفان على الرسول ﷺ، هو أن الرسول ﷺ كان يريد أن يطمئن إلى مدى ما يتمتع به أصحابه من القوة المعنوية والاعتماد على نصر الله ﷻ وتوفيقه على الرغم من ذلك الذي فوجئوا به من اجتماع أشتات المشركين عليهم في كثرة ساحقة، إلى جانب خذلان بني قريظة للمسلمين ونقض مواعيثهم معهم.

٦- وأما الدلالة التشريعية في هذه الاستشارة، فهي محصورة في مجرد مشروعية مبدأ الشورى في كل ما لا نص فيه. وهي بعد ذلك لا تحمل أي دلالة على جواز صرف المسلمين أعداءهم عن ديارهم إذا ما اقتحموها، باقتطاع شيء من أرضهم أو خيراتهم



لهم. إذ إن مما هو متفق عليه في أصول الشريعة الإسلامية أن الذي يحتج به من تصرفاته ﷺ إنما هو أقواله، وأفعاله التي قام بها، ثم لم يرد اعتراض عليها من الله في كتابه العزيز. وليس في هذه الاستشارة دليل على جواز دفع المسلمين الجزية إلى أعدائهم. أما إذا أُلجئوا إلى اقتطاع جزء من أموالهم فعليهم التريص بأعدائهم لاسترداد حقهم المسلوب. [انظر: البوطي: السيرة].

٧- عندما شغل المشركون الرسول ﷺ وأصحابه عن صلاة العصر، صلوا قضاء بعد المغرب، وفي هذا دليل على مشروعية قضاء الفائتة.





الفصل الحادي عشر غزوة بني قريظة

وقعت هذه الغزوة بعد غزوة الأحزاب مباشرة، في آخر ذي القعدة وأول ذي الحجة من السنة الخامسة الهجرية [ابن سعد؛ ابن إسحاق].

وواضح من سير الأحداث أن سبب الغزوة كان نقض بني قريظة العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ، بتحريض من حُيَيِّ بن أخطب النضري [عبد الرزاق]. وقد سبق أن ذكرنا من رواية الصحيحين أن الرسول ﷺ أرسل الزبير لمعرفة نيتهم، ثم أتبعه بالسعدين [ابن معاذ وابن عباد] وابن رواحة وخوات لذات الهدف ليتأكد من غدرهم.

ولأن هذا النقض وهذه الخيانة قد جاءت في وقت عصيب، فقد أمر الله تعالى نبيه بقتالهم بعد عودته من الخندق ووضعه السلاح [البخاري]. وامتنالاً لأمر الله ﷻ أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يتوجهوا إلى بني قريظة، وتوكيداً لطلب السرعة أوصاهم قائلاً: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، كما في رواية البخاري، أو- الظهر- كما في رواية مسلم.

وعندما أدركهم الوقت في الطريق، قال بعضهم: «لا نصلي حتى نأتي قريظة؛ وقال البعض الآخر: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فلم يُعَنَّفْ واحداً منهم» [متفق عليه]. وهذا اجتهد منهم في مراد الرسول ﷺ. [ابن إسحاق، مراسلاً].

قال ابن حجر [في الفتح]: (... وقد جمع بعض العلماء بين الروایتين - البخاري ومسلم - باحتمال أن يكون بعضهم قبل الأمر كان صلى الظهر، وبعضهم لم يصلها، فقليل لمن لم يصلها: لا يصلين أحد الظهر، ولمن صلاها: لا يصلين أحد العصر. وجمع



بعضهم باحتمال أن تكون طائفة منهم راحت بعد طائفة فقيل للطائفة الأولى: الظهر، وقيل للطائفة التي بعدها: العصر، وكلاهما جمع لا بأس به...).

خرج الرسول ﷺ في ثلاثة آلاف مقاتل معهم ستة وثلاثون فرساً [ابن سعد]، وضرب الحصار على بني قريظة لمدة خمس وعشرين ليلة على الأرجح [أحمد: المسند، بسند جيد]، وضيق عليهم الخناق حتى عظم عليهم البلاء، فرغبوا أخيراً في الاستسلام، وقبول حكم الرسول ﷺ فيهم. واستشاروا في ذلك حليفهم أبا لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه، فأشار إلى أن ذلك يعني الذبح. وندم على هذه الإشارة، فربط نفسه إلى إحدى سواربي المسجد النبوي، حتى قبل الله توبته. [نفسه].

وعندما نزلوا على حكم الرسول ﷺ أحب أن يكل الحكم عليهم إلى واحد من رؤساء الأوس، لأنهم كانوا حلفاء بني قريظة، فجعل الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ، فلما دنا من المسلمين قال الرسول ﷺ للأنصار: «قوموا إلى سيدكم، أو خيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك. قال: تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم. فقال له النبي ﷺ: قضيت بحكم الله تعالى». [متفق عليه].

ونفذ الرسول ﷺ حكم الله ﷻ فيهم. وكانوا أربعمائة على الأرجح. ولم ينج إلا بعضهم [متفق عليه]، وهم ثلاثة، لأنهم أسلموا، فأحرزوا أموالهم [ابن إسحاق، حسن لغيره]، وربما نجا اثنان آخران منهم بحصولهم على الأمان من بعض الصحابة، أو لما أبدوه من التزام بالعهد أثناء الحصار [ابن إسحاق]. وربما نجا آخرون لا يتجاوزون عدد أفراد أسرة واحدة، إذ يفهم من رواية عند ابن إسحاق وغيره [مثل أبي عبيد في الأموال] أن الرسول ﷺ وهب لثابت بن قيس بن الشَّمس ولد الزُّبَيْر بن بَاطَا القُرْظِي، فاستحياهم، منهم عبد الرحمن بن الزبير، الذي أسلم، وله صحبة.



وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأستاذ الدكتور محمد بن فارس الجميل قام بدراسة الروايات الخاصة بالعدد المقتول، في كتابه: (النبي ﷺ ويهود المدينة)، ومال إلى قبول رواية الإمام الزهري التي تقول بأن القتلى كانوا أربعين فقط. والدراسة ممتازة، ونؤيده وجزاه الله خيراً.

وجمعت الأسرى في دار بنت الحارث النجارية [ابن إسحاق، الواقدي]، ودار أسامة ابن زيد [مغازي عروة؛ الواقدي]، وحفرت لهم الأخاديد في سوق المدينة، فسيقوا إليها المجموعة تلو الأخرى لتضرب أعناقهم فيها [أحمد: المسند، حسن؛ الترمذي صحيح]. وقتلت امرأة واحدة منهم [ابن إسحاق؛ حسن لذاته]، لقتلها خلاد بن سويد رضي الله عنه حيث ألقت عليه برحى [أحمد: المسند، من حديث ابن إسحاق بسند حسن]. ولم يقتل الغلمان ممن لم يبلغوا سن البلوغ. [ابن إسحاق، بسند حسن].

ثم قسم الرسول ﷺ أموالهم وذراريهم بين المسلمين.

● مصير بعض سبي بني قريظة:

● ذكر ابن إسحاق وغيره [مثل الواقدي] أن رسول الله ﷺ بعث سعد بن زيد الأنصاري بسبايا من سبابا بني قريظة إلى نجد، فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحاً. وذكر الواقدي في شأن بيع سبابا بني قريظة قولين آخرين إضافة إلى ما ذكره ابن إسحاق، والقولان هما:

١- بعث رسول الله ﷺ سعد بن عبادة إلى الشام بسبايا لبيعهم ويشتري بهم سلاحاً وخيلاً.

٢- اشترى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه جملة من السبايا... إلخ. ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة بأن ذلك كله قد حدث.



واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم رِيحانة بنت عمرو بن خنافة، وأسلمت. وقد توفي عنها رسول الله ﷺ وهي في ملك يمينه، وكان ذلك باختيارها. [ابن إسحاق. بسند مرسل يعتضد].

• أحكام وحكم ودروس وعبر من غزوة بني قريظة:

١- جواز قتل من نقض العهد. ولا زالت الدول تحكم بقتل الخونة الذين يتواطؤون مع الأعداء حتى زماننا هذا. وهو ما يسمى بالخيانة العظمى.

٢- جواز التحكيم في أمور المسلمين ومهامهم. كما في تحكيم ابن معاذ.

٣- مشروعية الاجتهاد في الفروع، ورفع الحرج إذا وقع الخلاف فيها. فقد اجتهد الصحابة في تفسير قول الرسول ﷺ: «ألا لا يصلين أحد العصر - أو الظهر - إلا في بني قريظة»، ولم يُحطَى الرسول ﷺ أحدًا منهم.

٤- ذكر النووي [في شرحه على صحيح مسلم] أن جماهير العلماء احتجوا بقول الرسول ﷺ: «قوموا إلى سيدكم أو خيركم...» وغيره على استحباب القيام لأهل الفضل، وليس هذا من القيام المنهي عنه، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه وهو جالس ويمثلون قيامًا طوال جلوسه، وقد وافق النووي جماهير العلماء في هذا، ثم قال: (القيام للقدام من أهل الفضل مستحب، وقد جاء فيه أحاديث، ولم يصح في النهي عنه شيء صريح. وقد جمعت كل ذلك مع كلام العلماء عليه في جزء [مطبوع] وأجبت فيه عما توهم النهي عنه...).

٥- قال الدكتور البوطي [في فقه السيرة]: (واعلم أن هذا كله لا يتنافى مع ما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحب أن يتمثل له الناس قيامًا فليتبوأ مقعده من النار»، لأن مشروعية إكرام الفضلاء لا تستدعي السعي منهم إلى ذلك، أو تعلق قلوبهم بمحبته، بل



إن من أبرز صفات الصالحين أن يكونوا متواضعين لإخوانهم، زهادًا في طلب هذا الشيء... غير أن من أهم ما ينبغي أن تعلمه في هذا الصدد أن لهذا الإكرام المشروع حدودًا إذا تجاوزها، انقلب الأمر محرّمًا، واشترك في الإثم كل من مقترفه والساكت عليه.

فمن ذلك ما قد تجده في مجالس بعض المتصوفة من وقوف المريدين عليهم وهم جلوس، يقف الواحد منهم أمام شيخه في انكسار وذل... ومنه ما يفعله بعضهم من السجود على ركة الشيخ أو يده عند قدومه عليه، أو ما يفعله من الحُبّو إليه عندما يغشى المجلس... فالإسلام قد شرح مناهج للتربية وحظر على المسلمين الخروج عليها، وليس بعد الأسلوب النبوي في التربية من أسلوب يقر).



الفصل الثاني عشر: أبرز الغزوات والسرايا والأحداث بين غزوة بني قريظة والحديبية

● المبحث الأول: سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلام بن أبي الحقيق (أبي رافع)

لقد قدمنا أن أبا رافع كان ممن ألب الأحزاب على رسول الله ﷺ وكان يؤدي رسول الله ﷺ ويعين عليه [البخاري]. فقد أعان غطفان وغيرهم من مشركي العرب بالمال الكثير على رسول الله ﷺ. [ابن حجر: الفتح، عن أبي الأسود].

رغبت الخزرج في قتل أبي رافع مساواة للأوس في قتل كعب بن الأشرف، وذلك بعد الفراغ من بني قريظة. وكان الله ﷻ قد جعل هذين الحيين يتصاولان بين يدي رسول الله ﷺ في الخيرات، فاستأذنه في قتله، فأذن لهم، ونهاهم أن يقتلوا وليدًا أو امرأة. [ابن إسحاق، مرسلاً]. [ووصية الرسول ﷺ في عدم قتل الأطفال والنساء والأجراء والرهبان وكبار السن وكل من ليس طرفًا في القتال فثابتة]

فخرج من المدينة خمسة من الخزرج إلى حصن أبي رافع بخيبر من أرض الحجاز للقضاء عليه. وقد أمر الرسول ﷺ عليهم عبد الله بن عتيك.

فلما دنوا، وقد غربت الشمس، وراح الناس بِسَرَجِهِمْ، قال عبد الله لأصحابه: «اجلسوا مكانكم فإني منطلق فَمَتَلَطُّفُ للبواب لعلي أدخل». «فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته. وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل لأغلق، فدخل، فكمن، فأغلق البواب الباب، وعلق الأقاليد على وَتَدَ، فقام ابن عتيك ففتح الباب، ثم توجه إلى بيت أبي رافع، وأخذ في فتح الأبواب التي توصل إليه، وكلما فتح بابًا أغلقه من داخل حتى انتهى إليه، فإذا هو في

بيت مظلم وسط عياله. فلم يمكنه تمييزه، فنادى: يا أبا رافع، فقال: من؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت، فلم يغن شيئاً، فعاد عبد الله يناديه، وفي كل مرة يغير صوته، حتى استمكن منه وقتله دون أن يؤذي أحداً من ولده أو زوجته.

ثم خرج من البيت، وكان بصره ضعيفاً، فوقع من فوق السلم، فانخلعت رجله، فعصبتها بعمامته، وتحامل على نفسه حتى جاء إخوانه فأخبرهم، فعادوا إلى الرسول ﷺ، فلما رأهم قال: «أفلحت الوجوه»، وحدثوه بما حدث، ثم قال لعبد الله: «أبسط رجلك»، فمسحها ﷺ فكانه لم يشتكها قط [البخاري].

وقد اختلف أهل السير في تاريخ هذه السرية: فعند الواقدي أنهم خرجوا ليلة الاثنين في السحر لأربع خلون من ذي الحجة، على رأس ستة وأربعين شهراً من الهجرة وغابوا عشرة أيام، وعند ابن سعد أنها في رمضان سنة ست من الهجرة وعند الطبري أنها في النصف من جمادى الآخرة من السنة الثالثة الهجرية، وقيل في ذي الحجة سنة خمس، وقيل في سنة أربع، وقيل في رجب سنة ثلاث [ابن حجر: الفتح].

والراجح أنه بعد الخندق وقريظة، لأنه ممن ألب الأحزاب على المسلمين. فإذا كان الرسول ﷺ قد فرغ من بني قريظة في منتصف ذي القعدة فتكون هذه السرية بعد هذا التاريخ بقليل. وعموماً فإن كل ذلك لم ترد فيه روايات صحيحة من الناحية الحديثية، حسب علمي المحدود.

● المبحث الثاني: سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء

● أرسل النبي ﷺ محمد بن مسلمة في ثلاثين راكباً لشن الغارة على القرطاء، وهم بطن من بني بكر بن كلاب، وذلك في العاشر من المحرم من السنة السادسة، على رأس



تسعة وخمسين شهرًا من الهجرة [ابن سعد؛ الواقدي]. فسار إليهم يكمّن النهار ويسير الليل حتى دهمهم على غرّة، فقتلوا منهم عشرة، وفر الباقون. واستاقوا الإبل والشاء. ولقيهم ثُمَامَةُ بن أُثَال الحنفي، سيد بن حنيفة، وهم في طريق عودتهم إلى المدينة، فأسروه، وهم لا يعرفونه. فقدموا به المدينة، وربطوه بسارية من سواري المسجد. فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: «ما عندك؟ قال: عندي يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكرك، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد قال له ما قال بالأمس، فأجابه ثُمَامَةُ بمثل ما أجاب. فأمر رسول الله ﷺ بإطلاقه. فانطق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد وتلفظ بالشهادتين، وذكر للرسول ﷺ أن وجهه أصبح أحب الوجوه إليه، وأن دينه أصبح أحب الدين كله إليه، وأن بلده أصبحت أحب البلاد كلها إليه، بعد أن كان ذلك كله أبغض الأشياء إليه. وقال إنه كان في طريقه إلى العمرة عندما أسر، فبشره رسول الله ﷺ وأذن له بالعمرة. فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت يا ثُمَامَةُ. قال: لا، ولكن أسلمت، وأقسم ألا يأتيهم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ [البخاري]. وأبر بقسمه. فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثُمَامَةُ ليخلي لهم حمل الطعام، فأذن النبي ﷺ في ذلك». [ابن هشام].

وكان له دور إيجابي في حركة الردة حين ثبت على الإسلام مع قومه بني سُحَيْم، وكانوا ثلاثمئة رجلًا كما ذكر السهيلي.

فوائد من قصة ثُمَامَةُ:

١ - قال ابن حجر [في الفتح]: (وفي قصة ثُمَامَةُ من الفوائد: ربط الكافر في المسجد، والمن على الأسير الكافر، وتعظيم أمر العفو عن المسيء، لأن ثُمَامَةَ أقسم أن بغضه



انقلب حباً في ساعة واحدة لما أسداه النبي ﷺ إليه من العفو والمن بغير مقابل. وفيه الاغتسال عند الإسلام، وأن الإحسان يزيل البغض ويثبت الحب، وأن الكافر إذا أراد عمل خير ثم أسلم شرع له أن يستمر في عمل ذلك الخير. وفيه الملاطفة بمن يرجى إسلامه من الأسرى، إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام، ولا سيما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير من قومه. وفيه بعث السرايا إلى بلاد الكفار، وأسر من وجد منهم، والتخيير بعد ذلك في قتله أو الإبقاء عليه).

• المبحث الثالث: سرية كُرْز بن جابر الفهري إلى العُرنَيْنين:

• قدم على رسول الله ﷺ جماعة من عُكَلٍ وعُرَيْنَةٍ، في شوال من العام السادس الهجري [ابن سعد؛ الواقدي]، وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمرهم رسول الله ﷺ بِذَوْدٍ وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها ويتمسحوا بأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا الذَّود. [والذود: الإبل إذا كانت ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقيل ما بين الثنتين إلى التسعة، وهي من الإناث دون الذكور].

فبلغ النبي ﷺ خبرهم فبعث الطَّلَبَ في آثارهم، فقبضوا عليهم، فأمر بهم فسمروا أعينهم، وقطعوا أيديهم وأرجلهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم. قال قتادة راوي الحديث: - (بلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة) [البخاري]، وقال في رواية أخرى: (إن ذلك كان قبل أن تنزل الحدود) [نفسه].

وقال أبو قلابة في حديثه: «هؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله». [متفق عليه].

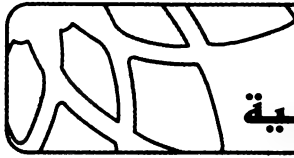
قال الجمهور إن آية الحُرابة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ



يُنْفَوْنَ مِنَ الْأَرْضِ ﴿المائدة: ٣٣﴾ قد نزلت في هؤلاء العرنيين [فقه السنة]. وقيلت أسباب أخرى في نزولها. [الطبري: التفسير].

ومما يستفاد من أحداث هذه السرية أيضًا، أن العلم الحديث قد كشف عن الفائدة الطبية العلاجية لأبوال الإبل وألبانها، مثلما قاله الرسول ﷺ، وفي ذلك لأولي الألباب دليل آخر من بين مئات الأدلة على نبوة محمد ﷺ. وسنذكر هذا الكشف في مكانه من فضل المعجزات النبوية.





الفصل الثالث عشر عمرة وطمح وهدنة الحديبية

[الحديبية اسم بئر تقع على بعد اثنين وعشرين كيلاً شمالي غربي مكة، وتعرف اليوم بالشميسي، وبها حداائق الحديبية ومسجد الرضوان، انظر: نسب حرب، ص ٣٥٠]

• المبحث الأول: أحداث الحديبية

• خرج الرسول ﷺ وأصحابه لأداء العمرة [البخاري] في يوم الاثنين هلال ذي القعدة من السنة السادسة الهجرية. [البخاري؛ الواقدي؛ ابن سعد؛ البيهقي: الدلائل، من مرسل ابن عقبة].

وكان الرسول ﷺ يخشى أن تعرض له قريش بحرب أو يصدوه عن البيت الحرام، لذلك استنفر العرب المسلمين ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، فأبطؤوا عليه، فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار وبمن لحق به من العرب [ابن إسحاق]. وقد كشف القرآن عن حقيقة نوايا الأعراب، فقال: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا يَقُولُونَ بَلْ لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قَوْلَ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنْتَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ [الفتح: ١١-١٢].

وقد ذكر مجاهد [تفسير الطبري، مرسل حسن] أن الأعراب الذين عنتهم الآية هم أعراب جهينة ومزينة؛ وذكر الواقدي أن الأعراب الذين تشاغلوا بأموالهم وأولادهم وذرائعهم هم بنو بكر ومزينة وجهينة.



وفيه من رواية البخاري أن المسلمين كانوا يحملون أسلحتهم استعدادًا للدفاع عن أنفسهم في حالة الاعتداء عليهم.

لقد اتفق خمسة من الذين كانوا في هذه الغزوة على أن عدد من خرج فيها كانوا ألفًا وأربعمائة رجل. [متفق عليه].

صلى المسلمون وأحرموا بالعمرة عندما وصلوا إلى ذي الحليفة [البخاري]، وقلد رسول الله ﷺ الهدي وأشعره، وعددها سبعون بدنة [أحمد: المسند، حسن، ابن إسحاق، حسن]، وبعثها مع نَاجِيَةِ بن جُنْدُب بن عمير الخزاعي الأسلمي [أحمد: المسند، حسن؛ ابن إسحاق]. وبعث بين يديه بشر بن سفيان الخزاعي الكعبي عينًا له إلى قريش ليأتيه بخبرهم. [البخاري؛ ابن إسحاق، حسن].

وعندما وصل المسلمون الرِّوْحَاء [على بعد ٧٣ كيلًا من المدينة] جاءه نبأ عدو بَغِيْقَةَ، [موقع بين مكة والمدينة] فأرسل إليهم طائفة من أصحابه، فيهم أبو قتادة الأنصاري، ولم يكن محرّمًا، فرأى حمارًا وحشيًا، فحمل عليه فطعنه، ورفض أصحابه أن يعينوه عليه، ولكنهم أكلوا منه وهم حرم، ثم شكوا في حل ذلك، فعندما التقوا بالرسول ﷺ في السقيا [على بعد ٨٠ كيلًا من المدينة]، استفتوه في الأمر، فأذن لأصحابه بأكل ما جاؤوه به من بقية اللحم ما داموا لم يعينوا على صيده. [البخاري].

وعندما وصلوا عسفان [على بعد ٨٠ كيلًا من المدينة] جاءهم بسر بن سفيان الكعبي بخبر قريش فقال: «يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العُودُ المطافيل [العود: جمع عائد وهو من الإبل الحديثة التاج. والمطافيل: جمع مطفل: التي معها أولادها والمراد أنهم خرجوا ومعهم النساء والأولاد لئلا يفروا عنهم، وهو على الاستعارة] قد لبسوا جلود النمر، وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم



أبدأ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قدموا كُرَاعَ الْغَمِيمِ». فاستشار النبي ﷺ أصحابه في أن يغيروا على ديار الذين ناصروا قريشاً واجتمعوا معها ليدعوا قريشاً ويعودوا للدفاع عن ديارهم، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه». فقال رسول الله ﷺ: «امضوا على اسم الله». [البخاري].

وعندما علم الرسول ﷺ بقرب خيل المشركين منهم صلى بأصحابه صلاة الخوف بعسفان. [أبو داود، حسن؛ الحاكم، صحيح].

ولتفادي الاشتباك مع المشركين، سلك الرسول ﷺ طريقاً وعرة عبر ثنية المَرَار، وهي مهبط الحديبية، وقال عندما وصلها: «من يصعد الثنية ثنية المَرَار فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل»، فكان أول من صعد لها خيل بني الخزرج، ثم تمام الناس. [مسلم].

وخرجت قريش للقاء المسلمين، فعسكرت ببَلَدَح، [واد بمكة من جهة المغرب، أعلاه في وادي العشر، وأوسطه منطقة الزاهر اليوم، ومصبه في مر الظهران شمالي الحديبية، (البلادي: ص ٤٩، معجم البلدان (١/ ٤٨٠)] وسبقوا المسلمين إلى الماء هنا. [دلائل البيهقي، من مرسل عروة؛ ابن سعد؛ الواقدي].

وعندما اقترب الرسول ﷺ من الحديبية بركت ناقته القصواء، فقال الصحابة رضي الله عنهم: «خَالَاتِ [بركت وحرنت بغير علة ظاهرة] القصواء»، فقال النبي ﷺ: «ما خَالَاتِ القصواء، وما ذاك لها بِخُلُقٍ، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: والذي نفسي بيده، لا يسألونني خُطَّةً يُعْظَمُونَ فيها حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيتهم إياها»، ثم زَجَرَهَا فوثبت، ثم عدل عن دخول مكة وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على ثَمَدٍ - بئر - قليل الماء، ما لبثوا أن نزحوه ثم اشتكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كَنَانَتِهِ ثم أمرهم أن



يجعلوه فيه، فَجَاسَ لَهُم بِالرَّيِّ فَارْتَوَا جَمِيعًا [البخاري]، وفي رواية أنه جلس على شفة البئر فدعا بهاء فمضمض ومج في البئر [نفسه]. ويمكن الجمع بأن يكون الأمران معًا وقعا، كما ذكر ابن حجر [نفسه]. ويؤيده ما ذكره الواقدي وعروة [في الفتح من رواية أبي الأسود] من أن الرسول ﷺ تمضمض في دلو وصبه في البئر ونزع سهما من كِنَانَتِهِ فألقاه فيها ودعا ففارت.

ولخصائص قريش ومكانتها بين العرب، حرص الرسول ﷺ على إسلامهم، وتحسر على عنادهم وخسارة أرواحها في الحروب مع المسلمين، فها هو يعبر عن هذه الحسرة بقوله: «يا ويح قريش، أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش، والله إنني لا أزال أجاهدكم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السَّالِفَةُ [صفحة العنق]...» [أحمد: المسند، حسن؛ ابن إسحاق، حسن].

بذل الرسول ﷺ ما في وسعه لإفهام قريش أنه لا يريد حربًا معهم، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه، وهو حق للمسلمين، كما هو حق لغيرهم، وعندما تأكدت قريش من ذلك أرسلت إليه من يفاوضه ويتعرف على قوة المسلمين ومدى عزمهم على القتال إذا أُلْجِئُوا إِلَيْهِ، وطمعًا في صد المسلمين عن البيت بالطرق السلمية من جهة ثالثة.

فأتاه بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ فِي رَجَالٍ مِنْ خِزَاعَةٍ، وَكَانَتْ خِزَاعَةُ عَيْبَةَ نَصَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةٍ، وَبَيْنُوا أَنْ قَرِيشًا تَعْتَزِمُ صَدَّ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ دُخُولِ مَكَّةَ، فَأَوْضَحَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ سَبَبَ مَجِيئِهِ، وَذَكَرَ لَهُمُ الضَّرْرَ الَّذِي وَقَعَ عَلَى قَرِيشٍ مِنْ اسْتِمْرَارِ الْحَرْبِ، وَاقْتَرَحَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَكُونَ بَيْنَهُمْ هَدَنَةٌ إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ حَتَّى يَتَضَحَّ لَهُمُ الْأَمْرُ، وَإِنْ أَبَوْا فَلَا مَنَاصَ



من الحرب ولو كان في ذلك هلاكه، فنقلوا ذلك إلى قريش [البخاري]، وقالوا لهم: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمدًا لم يأت لقتال، وإنما جاء زائرًا هذا البيت، فاتهموهم وخاطبوهم بما يكرهون، وقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فلا والله لا يدخلها علينا عنوة أبدًا ولا تتحدث بذلك العرب». [أحمد: حسن؛ ابن إسحاق، حسن].

وأراد الرسول ﷺ أن يؤكد هدفه من هذه الزيارة، ويشهد على ذلك كل العرب، ولذا أرسل إلى قريش خراش بن أمية الخزاعي على جملة «الثعلب»، ولكنهم عقروا به جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش [ابن إسحاق، حسن]، لأنهم من قومه. [ابن سعد].

ثم دعا الرسول ﷺ عمر بن الخطاب لبيعته إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال عمر: «يا رسول الله، إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان». فدعا رسول الله ﷺ عثمان فبعثه إليهم. فنزل عثمان في حماية وجوار أبان بن سعيد بن العاص الأموي، حتى أدى رسالته، وأذنوا له بالطواف بالبيت، فقال: «ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ». واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا أصحابه للبيعة تحت شجر سُمرة، فبايعوه جميعًا على الموت [البخاري]، سوى الجُدُّ بن قيس، وذلك لنفاقه. وفي رواية أن البيعة كانت على الصبر [البخاري]، وفي رواية على عدم الفرار [مسلم]، ولا تعارض في ذلك لأن المبايعة على الموت تعني الصبر عند اللقاء وعدم الفرار. [ابن حجر: الفتح].

وكان أول من بايعه على ذلك أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي [ابن هشام، من مرسل الشعبي؛ ابن حجر: الإصابة، من مرسلين حسنين]، فخرج الناس بعده يبايعون على



بيعته، فأثنى عليهم الرسول ﷺ فقال: «أنتم خير أهل الأرض» [البخاري]، وقال: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها». [مسلم].

وأشار رسول الله ﷺ إلى يده اليمنى، وقال: «هذه يد عثمان»، فضرب بها على يده اليسرى، وقال: «هذه لعثمان» [البخاري]. فنال عثمان بذلك فضل البيعة.

وقبل أن تتطور الأمور عاد عثمان رضي الله عنه بعد البيعة مباشرة.

وعرفت هذه البيعة بـ (بيعة الرضوان)، لأن الله تعالى أخبر بأنه رضي عن أصحابها، كما في قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. [الطبري: التفسير، يعتضد؛ الترمذي، حسن لغيره، وأصله عند مسلم].

أرسلت قريش عددًا من السفراء للتفاوض مع المسلمين، بعد سفارة بُدَيْل بن وَرْقَاء. فقد أرسلوا عُرْوَةَ بن مسعود الثقفي، وقبل أن يتحرك خشى أن يناله من التعنيف وسوء المقالة ما نال من سبقه، فبين لهم موقفه منهم، وأقروا له بأنه غير متهم عندهم، وذكر لهم أن الذي عرضه عليهم محمد هو خطة رشد. ودعاهم إلى قبولها، فوافقوا على رأيه.

وعندما جاء إلى الرسول ﷺ قال له ما قال لبديل، فقال عروة عند ذلك: «أي محمد، أَرَأَيْتَ إِنْ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ، هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَنَحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ؟ وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَرَى وَجُوهًا، وَإِنِّي لَأَرَى أَشْوَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفْرُوا وَيَدْعُوكَ». فقال له أبو بكر: «أَمَصَصَ بَطَرَ السَّلَاتِ، أَنْحَنُ نَفْرُ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟...»، وكان كلما تكلم كلمة أخذ بلحية الرسول ﷺ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف، فيضربه بنعل السيف، ويقول: «أَخْرُ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ...»، ولحظ عروة تعظيم الصحابة للرسول ﷺ وحبهم له وتفانيهم في طاعته، فلما



رجع إلى قريش، قال لهم: «أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه مثل ما يعظم أصحاب محمدًا». [البخاري].

ثم بعثوا الحُلَيْس بن عَلَقَمَةَ الكِنَانِي سيد الأَحَابِيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه»؛ فلما رأى الحليس الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، رجع إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، وذلك إعظامًا لما رأى، وقال لقريش: «رأيت البُذْنَ قد قُلِدَتْ وأُشْعِرَتْ، فما أرى أن يصدوا عن البيت» [البخاري]، فقالوا: «اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك». فغضب وقال: «يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، أَيَصَدُّ عن بيت الله من جاءه معظمًا له!! والذي نفس الحليس بيده لَتُخَلَّنَ بين محمد وبين ما جاء له أو لَا تُفَرَّنَ بالأحَابِيش نَفَرَةً رجل واحد»، قالوا: «مَهْ، كُفَّ عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به».

ثم بعثوا إليه مِكَرَز بن حفص، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا مِكَرَزُ وهو رجل فاجر»... فجعل يكلم الرسول ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سُهَيْل بن عمرو رسولاً من قبل قريش، فقال النبي ﷺ متفائلاً: «لقد سهل لكم أمركم» [أحمد، حسن]. وقال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل» [ابن إسحاق، حسن]، وكانت قريش قد قالت لسهيل بن عمرو: «أنت محمدًا فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامة هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عَنَوَةً أبدًا». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح [نفسه].

وعندما بدأ الرسول ﷺ في إملاء شروط الصلح على علي بن أبي طالب، كاتب الصحيفة [متفق عليه]، اعترض سهيل على كتابة كلمة «الرحمن» في البسملة، وأراد بدلًا



عنها أن يكتب «باسمك اللهم»، لأنها عبارة الجاهليين، ورفض المسلمون ذلك، ولكن الرسول ﷺ وافق على اعتراض سهيل. ثم اعترض سهيل على عبارة «محمد رسول الله»، وأراد بدلًا عنها عبارة: «محمد بن عبد الله»، فوافقه أيضًا على هذا الاعتراض.

وحجة سهيل هنا في قوله: (والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا نأتلنأك [أي تقدمنا لخصومتك]..).

وعندما قال الرسول ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به» اعترض سهيل قائلاً: «لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة - قهراً - ولكن ذلك في العام المقبل، فنخرج عنك فتدخلها بأصحابك، فأقمت فيها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب»؛ فوافق الرسول ﷺ على هذا الشرط. ثم قال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا، قال المسلمون: «سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟!» فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل ابن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين. فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إليّ، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، فقال سهيل: والله إذا لم أصالحك على شيء أبداً.

وألح الرسول ﷺ على سهيل أن يستني أبا جندل، فرفض على الرغم من موافقة مكرز على طلب الرسول ﷺ، ولم يجد الرسول ﷺ بداً من إمضاء ذلك لسهيل. [البخاري].

ثم بعد هذا تم الاتفاق على بقية الشروط وهي:

«على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وأن بينهم عيئة [أي صدر صاف من الغل والخداع، مطوي على نية الوفاء بالصلح]،



مَكْفُوفَةٌ، فلا إِسْلَال - سرقة - ولا إِغْلَال - خِيَانَةٌ - وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن مع عقد رسول الله ﷺ وعهده. وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم. [ابن إسحاق، حسن].

لقد تبرم كثير من الصحابة من معظم هذه الشروط. ومن الأدلة على ذلك أن عليًا اعتذر عن محو كلمة «رسول الله» التي اعترض عليها سهيل بن عمرو، فقال له رسول الله ﷺ: «أرني مكانها»، فأراه مكانها، فمحاها رسول الله ﷺ. وكتب (علي مكانها) «ابن عبد الله» [متفق عليه]. وغضبوا لشرط رد المسلمين الفارّين من قريش إلى المشركين، فقالوا: «يا رسول الله، نكتب هذا؟»، قال: «نعم. إنه من ذهب إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا». [مسلم].

ويحكي عمر بن الخطاب مجيئه إلى رسول الله ﷺ غاضبًا عند كتابة ذلك الصلح، قال: «فأتيت نبي الله، فقلت: ألسنت نبي الله حقًا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري. قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى. أفأخبرت أنك تأتية العام؟ قال: قلت: لا. قال: فإنك آتية ومطوف به». وأتى عمر أبا بكر وقال له مثل ما قال للرسول ﷺ، فقال له أبو بكر: «إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بِغُرْزِهِ [طريقه]، فَوَالله إنه على الحق» [مسلم]. وقال عمر: «ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرًا». [ابن إسحاق، حسن]. ولم تطب نفس عمر إلا عندما نزل القرآن مبشرًا بالفتح. [مسلم].



وعندما كان أبو جندل يستنجد بالمسلمين قائلاً: «يا معشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنوني في ديني؟» والرسول ﷺ يقول: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن الله ﷻ جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً». [أحمد وابن إسحاق، حسن] كان عمر يمشي بجانب أبي جندل يغريه بأبيه ويقرب إليه سيفه، لكن أبا جندل لم يفعل، فأعيد إلى المشركين [نفسه]. وذلك لحكمة تجلت للناس فيما بعد، يوم كان أبو جندل وأصحابه سبباً في إلغاء شرط رد المسلمين إلى الكفار، وفي إسلام سهيل وموقفه يوم كاد أهل مكة أن يرددوا عندما مات الرسول ﷺ فثبتهم على الإسلام بكلام بليغ. [ابن حجر: الإصابة - ترجمته].

وقال سهل بن حنيف يوم صفين: «اتهموا رأيكم، رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته». [البخاري]. وعندما أمرهم الرسول ﷺ بأن ينحروا الهدي ويحلّقوا رؤوسهم، لم يقم منهم أحد إلى ذلك، فكرر الأمر ثلاث مرات، فدخل على أم سلمة رضي الله عنها، وحكى لها ما حدث من المسلمين، فأشارت إليه بأن يبدأ هو بها يريد، ففعل، فقاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً. [البخاري].

فدعا الرسول ﷺ لمن حلق منهم ثلاثاً ولمن قصر مرة واحدة [أحمد، حسن]. وكان عدد ما نحروه سبعين بدنة [أحمد، حسن]، كل بدنة عن سبعة أشخاص. [مسلم]. وكان هدي رسول الله ﷺ يومئذ جملاً لأبي جهل من غنائم بدر، نحره ليغيظ بذلك المشركين [أحمد، حسن]. ونحروا بعض الهدي في الحديبية في الحل [البخاري]، والبعض الآخر نحره ناجية بن جندب داخل منطقة الحرم [الطحاوي: شرح معاني الآثار، صحيح]. ولا شك أن هذا التصرف من عمر وغيره من المسلمين ما هو إلا اجتهاد منهم ورغبة في إذلال المشركين [أحمد، حسن].



ولم تتوقف قريش عن التحرش بالمسلمين واستفزازهم خلال مفاوضات كتابة الصلح وبعد كتابته، وقد تصرف الرسول ﷺ والصحابه بانضباط شديد إزاء هذه الأفعال. فعندما حاول ثمانون من رجال مكة مهاجمة معسكر المسلمين على غِرَّة، أسرهم المسلمون، وعفا عنهم الرسول ﷺ [مسلم، أحمد]. وكرر المحاولة ثلاثون آخرون من قريش أثناء إبرام الصلح، فأسروا، وأطلق الرسول ﷺ أيضًا سراحهم. [أحمد، صحيح؛ الحاكم صحيح].

وبعد إبرام الصلح حاول سبعون من المشركين استفزاز المسلمين، فأسروهم. وقبض سلمة بن الأكوع على أربعة من المشركين أساءوا إلى الرسول ﷺ، بعد إبرام الصلح، فعفا عنهم الرسول ﷺ. وقد نزلت في ذلك الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]. [مسلم].

ثم رجع المسلمون إلى المدينة بعد أن غابوا عنها شهرًا ونصف الشهر [عيون الأثر، من حديث ابن عائذ]، منها بضعة عشر يومًا، ويقال عشرين يومًا، مكثوها بالحديبية. [ابن سعد، الواقدي].

وفي طريق العودة تكررت معجزة النبي ﷺ في تكثير الطعام والماء، مثلما حدث في طعام جابر يوم الخندق، وتكثير ماء بئر الحديبية، فقد ذكر سلمة بن الأكوع أنهم عندما أصابهم الجوع وكادوا أن يذبحوا وراحلهم دعا الرسول ﷺ بأزواد الجيش، فلم يتجاوز رُبُضَةَ العَنَزِ، وهم أربعة عشرة مائة، فأكلوا حتى شبعوا جميعًا وحشوا جريهم، ثم جيء له بِإِدَاوَةِ وضوء فيها نطفة ماء فأفرغها في قَدَحٍ، فتوضأ منها كل الجيش». [متفق عليه - وربضة العنز: قدرها وهي رابضة].



ونزلت سورة الفتح، وهم في طريق العودة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾ [الفتح: ١]. وقال عنها الرسول ﷺ: «لقد أنزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس» [البخاري]. وقال عمر متعجباً: «أو فتح هو؟» فقال له الرسول ﷺ: «نعم»، فطابت نفسه ورجع [مسلم]، وفي رواية: «نعم، والذي نفسي بيده إنه لفتح» [البخاري؛ الحاكم، صحيح]. وفرح المسلمون بذلك فرحاً غامراً، وانجلت تلك السحابة من الغم، وأدركوا قصورهم عن إدراك كل الأسباب والنتائج، وأن الخير في التسليم لأمر الله ورسوله. وعندما جاءته أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط مهاجرة لم يردها إلى أهلها عندما طلبوها لما أنزل الله في النساء: ﴿إِذَا جَاءَ كُفْرُ الْمُؤْمِنَاتِ مُهْجَرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ إِنَّهُنَّ عَلِيمٌ بِأِيمَانِهِنَّ ۚ...﴾ [ولا هم يحلون منهن] [المتحنة: ١٠]. فكان الرسول ﷺ لهذا يختبرهن، فإن كن خرجن بسبب الإسلام استبقاهن مع دفع مهورهن لأزواجهن، وكان قبل الصلح لا يعيد إليهم مهور الزوجات. [البيهقي: السنن الكبرى؛ ابن إسحاق].

وهذه الآية الواردة في عدم رد المهاجرات المسلمات إلى الكفار هي التي استثنت من شرط الرد، وحرمت المسلمات على المشركين ﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ [المتحنة: ١٠]. [البخاري].

• المبحث الثاني: فقه وحكم ودروس في صلح وهدنة الحديبية

- ١- عندما وجد سبب مانع من أداء المسلمين لعمرتهم التي أحرموا لها تحللوا، وبذلك شرع التحلل للمعتمر وأنه لا يلزمه القضاء [كتب فقه: أبواب الأحصار].
- ٢- أذن الرسول ﷺ لكعب بن عُجْرَةَ أن يحلق رأسه وهو محرم، لأذى أصابه، على أن يذبح شاة فدية أو يصوم ثلاثة أيام أو يطعم ستة مساكين. ونزلت الآية: ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]. [متفق عليه].



- ٣- أذن النبي ﷺ للصحابة بالصلاة في منازلهم عندما نزل المطر. [ابن ماجه، صحيح].
- ٤- وقعت تطبيقات عملية لمبدأ الشورى في الإسلام، حيث استشارهم في الإغارة على ذراري المشركين الذين يساندون قريشًا، كما ذكرنا. واستشار أم سلمة في أمر الناس عندما أبطؤوا في التحلل، وأخذ برأيها، كما ذكرنا.
- ٥- ويستنتج من مدة الصلح أن الحد الأعلى لمهادنة الكفار عشر سنين، لأن أصل العلاقة معهم الحرب وليس الهدنة. ولكن في الأمر سعة حسب الأحوال.
- ٦- جواز مصالحة الكفار على رد من جاء من قبلهم مسلمًا. إذا دعت الضرورة.
- ٧- استحباب التفاؤل لقوله ﷺ: «سهل أمركم»، وذلك عندما قدم عليهم سهيل ابن عمرو ومفاوضًا.
- ٨- كفر من يقول: «مطرنا بنوء كذا وكذا» والصواب أن يقول: «مطرنا بفضل الله ورحمته». قال ذلك الرسول ﷺ للصحابة عندما صلى بهم الصبح إثر مطر هطل ليلاً. [البخاري].
- ٩- جواز التبرك بآثار النبي ﷺ مثل التوضؤ بماء وضوئه ﷺ [نفسه]، وهو خاص به، خلافًا لآثار الصالحين من أمته. [الشاطبي: الاعتصام].
- ١٠- السنة لمن نام عن صلاته أو نسيها أن يصلّيها وإن خرج وقتها، وذلك لأن المسلمين ناموا عن صلاة الصبح وهم في طريق عودتهم من الحديبية ولم يوقظهم إلا حر الشمس، ونام حارسهم بلال، فصلوها حين استيقظوا. [النسائي: الكبرى، صحيح].
- ١١- في الصلح اعتراف من قريش بكيان المسلمين لأول مرة، فعاملتهم معاملة الند للند.
- ١٢- ذهاب هبة قريش، بدليل مبادرة خزاعة الانضمام إلى حلف المسلمين دون خشية من قريش كما كان في السابق.



١٣- أتاح الصلح للمسلمين التفرغ ليهود خيبر خاصة ويهود تيماء وفدك بصفة عامة.
 ١٤- أتيح للمسلمين مضاعفة جهودهم لنشر الإسلام، وفي ذلك قال الزهري:
 (فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وآمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين [وهي مدة سريان الهدنة] مثل من كان في الإسلام قبل ذلك) [ابن إسحاق، حسن].

وعلق ابن هشام على هذا قائلاً: (والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بستين في عشرة آلاف). [نفسه].

١٥- جاءت نتائج بعض الشروط في صالح المسلمين من ذلك أن أبا بصير عندما فر من المشركين ولجأ إلى المسلمين رده الرسول ﷺ إليهم عندما طلبوه، فعدا على حَارِسِيهِ فقتل أحدهما، وفر الآخر، وعاد أبو بصير إلى المدينة، وقال للرسول ﷺ: «قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله منهم». فقال النبي ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ مِنْعَرَّ حَرْبٍ لو كان له أحد»، ففهم أبو بصير نية الرسول ﷺ في رده إلى المشركين، فلجأ إلى سَيْفِ البحر...». [البخاري]. وفهم المستضعفون المسلمون في مكة إشارة الرسول ﷺ: «مِنْعَرَّ حَرْبٍ لو كان له أحد»، وفروا من مكة، ولحقوا بأبي بصير، وعلى رأسهم أبو جندل. وتكونت منهم عصابة، أخذت تتعرض لقوافل قريش، فأرسلت قريش إلى الرسول ﷺ تناشده أن يعطيهم الأمان بالمدينة، فأرسل إليهم [نفسه]، وهم بناحية العيص، فجاءوا، وكانوا قريباً من الستين أو السبعين رجلاً. [ابن إسحاق، حسن]. [وساقه البيهقي في الدلائل من رواية الزهري مرسلًا، وعنده أنهم صاروا بالعيص ثلاثمائة،



الفصل الثالث عشر: عمرة وصلاح وهدنة الحديبية

وأن كتاب الرسول ﷺ قد جاء إلى أبي بصير وهو محتضر، فمات والكتاب في يده، فدفنه أبو جندل، وعاد ببقية الرجال إلى المدينة، وروى نحوه من مرسل عروة].

١٦ - في قصة أبي بصير وأبي جندل ورفقائهم في العيص، نموذج يقتدى به في الثبات على العقيدة، وبذل الجهد في نصرتها، وعدم الاستكانة للطغاة.





الفصل الرابع عشر غزوة خيبر

لم يبد يهود خيبر عداء سافرًا للمسلمين حتى لحق بهم زعماء بني النضير عندما أُجِّلُوا عن المدينة. وكما سبق وأن ذكرنا، فقد كان أبرز زعماء بني النضير الذين غادروا المدينة ونزلوا خيبر: سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحيي ابن أخطب، فلما نزلوها دان لهم أهلها. [ابن إسحاق].

لقد نزلوها بأحقادهم ضد المسلمين، ولذا كانوا كلما وجدوا فرصة للانتقام من المسلمين انتهزوها، ووجدوا في قوة قريش وبعض قبائل العرب الوسيلة التي سيدخلون بها المدينة مرة أخرى، فآلبوهم ضد المسلمين، ثم جروهم إلى غزوة الخندق [ابن إسحاق، مرسلًا]، وسعوا في إقناع بني قريظة للانضمام إليهم والغدر بالمسلمين [ابن إسحاق]. ولذا كانت تلك العقوبة الرادعة التي أنزلها المسلمون بهم عندما صرف الله الأحزاب، وأرسل الرسول ﷺ سرية عبد الله بن عتيك للقضاء على رأس من رؤوسهم أفلت من العقاب يوم قريظة، وهو سلام بن أبي الحقيق، فقتلوه.

وكانت هدنة الحديبية فرصة أمام المسلمين لتصفية هذا الجيب الذي يشكل خطورة على أمن المسلمين، وقد وعد الله المسلمين بمغانم كثيرة يأخذونها إذا هزموا يهود خيبر، وإلى ذلك أشارت سورة الفتح التي نزلت في طريق العودة من الحديبية ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٨﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ٢١﴾ [الفتح: ١٨-٢١] [ابن كثير:

التفسير؛ ابن حجر: الفتح، من حديث ابن إسحاق في المغازي من حديث المسور ومروان].



• تاريخ الغزوة:

• ذكر ابن إسحاق أنها كانت في المحرم من السنة السابعة الهجرية، وذكر الواقدي أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة بعد العودة من غزوة الحديبية، وذهب ابن سعد إلى أنها في جمادى الأولى سنة سبع، وقال الإمامان الزهري ومالك إنها في المحرم من السنة السادسة [ابن عساكر: تاريخ دمشق]. وظاهر أن الخلاف بين ابن إسحاق والواقدي يسير، وهو نحو الشهرين، وكذلك فإن الخلاف بينهما وبين الإمامين الزهري ومالك مرجعه إلى الاختلاف في ابتداء السنة الهجرية الأولى كما سبق الإشارة إلى ذلك. وقد رجح ابن حجر [الفتح] قول ابن إسحاق على قول الواقدي.

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر وشدة بأس رجالها وعتادهم الحربي. وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فطلب منهم النبي ﷺ أن يرفقوا بأنفسهم قائلاً: «إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم» [البخاري]. وسلكوا طريقاً بين خيبر وغطفان ليحولوا بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، لأنهم كانوا أعداء للمسلمين. [ابن إسحاق].

ونزل المسلمون بساحة اليهود قبل بزوغ الفجر، وقد صلى المسلمون الفجر قرب خيبر، ثم هجموا عليها بعد بزوغ الشمس، وفوجئ أهلها بهم وهم في طريقهم إلى أعمالهم، فقالوا: «محمد والخميس!!» فقال الرسول ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباحُ المنذرين». [متفق عليه].

وهرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون. وقد حاولت غطفان نجدة حلفائهم يهود خيبر، حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهلبيهم حساً فظنوا أن المسلمين قد خالفوا إليهم فرجعوا، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر



[ابن إسحاق؛ الواقدي]، فأخذ المسلمون في افتتاح حصونهم واحدًا تلو الآخر. وكان أول ما سقط من حصونهم نَاعِم والصَّعْب بمنطقة النَّطَاة، وأبي النَّزَار بمنطقة الشَّقِّ، وكانت هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر، ثم حصن القَمْوص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن ابن أبي الحقيق، ثم أسقطوا حصني منطقة الوَطِيح والسُّلالم. [ابن إسحاق، الواقدي].

وقد واجه المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعم الذي استشهد تحته محمود بن مَسْلَمَة الأنصاري، حيث ألقى عليه مَرْحَب رَحَى من أعلى الحصن [ابن إسحاق، حسن]، والذي استغرق فتحه عشرة أيام [الواقدي]؛ فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصديق، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهد الناس، قال رسول الله ﷺ: «إنه سيدفع اللواء غدًا إلى رجل يحببه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، لا يرجع حتى يُفتح له، فطابت نفوس المسلمين، فلما صلى الفجر في اليوم التالي دفع اللواء إلى علي، ففتح الله على يديه». [أحمد، صحيح؛ الحاكم، صحيح وأصل الرواية عند مسلم].

وكان علي يشتكي من رمد في عينيه عندما دعاه الرسول ﷺ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرئ. [مسلم].

وأوصى الرسول ﷺ عليًا بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: «فو الله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم» [مسلم]. وعندما سأله عليٌّ: «يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟» قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». [نفسه].



وعند حصار المسلمين لهذا الحصن برز لهم سيده وبطلهم مَرْحَب، وكان سبباً في استشهاد عامر بن الأكوع، ثم بارزه علي فقتله [ابن هشام]، مما أثار سلبياً في معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم.

وقد أبلى عليٌ بلاءً حسناً في هذه الحرب. ومن دلائل ذلك: روى ابن إسحاق من حديث أبي رافع -مولى رسول الله ﷺ-: «أن علياً عندما دنا من الحصن خرج إليه أهله، فقاتلهم، فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده، فتناول علي باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ. قال الراوي -أبو رافع: فلقد رأيتني في نفر سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه».

وروى البيهقي [في الدلائل] من طريقين مرفوعين إلى جابر رضي الله عنه قصة علي والباب ويوم خيبر. ففي الطريق الأولى: «أن علياً رضي الله عنه حمل الباب حتى صعد عليه المسلمون فافتتحوها، ولم يستطع أربعون رجلاً أن يحملوا هذا الباب» [تتقوى بالمتابعة]. وفي الطريق الثانية: «أنه اجتمع عليه سبعون رجلاً، فأعادوه إلى مكانه بعد أن أجهدهم».

[ضعفها السخاوي في المقاصد الحسنة].

توجه المسلمون إلى حصن الصَّعْب بن مُعَاذ بعد فتح حصن ناعم، وأبلى حامل رايتهم الحُبَّاب بن المنذر بلاءً حسناً حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطعام والمتاع، يوم كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير الذي اجتمع فيه الفارون من حصن ناعم والصعب وبقيّة ما فتح من حصون يهود - فحاصروه وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام، وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النَّطَاة التي كان فيها أشد اليهود.



ثم توجهوا إلى حصون منطقة الشَّق، وبدأوا بحصن أبيّ، فاقتحموه، وأفلت بعض مقاتلته إلى حصن نَزَار، وتوجه إليهم المسلمون فحاصروهم ثم افتتحوا الحصن، وفر بقية أهل الشَّق من حصونهم وتجمعوا في حصن القَمُوص المنيع وحصن الوَطِيح وحصن السُّلَام، فحاصروهم المسلمون لمدة أربعة عشر يومًا حتى طلبوا الصلح. [الواقدي].

وهكذا فتحت خيبر عنوة، استنادًا إلى النظر في مجريات الأحداث التي سقناها، وما روى البخاري ومسلم وأبو داود من أن رسول الله ﷺ غزا خيبر وافتتحها عنوة.

وقتل من اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعون رجلًا [الواقدي]. وسبيت النساء والذراري، منهن صفية بنت حيي بن أخطب، التي اشتراها الرسول ﷺ من دحية، حيث وقعت في سهمه، فأعتقها وتزوجها [متفق عليه]. وقد دخل عليها في طريق العودة إلى المدينة، وتطوع لحراسته في تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري. [الحاكم، صحيح].

واستشهد من المسلمين عشرون رجلًا فيما ذكر ابن إسحاق، وخمسة عشر فيما ذكر الواقدي. ومن استشهد من المسلمين راعي غنم أسود كان أجيرًا للرجل من يهود.

وخلاصة قصته أنه أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر لبعض حصون خيبر ومعه غنم يرعاها لبعض يهود خيبر، فطلب من الرسول ﷺ أن يعرض عليه الإسلام، فعرضه عليه، فأسلم، ثم استفتاه في أمر الغنم، فطلب منه الرسول ﷺ أن يضرب وجوهها، فسترجع إلى أصحابها، فأخذ الراعي حفنة من الحصى فرمى بها وجوهها، فرجعت إلى أصحابها، وتقدم ليقاتل فأصابه حجر فقتله، وما صلى لله صلاة قط، فجيء به إلى رسول الله ﷺ فسُجِّيَ بشمله، فالتقت إليه الرسول ﷺ ثم أعرض عنه، وعندما سئل عن إعراضه قال: «إن معه الآن زوجتيه من الحور العين». [ابن إسحاق؛ الحاكم؛ البيهقي: الدلائل من مرسل ابن عقبة وعروة].



واستشهد أعرابي له قصة دلت على وجود نماذج فريدة من المجاهدين. وخلاصة قصته أنه جاء إلى النبي ﷺ فأسلم، وطلب أن يهاجر مع الرسول ﷺ. فلما كانت غزوة خيبر - وقيل حنين - غنم رسول الله ﷺ وأخرج له سهمه، وكان غائباً حين القسمة، ويرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوا إليه سهمه، فأخذه وجاء به إلى النبي ﷺ وقال: «ما هذا يا محمد؟»، قال النبي ﷺ: «قسم قسمته لك»، قال: «ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرْمَى هاهنا، وأشار إلى حلقه بسهم، فأدخل الجنة»، قال: «إن تصدق الله يصدقك»، ولم يلبث قليلاً حتى جيء به وقد أصابه سهم حيث أشار، فقال الرسول ﷺ: «صدق الله فصدقه»، فكفنه الرسول ﷺ في جبة للنبي ﷺ ودفنه. [عبد الرزاق، صحيح].

وبعد الفراغ من هذه الغزوة حاول اليهود قتل الرسول ﷺ بالسم. فقد أهدته امرأة - زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم، ابنة أخ مرحب - منهم شاة مشوية مسمومة، وأكثر السم في ذراع الشاة عندما عرفت أنه يحبها، فلما أكل الذراع، أخبرته الذراع أنه مسموم، فلفظ اللقمة، واستجوب المرأة، فاعترفت بجريمتها، فلم يعاقبها [متفق عليه] في حينها، ولكنه قتلها عندما مات بِشَرِّ بن البراء بن مَعْرُور من أثر السم الذي ابتلعه مع الطعام عندما أكل مع الرسول ﷺ [الحاكم، عبد الرزاق؛ البيهقي: الدلائل]. واختلف العلماء في هذا.

وتم الصلح في النهاية بين الطرفين وفق الشروط الآتية:

- بالنسبة للأراضي والنخيل - أي الأموال الثابتة: دفعها لهم الرسول ﷺ على أن يعملوا عليها ولهم شطر ما يخرج منها. [متفق عليه].
- أن ينفقوا من أموالهم على خدمة الأرض [مسلم].
- أما بالنسبة لوضعهم القانوني، فقد تم الاتفاق على أن بقاءهم بخيبر مرهون بمشيئة المسلمين، فمتى شاؤوا أخرجوهم منها.



وقد أخرجهم عمر بن الخطاب إلى تيماء وأريحاء [متفق عليه]، استنادًا إلى قول الرسول ﷺ في مرض موته: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» [أحمد، صحيح؛ ابن سعد، صحيح؛ ابن إسحاق مرسلاً، عبد الرزاق، صحيح]. وتكرر منهم الاعتداء على المسلمين. ففي المرة الأولى اتهمهم الرسول ﷺ في قتل عبد الله بن سهل، فأنكروا فلم يعاقبهم، فوداه رسول الله ﷺ من عنده [متفق عليه]. وفي هذه المرة الثانية التي أكدت الأولى - كما أشار عمر - أنهم اعتدوا على عبد الله بن عمر، وفدعوا يديه. [أحمد: صحيح؛ ابن إسحاق، حسن].

- واتفقوا على إيفاد مبعوث من قبل النبي ﷺ إلى أهل خيبر ليخرص [يخمن أو يُقدّر] ويقبض حصة المسلمين. [أحمد، صحيح].

وأما بالنسبة للأموال المنقولة، فقد صالحوه على أن له الذهب والفضة والسلاح والدروع، ولهم ما حملت ركائبهم على ألا يكتموا ولا يغيبوا شيئاً، فإن فعلوه فلا ذمة لهم ولا عهد. فغيبوا مسكاً لحمي بن أخطب، وقد كان قتل قبل غزوة خيبر، وكان قد احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت. وعندما سأل الرسول ﷺ سعية - عم حيي - عن المسك، قال: «أذهبته الحروب والنفقات»، فقال النبي ﷺ: «العهد قريب والمال أكثر من ذلك»، فدفعه النبي ﷺ إلى الزبير فمسه بعذاب، فاعترف بأنه رأى حيياً يطوف في خربة هاهنا، فوجدوا المسك فيها، فقتل لذلك ابني أبي الحقيق، وسبي نساءهم وذرايرهم، وقتل محمد بن مسلمة ابن عم كنانة هذا الذي دل على المال، قتله بأخيه محمود بن مسلمة. [أبو داود، صحيح].

وبالنسبة للطعام فقد كان الرجل يأخذ حاجته منه دون أن يقسم بين المسلمين أو يخرج منه الخمس ما دام قليلاً [متفق عليه] وكانت غنائم خيبر خاصة بمن شهد الحديبية

من المسلمين، كما في قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لَنَا خُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُخْذَرُونَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الفتح: ١٥] [الطبري: التفسير].

ولم يغب عن فتح خيبر من أصحاب بيعة الرضوان أحد سوى جابر بن عبد الله، ومع ذلك أعطي سهمًا مثل من حضر الغزوة - غزوة الحديبية. [البخاري؛ معلقًا؛ ابن إسحاق؛ أبو داود].

وأعطى أهل السفينة من مهاجرة الحبشة الذين عادوا منها إلى المدينة، ووصلوا خيبر بعد الفتح، أعطاهم من الغنائم. وكانوا ثلاثة وخمسين رجلًا وامرأة، بقيادة جعفر ابن أبي طالب. وتقول الرواية إنه لم يقسم لأحد لم يشهد الفتح سواهم [متفق عليه]. وهم الذين فرح الرسول ﷺ بقدومهم، وقبل جعفر بين عينيه والتزمه، وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر أو بقدوم جعفر». [الحاكم، مرسلًا حسنًا؛ أبو داود، مرسلًا حسنًا؛ الطبراني: الكبير، حسن بشواهد كسابقه].

وربما يرجع سبب استثنائهم إلى أنهم حبسهم العذر عن شهود بيعة الحديبية، ولعله استرضى أصحاب الحق من الغانمين في الإسهام لهم، ولعله رأى ما كانوا عليه من الصدق وما عانوه في الغربة، وهم أصحاب المهجرتين. [عوض الشهري: مرويان غزوة خيبر].

وأعطى الرسول ﷺ أبا هريرة وبعض الدوسيين من الغنائم برضاء الغانمين، حيث قدموا عليه بعد فتح خيبر. [عبد الرزاق].

وشهد خيبر مع رسول الله ﷺ نساء مسلمات فأعطاهن من الفبيء ولم يضرب لهن بسهم. [ابن إسحاق؛ الترمذي، صحيح مقطوع].

وكذلك أعطى من شهدها من العبيد، فقد أعطى عُمَيْرًا، مولى أبي اللحم، شيئًا من الأثاث. [أبو داود].



وأوصى ﷺ من مال خيبر لنفر من الدارين، ساهم ابن إسحاق [ابن هشام]. وكان كفار قريش يتحسسون أخبار الرسول ﷺ مع يهود خيبر، ويسألون الركبان عن نتيجة المعركة، وقد فرحوا عندما خدعهم الحجاج بن علاط السلمي وقال لهم إن المسلمين قد هزموا شر هزيمة، وإن اليهود أسرت محمداً، وستأتي به ليقتل بين ظهرائي أهل مكة ثأراً لمن كان أصيب من رجالهم، وما لبثوا قليلاً حتى علموا بأن الأمر خدعة من الحجاج بن علاط ليحرز ماله الذي بمكة ويهاجر مسلماً. فحزنوا لتلك النتيجة التي كانوا يراهنون على عكسها. [عبد الرزاق، صحيح].

فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ ليصالحوه على النصف من فدك، فقدمت عليه بخيبر، أو بعدما قدم المدينة، فقبل ذلك منهم. فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة؛ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب. [ابن إسحاق: السيرة معلقاً؛ وأبو داود برقم (٣٠١٦)، مراسلاً ضعيفاً، وغيرهما بأسانيد لم تثبت].

وبعد الفراغ من أمر خيبر توجه رسول الله ﷺ نحو وادي القرى، وحاصروهم، ثم دعاهم إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إذا أسلموا أحرزوا أموالهم وحققوا دماءهم، وحسابهم على الله، فبرز رجل منهم، فبرز له الزبير فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه علي فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه أبو دجانة فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً، ثم قاتلهم حتى أمسوا، وفي الصباح استسلموا، ففتحت عنوة. وأقام فيها ثلاثة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه، وترك الأرض والنخل بأيدي يهود، وعاملهم عليها.

فلما بلغ يهود تيماء ما حدث لأهل فدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم. فلما كان عهد عمر أخرج يهود خيبر وفدك ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى لأنها داخلتان في أرض الشام، ويرى أن ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز، وأن ما وراء ذلك من الشام. [الواقدي].



وثبت في الصحيح أن مدْعَمًا - مولى رسول الله ﷺ - أصابه سهم فقتله، وذلك حين كان يحط رحل رسول الله ﷺ عندما وصلوا وادي القرى. فقال الناس: «هنيئًا له بالجنة»، فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده، إن الشَّمْلَةَ التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا». فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بِشْرَاكٍ أو بِشْرَاكَيْنِ، فقال: «هذا شيء كنت أصبته»، فقال رسول الله ﷺ: «شراك أو شراكان من نار». [متفق عليه].

● بعض فقه وحكم وعبر ودروس غزوة خيبر:

١- نهى رسول الله ﷺ عن الغُلُول [الأخذ من الغنائم قبل قسمتها]، وأن من يموت وهو غَالٌ يدخل النار.

وقد جاء ذلك في خبر الرجل الذي قال عنه الصحابة إنه شهيد، فقال لهم الرسول ﷺ: «كلا! إني رأيته في النار في بُرْدَةٍ غَلَّهَا أو عَبَاءَةٍ...». [مسلم] ولعلماء العقيدة تفصيل في خبر مدعم مع الشملة.

٢- نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الحُمُر [الحمير] الإِنْسِيَّة. [البخاري].

٣- نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم البِغَال. [أحمد].

٤- النهي عن أكل كل ذي نابٍ من السباع وعن أكل كل ذي مخْلَبٍ من الطير. [مسلم؛ أبو داود، حسن؛ ابن ماجه، حسن].

٥- النهي عن وطء الحُبَالَى من السبايا حتى يضعن. [ابن الجارود: المتقى، صحيح].

٦- النهي عن ركوب الجلالة وشرب لبنها. [الجلالة: حيوان يأكل العذرة، وهي الغائط]، من الإبل والغنم والدجاج وغيرها حتى يتغير ريحها والنهي عن أكل لحمها [أبو داود، حسن]. [قال سيد سابق في فقه السنة (٣/ ٢٨٥): «فإن حبست بعيدة عن العذرة زمناً وعلفت طاهراً فطاب لحمها وهب اسم الجلالة عنها حلت؛ لأن علة النهي التغير، وقد زالت»].



- ٧- النهي عن النهبة من الغنيمة قبل قسمتها. [أحمد، صحيح].
- ٨- وأجرى الله على نبيه بعض المعجزات دليلاً على نبوته وعبرة لمن يعتبر، فإضافة إلى ما ذكرنا من قصة بصفه على عيني علي فصحتنا، وإخبار ذراع الشاة المسمومة إياه بأنها مسمومة، فقد ثبت أنه نفت ثلاث نفثات في موضع ضربة أصابت ركة سلمة بن الأكوع يوم خيبر، فما اشتكى بعدها. [البخاري].
- ٩- وفي خبر الإسهام لأهل السفينة أنه إذا لحق مدد بالجيش بعد انقضاء الحرب، فلا سهم لهم إلا بإذن الجيش ورضاه. [ابن حجر: الفتح؛ ابن القيم: الزاد].
- ١٠- جواز المساقاة والمزارعة بجزء مما يخرج من الأرض من تمر أو زرع، كما عامل رسول الله ﷺ أهل خيبر على ذلك، وهو من باب المشاركة، وهو نظير المضاربة، فمن أباح المضاربة، وحرم ذلك، فقد فرق بين متماثلين. [ابن القيم: الزاد].
- ١١- عدم اشتراط كون البذر من رب الأرض، لأن الرسول ﷺ دفع إليهم الأرض على أن يعملوها من مالهم.
- ١٢- خَرَصُ الثمار على رؤوس النخيل وقسمتها كذلك، وأن القسمة ليست بيعاً، والاكتفاء بخارص واحد وقاسم واحد.
- ١٣- جواز عقد المهادنة عقداً جائزاً للإمام فسخه متى شاء.
- ١٤- جواز تعليق عقد الصلح والأمان بالشرط، كما عقد لهم رسول الله ﷺ بشرط ألا يغيبوا ولا يكتموا، كما في قصة مسك حبي.
- ١٥- الأخذ في الأحكام بالقرائن والأمارات كما قال النبي ﷺ لكنانة: «المال كثير والعهد قريب»، فاستدل بذلك على كذبه في قوله: «أذهبت الحروب والنفقة». وفي المسألة تفصيل واختلاف، مكانه كتب الفقه.



١٦- جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغنى عنهم، وقد أجلاهم عمر رضي الله عنه بعد موت النبي ﷺ.

١٧- لم يكن عدم أخذ الجزية من يهود خيبر لأنهم ليسوا أهل ذمة، بل لأنها لم تكن نزل فرضها بعد. [نفسه].

١٨- سريان نقض العهد في حق النساء والذرية، وجعل حكم الساكت والمقر حكم الناقض والمحارب، كما في حالة كنانة وابني ابن الحقيق، على أن يكون الناقضون طائفة لهم شوكة ومنعة، أما إذا كان الناقض واحداً من طائفة لم يوافقه بقيتهم، فهذا لا يسري النقض إلى زوجته وأولاده. [نفسه].

١٩- جواز عتق الرجل أمته، وجعل عتقها صداقتها، ويجعلها زوجته بغير إذنها ولا شهود ولا ولي غيره، ولا لفظ نكاح ولا تزويج، وجواز البناء بالأهل في السفر، كما فعل ﷺ بصفية.

٢٠- جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير، إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين والمشركين حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت بالمسلمين من ذلك الكذب.

٢١- إن من قتل غيره بسُم يقتل مثله قصاصاً، كما قُتِلَت اليهودية ببشر بن البراء.

٢٢- جواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب، وحل طعامهم، وقبول هديتهم، كما في حادثة الشاة المسمومة.

٣٢- الإمام مخير في الأرض التي تفتح عنوة، إن شاء قسمها، وإن شاء وقفها، وإن شاء قسم البعض ووقف البعض الآخر، وقد فعل رسول الله ﷺ الأنواع الثلاثة، فقسم قريظة والنضير، ولم يقسم مكة، وقسم شطراً من خيبر وترك شطرها الآخر. [الشهري: مرويات خيبر؛ ابن القيم: الزاد؛ ابن حجر: الفتح].



٢٤- جواز قتل الكفار في الأشهر الحرم، والإغارة على من بلغته الدعوة بغير إنذار.

٢٥- قسمة الغنيمة على السهام.

٢٦- أكل الطعام الذي يصاب من المشركين قبل القسمة لمن يحتاج إليه بشرط أن لا

يدخره ولا يحوله.



الفصل الخامس عشر

رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء والزعماء

تمهيد:

أُتيحت الفرصة للرسول ﷺ بعد صلح الحديبية لتوسيع نطاق الدعوة إلى الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها، لأن الإسلام رسالة عالمية غير محدودة المكان، كما جاء التصريح بذلك في بعض الآيات القرآنية الكريمة، مثل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبا: ٢٨]، و﴿ قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ولذا كان من البدهي أن يقوم الرسول ﷺ بإرسال الرسائل إلى زعماء العالم المعاصرين له.

• المبحث الأول: كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي

• روى مسلم - كما سبق ذكره - أن رسول الله ﷺ كتب إلى النجاشي - أصحمة - ملك الحبشة، الذي أسلم.

وروي أن رسول الله ﷺ كتب إلى النجاشي غير الذي أسلم وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب، قائلاً: «تعال إلى كلمة سواء بيننا وبينك أن لا نعبد إلا الله، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون». فأمن ومن كان عنده، وأرسل إلى رسول الله ﷺ بهدية حُلَّة، فقال رسول الله ﷺ: «اتركوه ما ترككم». [عن رواه النسائي بسند حسن؛ أبو داود؛ أحمد].

وكان الذي حمل الرسالة إلى النجاشي، عمرو بن أمية الضمري. [أسد الغابة؛

ابن هشام؛ ابن سعد].

وذكر الزيلعي [نصب الراية] وغيره عن الواقدي أن الذي كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي مع عمرو بن أمية الضمري صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله، إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت به، فخلقه من روحه، ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاتة على طاعته، وأن تتبغني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله ﷻ، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى».

وذكر البيهقي [الدلائل] رواية أتم من هذه، من حديث ابن إسحاق -معلقاً-. ومن زياداته قوله: «إلى النجاشي الأصحم...»، و: «وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ومعه نفر من المسلمين...»، وهي رواية فيها نظر. وانظر ما قلناه في معرض الحديث عن إسلام النجاشي.

وذكر أبو موسى المديني في التتمة لكتاب ابن منده في الصحابة، بإسناد معلق، أن النجاشي كتب مع ولده كتابًا جوابًا لكتاب النبي ﷺ وأورد نصه، وفيه إقراره بالإسلام، وإن شاء الرسول ﷺ أن يأتيه بالمدينة المنورة لأتاه، وأنه بعث إليه بابنه أرها بن الأصحم، وأن ابنه خرج في ستين نفسًا من الحبشة فغرقت بهم سفينتهم في البحر. [ابن طولون - إعلام السائلين؛ الزيلعي؛ تاريخ الطبري].

وقد ثبت أن الرسول ﷺ صلى صلاة الغائب عندما أخبره جبريل بوفاة النجاشي، وذلك في العام التاسع الهجري [نصب الراية؛ تاريخ الطبري].



• المبحث الثاني: كتاب النبي ﷺ إلى كسرى

• روى البخاري بسنده إلى ابن عباس: «بعث رسول الله ﷺ بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن خُذَافَةَ السَّهْمِي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى. فلما قرأه مزقه، قال الراوي - الزهري -: فحسبت أن ابن المسيب قال: «فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق».

وكتب كسرى إلى بَاذَانَ عامله باليمن أن ابعث من عندك رجلين جليدين إلى هذا الرجل الذي بالحجاز، فليأتياني بخبره، فبعث باذان قهرمانه [اسمه بابوية، وهو الحاسب، اسم الرجل الآخر خُرْ خُسْرَة، كما عند الطبري في تاريخه (٢/ ٦٥٥)] ورجلاً آخر، وكتب معهما كتاباً، فقدموا المدينة، فدفعوا كتاب باذان إلى النبي ﷺ، فتبسم رسول الله ﷺ ودعاهما إلى الإسلام وفرائصهما ترعد، وقال: «ارجعا عني يومكما هذا حتى تأتياني الغد فأخبركما بما أريد». فجاءاه من الغد، فقال لهما: «أبلغا صاحبكما أن ربي قتل ربه كسرى في هذه الليلة»، لسبع ساعات مضت منها، وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع، وأن الله تبارك وتعالى سلط عليه ابنه شِيرَوِيه، فقتله، فرجعا إلى باذان بذلك، فأسلم هو والأبناء [اصطلاح يطلق على الفرس الذين كانوا يحكمون اليمن حينها]. الذين باليمن. [ابن سعد؛ الطبري؛ مراسلاً].

ويذكر أن كسرى المعني هو إبرويز بن هُرْمَز [الزرقاني]، ويؤكد بتلر [فتح مصر] أن موت كسرى إبرويز حدث في مارس عام ٦٢٨ م، مما يجعل وصول الرسالة قبل موته بشهور تأكيداً لرواية الواقدي.

وروى الطبري نص رسالة النبي ﷺ إلى كسرى، وكذلك رواها ابن طولون، وغيرهما، وهو:



«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت، فإن إثم المجوس عليك».

• المبحث الثالث: كتاب النبي ﷺ إلى قيصر

• ثبت في الصحيحين أن الرسول ﷺ قد كتب إلى هرقل مع دحية بن خليفة الكلبي يدعوه إلى الإسلام. وذلك في مدة هدنة الحديبية، وهو النص الثاني الذي ثبتت صحته وفق شروط المحدثين من بين سائر نصوص الكتب التي وجهت إلى الزعماء، ونصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فعليك إثم الأريسيين. ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَٰةٍۭ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَۢمُ ٱلَّا نَعْبُدُ ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آدِبَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: ٦٤]. ولعل في إيراد البخاري ومسلم لنص خطاب الرسول ﷺ إلى قيصر ما يشير إلى ترجيحهما للروايات القائلة بتقدم نزول الآية المذكورة، أي قبل تاريخ إرسال هذه الرسالة، وليس في العام التاسع كما ورد في روايات ضعيفة [دبلوماسية محمد؛ المجتمع المدني].

وعندما قرأ قيصر رسالة النبي ﷺ أرسل يبحث عن بعض المتصلين بالنبي ﷺ، وفضل أن يكونوا من قومه وعشيرته، فعلم بوجود جماعة من التجار فيهم أبو سفيان، فدعاهم لمجلسه مع الترجمان، فقال: «أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟»، فقال أبو سفيان: «أنا أقربهم نسبًا»، فأدناه منه وقرب أصحابه منه لئلا يستحيوا



أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب، فأخذ يسأله عن جميع أحوال النبي ﷺ كما في الحديث الطويل المشهور، حديث هرقل مع أبي سفيان، المروي في الصحيحين، واستنتج من أجوبة أبي سفيان أن محمدًا ﷺ نبي، وقال في ختام كلامه مع أبي سفيان: «فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلصُ إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدميه». ثم قال للرسول (دحية الكلبي): «إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، والذي كنا نتظره ونجده في كتابنا، ولكنني أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعته»، ثم صرفه إلى صَغَاطِرِ الْأَسْقُفِ صاحب الفتوى عندهم بحجة أنه أعلم الروم بهذا الشأن.

وروى ابن حبان [في صحيحه: موارد الظمان، بسند صحيح] أن دحية عندما جاء وافى قيصر ببيت المقدس، فرمى بالكتاب على بساطه وتنحى، فلما انتهى قيصر من الكتاب، أخذه، وأمن من جاء به فظهر له دحية، فطلب من دحية أن يأتيه في عاصمته، فلما جاءه أمر بآبواب قصره فغلقت، ثم أمر منادياً ينادي: ألا إن قيصر قد اتبع محمدًا وترك النصرانية، فأقبل جنده وقد تسلَّحوا حتى أطافوا به، فقال لرسول رسول الله ﷺ: «قد ترى أني خائف على مملكتي»، ثم أمر مناديه فنادى: «ألا إن قيصر قد رضي عنكم، وإنما اختبركم لينظر كيف صبركم على دينكم، فارجعوا»، فانصرفوا، وكتب إلى رسول الله ﷺ: «إني مسلم، وبعث إليه بدنانير، فقال رسول الله ﷺ: «كذب عدو الله، وهو على دين النصرانية»، وقسم الدنانير.

وفي عدم إسلام قيصر دليل على أنه قد شح بالملك وطلب الرئاسة وآثرهما على الإسلام، ولو أراد الله هدايته لوفقه كما وفق النجاشي، فإنه لما أسلم ما زالت عنه الرياسة. [النووي بشرح مسلم].



• المبحث الرابع: كتاب النبي ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني

• روى الواقدي أن رسول الله ﷺ كتب كتابًا إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني، مع شجاع بن وهب، وأورد نصه. وقد امتنع الحارث ولم يوافق على الإسلام، وحشد قواته للزحف على المدينة، ولكن هرقل تدخل ودعاه إلى إيلياء (بيت المقدس).

وقد بعث رسول الله ﷺ شجاعًا إليه حين مرجعه من الحديبية، ومن خلال رواية شجاع في قصته معه يظهر أنه كتب إليه في نفس الوقت الذي كتب فيه إلى هرقل مع دحية، لأن شجاعًا عندما جاء إلى الحارث وجد دحية مع القيصر في إيلياء. [ابن سعد؛ ابن هشام].

وتقول رواية شجاع: إن حاجب الحارث - وهو رومي اسمه مُري - أسلم عندما أخبره شجاع بالرسول ﷺ والإسلام.

• المبحث الخامس: كتاب النبي ﷺ إلى هُوذة بن عليّ الحنفي صاحب اليمامة

• كتب إليه مع سَلِيط بن عمرو العامري، أحد نفر الستة الذين تحركوا في وقت واحد حين مقدم الرسول ﷺ من الحديبية، وعندما قرأ هُوذة الرسالة اشترط على النبي ﷺ أن يجعل له بعض الأمر معه، فلم يقبل الرسول ﷺ بذلك، ومات حين منصرف الرسول ﷺ من فتح مكة. [ابن سعد].

• المبحث السادس: كتاب النبي ﷺ إلى المُقَوْس

• بعث الرسول ﷺ كتابه إلى المقوقس - جُرَيج بن مينا - ملك الإسكندرية وعظيم القبط، مع حاطب بن أبي بلتعة، فقال خيرًا، وقارب الأمر ولم يُسلم، وأهدى إلى النبي ﷺ مارية وأختها سيرين وقيسرى، فتسرى بمارية القبطية، وهي أم ولده



إبراهيم، ووهب سيرين لحسان بن ثابت، فهي أم ولده عبد الرحمن، وأهداه ألف مثقال ذهب، وبغلة، اسمها ذُلْدُل، وجارية أخرى سوداء اسمها بَرِيرَة، وغلامًا خصيًا اسمه مَآبُور، وحمارًا أشهب يقال له يَعْفُور وفرسًا هو اللزاز، وعسلًا وأشياء أخرى. وعندما جاءت رسالة المقوقس إلى الرسول ﷺ قال: «ضمن الخبيث بملكه، ولا بقاء للملكه». [ابن سعد؛ ابن هشام].

• المبحث السابع: كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى العبدى

• روى ابن سيد الناس أن النبي ﷺ كتب إلى المنذر بن ساوى العبدى، أمير البحرين، مع أبي العلاء الحضرمي، بعد انصرافه من غزوة الحديبية، ثم قال: ذكر الواقدي بإسناده عن عكرمة، قال: (وجدت هذا الكتاب في كتب ابن عباس، بعد موته، فنسخته، فإذا فيه...).

وخلاصة ما ذكره ابن سيد الناس عن كتاب الرسول ﷺ إلى المنذر ردًا على كتابه الأول إليه، أن المنذر قبل الإسلام ومعه آخرون من أهل البحرين، ولم يورد نص رسالة الرسول ﷺ الأولى إلى المنذر.

وهناك روايات أخرى تشير إلى رسالة الرسول ﷺ الأولى إلى المنذر، ولكنها في رجب سنة تسع هجرية، منصرفه من تبوك. [ابن طولون؛ الزيلعي؛ الأموال].

• المبحث الثامن: كتاب النبي ﷺ إلى جيفر وعبد ابني الجلندى

• بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في ذي القعدة سنة ثمان بكتابة إلى جيفر وعبد ابني الجلندى الأزديين بعمان، فأسلما، وصدقًا، وخليًا بين عمرو بن العاص والصدقة، وترك أمر الحكم لهما. [عيون الأثر؛ نصب الراية؛ ابن طولون].

• المبحث التاسع: رسائل أخرى متفرقة

٩- وكتب النبي ﷺ كتابًا إلى أهل دَمَا، وهي قرية من قرى عُمان، وكان عليها رجل من أساورة كسرى، يقال له: بستجان. وروى الكتاب ابن طولون بسنده إلى أبي شداد، رجل من أهل دَمَا، ونصه:

«من محمد رسول الله إلى أهل عُمان، سلام، أما بعد: فأقروا بشهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأدّوا الزكاة، وخطّوا المساجد، كذا وكذا، وإلا غزوتكم».

١٠- وكتب رسول الله ﷺ إلى رَعِيَّةِ الشَّحِيمِي اليامي الحنفي، فأخذ الكتاب ورقع به دلوّه، فبعث إليه الرسول ﷺ سرية فأخذت ماله وأهله. فجاء المدينة نادماً، فبايع على الإسلام، وأحرز أهله. [الإصابة، مغازي ابن أبي شيبة، من مرسل الشعبي؛ أحمد].

١١- وكتب إلى مسيلمة الكذاب - زعيم اليمامة - يدعوه إلى الإسلام مع عمرو بن أمية الضمري [ابن سعد]. فكتب إليه مسيلمة جواباً على كتابه، ونصه «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: سلام عليك. أما بعد: فإني أُشْرِكْتُ معك في الأمر، وإن لنا نصف الأرض، ولقریش نصف الأرض ولكن قریشاً قوم يعتدون. [ابن هشام].

فقدم عليه رسولان بهذا الكتاب، فعندما قرئ عليه قال لهما: «فما تقولان أنتم؟ قالا: «نقول كما قال»، فقال ﷺ: «أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما». [أحمد؛ أبو داود، بسند صحيح].

ثم كتب إليه الرسول ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] [ابن إسحاق].



ثم كان ما كان من أمر مسيلمة، وفتنته في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقضاء أبي بكر عليهما بعد خسارة فادحة في الأرواح بين الطرفين.

١٢- وكتب الرسول ﷺ كتاباً إلى عظيم بَصْرَى وأرسله مع الحارث بن عُمَيْر الأزدي. فعرض له شُرْحَبِيل بن عمرو الغساني بمؤتة، فأوثقه رباطاً، ثم قدمه فضرب عنقه، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره. [الواقدي].

١٣- وكتب النبي ﷺ إلى بَكْر بن وائل [ابن حبان في صحيحه].

١٤- وكتب إلى بني عمرو من حَمِير، يدعوهم إلى الإسلام [ابن سعد].

١٥- وكتب إلى جَبَلَة بن الأَيْهَم، ملك غسان، يدعوهم إلى الإسلام [نفسه].

١٦- وبعث رسول الله ﷺ جَرِير بن عبد الله الْبَحَلِيّ بكتابه إلى ذي الْكُلَاع ابن نَاكُور وإلى ذي عمرو يدعوهما إلى الإسلام فأسلما، وأسلمت امرأة ذي الْكُلَاع. [نفسه، وأصله في البخاري].

١٧- وكتب إلى معدي كرب بن أبرهة، وأن له ما أسلم عليه من أرض خولان. [نفسه].

١٨- وكتب إلى أسقف بني الحارث بن كعب وأساقفه نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم. [نفسه].

١٩- وكتب إلى يحنة بن روبة صاحب أيلة. [نفسه].

٢٠- وإلى أبي ظبيان الأزدي من غامد، فأجابه في نفر من قومه بمكة [نفسه].

٢١- وإلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كُلال من حمير. وبعث الكتاب مع

عَيَّاش بن أبي ربيعة المخزومي. [نفسه].

٢٢- وإلى نُفَّاثَة بن فَرَوَة الدثلي ملك السَّهَّاءَة. [نفسه].

وكتب إلى غير هؤلاء ممن ذكرهم ابن سعد في طبقاته وغيره من المؤرخين.



• المبحث العاشر: فوائد وحكم وعبر في هذا المقطع من السيرة:

- ١- تؤكد هذه الرسائل على حقيقة معلومة ذكرناها في أول هذا الفصل، وهي أن الإسلام دين عالمي، لذا كان واجب الرسول ﷺ إبلاغ الدعوة إلى كل من يعرف من الناس وبكل الوسائل المتاحة في ذلك الزمان.
- ٢- إن رفض بعض الحكام لدعوة الإسلام نابع من حبهم لسلطتهم وتكبرهم وتجبرهم وليس لعدم قناعتهم بالإسلام.
- ٣- دل اتخاذ الرسول ﷺ خاتماً من فضة يختم به رسائله على مشروعية اتخاذ الخاتم، كما دل على مشروعية نقش اسم صاحبه عليه. وقد استدل كثير من العلماء بذلك على استحباب وضع خاتم من فضة في الأصبع التي كان الرسول ﷺ يضع خاتمه فيها، وهي أصبع الخنصر.
- ٤- إن جعله ﷺ اسم الله أعلى في الخاتم واسمه الأدنى، فيه تعظيم كبير لله ﷻ واسمه تعالى.
- ٥- إن إقراره ﷺ لمن كتب إليهم بأن يبقوا على ملكهم نابع من سياسته الرشيدة وتدبيره الحسن للأمور.





الفصل السادس عشر عمرة القضاء

خرج رسول الله ﷺ والمسلمون إلى مكة في ذي القعدة من العام السابع الهجري، لأداء العمرة، حسب الشروط التي تمت في صلح وهدنة الحديبية. [ابن إسحاق، دلائل البيهقي من حديث ابن عقبة وعروة؛ والفسوي، بسند حسن، كما ذكر ابن حجر في الفتح].

فقد روى البيهقي [الدلائل، من حديث ابن عقبة عن الزهري]، وابن سعد، أن المسلمين صحبوا معهم أسلحتهم، ووضعوها بيأجج، خارج الحرم، ودخلوا بسلاح الراكب، السيوف، كما هو الشرط.

لقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النساء والصبيان، منهم الذين شهدوا الحديبية. [ابن حجر: الفتح، عن الحاكم في الإكليل].

وعندما دخل الرسول ﷺ مكة، كان عبد الله بن رَوَاحَة ينشد بين يديه:

| | |
|-----------------------------|-------------------------|
| خَلُّوا بني الكفار عن سبيله | اليوم نضربكم على تنزيله |
| ضرباً يزيل الهام عن مقيله | ويذهل الخليل عن خليله |

[الترمذي، حسن غريب]

وعندما أشاعت قريش أن المسلمين ضعفاء بسبب حمى يثرب، أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يرملوا ويسارعوا بالعدو في الأشواط الثلاثة الأولى من طوافهم، وأن يسعوا بين الصفا والمروة مهرولين، ليرى المشركون قوتهم [متفق عليه]. ففعلوا ما أمروا به، فرأته قريش وهي مُصْطَفَّة على جبل قُعيْقَعان، في مواجهة ما بين الركنين، فتعجبوا من قوتهم [البخاري، أحمد بسند صحيح]، وقالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجَلَد من كذا وكذا. [مسلم].



وعندما فرغ رسول الله ﷺ من أداء مناسك العمرة، أمر جماعة من الصحابة أن يذهبوا إلى أصحابهم ببطن يَأْجِج فيقيموا على السلاح ويأتي الآخرون الذين كانوا في حراسة السلاح ليقضوا نسكهم، ففعلوا، ثم دخل ﷺ الكعبة ومكث بها إلى الظهر، ثم أمر بلالاً فأذن على ظهر الكعبة. [ابن سعد].

وعندما انقضت الأيام الثلاثة، جاءت قريش في صباح اليوم الرابع إلى علي عليه السلام، فقالوا: «قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل». فخرج النبي ﷺ [البخاري] ونزل بِسْرَف، فأقام بها إلى أن تتأَمَّ الناس، ثم انصرف إلى المدينة المنورة في ذي الحجة. [نفسه]. وفي هذه العمرة تزوج ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية - أخت أم الفضل زوج عمه العباس - فبنى بها ﷺ بسرف [نفسه]. والراجح أن هذا الزواج كان بعد أن تحلل الرسول ﷺ من إحرامه. [مسلم وغيره].

وكانت ميمونة تحت أبي رَهم بن عبد العزى، وقيل: تحت أخيه حُوَيْطِب، وقيل سَخْبَرَة بن رَهم. [نفسه].

ولما أراد الرسول ﷺ الخروج من مكة، تبعتهم الطفلة عمارة ابنة حمزة تنادي: يا عم يا عم، فأخذها علي ودفعها لفاطمة، وهي ابنة عمه، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أخذتها وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، ف قضى بها رسول الله ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلي: «أنت مني وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهتَ خُلقي وخُلقي»، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» [البخاري؛ أبو داود]، وكان هذا القضاء لأن جعفر محرم لها، إذ لا يجمع الرجل بين المرأة وخالتها في الزواج. [الفتح].

وفي هذه القصة من الفقه: أن الخالة مقدمة في الحضانة على سائر الأقارب بعد الأبوين.... وفيها حجة لمن قدم الخالة على العممة، وقربة الأم على قرابة الأب، لأن



الرسول ﷺ عندما قضى بعمرارة لخالتها فقد كانت صفية عمتها موجودة إذ ذاك، وهذا قول الشافعي ومالك وأبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وفي الرواية الثانية: إن العمرة مقدمة على الخالة، وهو اختيار الشيخ ابن القيم [الزاد].

عرفت هذه العمرة بعدة أسماء، كل واحد منها يشير إلى جزء منها من أحداثها، فكونها عرفت بعمرة القَصَاء أو القَصِيَّة نسبة للمقاضاة التي وقعت بين المسلمين وكفار قريش بنص كتاب صلح وهدنة الحديبية، أو بعمرة القضاء، لأنها كانت قضاء عن العمرة التي تحللوا منها لما حبسهم من حابس في صلح الحديبية، وعمرة القصاص. [انظر في هذا كله: سيرة مغلطاي].





الفصل السابع عشر

السرايا والأحداث بين عمرة القضاء وسرية مؤتة

• المبحث الأول: سرية الأخرم بن أبي العوجاء السلمي

• عندما رجع رسول الله ﷺ من عمرة القضاء، بعث ابن أبي العوجاء السلمي في خمسين فارسًا، وكان معهم عين لبني سليم، فلما فصل من المدينة خرج العين إلى قومه فأخبرهم، فجمعوا جمعًا غفيرًا واستعدوا للقاء المسلمين. وعندما جاءهم المسلمون دعوهم إلى الإسلام فرفضوا، وأخذوا بالمسلمين، فقتلوا عامتهم، وأصابوا ابن أبي العوجاء، وتركوه جريحًا بين القتلى، ثم تحامل حتى بلغوا المدينة في أول يوم من صفر سنة ثمان من الهجرة. [البيهقي: الدلائل، من مرسل ابن عقبة عن الزهري؛ الواقدي، ابن سعد].

• المبحث الثاني: إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد

• روى أحمد [المسند، حسن] وابن إسحاق [السيرة، حسن]، أن عمرو بن العاص عندما رأى علو شأن الرسول ﷺ تحدث مع من يسمعون له من رجال قريش في أمر محمد ﷺ وأقنعهم بالخروج معه إلى النجاشي، فهو أحب إليهم أن يكونوا عنده من أن يكونوا تحت يدي محمد إذا ظهر، وإن ظهر قومهم فلن يأتيهم منهم إلا الخير لمعرفتهم بهم. وجمعوا جلودًا ليهدوها إلى النجاشي، لأن ذلك أحب ما يهدي إليه من أرض الحجاز. واتفق أن جاؤوا النجاشي وعنده عمرو بن أمية الضمري رسولاً من النبي ﷺ، فعندما خرج من عند النجاشي دخل عليه عمرو وطلب منه أن يعطيه إياه ليقبله لأنه من عدوه، فغضب منه النجاشي وضربه على أنفه، فخاف واعتذر، ثم قذف الله في قلبه الإسلام لما رأى حماسة الناس حتى العجم في الإيثار بمحمد والدفاع عنه. ولم يتردد



عمرو في مبايعة النجاشي على الإسلام عندما اقترح عليه النجاشي ذلك، ثم خرج وكنم إسلامه عن أصحابه وعاد إلى بلاده.

وخرج عمرو بن العاص قبيل الفتح [الواقدي] عامدًا إلى رسول الله ﷺ بالمدينة ليسلم، فلقه خالد بن الوليد يريد ما يريد عمرو، فقدموا سوياً على الرسول ﷺ، فبايعا على الإسلام.

ومما يؤكد أن إسلام عمرو وخالد كان في التاريخ الذي ذكره ابن إسحاق والواقدي أن اسم خالد ظهر في سرية مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة، وأن اسم عمرو ابن العاص ظهر في سرية ذات السلاسل في جمادى الثانية سنة ثمان من الهجرة، كما سيأتي بيان ذلك في المبحث الخاص بهما.

أما قصة إسلام خالد فقد رواها الواقدي، وخلاصتها أن خالدًا عندما أراد الله به ما أراد من الخير وقذف في قلبه الإيمان، كان ينصرف بعد كل موطن شهده ضد رسول الله ﷺ ويفكر، فيرى في نفسه أنه في موضع غير موضعه، وأن محمدًا سيظهر، وفي غزوة الحديبية بالذات، تأكد له أن الرسول ﷺ، لأنه عندما هم أن يغير بخيله على رسول الله ﷺ بعسفان، أطلع الله رسوله ﷺ على ما في أنفسهم، فصلى بأصحابه صلاة الخوف، ولم يترك لهم فرصة. وعندما تم الصلح بالحديبية، رأى أنه لم يبق شيء، ففكر في الذهاب إلى النجاشي وهرقل، وبينما هو يقلب هذا الأمر في ذهنه، دخل رسول الله ﷺ في عمرة القضاء، فتغيب، ودخل أخوه الوليد في الإسلام في هذه العمرة، وطلبه فلم يجده، فكتب إليه كتابًا فيه تعجبه من مثله في ذهاب عقله عن الإسلام، وذكر له سؤال الرسول ﷺ عنه وقوله عنه: «ما مثله جهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين كان خيرًا له ولقدّمناه على غيره...». فلما جاءه كتاب أخيه نشط للهجرة، وزاده رغبة في الإسلام أنه رأى في المنام كأنه في بلاد ضيقة جدبة، فخرج منها



إلى بلاد خضراء واسعة، فقال: إن هذه لرؤيا، ذكرها لأبي بكر عندما قدم المدينة، فقال: هو مَحْرُجُكَ الذي هداك الله للإسلام والضيق هو الشرك.

وعندما أجمع الهجرة أراد أن يرافقه رجال في مكانته، فاتصل بصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، فرفضاً، فتركهما فخرج، وعند خروجه التقى بصديقه عثمان بن أبي طلحة، فذكر له ما يريد، فعلم منه أنه يريد ما يريد، فأتعداً بياجج، وخرجاً سَحَرًا والتقى عند الفجر بياجج وسارا حتى انتهيا إلى الهدّة، فوجدا عمرو بن العاص بها، فتعارفوا، ثم ساروا سويًا إلى المدينة فأسلموا، وكان ذلك في صفر سنة ثمان من الهجرة.

• المبحث الثالث: سرية غالب بن عبد الله إلى الكديد

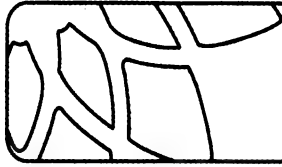
• أمره رسول الله ﷺ أن يشن الغارة على بني المُلُوح، وهم بالكديد، وفي طريقه إليهم، وفي منطقة قُدَيْد لقوا الحارث بن مالك، وهو ابن البرصاء الليثي، فأخذوه، فأخبرهم أنه في طريقه إلى الرسول ﷺ ليسلم، فلم يطمئنوا إليه، فأوثقوه، واعتذروا إليه بأن رباط ليلة لن يُضَيَّرَه، وتركوه مع رجل أسود من أصحابهم، وأوصوه أن يقتله إذا غابه. وأتوا الكديد عند الغروب، فكمنوا وأرسلوا جُنْدُبَ بن مَكَيْثَ الجهني طليعةً لهم، فأتى تلاً مشرفاً على الحاضر، فرأى رجل من الأعداء أن هناك شيئاً مريباً فأصابه بسهم فلم يتحرك، حتى لا يكشف أمر أصحابه، ونزع السهم من جسده ووضع، وفي السحر شنوا الغارة على الأعداء واستاقوا النعم، ومضوا بها، ومروا بابن البرصاء وصاحبه فاحتملوهما معهم، وفي هذه الأثناء استغاث القوم فجاءهم جمع غفير لا قبل للمسلمين به، فساروا في إثرهم حتى قربوا منهم، ولم يكن بينهم وبين المسلمين إلا وادي قديد، فأرسل الله الوادي بالسيل من غير سحاب ولا مطر، فلم يستطيعوا تجاوزه، ونجا المسلمون منهم [ابن إسحاق، في السيرة، بسند جيد]. وكانت هذه السرية في صفر سنة ثمان من الهجرة، وكانوا بضعة عشر رجلاً. [الواقدي].



• المبحث الرابع: دروس وعبر من أحداث هذه السرية

- ١- إن إرسال الله تعالى الوادي بالسيل ليمنع الأعداء من الإيقاع بالمسلمين كرامة لهم.
- ٢- وفي خبر إصابة جندب بسهم في جسده ومع ذلك لم يتحرك، لدليل على تفاني المسلمين الأوائل وتحملهم أشد أنواع الأذى في سبيل هذه الدعوة.
- ٣- إن في خبر ربط المسلمين ابن البرصاء دليلاً على أهمية أخذ الحذر من الأعداء.
- ٤- وفي إرسال الطلائع للتجسس على أخبار الأعداء دليل على أهمية اتخاذ العيون أخذاً بالأسباب في المحافظة على أرواحهم والإيقاع بالعدو، وأخذه على حين غرة ما دامت قد بلغت الدعوة، وأخذ في تهديد أمن المسلمين.





الفصل الثامن عشر سرية مؤتة

[ومؤتة الآن قرية عامرة بالسكان، شرقي الأردن، على بعد أحد عشر ميلاً جنوب الكرك].

إن من أسباب هذه السرية أن رسول الله ﷺ بعث بكتاب مع الحارث بن عمير إلى ملك بُضْرَى، فلما نزل مؤتة عرض له شُرْحَيْل بن عمرو الغساني فقتله صبراً، وكانت الرسل لا تقتل. فغضب رسول الله ﷺ وأرسل هذه السرية إلى مؤتة [الواقدي، ابن سعد]، في جمادى الأولى من سنة ثمان الهجرية. [متفق عليه بين أئمة المغازي: ابن إسحاق بإسناد مرسل حسن، ابن سعد، عوة، ابن هشام].

وكان عدة هذه السرية ثلاثة آلاف مقاتل [ابن إسحاق، مرسلًا حسنًا؛ مغازي ابن أبي شيبه؛ ابن سعد؛ الواقدي] وأمر عليها زيد بن حارثة، ثم قال: «إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة» [البخاري]، وزاد الواقدي وابن سعد: «فإن أصيب عبدالله بن رواحة فليترض المسلمون بينهم رجالاً فيجعلوه عليهم».

وعندما تهيأ الجيش وتجهزوا للخروج ودَّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وحينها بكى ابن رواحة، فسأله عن السبب، فقال: «أما والله ما بي حب الدنيا ولا صباة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وَلَن يَنْفُكُنَّ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مریم: ٧١] فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود»، فقال المسلمون: «صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم صالحين».



فقال ابن رواحة:

«لكنني أسأل الرحمن مغفرةً
أو طعنةً بيدي حَرَّانِ مجهزة
حتى يقال إذا مروا على جَدَثِي
وضربةً ذاتَ فَرْغٍ تقذفُ الزُّبْدَا
بحربة تنفذ الأحشاء والكِبْدَا
أرشدَه اللهُ من غَازٍ وقد رَشِدَا»

[ابن إسحاق، مرسلاً حسناً]

ثم مضوا حتى نزلوا مَعَانٍ من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب، من أرض البلقاء، في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لَحْمٍ وَجُدَامٍ وَبَلْقَيْنٍ وَبَهْرَاءٍ وَبَلِّيٍّ مائة ألف، عليهم رجل من بلِّيٍّ، يقال له: مالك بن رَافِلة. فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له. فشجع ابن رواحة الناس، وقال: «يا قوم، والله إن التي تكهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي كرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين، إما ظهور وإما شهادة». فقال الناس: «قد والله صدق ابن رواحة». فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء، لقيهم جموع هرقل، من الروم والعرب، بقرية مَشَارِفٍ من قرى البلقاء، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة، وعبؤوا أنفسهم فيها، جعلوا على الميمنة قُطْبَةَ بن قتادة العذري، وعلى الميسرة عباد بن مالك الأنصاري. ثم التقى الناس واقتتلوا، فاستشهد زيد، وأخذ الراية جعفر، فاقتحم عن فرس له شقراء، ثم عقرها، ثم قاتل حتى أكرمه الله بالشهادة، وهو ينشد:

«يَا حَبَّذا الجَنَّةُ واقترابها
والرومُ رومٌ قد دنا عَذَابُهَا
طيبةً وبارداً شَرَابُهَا
كافرةً بعيدةً أنسابُهَا
عليَّ إذ لا قيتها ضرابُهَا»

[ابن إسحاق، مرة مرسلاً حسناً، ومرة متصل حسن]



وروى ابن هشام أن جعفرًا أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء. [المجمع، من حديث ابن إسحاق، حسن].

ثم قال ابن هشام: (ويقال إن رجلًا من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين). وقد ذكر الواقدي وابن سعد عدة روايات في الحالة التي وجد عليها جعفر بعد استشهاد. ففي رواية أنه وجد في أحد نصفيه ثلاثون أو بضعة وثلاثون جرحًا، وفي رواية ثالثة أنه وجد في بدنه أكثر من ستين جرحًا وطعنة، قد أنفذته. وثبت في الصحيح [البخاري]، أنه قد وجد في جسده بضع وتسعون من طعنة ورمية.

روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن] وغيره أنه لما قتل جعفر أخذ ابن رواحة الراية، ثم تقدم بها وهو على فرسه، ثم تردد بعض التردد، ثم قال مرتجزًا:

| | |
|---|---|
| «أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهُ | لَتَنْزِلَن أَوْ لَتَكْرَهَنَّه |
| إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّنَّةَ | مَا لِي أَرَاكَ تَكْرَهِينَ الْجَنَّةَ |
| قَدْ طَالَ مَا قَدْ كُنْتَ مَطْمَئِنَّةَ | هَلْ أَنْتِ إِلَّا نَظْفَةٌ فِي شَنَّةَ |

[أجلب: أي صاحوا واجتمعوا؛ والرنة: صوت فيه ترجيح شبه البكاء؛ النظفة: الماء القليل الصافي؛ شنة: القبة القديمة].

وقال أيضًا:

| | |
|--------------------------------------|---------------------------------------|
| يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي | هَذَا جِهَامُ الْمَوْتِ قَدْ صُلِّيتِ |
| وَمَا تَمْنَيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ | إِنْ تَفْعَلِي فَعَلَهُمَا هُدَيْتِ |

[يعني زيدًا وجعفرًا]

ثم نزل ساحة الوغى. فلما نزل أتاها ابن عم له بعظم عليه بعض اللحم، وطلب منه أن يشد به صلبه لما لاقاه من أيامه تلك من الشدة، فلما أخذ من هذا العظم شيئًا يسيرًا، سمع



الكسرة من ناحية الناس فقال: وأنت في الدنيا! ثم ألقاه وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل، فنال الشهادة التي كان يتمناها. وقد ظهر ذلك في موقفه عندما حث الناس على لقاء العدو، على الرغم من كثرته، وعندما ترجم مشاعره في أشعاره التي ذكرنا، وفي قوله لربيبه الذي كان في حجره ورديفه إلى مؤتة، زيد بن أرقم، الذي سمعه يترنم بأبيات من الشعر، يشتهي فيها الشهادة، فبكى زيد، فخفقه ابن روحة بالدرة، وقال له: «ما عليك يا لُكْع أن يرزقني الله شهادة وترجع بين شُعْبَتَي الرحل». [ابن إسحاق، ولُكْع: الصغير].

ثم أخذ الراية بعده ثابت بن أقرم، وطلب من المسلمين أن يصطلحوا على رجل منهم، فرشحوه، فرفض، فاصطلحوا على ابن الوليد. فأخذ الراية، وتمكن من الانسحاب. [ابن إسحاق، حسن].

روي أنه لما قتل ابن رواحة مساء بات خالد، فلما أصبح غداً، وقد جعل مقدمته ساقته، وساقته مقدمته، وميمنته ميسرته، وميسرته ميمنته، أنكر الأعداء ما كانوا يعرفون من رايات وهيئة المسلمين، وقالوا: قد جاءهم مدد، فرعبوا، فانكشفوا منهزمين، فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم [الواقدي]. وانكسرت يومئذ في يد خالد بن الوليد تسعة أسياف [البخاري]، مما يدل على شدة القتال قبل أن ينسحب من ميدان القتال.

ومما يؤكد مباشرة المسلمين القتال قبل الانسحاب، ما رواه مسلم وغيره من حديث عَوْف بن مالك أن رجلاً من أهل اليمن رافقه في هذه السرية، فقتل رومياً وأخذ سَلْبَهُ، فاستكثره خالد، فشكاه اليمني إلى رسول الله ﷺ.

ومما ظهر من معجزات الرسول ﷺ في أمر هذه السرية أنه ﷺ نعى زيداً وجعفرًا وابن رواحة قبل أن يأتيه خبرهم، وعيناه تذرفان الدموع، وأخبرهم بأخذ خالد للراية وبشرهم بالفتح على يديه، وسماه يومئذ سيف الله [البخاري]. وحزن رسول الله ﷺ لما وقع لهم [نفسه]. ثم بعد ذلك قدم بخبرهم يَعْلَى بن أمية، ولم يزد ما جاء به عما قاله



الرسول ﷺ لأصحابه [البداية، من حديث ابن عقبة]. وفي رواية أن عامر الأشعري هو الذي أخبر النبي ﷺ بمصائبهم. [الطبراني].

ومع ضراوة هذه المعركة، وكثرة أعداد جيش العدو، إلا أنه لم يستشهد من المسلمين سوى اثني عشر رجلاً [ابن إسحاق، ابن هشام الواقدي] كحد أقصى، أما الأعداء، فلم يعرف عدد قتلاهم، غير أن وصف المعركة يدل على كثرتهم.

وكان لشهداء مؤتة مكانة عظيمة عند الله تعالى، ولذا قال الرسول ﷺ: «ما يسرني أو قال ما يسرهم أنهم عندنا». [البخاري].

أما ما روى ابن إسحاق [من مرسل عروة] من أن الناس قالوا لجيش مؤتة: «يا فرار، فررتم في سبيل الله...»، فقد قال ابن كثير [البداية] عن هذه الرواية: (وعندي أن ابن إسحاق قد وهم في هذا السياق، فظن أن هذا الجمهور الجيش، وإنما كان للذين فروا حين التقى الجمعان، وأما بقيتهم فلم يفروا، بل نصروا كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ المسلمين، وهو على المنبر في قوله: «ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، ففتح الله على يديه»، فما كان المسلمون ليسموهم فراراً بعد ذلك، وإنما تلقوهم إكراماً وإعظاماً، وإنما كان التأنيب وحيي التراب للذين فروا وتركوهم هناك، وكان فيهم عبدالله بن عمر رضي الله عنه).

وساق ابن كثير أدلة على أن جمهور المسلمين لم يفروا، بل فرت مجموعة من المسلمين، من ذلك حديث عبد الله بن عمر عند أحمد [المسند، حسن]، الذي فيه أنه كان ممن فر وخشوا القتل إن هم دخلوا المدينة، فهموا أن يركبوا البحر، ثم أخيراً قرروا عرض أنفسهم على الرسول ﷺ، واعترفوا بفرارهم، فقال لهم: «لا بل أنتم العكارون، أنا فيئتكم، وأنا فيئة المسلمين»، وفي رواية قال لهم: «لا بل أنتم الكرارون».

وجيء بأبناء جعفر رضي الله عنه، فداعبهم رسول الله ﷺ، وأمر بحلق رؤوسهم، ودعا لهم، وقال لأهمهم عندما جاءت تذكروهم: «الْعَيْلَةُ تخافين عليهم أنا وليهم في الدنيا



والآخرة؟» [أحمد: المسند، صحيح؛ ابن ماجه، حسن]. ولما جاء نعي جعفر، قال رسول الله ﷺ: «اصنعوا لآل جعفر طعامًا، فقد أتاهم أمر يشغلهم، أو أتاهم ما يشغلهم». [أحمد: المسند، صحيح].

● أحكام وحكم ودروس وعبر من أحداث هذه السرية:

- ١- إن في تعيين الرسول ﷺ لثلاثة أمراء على جيش سرية مؤتة، لدليل على جواز تعليق الإمارة بشرط، وتولية عدة أمراء بالترتيب. [ابن حجر: الفتح].
- ٢- في نعي الرسول ﷺ الأمراء الثلاثة قبل مجيء خبرهم، فيه جواز الإعلام بموت الميت ولا يكون ذلك من النعي المنهي عنه، وفيه علم ظاهر من أعلام النبوة. [نفسه].
- ٣- في تأمير المسلمين لخالد بعد استشهاد الأمراء الثلاثة دليل على جواز الاجتهاد في حياة الرسول ﷺ. [نفسه].
- ٤- إن ظهور الحزن على رسول الله ﷺ عندما جاءه خبر استشهاد الأمراء الثلاثة لدليل على ما جعله الله فيه من الرحمة ولا ينافي ذلك الرضا بالقضاء. ويؤخذ منه ظهور الحزن على الإنسان إذا أصيب بمصيبة لا يخرج عنه كونه صابراً راضياً إذا كان قلبه مطمئناً، بل قد يقال إن من كان ينزعج بالمصيبة ويعالج نفسه على الرضا والصبر أرفع رتبة ممن لا يبالي بوقوع المصيبة أصلاً [نفسه].
- ٥- أفاد المسلمون دروساً وخبرات عظيمة من هذا اللقاء الأول مع الروم في مستقبل جهادهم معهم، حيث تعرفوا على عددهم وعدتهم وخططهم العسكرية وطبيعة أرضهم التي وقع فيها القتال. [العمرى: المجتمع].
- ٦- إن في مواقف الأمراء الثلاثة دليل على مدى قوة الإيمان الذي يحرك الصحابة ﷺ نحو ميادين الجهاد.





الفصل التاسع عشر

أبرز السرايا بين سرية مؤتة وغزوة فتم مكة

• المبحث الأول: سرية ذات السلاسل

• بعد عودة سرية مؤتة إلى المدينة بأيام قليلة، وبالتحديد في جمادى الثانية من سنة ثمان هجرية كما ذكر ابن سعد، بلغ الرسول ﷺ أن قضاة بدأت تتجمع مرة أخرى تريد الدنو من المدينة، فأرسل إلى عمرو بن العاص، فلما جاءه قال له: «...إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة»، فقال له عمرو: «يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال، ولكن أسلمت رغبة في الإسلام وأن أكون مع رسول الله ﷺ»، فقال يا عمرو: «نعم المال الصالح للمرء الصالح» [أحمد: المسند؛ صحيح؛ البخاري: الأدب، صحيح]. ثم بعثه في ثلاثمئة من المهاجرين والأنصار ليقضى عليهم في ديارهم، وأمره أن يستعين ببعض فروع قضاة من بليّ وعذرة وبلقين على ذلك العدو، لأن أم عمرو كانت من بلي، وفي ذلك استتلاف لهم. وعندما وصل في مسيره إلى ماء بأرض جذام، يقال له السلسل - وبه سميت السرية - بلغه كبر جمعهم، فأرسل رافع بن مكيث الجهني إلى الرسول ﷺ، فأمدّه بهاتين من المهاجرين والأنصار، عليهم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وفيهم أبو بكر وعمر، وطلب من عمرو وأبي عبيدة أن يتطوعا. وعندما أصر عمرو على تولي الإمامة في الصلاة، لم يرد أبو عبيدة أن يخالفه في هذا، امثالاً لوصية الرسول ﷺ. [ابن إسحاق؛ عروة؛ ابن سعد؛ الواقدي].

في حديث أحمد [المسند، من مرسل الشعبي] أن النبي ﷺ استعمل أبا عبيدة على المهاجرين وعمرو بن العاص على الأعراب، وأمرهم بالإغارة على بكر، فانطلق عمرو



فأغار على قضاة لأن بكرًا أخواله، فأطاعه أبو عبيدة، ولم يخالفه أبو عبيدة في ذلك لأنه لم يرد الخلاف. ويستبعد هذا التعليل الذي ساقه الشعبي.

وسار عمرو بالناس حتى وطئ بلاد بلي ودوخها، حتى أتى أقصى بلادهم وبلاد عذرة وبلقين، ولقي في آخر ذلك جمعًا، فحمل عليهم المسلمون، فهربوا، فعاد بعد هذا إلى المدينة. [ابن سعد، الواقدي].

وفي طريق العودة احتلم عمرو في ليلة باردة فتيّم ولم يغتسل غسله للجنابة، خشية البرد، مستندًا إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩). ثم صلى بالناس، وقد أقر الرسول ﷺ هذا الاجتهاد منه. [أبو داود، صحيح؛ البيهقي: الدلائل والسنن، بسند قوي؛ البخاري، معلقًا].

وعندما أصابهم برد أمرهم عمرو بآلا يوقدوا نارًا ولا يتبعوا العدو، واعترض بعض المسلمين على ذلك، وعندما شكوه إلى رسول الله ﷺ [ابن عساكر؛ ابن حبان في صحيحه] قال عمرو: «كان في أصحابي قلة فخشيت أن يرى العدو قلة فقتلهم عندما يوقدون النار، ونهيتهم أن يتبعوا العدو مخافة أن يكون لهم كمين»، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ.

فوائد فقهية في أحداث هذه السرية:

١- إن في خبر تأمير عمرو بن العاص على جيش فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه دليلًا على جواز تأمير المفضول على الفاضل، إذا امتاز المفضول على الفاضل بصفة تتعلق بتلك الإمارة أو الولاية [ابن حجر: الفتح]. فعمرو خير حرب.

٢- وفي حديث تيمم عمرو جواز التيمم لمن يتوقع الهلاك من استعمال الماء البارد.

٣- وفيه جواز صلاة التيمم بالمتوضئين.



٤ - جواز الاجتهاد في زمن الرسول ﷺ كما في خبر تيمم عمرو وصلاته وهو

جنب. [زاد المعاد].

● المبحث الثاني: سرية أبي قتادة إلى بطن إضم

● [بين ذي خشب وذئ المروة، وبينها وبين المدينة ثلاثة برد]

بعث رسول الله ﷺ سرية إلى إضم فيها أبو قتادة ومُحَلَّم بن جَثَّامَة بن قيس، حتى إذا كانوا ببطن إضم مر بهم عامر بن الأَضْبَط الأشجعي، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فأمسكوا عنه، ومع ذلك حمل عليه محلم فقتله لشيء كان بينهما، وأخذ بغيره ومتاعه، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقِينُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤] [ابن إسحاق، حسن]. وقيل إن رسول الله ﷺ قد رفض أن يستغفر لمحلم عندما طلب منه ذلك وهم بحنين. [ابن إسحاق، حسن].

وقالوا إنه عندما مات بعد سبعة أيام من هذا دفنوه فلفظته الأرض مرتين فما كان من قومه إلا أن وضعوه بين جبلين، ثم رصوا فوقه الحجارة حتى واروه، فقال الرسول ﷺ عندما بلغه ذلك: «والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يعظكم في حُرْم ما بينكم بما أراكم منه». [الطبري: التفسير، حسن لغيره].

وقد ذكر المحدثون أكثر من سبب في نزول هذه الآية. فقد روى البخاري أنها نزلت في مسلمين مر بهم رجل في غُيْمَتِهِ، وألقى إليهم السلام، فقتلوه، وأخذوا غنيمته، ورواه بنحو مثل رواية البخاري: أحمد [المسند، صحيح]، والترمذي [حسن]، والحاكم [حسن].

وروى البزار [في البداية] بسنده إلى ابن عباس أنها نزلت في المقداد بن الأسود، عندما بعث في سرية وتفرق العدو وبقي رجل معه مال كثير، وشهد أن لا إله إلا الله، فقتله



المقداد، فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل».

ويبدو من هذه التفسير أن الحادثة قد تكررت، وأن الآية نزلت في غير واحد. [تفسير ابن كثير].

وكانت هذه السرية في أول شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة. [ابن إسحاق؛ حسن؛ ابن سعد، الواقدي].

وذكر الواقدي عن سبب بعث هذه السرية أن رسول الله ﷺ عندما أراد غزو مكة بعث أبا قتادة في ثمانية إلى بطن إضم، ليظن الظان أن رسول الله ﷺ متوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار.

فائدة ودروس في هذه السرية:

١ - إن في قول رسول الله ﷺ للمقداد: «كذلك كنت تخفي إيمانك قبل» لفظة كريمة إلى أنه لا ينبغي للإنسان إذا اجتمعت له أسباب القوة أن ينسى أيام ضعفه، فإنه إن فعل استبد به الغرور، وملكه الأشر والبطر. [حاشية محققي تفسير ابن كثير].





الفصل العشرون غزوة فتح مكة

كان من ضمن شروط صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل، فدخلت خزاعة في عقد محمد ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعقدهم. فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهرًا، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بماء يقال له (الْوَتِير)، وهو قريب من مكة، وقالت قريش: «ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا أحد»، فأعانوهم على خزاعة بالكراع والسيلاح، وقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ. فاستنجدت خزاعة بالمسلمين، وقدم عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة، فأشدد أبياتًا من الشعر أمام رسول الله ﷺ يستنصره، فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو ابن سالم». فما برح حتى مرت بهم سحابة، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب». [ابن إسحاق، حسن لذاته].

ويذكر ابن إسحاق أن بني بكر لم يتركوا مطاردة خزاعة وقتلهم حتى داخل الحرم، وبلغ عدد قتلى خزاعة عشرين رجلًا. [الواقدي].

وذكر موسى بن عقبة [في البداية] أن الذين أعانوا بني بكر على خزاعة من أشرف قريش: صفوان بن أمية، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو، وأن الإغاثة كانت بالسيلاح والرفيق.

وفي رواية لابن حجر في المطالب العالية وأخرى في الفتح إشارة إلى رسول الله ﷺ أرسل إلى قريش يخبرهم بين دفع دية قتلى خزاعة أو البراءة من حلف بني بكر أو الحرب، فاختارت قريش الحرب.



ولأن هذا التصرف من قريش يعد نقضاً لمعاهدة وصلاح الحديبية، فقد ندمت قريش على فعلتها، ولذا عندما انصرف ضمرة، أرسلت أبا سفيان إلى المدينة لتجديد المعاهدة [ابن حجر: الفتح، من حديث ابن عائذ]. والمشهور أن قريشاً عندما خافت من نتائج فعلتها، كانت هي التي بادرت بإرسال أبي سفيان إلى المدينة قبل أن يبلغ المسلمين الخبر، وعندما جاء إلى المدينة لم يتصل بالرسول ﷺ مباشرة، بل ذهب إلى أبي بكر ثم عمر ثم فاطمة ثم علي فردوه جميعاً، وأغلظ عليه عمر فعاد إلى مكة خائباً [ابن إسحاق، حسن]. ونص قول عمر رضي الله عنه: «أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به» [البيهقي، الدلائل، حسن]. وفي رواية الواقدي: «والله لو وجدت الذر تقاتلكم لأعتتها عليكم، قال أبو سفيان: جزيت من ذي رحم شراً». [الذر: صغار النمل]. وكان أبو سفيان عندما قدم إلى المدينة، دخل على ابنته أم حبيبة، زوج النبي ﷺ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: «يا بُنَيَّة، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: «بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ». قال: «والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر». ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً. [ابن إسحاق، حسن].

وأمر رسول الله ﷺ أهله بالجهاز، ولم يسم لهم الجهة التي يقصدها، ثم أعلمهم بعد ذلك أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها»، فتجهز الناس، وقال حسان في ذلك شعراً يجرى الناس ويذكر مصاب خزاعة. [ابن إسحاق، حسن].

واستنفر الرسول ﷺ القبائل التي حول المدينة: سُليماً وأشجع ومزينة وأسلم وغفاراً. فمنهم من جاءه وهو بالمدينة ومنهم من لحقه بالطريق إلى مكة، حتى بلغ جيش



المسلمين عشرة آلاف مقاتل [البخاري، ابن إسحاق حسن]، ولم يتخلف أحد من المهاجرين والأنصار. [ابن إسحاق، حسن].

وبلغ ما حشدته مزينة من رجالها ألف مقاتل، وسليم كذلك ألفاً أو سبعمائة [نفسه]. ولما تهباً الرسول ﷺ إلى الخروج، أرسل حاطب بن أبي بلتعة البديري كتاباً مع امرأة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فبعث النبي ﷺ علياً والزبير والمقداد في أثرها، وقال لهم: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها». وعندما أدركوها في المكان المشار إليه، طلبوا منها إخراج الكتاب فأنكرت وجوده معها، فقالوا لها: «لَتُخْرِجَنَّ الكتاب أو لنلقين بالثياب»، فأخرجته من عِقَاصِهَا [ضفائر شعرها]. فأرسل الرسول ﷺ إلى حاطب، فقال له: يا حاطب، ما هذا؟ قال: «يا رسول الله، لا تعجل عليّ، إني كنت امرأةً مُلْصَقًا في قريش حليفاً، ولم أكن من أنفسها. وكان من معك من المهاجرين ممن لهم قرابات يحمون أهلهم، وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام». فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم»، فقال عمر: «يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق»، فقال النبي ﷺ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً وقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فأنزل الله الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِهِ مَرْضَاهُ فَيُسْرُونَ إِيَّاهُمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١﴾ [المتحنة: ١]. [متفق عليه]، وفي رواية: قدمعت عينا عمر، وقال: «الله ورسوله أعلم». [البخاري].

خرج رسول الله ﷺ وأصحابه من المدينة في طريقهم إلى مكة، في رمضان سنة ثمان من الهجرة، وكانوا صياماً، حتى بلغوا كُدَيْدًا، فأفطر، وأفطر الناس. [متفق عليه].



والذي اتفق عليه أهل السير والمغازي أنه خرج في عاشر رمضان، ودخل مكة لتسع عشرة ليلة خلت منه [ابن إسحاق، حسن].

واختلفوا في تاريخ الفتح ما بين ثنتي عشرة وثلاث عشرة وست عشرة وسبع عشرة وثمان عشرة وتسع عشرة، من رمضان، واتفقوا على أنه في رمضان سنة ثمان، كما جاءت بذلك الروايات عند مسلم. [مسلم؛ ابن سعد].

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا رُهم، كُثُوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري. [ابن إسحاق، حسن].

وقبل دخول الرسول ﷺ مكة جاءه بعض زعماء قريش فأعلنوا إسلامهم، منهم ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، أخو الرسول ﷺ من الرضاعة، وقد جاءه بالأبواء، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، وقد جاءه بين السقيا والعرج. وكانا من ألد خصوم الإسلام خاصة أبو سفيان الذي ظل على مدى عشرين سنة يهجو المسلمين ويقاثلهم في كافة الحروب، ولكنه عندما أسلم كانت له مواقف بطولية في الدفاع عن الرسول ﷺ، لا سيما موقفه يوم حنين، حين فر الناس، فصمد مع الرسول ﷺ صموداً مشهوداً [ابن إسحاق، حسن]، وسيأتي خبر ذلك في مكانه. أما عبد الله بن أمية، أخو أم المؤمنين أم سلمة ؓ لأبيها، فقد دافع عن الإسلام بقوة واستشهد في حصار الطائف. [الاستيعاب].

ولقيه ببعض الطريق عمه العباس [ابن إسحاق، حسن]، وذكر ابن هشام أن ذلك كان بالجُحفة، وهو مهاجر بعياله إلى المدينة.

وقيل إن العباس أسلم قبل بدر [ابن سعد]، بل قيل قبل الهجرة إلى المدينة [نفسه]. قال ابن حجر [في الفتح]: (وكان إسلامه على المشهور قبل فتح مكة - يعني حين سار



الرسول ﷺ إلى مكة فاتحًا -، وقيل قبل ذلك، وليس ببعيد، فإن حديث أنس في قصة الحجاج بن علاط ما يؤيد ذلك). ففي القصة أن العباس عندما سمع برواية الحجاج عن انهزام المسلمين يوم خيبر واستباحتهم وأسر الرسول ﷺ، قعد ولم يستطع القيام من هول الخبر على نفسه، وأخذ ابنًا له يشبه الرسول ﷺ يقال له قثم، فاستلقى ووضع على صدره، وهو يقول: «حبي قثم شبيه ذي الأنف الأشم، نبي رب ذي النعم، برغم أنف من رغم». وأرسل غلامًا له إلى الحجاج بن علاط يستعلمه الخبر، فطمأن الحجاج الغلام. وعندما جاء الغلام وبشر العباس، وثب فرحًا، حتى قبل بين عينيه. وعندما أخبره بما قال الحجاج أعتقه، وعندما جاء المسلمون أخبرهم الخبر، وسروا بذلك سرورًا عظيمًا وزالت عنهم الكآبة [عبد الرزاق؛ أحمد؛ ابن حبان؛ البزار؛ النسائي، وأسانيدهم صحيحة].

وقد جزم ابن عبد البر [في الاستيعاب] بإسلامه قبل خيبر، استنادًا إلى حديث الحجاج بن علاط هذا.

ويقول ابن حجر [في الفتح] في ترجيحه إسلام العباس قبل فتح مكة (.... وأما قول أبي رافع في قصة بدر: كان الإسلام دخل علينا أهل البيت فلا يدل على إسلام العباس حينئذ، فإنه كان ممن أسر يوم بدر ففدى نفسه وعقيلًا ابن أخيه أبي طالب، ولأجل أنه لم يهاجر قبل الفتح لم يدخله عمر في أهل الشورى مع معرفته بفضله واستسقاؤه به...).

والذي أرجحه هو ما ذهب إليه ابن عبد البر أن العباس أسلم قبل فتح خيبر، وكان يكتُم إسلامه بأمر الرسول ﷺ لمصلحة الدعوة وخاصة تزويد الرسول ﷺ بأخبار قريش. تجمعت جيوش المسلمين بمَرَّ الظَّهران - مكان بين مكة والمدينة - ولم تكن الأنباء قد وصلت قريشًا بعد، ولكنهم كانوا يتوقعون أمرًا بسبب فشل سفارة أبي سفيان إلى المدينة حين أعانوا بني بكر على خزاعة، فأرسلوا أبا سفيان وحكيم بن حزام وبُدَيْل



ابن وَرْقَاء ليتحسسوا الأخبار عن الرسول ﷺ، فالتقى بهم العباس راکبًا بغلة الرسول ﷺ وكان يريد أن يرسل إلى قريش رسولًا يطلب منهم أن يخرجوا المصاحلة الرسول ﷺ، قبل أن يدخل عليهم مكة، وكانوا ثلاثتهم يتحدثون في أمر الجيش المعسكر بمر الظهران وكثرة نيرانه، وقد ظن بديل أنها خزاعة، وعارضه أبو سفيان في هذا، فأخبرهم العباس بأنه جيش المسلمين، فوافقه، وأردفه على البغلة، ولما رآه عمر أراد قتله، ولكن الرسول ﷺ صرفه عن هذا، وعندما أدخل العباس أبا سفيان على الرسول ﷺ، أخذ يدعو إلى الإسلام شطرًا كبيرًا من تلك الليلة، فألان القول وتردد، فطلب الرسول ﷺ من العباس أن يأخذه معه إلى خيمته، ويأتي به في صباح اليوم التالي.

وفي الصباح قبل أبو سفيان الإسلام بعد تردد، وطلب العباس من الرسول ﷺ أن يجعل لأبي سفيان شيئًا، لأنه يحب الفخر، فوافق، وقال في إعلانه لأهل مكة: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.....».

وأمر الرسول ﷺ العباس أن يحبس أبا سفيان عند مضيق الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها، ففعل، حيث أوقفه على عدة وعدد المسلمين عندما كانت تمر بهما كتائب المسلمين بمر الظهران، حتى إذا مرت به كتيبة المهاجرين والأنصار، وفيهم رسول الله ﷺ، قال أبو سفيان للعباس: «والله لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا»، فقال العباس: «ويحك يا أبا سفيان، إنها النبوة»، قال أبو سفيان: «فنعم إذا».

وعندما رأى أبو سفيان ما رأى، جاء إلى قومه وصرخ فيهم محذرًا لهم بأن لا قبل لهم بها جاء به محمد، وقال لهم ما قاله الرسول ﷺ: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ففرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد. [ابن راهويه: المطالب العالية، صحيح؛ ابن إسحاق، حسن].



أما بديل وحكيم، رفيقا أبي سفيان، فقد أسلما بمجرد دخولهما على رسول الله ﷺ.
[ابن سعد؛ الواقدي].

وعندما مرت كتيبة الأنصار بأبي سفيان، قال سعد بن عباد، حامل رايتهم: «اليوم يوم الملحمة اليوم تُستحل الكعبة» [البخاري]، فاحتج أبو سفيان على هذا القول، فقال له الرسول ﷺ: «كذب سعد - أي: أخطأ - ولكن هذا يوم يعظم فيه الله الكعبة، ويوم تُكسى فيه الكعبة». وأخذ الراية من سعد ودفعها إلى ابنه قيس، ولكن سعدًا طلب منه أن يصرف ابنه عن الموضع الذي هو فيه، مخافة أن يُقدم على شيء يكرهه، فصرفه عن ذلك [ابن حجر في الفتح ومختصر روائد البزار، بسند صحيح]، وقيل: إنه دفع الراية إلى الزبير بن العوام، فدخل الزبير مكة بلوائين [ابن حجر: المطالب؛ المجمع]، وجزم موسى بن عقبة في المغازي عن الزهري بأنه دفعها إلى الزبير. [ابن حجر: الفتح، البداية].

لقد ذكر الواقدي تفصيلًا دقيقًا لتوزيع الرايات والألوية على قادة الجيش الإسلامي، وأسماء الرسل الذين أوفدهم النبي ﷺ لاستنفار القبائل، وعدد أفراد الجيش الإسلامي وعدة كل قبيلة. وقد ثبت أن الرسول ﷺ عندما وصل مر الظهران عين القادة وقسم الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب، فكان ابن الوليد على المجنبه اليمنى والزبير على المجنبه اليسرى وأبو عبيدة على الرجالة [مسلم]. وكانت راية الرسول ﷺ سوداء ولواؤه أبيض. [ابن ماجه، حسن، أبو داود، حسن].

وقد جمعت قريش جموعًا من قبائل شتى ومن أتباعها لحرب المسلمين، وقالوا: نقدم هؤلاء، فإن كان لهم شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا. فأمر رسول الله ﷺ بقتالهم، وسارت جيوشه حتى انتهت إلى الصفا، ما يعرض لهم أحد إلا قتلوه [مسلم]. وقاد هذا الجمع صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، واختاروا الخندمة ليقاتلوا فيها [ابن إسحاق، مرسلاً حسناً؛ والخندمة: اسم جبل بمكة].



ودخل الرسول ﷺ مكة من أعلاها من جهة كَدَاءٍ [البخاري] خاشعًا شاكراً يقرأ سورة الفتح ويرجع في قراءتها وهو على راحلته [البخاري]، ودخل ابن الوليد من أسفلها [الفتح]. والتحم خالد عند الحَنْدَمَةِ مع بعض المشركين فاستشهد اثنان من فرسان المسلمين [البخاري]، وقيل: ثلاثة [ابن إسحاق، مرسلاً حسناً]، وقيل: قتل من المشركين اثنا عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً - بالشك [مسلم]، وقيل قريب من عشرين رجلاً، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة [البيهقي: السنن الكبرى، من مرسل ابن عقبة]، وقيل أربعة وعشرون من قريش وأربعة من هذيل [الواقدي؛ ابن سعد]، وقيل سبعون قتيلاً [الطبراني، حسن لغيره]. ومن القرائن التي ترجح رواية موسى بن عقبة - باعتبار أنه من رجال الجماعة وأوثق من ابن إسحاق وابن سعد والواقدي - قول أبي سفيان: «يا رسول الله، أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم». [مسلم].

والظاهر من الأحاديث أن هذا القتل الذي حدث لم يكن ليحدث لو احترم كل المشركين الأمان الذي أعلنه الرسول ﷺ لأهل مكة، ذلك الأمان الذي فسره بعض الأنصار، بأنه رغبة النبي ﷺ في قريته ورأفة بعشيرته، فأخبره الوحي بما قالوا، فخطبهم قائلاً: «كلّا، إني عبد الله ورسوله. هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم»، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله! ما قلنا الذي قلنا إلا الظنّ بالله وبرسوله، فقال لهم: «إن الله ورسوله يُصَدِّقَانِيكُمْ وَيَعْذِرَانِيكُمْ»، فأقبل بعض الناس إلى دار أبي سفيان والبعض الآخر أغلقوا عليهم أبوابهم. [مسلم].

لقد استثنى الرسول ﷺ من ذلك الإعلان أربعة رجال وامرأتين إذ أعلن إهدار دمائهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة، والرجال هم: عكرمة بن أبي جهل [الواقدي]، وعبد الله بن خَطْلٍ، [كان مسلماً]، فأرسله الرسول ﷺ مع أحد الأنصار مصداقاً، وكان معها مولى له مسلم يخدمه، فعدا على مولاه فقتله؛ لأنه لم يصنع له طعاماً، ثم ارتد مشركاً، ابن إسحاق، معلقاً، وكان يهجو رسول الله ﷺ بالشعر، ابن حجر: [الفتح] ومُقَيْس بن صُبَابَةَ [قتل أنصاري أخاه



خطأ يوم المريسيع، فأُعطيَ الدية، ثم عدا على الأنصاري فقتله وهرب إلى مكة مرتدًا، ابن إسحاق، معلقًا، والبزار في الكشف، والطبراني في الأوسط، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبه في المصنف؛ والنسائي والحديث حسن لغيره، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح [كان قد أسلم وكتب الوحي، ثم ارتد: ابن سعد، والطبراني في الأوسط، وعبد الرزاق في المصنف والنسائي: انظر: الحاشية السابقة، وفيها بقية المعلومات، وابن إسحاق، معلقًا، وأبو داود، والحديث حسنًا لغيره.]، وقد قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة [متفق عليه]، وقتل مقيس في سوق مكة، واختفى عكرمة وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، حتى ضمنا الأمان من الرسول ﷺ، فجاءا مسلمين وحقنا دمهما [النسائي؛ حسن لغيره]. والمرأتان هما: فَرَنْتَى وسارة وقيل فَرَنْتَى وأخرى كانتا جارتين لابن خطل [ابن إسحاق، حسن لغيره]، وأن سارة كانت لعكرمة بن أبي جهل [ابن إسحاق]. وأما قينتا ابن خطل فقتلت إحداهما وهربت الأخرى حتى استؤمن لها، فأمنها رسول الله ﷺ. وأما سارة فكذلك هربت حتى استؤمن لها، وعاشت إلى زمان عمر فوطئها رجل بفرس فقتلها. [الفتح؛ ابن إسحاق، ابن هشام].

ويذكر ابن حجر أن عدد الذين أهدر الرسول ﷺ دماءهم تسعة من الرجال وست أو ثمانٍ من النساء، وذلك للاختلاف في القيتين، إذ يحتمل أن تكون أرنب وأم سعد هما القيتان. ومن ذكرهم من غير ما ذكرنا: الحُوَيْرِث بن ثَقَيْد، نخس بغير ابنتي رسول الله ﷺ فاطمة وأم كلثوم، يوم هجرتهما، فرمى بهما إلى الأرض فقتله علي، وهَبَّار بن الأسود الذي عَرَضَ لزَيْنَب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بغيرها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، ففر يوم فتح مكة، ثم أسلم وحسن إسلامه، والحارث ابن طَلاطِل الخزاعي، فقتله علي، وكعب بن زهير، وقد جاء بعد ذلك وأسلم، ووحشي ابن حرب، قاتل حمزة، هرب إلى الطائف، ثم جاء في وفد ثقيف، وأسلم وحسن إسلامه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، وقد أسلمت.



وذكر الواقدي أن الرسول ﷺ أمر بقتل ستة نفر وأربع نسوة: عكرمة وهبار وابن سعد ومقيس والحويرث وابن خطل وهند بنت عتبة وسارة مولاة عمرو بن هشام وقيتين لابن خطل.

وسبب إهدار النبي ﷺ دم هؤلاء كما هو واضح من سيرتهم، ما ألحقوه من أذى شديد وتنكيل بالمسلمين، وكان في إهدار دمهم عبرة للطغاة والمستهزئين بأرواح الأبرياء في كل زمان ومكان.

أحل الرسول ﷺ لخزاعة أن تتأثر من بني بكر في اليوم الأول من الفتح حتى العصر، وذلك لما كان منهم بالوتير. وعندما دخل العصر أمر بكف السلاح عن بني بكر، وَبَيَّنَّ حرمة مكة، وعندما قتلت خزاعة رجلاً من بني بكر في اليوم التالي بمزدلفة غضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، ودفع دية البكري، وقال: إن من يقتل بعد ذلك قتيلاً فأهل القتل بالخيار بين القصاص والدية. [أحمد، حسن؛ ابن إسحاق، حسن].

وذكر ابن إسحاق تفاصيل مقتل هذا البكري، واسمه ابن الأشوع الهذلي، وقتله خراش بن أمية، وقتله أحد فرسان خزاعة، واسمه أحمـر.

وأعلن الرسول ﷺ العفو عن عامة أهل مكة، عندما اجتمعوا إليه قرب الكعبة ينتظرون حكمه فيهم، فقال لهم: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» فقالوا: «خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم». فقال: «لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم» [الأموال، مرسلاً حسناً؛ ابن إسحاق، يتقوى بغيره]. وفي رواية، أنه قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» [ابن إسحاق]، ولذا عرفوا في التاريخ بـ(الطلقاء).

وكان هذا الموقف من الرسول ﷺ لما نزل من القرآن: ﴿وَلِإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَإِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال: «نصبر



ولا نعاقب»، مختارًا العفو والصبر، تَفْضُّلاً واحتساباً. [أحمد، حسن؛ الترمذي، حسن صحيح؛ الحاكم، صحيح].

وبيّن الرسول ﷺ للناس حرمة مكة وأنها لا تُغْزَى بعد الفتح، وأعلى من مكانة قريش، وأمر ألا يقتل قرشي صبراً بعد يوم الفتح إلى يوم القيامة. [مسلم؛ أحمد، حسن].

واستثنى الرسول ﷺ مكة من معاملة البلاد التي تفتح عَنْوَةً، وذلك لقدسيّتها، فحرم القتل أو السبي فيها، وأبقى الأموال الثابتة والمنقولة في أيدي أصحابها، ولم يفرض عليها خراجاً، ولهذا ذهب جمهور الأئمة من السلف والخلف إلى أنه لا يجوز بيع أراضي مكة ولا إجارة بيوتها، يسكن أهلها فيما يحتاجون إليه من دورها، وما زاد عن حاجتهم فهو لسكنى الحجاج والمعتمرين والقاصدين المسجد الحرام، وذهب آخرون إلى جواز بيع أراضيها وإجارة منازلها، واستدلوا في ذلك بآثار قوية، بينها أدلة المانعين لذلك آثار مرسلة وموقوفة. [الزاد].

ونزل رسول الله ﷺ بقبة ضربت له بِالْحُجُون، في المكان الذي تعاهدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين، وهو خَيْفُ بَنِي كِنَانَةَ، ويعرف بِالْمُحَصَّب، لأن داره قد أخذها عقيل بن أبي طالب، وهو لا يرثه لأنه كافر [متفق عليه]، ولم يرث علي وجعفر شيئاً من الدور، لأنهما مسلمان، وقد مات أبوهما كافراً. إضافة إلى أن عقيلًا وطالبًا باعا كل الدور. [البخاري].

وأمر الرسول ﷺ بتطهير البيت الحرام بإزالة الأصنام عنه، وشارك بيده في تكسيرها، وهو يقرأ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (سبا: ٤٩) ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١) [متفق عليه]، وكان عددها ستين وثلاثمئة [متفق عليه]. وكان بداخل الكعبة صُورٌ لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وهم يستقسمون بالأزلام، فلطخت بالزعفران، ولم يدخل الكعبة إلا بعد إخراجها منها وقال: «قاتلهم



الله، ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام» [البخاري، أحمد، صحيح]، وفي رواية قال: «هذا إبراهيم مصور، فما له يستقسم؟» [البخاري]، وفي رواية أن صورة مريم أيضًا كانت داخل الكعبة [نفسه]. ووجد حمالة من عيدان فكسرها، ورمى بها خارج الكعبة [ابن إسحاق، حسن]. وعندما طهرت الكعبة دخلها وصلى بها ركعتين [البخاري]، ثم خرج فأعطى مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة، وأبقى الحجابة في أيدي بني شيبه كما كانت في الجاهلية [عبد الرزاق، الفتح، والأسانيد تعتضد]. ثم استلم الحجر الأسود، وطاف بالبيت من غير إحرام، وكان على رأسه المغفر يوم دخل مكة، ثم لبس عمامة سوداء [متفق عليه]. وكان يستلم الركن بمحجنه [متفق عليه]، كراهة أن يزاحم الناس في طوافهم، وتعليقًا للأمة الإسلامية.

وأمر بلالًا أن يؤذن، فعلا بلال على ظهر الكعبة فأذن عليها، فقال بعض بني سعيد ابن العاص: «لقد أكرم الله سعيدًا إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة» [الذهبي: المغازي؛ البيهقي: الدلائل، صحيح]. وقال بعض زعماء قريش بنحو هذا. [الواقدي؛ ابن هشام].

وعندما تم تطهير البيت الحرام من الأصنام أرسل الرسول ﷺ بعوثًا إلى مناطق مختلفة لإزالة أكبر الأصنام التي بها. فقد أرسل خالد بن الوليد في ثلاثين رجلًا إلى بطن نخلة من ديار ثقيف لهدم العزى، صنم مضر وقريش وكنانة، فهدمها [ابن إسحاق، ابن سعد، الواقدي]. وكان ذلك لخمس ليال بقين من رمضان [ابن سعد، الواقدي]. وأرسل سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارسًا إلى صنم مناة بالمُشَلَّل من ناحية قديد - وهو القديدية الآن - وهو صنم يعظمه العرب وخاصة الأوس والخزرج قبل إسلامهم، فهدمها [ابن سعد]، وذلك لست بقين من رمضان [نفسه]. وأرسل عمرو



ابن العاص إلى سُوَاع، صنم هُذَيْل، فهدمها [نفسه]. وهذه الأصنام هي التي أشار إليها القرآن الكريم في الآية: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٧﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٩-٢٠].

واجتمع الناس لمبايعة الرسول ﷺ على السمع والطاعة لله ورسوله، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء. واجتمع إليه نساء قريش فيهن هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان، متقبلة متكرة لما كان من صنعها بحمزة ﷺ يوم أحد، فلما دنون منه ليبايعنه، قال رسول الله ﷺ: «تبايعنني على أن لا تشركن بالله شيئاً، فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما أخذته على الرجال سنؤتيكه، قال: ولا تسرقن، قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة، وما أدري أكان ذلك حلالاً أم لا؟ فقال أبو سفيان وكان شاهداً لما تقول: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل، فقال ﷺ: وإنك لهند بنت عتبة؟، فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف عفا الله عنك. قال: ولا ترزني، قالت: وهل ترزني الحرة؟ قال: ولا تقتلن أولادكن، قالت: قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم، فضحك عمر من قولها حتى استعرب [استلقى على قفاه - السبل]، قال: ولا تأتين بيهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، فقالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل. قال: ولا تعصينني في معروف، فقال رسول الله ﷺ لعمر: بايعهن، واستغفر لهن رسول الله ﷺ، فبايعهن عمر. وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء ولا يمس امرأة ولا تمسه، إلا امرأة أحلها الله له». [الطبري: التاريخ من بلاغات قتادة السدوسي؛ ابن سعد، بسند صحيح من مرسل الشعبي وميمون بن مهران - كما قال ابن حجر في الإصابة، ترجمة هند بنت عتبة - وقالت بالمعنى أختها فاطمة بنت عتبة، كما روى ذلك الحاكم (٢/ ٤٨٦)، بسند صحيحه ووافقه الذهبي].

وقد ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ كان يبايع النساء بالكلام، بالآية: ﴿لَا يَشْرِكُكَ

بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ [المتحنة: ١٢]، وما مست يده يد امرأة أجنبية. [متفق عليه].



ذكرنا في فصل الشمائل، مبحث: (تواضعه ﷺ) حديث البخاري الذي فيه: «وكانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنتلق به حيث شاءت»، قول ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: (والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف)، وقوله: (والمقصود من الأخذ باليد هو الرفق والانقياد).

وروي في غير الصحيحين قوله ﷺ: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة أو مثل قولي لامرأة واحدة» [أحمد؛ الترمذي؛ النسائي؛ ابن ماجه، الموطأ، صحيح].

وكان من أبرز نتائج هذا الفتح أن أخذت قبائل العرب وأفرادها يبادرون بإسلامهم، لأنهم كانوا ينتظرون نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش. فقد روى البخاري، من حديث عمرو بن سلمة الجرمي، قوله: «وكانت العرب تَلَوُّمُ بِإِسْلَامِهِمُ الْفَتْحَ، فيقولون: اتركوه وَقَوْمُهُ فَإِنَّهُ إِن ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم...». وكانت هذه النظرة لقريش لأنها كانت زعيمة العرب وحامية البيت وصريح ولد إسماعيل وناصبة الحرب لرسول ﷺ فلما افتتحت مكة، ودانت قريش لرسول الله ﷺ ودوخها الإسلام عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ وعداوته، فدخلوا في دين الله أفواجا، كما قال ﷺ: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا» [النصر: ١-٣] [ابن إسحاق].

وخطب الرسول ﷺ أثناء إقامته بمكة عدة خطب، يَبِّنُ فيها أمورًا وأحكامًا مختلفة، ففي الخطبة الأولى، التي كانت على باب الكعبة، يَبِّنُ دية الخطأ شبه العمد، وألغى مآثر الجاهلية وثاراتها، واستثنى من أمور الجاهلية سقاية الحاج وسدانة البيت. [أحمد، حسن؛ أبو داود، صحيح].



وأعلن في الخطبة الثانية: «ألا إنه لا حلف في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لا يزيده إلا شدة. والمؤمنون يد على من سواهم، يجير عليهم أديانهم، ويرد عليهم أقصاهم، يرد سراياهم على قعيدتهم. لا يقتل مؤمن بكافر. دية الكافر نصف دية المسلم. لا جلب ولا خيب ولا تؤخذ صدقاتهم إلا في دورهم» [مسلم؛ أحمد صحيح الترمذي، صحيح]. [والجلب: أن يأتي الرجل بمن يصيح على فرسه ويزجره حتًا له على الجري حتى يسبق، والخيب: أن يسابق الرجل على فرسين يركب الأول فإذا فتر تحول إلى الثاني].

وأعلن في الخطبة الثالثة تحريم مكة، وتحريم صيدها وخلها وشجرها ولُقَطَتُهَا وتحريم القتال فيها، وقال إن الله تعالى أحلها له ساعة من نهار، وهو وقت الفتح [متفق عليه]. وقال: لا هجرة بعد الفتح، ويبقى الجهاد والنية، ولذلك بايع النبي ﷺ المسلمين بعد الفتح على الإسلام والإيمان والجهاد، ولم يبايعهم على الهجرة. [متفق عليه].

وبين في الخطبة الرابعة أن من قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يودى وإما أن يقاد. [متفق عليه].

ومما يروى من أحداث الفتح أن أبا بكر جاء بأبيه إلى رسول الله ﷺ ورأسه ولحيته كالثَغَامَةِ [شجرة بيضاء الثمر والزهر، ينبت غالبًا بالجلال] بياضًا، فقال رسول الله ﷺ: «غيروهما وجنبوه السواد». [مسلم؛ أحمد، وغيرهما].

● الأحكام والدروس والعظات والعبر المستفادة من غزوة الفتح:

- ١- جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية، فقد أفطر الرسول ﷺ عندما بلغ كديداً، كما ذكرنا.
- ٢- صلى النبي ﷺ صلاة الضحى ثمان ركعات خفيفات [متفق عليه]، فاستدل قوم بهذا على أنها سنة مؤكدة. [البخاري].



٣- إن أحق المصلين بالإمامة أكثرهم حفظاً للقرآن، كما في حديث عمرو بن سلمة. [البخاري].

٤- قصر الصلاة الرباعية للمسافر، فقد أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة. [متفق عليه].

٥- إقرار أمان وجواز النساء، حيث أمضى الرسول ﷺ جوار أم هانئ لرجلين من أحمائها. [متفق عليه].

٦- تحريم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدة ثلاثة أيام [مسلم]. ويرى النووي أنه وقع تحريمه وإباحته مرتين، إذ كان حلالاً قبل غزوة خيبر، فحرم يومها، ثم أبيع يوم الفتح، ثم حرم للمرة الثانية إلى الأبد. ويرى ابن القيم [في الزاد] أن المتعة لم تحرم يوم خيبر، وإنما كان تحريمها فقط يوم الفتح، وله في هذا مناقشة طويلة عند كلامه عن الأحكام الفقهية المستنبطة من أحداث غزوة خيبر وغزوة الفتح. والمتفق عليه أنها حرمت إلى الأبد بعد الفتح.

٧- قرر الرسول ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة زمعة بن زمعة. فقد تنازع فيه سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة، فقضى فيه رسول الله ﷺ لعبد بن زمعة لأنه ولد على فراش أبيه [البخاري].

٨- اعتبار عقد النكاح قائماً بين الزوج المشرک والزوجة المسلمة، إذا أسلم الزوج قبل انقضاء عدة الزوجة، وذلك من خلال قصة صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، إذ أسلمت زوجتهما قبلهما، ثم أسلما قبل انقضاء عدتيهما. [الموطأ؛ ابن عساکر؛ ابن إسحاق، من مرسل الزهري، والحديث مشهور].

٩- عدم جواز الوصية بأكثر من ثلث المال، كما في قصة سعد بن أبي وقاص حين مرضه واستشاره الرسول ﷺ في أن يوصي بأكثر من الثلث [البخاري؛ الترمذي، صحيح].



١٠ - يجوز للمرأة أن تأخذ من مال زوجها لنفقتها ونفقة عياله بالمعروف دون

علمه إذا امتنع عن النفقة، كما في خبر هند بنت عتبة. [متفق عليه].

١١ - تحريم بيع الخمر والميتة والأصنام. [البخاري].

١٢ - جواز خضاب الشيب بالحناء أو الصفرة وتحريم خضابه بالسواد كما في قصة

أبي قحافة - والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه - حين أمر الرسول ﷺ بتغيير شيبه [مسلم؛ أحمد، ابن إسحاق، بأسانيد صحيحة]. ومن حكمة ذلك أنه مخالفة لليهود والنصارى.

١٣ - النهي عن الشفاعة في حدود الله بعد رفعها للإمام كما في قصة المرأة المخزومية التي

سرت فتشفع فيها أسامة بن زيد، فغضب الرسول ﷺ منه، ثم قال: «إنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرت لقطعت يدها». [متفق عليه].

١٤ - نهى رسول الله ﷺ عن قتل المرأة ما دامت لا تقاتل كما جاء مبيناً في قصة

مروره بامرأة مقتولة يوم الفتح، فقال: «ما كانت هذه تقاتل...» [أحمد، يعترض؛ الطبراني: الأوسط]، وجاء النهي عن قتل النساء والصبيان مطلقاً من غير مقيد بغزوة أو سرية معينة. [متفق عليه].

١٥ - إبداء الرسول ﷺ تقديره لأبي بكر رضي الله عنه وذلك عندما أتى أبو بكر بأبيه

يقوده، وهو كفيف، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، ثم أجلسه بين يديه، ثم مسح صدره ثم قال له: أسلم، فأسلم» [ابن إسحاق، حسن]. ويروى أن رسول الله ﷺ هنا أبا بكر بإسلام أبيه. [الذهبي: المغازي، مراسلاً].

١٦ - جواز دخول مكة بغير إحرام لمن لا يريد العمرة أو الحج، لأن الرسول ﷺ

دخل مكة يوم الفتح محارباً وعليه عمامة سوداء بغير إحرام. [متفق عليه].



١٧- إن أهل العهد إذا حاربوا - بعضهم أو جميعهم - من هم في ذمة الإمام وجواره وعهده صاروا حرباً له بذلك، ولم يبق بينهم وبينه عهد، فله أن يبيتهم في ديارهم، ولا يحتاج أن يعلمهم على سوء، وإنما يكون الإعلام إذا خاف منهم الخيانة، فإذا تحققها، صاروا نابذين لعهده. [الزاد].

١٨- إن قتل الجاسوس راجع إلى رأي الإمام، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين، قتله، وإن كان استبقاؤه أصح، أو وجدت علة مانعة، استبقاه كما في قصة حاطب. [نفسه].

١٩- جواز تجريد المرأة كلها وتكشيفها للحاجة والمصلحة العامة كما في قصة المرأة التي كانت تحمل رسالة حاطب، وموقف علي والمقداد منها. [متفق عليه].

٢٠- إن الرجل إذا نسب المسلم إلى النفاق والكفر متأولاً وغضباً لله ورسوله ﷺ ودينه لا لهواه وحظه، فإنه لا يكفر بذلك، بل لا يأثم به، بل يثاب على نيته وقصده. [نفسه].

٢١- جواز قتل المرتد الذي تغلظت ردة، ومن غير استتابة، كما في قصة عبد الله ابن أبي السرح.

٢٢- أما ما يتعلق بأحكام الهجرة، فقد سبق ذكرها في فصل هجرة الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وفي فصل هجرة المسلمين إلى الحبشة.





الفصل الحادي والعشرون غزوتا حنين والطائف

• المبحث الأول: غزوة حنين

• أقام النبي ﷺ بمكة عام الفتح (تسعة عشر يومًا) [البخاري]، حتى جاءت هوازن وثقيف، فنزلوا بحنين يريدون قتال النبي ﷺ، وكانوا قد جمعوا له قبل ذلك حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من المدينة، وهم يظنون أنه إنما يريدهم، فلما أتاهم أنه قد نزل مكة، أخذوا في الاستعداد وحشد القوات لمواجهة [تاريخ الطبري]، من مرسل عروة، الذهبي: [المغازي، حسن]، وقبل أن يهاجها، وقد أرادوها موقعة حاسمة، ولذا حشدوا الأموال والنساء والأبناء حتى لا يفر أحدهم ويترك أهله وماله. وكان يقودهم مالك ابن عوف النصرى، واستنفروا معهم غطفان وغيرها [متفق عليه]. ومن جمعهم ابن عوف: بنو نصر - قومه - وبنو جُشم وبنو سعد بن بكر وجماعات متفرقة من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر وعوف بن عامر، وثقيف كلها في أحلافها، وبنو مالك [الذهبي، حسن؛ الحاكم، صحيح]، وتحلف عنهم من هوازن كعب وكلاب. [الذهبي، حسن؛ ابن إسحاق].

وخرج على رأس بني جُشم يومذاك دُرَيْد بن الصَّمَّة، وكان شيخًا كبيرًا، ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه، لأنه كان شيخًا مجربًا عارفًا بالحرب، فأنكر على مالك النصرى الخروج بالنساء والأطفال والأموال، إذ يرى أن المنهزم لا يرده شيء، فلم يعمل مالك برأي دريد. وقال دريد في شأن غياب كعب وكلات: «غَابَ الْحَدُّ وَالْجَدُّ وَلَوْ كَانَ يَوْمَ عِلَاءٍ وَرِفْعَةٍ لَمْ تَغِبْ عَنْهُ كَعْبٌ وَلَا كِلَابٌ، وَلَوْ دِدْتُ أَنْكُمْ فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُ كَعْبٌ



وكلاب...» وذكرت له أقوال أخرى تدل على تجربته في الحروب وتوقعه الهزيمة لقومه، لأن الرأي كان لمالك، وهو صغير السن - ٣٠ سنة - غير مجرب، بل اتهم مالك دريداً بأنه كبر وقل علمه، وأقسم على هوازن بأن تطيعه هو وإلا انتحر، فأطاعوه، فأمرهم أن يكسروا جفون سيوفهم إذا رأوا المسلمين، ثم يشدوا شدة رجل واحد. [نفسه].

وكانت خطة مالك في الحرب أن رتب جيشه في صفوف حسنة، وقدم الخيل ثم الرجالة ثم النساء ثم الأغنام ثم الإبل [مسلم]، وقد بلغ جيشه عشرين ألفاً [الواقدي]، فसार بهم إلى الرسول ﷺ.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن أبي حذرٍد الأسلمي ليأتيهم ويدخل فيهم ويعلمه خبرهم، فجاءهم ومكث فيهم يوماً أو اثنين، ونقل خبرهم إلى الرسول ﷺ [مغازي الذهبي، حسن؛ الحاكم، صحيح].

ولعل هذا الخبر الذي نقله ابن أبي حذرٍد إلى الرسول ﷺ هو الذي تبسم له الرسول ﷺ وعلق عليه بقوله: «تلك غنيمة المسلمين غداً - إن شاء الله». وذلك عندما اقتربوا من العدو. [أبو داود، حسن].

وبعد جمع المعلومات العسكرية المطلوبة استعد الرسول ﷺ لمواجهةهم، فاستعار من يعلى بن أمية ثلاثين بعيراً وثلاثين درعاً واستعار مائة درع من صفوان بن أمية وأعادها إليه بعد غزوة حنين، وشكره على ذلك [الذهبي: المغازي، حسن؛ الحاكم، صحيح]. ويروى أنه استقرض من حُوَيْطَبَ عبد العُزَّى أربعين ألف درهم [الاستيعاب]، وتقبل معونة قدرها ثلاثة آلاف رمح من نُوَفَل بن الحارث بن عبد المطلب [نفسه].

وبعد أن أقام الرسول ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً [البخاري]، خرج إلى حنين لستّ خلّت من شوال، وقيل لليلتين بقيتا من رمضان، وجمع بعضهم بأنه بدأ بالخروج في



أواخر رمضان وسار سادس شوال وكان وصوله إليها في عاشره [البيهقي السنن الكبرى، السائي، ابن حجر: الفتح] واستعمل عتّاب بن أسيد بن أبي العيص أميراً على مكة. [البخاري: التاريخ الكبير، حسب؛ ابن هشام، يعتضد؛ الإصابة].

وقد ثبت في الصحيحين أن الطلقاء قد خرجوا معه إلى حنين، دون تحديد لعددهم، وقال أهل المغازي إنه خرج معه ألفان من أهل مكة - الطلقاء - مع عشرة آلاف، من أصحابه الذين خرجوا معه لفتح مكة، فأصبحوا اثني عشر ألفاً [الذهبي: المغازي، حسن]، وهو أكبر جيش إسلامي يخرج في حياة الرسول ﷺ إلى ذلك الحين، ولهذا ساد شعور عند بعض الناس أنهم لن يغلّبوا من قلة، وعبر أحدهم [الواقدي، ابن إسحاق؛ دلائل البيهقي] عن هذا الشعور جهره، وشق ذلك على رسول ﷺ، فعاتبهم القرآن وذكرهم بعدم الاتكال إلا على الله وحده، وإلا وكلهم إلى أنفسهم، ولقنهم درساً بليغاً في هذا الشأن، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَازِحَبَتِهَا ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدِيرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] [دلائل البيهقي؛ له أصل] وحكى لهم الرسول ﷺ قصة نبي أعجبه كثرة أمته، فسلب الله عليهم الموت. [الدارمي؛ أحمد، صحيح].

وعندما اقترب الرسول ﷺ من حنين وحضرهم صلاة العشاء، أمر أحد الصحابة بمراقبة العدو من فوق أحد الجبال المطلّة على وادي حنين، فأدى الصحابي المهمة، ونقل إلى الرسول ﷺ خبرهم، وأنهم قد خرجوا بظعنهم ونعمهم وشائهم واجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً - إن شاء الله تعالى»، وعندما حانت ساعة النوم تطوع أنس بن أبي مرزئد الغنوي بحراستهم إلى الفجر، فأثنى عليه النبي ﷺ ووعد بالجنة. [أبو داود، صحيح].

وفي الطريق إلى حنين رأى بعض الطلقاء شجرة يعلق عليها المشركون أسلحتهم تعرف بذات أنواط، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟



فقال: «سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم» [ابن إسحاق، حسن؛ أحمد، ابن حبان] وفي هذا دليل على أن قلوب هؤلاء لم تشرب الإسلام بعد، لحداثة عهدهم به، بل روي أن ثمانين من الطلقاء قد خرجوا وهم على الكفر [مواهب القسطلاني، وشرحه للزرقاني]، وإذا كان الحال كذلك فلا غرابة من أن يعبر كلدة بن الحنبل، أخو صفوان بن أمية لأمه، وهو أحد الطلقاء، عن فرحته بإدبار المسلمين في الجولة الأولى، قائلاً: ألا بطل السحر اليوم!! فقال له أخوه صفوان - وهو على شركه آنذاك - اسكت، فض الله فاك، فوالله لأن يرُبني [أي: ربالي أو ملكاً] رجل من قريش أحب إليّ من أن يرُبني رجل من هوازن [أبو يعلى، حسن؛ ابن حبان]!!، وكان يقف زعماء مكة خلف الجيش ينظرون لمن تكون الدائرة، منهم: أبو سفيان وصفوان بن أمية وحكيم بن حزام [البداية، من حديث ابن عطية وعروة]. وكان صفوان في المؤخرة، ويرسل غلاماً له ليأتيه بالأخبار من المقدمة. [نفسه، من حديث عروة].

وعندما انهزم المسلمون في الجولة الأولى، كان أبو سفيان ينظر إليهم، وهو يحمل الأزام، ويقول: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر». [ابن إسحاق، الواقدي].

بادرت هوازن إلى حنين، فأدخلوا جيشهم بالليل في الوادي، وفرقوا كَمَنَاءهم في الطرق والمداخل والشعاب والأخباء والمضايق، وأصدر إليهم قائدهم أمره بأن يرشقوا المسلمين بالسهم عند دخولهم وادي حنين المنحدر، ثم يشدوا عليهم شدة رجل واحد [ابن إسحاق، حسن]، وشجعهم زاعماً بأن المسلمين لم يلقوا من قبل مثلهم في الشجاعة والعدة والعدد والدراية بالحرب. [الواقدي].

وعباً رسول الله ﷺ جيشه بالسحر، وعقد الألوية والرايات، ورتب الجند في هيئة صفوف منتظمة [الواقدي]، واستقبل بجيشه وادي حنين في عمّاية الصبح، أو غَلَسِهِ،



وانحدروا فيه [ابن إسحاق، حسن]، تتقدمهم على المجنبة الخيالة بقيادة خالد بن الوليد [مسلم] وفي طليعتها بنو سليم منذ خروجه من مكة. [الواقدي].

وعند دخول المسلمين الوادي حملوا على هَوَازِنَ فانكشفوا، فأكب المسلمون على ما تركوه من غنائم، وبينما هم على هذه الحال، استقبلتهم هوازن وأمطرتهم بوابل من السهام التي لا تكاد تخطئُ أحداً. [متفق عليه].

ولم يكن المسلمون يتوقعون هذا، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فولوا مدبرين، لا يلوي أحد على أحد [متفق عليه، ابن إسحاق، حسن]، وانحاز الرسول ﷺ ذات اليمين وهو يقول: «أين الناس؟ هلموا إليّ، أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» [ابن إسحاق، حسن]. ومما يدل على عدم توقع المسلمين لمثل هذه الخدعة، أن بعضهم قد خرجوا خِفَافًا عَجَلِينَ دون استعداد حربي كامل، لا سيما بعض الشباب الذين خرجوا حاسري الرؤوس، وليس معهم السلاح الكافي. [متفق عليه].

وكان أول من أدبر خيالة المسلمين، ثم المشاة، وفر معهم الطلقاء والأعراب، ثم بقية الجيش، حتى أنه لم يثبت مع الرسول ﷺ أحد سوى أبي سفيان بن الحارث [متفق عليه] وجماعة قليلة. [ابن إسحاق، حسن].

ومما يدل على الدور الكبير للطلقاء في هذه الهزيمة أن أم سليم بنت ملحان طلبت من الرسول ﷺ أن يقتلهم بحجة، أنهم انهزموا عنه، فقال لها رسول الله ﷺ: «يا أم سليم. إن الله قد كفى وأحسن». [مسلم].

كان الرسول ﷺ يمتطي بغلة له بيضاء - أو شهباء - تسمى دلدل، وهو يركضها وأبو سفيان بن الحارث أخذ بركاب رسول الله ﷺ وعمه العباس أخذ بلجام البغلة، يكفانها عن الإسراع نحو العدو [مسلم]. وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، أنه



في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه، وهو على بغلة، وليست سريعة الجري، ولا تصلح للكرّ ولا للفرّ ولا للهرب، وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من يعرفه، وما هذا إلا ثقة بالله وتوكل عليه وعلم منه بأنه سينتصر ويظهر دينه على سائر الأديان. [تفسير ابن كثير].

وأمر الرسول ﷺ عمه العباس - وكان قوي الصوت - أن ينادي الناس بالثبات، وخص منهم أصحاب بيعة الرضوان، فأسرعوا إليه كما تسرع الأمهات إلى أولادهما، ثم خص الأنصار بالنداء، ثم بني الحارث بن الخزرج، فطاروا إليه قائلين: لبيك لبيك، ودارت المعركة قوية ضد هوازن [مسلم؛ ابن إسحاق، حسن، عبد الرزاق، صحيح]، ونزل الرسول ﷺ عن بغلته وهو يدعو [أحمد، حسن] الله أن ينصرهم، وقال: «أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب» [متفق عليه]، وأخذ يقاتل والصحابة يقاتلون معه ويتقون به لشجاعته وثباته كعادتهم في مثل هذه المواقف العصبية [مسلم؛ ابن إسحاق، حسن]. وعندما رأى الفارون موقفه وثباته وسمعوا صوت العباس يناديهم جاؤوا مسرعين ملين الدعوة قائلين لبيك لبيك، حتى إن من لم يستطع أن يثني بغيره يتركه ويأخذ درعه وسيفه ورمحه حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ ويجالد الأعداء. قال الرسول ﷺ عندما رأى المعركة تشتد: «هذا حين حمي الوطيس» [مسلم؛ ابن إسحاق، حسن]، ثم أخذ حصيات، أو ترابًا، فرمى به وجوه الكفار، وهو يقول: «شاهت الوجوه»، فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينه ترابًا بتلك القبضة، فولوا مدبرين، والرسول ﷺ يقول: «انهزموا ورب محمد»، وفي رواية أخرى: «انهزموا ورب الكعبة» مرتين. [مسلم].

وفي ضوء هذه الكيفية التي انهزم بها المشركون والمعجزة التي أجراها الله على يد نبيه محمد ﷺ يفهم قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٢٦] [الطبري وابن كثير في التفسير]. فقد حكى أحد



أفراد جيش هوازن أنهم عندما أرادوا الوصول إلى الرسول حال بينهم وبينه رجال حسان الوجوه، فقالوا: شأهت الوجوه، فارجعوا، فهزموا من ذلك الكلام. [الذهبي: المغازي، جيد].

وحكى شيبه بن عثمان أنه عندما أراد قتل الرسول ﷺ ثأراً لأبيه وعمه اللذين قتلها علي يوم بدر، رفع له شواظ من نار حال بينه وبين الرسول ﷺ، كأنه البرق، فخاف أن يحرقه، فوضع يده على بصره وتقهقر، والتفت إليه الرسول ﷺ وطلب منه أن يدنو منه، فدنا منه، فقال: اللهم أذهب عنه الشيطان، فقذف الله الإيمان في قلبه، وطلب منه الرسول ﷺ أن يقاتل الكفار [مغازي الذهبي، له أصل]. وفي رواية أخرى: أن شيبه قال للرسول ﷺ: يا رسول الله، إني أرى خيلاً بُلغاً، فقال له الرسول: «يا شيبه، إنه لا يراها إلا كافر»، فضرب على صدره ثم قال: «اللهم اهد شيبه - ثلاثاً، فانقلب بغض الرسول حباً عظيماً». [الذهبي: المغازي].

وروى ابن إسحاق من حديث جُبَيْر بن مُطْعِم أنه رأى قبل هزيمة القوم والناس يقتلون مثل الكِسَاءِ الأسود، أقبل من السماء حتى سقط بينهم وبين القوم، فنظر فإذا نمل أسود مبعوث قد ملأ الوادي، لم يشك أنها الملائكة، ثم لم يكن إلا هزيمة القوم.

سَرِيَّةُ أُوطَاسَ:

لم يثبت المشركون طويلاً في هذه الجولة الثانية من القتال، ففروا في نهاية اليوم خلفين وراءهم كثيراً من القتلى والأموال [ابن إسحاق، حسن]، وكان الرسول ﷺ قد أمر بتعقب الفارين وجزّهم [البيزار، رجال ثقات] لكسر شوكتهم حتى لا يجتمعوا للحرب مرة أخرى، ولذا عندما فرغ من حنين بعث أبا عامر - عبيد بن سليم بن حضار الأسلمي - على جيش إلى أُوطَاسَ [وادي في بلاد هوازن] لقتال الكفار الذين عليهم دريد



ابن الصمة، فجالدهم أبو عامر الأشعري حتى استشهد، وطلب من أبي موسى الأشعري، الذي خلفه في القيادة أن يبلغ الرسول ﷺ سلامه، وأن يطلب منه أن يستغفر له، فأكمل الأشعري المهمة وهزم الله على يديه الأعداء، وبلغ رسالة أبي عامر، فدعا الرسول ﷺ لأبي عامر. [متفق عليه].

وفي رواية أنه عندما انهزم المشركون انحاز دريد بن الصمة في ستمئة نفس إلى جبيل أو أكمة، فلحق بهم الزبير بن العوام وجماعة من المسلمين فقتلوا على ثلاثمئة منهم، منهم دريد بن الصمة نفسه. [اليزار، حسن].

والذي نرجّحه أن الزبير بن العوام كان في جماعة أبي عامر، فباشر قتل ابن الصمة، لأن رواية البخاري لم تبين القاتل، وقيل: إن الذي قتله ربيعة بن ربيعة [ابن إسحاق]، وقيل عبد الله بن قنيع بن أهبان بن ثعلبة بن ربيعة. [نفسه].

لقد انجلت المعركة عن نصر مبين للمسلمين، ومقتل وجرح عدد كبير هوأوزان وثقيف. فقد روي أن قتلى بني مالك من ثقيف لوحدها قد بلغ سبعين قتيلًا [البیهقي، الدلائل]، ولم يقتل من الأحلاف سوى رجلين، أحدهما من بني غيرة والآخر من بني كبة [ابن إسحاق]. وقتل بأوطاس من بني مالك ثلاثمئة، ومعهم دريد بن الصمة، كما ذكرنا، وقتل خلق كثير من بني نصر بن معاوية ثم من بني رثاب، حيث استحرف فيهم القتل، حتى قال عبد الله بن قيس - وكان مسلمًا -: يا رسول الله، هلكت بنو رثاب، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجبر مُصِيبَتَهُمْ». [ابن إسحاق، ابن سعد].

وعندما لجأ المشركون إلى أوطاس ولحق بهم المسلمون، قتل أبو عامر وحده تسعة إخوة منهم قبل أن يستشهد، وقتل أبو موسى الأشعري أخوين من بني جشم ابن معاوية [ابن هشام]. وقتل أبو طلحة وحده يوم حنين عشرين رجلًا من المشركين وأخذ سلبهم، لأن رسول الله ﷺ قد أباح سلب المشرك لقاتله. [أبو داود، حسن].



ونهى رسول الله ﷺ يومذاك عن قتل النساء والأطفال والأجراء وكل من لا يحمل السلاح، وذلك عندما مرَّ بامرأة قتلها خالد بن الوليد [ابن إسحاق] والناس متزاحمون عليها، وقال: «ما كانت هذه تقاتل». [الحاكم صحيح، أحمد، صحيح، أبو داود، صحيح].

أما بالنسبة للسبي والغنائم، فقد روي أن سبي حنين قد بلغ ستة آلاف من النساء والأبناء [عبد الرزاق؛ ابن سعد؛ الطبري: التاريخ]، وأن الأموال كانت أربعة آلاف أوقية فضة، وأن الإبل كانت أربعة وعشرين ألفاً، وأن الشياه أكثر من أربعين ألف شاه. [ابن إسحاق، ابن سعد].

وحبس الرسول ﷺ هذا السبي والغنائم بالجعرانة ليتصرف فيها بعد الفراغ من أمر الطائف، كما سنرى.

وروي أن الشَّيْء بنت الحارث كان ممن وقع في الأسر، فادعت أنها أخت الرسول ﷺ من الرضاعة، فقال لها الرسول ﷺ: «وما علامة ذلك؟»، قالت: عَضَّة عَضُضْتِهَا في ظهري وأنا مُتَوَرِّكْتُكَ، فعرف الرسول ﷺ العلامة، فمتعها وردها إلى أهلها كما طلبت. [ابن إسحاق، الذهبي: المغازي، من مرسل قتادة - حسن].

وروي أن أمه من الرضاعة - حليلة السعدية - جاءت، فأكرمها وبسط لها ثوبه لتجلس عليه [الطبري: التفسير، من مرسل قتادة - حسن، من مرسل عطاء].

وكانت خسارة المسلمين طفيفة جداً، فقد استشهد أربعة منهم، هم: أبو عامر الأسلمي، وأيمن بن عبيد، ويزيد بن زمعة بن الأسود، وسُرَّاقَة بن الحارث [ابن إسحاق]. وجرح عدد منهم، منهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي [البزار، حسن]، وعبدالله ابن أبي أوفى [البخاري]، وخالد بن الوليد. [الحميدي: المسند، حسن].



عندما انهزمت هوازن وثقيف وأحلافهم تفرقوا في الأودية والجبال، فلجأت ثقيف بقيادة مالك بن عوف إلى حصونها بالطائف، ولجأ آخرون إلى وادي أوطاس، وانحاز بنو غيرة إلى نخلة. وقد تبعت خيل المسلمين من سلك إلى نخلة، ولم تتبع من سلك إلى الشنايا. [ابن إسحاق].

• المبحث الثاني: غزوة الطائف

• بعد أن تعقب المسلمون فلول الهاربين من هوازن في أوطاس ونخلة، توجهوا للقضاء على ثقيف التي فرت من حنين وأوطاس وتحصنت بحصونها المنيعة في الطائف، وأغلقت أبوابها بعد أن جمعت ما يكفيها من المؤن الغذائية للصمود لمدة عام، واتخذت وسائل دفاعية تمكنها من الصمود مدة طويلة، ورممت حصونها وأوفدت عُرْوَةَ بن مسعود وغيَلاً بن سَلَمَةَ إلى جُرَش لیتعلما صنعة الدَّبَابَات والمَجَانِيق، والضُّبُور، ولذا لم يحضرا حينئذ مع قومهما. [ابن إسحاق، ابن سعد].. [الدبابات: آلات تصنع من خشب وتغشى بجلود، ويدخل فيها الرجال، ويتصلون بحائط فينقبون عن أهله؛ والضبور: شيء يُتَقَى به عند الانصراف].

ووصل المسلمون إلى حصون الطائف في نحو نهاية الأسبوع من شوال كما يستنتج من وقائع الأحداث، ونزلوا قريباً من حصونهم، ثم تحولوا إلى منطقة أكثر بعداً من مدى سهام ثقيف، التي تسببت في استشهاد اثني عشر مسلماً وجرح عدد منهم [ابن إسحاق، ابن سعد]، وبنوا فيها مسجداً، يعرف اليوم بمسجد عبد الله بن عباس، وكانت الطائف آنذاك جنوبي غربي المسجد.

ولما كان القتال تراشقاً بالسهم على بُعد، استخدم المسلمون (الدبابة) ليحتموا بها من السهام، حتى يصلوا إلى الحصن فيثقبوه، وعندما رأتهم ثقيف، ألقت عليهم قطعاً



من حديد محمّاة فأحرقت (الدبابة)، فخرج أصحابها من تحتها فأصابوهم بالسهام، فقتلوا منهم رجالاً. [ابن إسحاق].

واستخدم المسلمون المجانيق في رمي أهل الطائف، وهم أول من رمى في الإسلام المجانيق [ابن إسحاق، أبو داود: المراسيل، حسن]. وقد بذلوا الوسع في الرمي به، لا سيما وقد وعدهم الرسول ﷺ درجة في الجنة عندما قال لهم: «مَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُ دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ لَهُ عَدْلُ مُحَرَّرٍ [أي مثل ثواب تحرير رقبة]، ومن أصابه شيب في سبيل الله ﷻ فهو له نور يوم القيامة» [أحمد، صحيح؛ الترمذي، صحيح؛ النسائي].

وقد تباينت الروايات الضعيفة فيمن جلب المجانيق أو صنعها، فهناك من يذكر أنه خالد بن سعيد، ومن يذكر أنه سلمان الفارسي، ومن يذكر أنه الطفيل بن عمرو. [الواقدي].

وفي محاولة لإضعاف معنويات ثقيف شرع المسلمون في حرق بساتين نخيلهم وغنهم، فناشدوه أن يدعها لله وَلِلرَّحِمِ، فاستجاب لهم، بعد أن حققت المحاولة أهدافها [البيهقي: السنن من مرسل ابن عقبة وعروة، ابن إسحاق، من مرسل عمرو بن شعيب].

ونادى منادى رسول الله ﷺ: «أيها عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فنزل إليهم ثلاثة وعشرون، منهم أبو بكرّة - نُفَيْع بن مَسْرُوح - الثَّقَفِي، فأسلموا، فأعتقهم النبي ﷺ ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم. [البخاري؛ عبد الرزاق؛ الطبراني برجال الصحيح، وسمي بأبي بكرّة لنزوله من الحصن ببكرّة].

وعندما استعصى الحصن على المسلمين واستشهد اثنا عشر رجلاً [ابن إسحاق، أحمد]، بينما لم يقتل من المشركين سوى ثلاثة [ابن إسحاق]، دعا رسول الله ﷺ إلى فك الحصار، فثقل ذلك على المسلمين واستنكروه، وعندما كثرت فيهم الجراحات،



ودعاهم الرسول ﷺ إلى فك الحصار مرة أخرى، أعجبهم ذلك، فتبسم الرسول ﷺ، فارتحلوا [متفق عليه]، والرسول ﷺ يطمع في هدايتهم ويرفض طلب بعض المسلمين في الدعاء عليهم ويدعو لهم قائلًا: «اللهم اهد ثقيفًا» [الترمذي؛ صحيح؛ ابن إسحاق؛ ابن سعد]، ويروى أن الله لم يأذن له في أهل الطائف. [الذهبي: المغازي، من مرسل عروة وابن عقبة؛ ابن سعد، من مرسل البقري؛ ابن إسحاق].

تباينت الروايات حول المدة التي قضاها الرسول ﷺ في حصار الطائف. فيرى عروة وابن عقبة أنها كانت بضع عشرة ليلة، وفي رواية عن عروة أنها كانت نصف شهر [الطبري: التاريخ، مرسل حسن]. ويذكر ابن إسحاق [السيرة مرسلًا] مرة أنها بضع وعشرون ليلة، ومرة أنها ثلاثون ليلة أو قريب من ذلك [دلائل البيهقي؛ مرسل حسن]. ويذكر ابن إسحاق [السيرة مرسلًا] مرة أنها بضع وعشرون ليلة، ومرة أنها ثلاثون ليلة أو قريب من ذلك [دلائل البيهقي؛ مرسل حسن]. ويذكر ابن هشام أنها سبع عشرة ليلة، ويروي مسلم وأحمد [المسند] أنها أربعون يومًا.

والذي يكاد يتفق مع مجريات الأحداث هو ما ذكره موسى بن عقبة وعروة ابن الزبير وابن هشام، وما في الصحيح أصح.

عاد الرسول ﷺ مرة أخرى إلى الجعرانة حيث ترك غنائم حنين قبل أن يتحرك لحصار الطائف. وعندما عاد لم يقسم هذه الغنائم سوى بعض الفضة [الحاكم، وصححه]، واستأنى بها بضع عشرة ليلة، أملًا في قدوم هوازن عليه ودخولها في الإسلام [البخاري]، ثم وزعها بعد ذلك على المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصار شيئًا. فقد أعطى مائة من الإبل لكل من عُيَينة بن حِصْن - من زعماء غطفان - والأقرع ابن حابس - من زعماء تميم - وعَلَقَمَة بن عَلَاثة والعباس بن أمية - من زعماء قريش



[متفق عليه]. وقد أحصى ابن إسحاق اثني عشر رجلاً ممن نال مائة من الإبل، ستة منهم ذكرهم البخاري ومسلم. ومن زادهم على ما في البخاري ومسلم: معاوية ابن أبي سفيان، والحارث بن الحارث، ومالك بن عوف، والعلاء بن جارية، والحارث ابن هشام، وحويطب بن عبد العزى، ولم يذكر من قائمة البخاري ومسلم: علقمة ابن علاثة والعباس بن مرداس، وذكر خمسة من أعطوا أقل من مائة.

وأورد ابن هشام قائمة بأسماء تسعة وعشرين رجلاً من المؤلفة قلوبهم ممن أعطوا من غنائم حنين، ولم يحدد عدد الإبل التي نالها كل واحد منهم. وهناك من أوصل عددهم إلى سبعة وخمسين رجلاً. [قريبى: مرويّات حنين].

وكان هذا الموقف تجاه المؤلفة قلوبهم لحكمة وضحها الرسول ﷺ للأنصار عندما غضبوا من هذا التوزيع وحرمانهم من الغنيمة، وبلغ الرسول ﷺ قول بعض أحداثهم: «إذا كانت الشدة تُدعى، وتُعطى الغنائم غَيْرُنَا»، أو «يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم!» [متفق عليه]، فجمعهم وقال لهم: «أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبوا برسول الله ﷺ تَحْوزُنَهُ إِلَى بَيْوتِكُمْ؟» قالوا: بلى، يا رسول الله رضينا. فقال: «لو سلك الناس وادياً، وسلكت الأنصار شِعْباً، لَأَخَذْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ» [متفق عليه؛ ابن إسحاق، حسن]، وقال في رواية: «ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والإبل وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكُم؟ الأنصار شِعَارُ الثوب الذي يلي الجسد والناس دِنَارُ، [ثوب فوق الشعار] ولولا الهجرة لكنت امراً من الأنصار...» [مسلم]، وقال: «إني أعطي قوماً أخاف ظلمهم وجزعهم، وأَكِلُ أَقْوَاماً إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِم مِنَ الْخَيْرِ وَالْغَنَاءِ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ»، فقال عمرو بن تغلب: «ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمْرُ النَّعَمِ» [البخاري]، وقال: «إني لأعطي رجلاً لَأَحْدِثُ



عهدهم بكفر» [متفق عليه]، وفي رواية: «إن قريشاً حديثو عهد بجاهلية ومصيبة وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم». [متفق عليه]، وقال: «أوجدتُم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم،... اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» [متفق عليه؛ ابن إسحاق، حسن، أحد، حسن]، وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه، خشية أن يُكَبَّ في النار على وجهه». [مسلم].

وعندما سمع الأنصار ما قاله لهم الرسول ﷺ، عرفوا الحكمة من ذلك التقسيم، وبكوا حتى ابتلت لحاهم بدموعهم، وقالوا: «رضينا برسول الله ﷺ قَسَمًا وَحَظًّا» [مسلم؛ ابن إسحاق، حسن، وأصله في البخاري ومسلم].

واتضح لهم الحكمة عملياً عندما رغب هؤلاء المؤلفون قلوبهم في الإسلام وحسن إسلامهم وانخرطوا في الجهاد، إلا القليل جداً منهم، مثل عيينة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس. وقد عبر عن هذه الظاهرة الإمام مالك بن أنس [مسلم] قائلاً: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها». وعبر صفوان بن أمية عن التحول الذي حدث نتيجة لهذا الموقف الكريم من الرسول ﷺ فقال: «والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، ما بَرَحَ يُعْطِينِي حتى إنه لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ» [مسلم]. وكان حَكِيم بن حِرَازاً كلما أعطاه سألَه المَزيد، فوعظه الرسول ﷺ قائلاً: «يا حَكِيم، إن هذا المَال خَصَرٌ حُلُوٌّ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدِ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»، فقال حَكِيم: «والذي بعثك بالحق لا أَرُزُّ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حتى أفارق الدنيا»، فلم يأخذ عطاءه من بيت المال حتى توفي. [متفق عليه].



وعندما لم تتضح حكمة هذا التقسيم لدى بعض جُفَاءِ الأعراب - أيضًا - قال أحدهم للرسول ﷺ: «يا محمد! اعدل» فقال له الرسول: «ويلك! ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل». فاستأذن عمر النبي ﷺ في ضرب عنقه، فقال له النبي ﷺ: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي! إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرميّة»، واللفظ لمسلم. وفي رواية ثانية له زاد: «... إن من ضئضئ [أصل] هذا قومًا يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان... لأن أدركتهم لأقتلهم قتل عاد». وجاء وصف هيئته في هذه الرواية: كث اللحية، مشرف [غليظها]، غائر العينين، ناتئ [بارز] الجبين، محلق الرأس. وزاد مسلم في رواية ثالثة: «... مُشَمَّرُ الإزار». وازدحموا على الرسول ﷺ وهو يقسم الغنائم، حتى علق رداؤه بغصن شجرة، فقال: «أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العصاة - شجر الشوك - نعمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدونني بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا» [البخاري]. وجبذه أحدهم جبذة شديدة أثرت في عاتقه لخشونة البرد الذي كان عليه، وقال: «مر لي من مال الله الذي عندك»، فالتفت إليه الرسول ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء [نفسه]. ودل هذا الموقف من الأعراب على أن معظمهم إنما خرج للمغنم، ودل موقف الرسول ﷺ من تصرفاتهم على صبره وحكمته في تربية أمثال هؤلاء الأعراب.

بعدما فرغ الرسول من توزيع الغنائم، قدم عليه وفد هوازن يعلن إسلامهم، ويطلب رد الأموال والسبي إليهم، فخيرهم بين المال والسبي، فاختاروا السبي، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه في الأمر، ومما قال لهم: «من أحب أن يُطَيَّبَ فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نُعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل،

فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله لهم. فقال: «إنا لا ندرى من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يَرْفَعَ إلينا عُرْفَاؤُكُمْ أَمْرُكُمْ»، فرجع الناس فكلّمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا فأذنوا [نفسه]، سوى الأقرع بن حابس، الذي تكلم باسم قبيلته تميم، وعيينة بن حصن الذي تكلم باسم قبيلته فزارة، فوعدهم الرسول ﷺ بتعويضهم عنها. [ابن إسحاق، حسن].

وسأل الرسول ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف، وطلب منهم أن يخبروه إن أتاه مسلماً رد عليه أهله وماله ومنحه مائة من الإبل، وعندما أخبروه بذلك احتال في الخروج من الطائف، خشية أن يقتله قومه ثقيف، ولحق بالرسول الله ﷺ بالجعرانة أو بمكة، فأعطاه الرسول ﷺ ما وعد به، وأسلم، وحسن إسلامه، فاستعمله الرسول ﷺ على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفاً. [ابن إسحاق، يعتضد].

ومال بعض زعماء ثقيف للإسلام، منهم عروة بن مسعود الثقفي، فلحق بالرسول ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة بعد أداء العمرة، فأعلن إسلامه، وعاد داعياً إلى الإسلام في قومه، فقتلوه، ودفن مع شهداء المسلمين في حصار الطائف حسب وصيته. [ابن إسحاق].

وبعد عودة الرسول ﷺ من تبوك في رمضان من العام التاسع، جاء وقد ثقيف معلناً إسلامهم، كما سئرى في خبر الوفود.

• المبحث الثالث: أهم الأحكام المستنبطة من غزوتي حنين والطائف:

١- جواز وطء المسبية بعد الاستبراء، جاء ذلك عندما سأل الصحابة الرسول ﷺ في سبي أوطاس فنزلت الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] [مسلم؛ تفسير الطبري وابن كثير].

٢- النهي عن قصد قتل النساء والأطفال والشيوخ والأجراء ممن لا يشتركون في القتال ضد المسلمين [أحمد، حسن؛ الحاكم، صحيح؛ أبو داود]. وقد تكرر هذا النهي في عدة مناسبات.



٣- إقامة الحد في دار الحرب، فقد فعل ذلك النبي ﷺ بشارب الخمر في حنين. [أحمد؛ أبو داود؛ الدارقطني: السنن، حسن لغيره].

٤- منع المختشين من الدخول على النساء الأجنبية، وذلك عندما سمع الرسول ﷺ أحد المختشين - في بيت أم سلمة - يصف بادية بنت غيلان الثقفي لأخيها عبد الله، ويطلب منه أن يحصل عليها، وذلك قبيل حصار الطائف، فقال ﷺ: «لَا يَدْخُلَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَيْكَ». [متفق عليه].

٥- جواز إعطاء المؤلفة قلوبهم من الغنائم، إذا رأى الإمام أن في ذلك سبباً لدخولهم في الإسلام، أو كف أذاهم، أو فيه مصلحة للمسلمين.

٦- تشريع العمرة من الجعرانة للدخول إلى مكة، كما فعل الرسول ﷺ بعد الفراغ من توزيع غنائم حنين [متفق عليه]. أما الخروج من مكة إلى الجعرانة للإحرام منها فهو ما يفعله العوام وليس بسنة. [الزاد].

٧- التأكيد على إباحة سلب المشرك لقاتله.

٨- جواز الاستفادة من أدوات الحرب التي يمتلكها المشركون، كما فعل الرسول ﷺ عندما استعار دروعاً من صفوان بن أمية مع ضمانه لها، على أن لا يكون في ذلك أي تأثير على صبغة الحرب.

٩- جواز نصب المنجنيق على الكفار، ورميهم به وإن أفضى إلى قتل من لم يقاتل من النساء والذرية. [نفسه].

١٠- جواز قطع شجر الكفار إذا كان ذلك يضعفهم ويغيظهم، وهو أنكى لهم.

١١- من كمال رأفته ورحمته ﷺ أن يدعو بالهداية لمن حاربوه وقتلوا جماعة من أصحابه، كما فعل الرسول ﷺ مع أهل الطائف - ثقيف. [نفسه].



١٢- لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا بعد يوم، فإنها شعائر الكفر، وهي أعظم المنكرات [نفسه]، كما فعل الرسول ﷺ مع ذي الكَفَنين وإرسال أبي موسى الأشعري لهدمه - سيأتي ذكره في أول الفصل التالي.

١٣- إن وادي وَجَّ - هو واد بالطائف - ليس بحرم، وإن الأحاديث الواردة في أنه حرم ضعيفة. [د. العمري: المجتمع المدني].

١٤- جواز خروج بعض النساء مع أزواجهن في الغزو، لعلاج الجرحى وسقيهم، بدليل خروج أم سُلَيم بنت ملحان مع زوجها أبي طلحة إلى غزوتي فتح مكة وحنين، [كما ثبت في صحيح مسلم (٣/ ١٤٤٢/ ح ١٠٨٩)].

ولا يعارضه حديث أم كَبْشَةَ العُذْرِيَّة القُضَاعِيَّة التي روى ابن أبي شيبه وغيره أنها قالت: يا رسول الله، إني لست أريد أن أقاتل، إنما أريد أن أداوي الجريح والمريض أو أسقي المريض. فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن تكون سنة ويقال فلانة خرجت لأذنت لك ولكن اجلسي».

فالحديث كما حققه الدكتور خالد الدريس، فيه انقطاع، لعدم ثبوت اللقاء بين سعيد بن عمرو وأم كبشة، ورجاله ثقات.





الفصل الثاني والعشرون السرايا والأحداث بين غزوتي الطائف وتبوك

• المبحث الأول: سرية الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين

• عندما أراد الرسول ﷺ المسير إلى الطائف، بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين: صنم عمرو بن حُمّة الدوسي ليهدمه، وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف. فخرج سريعاً إلى قومه، فهدم ذا الكفين، وحرقه وانحدر معه من قومه أربعائة، فوافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه إليها بأربعة أيام، ومعه دبابة ومنجنيق. [ابن سعد؛ الواقدي].

• المبحث الثاني: إسلام كعب بن زهير عند منصرف الرسول ﷺ من الطائف

• كان كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني من الشعراء المخضرمين المرموقين، وأبوه زهير بن أبي سلمى صاحب إحدى المعلقات السبع المعروفة. وكان ممن يهجو النبي ﷺ ويؤذيه. وروى قصته وقصة أخيه بُجَيْر بن إسحاق والبيهقي [في الدلائل]، بإسناد متصل إليه، وفيها أنه خرج مع أخيه بُجَيْر حتى أتيا أَبْرَقَ العَرَّافِ، طلب بجير من أخيه كعب أن يبقى في هذا المكان حتى يأتي محمد ﷺ ويسمع ما يقول، فعندما جاء عرض عليه النبي ﷺ الإسلام فأسلم، فبلغ ذلك كعباً فأنشد قائلاً:

| | |
|--|---------------------------------|
| ألا إبْلِغَا عني بجيراً رسالة | على أي شيء غير ذلك دَلَّكََا |
| على خُلُقِي لم أَلْفِ أُمَّا ولا أَبَا | عليه ولم تدرك عليه أَخَا لَكََا |
| سفاك أبو بكر بكأس رَوِيَّةٍ | وأهلك المأمون منها وعَلَّكََا |



فلما بلغت الأبيات رسول الله ﷺ أهدر دمه، فكتب إليه أخوه بجير يخبره بذلك وينصحه بالنجاء، ثم كتب إليه بعد ذلك وأعلمه أن رسول الله ﷺ لا يأتيه أحد مسلماً إلا قبل ذلك منه، وطلب منه أن يُسلم ويُقبل على النبي ﷺ، فأسلم، ونظم قصيدته التي يمتدح فيها رسول الله ﷺ وقدم على الرسول ﷺ فأثمته، فأنشده قصيدته التي مطلعها:

بَانتْ سُعاد فقلبي اليوم مَتَبُولُ مُتَمِّمٌ عندها لم يُفد مَكْبُولُ

[نيل الأوطار؛ ابن إسحاق]

وذكر موسى بن عقبة في مغازيه [البيهقي الدلائل] أن كعب بن زهير أنشد النبي ﷺ قصيدته (بانت سعاد) في المسجد، فلما بلغ قوله:

إِنَّ الرِّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سِیُوفِ اللَّهِ مَسْلُولُ
فِي فِئَةٍ مِنْ قَرِيشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا

أشار رسول الله ﷺ بكمه إلى الخلق ليأتوا فيسمعوا منه.

قال الساعاتي: (وفي المواهب اللدنية، قال أبو بكر بن الأنباري، إنه لما وصل إلى قوله:

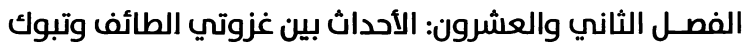
إِنَّ الرِّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سِیُوفِ اللَّهِ مَسْلُولُ

رمى عليه النبي بردة كانت عليه، وإن معاوية رضي الله عنه بذل فيها عشرة آلاف، فقال كعب: «ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحداً». فلما مات كعب بعث معاوية إلى ورثته عشرين ألفاً، فأخذها منهم، قال: «وهي البردة التي عند السلاطين إلى اليوم».

[انظر: العقبة عند الحاكم؛ ابن إسحاق؛ الذهبي: المغازي].

• المبحث الثالث: المصدقون

• شرع رسول الله ﷺ في بعث المصدِّقين إلى المناطق المختلفة في مطلع المحرم من العام التاسع الهجري. فبعث: بُرَيْدَةَ بن الحَصِيبِ إلى أسلم وَغِفَّارَ، ويقال كعب بن مالك،



• المبحث الرابع: سرية عبد الله بن حذافة السهمي

والراجح عندي أن أمير هذه السرية هو عبد الله بن حذافة السهمي. فقد روى الشيخان وبقية الجماعة، أن الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] نزلت فيه عندما أرسله الرسول ﷺ في سرية. وصرح به في رواية أحمد وابن ماجه [صحيح]. وذكر القصة بمثل مضمون رواية البخاري في كتاب الأحكام، ومسلم في كتاب الإمارة.



أما الرواية المرجوحة فهي التي رواها ابن كثير [التفسير] والطبري [التفسير]، وفيها أنها نزلت في خالد بن الوليد عندما بعثه الرسول ﷺ في سرية فيها عمار بن ياسر، فعندما سمع بهم العدو هرب إلا رجلاً واحداً، جاء إلى معسكر المسلمين في جنح الليل، وسأل عن عمار بن ياسر، فدلوه عليه، فأخبره أنه مسلم، واستفتاه إن كان ذلك ينفع وإلا هرب مع قومه، فطلب منه عمار البقاء، وفي الصباح أغار خالد على مكان العدو فلم يجد إلا هذا الرجل، فأخذه وماله، فاعترض عمار على هذا الإجراء، فتلاحا واستبأ، ولام الرسول ﷺ خالداً، فاعتذر إلى عمار، فأنزل الله تعالى الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ مَأْمُونُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ الآية.

وخلاصة رأيهما أن الآية عامة في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء. وقد استشكل العلماء وصف أمير هذه السرية بأنه أنصاري، لأن ابن حذافة مهاجري، ولذا قال ابن حجر [في الفتح]: (ويحتمل الحمل على المعنى الأعم: أي أنه نصر رسول الله ﷺ في الجملة). وجنح إلى تعدد القصة لاختلاف سياقي القصة واسم أميرها. وأما ابن الجوزي [كما ذكر ابن حجر] فقال: (قومه من الأنصار، وهم من بعض الرواة، وإنما هو سهمي). ولعلي أرجح تعليل ابن الجوزي.

وذكر الواقدي وابن سعد في سببها أنه بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من الحبشة تراءاهم أهل جُدَّة، فبعث إليهم علقمة بن مجزَّر، في ربيع الآخر من سنة تسع، في ثلاثمئة، فانتهى إلى جزيرة في البحر، فلما خاض البحر إليهم هربوا، فلما رجع تعجل بعض القوم إلى أهلهم، فأمر عبد الله بن حذافة على من تعجل.

وذكر ابن إسحاق في سببها أن وقاص بن مجزَّر كان قد قتل يوم ذي قرد، فأراد علقمة بن مجزَّر أن يأخذ بثأره، فأرسله رسول الله ﷺ في هذه السرية. ويمكن الجمع بين الأمرين. [ابن حجر: الفتح].



• المبحث السابع: من فوائد هذا المقطع

• إن الحكم في حالة الغضب يُنفَّذ منه ما لا يخالف الشرع، وإن الأمر المطلق لا يعم بالأحوال، لأنه ﷺ أمرهم أن يطيعوا الأمير، فحملوا ذلك على عموم الأحوال حتى في حال الغضب، وفي حال الأمر بمعصية، فبين لهم ﷺ أن الأمر بطاعته مقصور على ما كان منه في غير معصية.

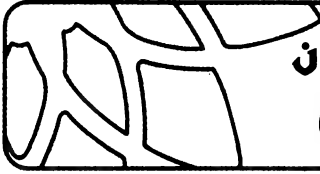
• المبحث الثامن: سرية علي بن أبي طالب إلى الفُلس وإسلام عدي

• ابن حاتم الطائي

• في ربيع الآخر من العام التاسع الهجري أرسل الرسول ﷺ علي بن أبي طالب في خمسين ومائة رجل إلى الفُلس - صنم طيء ليهدمه -، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم الطائي مع الفجر، فهدموا الفُلس وخربوه وأخذوا ما به، وملؤوا أيديهم من السبي والنعم والشاء. وهرب عدي إلى الشام. [ابن سعد؛ الواقدي].

روى أحمد [المسند، حسن] والترمذي [حسن] من حديث سماك بن حرب بإسناد إلى عدي بن حاتم أنه عندما جاءت خيل رسول الله ﷺ كان هو بعقرُب، فأخذوا عمته وناسًا، فلما أتوا بهم رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله نأى الوافد وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة، فمَنَّ عليَّ مَنْ الله عليك، فسألها عن وافدها، فقالت: عدي بن حاتم، فقال: «الذي فر من الله ورسوله؟»، فمَنَّ عليها رسول الله ﷺ وجهزها فأنت ابن أخيها عديًا وهو هارب بالشام، وأخبرته خبر الرسول ﷺ وطلبت منه أن يأتي الرسول ﷺ راغبًا أو راهبًا، فاتاه فأسلم، فسُرَّ بذلك النبي ﷺ. [وروى القصة بتفاصيل أكثر ابن إسحاق، معلقة].





الفصل الثالث والعشرون

غزوة تبوك (أو العُسرة)

• أصل التسمية (تبوك):

• روى مسلم، بسنده إلى معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي». فهذا رسول الله ﷺ سماها تبوكاً قبل أن يأتيها أحد، فلا وجه لقول غير هذا، كما قال أكرم السندي: [الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك].

• التسمية بغزوة العسرة:

• جاءت تسميتها بغزوة جيش العسرة من الحديث الذي رواه البخاري، بسنده إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحُمْلان لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك...»، وعنون البخاري لهذه الغزوة بقوله: «باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة». وحديث الأشعري واضح الدلالة على ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من العسر الشديد في المال والزاد والركائب.

وروى مسلم، بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه، ما وقع للمسلمين في طريق هذه الغزوة من نقص في الزاد حتى مصوا النوى وشربوا عليه الماء. وفي رواية أخرى له أنهم استأذنوا الرسول ﷺ في نحر مطاياهم ليأكلوا.

ودل على هذه الضائقة الاقتصادية الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ

وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧] [انظر: تفسيرها عند الطبري].



• تاريخ الغزوة:

• خرج الرسول ﷺ لهذه الغزوة في رجب من العام التاسع الهجري [ابن إسحاق، ابن سعد]، بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر. [الفتح].

• سبب الغزوة:

• ذكر الواقدي وابن سعد أن هرقل جمع جمعاً من الروم وقبائل العرب الموالية لها، فعلم بهم الرسول ﷺ فخرج إليهم. وذكر اليعقوبي أن سببها أخذ الشار لجعفر ابن أبي طالب عليه السلام.

وروى ابن عساكر في سبب الخروج إلى تبوك أن اليهود أتوا الرسول ﷺ وقالوا له إن كنت صادقاً بأنك نبي فالحق بالشام فإنها أرض المحشر والأنبياء، تغريباً بالمسلمين ليخرجوهم من المدينة، ويعرضوهم لخطر المواجهة مع الروم، وعندما وصل تبوكاً نزلت عليه آيات من سورة بني إسرائيل، منها ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦]، تفضح موقف اليهود، وأمره الله بالرجوع إلى المدينة حيث الممات والمحشر.

وقال ابن كثير [البداية]: فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

والذي قاله ابن كثير هو الأقرب إلى الصواب. إضافة إلى أن الأمر الذي استقر عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافة، بما فيهم أهل الكتاب، الذين وقفوا في طريق الدعوة، وظهر تحرشهم بالمسلمين، كما روى أهل السير والمغازي.



● الإنفاق في هذه الغزوة:

● حث الرسول ﷺ الصحابة على الإنفاق في هذه الغزوة لبعدها وكثرة المشتركين فيها، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله ﷻ. فأنفق كل حسب قدرته، وكان عثمان ابن عفان أكثر المنفقين. ووردت في ذلك عدة أحاديث وآثار، منها:

روى البخاري: وقال النبي ﷺ: «... من جهز جيش العسرة فله الجنة»، فجهزه عثمان. وروى من حديث أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ أن عثمان رضي الله عنه قال لمحاصريه أيام الدار: «ألستم تعلمون أنه قال: من جهز العسرة فله الجنة؟ فجهزته»، فصَدَّقوه بما قال، وروى من هذا الطريق وبنحوه الترمذي، ولفظه: «أذكركم بالله، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال في جيش العسرة: من ينفق نفقة متقبلة؟ والناس مجهدون معسرون، فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم...». ومن طريق آخر له من حديث ثُمَامَةَ بْنِ حَزْنٍ: «...أنشدكم الله وبالإسلام، هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي؟ قالوا: اللهم نعم».

وبلغت هذه المشاركة من عثمان ألف دينار. وعندما نثرها في حجر النبي ﷺ أخذ يقلبها ويقول مرارًا: «ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم». [نفسه].

وقيل إن عثمان رضي الله عنه قدم أشياء عينية كالإبل وعدتها، وأنه تصدق بثلاثمئة بغير بأحلاسها وأقتابها [والأحلاس جمع حلس: وهو مايوضع تحت السرج، والأقتاب: جمع قتب: وهو الرحل] [الحاكم]، وليس هناك ما يمنع ذلك، ما دام قد ثبت أن الصحابة قد أقرؤا له بتجهيز جيش العسرة، كما هو ظاهر الأحاديث والآثار التي ذكرناها.

وروي أن عبد الرحمن بن عوف أنفق ألفي درهم، وهي نصف أمواله، لتجهيز جيش العسرة [تفسير الطبري]، وفي أنه تصدق بأربعة آلاف دينار، وهي أيضًا نصف ماله [نفسه]. وأن عمر تصدق ببائة أوقية. [ابن عساكر].



وتصدق العباس وطلحة وسعد بن عباد ومحمد بن مسلمة وعاصم بن عدي، كما ذكر الواقدي.

وتصدقت النساء بكل ما قدرن عليه من الأسورة والخلخال والختم والأقراط، كنّ يضعنه على ثوب مبسوط بين يدي رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها. [الواقدي].

وقدم فقراء المسلمين جهدهم من النفقة على استحياء، ولذلك تعرضوا للسخرية وغمز ولمز المنافقين. فقد جاء أبو عَُقَيْل بنصف صاع من تمر، وجاء آخر بأكثر منه، فلمزوهما قائلين: «إن الله لغني عن صدقة هذا!! وما فعل هذا الآخر إلا رياء» فنزلت الآية: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] [البخاري].

وجاء أبو حَيْثَمَةَ الأنصاري بصاع تمر فلمزوه أيضًا [مسلم]، ولعله هو المعني أيضًا في حديث الطبري [التفسير] في إنفاق ابن عوف، وفيه أن رجلاً من الأنصار قال: «... وإن عندي صاعين من تمر: صاعاً لربي، وصاعاً لعيالي»، فلمزه المنافقون، وقالوا: «ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء»، وقالوا: «أو لم يكن الله غنياً عن صاع هذا؟» فأنزل الله الآية: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وواضح من هذا أنهم يتهمون الأغنياء بالرياء ويسخرون من صدقة الفقراء.

وروي أن عُلْبَةَ بن زيد بن حارثة عندما لم يجد ما يتصدق به، جاء إلى الرسول ﷺ فقال: «اللهم إنه ليس عندي ما أتصدق به، اللهم إني أتصدق بعرضي على من ناله من خلقك»، فأمر رسول الله ﷺ منادياً فنادى أين المتصدق بعرضه البارحة، فقام علبة، فقال الرسول ﷺ: «قد قُبِلَتْ صَدَقَتُكَ». [الإصابة - وعلبة المذكور ليس من ولد زيد مولى النبي ﷺ].



لقد كان علبة بن زيد [الحارثي الأنصاري] واحدًا من سبعة رجال من المؤمنين عرفوا بـ(البكائين)، أتوا رسول الله ﷺ يطلبون منه ما يخرجون عليه معه في هذه الغزوة، فلم يجد ما يحملهم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون. [ابن إسحاق].

وأرسل جماعة من الأشعرين أبا موسى الأشعري إلى الرسول ﷺ يطلبون منه ما يركبونه، فكان في لحظة غضب، فلم يحصل لهم منه على شيء، فعاد إليهم حزينًا. وبعد قليل أرسل الرسول ﷺ بلالًا إلى أبي موسى، فجاءه، فأعطاه ستة أبعرة ابتاعهن من سعد ليركبها مع أصحابه الأشعرين [البخاري]، وفي رواية أنه أعطاهم خمس دؤد عندما أتى بنهب إبل. [نفسه].

وذكرت بعض الروايات أنه نزل في البكائين والأشعرين قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ [التوبة: ٩١-٩٢] [تفسير الطبري].

إنها صورة مؤثرة للرجبة الصحيحة في الجهاد على عهد الرسول ﷺ، وما كان يحسه صادقو الإيمان من ألم إذا ما حالت ظروفهم المادية بينهم وبين القيام بواجباته، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممن عذر الله لمرض أو كبر سن أو غيره يسرون بقلوبهم مع المجاهدين، وهم الذين عناهم الرسول ﷺ عندما قال: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتهم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟! قال: وهم بالمدينة حبسهم العذر». [البخاري].



• موقف المنافقين من غزوة تبوك:

• عندما أعلم الرسول ﷺ النفير ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة، أخذ المنافقون في تثبيط همم الناس، قائلين لهم: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة: ٨١) [ابن إسحاق، تفسير الطبري والشوكاني؛ الدر المنثور].

وقال رسول الله ﷺ ذات يوم - وهو في جهازه لتبوك - لِلجَدِّ بن قَيْس: «يَا جَدُّ! هل لك العام في جِلَادِ بني الْأَصْفَرِ؟» فقال: «يا رسول الله أَوْ تَأْذُنُ لي وَلَا تَفْتَنِي؟ فو الله لقد عَرَفَ قومي أنه ما من رجل بأشدَّ عُجْبًا بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الْأَصْفَرِ أن لا أصبر»، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «قد أذنت لك»، ففيه نزلت الآية: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَذْنُ لِي وَلَا نَفْتِيَّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (التوبة: ٤٩) [ابن إسحاق، الطبري في التفسير؛ الإصابة بأسانيد ضعيفة].

وذهب بعضهم إلى النبي ﷺ مبدين أعذارًا كاذبة، ليأذن لهم بالتخلف، فأذن لهم، فعاتبه الله بقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ (التوبة: ٤٣) [الطبري: التفسير، من مرسل مجاهد بسند صحيح].

وبلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا منهم يجتمعون في بيت سُؤَيْلِمَ اليهودي يثبطون أناس عن رسول الله ﷺ، فأرسل إليهم من أحرق عليهم بيت سويلم [ابن هشام].

ووصلت بهم الجرأة على الله ورسوله أن بينوا مسجدًا قبيل غزوة تبوك ليجتمعوا فيه ويديروا حلقات تأمرهم على المسلمين، ويأملوا في مجيء أبي عامر الفاسق من عند الروم بجيش يغزو المدينة. وزعموا أنهم بنوه للمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعدة ومن عجز عن المسير إلى مسجد الرسول ﷺ للصلاة فيه، وطلبوا من الرسول



ﷺ أن يصلي فيه خداعاً للناس، ولكن الله فضح حقيقة نواياهم عندما أنزل في هذه الآيات: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٧-١٠٨] [الطبري: التفسير، صحيح]. فامتنع الرسول ﷺ عن الصلاة فيه، ثم أحرقه عندما عاد من تبوك ومنعه الله من الصلاة على أمواتهم بعد أن صلى على عبد الله بن أبي بن سلول عقب عودته من تبوك، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤] [متفق عليه].

وقد تخلف منه جماعة كما ثبت في حديث كعب بن مالك في قوله: «فكنت إذا خرجت في الناس... أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموساً بنفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء...». [متفق عليه].

وخرج بعضهم مع الرسول ﷺ لعلهم يتحينون الفرص للتخذييل، كما سترى. لقد استنفر الرسول ﷺ المسلمين للخروج في هذه الغزوة، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨]، وكان ثاقلهم بسبب مجيء وقت جني التمر وطيب ثمره واشتهاء الظل لشدة الحر [الطبري: التفسير، من مرسل مجاهد]، وبعد المسافة ومشقة السفر، كما ذكرت الآية: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَدْتَ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةَ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢] [الطبري: التفسير، من مرسل قتادة، حسن].

وتخلف عن الغزوة كثير من الأعراب والمنافقين، وعدد قليل من الصحابة من أهل الأعدار، وثلاثة ممن لم يكن لهم عذر عن الجهاد، وسيأتي ذكرهم.

● موقف المؤمنين من الخروج إلى تبوك:

● عندما كشف الرسول ﷺ للمسلمين عن وجهته خلافاً لما كان يفعل في مثل هذه الغزوات الكبيرة، ليتهيأ المسلمون إلى الجهاد [البخاري]، سارع المؤمنون إلى مرافقة الرسول ﷺ ولم ينظروا إلى ما سيلاقونه من مشقة، ولم تفتنهم طيبات الحياة الدنيا بالمدينة، فها هو علي بن أبي طالب لا يرضى أن يخلفه الرسول ﷺ في أهله، فيلحق بالرسول وهو نازلٌ بالجرِّف ويقول: «يا رسول الله، تخلفني في النساء والصبيان؟» فقال له الرسول ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي». [متفق عليه].

وها هو أبو خيثمة الأنصاري وقد سارع إلى حسم الصراع الدائر في نفسه بين البقاء والخروج، ثم يؤثر الخروج رغبة في ما عند الله ﷻ، وفي ذلك يقول: «تخلفت عن رسول الله ﷺ، فدخلت حائطاً لي - بستاناً - فرأيت عريشاً قد رُشَّ بالماء، ورأيت زَوْجَتِي فقلت: ما هذا بإنصاف، رسول الله ﷺ في السَّموم والحرور وأنا في الظل والنعيم، فقممت إلى ناضح لي وتمرات فخرجت، فلما طلعت على العسكر فرآني الناس، قال النبي ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فجئت فدعا لي. [ابن حجر: الفتح، من رواية الطبراني؛ ابن إسحاق، مرسلاً؛ الواقدي].

ويروى أن أبا ذر عندما أبطأ عليه بغيره أخذ متاعه فحملة على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، وعندما نزل رسول الله ﷺ في بعض منازلهم، رأى أحد المسلمين رجلاً يمشي وحده، فأخبر الرسول ﷺ فقال: «كُنْ أبا ذر»، فعندما وصل كان هو أبا ذر، فقال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، وَيُبْعَثُ وَحْدَهُ» [الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي؛ البيهقي: الدلائل؛ ابن كثير: البداية، وحسنه].



وعندما أقام أبو ذر بالرَّبَذَةِ في عهد عثمان رضي الله عنه لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلّامه، فأوصاهما بأن يغسلاه ويكفناه إذا مات، ثم يضعاه على قارعة الطريق ويطلبوا الإعانة على دفنه من أول ركب يمر بهما، ففعلا، ويومها أقبل ابن مسعود رضي الله عنه في رهط من أهل العراق عُمَرَا، وكادت إبلهم أن تطأ الجنازة، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو ذر، صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فبكى ابن مسعود وقال: «صدق رسول الله ﷺ: تمشي وحدك وتموت وحدك، وتبعث وحدك»، ثم نزل هو وأصحابه فدفنوه، ثم حدثهم حديثه، وما قال له رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك. [الحاشية نفسها، حسن بطرقه]. وهذه معجزة من معجزات الرسول ﷺ الكثيرة في هذه الغزوة وغيرها، كما هو معلوم. وأفردنا لذلك فصلاً فيما بعد.

• عدد الصحابة في جيش تبوك:

• تباينت الروايات في ذلك. ففي رواية معقل عن كعب بن مالك، عند مسلم قال: «وغزا رسول الله ﷺ بناس كثير يزيدون على عشرة آلاف، ولا يجمعهم ديوان حافظ». وفي رواية أخرى له عنه: «المسلمون مع رسول الله كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد بذلك الديوان». وقال ابن حجر [في الفتح]: وللحاكم في الإكليل من حديث معاذ: «خرجنا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك زيادة على ثلاثين ألفاً، وبهذا العدد جزم ابن إسحاق». وروى الواقدي عن زيد بن ثابت أنهم كانوا ثلاثين ألفاً، وفي رواية أخرى له: «وكان الناس مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفاً ومن الخيل عشرة آلاف فرس»، وقد نقل عن أبي زُرعة الرازي أنهم كانوا أربعين ألفاً [الفتح]، وقال ابن حجر [الفتح] في تعليقه على بعض هذه الروايات: «فتحمل رواية معقل عن كعب على إرادة عدد الفرسان». وقال أبو زرعة الرازي: «وكانوا سبعين ألفاً». وجمع بعض الأئمة بين قوله وقول ابن إسحاق بأن أبا زرعة عد التابع والمتبوع، وابن إسحاق عد المتبوع فقط [تاريخ ابن أبي خيثمة].



والمشهور والراجح أن جيش تبوك كان ثلاثين ألفاً، وهو ما اتفق عليه أئمة المغازي والسير: ابن إسحاق والواقدي وابن سعد، وليس هناك تعارض مع ما جاء في الصحيح، والله أعلم.

● المتخلفون عن غزوة تبوك:

● لقد تخلف عن غزوة تبوك، من غير ذوي الأعذار والمنافقين، ثلاثة من خيار الصحابة، وهم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع العُمري، وهلال بن أمية الواقفي، فقد غلبهم التسويف والميل إلى الراحة. وروى كعب رضي الله عنه قصته في هذا التخلف، في حديث طويل، رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وجاء فيه:

«كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر منه حين تخلفت عنه في تلك الغزاة... وطفقت أغدو لكي أتجهز مع المسلمين، فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتماذى بي حتى اشتد بالناس الجد ولم أقض من جهازي شيئاً. ولم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو - أي فاتوا - وهممت أن أرتحل فأدركهم. فيا ليتني فعلت. فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطففت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموساً بنفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.. ولما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همي، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول بماذا سأخرج من سخطه غداً؟!... واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، ولما قيل إن رسول الله ﷺ قد أقبل، زاح عني الباطل وأجمعت أن أضدقه، فجئته، فلما سلّمت عليه تبسّم تبسّم المغضب، ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد



أُعْطِيتُ جَدَلًا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله. والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك! فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك. فقممت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني يؤنبونني (أي يعتبون عليه أنه لم يعتذر كالأخرين) فقلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ فقالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقليل لهما مثل ما قيل لك، فقلت من هما؟ فقالوا: مرارة بن الربيع وهلال بن أمية. فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدرًا، لي فيهما أسوة... ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا - أي الثلاثة - فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرْتُ لِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ بَالْتِي أَعْرِفُهَا. فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكْنَا وَقَعَدَا فِي بَيْوتِهِمَا بَيْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكَنتُ أَشْبَ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكَنتُ أَخْرَجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَكْلَمُنِي أَحَدٌ، وَآتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَكْتُ شَفَتَيْهِ بَرْدَ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أَصْلِي قَرِيبًا مِنْهُ أَسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَفْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي. وَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ، إِذَا نَبْطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّنِي عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يَشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ عَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ فِي دَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بَنَاءُ نَوَاسِكَ»، فَقُلْتُ لِمَا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ، فَتِمِمْتُ بِهَا التَّنَوُّرَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا. حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزَلَ أَمْرَاتِكَ، فَقُلْتُ: أَطْلُقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلْ اعْتَزْلِهَا وَلَا تَقْرِبْهَا، وَأَرْسِلْ إِلَى صَاحِبِيِّ بِمِثْلِ



ذلك. فقلت لا مرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر.. فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لي خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجدًا، وعرفت أنه قد جاء فرج، وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبّل صاحبيّ مبشرون.. ولما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى، نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهتفون بالتوبة. فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قلت: أأمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله. فقلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله. قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. فقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت. وأنزل الله تعالى على رسوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧-١١٩]... وكنا نَخْلِفُنَا نحن الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبّل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه. فبذلك قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْفَرَسَةِ الْذِيكَ خَلَفُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، وليس الذي ذَكَرَ الله مما خَلَفْنَا عن الغزو، إنما هو تَخْلِيفُهُ إيانا وإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عمن حَلَفَ له واعتذر إليه فَقَبِلَ منه».



وجاء في حديث كعب هذا أن الذين تخلفوا عن هذه الغزوة كانوا بضعة وثمانين رجلاً، اعتذروا للرسول ﷺ عن تخلفهم فقبل منهم علانيتهم وبإيعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله، ويتطابق هذا العدد مع ما ذكره الواقدي، وقد زاد الواقدي، بأن المُعَذَّرِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ كانوا أيضًا اثنين وثمانين رجلاً من بني غِفَار وغيرهم، وأن عبد الله بن أبي سلول ومن تابعه من قومه كانوا من غير هؤلاء، وكانوا عددًا كثيرًا،

وروى هو وابن سعد وابن إسحاق أن ابن أبي خرج حتى وصل جبل دُبَاب - وفي رواية عند ثنية الوداع - بالمدينة ومعه حلفاؤه من اليهود والمنافقين، فكان يقال: ليس عسكر ابن أبي بأقل العسكرين، فلما سار الرسول ﷺ تخلف عنه فيمن تخلف من المنافقين، وكل هذه لم يثبت بطرق صحيحة.

وكان من يتخلف يظن أن لا أحد يتفقد له لكثرة أفراد الجيش، ولكن الرسول ﷺ تفقد وهو في طريقه إلى تبوك بعض من تخلف، فقد سأل أبا رَهم كلثوم بن حصين الغفاري عمن تخلف من بني غفار وأسلم [ابن إسحاق، حسن لغيره]، وعندما وصل تبوك سأل عن كعب بن مالك. [البخاري].

● المسلمون في تبوك:

● قيل إن الرسول ﷺ خطب الناس خطبة طويلة في تبوك، قال فيها: «أيها الناس، أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير المثل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عوازمها، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدى هدى الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما اتبع، وشر العمى عمى القلب...». [أحمد؛ الأموال؛ البداية، وفي الروايات مطعن].



وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على رأس سرية إلى أكيدر دومة الجندل فأخذه، فأتوا به النبي ﷺ فحقن دمه وصالحه على الجزية. [ابن إسحاق، يعتضد].

وعندما أخذه كان يصيد البقر خارج حصنه، وهي الهيئة التي ذكرها الرسول ﷺ لخالد - أنهم سيجدون عليها [ابن إسحاق، حسن]. وقد تعجب المسلمون من قباء كان يلبسه أكيدر، واستلبه منه خالد وأرسله إلى النبي ﷺ، فقال لهم النبي ﷺ: أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمتاديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا» [متفق عليه، ابن إسحاق؛ عروة؛ الترمذي؛ النسائي].

وفي الصحيح أن أكيدر أهدى رسول الله ﷺ حلة من حرير [متفق عليه]، فعجب الناس منها، فقال: «والذي نفس محمد بيده...» الحديث بمثل ما عند ابن إسحاق. والراجح أن حصول الرسول ﷺ على الحلة كان عن طريق الإهداء كما في الصحيح وليس عن طريق الاستلاب كما ذكر ابن إسحاق. ويؤيد ذلك ما رواه أبو يعلى بإسناد قوي، أنه لما قدم أكيدر، أخرج قباء من ديباج منسوجاً بالذهب، فردّه النبي ﷺ عليه، ثم إنه وجد في نفسه من رد هديته فرجع به، فقال له النبي ﷺ: «ادفعه إلى عمر»، الحديث [ابن حجر: الفتح؛ الذهبي: المغازي]. وفي رواية عند البخاري أن الرسول ﷺ لم يعطها عمر ليلبسها، ولذا كساها عمر لأخ له كان بمكة مشركاً [البخاري]. وفي رواية عن علي أنه أهدى إلى النبي ﷺ حُلَّةً سِراءَ فلبسها، فرأى الغضب في وجه النبي ﷺ، فشققها بين نسائه. [البخاري].

ويفهم من مجموع هذه الأحاديث أن الحلة التي أهديت إلى الرسول ﷺ ليست واحدة [البخاري]، وأن الرسول ﷺ والصحابة لم يكونوا يلبسون الحرير، لأن ذلك محرم بالأحاديث الصحيحة كما هو معروف.



وقيل إن الرسول ﷺ أرسل خالدًا إلى أكيدر في أربعمائة وعشرين فارسًا، وأن غنائمه كانت ثمانمائة من السبي، وألف بعير، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح. [عروة، مرسلاً].

روى البخاري أن الرسول ﷺ عندما كان بتبوك جاءته هدية ملك أيلة، وهي بغلة بيضاء، وكساه بردًا، وصالحه على الجزية.

وأناه أهل جَرْبَاءَ وَأَذْرَحَ، فأعطوه الجزية، فكتب لهم كتابًا، فهو عندهم. [ابن إسحاق]. وفي ذات يوم من أيام تبوك تخلف رسول الله ﷺ عن صلاة الفجر لحاجة، وعندما انتهى إلى مكان المسلمين، كانوا قد قدموا عبد الرحمن بن عوف إمامًا لهم وشرعوا في الصلاة، فصلى رسول الله ﷺ خلف ابن عوف، ثم أكمل صلاته. [مسلم؛ أحمد؛ أبو داود].

ويروى أن الرسول ﷺ أرسل دِحْيَةَ بن خليفة الكلبي إلى هرقل، وهو بتبوك، وأن هرقل أرسل التَّنُوخِي ليتعرف على بعض علامات نبوة محمد ﷺ. ولو ثبت هذا فيكون إرسال دحية للمرة الثانية.

وتوفي حين مقام الرسول ﷺ بتبوك ذُو الْبِجَادَيْنِ [البجادين: مفردها البجاد، وهو الكساء الغليظ الجافي أو المِسْح - كساء من أشعر أسود. وذكر ابن هشام (٢٣٤/٤) سبب هذه التسمية، فقال: (لأنه كان ينازع إلى الإسلام، فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه حتى تركوه في بجاد واحد ليس عليه غيره، فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ، فلما كان قريبًا منه شق بجاده باثنتين، فاتزر بواحد واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله ﷺ، فقبل له: ذُو الْبِجَادَيْنِ لذلك)] عبد الله بن عبد نهم بن عفيف المزني، فنزل رسول الله ﷺ في حفرته وأبو بكر وعمر يدلانيه إليه. فلما هياه لشقه قال: «اللهم إني أمسيت راضيًا عنه، فارض عنه». وقال الراوي - عبد الله بن مسعود: «يا ليتني كنت صاحب الحفرة». [ابن هشام، بسند مرسل جيد].

• الرجوع إلى المدينة:

• لم يلق الرسول ﷺ حرباً من الأعداء، فرجع إلى المدينة منتصراً، بعد أن أقام بتبوك عشرين ليلة [ابن حبان: الموارد، صحيح]. وفي الطريق أتوا على الحجر من ديار ثمود، الذين غضب الله عليهم لعصيانهم أمره بعدم ذبح ناقة نبي الله صالح [متفق عليه]، وعندما سارع الناس إلى دخول مساكن أهل الحجر، نهاهم الرسول ﷺ [أحمد، حسن]، وقال لهم: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين»، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي [متفق عليه]، وعندما نزلوا الحجر استقوا من آبارها وعجنوا من مائها العجين، فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بطرح ذلك العجين للإبل ويهرقوا ذلك الماء، وأن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة [متفق عليه].

وعندما اشتكى المسلمون إلى النبي ﷺ ما أصاب إبلهم من الإجهاد، دعا الله أن ينشطها، فنشطت بهم حتى بلغوا المدينة [أحمد، حسن، الموارد].

وحاول جماعة من المنافقين المثلثين أن يطرحوا الرسول ﷺ عن راحلته من رأس عقبة بالطريق، في عَمَّة من الليل، فشعر بمؤامرتهم، فأمر بإبعادهم عنه [أحمد، حسن]. فلما دنا رسول الله ﷺ من المدينة، خرج الصبيان إلى ثنية الوداع لتلقيه [البخاري]، ومعهم النساء والولائد يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا الله داع

وكان أول ما فعله الرسول ﷺ عند دخوله المدينة أن صلى في مسجده ركعتين ثم جلس للناس فجاءه المنافقون المتخلفون عن الغزوة اعتذروا بشتى الأعذار، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكّل سرائرهم لله عز وجل. [متفق عليه]، وجاء الثلاثة المخلفون، وكان من خبرهم ما سبق ذكره.



● وقفت مع بعض الآيات التي نزلت بمناسبة غزوة تبوك:

● نزلت آيات كثيرة من سورة براءة - التوبة - حول موضوع هذه الغزوة، نزل بعضها قبل الخروج، وبعضها بعد الخروج وهو مسافر، وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة. وقد اشتملت على ذكر ظروف الغزوة، وفضح المنافقين، وفضل المجاهدين المخلصين، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين، الخارجين منهم في الغزوة والمتخلفين.

١ - قال تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ [التوبة: ١٠٢].

قال الطبري [التفسير]: (وقد اختلف أهل التأويل في المعنى بهذه الآية، والسبب الذي من أجله أنزلت فيه. فقال بعضهم: نزلت في عشرة أنفس كانوا تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، منهم أبو لبابة، فربط سبعة منهم أنفسهم إلى سواري المسجد عند مقدم النبي ﷺ من تبوك، توبة منهم من ذنبهم... وقال آخرون: الذين ربطوا أنفسهم كانوا ثمانية... وقال آخرون: كانوا سبعة... وقال آخرون: بل نزلت في أبي لبابة بسبب تخلفه عن تبوك. وقال بعضهم: عنى بهذه الآية الأعراب...)، وذكر الطبري المرويات فيمن قال بكل قول من الأقوال المذكورة... وكلها روايات لا تقوم بها الحجة حسب دراسة الدكتور السندي [الذهب] لها، ولذا قال الطبري [في التفسير]: (وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك، قول من قال: نزلت هذه الآية في المعترفين بخطأ فعلهم في تخلفهم عن رسول الله ﷺ، وتركهم الجهاد معه، والخروج لغزو الروم، حين شخص إلى تبوك، وأن الذين نزل ذلك فيهم جماعة، أحدهم أبو لبابة... قد تبين أن هذه الصفة لم تكن إلا لجماعة فعلت ذلك، فيما نقله أهل السير والأخبار وأجمع عليه أهل التأويل، إلا جماعة من المتخلفين عن غزوة تبوك... منهم أبو لبابة، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك).



٢- قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ

وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥]

روى الطبري [بسنن صحيح] عدة آثار في سبب نزول هذه الآية، منها أثر صحيح عن ابن عمر مضمونه أن رجلاً قال في مجلس في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن؛ قال ابن عمر: فأنا رأيتاه متعلقاً بحَقَبِ ناقة رسول الله ﷺ تَنْكُبُهُ [تصبيه] الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم». واستدل بعضهم بهذه الآية على أن الجدل واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء ولا خلاف بين الأئمة في ذلك. [زاد المسير].

[وَحَقَب: جبل يشد به الرحل على بطن البعير].

ويقول الله تعالى تعقيباً على ما صدر من هذا الرجل: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَقَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَذَّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٦].

ومما روي في تفسير هذه الآية أن الذي عُنِيَ عنه هو وحشي بن حمير الأشجعي، وذلك لأنه أنكر منهم بعض ما سمع. [الدر المنثور، من حديث ابن إسحاق وابن المنذر بسند حسن].

● معجزات وقعت للرسول ﷺ في أحداث تبوك:

● شكا الصحابة رضي الله عنهم إلى النبي ﷺ ما بروا حلهم من جهد، فأمر أن يمرؤا بها عليه عند مكان ضيق، فأخذ ينفخها ويقول: «اللهم احمل عليها في سبيلك، إنك تحمل على القوي والضعيف، وعلى الرطب واليابس في البر والبحر»، فما بلغوا المدينة حتى جعلت تنازعهم أزمتهما، فقال الراوي - فضالة بن عبيد الأنصاري: «هذه دعوة النبي



ﷺ على القوي والضعيف، فما بال الرطب واليابس، فلما قدمنا الشام غزونا غزوة قبرص في البحر، فلما رأينا السفن في البحر وما يدخل فيها عرفت دعوة النبي ﷺ « [أحمد، حسن].

روى الواقدي عدة آثار عن معجزات وقعت للرسول ﷺ ضمن أحداث غزوة تبوك، ولكن كلها ضعيفة، لانفراده بها، مثل الحية التي اعترضت سبيل المسلمين في غزوة تبوك، ومعجزة نبع الماء من أصابعه، ومعجزة تكثير الطعام.

وكذلك روى السيوطي [في الخصائص الكبرى] آثارًا عن معجزات وقعت للرسول ﷺ وكلها ضعيفة، مثل نزول المطر بدعاء الرسول ﷺ في غزوة تبوك، ولقاء إلياس ﷺ بالرسول ﷺ في هذه الغزوة، وكل هذه المعجزات التي وردت عند الواقدي والسيوطي بأسانيد ضعيفة، وقع مثلها بأسانيد صحيحة، جاء ذكرها في ثنايا هذا الكتاب، اللهم إلا قصة إلياس ﷺ والحية، فهي لم ترد من قبل بإسناد صحيح أو سقيم. وقد أفردنا فصلًا خاصًا للكلام عن معجزات النبي ﷺ.

● الأحكام والفوائد والدروس المستنبطة من غزوة تبوك:

- ١- إن في صلاة النبي ﷺ خلف عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه تكميلًا لأحد أصحابه، ودليلاً على جواز إمامة المفضل وصلاة الأفضل أو الفاضل خلفه.
- ٢- سأل معاذ بن جبل رضي الله عنه الرسول ﷺ عن عمل يدخله الجنة، وهم في طريق العودة من تبوك، فأجابه الرسول ﷺ بأن رأس هذا الأمر الشهادة، وقوامه الصلاة والزكاة، وذروة سنامه الجهاد [أحمد، حسن].
- ٣- كان الرسول ﷺ يجمع بين صلاتي الظهر والعصر، وبين صلاتي المغرب والعشاء [الزرقاني: شرح الموطأ]. وأصبحت سنة لأصحاب الأعداء.



٤- سئل النبي ﷺ عن سترة المصلي، فأجاب بأنها مثل مؤخرة الرجل [النسائي، صحيح].
 ٥- أقام ﷺ بتبوك عشرين ليلة يقصر الصلاة [ابن حبان: الموارد، صحيح]. وبهذا استدل بعض العلماء على جواز القصر ما دام المرء في حالة سفر ولم ينو الإقامة، وانظر الفقرة ١٧ بعد قليل.

٦- قال ﷺ عن جلد الميتة: «دَبَاغُهَا طَهُورُهَا»، وذلك عندما طلب ماء من بيت بتبوك فأتى له به في قربة من جلد فشرّب. [أبو داود، حسن].

٧- أهدر الرسول ﷺ ثنية رجل عض يد رجل آخر فانتزعها بقوة ومعها الثنية. [متفق عليه].

٨- جواز الهجر أكثر من ثلاث ليالٍ لسبب شرعي، كما في أمر الرسول الله ﷺ بمقاطعة الذين خُلفوا لمدة خمسين ليلة.

٩- إن من يمر بديار المغضوب عليهم والمعذبين، لا ينبغي له أن يدخلها، [إلا لضرورة]، ولا أن يقيم بها، بل عليه أن يسرع، ويتقنع بثوبه حتى يجاوزها، ولا يدخل عليهم إلا باكيًا معتبرًا، كما فعل الرسول ﷺ وأمر به عندما مر بديار ثمود بالحجر، وكما فعل في وادي محسر بين منى وعرفة، فإنه المكان الذي أهلك الله ﷻ فيه الفيل وأصحابه. [الزاد].

١٠- تصريح الإمام للرعية، وإعلامهم بالأمر الذي يضرهم ستره وإخفاؤه ليتأهبوا له، وجواز ستر غيره عنهم والكناية عنه للمصلحة، كما فعل الرسول ﷺ في أمر الإعلام بوجهته حين عزم على غزوة تبوك. [نفسه].

١١- إذا استنفر الإمام الناس للجهاد لزمهم النفير جميعًا، ولا يشترط في وجوب ذلك تعيين كل واحد منهم بعينه، وهو أحد المواضع الثلاثة التي يصبح فيها الجهاد فرض عين، والثاني: إذا حضر العدو البلد، والثالث: إذا حضر بين الصفين. [أي حين لقاء العدو].



- ١٢ - وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس، وهذه إحدى روايتي أحمد، قال ابن القيم [الزاد]: (وهو الصواب الذي لا ريب فيه).
- ١٣ - إن في قول الرسول ﷺ لعثمان رضي الله عنه عندما رأى سخاء بذله: «ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم»، منقبة كبرى لعثمان رضي الله عنه، تضاف إلى مناقبه الأخرى الكثيرة، والتي أعظمها البشـرى له بالجنة.
- ١٤ - إن العاجز عن الجهاد والذي لا حرج عليه إذا تخلف عنه هو الذي يبذل جهده ويتحقق عجزه، كما في حالة الذين جاءوا يسألون الحملان فلم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه، فرجعوا ليكون لما فاتهم من شرف وأجر الجهاد.
- ١٥ - مشروعية استخلاف الإمام، إذا سافر، رجلاً من الرعية على الضعفاء والنساء والذرية، كما في حالة علي رضي الله عنه، ويكون نائبه من المجاهدين، وهي خلافة خاصة، أما الاستخلاف العام والخاص بالشؤون الأخرى فكان لمحمد بن مسلمة. [نفسه].
- ١٦ - لا يجوز شرب ماء آبار ثمود ولا الطبخ منه ولا العجن به، ولا الطهارة به، ويجوز أن يسقى منه البهائم، إلا ما كان من بئر الناقة، فيجوز الاستفادة من مائها في كل شيء. [نفسه].
- ١٧ - أقام النبي ﷺ عشرين يوماً يقصر الصلاة، ولم يقل للأمة: لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك، وهذه الإقامة في حال السفر لا تخرج عن حكم السفر، سواء طالت المدة أم قصرت إذا كان غير مستوطن ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع، وكان ذلك عمل بعض أئمة السلف، مثل سعد بن أبي وقاص وابن عمر وأنس ابن مالك وعبد الرحمن بن سُمرة، وهو الصواب كما قال ابن القيم [في الزاد].
- ١٨ - إن من مراتب الجهاد الأربعة: الجهاد بالقلب، كما في حال الذين حبسهم العذر، وقال عنهم الرسول ﷺ: «إن بالمدينة أقواماً... الحديث» والمرتب الأخرى:



اللسان، والمال، والبدن، كما في الحديث: جاهدوا المشركين بألسنتكم وقلوبكم وأموالكم» [أبو داود؛ أحمد، النسائي؛ الدارمي؛ الحاكم (صحيح)؛ ابن حبان].

١٩- جواز إحراق وهدم أمكنة المعصية، كما فعل الرسول ﷺ بمسجد الضَّرَار.

٢٠- جواز إخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره في طاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ، كما في رواية كعب لقصة تخلفه عن غزوة تبوك.

٢١- جواز مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير، إذا لم يكن ذلك على سبيل الفخر والترفع، كما فعل كعب رضي الله عنه.

٢٢- إن بيعة العقبة الكبرى كانت من أفضل مشاهد الصحابة رضي الله عنهم، حتى إن كعبًا رضي الله عنه كان لا يراها دون مشهد بدر.

٢٣- لا ينبغي للإمام أو المطاع أن يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور، بل يذكره ليراجع الطاعة ويتوب، كما فعل الرسول ﷺ عندما سأل عن كعب وغيره بتبوك.

٢٤- إن رسول الله ﷺ كان يقبل علانية من أظهر الإسلام من المنافقين، ويكل سريره إلى الله ﷻ، ويجري عليه حكم الظاهر، ولا يعاقبه بما لم يعلم من سره، كما فعل الرسول ﷺ مع الذين جاؤوه يعتذرون له عن تخلفهم.

٢٥- إن في سجود كعب حين سمع صوت المبشر دليلًا ظاهرًا على أن تلك كانت عادة الصحابة، وهو سجود الشكر عند حدوث النعم المتجددة، والنقم المندفعة، وقد سجد أبو بكر رضي الله عنه لما جاءه خبر مقتل مسيلمة الكذاب [البيهقي: السنن]، وسجد علي عندما وجد ذا الثدية أو المخذج مقتولًا في الخوارج [أحمد، صحيح] وهم في هذا يقتدون بالرسول ﷺ. فقد سجد رسول الله ﷺ عدة مرات لأحداث سارة، وقال أبو بكر: «كان رسول الله ﷺ إذا أتاه أمر يسره خرَّ لله ساجدًا» [أبو داود، صحيح؛ الترمذي، حسن؛



ابن ماجه، حسن]، ومن أمثلة ذلك سجوده عندما أتاه خبر إسلام همدان على يد علي بن أبي طالب عليه السلام. [البخاري].

٢٦- استحباب الصدقة عند التوبة بما قُدرَ عليه من المال، كما جاء في موقف كعب عليه السلام وحواره مع الرسول ﷺ عندما أراد التصديق بكل ماله، ولكن الرسول ﷺ استحَب له الثلث، فأمسك فقط سهمه الذي بخير. [أبو داود، صحيح].

٢٧- مشروعية أخذ الجزية من أهل الكتاب، وأنهم يحرزون بذلك دماءهم وأموالهم، فقد رأيت أن الروم اختفوا وتفرقوا خوفاً من مواجهة رسول الله ﷺ حينما وصل تبوك، وجاءه نصارى العرب فصالحوه على الجزية.

٢٨- إن موقف كعب عليه السلام من رسالة ملك غسان وتعليقه على طلبه، فيه صورة رائعة لما ينبغي أن يكون عليه إيمان المسلم بربه تعالى، وإن الابتلاء لا بد أن يكشف عن المزيد من الإيمان وشدة الإخلاص.

٢٩- لقد وطدت هذه الغزوة سلطان الإسلام في شمالي شبه الجزيرة العربية، ومهدت لفتوح الشام التي استعد لها الرسول ﷺ بإعداد جيش أسامة عليه السلام قبيل وفاته، فأنفذه أبو بكر، ثم أتبعه أبو بكر بجيوش الفتح الأخرى التي انساحت في بلاد الشام والعراق، وكانت بداية تحرير شعوب تلك المناطق من عبودية القيصرية والكسروية.



الفصل الرابع والعشرون الوفود

عندما افتتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت، قدمت إليه وفود العرب من كل وجه [ابن إسحاق]، حتى إن سنة تسع كانت تسمى سنة الوفود [ابن هشام]. وقد سبق القول إن أبرز نتائج فتح مكة أن أخذت قبائل العرب وأفرادها يبادرون بإسلامهم؛ لأنهم كانوا ينتظرون نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش. [انظر: نتائج فتح مكة].

وذكر البخاري وابن إسحاق والواقدي وابن سعد والبيهقي وفودًا تقدم تاريخ قدومهم على سنة تسع، بل وعلى فتح مكة [البداية]. وهو أمر ستره ظاهراً عند الوقوف على أخبار الوفود في المصادر المختلفة، ومن خلال تناولي لها في هذا الكتاب؛ على أن هؤلاء الأئمة الذين اعتنوا بإيراد الوفود لم يستقصوها جميعها، ولذا استدرك عليهم ابن كثير، وذكر ما أهملوه [نفسه]، مستفيداً في هذا من المصادر الأخرى التي ضاع معظمها، ولكن وجدت منها روايات ماثلة في كتب الذين جاؤوا من بعدهم. وقد تكلمنا عن هذا في المباحث الخاصة بمصادر السيرة.

وبلغ مجموع ما ذكره هؤلاء الأئمة ما يزيد على الستين وفدًا، وقد سردهم الشامي في سيرته، فزادوا على مائة، فلعل هؤلاء الأئمة اقتصروا على ذكر المشهور منهم أو الذين أتوا لترتيب مصالحتهم [الظاهري: وفود الإسلام]. وكان ابن سعد صاحب أكبر إسهام في إيراد أخبار تلك الوفود، ويعاب عليه وعلى شيخه الواقدي وابن إسحاق إهمال الإسناد إلا نادرًا، وحتى معظم هذه الأسانيد النادرة لا يخلو معظمها من مطعن من حيث ضعف الرجال أو الإرسال.



وسأشير في كتابي هذا إلى أسماء أبرز الوفود التي قدمت على الرسول ﷺ، دون الدخول في تفاصيل أخبارها، لأن ذلك مما يطول الكلام فيه، وقد أفرد لها أبو تراب الظاهري كتابًا مفيدًا. [نفسه]. وهاكها:

- ١- وفد مُزينة: قدموا على الرسول ﷺ في رجب سنة خمس [ابن سعد] وكان عددهم أربعمائة. وانظر خبرهم في المسند [حسن]. ففيه معجزة تكثير التمر.
- ٢- وفد بني تميم: ذكر البخاري قدوم هذا الوفد، كما حكى سورة الحجرات عنهم من تصرفات مجافية لأداب الاستئذان والمخاطبة، حيث آذوا الرسول ﷺ بصياحهم له من وراء حجراته، طالبن منه أن يخرج إليهم ليفاخروه، ولم يستأذنوا عليه. [البخاري]. وكان قدومهم على الرسول ﷺ في أول السنة التاسعة الهجرية [الدياربركي].
- ٣- وفد عبد القيس: ممن ذكر خبرهم البخاري ومسلم وغيرهما. وفيه خبر أشج عبد القيس وثناء الرسول ﷺ على حلمه.
- ٤- وفد بني حنيفة: روى البخاري من حديث ابن عباس أن مسيلمة الكذاب قدم على النبي ﷺ في بشر كثير من قومه بني حنيفة، فجعل يقول: «إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته»، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مُسَيْلَمَةَ في أصحابه، فقال: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها ولن تعدوا أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت في ما أريت، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني»، ثم انصرف عنه.
- وقد سأل ابن عباس أبا هريرة عن قوله ﷺ: «وإني لأراك الذي أريت في ما أريت»، فأخبره أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما، فأوحى إليّ في المنام، أن أنفخهما فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي، أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة».

واسم العنسي عَهْلَة أو عَيْهَلَة بن كعب، والعَنَسِيّ نسبة إلى قبيلة عنس - بطن من مذحج - ادعى النبوة في عهد النبي ﷺ، باليمن، وحاربه الذين ثبتوا على الإسلام باليمن وقتلوه هو وزوجته، وقضوا على فتنته قبل وصول جيوش الخليفة أبي بكر رضي الله عنه. وقد فصلنا القول في فتنته بكتابنا: (الثابتون على الإسلام).

٥- وفد نجران: ثبت في الصحيح أن العاقب والسيد صاحبي نجران جاءا إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعنا - أي يباهلانه -، فقال أحدهما لصاحبه: «لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا». وقالوا: «إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً». فقال: «لأبعثن رجلاً أميناً حق أمين»، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح». فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة». [متفق عليه]، فخرج معهم أبو عبيدة ليقضي بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه. [ابن إسحاق].

٦- وفد الأشعرين: ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى الأشعري أنه عندما بلغهم مخرج النبي ﷺ وهم باليمن خرجوا مهاجرين إليه ومعهم أخوان له، هو أصغرهم، أحدهما أبو بُردة والآخر أبو رهم، وهم في بضعة أو في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومه، فركبوا سفينة، فألقتهم إلى النجاشي بالحبشة، ووافقوا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فطلب منهم جعفر أن يقيموا معهم لأن رسول الله ﷺ بعثهم إلى هاهنا وأمرهم بالإقامة، فأقاموا معه، حتى قدموا جميعاً، فوافقوا النبي ﷺ حين افتتح خير، فأسهم لهم. [متفق عليه].

٧- وفد الحميريين من أهل اليمن: وهؤلاء الحميريون هم الذين جاء ذكرهم في الصحيح، وذلك عندما جاءت بنو تميم إلى الرسول ﷺ فقال: «أبشروا يا بني تميم»، فقالوا: «أما إذا بشرتنا فأعطنا». فتغير وجه رسول الله ﷺ، فجاء ناس من أهل اليمن، فقال النبي ﷺ: «اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم»، قالوا: «قد قبلنا يا رسول الله». [البخاري].



وكان ذلك في العام التاسع، عام الوفود. [ابن حجر: الفتح].

٨- وفد طيء: قدموا على رسول الله ﷺ، وفيهم زيد الخيل، الذي سمّاه الرسول ﷺ زيد الخير، وهو سيدهم، فأسلموا وحسن إسلامهم، وأقطع الرسول ﷺ زيداً أرضاً، وكتب له كتاباً بذلك، ومات بالحمى في طريق عودته. ولما مات أحرقت زوجته ما كان معه من كتب لجهلها. [ابن إسحاق، ابن سعد].

٩- وفد بني عامر: ثبت في الصحيح أن عامر بن الطفيل أتى النبي ﷺ فقال: أخيرك بين خصال ثلاث: «يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان، بألف أشقر وألف شقراء»، فطعن في بيت امرأة، فقال: «أغدة كغدة البعير، في بيت امرأة من آل بني فلان، اثنتوني بفرسي»، فركب، فمات على فرسه. [البخاري].

وروى الطبراني في الكبير [كما في تاريخ وتفسير ابن كثير] تأمر ابن الطفيل وإريد على قتل النبي ﷺ، وكانت خطتهما أن يشغل ابن الطفيل الرسول ﷺ بالحديث فيضربه إريد فيقتله، فلا تكون إلا الدية، لأن الناس ستكره الحرب، ولكن الله ﷻ عصمه منهما، إذ لم يستطع إريد أن يفعل شيئاً، وأهلك الله عامراً بالغدة وإريداً بالصاعقة، فأنزل الله فيهما: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد: ٨] - إلى قوله - ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني محمداً، و﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ [الرعد: ١٣].

١٠- وفد جذام: قدم رفاعة بن زيد الجذامي في عشرة من قومه على رسول الله ﷺ في زمن هدنة الحديبية وقبل خيبر، فأسلم وحسن إسلامه، وأهدى لرسول الله ﷺ غلاماً، وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً وبعثه إلى قومه، فدعاهم إلى الإسلام، فأسلموا. [ابن إسحاق، يتقوى بغيره].



١١ - وافد دوس - الطفيل بن عمرو - وقصته: روى ابن إسحاق من حديث

الطفيل بن عمرو الدوسي أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، لأنه كان رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، وأرادوا أن يصرفوه عن الاستماع إلى الرسول ﷺ وحاولوا إقناعه بشتى الحجج حتى أجمع ألا يسمع من الرسول ﷺ، وحشا أذنيه قطناً ثم أتى المسجد، وأقام قريباً من الرسول ﷺ وأبى الله إلا أن يسمع منه بعض قوله، فسمع كلاماً حسناً ثم قال في نفسه إنه ما دام رجلاً لبيباً شاعراً ما يخفى عليه الحسن من القبيح فلماذا لا يسمع من الرسول ﷺ. فمكث حتى انصرف الرسول ﷺ إلى بيته فجاءه وحكى له ما حدث من قريش، وسمع منه، فأعجبه ما قال فأسلم، وطلب أن يدعو الرسول ﷺ الله ليجعل له آية تكون عوناً له على دعوة قومه. فكان أن جعل الله له نوراً في رأس سوطه. وعندما عاد كان أول من أسلم على يديه والده وأمه، وأبطأت عليه دوس، فعاد إلى الرسول ﷺ وطلب منه أن يدعو الله عليهم، ولكن الرسول ﷺ قال: «اللهم اهد دوساً، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم». فرجع وأخذ يدعو إلى الإسلام إلى ما بعد غزوة الخندق، ثم قدم بمن أسلم من قومه على رسول الله ﷺ وهو بخير، وهم نحو سبعين أو ثمانين بيتاً من دوس، ثم لحقوا برسول الله ﷺ بخير فأسهم لهم مع المسلمين [سبق ذكر القصة]، فلم يزل مع الرسول ﷺ حتى إذا فتح مكة طلب أن يبعثه إلى ذي الكفين، صنم عمرو بن حممة، فأحرقه. [سبق ذكرها].

أما حديث الرسول ﷺ: «اللهم اهد دوساً...» فأصله في الصحيح من رواية البخاري ومسلم. ومما يثبت أن الطفيل قد قدم على الرسول ﷺ وهو بمكة ما رواه مسلم من حديث جابر أن الطفيل أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله! هل لك في حصن حصين ومنعة؟ حصن كان لدوس في الجاهلية - فأبى ذلك النبي ﷺ للذي ذخر الله للأنصار. فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، هاجر إليه الطفيل وهاجر معه رجل من قومه...» الحديث.



١٢ - قدوم جرير بن عبد الله البجلي: كان رسول الله ﷺ يخطب في المسجد عندما دخل جرير المدينة، وذكره الرسول ﷺ في خطبته قبل أن يدخل عليهم المسجد، فقال: «يدخل عليكم من هذا الباب - أو من هذا الفج - من خير ذي يمن، إلا أن على وجهه مسحة ملك». [أحمد والطبراني برجال ثقات؛ الطيالسي، صحيح]. فأسلم على يدي الرسول ﷺ وبأيعه [متفق عليه]. وأكرمه الرسول ﷺ بأن ألبسه حلته، وقال: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». [البيهقي، الدلائل].

والظاهر أن إسلامه كان متأخرًا عن الفتح، فإن الإمام أحمد روى عنه قوله: «أسلمت بعدما أنزلت المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعدما أسلمت». [البداية، من رواية أحمد].

وذكر ابن سعد أن إسلامه وإسلام من كان معه في الوفد وعددهم مائة وخمسون رجلًا [البخاري]، كان في العام العاشر، في رمضان.

١٣ - وفد ثقيف: أرسلت ثقيف وفدًا إلى رسول الله ﷺ في رمضان من العام التاسع بعد عودة الرسول ﷺ من تبوك، برئاسة عبد ياليل بن عمرو ومعه ثلاثة من بني مالك واثنان من الأحلاف، فأعلنوا إسلامهم وإسلام قومهم، وطلبوا من الرسول ﷺ تأخير هدم صنمهم اللات لمدة ثلاث سنين، مخافة غضب قومهم، فرفض ذلك الطلب، وما زالوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم، حتى سألوا شهرًا واحدًا، فأبى أن يدعها شيئًا مسمى كما يروي ابن إسحاق، ولكنه أعفاهم من القيام بذلك، وأوكل أمر ذلك إلى أبي سفيان والمغيرة بن شعبة، وطلبوا إعفاءهم من الصلاة بحجة عدم استساغتهم الركوع والسجود، فأبى عليهم ذلك قائلًا: «لا خير في دين لا صلاة فيه». [ابن إسحاق]. واشتروا إعفاءهم من الزكاة والجهاد، فوافقهم على ذلك، وهو يقول: «سيتصدقون



ويجاهدون إذا أسلموا» [أبو داود، حسن]. وسألوه أن يعفيهم من الوضوء بحجة أن بلادهم باردة، وأن يتبذوا في القرع، وأن يعيد إليهم أبا بكره الثقفي، فأبى عليهم هذا كله. [أحمد، صحيح].

وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان أصغرهم، لكنه كان أحرصهم على تعلم القرآن والتفقه في الدين. [مسلم؛ أحمد؛ ابن ماجه].

١٤ - وافد فزوة بن عمرو الجذامي - صاحب بلاد مَعَان: قدم على رسول الله ﷺ مسعود بن سعد وافداً من قبل فزوة بن عمرو الجذامي، عامل الروم على معان. وبعث معه فزوة هدايا، منها بغلة بيضاء وفرس وحمار، وكتب إليه الرسول ﷺ يبلغه وصول رسوله بخبر إسلامه، وأهدى إليه هدايا. وعندما بلغ ملك الروم خبر إسلام فزوة أرسل إليه وأمره بالرجوع عن الإسلام، فرفض فزوة، فحبسه ثم صلبه وضرب عنقه. [ابن إسحاق، ابن سعد].

١٥ - وفد بني أسد: ذكر ابن سعد أنهم قدموا في أول السنة التاسعة، وكانوا عشرة، منهم ضَرَار بن الأزور، ووابِصَة بن معبد، وطَلِيحَة بن خويلد الأسدي. وقال رئيسهم - حَضَرَمِي بن عامر -: «يا رسول الله! أتيناك نتردع الليل البهيم في سنة شهباء، ولم تبعث إلينا بعثاً»، فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وروى البزار [ابن كثير: التفسير، صحيح] بإسناده إلى ابن عباس، قال: «جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك». فقال رسول الله ﷺ: «إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطلق على ألسنتهم»، ونزلت هذه الآية: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ الآية.



ومن بين الوفود التي قدمت على رسول الله ﷺ غير ما ذكرنا:

جُعْفِيّ، زُبَيْد، الصَّدَف، خشبين، سَعْدُ هَذِيم، بَلِيّ، عذرة، سَلَامَان، بَهْرَاء، جهينة، كلب، جرم، غسان، سعد العشيرة، عنس، الرهاويين من مذحج، غامد، النخع، أزد عمان، خثعم، غافق، بارق، ثماله والحدان، أسلم، جذام، مهرة، جيشان، جماعة جبل تهامة، وكانوا جماعة من العبيد من كنانة ومزينة والحكم والقارة ومن اتبعهم، غصبوا المارة، وكتب إليهم الرسول ﷺ كتاباً أمنهم فيه، وقال فيه: «فعبدهم حر ومولاهم محمد، ومن كان منهم من قبيلة لم يرد إليها...»، مذحج، بني نهدي من غور تهامة، بني نمير، السباع، الجن، الذين قدموا عليه بمكة، هوازن، الذي قدم على الرسول ﷺ بالجرعانة حين منصرفه عن الطائف، ثعلبة، أسيد بن أبي أناس، وفد جاء النبي ﷺ تائباً بعد أن أهدر النبي ﷺ دمه، بني سحيم، بني سدوس، أبي صفرة، عَزَّة، وفيهم سلمة بن سعد، وقال عنهم رسول الله ﷺ ذات يوم: «... حي ههنا مبغني عليهم منصورون»، ربيعة بن رواء العنسي، وفادة قيس بن عاصم، نصارى الحبشة، وقد قدموا إليه وهو بمكة، وكانوا عشرين رجلاً أو قريباً من ذلك: بني سعد بن بكر، وفادة فروة بن مسيك المزدي، كندة، زبيد، الأزد، وافد ملوك حمير، وافد حضرموت، بني المنتف، صاء، وافد بكر، وفادة تميم الداري، بني قشير، بني الحارث بن كعب، وفادتا همدان، وفادة الحكم بن حزن الكلبي التميمي، عبس، بني فزارة، بني مرة، بني ثعلبة، بني كلاب، بني عقيل بن كعب، جعدة، بني البكاء، وافد كنانة، بني عبد بن عدي، أشجع، بني سليم، بني هلال بن عامر، بني بكر بن وائل، تغلب، بني العنر، تجيب، خولان.

وهكذا يصل عدد هذه الوفود قرابة المئة، ذكر معظمهم ابن سعد في الطبقات. وقد حذفنا الإشارة إلى المصادر والحكم على الأسانيد من باب الاختصار، ولمن يريد ما اختصرناه فليرجع إلى الكتاب المطول. فقد وقفنا عند (٥٣) وفداً.

• أحكام وعبر وفوائد من أخبار الوفود:

١- إن في أخبار وفود هذه القبائل على الرسول ﷺ لدليلاً واضحاً على مدى انتشار الإسلام في الجزيرة العربية في حياة الرسول ﷺ، وتوحيد الجزيرة العربية تحت راية واحدة هي راية الإسلام والدولة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٢- إن في تدفق هذه الوفود على المدينة لدليلاً على وفاء الله ﷻ بوعده النصر الذي وعده نبيه.

٣- إن من حسن السياسة وأدب الإسلام وأخلاقه احترام ممثلي الشعوب أو القبائل وإكرامهم، وذلك بدليل ما كان يفعله الرسول ﷺ مع الوفود من الضيافة وحسن الاستقبال وإجزال العطاء.

٤- جواز إنزال المشرك في المسجد إذا كان يرجى إسلامه وهدايته، فقد علمنا أن النبي ﷺ كان يستقبل وفد ثقيف في مسجده لمحدثهم وتعليمهم، وإذا كان هذا جائزاً للمشرك، فجوازه للكتابي أولى. وقد استقبل النبي ﷺ وفد نصارى نجران بالمسجد. قال الزركشي: (واعلم أن الرافي والنوي -رحمهما الله- أطلقا أنه يجوز للكافر أن يدخل المساجد غير الحرم بإذن المسلم، بقيود:

أولها: أن لا يكون قد شرط عليه في عقد الذمة عدم الدخول.

ثانيها: أن يكون المسلم الذي أذن له مكلفاً، كامل الأهلية.

ثالثها: أن يكون دخوله لسماع القرآن أو علم ورجي إسلامه، أو دخل

لإصلاح بنيان ونحوه).





الفصل الخامس والعشرون الأحداث والسرايا والبعوث بين تبوك والوفاة

• المبحث الأول: حجة أبي بكر رضي الله عنه

• أَمَرَ الرسول ﷺ أبا بكر رضي الله عنه على الحج في العام التاسع الهجري، فخرج في ذي الحجة إلى مكة [متفق عليه]، ومعه ثلاثمئة من الصحابة. [ابن سعد].

وعندما فَصَلَ رَكْبُ الْحِجَاجِ عن المدينة نزلت سورة براءة، فبعث النبي ﷺ عليًا بن أبي طالب بصدرها ليعلمها على الناس في يوم النحر بمنى، وقال: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي». [ابن إسحاق، مسل حسن].

وعندما رأى أبو بكر عليًا قال له: «أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور»، ثم مضيا [ابن إسحاق، حسن مرسل]. وكان رهط من الصحابة، منهم أبو هريرة، يساعد عليًا في النداء بآيات براءة المطلوب تبليغها للناس، ويعلنون في الناس أمر الرسول ﷺ: «أن لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو أمدّه إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج البيت بعد العام مشرك». [متفق عليه].

وقد ذكر الإمام البغوي [في التفسير] قول العلماء في سبب بعث النبي ﷺ عليًا ليقراً صدر سورة براءة على الناس في الحج ويعلمهم بأمر الرسول ﷺ في ذلك، هو أن العرب تعارفوا فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيدهم أو رجل من رهطه، فبعث عليًا دفعًا للعلة ولئلا يقولوا: هذا خلاف ما نعرفه فينا في إلغاء العهد.



• المبحث الثاني: بعث أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رحمهما الله إلى اليمن

• بعث رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل إلى اليمن، كل منهما على جهة، وأوصاهما قائلاً: «يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا، وتطاوعا» [متفق عليه]، وقال لمعاذ: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات، في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب». [البخاري وبقية الجماعة].

وعندما خرج معاذ، خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: «يا معاذ، عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري»، فبكى معاذ جزعاً لفراق رسول الله ﷺ، وفي لفظ، فقال النبي ﷺ: «لا تبك يا معاذ، للبكاء أوان، إن البكاء من الشيطان»، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة، فقال: «إن أولى بي المتقون من كانوا وحيث كانوا» [أحمد، جيد]، وبين له أنصبة الزكاة. [الترمذي، حسن؛ وغيره].

وقال الرسول ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟» قال: «أقضي بما في كتاب الله»، قال: «فإن لم يكن في كتاب الله؟»، قال: «فبسنة رسول الله ﷺ»، قال: «فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ؟» قال: «اجتهد وإني لا آلو»، فضرب رسول الله ﷺ صدره ثم قال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله ﷺ». [أبو داود؛ الترمذي، والراجح صحته].



● المبحث الثالث: بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما إلى اليمن

● بعث الرسول ﷺ خالدًا بن الوليد إلى اليمن، ثم بعث عليًا بعد ذلك مكانه. وكان من ضمن مهامه أن يقبض الخمس. وعندما أخبر النبي ﷺ عليًا بما يريد قال علي: «يا رسول الله، إنك تبعثني إلى قوم هم أسن مني لأقضي بينهم»، فقال النبي ﷺ: «اذهب، فإن الله تعالى سيثبت لسانك ويهدي قلبك» [أبو داود، أحمد، صحيح]، ثم أوصاه قائلاً: «إذا تقدم إليك خصمان فلا تسمع كلام الأول حتى تسمع كلام الآخر، فسوف ترى كيف تقضي، فقال علي: فما زلت بعد ذلك قاضيًا» [أحمد، صحيح].

ثم قال النبي ﷺ لعلي: «مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يُعَقَّبَ معك فَلْيُعَقَّبْ، ومن شاء فَلْيُقْبَلْ» [البخاري]، ومكث علي ومن معه باليمن إلى أن قدم حاجًا إلى مكة فوافى النبي ﷺ في حجة الوداع. [متفق عليه].

وقد ضرب علي رضي الله عنه أروع الأمثلة في أداء الأمانة التي أنيطت به، ومن أمثلة ذلك أن أصحابه عندما طلبوا منه أن يركبوا من إبل الصدقة وَيُرِيحُوا إبلهم بحجة أن إبائهم خللاً وضعفًا، أبى عليهم ذلك، وقال: «إنما لكم منها سهم كما للمسلمين». وعندما ذهب إلى الحج سأل أصحابه خليفته ما كان علي منعهم إياه، فوافق على ذلك، فلما جاء علي عرف أن الإبل قد ركبت، فذم خليفته ولومه، وعد بعض أصحاب علي ذلك منه غلظة وتضييقًا، فشكاه أبو سعيد الخدري إلى النبي ﷺ، فوافق الرسول ﷺ على هذا المسلك من علي، فندم الخدري على شكواه، وقال: «... والله لا أذكره بسوء أبدًا سرًا ولا علانية» [البيهقي: الدلائل، جيد]، وعندما اشتكى الجند عليًا بحجة اشتداده في معاملتهم، قال: «أيها الناس، لا تشكوا عليًا فوالله إنه لأخشن في ذات الله، أو في سبيل الله، من أن يشكى» [ابن إسحاق، حسن]، وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه» [أحمد، جيد]، وفي



رواية: «فمن كنت مولاه فإن عليًا مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» [النسائي، صحيح]، وكان ذلك عندما استرجع عليٌ حلاً وزعها عليهم نائبه، فاشتكوه، فقام الرسول ﷺ خطيباً في الناس في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة بغدير خُم حين منصرفه من الحج، وقال كلاماً فيه ثناء عليه.

[وللعلماء وقفات عند هذه الخطبة، بينوا ما ألحق بها من زيادات أراد واضعوها أن يثبتوا الوصية لـعلي عليه السلام في الخلافة بعد النبي ﷺ].

لقد نجح علي عليه السلام في المهمة التي لم ينجح فيها خالد بن الوليد. فقد أقام خالد ستة أشهر يدعو الناس إلى الإسلام فلم يجيبوه، وعندما قدم علي إلى اليمن ودعا همدان إلى الإسلام أجابوه جميعاً، فكتب علي إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجداً ثم رفع رأسه، فقال: «السلام على همدان، السلام على همدان». [البيهقي: الدلائل، وأصله في البخاري].

● المبحث الرابع: سرية جرير بن عبد الله البجلي عليه السلام إلى ذي الخَلَصَة

● كان لخنعم وبجيلة بيت في الجاهلية يقال له (ذو الخَلَصَة) و(الكعبة اليمانية) و(الكعبة الشامية). فعندما قدم جرير بن عبد الله البجلي في وفد قومه إلى الرسول ﷺ بالمدينة قال له الرسول: «ألا تريحني من ذي الخَلَصَة؟». فشكا إليه جرير أنه لا يثبت على الخيل، فضرب ﷺ بيده على صدره، وقال: «اللهم ثبته، واجعله هاديًا مهديًا». فنفر جرير في مائة وخمسين راكبًا فكسروه وقتلوا من عنده، وأرسل جرير أبا أرطأة حصين بن ربيعة الأحمسي بالخبر إلى النبي ﷺ، فدعا لهم عامة ولأحس، إخوة بجيلة - رهط جرير - بصفة خاصة. [متفق عليه].



فوائد من هذه السرية:

- ١- إن في خبر هذه السرية ما يدل على مشروعية إزالة ما يفتن الناس من بناء وغيره. [ابن حجر: الفتح].
- ٢- ينبغي لأهل الخير أن يدعو بالثبات لمن لا يثبت على الخيل [نفسه]، أو غيرها من وسائل الجهاد، مثل استخدام الصواريخ وما يشبهها من أدوات الحرب في زماننا هذا أو غيره.
- ٣- وفيه إشارة إلى فضيلة ركوب الخيل والثبات عليها [نفسه]. ويمكن أن يقاس على ذلك فضيلة ركوب الدبابة والطائرة وغيرهما من وسائل الحرب في زماننا هذا.
- ٤- استمالة نفوس القوم بتأثير من هو منهم، وقد فعل الرسول ﷺ ذلك كثيراً، وكذلك الاستمالة بالدعاء والثناء والبخشة في الفتوح. [البداية].

• المبحث الخامس: حجة الوداع

- ذكروا أن الله تعالى فرض الحج في العام العاشر أو التاسع أو السادس، وقبل الهجرة، وهو غريب. وجزم ابن القيم بأن فرضه كان في العام العاشر لقوة الأدلة على ذلك، وهو اللائق بهديه في عدم تأخير ما هو فرض، لأن الله يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقد نزلت عام الوفود، أو آخر سنة تسع.
- ولم يحج الرسول ﷺ من المدينة غير حجته التي كانت في العام العاشر، وعرفت هذه الحجة بحجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع، لأنه عليه الصلاة والسلام ودع الناس فيها ولم يحج بعدها، وحجة البلاغ، لأنه ﷺ بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وعملاً، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه، فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه أنزل الله عليه وهو واقف بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. [البخاري؛ البداية]



وعندما أعلن الرسول ﷺ عزمه على الحج في العام العاشر، قدم المدينة بشرك كثير، كلهم يلتبس أن يأتهم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله. [مسلم].

وخرج من المدينة خمس بقين من ذي القعدة [ابن إسحاق، حسن]، ووقعت له في مسيره هذا ورجوعه أحداث كثيرة [البداية]، مكانها أبواب الحج من كتب فقه العبادات، وقد أفرد لها العلماء قديماً وحديثاً كتباً خاصة، تناولوا ما جاء فيها من مناسك الحج وأحكامه، ووصايا الرسول ﷺ للأمة. ومن أشهر خطبه في هذه الحجة تلك الخطبة التي ألقاها في وسط أيام التشريق، ومما قاله فيها: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي هاتين موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث - (كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل) - وربما الجاهلية موضوعة، وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوعة كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعد إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك، وأديت، ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك، فقال اللهم اشهد» - ثلاث مرات. [مسلم].

وقال ﷺ في خطبة خلال تلك الحجة: «...ويلكم أو يحكم انظروا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» [متفق عليه]، وقال: «...إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاورون من



أعمالكم، فاحذروا أيها الناس، إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا: كتاب الله، وسنة نبيه، إن كل مسلم أخو المسلم، المسلمون إخوة، ولا يحل لامرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه من طيب نفس...». [الترمذي، حسن؛ ابن ماجه، أحمد، صحيح؛ الحاكم، صحيح؛ دلائل البيهقي].

فائدة: روي أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع: «ذهبت لقبر أُمِّي، فسألت الله أن يحييها لي، فأحيها، فأمنت بي». ضعف العلماء هذا الحديث كما جاء في تحقيق (حدائق الأنوار) [المحمد بن بحرق].

قلت: وصح أنه زار قبر أمه وقال: «استأذنت ربي أن أزور قبرها فأذن لي، فاستأذنته أن استغفر لها فلم يأذن لي». [مسلم].

● المبحث السادس: أحكام ومبادئ وعبر من حجة الوداع

١- أراد الرسول ﷺ أن يتعلم الناس منه كيفية أداء الركن الخامس من أركان الإسلام، الحج، بعد أن حرم التقاليد الجاهلية المتوارثة أيام الحج من تصدية وصفير وعري أثناء الطواف، وقضى على الأوثان وطهر البيت الحرام منها.

٢- وأراد أن يلتقي في هذه الحجة بالمسلمين الذين تقاطروا إليه من كل حذب وصوب، ويلخص لهم تعاليم الإسلام ونظامه في كلمات جامعة مختصرة، ويحملهم أمانة تبليغها إلى من لم تبلغه من البشر في كل أصقاع الدنيا في الحاضر والمستقبل، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ويؤدي فريضة الحج ليعين للناس عمليًا هذا الركن الخامس من أركان الإسلام. ولذا فقد تضمنت خطبه ﷺ في هذه الحجة لكل أحكام الحج، وأوصى الأمة بأهم مبادئ الإسلام وأساسه.

وأهم حديث وردت فيه أحكام حجة النبي ﷺ ووصاياه فيها، هو حديث جابر، الذي رواه مسلم، وقال عنه النووي [مسلم]: (وهو حديث عظيم ومشمول على جمل

من الفوائد، ونفائس من مهمات القواعد، وهو من أفراد مسلم؛ لم يروه البخاري في صحيحه، ورواه أبو داود كرواية مسلم. قال القاضي -عياض- وقد تكلم الناس على ما فيه من الفقه وأكثروا، وصنف فيه أبو بكر ابن المنذر جزءاً كبيراً، وخرج فيه من الفقه مائة ونيّفًا وخمسين نوعاً، ولو تقصّى لزيد على هذا القدر قريب منه...).

أما أهم وأبرز المبادئ التي أكدها الرسول ﷺ وأوصى أمته بها، فهي:

- ١- الإعلان عن حقوق المسلم، وأنه محرم الدم والمال والعرض. [مسلم].
 - ٢- الإعلان عن تحريم الظلم والربا، وكل عادات الجاهلية الضارة. [نفسه].
 - ٣- الإعلان عن حقوق النساء، والأمر بالاعتراف بها وأدائها، وكذا حقوق الزوج على زوجته. [نفسه؛ الترمذي، حسن].
 - ٤- تحريم الوصية للوارث، وتقرير قانون التوارث كما في القرآن الكريم. [عبد الرزاق؛ أحمد].
 - ٥- حرمة التبني والانتساب لغير الأب أو تولى غير الموالي، رغبة عنهم. [نفسه؛ أبو داود؛ ابن ماجه].
 - ٦- تقرير أن الولد ينسب إلى من ولد على فراشه، وأن العاهر لا حق له فيه وإنما له الرجم بالحجارة إذا اعترف بالزنى. [نفسها].
 - ٧- أخبرهم أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله تعالى. [ابن حبان]. وطلب ممن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. [أحمد؛ البزار].
 - ٨- حذر من الكذب عليه، فقال: «من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار».
- [ابن ماجه، صحيح؛ أحمد].

- ٩- وأوصاهم بالاعتصام بالكتاب والسنة، فقال: وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده، إن اعتصمتم به: كتاب الله، وسنة نبيه. [مسلم].
- ١٠- وأوصاهم بأن المؤمنين إخوة، وأنه لا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه. [مسلم].
- ١١- أمر بالسمع والطاعة لولاة الأمر مهما كان جنسهم أو لونهم أو وضعهم الاجتماعي، ما داموا يقيمون فيهم كتاب الله ﷺ. [الترمذي، حسن].
- ١٢- قرر أن التفاضل بين الناس يكون بالتقوى وليس بأي اعتبار آخر. [الطبراني، المجمع].
- ١٣- الوصية بالأرقاء. [أحمد، صحيح؛ البغوي، صحيح].
- ١٤- وأوصاهم بأن ثلاثاً لا يغفل عليهن قلب المسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين.

● المبحث السابع: سرية أسامة بن زيد رضي الله عنه إلى الشام

● رجع النبي ﷺ من حجة الوداع في أواخر ذي الحجة من العام العاشر، وفي أواخر صفر من العام الحادي عشر ندب الناس لغزو الروم بالبلقاء وفلسطين، وفيهم كبار المهاجرين والأنصار. [ابن حجر: الفتح، الواقدي]، ودعا ﷺ أسامة بن زيد، فأمره على هذا الجيش. فطعن بعض الناس في إمارته، فقام ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وإيّم الله إن كان خَلِيقًا للإمارة وإن كان لَمْ أَحَبَّ الناس إِلَيَّ بَعْدَهُ». [البخاري].



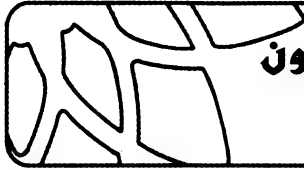
وكان سبب طعن بعض الناس في إمارة أسامة لكونه صغير السن، إذ كان ابن ثمان عشرة سنة. [ابن إسحاق، حسن].

ومرض رسول الله ﷺ بعد البدء بتجهيز هذا الجيش بيومين ولذا لم يتحرك هذا الجيش، وظل معسكرًا بالجُرف، ورجع إلى المدينة بعد وفاة الرسول ﷺ، ثم أنفذه أبو بكر رضي الله عنه عندما استخلف، وكانت عدته ثلاثة آلاف. [ابن إسحاق، مرسل حسن].

عضات وعبر:

١ - بيان فضل أسامة بن زيد وأبيه زيد رضي الله عنه ومكانتهما عند الرسول ﷺ فلا صغر السن ولا الرق القديم الذي وقع على أبيه زيد منع رسول الله ﷺ من أن يجعله أميرًا على جيش فيه عامة الصحابة في غزوة كبرى. وهكذا حطمت شريعة الإسلام قيم الجاهلية ومقاييسها التي كانوا يتفاضلون بها.





الفصل السادس والعشرون المرض والوفاة

اشتكى رسول الله ﷺ بعد عودته من حجة الوداع في ليال بقين من صفر، أو في أول شهر ربيع الأول من العام الحادي عشر الهجري. [ابن إسحاق].

وطلب يومئذ من مولاه أبي مويبة أن يصحبه في جوف الليل إلى البقيع، لأنه أمر أن يستغفر لأهل البقيع، وعندما وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى»، ثم أقبل على أبي مويبة قائلاً: «يا أبا مويبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة». فقال أبو مويبة: «بأبي أنت وأمي، خذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة»، فقال رسول الله ﷺ: «لا والله يا أبا مويبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة»، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف. [ابن إسحاق، حسن]. إلى بيت عائشة، وتنام به وجعه وهو يدور على نسائه حتى اشتد به وجعه في بيت ميمونة. [ابن إسحاق، حسن]، فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها. [البخاري؛ ابن إسحاق، حسن]، واستغرق مرضه عشرة أيام. [الفتح: دلائل البيهقي صحيح]، ثم توفاه الله يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول. [نفسه]. وقد تم له من العمر ثلاثة وستون عامًا. [البخاري؛ أحمد، صحيح].

وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ بالمعوذتين والأدعية الكثيرة التي حفظتها من رسول الله ﷺ، وتنثبذ ذلك على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة. [متفق عليه].



ويوم زادت درجة حرارة جسمه، طلب أن يصبوا عليه سبع قرب من ماء حتى يخرج للناس فيعهد إليهم، ففعلوا، حتى طفق يقول: «حسبكم حسبكم»، وعند ذلك أحس بخفة، فعصب رأسه ثم قام فدخل المسجد وجلس على المنبر، وخطب الناس قائلاً: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». وفي رواية: «قاتل الله اليهود والنصارى...». [متفق عليه]، وقال: «لا تتخذوا قبوري وثناً يعبد». [الموطأ]. وكانت هذه الوصية الخاصة بعدم اتخاذ القبور مساجد قبل أن يموت بخمس.

وعرض نفسه للقصاص قائلاً: «من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه» - أي يقتص -، ثم نزل فصلى الظهر، ثم عاد لمنبره لمواصلة حديثه في الحقوق وغيرها، فقال رجل: «إن لي عندك ثلاثة دراهم»، فقال: «أعطه يا فضل». وقال آخر إنه غل ثلاثة دراهم، فقال: «خذها يا فضل». [البیهقي: الدلائل].

ثم أوصى الناس بالأنصار، قائلاً: «أوصيكم بالأنصار، فإنهم كُرِّهِي وَعَيْبَتِي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من مُحْسِنِهِمْ، وتجاوزوا عن مُسِيئِهِمْ». وقال في رواية أخرى: «إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالمالح في الطعام، فمن ولي منكم أمرًا يضر فيه أحدًا أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئتهم». [متفق عليه].

ثم قال في آخر خطبة له: «إن عبدًا خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله، فاختار ما عند الله»، قال الراوي: «فبكى أبو بكر رضي الله عنه فعجبوا لبكائه، فكان المخير رسول الله ﷺ وكان أبو بكر أعلمهم بذلك»، فقال النبي ﷺ: «لا تبك يا أبا بكر، إن آمن الناس علي في صحبتته وماله أبو بكر، لو كنت متخذًا خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر». [متفق عليه].



وعندما حضرته الوفاة واشتد به الوجع، وذلك يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام، قال للصحابة الذين كانوا حوله بالمنزل، وفيهم عمر: «هلموا اكتب إليكم كتابًا لن تضلوا بعده»، فقال عمر: «قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله»، فاختلفوا، فممنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ، وممنهم من يقول ما قال عمر. فلما أكثروا اللغط والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: «قوموا عني». [البخاري].

وأوصى في ذلك اليوم بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، ونسي الراوي الوصية الثالثة، ولعلها عامة وصيته حين حضره الموت وهي: «الصلاة وما ملكت أيمانكم». [أحمد، صحيح]، وفي لفظ: «الله الله، الصلاة وما ملكت أيمانكم»، كان يتكلم به وما يكاد يفيض. [ابن ماجه، صحيح؛ الذهبي: السيرة، صحيح]، وفي رواية أحمد: حتى جعل يُعْرِغُ بها صدره، وما يكاد يفيض بها لِسَانُهُ.

وقبل الوفاة بثلاث أوصى قائلاً: «أحسنوا الظن بالله ﷻ». [الذهبي: السيرة، صحيح]، ثم أخذ يثقله المرض ويمنعه من الخروج للصلاة بالناس فقال: «مروا أبا بكر أن يصلي بالناس»، فقالت عائشة: «يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف - أي رقيق - وإنه متى ما يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر»، فقال: «مروا أبا بكر أن يصلي»، فقالت عائشة لحفصة: «قولي له إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى... فقال ﷺ: «إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر أن يصلي بالناس...» ولما لم يكن أبو بكر موجودًا في تلك اللحظات، دعا عبد الله بن زمعة عمر ليصلي بالناس، فعندما سمع الرسول ﷺ صوته، قال: «يأبى الله ذلك والمسلمون - مرتين -» فبعث إلى أبي بكر، فجاء فصلى بالناس. [أحمد، صحيح؛ الحاكم، صحيح].



وظل أبو بكر يصلي بالناس تلك الأيام، وفي أحدها وجد رسول الله ﷺ من نفسه خفة فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، وعندما رآه أراد أن يتأخر، فأوماً إليه أن لا يتأخر، فأجلسه بجانبه، فجعل أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة رسول الله ﷺ والناس يصلون بصلاة أبي بكر. [متفق عليه].

وقبل يوم من وفاته، أعتق غلمانه. [ابن سعد، يعتضد، شاهده البخاري]، وتصدق بدنانير - ما بين التسعة والسبعة - كانت عنده. [ابن سعد، يتقوى]، وقال: «لا نورث ما تركنا صدقة...». [البخاري]، وفي رواية: «لا يقتسم ورثتي ديناراً، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة». [نفسه]، ولذا لم يترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة. [البخاري].

واستعارت عائشة رض عنها في الليل الزيت للمصباح من جارتها. [ابن رجب: مجالس من سيرة النبي ﷺ]، وكانت درعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشعير. ولعل باقي هذه الثلاثين صاعاً هو ما ذكرته عائشة رض عنها في قولها: «لقد توفي النبي ﷺ وما في رفي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رفي، فأكلت منه حتى طال علي فأكلته ففني». [متفق عليه]. ولم تشر الروايات إلى ما تبقى من الثلاثين صاعاً في بيوت زوجاته الأخريات. وكانت الأشياء مثل البغلة والحربة والكسوة والسلاح والسريير وقفاً يتجمل به الأئمة المسلمون بعده ويتبركون به كما كان يتجمل به، وكان ذلك في أيدي الأئمة واحداً بعد واحد. [حماد بن إسحاق: تركة النبي ﷺ].

وفي اليوم الذي مات فيه، فاجأ الرسول ﷺ المسلمين بكشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم يصلون الصبح، ثم تبسم، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف،



ظناً منه أن الرسول ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر. [البخاري].

وعند الضحى دعا إليه ابنته فاطمة فسارها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت، فسئلت عن ذلك بعد وفاته ﷺ، فقالت: «سارني النبي ﷺ أنه يقبض في وجهه الذي توفي فيه فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه - يلحقه - فضحكت». [متفق عليه]، وفي رواية أن سبب ضحكها كان لقول الرسول ﷺ لها: «يا فاطمة، أما تَرْضَيْنَ أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة...؟». [متفق عليه].

والحديث دليل من دلائل نبوته ﷺ لأن فاطمة رضي الله عنها كانت أول الناس لحوقاً به ﷺ من أهله.

ولما رأت فاطمة ما بأبيها من الوجع الشديد، قالت: «واكرب أباه»، فقال لها الرسول ﷺ: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم». [البخاري].

وكان بين يدي رسول الله ﷺ ركوة أو علبة ماء، يدخل يده في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات». [البخاري].

وبعد هذا ثقل عليه المرض فأصبح لا يتكلم، ولذا فعندما دخل عليه أسامة بن زيد رضي الله عنه دعا له بالإشارة. [ابن إسحاق، حسن].

ويبدو أن ذلك كان الوقت الذي لُدَّوه فيه، أي جعلوا في جانب فمه دواء بغير اختياره، وهو يشير إليهم بالأفعال ذلك، وهم يظنون أن ذلك كان منه كراهية المريض للدواء. [البخاري]، ولكنه كان ينفي عنه تهمة الإصابة بمرض ذات الجنب الذي ظنوه. [عبد الرزاق؛ صحيح، ابن سعد، يتقوى] به، وهو نوعان: أحدهما ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن، وهو المنفي عنه هنا، وثانيهما: ريح محتقن بين الأضلاع. [الفتح].



وقد روى أبو يعلى بسند فيه ابن لهيعة من وجه آخر عن عائشة أن النبي ﷺ مات من ذات الجنب. ويمكن الجمع بين الحديثين بأن الجنب المعنية هنا هي الريح المحتقنة بين الأضلاع. [الفتح لابن حجر].

ثم بدأت اللحظات الأخيرة من حياته ﷺ. فبينما كان في حجر عائشة، دخل عليه عبد الرحمن بن أبي بكر وفي يده سواك، فنظر إليه الرسول ﷺ، فعلمت عائشة أنه يريد السواك، فتناولته وليتته له فاستاك به، وعندما فرغ منه رفع يده وأصبعه وشخص ببصره نحو السقف، وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة، وهو يقول: «مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى»، كررها ثلاثاً. [متفق عليه] وكان هذا آخر ما تكلم به، ثم مالت يده ولحق بالرفيق الأعلى. [البخاري].

وكان ذلك حين اشتد الضحى. [ابن إسحاق] أو في منتصف النهار. [الطبري: التاريخ]، فقالت فاطمة: «يا أبتاه، أجب رباً دعاه، يا أبتاه، مَنْ جَنَّةُ الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل نعاه». [البخاري].

وأصح ما جاء في مدة مرضه الأخير عشرة أيام. [البيهقي: الدلائل، صحيح]. ولم يصدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه نبأ وفاة الرسول ﷺ، فأخذ يقول: «إن رسول الله ﷺ لم يمت ولكن ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى فمكث عن قومه أربعين ليلة. والله إني لأرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي رجال من المنافقين وألسنتهم يزعمون - أو قال: يقولون - إن رسول الله ﷺ قد مات». [أحمد؛ عبد الرزاق؛ ابن إسحاق، وأسانيدهم صحيحة].

وجاء أبو بكر من الشَّح، فكشف عن وجه النبي ﷺ، ثم قبله وبكى وقال: «بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتب عليك فقد متها»، ثم خرج



إلى الناس، وهم بين منكر ومصدق، لهول الأمر، فرأى عمر وهو يكلم الناس منكراً موت الرسول ﷺ، فطلب منه أن يجلس، فأبى، فأقبل الناس إلى أبي بكر وتركوا عمر، فحدثهم أبو بكر قائلاً: «أما بعد: من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فهذا الناس وكأنهم لم يسمعوا الآية من قبل، وقعد عمر على الأرض لا تحمله رجلاه لما علم بموت الرسول ﷺ. [البخاري].

وفي يوم الثلاثاء، وهو اليوم التالي لوفاة ﷺ، غسلوا رسول الله ﷺ في ثيابه. [ابن إسحاق، حسن]، غسله العباس وعلي والفضل وقثم ابنا العباس وشُقران مولى رسول الله وأسامه وأوس بن خولي. [ابن إسحاق، حسن].

وكان ماء غسله من بئر يقال له: الغَرْسُ، لسعد ابن خيثمة، كان يستعذب للرسول ﷺ منها. [ابن شبة، يعتضد].

وقالت عائشة رضي الله عنها عن كيفية غسله: «لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري كيف نصنع، أنجرد رسول الله ﷺ كما نجرد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه؟ قالت: فلما اختلفوا أرسل الله عليهم السَّنة حتى والله ما من القوم من رجل إلا ذُقَتْهُ في صدره نائماً، قالت: ثم كلمهم من ناحية البيت، لا يدرون من هو، فقال: اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، قالت: فثاروا إليه، فغسلوا رسول الله ﷺ وهو في قميصه يفاض عليه الماء والسدر، ويدلكه الرجال بالقميص، وكانت تقول: لو استقبلت من الأمر ما استدبرت ما غسل رسول الله ﷺ إلا نساؤه». [ابن إسحاق، حسن].

ثم كفنوه في ثلاثة أثواب بيض سَحُولِيَّةٍ نقية أو من سحول اليمنية من كُرْسُفٍ، (قطن) ليس فيها قَمِيصٌ ولا عِمَامَةٌ. [متفق عليه؛ ابن إسحاق، حسن].



ثم حضروا له قبراً في حجرة عائشة. [الطيالسي، صحيح؛ ابن إسحاق، حسن لغيره؛ ابن ماجه، يتقوى].

وصلى عليه الناس أرسالاً أرسالاً، يدخلون من باب فيصلون عليه، ثم يخرجون من الباب الآخر، لا يؤمهم أحد. [أحمد، برجال الصحيح؛ ابن سعد، البداية]. وقيل صلى عليه أولاً بنو هاشم، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الناس حتى فرغوا، ثم النساء، ثم الصبيان. [ابن سعد]، ثم العبيد. [الطبري: التاريخ].

ثم دفنوه في ليلة الأربعاء. [ابن إسحاق، حسن].

إنا لله وإنا إليه راجعون! إنا لله وإنا إليه راجعون!!

ولا يملك المرء المسلم إلا أن يبكي مع حسان. [ابن هشام؛ ديوان حسان]، وهو ينشد:

| | |
|--|---|
| فَبَكَيَ رَسُولَ اللَّهِ يَا عَيْنَ عِبْرَةٍ | وَلَا أَعْرِفُكَ الدَّهْرَ دَمْعُكَ يَجْمُدُ |
| وَمَا لَكَ لَا تَبْكِينَ ذَا النِّعْمَةِ الَّتِي | عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَائِغٌ يَتَغَمَّدُ |
| فَجُودِي عَلَيْهِ بِالدُّمُوعِ وَأَعْوِي | لِفَقْدِ الَّذِي لَا مِثْلَهُ الدَّهْرُ يُوجَدُ |
| وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مَدَلٍ | وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ |

ونبكي مع أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب حين بكى منشداً:

| | |
|---|--|
| أَرِقْتُ فَبَاتَ لَيْلِي لَا يَزُولُ | وَلَيْلُ أَخِي الْمَصِيَةِ فِيهِ طَوَّلُ |
| وَأَسْعَدَنِي الْبُكَاءُ وَذَاكَ فِيمَا | أَصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ قَلِيلُ |
| لَقَدْ عَظُمَتْ مَصِيبَتُنَا وَجَلَتْ | عَشِيَّةٌ قِيلَ قَدْ قُبِضَ الرَّسُولُ |
| وَأَضَحَتْ أَرْضُنَا مِمَّا عَرَاهَا | تَكَادَ بَنَاهَا جَوَانِبُهَا تَمِيلُ |
| فَقَدْنَا الْوَحْيَ وَالتَّنْزِيلَ فِينَا | يَرُوحُ بِهِ وَيَغْدُو جَبْرَائِيلُ |
| وَذَاكَ أَحَقُّ مَا سَأَلْتُ عَلَيْهِ | نَفُوسَ النَّاسِ أَوْ كَادَتْ تَسِيلُ |



نبيّ كان يجلو الشك عنا
ويهدينا فما نخشى ضلّالاً
أفاطم إن جزعت فذاك عذر
فقر أبيك سيد كل قبر
بما يوحى إليه وما يقول
علينا والرسول لنا دليلُ
وإن لم تجزعي ذاك السبيل
وفيه سيد الناس الرسول

[السهيلي].

ونقول باكين كما قالت ابنته وحبيته فاطمة عليها السلام:

اغبر آفاق السماء وكورت
فالأرض من بعد النبي كئيبة
فليكنه شرق البلاد وغربها
وليكنه الطور المعظم جوه
يا خاتم الرسل المبارك ضوؤه
شمس النهار وأظلم العصران
أسفاً عليه كثيرة الرجفان
ولتبكه مضر وكل يمان
والبيت ذو الأستار والأركان
صلى عليك منزل القرآن

[السهيلي]

● عظات وعبر وأحكام ووصايا:

١ - كفى بالموت عظة وعبرة... لقد شاء الله تعالى أن يكون الموت نهاية كل إنسان مهما طال عمره، ومهما كان موقعه من الحياة، وتلك سنة الحياة كما عبر عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلْبَشَرِ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ لَمُتْلَدُونَ﴾ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) [الأنبياء: ٣٤-٣٥]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٢٠) [الزمر: ٣٠].
فها هو محمد بن عبد الله عليه السلام خير البشر، يموت بعد أن عانى من سكرات الموت وآلام المرض... وإذا وعى الناس هذه الحقيقة استشعروا معنى العبودية والتوحيد، وخضعوا لله الواحد القهار، واستعدوا للموت بالإكثار من



العمل الصالح وطاعة الله ﷻ وإخلاص العبادة له في كل مجال من مجالات الحياة، لا سيما عبادة الله ﷻ في تحكيم شرعه والجهاد في سبيل ذلك، لأن الله ﷻ يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، لأن الله تعالى الذي خلق البشر خبير بما يصلحهم في الدنيا والآخرة... ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤).

٢- مشروعية الرقية - التعويذ - ما ثبت في ذلك في الصحيحين. وقد نقل النووي. [شرح مسلم] وابن حجر. [الفتح] وغيرهما الإجماع على مشروعية الرقي عند اجتماع ثلاثة شروط: «أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته، وأن يكون باللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بذات الله تعالى...». واللفظ لابن حجر.

٣- بيان فضل أبي بكر الصديق عندما أصر الرسول ﷺ على أن يؤم الناس.

٤- النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

قال العلماء عن تكراره ﷺ عبارة «إلى الرفيق الأعلى»: (لأن التخيير لم يزل يُعادُ عليه، وهي كلمة تتضمن لقاء الله، الذي هو بُبَابُ التوحيد وسر الذكر باللسان والقلب، ومنه يستفاد أنه لا يشترط في نجاة المحتضر أن يتلفظ بـ«لا إله إلا الله»، إذا مات وقلبه مطمئن بالإيمان. والله أعلم). [الأنوار: بحرق].

٥- لقد تضمن ما سقناه من أحاديث في خبر مرض وفاته ﷺ دروسًا وعظات وعبرًا وأحكامًا يستطيع المرء أن يستنبطها بيسر.





الفصل السابع والعشرون أمهات المؤمنين رضي الله عنهن

المشهور أن الرسول ﷺ تزوج خمس عشرة امرأة. [البیهقي: الدلائل، من مرسل قتادة]، دخل بثلاث عشرة منهن، واجتمع عنده منهن إحدى عشرة، وقبض عن تسع. [ابن المثنى: تسمية أزواج النبي ﷺ]، فأما اثنتان منهن فأفسدتها النساء فطلقهما، وذلك أن النساء قلن لإحدهما: إذا دنا منك فتمنعي، فتمنعت فطلقها، وأما الأخرى فلما مات إبراهيم قالت: لو كان نبياً ما مات ابنه، فطلقها، منهن خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم سلمة وسودة وأم حبيبة، ومن غير قريش: ميمونة الهلالية، وجويرية الخزاعية، وزينب بنت جحش الأسدية وصفية الخيرية. وهؤلاء التسع هن اللاتي قبض عنهن. [البیهقي: الدلائل]. وقد سبق الكلام عن زواجه من خديجة عليها السلام، وقد ماتت قبله بمكة كما ذكرنا وسأتناول هنا بإيجاز قصة زواجه من الثماني الباقيات، ومن تسرى بهن.

٢- سودة بنت زمعة بن قيس عليها السلام :

كانت من المؤمنات المهاجرات في سبيل الله ﷻ. فقد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها السَّكْرَان بن عمرو، ابن عم أبيها، فأغضب ذلك أهلها. وعندما عادت مع زوجها من هجرتها توفي زوجها السكران، وقيل توفي عنها في الحبشة. [الاستيعاب]. وتركها من غير عائل، فخشي الرسول ﷺ أن يبطش بها قومها، وكانوا أشداء وأعداء ألداء للإسلام، وأراد أن يجزيها على إسلامها ومصابها خيراً، فلم يجد غير أن يتزوجها في



رمضان سنة عشر من النبوة. [ابن سعد]، بعد وفاة خديجة عليها السلام بلا خلاف والراجح زواجه بها في شوال بعد عائشة. [البداية].

وعندما طعنت في السن وذهبت حاجتها في الرجال، خشيت أن يطلقها الرسول ﷺ، وحرصت على أن تحشر في أزواجه، ولذا وهبت ليلتها لعائشة عليها السلام. [متفق عليه]. ولذا كانت عائشة عليها السلام تقول: «ما من امرأة أحبَّ إليَّ من أكونَ في مسلاخها من سودة بنت زمعة، إلا أنها امرأة فيها حدة، فلما كبرتُ قالت: يا رسول الله! قد جعلت يومي منك لعائشة». فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين: يومها، ويوم سودة. [مسلم - والمسلاخ: الجلد].

وروي أن الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨] نزلت في هذا السبب. [تفسير الطبري، صحيح؛ أبو داود والترمذي، صحيح].

والروايات التي تذكر أن النبي ﷺ طلقها ثم ردها عندما وقفت في طريقه تطلب منه ردها؛ فهذه الروايات التي فيها مسألة وقوع طلاق، ضعيفة الإسناد، لا يحتج بها، وما في الصحيح أصح.

وكانت بدينة الجسم ثقيلة الحركة، قالت ذات يوم للرسول ﷺ: «صليت خلفك البارحة فركعت بي حتى أمسكت بأنفي مخافة أن يقطر الدم»، فضحك رسول الله ﷺ من قولها. [ابن سعد، مرسل برجال الصحيح؛ الإصابة]. ولثقلها وكبرها أذن لها الرسول ﷺ ولمن في حالها أن يدفعوا ليلة مزدلفة قبل الناس. [البخاري]. وأصح ما روي في تاريخ وفاتها أنها توفيت في خلافة عمر رضي الله عنه. [البخاري: التاريخ الأوسط، صحيح].



ولم نقف على رواية يحتج بها لتحديد عمرها حين تزوجها النبي ﷺ. ومن تلك الروايات الضعيفة عن عمرها حين وفاتها، قول البلاذري. [أنساب الأشراف]: (ويقال إنها توفيت في خلافة عثمان رضي الله عنه ولها نحو من ثمانين سنة).

٣- عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها :

كانت لأبي بكر رضي الله عنه مكانة عظيمة في قلب النبي ﷺ، لما كان له من مواقف في سبيل الله في أدق اللحظات وأخرجها من مسيرة الدعوة، فلعل الرسول ﷺ أراد أن يكرم صاحبه الوفي الأمين، ويوثق عرى المحبة بينه وبين أخيه في الإسلام أبي بكر، وذلك برباط المصاهرة، فتزوج من ابنته عائشة.

وكانت عائشة رضي الله عنها صغيرة السن عندما عقد عليها الرسول ﷺ، في شوال من السنة العاشرة للبعثة النبوية [مسلم]، ولم يدخل بها إلا في شوال من السنة الثانية للهجرة. [مسلم؛ ابن سعد].

قالت عائشة رضي الله عنها: «تزوجني رسول الله ﷺ متوفى خديجة، قبل الهجرة وأنا بنت ست، وأدخلت عليه وأنا ابنة تسع سنين...». [متفق عليه]. وفي رواية أنه تزوجها وهي ابنة سبع. [مسلم].

ولقد رأى رسول الله ﷺ في المنام - ورؤيا الأنبياء حق - أن رجلاً يحملها إليه في سَرَقَةٍ. [شق بيضاء] من حرير، فيقول: «هذه امرأتك، فيكشف فراها، فيقول: إن كان هذا من عند الله يمضه». متفق عليه. وهذا من فضائلها الكثيرة.

ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكراً غيرها. [البخاري].

ومن يقف على سيرة هذه السيدة العظمى تأخذه الدهشة لذكائها وفطنتها وغزارة علمها وفقهاها وسمو أخلاقها، وسيعلم حينها، لماذا كانت بتلك المكانة الكبيرة عند رسول الله ﷺ. [الإصابة؛ كتب الحديث].



٤- حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها :

لقد توفي عنها زوجها حُنَيْس بن حُذَافَةَ السَّهْمِي المهاجري البصري، صاحب المهجرتين - الحبشة والمدينة. [البخاري؛ الإصابة] -، إذ أصابته جراحة يوم أحد، فمات منها. [الإصابة؛ الاستيعاب]. وروي أنه توفي بعد بدر. [ابن سعد].

وتزوجها رسول الله ﷺ للحكمة ذاتها التي تزوج من أجلها عائشة وسودة رضي الله عنهما، إضافة إلى حزنها الشديد على زوجها المجاهد، وحزن عمر لحزنها، فعرض زواجها على حبيبيه أبي بكر وعثمان، لعل في الاقتران بهما مواساة لها وإخراجها من أحزانها. فاعتذر عثمان بحجة عدم حاجته في النساء، وسكت أبو بكر، ولذا وجد عمر في نفسه عليه أكثر مما وجد على عثمان. وما لبث ليالي حتى خطبها رسول الله ﷺ، ولقيه أبو بكر وأوضح له سبب سكوته، وهو أن الرسول ﷺ كان قد ذكرها، فكره إفشاء سر رسول الله ﷺ وقال: «لو تركها رسول الله ﷺ قبلتها». [البخاري؛ أحمد، صحيح]. وفي هذا دليل على أن الرسول ﷺ كان يشعر بها تعانيه حفصة من تأيم، فأراد أن يواسيها، ويواسي أباهما لمكانته عنده.

وروي أن الرسول ﷺ طلقها ثم راجعها [أبو داود، صحيح؛ ابن ماجه؛ الدارمي]. ودخل عليها عمر وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك؟ إن النبي ﷺ طلقك وراجعك من أجلي، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا كلمتك كلمة أبداً». [الطبراني، رجال الصحيح؛ ابن إسحاق؛ السير، حسن؛ ابن حبان، صحيح].

وعندما طلقها الرسول ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فقال له: «راجع حفصة، فإنها صوامة قوامه، وإنها زوجتك في الجنة». [الطبراني، رجال الصحيح].

وفي هذه الأحاديث ما يكفي للدلالة على حكمة زواج الرسول ﷺ من حفصة.



٥- زينب بنت خزيمة الهلالية رضي الله عنها :

كانت زوجة للطفيل بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، فطلقها. [ابن سعد]،
وقيل كانت عند جهم بن عمرو بن الحارث. [ابن إسحاق]، فتزوجها بعده عُبيدة
ابن الحارث، فقتل ببدر شهيداً. [ابن سعد]، وقيل كانت تحت عبد الله بن جحش، وقتل
عنها يوم أحد شهيداً. [الاستيعاب، الإصابة]، وكانت تدعى أم المساكين في الجاهلية
لرحمتها إياهم ورقتها عليهم. [ابن إسحاق، ابن سعد]. فقد روى الزبير بن بكار.
[في المنتخب] أن الرسول ﷺ عندما تزوجها أو لم عليها جزوراً، فكثر المساكين،
فتركهم الناس والطعام..

وهي أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها لأُمها. [الاستيعاب، الإصابة]، هند
بنت عوف بن الحارث بن حماسة الحميرية. [المحبر].

إن امرأة تعاقب عليها هذا العدد من الأزواج، منهم شهيدان، وما عرف عنها من
الصلاح والرفاة على المساكين، لجديرة بأن تحظى بعطف الرسول ﷺ وتقديره
لظروفها، ولم يكن هناك أفضل من تكريمه لها بالزواج منها، فتزوجها الرسول ﷺ في
رمضان، على رأس واحد وثلاثين شهراً من الهجرة، فمكثت عنده ثمانية أشهر،
وتوفيت في آخر شهر ربيع الأول، على رأس تسعة وثلاثين شهراً من الهجرة.
[ابن سعد]. ولم يمت من أزواجه في حياته ﷺ غيرها وغير خديجة بنت خويلد.

وقيل إن عمرها كان نحو ثلاثين عاماً عندما توفيت. [ابن سعد]، ويستبعد ذلك،
لأن امرأة كانت تدعى في الجاهلية بأم المساكين، ثم عاشت في الإسلام خمس عشرة
سنة، لا بد أن يكون عمرها عندما ماتت أكبر من ذلك بكثير.

وقد ذكر الصواف [زوجات النبي ﷺ] أنها بلغت الستين من العمر عندما تزوج بها النبي
ﷺ، ولكنه لم يبين لنا مصدره، ولو ثبت ذلك لكان الأقرب إلى الصواب، والله أعلم.



ولم تهتم المصادر بسيرتها في بيت الرسول ﷺ، لا سيما علاقاتها بزوجاته: سودة وعائشة وحفصة، مما يدل على أنه لم يكن بها ما يدعو لغيرة النساء عليها، فلم يأبه بها أحد، ولم تأبه بأحد، ولعل قصر مدة إقامتها في بيت النبوة كان سبباً في ذلك.

٦- أم سلمة - هند بنت أبي أمية - المخزومية رضي الله عنها :

لقد حفظ التاريخ لهذه السيدة ذكراً مجيداً، إذ كانت من شهيرات المؤمنات، العاملات وراء صفوف المجاهدين في غزوة أحد، كما ذكرنا، وكان لها رأي سديد كما ذكرنا في قصتها مع النبي ﷺ يوم الحديبية. ومن أبرز مجاهداتها أنها هاجرت إلى الحبشة مع زوجها أبي سلمة، عبد الله بن عبد الأسد، ابن عمة النبي ﷺ وأخيه من الرضاعة. وكان لزوجها بلاء حسن يوم أحد، حتى جرح جرحاً كبيراً، اندمل بعد فترة، ثم عاوده واشتد عليه ألمه، وكان سبباً في وفاته كما ذكرنا.

لقد مات رضي الله عنه وخلف وراءه أربعة من الأولاد، هم: زينب وسلمة وعمر ودرة. [ابن سعد]. وقد حرص الرسول ﷺ على مواساتها عملياً بأن يكرمها بضمها إلى نسائه والقيام بأمرها، لأنها من المهاجرات، ولم يكن لها أهل بالمدينة، غير أبنائها.

وروي عنها أنها قالت: «أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ بقول فسررت به، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول: اللهم أجزني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها إلا فعل ذلك به»، قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم أجزني في مصيبي وأخلف لي خيراً منه، ثم رجعت إلى نفسي، قلت: من أين لي خير من أبي سلمة، فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله ﷺ... وأذنت له... فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بي أن لا تكون بك الرغبة في، ولكنني



امرأة في غيرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال، فقال: أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عنك، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنها عيالك عيالي، قالت: فقد سلمت لرسول الله ﷺ، فتزوجها رسول الله ﷺ، فقالت: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه، رسول الله ﷺ. [مسلم؛ أحمد، صحيح؛ الترمذي، صحيح؛ ابن ماجه، صحيح؛ ابن سعد، صحيح].

وفي رواية أنه لما انقضت عدتها من أبي سلمة خطبها أبو بكر فردته، ثم خطبها عمر فردته، فبعث إليها رسول الله ﷺ فقال: «مرحباً برسول الله ﷺ إني امرأة غيرة، وإني مُصِيبَةٌ. [ذات الصبيان]، وليس أحد من أوليائي حاضراً، فبعث إليها رسول الله ﷺ: أما قولك إني مصيبة فإن الله يكفيك صبيانك، وأما قولك إني غيرة فسأدعو الله أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء فليس أحد منهم شاهد ولا غائب إلا سيرضاني، فقالت: «يا عمر: قم فزوج رسول الله ﷺ...» [أحمد، صحيح].

وكان زواج الرسول ﷺ بها في شوال سنة أربع. [ابن سعد].
وكانت آخر من توفي من زوجات النبي ﷺ، كما في الإصابة وغيرها.

٧- جُوَيْرِيَّةُ بِنْتُ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :

لقد سبق الكلام عن قصة زواجها في غزوة بني المصطلق.

أراد الرسول ﷺ إكرام هذا الصنف من النساء الأسيرات، فسوى بينهن وبين الحرائر، وضرب للناس أصدق الأمثال على سماحة الإسلام. فأزال من الأذهان ما كان قد علق بها من احتقار للإماء، واتخاذهن فقط للبيع أو للخدمة، وحرمن من نعمة العتق إلا بالمكاتبه وشراء أنفسهن من الكهنة. فتعلم المسلمون من هذه الزبيجة كيفية



صيانة سيدات الأسر الكريمة بين قومهن ورحمة عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر. وقد زخر التاريخ الإسلامي بعد هذا بالسبايا اللاتي تزوجهن أسيادهن من الخلفاء والأمراء والسادة والكبراء، وأنجبن الخلفاء والأمراء والقادة العظماء والعلماء، وتأمل في ذلك تاريخ خلفاء بني العباس. [ذكرى كتابجي: الترك في مؤلفات الجاحظ].

٨- زينب بنت جحش رضي الله عنها :

هي ابنة عمه الرسول ﷺ أميمة. وقد زوجها الرسول ﷺ لمولاه زيد بن حارثة، الذي أعتقه وتبناه إلى أن أبطل الله عادة التبني. ونزل في قصة زواجها من زيد ﷺ ثم الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧].. [البخاري]

فقد روى البخاري أن زيدًا جاء يشكو زوجته، فجعل النبي ﷺ يقول: «اتق الله وأمسك عليك زوجك»، قالت عائشة: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتُم هذه، فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ، تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات.

لقد كان زواج الرسول ﷺ منها لهلال ذي القعدة من العام الخامس الهجري، وهي بنت خمس وثلاثين. [ابن سعد] لحكمة، وهي إبطال عادة التبني كما هو واضح من آية سورة الأحزاب المذكورة.

وخلاصة ما ورد في تفسير هذه الآية أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس: تزوج امرأة ابنه.



[الترمذي، صحيح]، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني، وليس أبلغ في إبطاله من تزوج امرأة الذي يُدعى ابناً، ووقوع ذلك أمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم. [عبد الرزاق؛ الترمذي؛ تفسير ابن كثير؛ ابن حجر].

هذا الذي ذكرناه من الصحيح يغنينا عن مناقشة الروايات الكثيرة الساقطة التي نسجت حول قصة زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش، لا سيما روايات الواقدي، التي كانت مرتعاً خصباً لأهل الأهواء في القديم والحديث، من زنادقة ومستشرقين ومن على شاكلتهم. وقد ألف د. زاهر الألمعي كتاباً في الرد عليهم.

٩- ریحانة بنت زيد بن عمرو بن خُثَافَة رحمها الله :

قيل: ومن أزواجه ريحانة بنت عمرو النضيرية. [الإصابة؛ الاستيعاب]، وقيل: القريظية. [نفسه]، سببت يوم غزوة بني قريظة، فاصطفاه رسول الله ﷺ لنفسه فأعتقها وتزوجها. [الواقدي؛ ابن بكار]، ثم طلقها تطليقة، ثم راجعها. [ابن سعد].

وقالت طائفة: بل كانت أمته وكان يطؤها بملك اليمين، فهي معدودة عندهم في السراي. [ابن إسحاق]، واختلفوا في تاريخ وفاتها، هل كان قبل الرسول ﷺ أم بعده؟ ولم يرجحوا قولاً على آخر. [الواقدي]، والذي نميل إليه أنها ماتت في حياة الرسول ﷺ لقوة أسانيد القائلين بهذا، وهو ما جزم به ابن عبد البر. [الاستيعاب؛ ابن سعد].

١٠- أم حبيبة - رَمَلَة بنت أبي سفيان بن حرب رحمها الله :

هاجرت أم حبيبة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي إلى الحبشة، ومات هناك. وعندما علم الرسول ﷺ بارتداد زوجها وثباتها على الإسلام أرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ليخطبها له، فزوجها إياه بصفته وكيلًا عن النبي ﷺ، فوكلت هي خالد بن سعيد بن العاص، ابن عم أبيها. وبعث بها النجاشي إلى المدينة مع



شُرَّ حُبيل بن حَسَنَة، وكان مهرها وجهازها من عند النجاشي. [أحمد، جيد؛ أبو داود؛ النسائي؛ ابن هشام، حسن؛ ابن سعد].

وكان ذلك سنة سبع، وكان لها بضع وثلاثون سنة. ولدت لابن جحش ابنته حبيبة، قيل بالحبشة وقيل بمكة. [ابن سعد].

وللأستاذ محمد بن عبد الله العوشن بحث بعنوان: (تحقيق دعوى ردة عبيد الله ابن جحش)، نشر بمجلة: البيان، العدد ١٨٢، السنة: (١٧)، شوال ١٤٢٣ هـ/ ديسمبر ٢٠٠٢م، صفحة ٢٢-٢٤، خلص فيه إلى عدم ثبوت قصة ردة عبيد الله ابن جحش، رواية ودراية، ومما قاله في هذا: (١- أنها لم ترو بسند صحيح متصل، فالموصول من طريق الواقدي - وهو متروك الحديث - والمرسل جاء عن عروة بن الزبير، ولا يمكن أن نحتج بالمرسل (عند من يرى الاحتجاج به) في مسألة كهذه عقدية؛ فيها الحكم على أحد الصحابة السابقين الأولين إلى الإسلام عليه السلام بالردة). (٢- أن الروايات الصحيحة في زواجه عليه السلام بأم حبيبة لم تذكر ردة زوجها السابق، كما في رواية أحمد، وأبي داود، والنسائي...).

وحكمة هذا الزواج لا تخفى على أحد يعلم ثبات أم حبيبة عليها السلام على دينها عندما فقدت زوجها بالحبشة، وموقف والدها من الدعوة الإسلامية وقيادته لكل حروب قريش ضد المسلمين ما عدا غزوة بدر، لأنه كان صاحب القافلة التي جعلها الله سبباً في تلك الغزوة. ففي زواجه منها مواساة لها في مصيبتها في زوجها وغربتها، وقطع الطريق أمام شماتة الأعداء، وفيه تخفيف من غلواء عداوة قومها بني أمية للإسلام ونبي الإسلام، وقد حرص الرسول عليه السلام على ذلك كما هو واضح من موقفه من أبي سفيان يوم فتح مكة وعند تقسيم غنائم حنين، وغيرها من المواقف، إلى أن هداهم الله عليه السلام إلى الإسلام، فأصبحوا قوة وعزة ونصرة للإسلام في مستقبل أيامه.



١١- صفية بنت حيي بن أخطب النضيرية رضي الله عنها :

عندما افتتح المسلمون خير، سبيت النساء، منهن صفية، فاصطفيت للرسول ﷺ بعد أن وقعت في سهم دحية، فعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها. [متفق عليه]. ودخل عليها في طريق العودة إلى المدينة، وتطوع لحراسته في تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري، خوفاً منه على الرسول ﷺ أن تغدر به. [ابن سعد]، ولكن اتضح أنه لم يكن في قلبها يومذاك أي حقد على الرسول ﷺ، لأنها آمنت بالرسول ﷺ من أول وهلة، يوم اصطفاه لها أصحابه يوم خير، أو يوم اشتراها من دحية. ومن أدلة ذلك أن الرسول ﷺ عندما أراد أن يدخل عليها وهم على بعد ستة أميال من خير، أبت عليه، وعندما وصل إلى الصَّهْبَاء، على بعد بريد من خير، وافقت، فسألها عن سبب الامتناع في المرة الأولى، فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فزادها ذلك عنده محبة. [نفسه]. وقال لها الرسول ﷺ: «لم يزل أبوك من أشد يهود لي عداوة حتى قتله الله»، فقالت: «يا رسول الله، إن الله يقول في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾»، فقال لها رسول الله ﷺ: «اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقني بقومك»، فقالت: يا رسول الله، لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني، حيث صرت إلى رحلك، وما لي في اليهودية أرب، وما لي فيها والد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام، فالله ورسوله أحب إلي من العتق وأن أرجع إلى قومي». فأمسكها رسول الله ﷺ لنفسه زوجة.

كانت أمها إحدى نساء بني قينقاع، فتزوجها سلام بن مشكم النضيري، ثم فارقها فتزوجها كنانة بن أبي الحقيق، فقتل يوم خير. ولم يسمع النبي ﷺ ذكراً أباهَا بحرف مما تكره.



لقد كان في زواج الرسول ﷺ منها ذات الحكمة من زواجه من جويرة رضي الله عنها. فهي ابنة زعيم من زعماء اليهود، مات هو وزوجها وأخوها في صراعهم ضد الرسول ﷺ، فكان لابد من إكرامها لمكانها عند اليهود.

ودل هذا الزواج على أن تهمة العنصرية ضد اليهودية لم تكن واردة في قاموس الرسول ﷺ السياسي والاجتماعي، وليفهم اليهود أن قضيتهم مع الرسول ﷺ والمسلمين ليست قضية عنصرية كما أشاعوا.

عاشت صفية رضي الله عنها في بيت النبوة معززة مكرمة. وكان الرسول ﷺ يلقيها الحجاج عندما يقع بينها وبين بعض بقية نسائه ما يقع بين الضرائر. فقد أخرج الترمذي. [صحيح] من طريق أنس، قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك؟» قالت: قالت لي حفصة إني ابنة يهودي، فقال النبي ﷺ: «وإنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك»، ثم قال: «اتقي الله يا حفصة».

وهجر الرسول ﷺ زينب بنت جحش ثلاثة شهور، لأنها عيرت صفية باليهودية. ولما رفع الرسول ﷺ عنها الهجران أهدته جارية لها فرحاً بهذا العفو وندماً على تلك الزلة. [أحمد، جيد]. وكان ذلك في حجة الوداع كما يفهم من سياق القصة في هذا الحديث الصحيح وفي غيره من الأحاديث.

١٢- ميمونة بنت الحارث الهاليتة رضي الله عنها :

تكلمنا عن قصة زواجها عند الحديث عن عمرة القضاء. وما يمكن إضافته هنا هو أن مما رغب الرسول ﷺ في الزواج منها ما عرفه عنها من الصلاح والتقوى، فقد قالت عائشة عنها: «... أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم». [ابن سعد، صحيح].



وقال رسول الله ﷺ عنها وعن أخواتها: «الأخوات مؤمنات ميمونة وأم الفضل وأسماء». [الإصابة؛ ابن سعد، صحيح].

وكان عمه العباس حريصاً على أن يقترن الرسول ﷺ بها، فقد قال له: «يا رسول الله، تأيمت ميمونة بنت الحارث.. هل لك في أن تزوجها؟». [الاستيعاب، مرسلًا] ولا شك أن العباس رضي الله عنه كان من أعرف الناس بها، لأنها أخت زوجه أم الفضل. وامرأة هذا شأنها لجديرة بأن يضمها الرسول ﷺ إلى بيت النبوة مواساة لها في فقدتها زوجها واعترافاً منه بفضلها وتحبيباً لقومها في الإسلام.

١٣- السراي:

لم يتسر رسول الله ﷺ بغير مارية القبطية، أم ولده إبراهيم، وجارية أخرى أصابها في بعض السبي [البداية؛ أحمد؛ الزاد]، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش [أحمد، جيد]، وريحانة بنت زيد التي اختلف في أمرها، والراجح أنه كان يطؤها بملك اليمين، وروي أن الرسول ﷺ قال عن مارية عندما ولدت له إبراهيم: «أعتقها ولدها». [البداية، يعتضد].

ولو أراد الرسول ﷺ أن تكون له عشرات الجواري والسراي لما انتقص ذلك من حقه في مجتمع كان لا يرى بأساً من التعدد في الزوجات واتخاذ السراي متى ما تيسر له ذلك مادياً وجسدياً، وما سمعنا أن اليهود والنصارى قد جعلوا من كثرة زوجات وسراي سليمان عليه السلام. [البخاري، ومسلم] قضية كما فعلوا مع تعدد الزوجات عند الرسول ﷺ.. ولا شك أن الغرض الباطل هو المحرك لهذه القضية في زماننا هذا...

● حكمة هذا التعدد:

● وخلاصة القول: إن أمهات المؤمنين اللائي توفي عنهن رسول الله ﷺ كن معلمات ومفتيات لنساء الأمة الإسلامية ورجالها في القضايا النسائية والأحكام الشرعية والآداب الزوجية والحكم النبوية، وكن قدوة صالحة في الخير والبر والإحسان، كما كان



الرسول ﷺ المثل الأعلى في حسن الخلق وطيب العشرة مع نسائه. فقد عاشرهن بالمعروف، وعدل بينهن وعلمهن الأحكام الشرعية الخاصة بالنساء. وسياسة النبي ﷺ في تعدد الزوجات هي السياسة الرشيدة التي اقتضتها ظروف الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت، ومن الصعب أن تقوم زوجة واحدة بمهام تبليغ تلك الأحكام إلى الناس». [الصوف: زوجات النبي ﷺ].

ولم يكن هناك ما يغيرين بالبقاء في بيت الرسول ﷺ سوى هذه المهمة الجليلة، لأن الأخبار قد تواترت لتقطع بأن زوجات الرسول ﷺ كن يعشن في شظف من العيش إلى الحد الذي طالبنه فيه بزيادة النفقة عليهن، فخيرهن الرسول ﷺ بين الطلاق وبين قبول هذه المعيشة الصعبة معه. [متفق عليه]، وذلك في قصة طويلة وثابتة بنص القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُؤُوسَ لَهَا لِيُخَبِّرَ لِيَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُؤُوسَ لَهَا لِيُخَبِّرَ لِيَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُؤُوسَ لَهَا لِيُخَبِّرَ وَأُتْرَاجُكُمْ سَرَلًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩].

ويلحظ أن من بين زوجات الرسول ﷺ، الصغيرة التي ما تزال تلعب مع أترابها بلعب الأطفال، والمسننة، وابنة عدو لدود، وابنة صديق حميم، ومنهن من كانت تشغل نفسها بتربية الأيتام، ومنهن من تميزت على غيرها بكثرة الصيام والقيام... إنهن نماذج لأفراد الإنسانية، ومن خلاهن قدم رسول الله ﷺ للمسلمين تشريعاً فريداً في كيفية التعامل السليم مع كل نموذج من هذه النماذج البشرية.

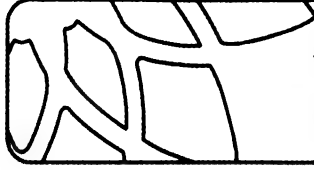
وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى المدينة لم يكن أمر العداء قاصراً على قريش، بل تعداها إلى غيرها من قبائل العرب، فاقضت الحكمة أن يجمد الرسول ﷺ بعض أطراف هذا العداء، وذلك بالإصهار إلى قبائل شتى، لأن أعراق العرب كانت تقضي بأن يجمي أهل المرأة زوج أمراتهم، كما تفيد ذلك لغتهم، إذ يسمون أنفسهم بالأحماء - من الحماية -.



ولما كانت هذه المصلحة يمكن أن تستغل استغلالاً سيئاً، نظرًا لأن الأمور الجنسية تتبعها النفوس اللاهثة، فقد جعل الله تعالى ذلك التعدد بتلك الكيفية خاصًا برسول الله ﷺ، وحدد عدد الزوجات لغيره بأربع زوجات كحد أقصى. [رواس: قراءة جديد للسيرة].

وتجدر الإشارة هنا أيضًا إلى أن من دلائل سمو أهداف تعدد زوجات الرسول ﷺ ما رواه ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ خطب امرأة من قومه يقال لها سودة، فاعتذرت [وهي غير سودة بنت زمعة أم المؤمنين، لم يعرف نسبها، ولذلك ترجمها الحافظ في الإصابة (٤ / ٣٣٩) باسم سودة القرشية]، وكانت مُصْبِيَّةً، لها خمسة صبية أو ستة، من بعل لها مات، فقال رسول الله ﷺ عندما اعتذرت: «ما يمنعك مني؟»، قالت: والله يا نبي الله، ما يمنعني منك أن لا تكون أحبَّ البرية إليّ، ولكنني أكرمك أن يَضْغُو هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية، قال: «فهل منعك مني غير ذلك؟» قالت: لا والله، قال لها رسول الله ﷺ: «يَرْحَمُكَ اللهُ، إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل صالحُ نساء قريش، أحناء على ولد في صِغَرٍ، وأرعاه على بَعْلِ بذات يد». [أحمد، حسن] وقال ابن حجر. [الفتح] بعد سياقه هذا الحديث: (وأصله في البخاري من وجه آخر، لكن لم يسمها). وأشار كذلك إلى أصله عند مسلم.





الفصل الثامن والعشرون

بعض شمائل الرسول ﷺ

لقد تميز الرسول ﷺ بصفات خُلُقِيَّة وخُلُقِيَّة كثيرة. وأريد هنا أن أقف عند بعض صفاته الأخلاقية أو الخُلُقِيَّة بصفة خاصة وذلك لحاجة الناس الماسة إليها في كل زمان ومكان، لمعرفة هذه الصفات والافتداء بها.

ولما كانت صفات الرسول ﷺ الأخلاقية انعكاسًا لما في قلب الرسول ﷺ من قيم ومبادئ، كان لابد لكل مسلم أن يعلم بها، ويتحلَّى بمحاسنه.

• ومن أبرز هذه الصفات الخُلُقِيَّة أو الشمائل:

• ١- التقشُّف في الطعام:

قال أنس رضي الله عنه، خادم النبي ﷺ: «إن النبي ﷺ لم يجتمع عنده غداء ولا عشاء من خبز ولحم إلا على ضفف». [الترمذي: شمائل؛ أحمد؛ ابن حبان، والأسانيد صحيحة]، وفي رواية عن مالك بن دينار رضي الله عنه، قال: «ما شبع رسول الله ﷺ من خبز قط ولا لحم إلا على ضفف». [الترمذي: الشمائل، صحيح].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ». [مسلم؛ أبو الشيخ، مرسلاً صحيحاً]. وفي رواية أخرى عنها: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة، من طعام بر ثلاث ليالٍ تباعاً حتى قبض». [متفق عليه].

وهناك روايات أخرى عند مسلم وأبي الشيخ [أخلاق النبي] بهذا المعنى. [ووصف:

الضيوف].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً هو وأهله، لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير». [الترمذي: الشمائل، صحيح]. وذكرت عائشة رضي الله عنها أنه كان يأتيها، فيقول: «أعندك غداء؟» فتقول: لا، فيقول: «إني صائم...» [مسلم ١١٤٥].

٢- التقشف في الفراش:

قالت عائشة رضي الله عنها: «إنما كان فراش الرسول ﷺ الذي ينام عليه، أدمًا. [الجلد المدبوغ] حشوه ليف». [متفق عليه].

٣- تواضعه ﷺ:

قال رسول الله ﷺ: «لا تُطْرُونِي كما أَطَرَتِ النصارى ابنَ مريم، إنما أنا عَبْدٌ، فقولوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ». [البخاري].

وعن أنس رضي الله عنه أن امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة، فقال: «يا أم فلان، انظري أي السَّككِ شئت، حتى أَقْضِيَ لك حاجتك»، فخلا معها في بعض الطرق، حتى فرغت من حاجتها. [مسلم؛ الترمذي: الشمائل]. وكانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنتطق به حيث شاءت. [البخاري]. وكان يدعى إلى خبز الشعير والإِهالة السَّنَخَة فيجيب. [البخاري؛ الترمذي: الشمائل]. وقال: «لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إليَّ ذراع أو كُراع لقبلت». [البخاري؛ الترمذي: الشمائل].

وكان يشرب من القرية البالية. قالت أم المؤمنين سودة رضي الله عنها: «ماتت لنا شاة فدبغنا مَسْكَهَا - أي جلدها - ثم ما زلنا ننبذ فيه حتى صار شيئاً - أي بالياً -». [البخاري ٦٦٨٦].



ومع أنه لم يكن شخص أحب إلى الصحابة رضي الله عنهم من رسول الله ﷺ، إلا أنهم كانوا إذا رأوه لم يقوموا له، لما يعلمون من كراهته لذلك. [الترمذي: الشمائل، صحيح؛ الأدب المفرد، صحيح؛ أبو الشيخ، صحيح].

وقال ﷺ في الثناء على التواضع وذم الاستكبار: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل غُلّ جَوَّازٍ مستكبر». [البخاري]. وقال: «... وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». [مسلم]. والكبرياء من صفات الله ﷻ، لذا حرم ذلك على المؤمنين. وقال ﷺ في هذا: «... العِزُّ إِزَارُهُ، والكِبَرِيَاءُ رِدَاؤُهُ - أي الله ﷻ - فمن يُنَازِعُنِي عَذِّبْتُهُ». [نفسه].

وكان ﷺ لا يستكبر عن خدمة أهله. [البخاري].

٤- خلقه:

كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على أَسْرَ القوم، يَتَأَلَّفُهُمْ بذلك. [الترمذي: الشمائل، حسن]. «خدمه أنس بن مالك رضي الله عنه نحو عشر سنين، فما قال له أفّ قط، وما قال له لشيء صنعه: لم صنعه، ولا لشيء تركه لم تركته؟». [متفق عليه؛ الترمذي: الشمائل، صحيح].

«وما كان فاحشًا ولا متفحشًا، ولا صَخَّابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح». [الترمذي: السنن الشمائل، صحيح؛ أبو الشيخ، صحيح]. ويقول: «خياركم أحسنكم أخلاقًا». [البخاري].

وقال لعائشة رضي الله عنها: «إن شر الناس من تركه الناس - أو ودَّعه الناس - اتقاء فحشه». [متفق عليه].

ونهى عن اللعن، فقال: «لا ينبغي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَانًا». [مسلم]. وقال: «ولا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة». [مسلم]. وعندما قيل له: ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة». [مسلم].

أما من لعنه الرسول ﷺ أو سبه أو دعا عليه، وليس هو أهلاً لذلك، كان ذلك له زكاة وأجرًا ورحمة؛ لأن الرسول ﷺ شرط ربه على ذلك كما في الحديث: «اللهم إنما أنا بشر، فأبي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجرًا» [مسلم: ٢٦٢٠٠-٢٦٠٤].

وما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يَأْثِم، فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تنتهك حرمة الله، فينتقم الله.. [البخاري ٦٧٨٦].

وما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده ولا امرأة، ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله.. [مسلم: ٢٣٢٨].

وما سئل رسول الله ﷺ قط فقال: «لا». [مسلم ٢٣١١]. وقال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يقال له أبو عُمَيْرٍ، وكان إذا جاء قال: «يا أبا عمير، ما فعل النُّعَيْرُ؟» نُعْرٌ كان يلعب به.. [بخ ٦٢٠٣] [والنغر: طائر يشبه العصفور، أحمر المنقار]. فمات فدخل عليه النبي ﷺ يومًا، فوجد حزينا لموته، فقال ما قال. [البيهقي: السنن الكبرى].

٥- شجاعته:

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فرغ أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناسٌ قبل الصوت، فالتقاهم رسول الله ﷺ راجعًا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عُرِّي، في عنقه السيف، وهو يقول: «لم تُراعُوا لم تُراعُوا».



وقال عن الفرس: «وجدناه بحرًا، أو: إنه لبحر». قال الراوي: وكان فرسًا يُبَطِّأُ.

[متفق عليه].

وقال علي عليه السلام: «لما حضر البأس يوم بدر اتقينا برسول الله ﷺ، وكان من أشد الناس ما كان، أو لم يكن أحد أقرب إلى المشركين منه». وعنه من طريق ثانٍ، قال: «رَأَيْنَا يَوْمَ بدر وَنَحْنُ نَلُودُ برسول الله ﷺ، وهو أَقْرَبُنَا إلى العدو، وكان من أَشَدَّ الناس بَأْسًا». [أحمد، صحيح].

وقد وقفت على موقفه يوم بدر وأحد وحنين، حين امتحن الله المسلمين.

٦- حياؤه:

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «كان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه». [البخاري]. وقال ﷺ عن الحياء: «الحياء لا يأتي إلا بخير». [البخاري]. وروى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر على رجل وهو يعاتب أخاه في الحياء، يقول: إنك لتستحي حتى كأنه يقول قد أضربك، فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإن الحياء من الإيمان». [نفسه]. وقال ﷺ: «إن مما أذكرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت». [البخاري].

أما الحق فلم يكن الرسول ﷺ يستحي منه، لأن ذلك من التفقه في الدين. فقد روت أم سلمة رضي الله عنها أن أم سليم رضي الله عنها جاءت إلى الرسول ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة غسل إذا احتلمت؟، فقال: «نعم، إذا رأت الماء». [نفسه].

٧- التيسير والرفق:

قال رسول الله ﷺ: «يسرّوا ولا تعسّروا، وسكنوا ولا تنفروا». [بخ ٦١٢٥]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابيًا بَالَ في المسجد، فَتَارَ إليه الناس لِيَقْعُوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه، وَأَهْرِيقُوا على بوله دُثُوبًا من ماء - أو سَجَلًا من ماء - فإنها بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين». [البخاري: ٦١٢١].



وقال في الرفق: «من يحرم الرفق يحرم الخير» [م ٢٥٩٢]، وقال: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه». [م ٢٥٩٢]. وقال: «وإن الرفق لا يكون في شيء إلا زائنه، ولا ينزع من شيء إلا شانه». [مسلم: ٢٥٩٤].

٨- الحذر من الغضب:

إن من أوصاف المؤمنين وسجاياهم الصفح والعفو عن الناس وعدم الانتقام عند الغضب، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا عَضِبُواهُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، ويقول الرسول ﷺ «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». [البخاري: ٦١١٤، مسلم: ٢٦٠٩]. وعندما قال رجل للنبي ﷺ: «أوصني» قال: «لا تغضب»، ورددتها مراراً. [البخاري: ٦١١٦].

٩- الحلم والأناة:

كان مما يحبه ﷺ هاتان الصفتان، وقد قال لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم، والأناة». [مسلم: ١٧-١٨].

١٠- الوصية بالجار:

قال ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». [البخاري: ٦٠١٤، ٢٦٢٤-٢٦٢٥].

وقال لأبي ذر رضي الله عنه: «يا أبا ذر، إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك». [مسلم: ٢٦٢٥]. وفي رواية: «... ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف». [نفسه]. وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره». [البخاري: ٦٠١٨]، وفي رواية: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره...». [ابن ماجه.. صحيح].



١١- رحمته:

عن أنس رضي الله عنه «أن النبي ﷺ أخذ ولده إبراهيم فقبله وشمه». وذلك عندما زاره، وهو مُسْتَرْضِعٌ عند ظِئْرِهِ أَبِي سَيْفٍ. [متفق عليه]. وأخبر الرسول ﷺ: «أن الله جعل الجنة لمن يموت وله ثلاث من الولد لم يبلغوا الحنث، بفضل رحمته إياهم». [البخاري].

وكانت تفيض عيناه لموتهم، وقد سألته مرة سعد بن عباد: «يا رسول الله ما هذا؟» فقال ﷺ: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء». [البخاري]. وعندما ذرفت عيناه لوفاة ابنه إبراهيم، قال له عبد الرحمن بن عوف: «وأنت يا رسول الله؟» فقال: «يا ابن عوف، إنها رحمة لمن اتبعها بأخرى»، وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون». [البخاري].

وخرج ذات يوم على الصحابة رضي الله عنهم وأمامه بنت ابن الربيع، ابنة ابنته زينب رضي الله عنها، على عاتقه، فصلى، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها. [نفسه].

وقبل الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال: «من لا يرحم لا يُرحم». [نفسه].

وجاء أعرابي فقال: «أتقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم»، فقال النبي ﷺ: «أَوَأْمَلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ». [نفسه].

١٢- رحمته بالمرضى:

عندما اشتكى سعد بن عباد رضي الله عنه ذات مرة، عاده فوجده في غشاية أهله، فقال: «قد قضي؟» قالوا: لا يا رسول الله»، فبكى النبي ﷺ، فلما رأى القوم بكاء رسول الله ﷺ بكوا، فقال: «إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم». [البخاري].



١٣- رحمته ﷺ بالإناث:

شبه النبي ﷺ النساء بالقوارير، إشارة إلى ما فيهن من الصفاء والنعومة والركة، وإلى ضعفهن وقلة تحملهن، ولذا فإنهن بحاجة إلى الرحمة والرفق. وله توجيهات كثيرة ومواقف عملية في هذا المجال. ومن أبرز الأمثلة على ذلك:

- ١- كان رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وكانت معه نساء منهن أم سُلَيْم، وغلام أسود يقال له أَنْجَشَةُ يحدو، فقال له النبي ﷺ: «يا أَنْجَشَةُ رُؤَيْدُكَ، سَوْقًا بِالْقَوَارِيرِ». [البخاري].
- ٢- وقد عثرت ناقته ذات يوم، ومعه عليها زوجته صفية رضي الله عنها، فطرحتها على الأرض، فلحق بهما أبو طلحة رضي الله عنه، فقال له النبي ﷺ: «عليك بالمرأة». [البخاري].
- ٣- روى أنس أن النبي ﷺ قال: «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو»، وَصَمَّ أَصَابِعُهُ. [مسلم].
- ٤- وقال عليه الصلاة والسلام: «من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن، كن له سِتْرًا من النار». [متفق عليه].
- ٥- وكان عليه الصلاة والسلام يحب بناته حبًّا جمًّا. فقد روي أن ابنته فاطمة كانت عندما تأتيه يقوم لها، ويأخذ بيدها ويقبلها ويجلسها في مكانه الذي كان يجلس فيه. [أبو داود].
- ٦- وقال: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه». [متفق عليه].

١٤- رحمته ﷺ بزوجاته:

كان ﷺ كثيرًا ما يوصي بالزوجات خيرًا، ويقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، وما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم». [أبو عسكر، والترمذي، وابن ماجه، على شرط الشيخين]. وأوصى بهن خيرًا في حجة الوداع، كما ذكرنا ذلك في



مكانه. وقال: «حب إليّ من الدنيا الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة». [الحاكم، صحيح، وأحمد، حسن] دلائل شدة احترامه وحبّه لزوجته خديجة عليها السلام، إن كان ليزبح الشاة، ثم يهديها إلى خلائلها. [صديقاتها] وذلك بعد مماتها. وقد أقرت عائشة عليها السلام بأنها كانت تغار من هذا المسلك منه. [بخاري: ٣٨٢١].

وقد روى أنه وضع ركبته لتضع عليها زوجته صفية عليها السلام رجلها حتى تركب على غيرها.. [بخاري: ٤٢١١].

وأوصى ﷺ بالمرأة الزوجة، فقال: «استوصوا بالنساء خيراً؛ فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً». [البخاري: ٥١٨٦، مسلم: ١٤٦٨]. وقال: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً؛ فإنها هن عوان - أي أسيرات - عندكم..». [مسلم: ٨٨٩، أحمد، صحيح لغيره مقطّعا، والترمذي، ١١٦٣، حسن صحيح، وأبو داود ١٩٠٥]. وقال: «بم يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل ثم لعله يعانقها؟»، وفي رواية: «... جلد العبد...». [البخاري: ٦٠٤٢].

وقال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، خياركم خياركم لنسائهم».. [أحمد، حسن، والترمذي ١١٦٢، حسن صحيح]، وفي رواية: «إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهلهم». [الترمذي: حسن صحيح، وأحمد، صحيح لغيره]. وقال: «إن من أعظم الأمور أجراً النفقة على الأهل». [مسلم: ٩٩٤، ٩٩٥].

١٥- رحمته ﷺ بالضعفاء عموماً؛

لقد بعثَ الرسول محمد ﷺ رحمة. [مسلم؛ المفرد] لكل العالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].



ويقول عن هذه الرحمة الإلهية المهداة إلى كل المخلوقات: «ولما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي». [البخاري]. وشملت رحمته ﷺ الضعفاء حتى وهو في السقيم والضعيف والكبير، «وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء»، وفي رواية: «إن منكم منفرين، فأياكم ما صلى بالناس فليتجاوز، فإن فيهم الضعيف والكبر وذا الحاجة». [البخاري: ٧٠٤-٤٦٨].

وشملت رحمته الخدم والأرقاء. وأهل الذمة، وفي ذلك قال:

١- على المسلم أن يعامل خدمه أو موالاه كأخ له. فقد روى أبو ذر أن الرسول ﷺ قال: «هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم». [مسلم].

٢- روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا صنع لأحدكم خادمه طعامه ثم جاء به، وقد ولي حره ودُخانهُ، فليقعد معه، فليأكل، فإن كان الطعام قليلاً فليضع في يده منه أكلة أو أكلتين». - أي لقمة أو لقمتين. [مسلم].

وحدث على كفالة الأيتام لضعفهم وحاجتهم للرعاية، فقال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة، هكذا، وقال - أي أشار - بأصبعه السبابة والوسطى». [البخاري].

وحدث على إعالة الأراامل والمساكين، فقال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل». [البخاري]. وقال: «اللهم إني أحرّج - أي ألحق والخرج والأثم - بمن ضيع حق الضعفين: اليتيم، والمرأة». [أحمد، حسن]. وقال: «ابغوني الضعفاء، فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم». [أبو داود؛ أحمد، صحيح].

وشملت رحمته حتى البهائم، قال: «ما من مسلم غرس غرساً فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان صدقة». [البخاري]. وقال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش



فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له» قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: «في كل ذات كبد رطبة أجر». [البخاري].

١٦- رحمته ﷺ بالأعداء في الحرب والسلام:

كان الرسول ﷺ يصلي الفجر مع المسلمين في الحديبية، فنزل سبعون أو ثمانون رجلاً من التنعيم يريدون الفتك بالمسلمين، فأخذوا، فأعتقهم رسول الله ﷺ دون عوض، ولا عقاب. [أحمد، صحيح].

وقد قبل الفداء من أسرى بدر، وعفا عن قريش وأهل مكة، يوم فتح مكة، وأطلق سراح أسرى حنين.. [سبق ذكره].

وعفا عن غورث بن الحارث مع محاولته قتل الرسول ﷺ، فجاء غورث إلى قومه بعد هذا، فقال لهم: جئتمكم من عند خير الناس. [سبق ذكره].

روى البخاري [١٣١٢] أنه مر عليه بجنازة، فقام لها، فقالوا يا رسول الله ﷺ: إنها جنازة يهودي!! فقال: «أليست نفساً منقوسة؟» ونهى ﷺ عن قتل النساء والصبيان والأجير، ماداموا غير مشاركين في قتال المسلمين. [سبق ذكره]. فكان بعثاً أو جيشاً أو صاهم قائلاً: «لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا». [مسلم: ١٧٣١].

وكان له خادم يهودي، فكان إذا مرض عاده، فعاده مرة، فعرض عليه الإسلام، وأبوه حاضر، فقال له: أطمع أبا القاسم، فأسلم، فقال الرسول ﷺ: «الحمد لله الذي أنقذه من النار». [البخاري].



١٧- عدله ﷺ:

ذكرنا من قبل بمناسبة الكلام عن غزوة الفتح أن الرسول ﷺ رفض شفاعة أسامة بن زيد رضي الله عنه في المرأة المخزومية التي سرقت، وأهم أمرها قريشاً، وقال: «والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

١٨- حثه ﷺ على صلة الأرحام:

لقد أخبر الرسول ﷺ أصحابه بأن من أحب الأعمال إلى الله تعالى بر الوالدين. [البخاري].
قال له رجل من الصحابة: يا رسول الله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك»، قال ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أبوك؟». [البخاري].

وقال رجل للنبي ﷺ: «أجاهد؟ قال: ألك أبوان؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد». [البخاري].
وجعل عقوق الوالدين من أكبر الكبائر، قال لأصحابه: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالها ثلاثاً»، فقال الصحابة: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين...». [البخاري]. وقال: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات...». [البخاري].
وحث على صلة الوالدين المشركين والأقارب المشركين. [البخاري].

وقال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال: «لئن كنت كما قلت، فلإنما تسفهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك». [مسلم، والمثل: الرماد الحار].

١٩- إعراضه ﷺ عما يكرهه:

روي عن أنس أنه ﷺ كان عنده رجل به أثر صفرة - وكان ﷺ لا يكاد يواجه أحداً بشيء يكرهه - فلما قام الرجل، قال النبي ﷺ للقوم: «لو قلتُم له بدع هذه الصفرة».



[أحمد، حسن، تر، د، صحيح]؛ لأن الصفرة من أثر طيب النساء، ويكره للرجل أن يتطيب بها له لون، بل يتطيب بها له رائحة فقط.

وروي عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فقال: «ائذنوا له، فبئس رجل العشير، أو بئس رجل العشيرة، فلما دخل ألان له القول. قال: يا عائشة، إن شر الناس منزلة يوم القيامة من ودَّعه - أو تركه - الناس اتقاء فحشه». [البخاري ومسلم].
وقالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن رجل شيء لم يقل ما بال يقول كذا وكذا، ولكن يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا». [أبو داود، صحيح].

٢٠- عدم ذكره عيب الطعام واستحبابه مدحه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه، تركه». [البخاري].

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ سأل أهله إداماً، فقالوا: ما عندنا إلا خل، فدعا به، فجعل يأكل، ويقول: «نعم الأدم الخل، نعم الأدم الخل». [مسلم].

٢١- من جامع صفاته وإرشاداته ﷺ:

روي عن عبد الله بن عمرو وعبد الله بن سلام رضي الله عنهما أنها قالوا: «والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ إِنْ أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وحرزا للأمين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا». [البخاري].



وكان ﷺ لا يحب أن يمدح بما فيه انتقاص لغيره من الأنبياء، ويقول: «ولا تحيروا بين الأنبياء». [البخاري، مسلم].

وكان يحث على الصبر والشكر، وفي ذلك يقول: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه». [البخاري].

وجعل مقياس القوة تملك أو ضبط النفس عند الغضب. [البخاري]. وكان ينهي عن سيئ الخلق، وفي ذلك يقول: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».. [البخاري].

وفي وصف جوامع خلقه وخلقته نورد جزءاً من الحديث الذي رواه الترمذي في الشمائل^(١) عن الحسن بن علي هشام قال: سألت خالي هند بن أبي هالة^(٢)، وكان وصافاً، عن حلية النبي ﷺ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به، فقال: «كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً، يتلألاً وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رَجَل الشعر، إن انفرت عقيقته^(٣) فَرَقَهَا، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج^(٤) الحواجب

(١) (ص ١٨-٢٦)، وقال المحقق - الشيخ الألباني: (نفرد به المؤلف، ورواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب وإسناده ضعيف، له علتان بينهما في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (٢٠٥٣)، وقد أخرجت فيه شاهداً لطرفه الأول، وقد رواه البيهقي في الدلائل من طريق أخرى، ولكن فيه علي ابن جعفر بن محمد، سكت عنه في الكاشف، وقال في الميزان: ما رأيت أحداً ليته، نعم ولا وثقه، وساق له حديثاً في فضل أهل البيت استنكره جداً، وكذلك خرجته في الضعيفة (٢١٢٢). قلت: رواه أبو نعيم في الدلائل مطولاً (٢٢٧) وابن سعد (١/ ٤٢٢) والبغوي في شرح السنة تاماً برقم (٣٧٠٥).

(٢) هند هو أخو فاطمة أم الحسن والحسين من أمها خديجة، كما مر بك، قتل مع علي يوم الجمل.

(٣) العقيقة: شعر رأسه الذي على ناصيته، أي جعلها فرقتين.

(٤) أزج: أي مقوس الحاجبين.



سوابع في غير قرن^(١)، بينهما عرق يدره الغضب^(٢)، أقنى العرَين^(٣)، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم^(٤)، مفلج الأسنان^(٥)، دقيق المسربة^(٦)، كأن عنقه جيد دُمية، في صفاء الفضة^(٧)، معتدل الخلق، بادن متماسك^(٨)، سواء البطن والصدر، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس^(٩)، أنور المتجرد^(١٠)، موصول ما بين اللبّة^(١١) والسرة بشعر يجري كالخط، عاري الثديين والبطن ما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلى الصدر، طويل الرُندَين، رَحَبَ الراحة، سَبَطَ القَصَب، ششن الكفين والقدمين، [أي غليظهما] سائل الأطراف، أو قال: سائل الأطراف^(١٢)، مُخَصَّن الأَخَصَيْن^(١٣)، مَسِيح^(١٤) القدمين ينبو

(١) أي كاملات، والقرن: اقتران الحاجبين بحيث يلتقي طرفاهما.

(٢) يدره الغضب: أي يصيره الغضب ممتلئاً دماً.

(٣) أقنى العرَين: أي طويل الأنف مع دقة أرنبته، والعرَين: ما صلب من الأنف وقيل الأنف كله.

(٤) ضليع الفم: أي واسع الفم، وهذا عند العرب يدل على الفصاحة.

(٥) الفلج: انفراج ما بين الأسنان.

(٦) دقيق المسربة: أي دقيق الشعر الذي من الصدر إلى السرة.

(٧) الجيد: العنق، والدمية: الصورة المتخذة من عاج أو غيره.

(٨) البادن: المعتدل السمنة، ومتماسك: أي قوي ومعتدل الجسم.

(٩) الكراديس: رؤوس الأعضاء كالكتف والركبة والمرفق.

(١٠) أي نير العضو المتجرد عن الشعر أو عن الثوب.

(١١) اللبّة: موضع الثغرة فوق الصدر.

(١٢) شك من الراوي. والسائل، والشائل: كذلك الطويل.

(١٣) الأخص من القدم هو الموضع الذي لا يلبصق بالأرض منها عند التوطء أو الوطء، والخمصان المبالغ

منه، والمراد أن ذلك الموضع من أسفل قدميه شديد التجافي عن الأرض.

(١٤) مسيح: أي ملساوان، ليس فيهما تكسر ولا شقاق: أي تشقق.



عنهما الماء، إذا زال زال قلماً يخطو تكفياً^(١) ويمشي هوناً، ذريع^(٢) المشية، إذا مشى كأنها ينحط من صيب، وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه^(٣)، ويبدّر^(٤) من لقي بالسلام». [وسط القصب: السبط الممتد في استواء، يوصف به الشعر والأعضاء والجلد، والقصب: مفردها قصبة، وفي كل عظم أجوف مخ].

ومن الأحاديث الجامعة في وصفه ﷺ حديث أم معبد الخزاعية، الذي سبقت الإشارة إليه في أخبار الهجرة إلى المدينة المنور، فعندما طلب أبو معبد من أم الخزاعية أن تصف له الرسول ﷺ، قالت: «رأيت رجلاً ظاهر الوضأة أبلج^(٥) الوجه لم تعبهُ ثُجَلَه^(٦)، ولم تُزر به صَقَلَه^(٧)، وسيم قسيم^(٨)، في عينيه دمع^(٩)، وفي أشفاره وطف^(١٠)، وفي صوته صَهَل^(١١)، وفي عنقه سطع^(١٢)، وفي لحيته كثافة، أزج

(١) تكفياً أو تكفؤاً كما في رواية، أي يمشي تقلصاً يخطو تكفؤاً: مائلاً قليلاً إلى الأمام.

(٢) ذريع: واسع الخطأ، والصبب، الأرض المنحدرة.

(٣) أي يمشون أمامه ويمشي هو خلفهم.

(٤) بدّر: أي يسبق.

(٥) أبلج الوجه: يعني مشرق الوجه، يقال تبلج الصبح إذا أشرق.

(٦) لم تعبهُ ثُجَلَه: الثجلة هي ضخامة البطن (النهاية).

(٧) لم تزر به صقله: أي لم يقصر، والصقل والصقلة: دقة ونحول (النهاية) والصقلة - أيضاً - جلدة الخاصرة. تريد أنه ناعم الجسم ضامر الخاصرة. وهو اسم للأوصاف الحسنة.

(٨) وسيم: أي حسن والوسامة: الحسن.

(٩) الدمع: شدة سواد العين.

(١٠) والوظف: طول شعر أشفار العين.

(١١) وفي رواية صحل: تريد أنه ليس بحاد الصوت.

(١٢) سطع: أي إشراف وطول.



أقرن^(١)، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حلو المنطق، فصل لا نَزْر ولا هَذْر^(٢)، كأن منطقَه خرزات نظم يَتَحَدَّرْنَ^(٣)، رَبْعَة^(٤)، لا يَأْس^(٥) من طول، ولا تقتحمه عين من قصر. غصن بين غصنين. فهو أنضر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدرًا. له رفقاء يَحْفُوفُونَ به، إن قال أنصتوا، وإن أمر تبادروا لأمره. محشود^(٦) محفود^(٧)، لا عابس، ولا مُفَنَّدٌ...»^(٨).

وخلاصة القول: إن النبي ﷺ قد اتصف بصفات الكمال، ولا غرو فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه، وخاطبه بقوله: ﴿وَأَنَّكَ لَآتَىٰ خُلُقِي عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن». [مسلم، وغيره].

(١) الكثافة: دقة نبات شعر اللحية، مع استدارة فيها، وقولها: أزج أقرن: الزج، دقة شعر الحاجبين مع طولها. والقرن أن يتصل ما بينهما بالشعر.

(٢) وفصل لا نزر ولا هذر: الفصل هو الكلام البين، والنزر الكلام القليل. والهذر الكلام الكثير.

(٣) يتحدرن: يتساقطن من فمه.

(٤) ربعة: أي الوسط وإلى الطول أقرب.

(٥) لا يأس: لا يؤيس من طوله، لأنه كان إلى الطول أقرب.

(٦) محشود: أي محفوف به.

(٧) محفود: أي مخدوم، والحفد: الخدمة، ويقال الرجل إذا خدمته.

(٨) في رواية البغوي: مفند. وفي رواية ابن إسحاق: معتد: أي غير ظالم.

هذا الخبر أخرجه البغوي في شرح السنة، الحديث رقم (٣٧٠٤)، وفي: الأنوار في شمائل النبي المختار، تحقيق إبراهيم القوي، الجزء الأول، ص ٣٤٠، حديث رقم (٤٥٦٩)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٣٠)، والحاكم في المستدرک (٩١٣-١٠)، وصححه وأقره الذهبي. وأخرج بعضه ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق (٢/ ١٤٦-١٤٨) بإسناد حسن لذاته. وله شواهد والقصة مشهورة.



ومن أراد أن يقف على أكبر قدر من القيم التربوية في السيرة النبوية فليقرأ موسوعة:
(نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم)، في (١٢) مجلدًا، الأخير في الفهارس،
ومعظم المجلد الأول في أحداث السيرة النبوية العطرة.





الفصل التاسع والعشرون

بعض الخصائص التي فضل بها النبي ﷺ

١- صاحب الرسالة العامة:

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨].

وقول الرسول ﷺ: «... كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس عامة» [البخاري (١/٥٥٣) / الفتح؛ مسلم (٥٢١)]. وفي رواية: «... كان كل نبي يبعث على قومه خاصة، وبعث إلى كل أحر وأسود» [مسلم (٥٢١)].

٢- في كتابه الناسخ والمنسوخ:

قال تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

وليس في سائر الكتب مثل ذلك، ولذا كان اليهود ينكرون النسخ، كما قال السيوطي [في تهذيب الخصائص، ص ٣٥٤]: «أن سائر الكتب نزلت دفعة واحدة، فلا يتصور أن يجتمع فيها الناسخ والمنسوخ، لأن شرط الناسخ أن يتأخر نزوله عن المنسوخ».

٣- أكثر الأنبياء تبعاً:

عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة». وفي رواية: «لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، إن من الأنبياء من لم يصدقه من أمته إلا الرجل الواحد» [مسلم (٣/٧٣) النووي].

٤- خاتم الأنبياء والمرسلين:

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].



وقال ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين» [البخاري (٣٥٣٥)، مسلم (١٩٤)].

٥- حماية كتابه من التحريف والتبديل وجعله من المعجزات:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

٦- جعله الله أمانة لأصحابه من العذاب والفتن في حياته:

قال ﷺ: ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

[الأنفال: ٣٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «النجوم أمانة للسماء، فإذا ذهب النجوم أتى أهل السماء ما يوعدون، وأنا أمانة لأصحابي، فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمانة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون» [مسلم (٢٥٣١)].

وقال: «... رب ألم تعذني أن لا تعذبهم وأنا فيهم؟ ألم تعذني أن لا تعذبهم وهم يستغفرون؟» [أبو داود (١١٩٤) - صحيحه الألباني كما في الصحيحة (١٠٥٥)].

٧- إقسام الله بحياته، القسم إنما يقع بالمعظم:

قال الله تعالى: ﴿ لَعَنَّاكَ إِيَّاهُمْ لِفَى سَكَرَتِهِمْ يَمُوتُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢] والمعنى: القسم بحياته وعمره

وبقائه في الدنيا. [ابن الجوزي: الوفا (ص ٣٦٤)، السيوطي: تهذيب الخصائص (ص ٣٥٧)].

٨- يسأل عنه الميت في قبره:

قال عليه الصلاة والسلام: «فأما فتنة القبر فبني تفتنون وعني تسألون، فإذا كان الرجل الصالح، أجلس في قبره غير فزع ولا مشعوف [مرعوب]، ثم يقال له: فبم كنت؟ فيقول: في الإسلام، فيقال: ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله



ﷺ، جاءنا بالبينات من عبد الله ﷺ، ثم يفرج له فرجة إلى الجنة فينظر إلى زهوها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك منها، ويقال: على اليقين كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله» [أحمد (٢٥٠٨٩) - صحيح].

٩- النداء بوصف الرسالة والنبوة: زيادة في التكريم:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

١٠- نهى الله المؤمنين عن مناداته باسمه. زيادة في التكريم كذلك:

جاء ذلك في قصة وفد بني تميم، ونزول قول الله ﷻ فيهم: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ لِيُنْزِلَ كُدُّكُمْ دُعَاءَ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

وخاطب كل نبي باسمه، ولم يخاطب نبياً ﷺ بالاسم تعظيماً له، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ١] و: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]. وعندما ذكر اسمه للتعريف بذكر الرسالة، قال ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَمَا أُمْنُوا بِمَا نُنْزِلُ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢] [الوفا (٣٦٣)].

١١- تولى الله تبرئته عما ينسبه إليه أعداؤه. والرد عليهم بنفسه:

من ذلك قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِمُعْزِزٍ لِمَجْثُورٍ﴾ [القلم: ٢] و﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢] وغير ذلك. [الوفا (ص ٣٦٤)].

وقد ذكرنا ذلك في مبحث أساليب المشركين في الصد عن سبيل الله.

١٢- اختصاصه بشرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر:

قال تعالى: ﴿الَّذِي نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ

ذِكْرَكَ ④ [الشرح: ١-٤] [الوفا (ص ٣٦٢)].



١٣- غفر الله تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخر:

قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] [المصدر السابق].

١٤- خصه الله ﷻ بفاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، والسبع الطوال، والمفضل، والمئين:

عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتاه ملك، فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة [مسلم (٩١/٦) - النووي].

وقال عليه الصلاة والسلام: «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الزبور المئين، ومكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفضل» [أحمد (١٦٩٨٢) - حسن].

١٥، ١٦، ١٧، ١٨- ذكر ما فضل به عن باقي الأنبياء:

جاء في الحديث: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون» [مسلم (٥٢٣)].

١٩- أن الله تعالى قرن اسمه باسمه في كتابه:

عند ذكر طاعته ومعصيته وفرائضه وأحكامه ووعدته تشريعاً وتعظيماً [الوفاء ص ٣٦٨]، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢].

٢٠- أعطاه الله تعالى مفاتيح خزائن الأرض بيده:

قال عليه الصلاة والسلام: «بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، فبينما أنا نائم أوتيت مفاتيح خزائن الأرض، فوضعت في يدي» قال الراوي - أبو هريرة -: وقد ذهب رسول الله ﷺ وأنتم تتشلقونها. [البخاري (٣٩٧٧)، مسلم (٥٢٣)].



٢١- ذكر في القرآن بعض أعضائه:

قال تعالى في وجهه: ﴿قَدْ رَأَى تَقلُّبَ وُجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وقال في عينيه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه: ١٣١].

وقال في لسانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [الدخان: ٥٨].

وقال في قلبه: ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧].

٢٢- اختصه الله ﷻ بالإسراء والمعراج:

قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي

بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]. [الوفا (ص ٣٦٧)، السيوطي:

تهذيب الخصائص (ص ١١٠)].

وذكرنا تفاصيل ذلك في أحداث الفترة المكية.

٢٣- الرؤية من خلفه كما يرى أمامه:

قال ﷺ: «هل ترون قبلي هاهنا؟ فوالله ما يخفى عني خشوعكم ولا ركوعكم، إني

لأراكم من وراء ظهري» [البخاري (٤١٨)، مسلم (٤٢٤)].

٢٤- اختص بصلاة العشاء عن سائر الأنبياء:

عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ أخر صلاة العشاء يومًا، ثم خرج إلى المسجد،

فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله

هذه الساعة» [البخاري (٥٦٦)، مسلم (١٤٠/٥) - النووي].

٢٥- فضله الله تعالى بدرجة الوسيطة والفضيلة يوم القيامة:

والوسيلة: أعلى درجة في الجنة، والفضيلة: المرتبة الزائدة على سائر الخلق، ويحتمل

أن يكونا بمعنى واحد، كما قال ابن حجر [في الفتح (١١٣/٢)].



٢٦، ٢٧- شرفه الله تعالى بالمقام المحمود والشفاعة يوم القيامة:

ذهب كل أهل العلم إلى أنه المقام الذي يقومه يوم القيامة للشفاعة للناس ليخفف عنهم الله من شدة ذلك اليوم، وعند ابن حجر أن المقام المحمود هو الشفاعة العظمى التي أعطاها الرسول ﷺ دون غيره من الأنبياء والرسل يوم القيامة [الفتح (٣/ ٣٩٨)].

٢٨، ٢٩- اختص بأنه أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة [مسلم]:

وأول من يفيق من الصعقة، وبأنه سيكسى في الموقف حله من حلل الجنة، ومقامه عن يمين العرش [الفتح (٣/ ٣٩٨)، الترمذي (٣٣٧٩) - صحيح].

قال عليه الصلاة والسلام: «أنا أول من تنشق عنه الأرض، فأكسى الحلة من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري» [المصدرين السابقين].

وقال: «إن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق» [متفق عليه].

٣٠- أول من يقرع باب الجنة:

قال عليه الصلاة والسلام: «أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة» [مسلم (١٩٦)].

٣١- اختصاصه بأن كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه:

عن جابر رضي الله عنه، أنه سمع عمر رضي الله عنه يقول للناس حين تزوج أم كلثوم بنت علي: ألا تهنوني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ينقطع يوم القيامة كل سبب ونسب إلا سبي ونسبي» [مجمع الزوائد (٤/ ٢٧١-٢٧٢)، الحاكم (٣/ ١٤٢) - صحيح].

٣٢- أول من يمر على الصراط:

قال عليه الصلاة والسلام: «يضرب جسر جهنم، فأكون أول من يجيز» [متفق عليه].



٣٣- واختصه بأن يكون ما بين منبره وبيته روضة من رياض الجنة؛
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري، روضة من رياض الجنة» [متفق عليه: البخاري (١٨٨٨)، مسلم (١٣٩٠)].

٣٤- يدخل من أمته الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، مع كل ألف سبعون ألفًا؛
ولم يثبت ذلك لغيره من الأنبياء. [البخاري (٦٥٤١)، مسلم (٢١٦)].

٣٥- اخصته الله تعالى بالدعوة المستجابة؛
قال ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله، من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا» [البخاري (٦٣٠٤)، مسلم (١٩٩) - ولفظه].

٣٦- اختص في الدنيا بأن جعل الله أمته خير الأمم؛
قال عليه الصلاة والسلام: «فضلت على الأنبياء بست لهم يعطهن أحد كان قبلي...» وذكر منها: «وجعلت أمتي خير الأمم» [المجمع (٢٦٩/٨) جيد].

٣٧- تحريم التكني بكنيته، ولم يثبت ذلك لأحد من الأنبياء؛
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يجمع بين اسمه وكنيته، ويسمى محمدًا أبا القاسم» [الترمذي (٢٦٤٤) - حسن، البخاري: الأدب المفرد (٨٤٤) - حسن].
وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تسموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي» [البخاري (٦١٨٧، ٦١٩٠)، مسلم (٢١٣١)].

٣٨- أحل الله ﷻ له الهدية بخلاف غيره من ولادة الأمور؛
ذكرنا لذلك أمثلة في فصل الشائل والمعجزات.



٣٩- تحريم الزكاة والصدقة عليه وعلى آله وعلى مواليه وموالي آله:

قال ﷺ: «إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس، وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد» [مسلم (٧/ ١٧٩، ١٨١ / النووي)].

٤٠- إسلام قرينه:

قال عليه الصلاة والسلام: «ما منكم من أحد إلا ومعهم قرينه من الجن وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله! قال: «ولياي، ولكن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير» [مسلم (٢٨١٤ / ٦٩)، أحمد (٣٦٤٨) - صحيح].

٤١- لا ينام قلبه:

قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله! تنام قبل أن توتر! قال: «تمام عيني، ولا ينام قلبي» [البخاري (٣٥٦٩، ٣٥٧٠)، مسلم (٧٦٣)].

٤٢- التجاوز لأمرته عن حديث النفس والخطأ والنسيان:

قال ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به نفسها، ما لم يتكلموا أو يعملوا به». [البخاري (٦٦٦٤)، مسلم (١٢٧)].

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله تجاوز لي عن أمتي: الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه» [ابن ماجه (٢٠٤٣) - صحيح، الحاكم (١٩٨ / ٢) - صحيح].

٤٣- حفظ أمرته من الهلاك والاستئصال:

قال عليه الصلاة والسلام: «... وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكهم بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال لي: يا محمد! إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من



بأقطارها - أو قال: من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعض، ويسبي بعضهم بعضًا» [مسلم (٢٨٨٩)].

وفي رواية: أنه سأل ربه أن لا يهلك أمته بالغرق، فأعطاه ذلك [مسلم (٢٨٩٠)].

٤٤- عدم اجتماع أمته على ضلالة؛

قال ﷺ: «إن الله تعالى قد أجار أمتي أن تجتمع على ضلالة» [ابن أبي عاصم، السنة (٧٩) - صحيح].

٤٥- لا يعدم عصر من عصور أمته من جماعة ظاهرة على الحق؛

قال عليه الصلاة والسلام: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك» [البخاري (٣٦٤١)، مسلم (١٩٢٠) لفظه].

٤٦- اختص الله تعالى أمته بأنهم شهداء الله ﷻ في الأرض؛

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مروا بجنائزة على النبي، فأتنوا عليها خيرًا، فقال: «وَجِبَتْ»، ثم مروا عليه بأخرى فأتنوا عليها شرًا، فقال: «وَجِبَتْ» فقالوا: يا رسول الله: قولك الأولى والأخرى وجبت! فقال ﷺ: «الملائكة شهداء الله في السماء، وأنتم شهداء الله في الأرض» [البخاري (١٣٦٧)، مسلم (٩٤٩)، النسائي (٥٠/٤)].

٤٧- ميز الله تعالى أمته يوم القيامة بالقر والتَّحجيل من أثر الوضوء؛

قال عن الحوض يوم القيامة: «... وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه» قالوا: يا رسول الله! أتعرفنا يومئذ، قال: نعم، لكم سيمًا [علامة] ليست لأحد من الأمم، تردون عليَّ غُرًّا محجلين من أثر الوضوء» [مسلم (٢٤٧)].



٤٨- أبيح له الوصال في الصوم دون غيره من أفراد أمته؛

قال ﷺ: «لا تواصلوا» قالوا: إنك تواصل، قال: «لست كأحد منكم، إني أطعم وأسقى» [البخاري (١٩٦١)، مسلم (١٨٢)]. وفي رواية: «... إني لست كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقين» [البخاري (١٩٦٤)، مسلم (١١٠٥)].

٤٩- اختص بإباحة الزواج له من غير ولي ولا شهود؛

جاء في حديث زينب بنت جحش الذي ذكرناه في فصل (أمهات المؤمنين)، أنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول: «زوجكن أهليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات» [البخاري (٧٤٢٠)].

٥٠- أبيح له الزواج بأكثر من أربع نسوة بلا تقييد بعدد؛

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي آتَيْتَ أَجْرَهُمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِنْ أُمَّةٍ أَلْفًا اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

قالت عائشة رضي الله عنها: «ما توفي رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء» [البخاري (١٣٨)، مسلم (٤٤/٦ - ٤٥ / النووي)].

٥١- لا ينقص وضوؤه بالنوم مضطجعا؛

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ نام حتى نفخ، ثم صلى ولم يتوضأ. [البخاري (١٣٨)، مسلم (٤٤/٦ - ٤٥ / النووي)].

٥٢- يقبل شهادة من يشهد له والحكم لنفسه وولده. ويشهد لنفسه وولده؛

ويشهد لهذا كله حديث خزيمة بن ثابت رضي الله عنه، وذلك أن رسول الله ﷺ اشترى من أعرابي فرساً، ثم أنكر الأعرابي أنه باعه، وطلب من الرسول ﷺ شاهداً على البيع، ولم يكن أحد قد شهد البيع، وجاء خزيمة وقال للأعرابي: أنا أشهد أنك قد بايعته.. فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشاهدة رجلين. [أبو داود (٣٦٠٧)، النسائي (٣٠١/٨) الحاكم (١٧٧/٢) صحيح].



٥٣- القضاء بعلم نفسه؛

قالت هند زوجة أبي سفيان رضي الله عنه: إن أبا سفيان رجل مسيك [أي: شحيح] فهل عليّ من حرج أن أطعم من الذي له عيالنا؟ قال: «لا حرج عليك» [البخاري (٧١٦١)].

٥٤- أبيح له الاصطفاء من الغنيمة قبل القسمة؛

ويعرف بسهم الصفي، كما جاء مصرحاً به في سنن أبي داود [(١٢٨ / ٢) صحيح]. والبيهقي [الكبرى (٣٠٣ / ٦)]. في حديث وفد عبد القيس. [انظر: ابن قدامة: المغني (٩ / ٢٩٢)].

٥٥- أبيح له دخول مكة بلا إحرام، وإباحة القتال فيها ساعة؛

جاء ذلك في أحداث فتح مكة. [البخاري (٤٢٩٥)].

٥٦- أن أزواجه اللاتي توفي عنهن محرمات على غيره أبدأ؛

وفيمن فارقتها في حياته أوجه، أصحابها التحريم.

واستدلوا في هذا بقوله تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَجُهُنَّ

أُمَّهَاتُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٦]. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ

بَعْدِهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

٥٦- وأن أزواجه أمهات المؤمنين؛

استدلوا بالآية: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ﴾

[الأحزاب: ٥٣] [انظر: مغلطاى: الإشارة (ص ٥٤)].

٥٧- أن كذباً عليه ليس ككذبٍ على غيره؛

قال ﷺ: «إن كذباً عليّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليّ متعمداً، فليتبوأ

مقعده من النار». [البخاري (١٢٩١)، مسلم: المقدمة (٤)].

٥٨- من رآه في المنام فقد رآه حقاً؛

قال ﷺ: «ومن رآني في المنام فقد رآني...» [البخاري (١١٠)، مسلم (٢٢٦٦)].



٥٩- أن الأرض لا تأكل لحمة كسائر الأنبياء:

قال ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» [أحمد (١٦١٦٢) صحيح].

٦٠- من استهان به أو سبه كفر:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾

[الأحزاب]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة].

وقد روي أن رجلاً قتل أم ولد له كانت تشتم الرسول ﷺ، فنهاها فلا تنتهي. فطعنها

بمغول - سيف قصير - فقتلها، فأهدر الرسول ﷺ دمه. [أبو داود (٤٣٦١) صحيح].

٦١- اختصه الله تعالى بالعصمة في الأقوال والأفعال:

قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٢، ٣] فهو معصوم

من كل ذنب كبيراً أو صغيراً عمداً أو سهواً. [انظر: تهذيب الخصائص (٤٣٤)].

٦٢- حرم الله تعالى عليه خائنة الأعين:

يعني الإيذاء إلى مباح من قتل أو ضرب على خلاف ما يظهر ويشعر به الحال، ولا

يحرم ذلك غيره إلا في محظور [السيوطي: الخصائص (٤١٥/٢)].

مثاله في قصة عبد الله بن أبي السرح حين أهدر الرسول ﷺ دمه فيمن أهدر يوم

فتح مكة. [أبو داود (٤٣٥٩)، النسائي (٧/ ١٠٥-١٠٦)؛ الحاكم (٤٥/٣) - صحيح].

٦٣- لا يورث كسائر الأنبياء فالأنبياء لا يورثون:

قال ﷺ: «... وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم...» [أبو داود

(٣٦٤١)، الترمذي (٢٦٨٢)، أحمد (١٩٦/٥)، ابن ماجه (٢٢٣) صحيح].

وقال ﷺ: «لا نورث، ما تركنا صدقة» [البخاري (٦٧٣٠)، مسلم (١٧٥٨)].



٦٤- أخبر الله بغضران ذنب نبينا من غير أن يذكر له ذنباً؛

قال ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

٦٥- اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام خليلاً؛

فقال عليه الصلاة والسلام: «... ولكن صاحبكم خليل الله» [مسلم (٢٢٨٣)، وغيره].

٦٦- تقدم نبوته قبل نفخ الروح في آدم ﷺ؛

ودليل هذا:

- عن ميسرة الفجر رحمته الله قال: قلت: يا رسول الله! متى كنت نبياً؟ قال: «وآدم بين

الروح والجسد» [أحمد (٢٠٥٦٩) صحيح، البخاري: الكبير (٧/ ٤٧) صحيح].

- وعن أبي هريرة رحمته الله قال: قالوا: يا رسول الله! متى وجبت لك النبوة؟ قال:

«وآدم بين الروح والجسد» [الترمذي (٣٣٧٧) صحيح].

- وعن العرياض بن سارية رحمته الله، أن رسول الله قال: «إني عند الله لخاتم النبيين،

وإن آدم لمُنْجِدِل في طينته» [أحمد (١٧١٦٣) صحيح بشواهده].

٦٧- اختصه الله تعالى بالحكم والفتوى في حالة الغضب، لأنه مأمون منه؛

ذكر هذا النووي في شرح صحيح مسلم عند حديث اللقطة، فإنه أفتى فيه، وقد

غضب حتى احمرت وجنتاه» [تهذيب الخصائص (ص ٤١٧)].

٦٨- اختصاصه ﷺ بوجوب صلاة الليل؛

ودليله قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُبَعِّثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾

[الإسراء: ٧٩]. وقال تعالى: ﴿تَبَآئِبُ الرِّزْقِ ۚ﴾ ﴿وَأَيُّلُ الْأَمَلِيلَا﴾ [المزمل: ١-٢].

٦٩- اختصاصه ﷺ بتحريم أكل ما له ريح كريهة؛

وثبت هذا في الصحيح [البخاري (٧٣٥٦)، مسلم (٥٦٤-٥٦٧)].



٧٠- اختصاصه ﷺ بتحريم الكتابة والشعر:

ومن أدلته قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطُلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩].

٧١- اختصاصه ﷺ بتحريم إمساك كارهته:

ودليله: أن ابنة الجون لما دخل عليها النبي ﷺ ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك، فقال: «لقد عدت بعظيم، الحقّي بأهلك» [البخاري (٥٢٥٤)].

٧٢- اختصاصه ﷺ بإباحة الصلاة بعد العصر:

ودليل هذا:

أ- عندما سئلت عائشة رضي الله عنها عن السجدين اللتين كان رسول الله ﷺ يصليهما بعد العصر، قالت: «كان يصليهما قبل العصر، ثم إنه شغل عنها فصلاهما بعد العصر، ثم أثبتهما، وكان إذا صلى صلاة أثبتها» [مسلم (٨٣٥)؛ البخاري (١٢٣٣)].

ب- وعن عائشة أيضًا قالت: «ركعتان لم يكن رسول الله ﷺ يدعمهما سِرًّا ولا علانية، ركعتان قبل الصبح، وركعتان بعد العصر» [البخاري (١٢٣٣)، مسلم (٤٣٧٠)، مسلم (٨٣٥)].

٧٣- اختصاصه ﷺ بإباحة القتال بمكة المكرمة والقتل بها:

ومن أدلته، عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر، فلما نزع جاءه رجل فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة، فقال: «اقتلوه» [البخاري (٤٤٨٦)، مسلم (١٣٥٧)، وغيرهما].

وعن أبي شريح العدوي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الفتح: «إن مكة حرمها الله ولم يجرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بهذا



دماً، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم». [البخاري (٤٢٩٥)؛ مسلم (١٣٥٣)؛ الترمذي (٧١٦)].

٧٤- ومن خصائصه أن له النكاح بلفظ الهبة وبلا مهر ابتداء وانتهاء؛
ومن أدلته قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسًا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

٧٥- ومن خصائصه ﷺ إباحة النظر إلى الأجنبية والخلو بهن؛
ومن الأدلة على هذا:

قالت الربيع بنت معوذ بن عفراء ~~حين~~ حين سأها خالد بن ذكوان: (جاء النبي ﷺ فدخل عليّ غداة بُني علي، فجلس على فراشي كمجلسك مني) [البخاري (٥١٤٧)].
وجاء في الشرائع أن الأمة كانت تأخذ بيده ليقضي لها حاجتها في المكان الذي تختاره من سكك المدينة، وقصة دخوله على أم حرام بنت ملحان ونومه عندها وتقلبتها رأسه، ولم يكن من محارمها. [البخاري (٢٨٧٧، ٢٨٧٨)].

٧٦- ومن خصائصه ﷺ أنه كان يزوج من شاء من النساء بمن شاء من الرجال بغير رضاهن ورضا آبائهن؛

ودليل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقوله ﷺ: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة»، وعندما عرضت امرأة نفسها عليه قال: «ما لي بالنساء حاجة» فقال رجل: يا رسول الله! زوجنيها، فقال: «زوجتكها بما معك من القرآن» وذلك بعد حوار معه اتضح فيه أنه فقير [البخاري (٥١٤٩)، مسلم (١٤٢٥)].



٧٧- ومن خصائصه ﷺ وجوب جلوس أزواجه من بعده في بيوتهن؛

وتحريم خروجهن إلا لحاجة ضرورية أو طبيعية أو شرعية، كالمشي إلى المسجد، أو عيادة مريض، أو زيارة قريب، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقوله ﷺ لمن في حجة الوداع: «هذه، ثم ظهور الحصر» [أحمد (٢١٩١٠) - حسن لغيره].

٧٨- ومن خصائصه ﷺ أن تطوعه في الصلاة قاعداً كتطوعه قائماً؛

ودليله أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله! حدثت أنك قلت: صلاة الرجل قاعداً نصف الصلاة، وأنت تصلي قاعداً؟! قال: «أجل. ولكني لست أحدكم» [مسلم (٧٣٥)].

٧٩- ومن خصائصه ﷺ أن عمله كان له نافلة؛

ودليله: عندما سئلت عائشة رضي الله عنها عن وصل صيام الرسول ﷺ قالت: «أتعملون كعمله، فإنه قد غفر له ما تقدم وما تأخر، كان عمله له نافلة» [أحمد (٢٦١٥١) صحيح].

٨٠- ومن خصائصه ﷺ أن المصلي يخاطبه بصلاته؛

بقوله: (السلام عليك أيها النبي)، ولا يخاطب سائر الناس، وأنه يجب عليه أجابته إذا دعاه. ودليله من أحاديث التشهد المشهورة، وأما إجابته، فعن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه، أن النبي ﷺ دعاه وهو يصلي فصلى، ثم أتاه فقال: «ما منعك أن تجيبني إذ دعوتك» قال: إني كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]»، ثم قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن»، قال: فكانه نسيها أو نسي [وذلك عندما هم بالخروج]، قلت: يا رسول الله! قلت لي: ألا أعلمك... إلخ، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هي السبع المثاني والقرآن العظيم. [البخاري (٥٠٠٦)].



٨١- ومن خصائصه ﷺ أنه كان لا يجوز لأحد الخروج من مجلسه إلا بإذنه؛

ودليله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢].

٨٢- ومن خصائصه ﷺ وجوب محبته ومحبة أهل بيته وأصحابه؛

ودليله من القرآن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ودليله من السنة: قول الرسول ﷺ لعمر رضي الله عنه عندما قال: يا رسول الله! لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال له عمر رضي الله عنه: فإنه الآن، والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر» [البخاري (٦٦٣٢)].

٨٣- ومن خصائصه ﷺ أن أولاد بناته ينسبون إليه بخلاف بنات غيره؛

ودليله قوله في الحسين بن علي رضي الله عنه: «إن ابني هذا سيد» [البخاري (٣٧٤٦)].

٨٤- ومن خصائصه ﷺ أن رؤياه وحي، وكل ما رآه فهو حق؛

وقد ذكرنا أدلة هذا في مبحث إرهاصات النبوة قبل البعثة.

٨٥- ومن خصائصه ﷺ تشريفه بالصلاة عليه؛

ودليله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقوله ﷺ: «من صلى علي واحدة، صلى الله عليه عشراً» [مسلم (٤٠٨)].



٨٦- ومن خصائصه ﷺ أن أصحابه كلهم عدول بإجماع من يعتد به؛

والأدلة على هذا كثيرة من الكتاب والسنة، أفرد لها بعض الكتاب كتباً أو أبحاثاً خاصة.

٨٧- اختصاصه ﷺ بالصلاة عليه حين موته أفراداً بغير إمام وبغير

دعاء الجنازة المعروف؛

وقد ذكرنا ذلك في فصل: (الوفاة).

٨٨- اختصاصه ﷺ بدفنه في بيته حيث قبض؛

وقد ذكرنا دليله في فصل الوفاة.

٨٩- إكرامه ﷺ بحياته في قبره واستغفاره لأمته؛

وتوكيل ملائكة سياحين في الأرض يبلغونه من سلم عليه.

ودليله قوله ﷺ: «إن لله ملائكة في الأرض سياحين، يبلغوني من أمتي السلام»

[أحمد (٣٦٦٦) صحيح على شرط مسلم].

٩٠- كان السواك في حقه ﷺ واجباً؛

ومن أدلة هذا قوله ﷺ: «لقد أمرت بالسواك حتى ظننت أنه ينزل علي به قرآن

أو وحي». وقال: «لقد لزم السواك حتى تخوفت أن يُدْرَني». [البيهقي: الكبرى

(٧/ ٤٩ / صحيح)، ويُدرَني: يذهب بأسناني]. وقال ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني

بالسواك، حتى خشيت على أضراسي». [المصدر السابق].

٩١- كان له ﷺ أن يقبل وهو صائم بغير كراهة؛

ودليله قول عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ يقبل وهو صائم، ويباشر

وهو صائم، ولكنه أملككم لإربه)، وفي رواية: (كان رسول الله ﷺ يقبلني



وهو صائم، وأيكم يملك إربه كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه)
[مسلم (٧٧٧/٢) النووي].

٩٢- وكان بوله ودمه يتبرك بهما، ولم ينكر ذلك:

ودليل التبرك بوله: عن حكيمة بنت أميمة عن أمها: كان النبي ﷺ يبول في قدح عيدان، ثم يرفع تحت سريره، فبال فيه، ثم جاء فأراد، فإذا القدح ليس فيه شيء، فقال لامرأة يقال لها بركة، كانت تخدم أم حبيبة، جاءت بها من أرض الحبشة: «أين البول الذي كان في القدح؟» قالت: شربته فقال: «لقد احتظرت من النار بحظار» [الطبراني الكبير (٢٤/ ١٨٩، ٢٠٥)، البيهقي: السنن (٦٧/٧) صحيح].

ودليل التبرك بدمه: فعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ وهو يحتجم، فلما فرغ قال: «يا عبد الله! اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد» فلما برزت عن رسول الله ﷺ عمدت إلى الدم فحسوته، فلما رجعت إلى النبي ﷺ قال: «ما صنعت يا عبد الله؟» قال: جعلته في مكان ظننت أنه خاف على الناس، قال: «فلعلك شربته». قلت: نعم، قال: «ومن أمرك أن تشرب الدم؟ ويلك من الناس، وويل للناس منك» [الحاكم (٣/ ٥٤٤)، أبو نعيم: الحلية (١/ ٣٣٠) - حسن].

٩٣- اختصاصه ﷺ بالغسل وعليه قميصه حين موته:

والدليل عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما أرادوا أن يغسلوا رسول الله ﷺ قالوا: ما ندري أنجرده من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم، ثم كلمهم مكلّم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أن اغسلوا النبي وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص دون أيديهم». [أحمد (٦/ ٢٦٧) حسن، أبو داود (٣١٤١) حسن].



٩٤- اختصاصه ﷺ بأن لم يوجد له مثلما يخرج من أوساخ البطن
عندما أرادوا غسله بعد موته:

ودليل هذا:

عن علي عليه السلام قال: «لما غسل النبي ﷺ ذهب يلتمس منه ما يلتمس من الميت فلم
يجده، فقال: بأبي الطيب طبت حيًّا وطبت ميتًا». [ابن ماجه (١٤٦٧)، صحيح،
الحاكم (٦٠/٣) وصححه].





تنبيه:

تجد في حواشي الفصل التالي بعض اختصار لأسماء بعض المصادر أو المراجع،

وهي:

- بخ = البخاري.
- م = مسلم.
- د = أبو داود.
- تر = الترمذي.
- ن = النسائي.
- مج = ابن ماجه.
- حم = الإمام أحمد.
- حك = الحاكم.
- بهد = البيهقي: دلائل النبوة.
- طب = الطبراني.
- طبك = الطبراني المعجم الكبير.

الفصل الثلاثون

بعض المعجزات النبوية (دلائل النبوة)

المعجزة: هي الأمر الخارق للعادة، المقرون بالتحدي، الدال على صدق الأنبياء، والواقع على وفق دعوى المتحدّي بها، مع أمن المعارضة.

أما الأمر الخارق من غير تحد فهو الكرامة للولي.

وما جرى للأنبياء قبل الرسالة من خوارق فهي إرهابات تمهد للرسالة والنبوة.

وقد أجرى الله ﷻ على يد ولسان نبيه محمد ﷺ معجزات كثيرة، تزيد على الألف ومائتين، نذكر أمثلة قليلة جدًا منها:

١- القرآن الكريم: المعجزة العظمى الباقية؛

تدرج القرآن في التحدي للعرب بأن يأتوا بمثله، أي الكل: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور: ٣٤) ثم الإتيان بالجزء القليل منه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِمِثْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود: ١٣) ثم الجزء الأدنى وهو سورة واحدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٨) ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣-٢٤) وفشلوا في هذا التحدي إلى اليوم.

إن معجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، تحمل في طياتها كل أنواع المغيبات ودلائل الإعجاز والنبوة. ففيه أخبار ما قبله وما بعده، وإعجازات علمية وأدبية بلاغية وغيبية ولا تنقضي عجائبه، كلما درسه العلماء في كل زمان ومكان.

[يأتي ذكر نماذج من المعجزات العلمية في القرآن الكريم - الفصل الحادي والثلاثون].



٢- انشقاق القمر: ﴿اَفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ﴾ (١) وَلَئِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ (القمر، ١-٢).

سأل جماعة من زعماء مكة الرسول ﷺ أن يريهم آية، وقالوا: إن كنت صادقاً فاشقق لنا القمر فرقتين: نصفاً على جبل أبي قبيس ونصفاً على جبل قُعيْقُعَان. فقال لهم: «إن فعلت تؤمنوا؟»، قالوا: نعم. ففعل ما أرادوا، فلم يؤمنوا، وقالوا: سحر محمد أعيننا. وقال بعضهم لبعض: لئن كان محمد سحرنا، ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فاسألوا السفار. فسألوهم، فأكدوا الحدث، بأنهم رأوا القمر قد انشق، فأنزل الله تعالى الآية المذكورة. [بخ (٣٨٦٨، ٣٢٥١، ٣٢٥٣، ٣٤٢٨، م (٢٨٠٠) - وقيس وقعيقعان: جبلان بمكة]. وقد أثبت العلم صدق القرآن والحديث في معجزة انشقاق القمر.

يقول داود موسى بيدكوك: (سبب إسلامي أني استمعت، أو حضرت مناظرة وقعت بين ثلاثة من علماء الفضاء الأمريكيان مع مجموعة من العلماء البريطانيين في التلفاز البريطاني...).

وخلاصة كلام بيدكوك أن الأمريكيان اكتشفوا عند صعودهم إلى القمر أنه انشق ذات يوم إلى نصفين. [الإعجاز العلمي في القرآن والسنة لفارس، ص: ١٥٨ - من كلام الشيخ الزنداني في مقابلة قناة الجزيرة؛ محمد حسني يوسف: الإعجاز العلمي في أسرار القرآن الكريم والسنة النبوية (٢/ ٢٥٩ - ٢٦٢)].

٣- استسقاؤه ﷺ ربه ﷻ لأُمته حين تأخر المطر:

جاءه أعرابي وهو يخطب يوم الجمعة، فقال: ...هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع ﷺ يديه، فنزل المطر على التو، حتى الجمعة القادمة، حين جاء الأعرابي ذاته وذكر تهدم البناء، فدعا: «اللهم حوالينا ولا علينا» فكانت الإجابة من الله ﷻ. [بخ (٨٤٥، ٨٩١)، م (٨٩٧)].



٤- نبع الماء الطهور من بين أصابعه:

ذكر الشامي في سبله ثلاث عشرة رواية في هذا الشأن، منها:

كان ﷺ يوماً بالزوراء [قرب المسجد] وحانت صلاة العصر، ولا ماء بالمكان، فأني ﷺ بوضوء، فوضع يده في فتحة الإناء، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه، فرأى أنس رضي الله عنه الماء ينبع من بين أصابعه حتى توضؤوا عن آخرهم. وكانوا زهاء ثلاثمائة. [بخ (٢٣٨٠) م (٢٢٨٩)].

٥- تكثير ماء الآبار:

ومثال ذلك:

أ/ أن زياد بن الحارث الصُدائي اشتكى إلى النبي ﷺ قلة ماء بئر لهم باليمن في الصيف، وكانوا قبل إسلامهم يفرقون على مياه من حولهم، وأصبحوا أعداء لهم بعد إسلامهم، فطلب دعاء النبي ﷺ ليسعهم ماء بئرهم، ولا يفرقوا.

فدعا ﷺ بسبع حصيات فركهن بيده ودعاء فيهن، ثم قال ﷺ: «اذهبوا بهذه الحصيات، فإذا أتيتم البئر فألقوها واحدة واحدة، واذكروا اسم الله عز وجل».

ففعّلوا، فما استطاعوا بعد أن ينظروا إلى قعرها [بهد (١٢٧/٤)، أبو نعيم (١٤٧/٢)؛

حم (١٦٩/٤)، حسن].

ب/ تكثيره ماء بئر الحديبية:

فعندما نصب ماء بئر الحديبية، وعطش الناس، انتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فجاش لهم بالري، فارتووا جميعاً [بخ (٣٧٣١-٢٧٣٢)] وفي رواية أنه جلس على شفة البئر فدعا بماء فمضمض ومج في بئر. [بخ (٣٥٣٣)] ويمكن الجمع بين الروایتين بأن يكون الأمران معاً وقعا، كما ذكر ابن حجر [الفتح (١٦٤/١١)].



٦- تكثيره ماء المزداتين [القريتين]:

اشتكى أصحابه العطش وهم في سفر، فوجدوا امرأة معها قربتان من الماء، فأخذوها إلى النبي ﷺ، فدعا بإناء فأفرغ فيه من أفواه المزداتين، فمضمض من الماء، وأعاد في أفواه المزداتين، فسقى كل الناس، وبقي ماء المرأة كما هو، فكان ما شاهدته سبباً في إسلامها وإسلام قومها. [بخ (٣٢٧-٣٥٧١)، م (٦٨٢-٣٠١٣)؛ حم (١٩٨٩٨)].

٧- تكثير اللبن في القدح:

سقى سبعين من أصحابه من قدح لبن أهدي إليه. [بخ (٦٤٢٥)].

٨- تكثيره السمن في العكة:

كانت البهزية، أم مالك، تهدي إليه ﷺ سمناً في عكة، فبينما بنوها يسألونها عن إدام وليس عندها شيء، فعمدت إلى العكة فوجدت فيها سمناً، فما زال يقيم لها إدام بنيتها حتى عصرته، فأنت النبي ﷺ فقال: «عصريها» فقالت: نعم. قال: «لو تركتها ما زال ذلك قائماً» [م (٢٢٨٠)].

٩- تكثير الشعير:

سأل رجل النبي ﷺ طعاماً، فأطعمه شطر وسق من شعير، فما زال يأكل منه هو وامرأته وضياف لهم حتى كالوه، فأخبر النبي ﷺ، فقال: «لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم» [م (٢٢٨١)].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «مات رسول الله ﷺ وما بقي في بيتي إلا شطر من شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال علي فكلته ففني» [بخ في الرقاق (٥٨/١٤-٥٩)، م: في الزهد (١٨/١٠٧/النووي)؛ حم (١٠٨/٦) - صحيح].



وخبزت أم طلحة مد دقيق شعير، فدعا أبو طلحة النبي ﷺ ليأكلها معهم، ودعا الرسول ﷺ ثمانين من أصحابه فأكلوا وشبعوا وأهديت الفضلة للجيران [بخ (٣٥٧٨) - (٤١٠٣)؛ م (٢٠٣٩ - ٢٠٤٠)].

١٠- تكثيره التمر:

كان لجابر رضي الله عنه غرماء، لا يكفيهم حصاد نخله، فجلس رضي الله عنه على أعظم كوم منها بعد أن طاف به ثلاث مرات، فبورك فيه، فوفى الغرماء، وبقي بعضه [بخ (٢١٢٧) - (٢٣٩٥) - (٢٦١٠)].

١١- تكثيره اللحم:

عن أبي عبيدة رضي الله عنه أنه طبخ للنبي ﷺ قدرًا، فقال له: «ناولني ذراعًا»، فناولوه الذارع، وكرر الطلب، فقال بعد الثالثة: يا نبي الله، وكم للشاة من ذراع؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لو سَكَّتْ لأعطيت أذرعا ما دعوت به» [الدارمي (٤٥) - صحيح].

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رضي الله عنه أُتِيَ بقصعة بن ثريد، فأخذ الناس يتعاقبون عليها إلى الظهر، فقال رجل لسمرة: أما كانت تُمَكُّ؟ فقال: «من أي شيء تعجب، ما كانت تُمَكُّ إلا ها هنا وأشار بيده إلى السماء» [الدارمي (٧٥) الترمذي (٣٢٩٤) حك (٢١٨/٢) - وكلها صحيحة].

عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه أنه: «اشترى شاة من أعرابي في أحد أسفاره، فَشَوَّى سواد بطنها، فأكل منها مع أصحابه المائة والثلاثين حتى شبعوا، وفضل منها» [حك (١١١/٤) - صحيح].

١٢- تكثير حييس أم سليم -والدة أنس - [وهو: طعام من حليب مجفف وسمن]:

عندما تزوج الرسول ﷺ زينب بنت جحش رضي الله عنها أهدته أم سليم حييسًا، دعا رضي الله عنه واحدًا وسبعين أو اثنين وسبعين من أصحابه فأكلوا منه حتى شبعوا منه وضعه أنس قدام زينب. [م (١٤٣٣/١٤٣٥)، (١٤٢٨)].



١٣- تكثيره فضلة أزواد أصحابه:

أراد أصحابه أيام سفرة غزوة تبوك أن ينحروا بعض رواحلهم عندما أصابتهم مخمصة شديدة، فكانت مشورة عمر أن يجمع الناس فضلة أزوادهم ليدعو الرسول ﷺ فيها بالبركة، ففعل ﷺ، فشبع الجيش من هذه الفضلات وتزودوا. [م (٢٧) و (٢٨)؛ حك (٢/٦١٨ - ٦١٩) - صحيح، أحمد (٣/٤١٧ - ٤١٨) - صحيح].

١٤- تسبيح الطعام والشراب بين يديه ﷺ:

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كنا نأكل مع رسول الله ﷺ فنسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل». [بخ (٣٥٧٩ - ٣٣٨٦)، تر (٣٦٣٣) - حسن صحيح]

١٥- انقياد الشجر له ﷺ وسلامها عليه:

أ- دعا ﷺ شجرتين ليقضي حاجته بينهما، فانقادتا له كالبعير الذي يجر من حلقة في أنفه، ثم رجعتا بعد قضاء حاجته. [م (٣٠١٢)].

ب- دعا ﷺ عذقا في شجرة [أي عرجونا] فيه من الشماريح فسقط إلى الأرض ينقرز حتى سجد بين يديه، ثم أمره بالرجوع، فرجع إلى شجرته.

فأسلم الأعرابي الذي طلب منه ما يعرفه بأن محمداً ﷺ نبي. [التاريخ الكبير (٣/١) - أبو يعلى: المسند (٢٣٥٠) صحيح، ابن حبان (٢١١٠) - صحيح].

ج- عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، قال: سألت مسروقاً: من أذنَ (أعلم) النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن، فقال: حدثني أبوك، قال: «أذنت بهم شجرة». [بخ (٢٥٨/٥)].

د- عن يعلى بن مرة رضي الله عنه، قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ، فنزلنا منزلاً، فنام رسول الله ﷺ، فجاءت شجرة تشق الأرض، حتى غشيتها، ثم رجعت مكانها، فلما



استيقظ، ذكرت ذلك له، فقال ﷺ: «هي شجرة استأذنت ربها ﷺ في أن تسلم عليّ، فأذن لها». [حك (٦١٧/٢) - صحيح].

هـ- دعا ﷺ سَمْرَةَ كانت بشاطئ الوادي، فأقبلت تَجِدُّ الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهدها، فشهدت الشهادتين، ثم أمرها فرجعت إلى مكانها. [بهد (٦/١٤) - ١٥؛ المجمع (٨/٢٩٢)؛ ابن كثير التاريخ (٦٧٧٨)].

و- عندما أعان ﷺ سلمان الفارسي في زراعة ثلاثمائة من الفسائل [فراخ النخل - الْوَدْيُ] لسيدة وينال حرите، لم تمت واحدة من التي وضعها بيده في الحفرة [ابن هشام (١/٢٨١) - حسن].

وفي رواية: أنها حملت من عامها، ما عدا واحدة غرسها عمر هاشم [بهد (٢/٢٨٢) - ٦/٩٧)، المجمع (٩/٣٣٥) - وعزاه لأحمد والبخاري، وقال: ورجاله رجال الصحيح].

ز- تكثيره الذهب الذي دفعه لسلمان الفارسي هاشم: أُنِيَ رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من الذهب، فدفعها لسلمان هاشم لأداء مكاتبة تحريره من سيده اليهودي، فقال سلمان هاشم: وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليّ؟ فقال ﷺ: «خذها، فإن الله سيؤدي بها عنك»، قال: فأخذتها فوزنت لهم منها - والذي نفس سلمان بيده - أربعين أوقية فأوفيتهم حقهم منها... [حم (٢٣٧٣٧)، حسن].

١٦- تحرك الجبل فرحاً به ﷺ:

رجف جبل أحد أو حراء عندما كان عليه ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان هاشم، فقال ﷺ: «أثبت، عليك نبي وصديق وشهيد». وفي رواية بزيادة: «وعلي وطلحة الزبير...»، فقال ﷺ: «اهدأ، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد» [م (٢٤١٧)]. وفيه أن الجبل حراء، وزاد ثامناً، وهو: سعد بن أبي وقاص هاشم.



١٧- تحرك المنبر من أسفل شيء منه.

عندما كان يخطب ويذكر جبروت المولى ﷺ: [م (٣٠٧/١٠) النووي]. وفي رواية أنه رجف برسول الله ﷺ حتى قال الصحابة: «ليخرنَّ عنه». [حك (٢/٢٥٢، ٤٣٦) صحيح].

١٨- وسبق ذكره معجزة تنكيس الأصنام بمجرد الإشارة إليها يوم فتح مكة:

وذكرنا معجزة تفتت الصخرة يوم الخندق. وسلام الأحجار عليه وهو بمكة، ومن رواية مسلم.

١٩- قصصه المعجزة مع الحيوانات:

(أ) انقياد الحيوانات له ﷺ:

عندما عاند جمل أصحابه من الأنصار، رافضاً الخطام، استعانوا بعد الله تعالى بالنبى ﷺ، وناداه قائلاً: «تعال»، فجاءه مطأطأً رأسه، حتى خَطَمَهُ، وأعطاه أصحابه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، كأنه علم أنك نبي فقال ﷺ: «ما بين لابتيتها أحد إلا يعلم أني نبي إلا كفرة الإنس والجن». [حم (١٣٩٢٤) - حسن].

(ب) شكوى الحيوانات إليه:

دخل ﷺ ذات يوم لقضاء حاجته، فرآه جمل، فنحن الجمل وذرفت عيناه الدمع، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذِفْرَاهُ وقال ﷺ: «من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟»، فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله فقال ﷺ: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكى إليَّ أنك تجيعه وتدئبه». [د (٢٥٤٩) - صحيح].

ومر في سفر ببعير يستسقي عليه الماء، فلما رأى النبي ﷺ جرجر ووضع جِرَانِهِ، فقال ﷺ: «إنه يشتكي كثرة العمل وقلة العلف». [حك (٦١٧١٢) - صحيح].



وأورد الشامي في (السبل) [(١٥٣/١) - (١٦١)] أربع عشر قصة في هذا المعنى، منها الضعيفة الإسناد، ومنها القوية الإسناد، عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم.

(ج) بركته ﷺ في الحيوانات:

ذكرنا في أحداث غزوة ذات الرقاع قصة جمل جابر رضي الله عنه:

وجاء في أحداث غزوة تبوك أن الصحابة شكوا إليه ما برواحلهم من جهد، فأمر أن يمروا بها عليه عند مكان ضيق، فأخض ينفخها، ويقول ﷺ: «اللهم احمل عليها في سبيلك، إنك تحمل على القوي والضعيف»، فما بلغوا المدينة حتى جعلت نازعهم أزمته. [حم (٢٣٩٥٥) صحيح].

عن جعيل الأشجعي أنه كان على فرس له عجفاء ضعيفة تسير في آخر الركب، فلحق به ﷺ فضر بها بدرته وقال ﷺ: «اللهم بارك فيها»، فأصبحت تسابق الناس، وباع من بطنها باثني عشر ألفاً. [طبك (٢١٧٢) بهد (١٥٣/٦) صحيح].

عن أنس أن أهل المدينة فزعوا مرة فركب ﷺ فرساً لأبي طلحة، كان بطيء الحركة، فلما رجع قال لأبي طلحة: «وجدنا فرسك بحرّاً فكان بعد هذا لا يجارى». [بخ (٥٨/٦) و (٢٧٠/٥) و (١٠٨/٦) أحمد (١٤٧/٣) صحيح].

(د) شهادة الحيوانات والطيور ﷺ بالرسالة:

شهادة الذئب له بالرسالة:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «عدا ذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي فانترعها منه، فأقعى [جلس] الذئب على ذنبه، فقال: ألا تتقي الله؟ تنزع مني رزقاً ساقه الله إليّ؟، فقال: يا عجيبي! ذئب يقعي على ذنبه يكلمني كلام الإنس؟ فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ يبشر الناس بأنباء ما قد سبق». [حم (٨٨/٣)]



حك (٤٦٧) صحيح، بهد (٤٠ / ٦) صحيح، ابن حبان (٦٤٩٤) صحيح]. وللقصة طرق أخرى وسياق بمعناه.

(هـ) شهادة الغزاة له بالرسالة واستنجاهه به:

اصطاد رجل غزاة، فربطها بخيمته، فاشتكت إلى النبي ﷺ عندما مر عليها في بعض سكك المدينة، قائلة: (إن لي خشفان [ولدان] في البرية، وقد انعقد اللبن في أخلاقي [ضرعي]، فلا هو يذبحني لأستريح، ولا هو يدعني فأرجع إلى خشفَي في البرية...) فتوسط لها النبي فأطلقت بضمأن النبي ﷺ على أن تعود، وعندما عادت خلى أصحابها عنها حين طلب الرسول ﷺ شراءها، فذهب وهي تضرب برجلها الأرض وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، وراها زيد بن أرقم في البرية تشهد الشهادتين. [بهد (٣٤ / ٦)، ند (٣٢٠)، طبك (٧٦٣) - طرقها ضعيفة، وشهرتها تدل على أن لها أصل].

٢٠- معجزاته في الإنسان:

(أ) تحمل سفينة هبطه الأثقال:

قال سفينة هبطه مولا: سماني رسول الله ﷺ سفينة حين خرج ومعه أصحابه فثقل عليهم متاعهم، فحملوه على ظهري، فقال رسول الله ﷺ: «أحمل فإنما أنت سفينة» قال: فلو حملت من يومئذ وقر بعيرين أو ثلاثة... أو سبعة ما ثقف علي. [حم (٢٢١ / ٥) صحيح، بهد (٤٧ / ٦)، حك (٦٠٦ / ٣) صحيح].

(ب) إنبات الشعر:

دعا لعبد الله بن هلال هبطه بأن ينبت الله شعره، فاستجيب له [طبك (٢٠٩ / ٢٤)؛ برقم (٥٣٧) - حسن].



(ج) مسح على رأس أبي زيد الأنصاري وقال: «اللهم جله» فبلغ بضعا ومائة

سنة، وما في لحيته بياض، ولقد كان منبسط الوجه، ولم ينقبض وجهه حتى مات.

[تر (٥/٥٩٤) - حسن، بهد (٦/٢١١) - صحيح؛ حك (٢/٦٠٦) - صحيح].

(د) ونفث ﷺ في يده الشريفة ووضعها على ظهر وبطن عتبة

ابن فرقد رحمته، وهو متجرد، فعقب به طيب أطيب من طيب زوجاته، ظل معه مدى

الحياة. [طبك (١٧/١٣٣) رقم (٣٢٩)، جيد].

(هـ) تفل ﷺ على ذراع محمد بن حاطب رحمته عندما انكفا عليه قدر لأمه،

فبرئت في حينها. [بخ (٤/١٨-١٧-٥٨)، م (٢١٩١)].

(و) رش على جابر رحمته من ماء وضوئه، فأفاق بعد أن كان لا يعقل لمرض ألم

به. [بخ (٥٦٥١)، م (٢١٩١)].

(ز) عن حمزة بن عمر الأسلمي رحمته، قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر،

فتفرقنا في ليلة ظلماء، فأضاءت أصابعي حتى جمعوا عليها ظهورهم [رواحلهم]، وما

سقط من متاعهم، وإن أصابعي لتُنير». [بخ (التاريخ الكبير) (١/٢/٤٦)، بهد (٦/٧٩)؛ تر

(٣/٢٠٦)؛ طبك (٣٩٩٠)، السيوطي: الخصائص (٢/٨١) جيد].

٢١- معجزاته في الأشياء غير الحية:

(أ) كان ﷺ قبل أن يصنع له منبر للخطابة بمسجده، يخطب الناس وهو

مستند إلى جذع عند مصلاه، فاستغنى بالمنبر عن الاستناد إلى الجذع، فخار الجذع

وحن حنين النوع العشار [الحامل لعشرة أشهر]، لما كان يسمع من خطبة ﷺ عنده،

فرجع إليه ﷺ فاحتضنه حتى سكن كما يسكن المولود الذي يسكت. [بخ

(٣٥٨٤-٣٥٨٥)].



(ب) عن أبي قتادة بن النعمان رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أعطاه عرجوناً أضاء له الطريق مثل الشمعة...» [ابن خزيمة: الصحيح (١٦٦٠) حسن بشواهده؛ حم (١١٦٢٤) - بعضه صحيح وبعضه حسن].

(ج) قال ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن».

٢٢- في إخباره بأمر غيبية:

(أ) أخبر بالسلم الذي وضعته زينب الخيرية في ذراع الشاة التي أهدتها للرسول ﷺ - سبق ذكره.

(ب) إخباره باستشهاد قادة سرية مؤته.. سبق ذكره.

(ج) استضافته مع أصحابه امرأة، فذبحت لهم شاة، لم يستسغ النبي ﷺ أول لقمة منها، وقال: «هذه أخذت بغير إذن أهلها»، فاعترفت المرأة بأنها أخذتها من جار لها بحجة أن تعاملها معهم لا يحتم الإذن، فأمر بإعطاء اللحم للأسارى. [د (٣٣٣٢ - ٣٣٣٥) صحيح].

(د) إخباره بفتح مصر:

قال ﷺ: «إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً» [بهد (٢٢٢/٦)] وفي رواية: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرضي يسمى فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً». [م (٢٥٤٣)].

(هـ) إخباره بأن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أول زوجاته لحوقاً به: قال ﷺ: «أسرعن لحاقاً بي أطولكن يداً» قالت عائشة رضي الله عنها: «فكن [أي زوجاته] يتطاولن [أن كن يرين المراد بالطول المعنى الظاهري، والواقع أن مراده خلاف، لأن سودة رضي الله عنها كانت أطولهن يداً من حيث المقياس الظاهري] أيتهن أطول يداً؟»، فكانت زينب أطول يداً، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق». [مسلم (٨/١٦) النووي] فكانت أولهن لحاقاً به في الموت.



(و) إخباره بمقتل الحسين بن علي عليه السلام على شط الفرات:

قال علي عليه السلام: دخلت على النبي ﷺ ذات يوم، وعيناه تفيضان، فقلت: يا نبي الله، أغضبك أحد، ما شأن عينيك تفيضان؟ قال ﷺ: «بل قام من عندي جبريل قبلُ فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات؛ وقال: هل لك أن أشمك من تربته؟ قلت: نعم، فمد يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عيني أن فاضت». [حم (٦٤٨) - صحيح].

(ز) إخباره بأن الحسن بن علي عليه السلام سيكون سبباً في صلح بين المسلمين بعد فتنة:

قال ﷺ وهو يشير إلى حفيده الحسن: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فتيين عظيمتين من المسلمين» [بخ (٣٧٤٦)] وقد حدث عندما تنازل عن الخلافة لمعاوية عليه السلام، فوضعت الحرب أوزارها بين الطرفين...].

(ح) في إخباره بحال سهيل بن عمرو عليه السلام في فتنة الردة: سبق ذكره.

(ط) في إخباره عن مقتل علي عليه السلام:

قال ﷺ مخاطباً عمار علياً: «ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين؟» قالا: بلى يا رسول الله؟ قال: «أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه [يعني قرنه] حتى تبتل منه [يعني لحيته]» [حم (١٨٣٢١) - حسن لغيره].

(ي) في إخباره عن اقتتال علي والزبير عليه السلام:

عن أبي حرب بن الأسود الديلي، قال: شهدت الزبير خرج يريد علياً، فقال له علي: أنشدك الله، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقاتله وأنت ظالم»، فقال: لم أذكر، ثم مضى الزبير منصرفاً عن القتال». [حك (٣:٣٦٦) صحيح].

(ك) إخباره بأن الحجر الأسود من الجنة:



قال ﷺ: «الحجر الأسود من الجنة...». [الطبري: التفسير (٧٠ / ٣) ح (٢٥٨) صحيح، تر (٨٧٧) صحيح].

أراد أعداء الإسلام الطعن في عقيدة المسلمين، فقالوا: (إنه من صخور البازلت الغامقة اللون، التي تنتشر حول الكعبة. فأعدت الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية رجالاً لتلك المهمة، وهو الضابط الإنجليزي (رتشارد برتون) الذي تعلم العربية في ٨ سنوات، بلهجة المغاربة، وأرسل إلى مصر، ثم مكة باعتباره مسلمًا ينوي الحج... وعندما اختلى بالحجر تمكن من كسر قطعة صغيرة منه، ما زالت محفوظة بمتحف العلوم الطبيعية بلندن إلى اليوم، وحللت هذه القطعة وثبت أنها ليست من أحجار الأرض، بل حجر نيزكي نادر!! وسيأتي إن شاء الله اليوم الذي لا يجدونه له شبيهًا من الأحجار، لأنه من الجنة، وأعلن برتون إسلامه، وألف كتابًا رائعًا من جزئين، اسمه (رحلة إلى مكة). [انظر: محمد حسني يوسف: الإعجاز العلمي في أسرار القرآن الكريم والسنة النبوية (١ / ٢٠٧ - ٢٠٩)].

٢٣- المعجزات المتعلقة بعصمته من الاغتيال:

نصل إلى نحو الثلاثين، ذكرنا بعضها خلال أحداث بعض الغزوات والسرايا وحياته ﷺ في مكة والمدينة. [انظر: د. مهدي: السيرة النبوية (٢ / ٤٨٢ - ٤٨١)] قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ٦٧].

نذكر في ضوء هذه الآية أمثلة له في الوعد الإلهي الإعجازي:

- كفاية الله له من المستهزئين الذين آذوه في مكة. [سبق ذكره]
- عصمته من أبي جهل حين أراد فضخ رأسه بحجر وهو يصلي. [سبق ذكره]



- عصمته من دعثور من الحارث الغطفاني. [سبق ذكره]
 - عصمته من غورث بن الحارث المحاري. [سبق]
 - عصمته من يهود بني الضمير حين ذهب إليهم في دية الكلايين. [سبق]
 - عصمته من مشركي مكة في أحداث الهجرة. [سبق]
 - عصمته من عقبة بن أبي معيط عندما خنقه محاولاً قتله. [سبق]
 - عصمته من عمير بن وهب، حين تأمر مع صفوان بن أمية لاغتياله. [سبق]
 - عصمته من زينب بنت الحارث الخيرية، التي دست له السم يوم خيبر. [سبق]
 - عصمته من المشركين يوم أحد، خاصة من محاولة أبي بن خلف. [سبق]
- أما ما لم نذكره من قبل في أحداث السيرة، فمثل:
- (أ) عصمته من فضالة بن عمير الليثي حين أراد اغتيال النبي ﷺ وهو يطوف بالكعبة يوم الفتح. [ابن هشام (٤/ ٨٥)].
- (ب) عصمته من رجل أراد الفتك به حين أعطاه ﷺ سيفه لينظر عليه، وكانت نيته اغتيال النبي ﷺ بسيفه ﷺ. [حك (٧/ ١) - صحيح].
- (ج) عصمته من رجل استأجره كفار قريش لاغتياله، جعلوا له أواقي من ذهب ليقوم بالمهمة، فأطلعه الله ﷻ على ذلك فأمر به فصلب، وكان أول من صلب في الإسلام [ابن أبي شيبه: الأوائل (٨/ ٣٣٠) - مرسلًا قويًا].
- (د) عصمته من غلبة ركانة بن عبد يزيد بن هشام بن عبد المطلب، الذي كان أشد مصارع في قريش عندما طلب ركانة مصارعة ﷺ، لتكون غلبته له آية يؤمن بها، فصرعه ﷺ. [حق (٢/ ٣٥) - جيد].
- (هـ) عصمته من النضير بن الحارث حين أراد الفتك به يوم حنين. [الإصابة ٣/ ترجمة برقم ٨٧٢٠، الشامي: السبل (٥/ ٤٧٤) من رواية الواقدي، وهذه المعجزة هي الثامنة



والعشرون كما في السيرة المطولة لنا (٤٨٧/٢) قصة أبي بردة لآية حفظه ﷺ من أراد الفتك به من حديث الواقدي (٨٩١/٣) كما في (السبل) (٤٦٧/٥) بمثل قصة الأعرابي يوم ذات الرقاع. قصة الآية التي حصلت لجواسيس المشركين في هذه الغزوة [السبل (٤٦٨/٥)]، وبذلك اكتملت المحاولات إلى ٣٠.

• المعجزات المتعلقة بالمكتشفات الطبية الحديثة

• ٢٤- التمر:

قال ﷺ: «خير تمراتكم البرني [أفضل أنواع التمر]، يذهب الداء ولا داء فيه». [صحيح الجامع الصغير (٣٣٠٣) جيد].

وقال ﷺ: «العجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم...». [المرجع السابق (٤١٢٦) صحيح]. كشف الطب الحديث عن القيمة الغذائية والعلاجية للتمر، من ذلك: أنه ملين للطبع، مقو للكبد، يزيد من القوة الجنسية، [د. السيد الجميلي، إعجاز الطب النبوي، ص: ٧٣]، ولعل السم المذكور يقصد به المواد السامة في الدم، مثل التسمم بالبولة [Urea] وغيرها؛ وذلك لأن سكاكر التمر مدرة للبول، وبالتالي تساعد في تنظيف الكبد وتنقية الدم المواد السامة.

ومن يتناول التمر باستمرار يحافظ على جهازه الدموي والعصبي أكثر من يتناولون اللحوم التي تترك فضلات ومواد سامة تتراكم وتسبب تسممًا بطيئًا. [د. محمد إياد الشطي: الطب النبوي في ضوء العلم الحديث، ص ١٣٠ - ١٣١] وعندما وقف العلماء عند قوله ﷺ: «يذهب الداء ولا داء فيه» وجدوا أن التمور لا تنقل الجراثيم الممرضة، وإذا تعرضت إلى تلوث شديد، فإنها تصبح خالية من جرثوم الهیضة خلال ثلاثة أيام في الظروف الطبيعية. [المرجع نفسه، ص: ١٣١].



جاء في صحيفة الانتباهة السودانية، العدد (١٣٦١) - السبت ١٥ رمضان ١٤٣٠ هـ (٢٠٠٩/٩/٥م) الآتي عن التمر تحت عنوان: (التمر باللبن يحمي جهازك الهضمي):

(أكدت الدكتورة عفاف عزت، أستاذة الكيمياء الحيوية بالمركز القومي للبحوث في مصر، أن التمر منقوعاً في اللبن يعتبر وجبة غذائية متكاملة، لما تحتويه من بروتين حيواني وكالسيوم وفيتامين (أ) الذي يعتبر من الفيتامينات الذائبة في الدهون، وله قيمته كمضاد للأكسدة، ويساعد على تقوية الإبصار وحماية العين من الإصابة بالمياه البيضاء، كما يحمي طبقة الجلد الخارجية والأغشية المبطنة للقناة الهضمية.

وأشارت د. عزت إلى أن التمر يعتبر وجبة غذائية متكاملة، حيث يحتوي على نسبة من الألياف تعرف باسم مادة اللجين، والتي لها القدرة على خفض الدهون بالدم، بالإضافة على احتواء التمر على مركبات فيتوكيميائية لها تأثيرات علاجية مضادة للأكسدة، وبالتالي فهو يقاوم العديد من الأمراض.

كما أن التمر يحتوي على نسبة من السكر يحتاجها الصائم بعد انخفاض نسبة السكر بالدم أثناء الصيام، وتنصح الدكتورة عفاف بعدم ترك التمر منقوعاً في الماء أو اللبن فترة طويلة حتى لا يحدث له تخمر ويسبب تقلصات وانتفاخات حتى في الأمعاء، وذلك نتيجة نشاط (الميكروفلورا) التي تسبب اضطرابات بالقولون العصبي) [صفحة الانتباهة الأخيرة].

٢٥- الحبة السوداء:

قال ﷺ: «إن الحبة السوداء شفاء من كل داء، إلا السام» قالت عائشة رضي الله عنها الرواية: [وما السام؟] قال ﷺ: «الموت» [البخاري ٥٦٨٧، واللفظ له، سنن ابن ماجه ٢٨٨٠، صحيح مسلم ٢٢١٥، سنن الترمذي ٢١٣، المعجم الكبير للطبراني ٤٩١ صحيح].



والمقصود أنها شفاء من كل داء يقبل العلاج، وكلمة كل تفيد الأهمية، كما في قول الله تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] وقوله: ﴿ثُمَّ كُلٍّ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣].

وقد أثبت الطب الحديث أن من أهم الأمراض التي تدخل الحبة السوداء في علاجها، هي:

- ١- أمراض تنفسية، مثل نزلات البرد والسعال والربو.
- ٢- أمراض هضمية، مثل عسر الهضم، وغازات المعدة، والأمعاء، وضعف الشهية، والديدان الشريطية، وديدان الإسكارس.
- ٣- الأمراض البولية، والتناسلية مثل عسر البول والعُتَّة [عدم القدرة على الجماع] واضطرابات الطمث.
- ٤- الأمراض الجلدية، الجرب، والقوباء، والأكزيما، وحب الشباب، [د. الشطي: الطب النبوي، ص ١٣٨ - ١٥٠].

٥- وأمراض أخرى مثل: تساقط الشعر، والصداع، والدوخة، وآلام الأذن الوسطى والقراع، والثعلبة، والتآليل، والبهاق، والبرص، والكدمات، والرضوض، والرماتزم، والكسور وارتفاع ضغط الدم، وإذابة الكلوستروال الضار في الدم، والحمى الشوكية وحصوة المرارة، وأمراض الطحال، والاستسقاء، والإسهالات، وأمراض العيون، والعقم والخمول، والكسل، [د. البدري محمد الهادي مطاوع: الحبة السوداء شفاء من كل داء...، مقال بمجلة منار الإسلام، عدد ٨، ١٨ شعبان ١٤١٣ هـ/ فبراير ١٩٩٣ م، ص ١١٤ - ١١٩].

وأنها تشفي الجرحى، وتدر الحليب، وتنفع في حالات عقر الكلب الضال، وتنفع في حالات علاج لسع الهوام [د. الجميلي: إعجاز الطب النبوي، ص: ٨٠].

وتفيد في جلاء وصفاء الوجه وجماله، وتنشيط الذهن وسرعة الحفظ [د. مطاوع:

الحبة السوداء.. ص: ١١٩].

وثبت أثرها كمقو للمناعة، تخفض من نسبة السكر في الدم مع خليط من أعشاب أخرى، وتخفض حمض البوليك الذي يحدث ارتفاعاً في ضغط الدم، وعلاج النقرس،



[عبد العليم غزي: حبة البركة إعجاز إلهي في خلقه، مقال بمجلة الأزهر، رجب ١٤١٩ هـ / نوفمبر ١٩٩٨ م، جزء ٧، السنة ٧١، ص ١٠٩١ - ١٠٩٥] وانظر: [د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية ٢/ ٤٩٠ - ٤٩٣].

٢٦- الحناء:

عن سلمى رضي الله عنها وكانت تخدم بعض أزواج النبي ﷺ، قالت: «وما نال رسول الله ﷺ قرحة [جراحة] ولا نكبة [حادث مثل إصابة الحجر للرجل أو الأصبع] إلا أمرني أن أضع عليها الحناء» [سنن الترمذي ٢٠٥٥ - حسن].

أثبت الطب الحديث أن الحناء مطهر للجروح والقروح، وأنه من أفضل المواد الصباغية، وينقي فروة الرأس من الميكروبات والطفيليات والإفرازات الدهنية الزائدة، ويقلل من إفراز العرق، ولا يسبب حساسية، ولذا أدخلته شركات التجميل تجاريًا في تركيب صبغات الشعر والشامبو. [د. الشطي، الطب النبوي، ص ١٥١ - ١٥٣].

٢٧- الزيتون:

قال ﷺ: «اتذموا بالزيت، وادّهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة» [سنن ابن ماجه ٣٣١٩؛ المستدرک علی الصحيح للحاکم ١٢٢/٤ - حسن].

توصل الطب الحديث إلى أن زيت الزيتون مغذٍ للأطفال، لأنه يحوي النسبة ذاتها تقريبًا من حمض الكتان التي يحويها حليب الأم، إضافة إلى سهولة هضمه وامتصاصه، ويؤمن بذلك حاجات الطفل الرضيع من المواد الدهنية اللازمة لنمو العظام والدماغ؛ وغني بفيتامين (ك) الضروري لنمو الأطفال والبالغين.

وأثبتت الأبحاث قدرته في علاج تصلب الشرايين والوقاية من أمراض الحموضة والقرحة المعدية وقرحة الاثني عشر وعلاجها. ويقلل من نسبة الإصابات بالحصيات المرارية، ويخفض نسبة السكر من الدم، ويعالج الكثير من الأمراض الالتهابية



والكبدية، وإنقاص الوزن، وهو عنصر معد كذلك للطاعنين في السنة لسهولة امتصاصه وإثارتة الشهية، ولا يسبب زيادة الكولوسترول في الدم، وبسبب غنائه بهرمون الأستروجين فإنه يفيد صحة المرأة في سن اليأس.

ويحافظ على نمو الشعر، ويحفظه من التساقط، ويقي من أشعة الشمس الضارة ويساعد في إزالة تجاعيد الوجه والرقبة، ويستخدم كدهون في حالات الحُجَّاج والدمامل، والقوباء وتشقق الأيدي والأرجل. [د. الشطي: الطب النبوي، ص: ١٥٨ - ١٦٦]. ويقاوم سرطان الثدي. [جريدة الرياض السعودية، السبت ١١/٥/١٤٢٦ هـ الموافق ١٨/٦/٢٠٠٥ م، عدد ١٣٥٠٨، السنة ٤٢].

٢٨- التسوك بمسواك شجر الأراك:

قال ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء». [الألباني: صحيح الجامع الصغير، ٥٣١٧ - صحيح].

وقال ﷺ: «عليكم بالسواك فإنه مطيبة للفم مرضاة للرب» [لقسمه ٤٠٦٨ - صحيح].

أثبتت الأبحاث التي ذكرها الدكتور الشطي [الطب النبوي، ص ١٦٧ - ١٦٩ - ١٧١ - ١٧٢] أن مسواك الأراك يحوي كثيرًا من المواد المطهرة والمنظفة والقابضة والمانعة للزحف الدموي والقاتلة للجراثيم، وذكر تفاصيل وأسماء تلك المواد، والرسائل الجامعية التي تخصصت في فوائد السواك بالأراك.

٢٩- العسل:

قال ﷺ: «إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم، أو شربة من عسل، أو لدعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي» [البخاري ٥٦٨٣، ٥٦٩٧، ٥٧٠٢، ٥٧٠٤].

وقال ﷺ: «عليكم بالسنا [نبت يكتحل به] والسنوات [العسل]، فإن فيها شفاء من كل داء إلا السام» [سنن الترمذي ٢٠٨٣، سنن ابن ماجه، ٤٣٦١، صحيح].



أثبت الطب الحديث أن العسل يحتوي على معظم الفيتامينات الضرورية للجسم، أهمها: فيتامين (ب ١، ب ٢، ب ٣، ب ٥، ب ٦، و أ هـ). ويحتوي على بعض العناصر المعدنية، أهمها ما يساعد الهيموغلوبين على القيام بوظيفته، مثل الحديد والنحاس المنغنيزيوم.

ويحتوي على المعادن التي تدخل في تركيب كروماتين الخلايا، والصوديوم الموجود في الدم والسوائل المختلفة، والكولسيوم الذي يدخل في تركيب العظام، والأسنان والدم، والكبريت الذي يدخل في بنية الجلد، والشعر، والأظافر، اليود الضروري لهرمونات الدرق، والبوتاسيوم، وعدد من الحموض، أهمها الفورميك، والسيترك، وحض الخل واللبن، والكتيك، والبوتريك، والتانيك، والأكساليك، والطركريك [د. الشطي: الطب النبوي: ص ٢٠٤].

وأدخل في صفات علاجية كثيرة لعلاج أمراض الأجهزة الآتية:

التنفيسي، والهضمي والعصبي والبولي. واستخدم في علاج الجروح وأمراض الفم والجلد، والعين، ومخفض للحرارة.

وثبت أنه غذاء ليس فيه فضلات، سريع التمثيل والامتصاص، وغذاء للشيوخ والناقهين ويريح الكبد والكليتين، ويحتفظ بقيمته الغذائية من مرور الزمن، ولا يتعفن. [المرجع نفسه، ٢٠٤-٢٠٨].

٣٠- أبوال وألبان الإبل:

جاء في قصة سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنين قول الرسول ﷺ: «ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها...» [انظر القصة في السيرة النبوية أو صفوة السيرة النبوية، كلاهما للبروفسير مهدي رزق الله أحمد].

لقد كشف عميد كلية المختبرات الطبية بجامعة الجزيرة السوداني، البروفسير أحمداني، في ندوة نظمها جامعته، كشف عن تجربة علمية باستخدام بول الإبل



لعلاج أمراض: الاستسقاء وأورام الكبد، أثبتت نجاحها لعلاج المرضى بتلك الأمراض.

وتحدث عن تجربة علاجية رائدة أخرى، وهي أثر حليب الإبل على معدل السكر في الدم، إذ أثبت انخفاض نسبة السكر في دم المرضى بدرجة ملحوظة.

وجاء في مقال بجريدة الاتحاد عدد ٩٥١٥ في ٧/٤/٢٠٠١م: أن النتائج الأولية للبحوث التي أجراها بعض الخبراء والعلماء أثبتت أن تركيب الأحماض الأمينية في حليب الإبل تشبه في تركيبها هرمون الأنسولين الذي يستخدم في علاج مرض السكري.

أكدت مجموعة من العلماء بقسم علوم الأغذية بكلية الزراعة بجامعة الفاتح بليبيا، أن ألبان هي الأفضل من حيث ثرائها بمكونات الغذاء، ومن حيث سلامتها تمامًا، فضلًا عن أنها تحتوي على مواد تقاوم السموم والبكتيريا، ونسبة كبيرة من الأجسام المناعية المقاومة للأمراض، خاصة للمولودين حديثًا.

وقالوا: يمكن وصف حليب الإبل لمرضى الربو، والسكري، والدرن، والتهاب الكبد الوبائي، وقرح الجهاز الهضمي، والسرطان.

والزبادي منزوع الدسم مفيد لصحة طاعني السن [حسني، ص ٨٨] وكشفوا عن أسرار أخرى.

[انظر: موقع الخالدي بالانترنت. WWW.alkhadi.alkhaldi.com]

٣١- حديث الذباب:

قال ﷺ: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله، ثم ليطرحه، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء» [البخاري (٥٧٨٢)].



لخص الدكتور خليل ملا خاطر، في كتابه: (الإصابة في صحة حديث الذبابة)، التقرير الذي نشرته مجلة الأزهر [عدد رجب ١٣٧٨ هـ / مجلد ٣٠]، بعنوان: (كلمة الطب الحديث في الذباب) برهن على صدق ما أخبر به ﷺ.

ودل ذلك على معجزة من معجزاته الكثيرة، وكان كالتالي:

أ- أن الذباب يحمل الجراثيم على أطراف أرجله وطرف خرطومه وأطراف أجنحته وفي برازه.

ب- أن هذه الجراثيم هي عنصر المرض، خاصة الكوليرا والدوسنتاريا والتيفوئيد، وهو ما عبر عنه الحديث بـ[الداء] والجراثيم هي السبب العادي للمرض.

ج- الاكتشافات العلمية الحديثة للمضادات الحيوية من الذباب، وهذا كافٍ في الدلالة على القطع بوجود عناصر (الشفاء) المذكور في الحديث.

د- تخرج هذه المضادات الحيوية من فتحات ومفاصل حلقات بطن الذبابة.

هـ- هذا المضاد الحيوي مأخوذ من الفطريات الموجودة ضمن خلايا جسم الذبابة، في الطبقة الدهنية، وهي القسم الأخير من الذبابة، بما في ذلك تحت الجناحين.

و- تخرج هذه الفطريات الحاملة للمضاد الحيوي بفعل ضغط على الخلية.

ز- إن هذا المضاد الحيوي الذبابي، يعتبر من أقوى المضادات الحيوية، وهو كافٍ للقضاء على جراثيم غرام سالب وغرام موجب، بما في ذلك الجراثيم التي يحملها الذباب نفسه.

وكل هذا المذكور مطابق لمطوق الحديث الشريف، مما يدل على الإعجاز [المرجع نفسه].

وذكر دكتور خاطر نتائج أبحاث أخرى عديدة في هذا المجال، خاصة: الأبحاث

التسعة التي وصلته من جامعة لندن، والمتعلقة باستخراج السموم من الذباب، وهو ما يوافق الشطر الأول من حديث وبحث المستر دريد، مدير مصلحة الكورنتينات المصرية الأسبق، قبل نحو خمسين عامًا، في بحثه الذي يفيد بأن الذباب إذا سقط على



شيء أكل منه استحال في جوفه إلى مادة تسمى (البكتريوفاج)، تستخدم في قبل الجراثيم، التي تتركها الذبابة بأطرافها. وقالوا: إن الذباب يقيأ هذه المادة إذا مات بأسفكيا الغرق. وإن هذا المادة استعملت مصلاً، وعلاجاً للأمراض المتوطئة. [انظر: تفاصيل وأدلة أكثر في السيرة النبوية: د. مهدي رزق الله: ٢ / ٥١١].

٣٢- النخالة: [الرّدة].

قال سهل بن سعد رضي الله عنه: «ما أرى رسول الله ﷺ النقي من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله...» [البخاري ٥٤١٠، ٥٤١٣؛ أحمد ٢٢٨١٤، سنن الترمذي ٢٣٦٤؛ سنن ابن ماجه ٣٣٣٥].

إن المعجزة في هذا الأثر هو تأكيد الطب منذ عهد قريب من وجود علاقة بين نقص أو غياب النخالة من الطعام، وكذلك الألياف الموجودة في الخضروات والفواكه، وبين مجموعة من أمراض القناة الهضمية التي تصيب الإنسان.

ويؤدي بعضها إلى هلاكه، أهمها:

١ - الإمساك المزمن، إلذي من مضاعفاته:

- البواسير - فتق جدار البطن - فتق الحجاب.

٢ - الرّذب:

[عبارة عن ظهور نتوءات كثيرة في الأمعاء الغليظة]، وللرذب مضاعفات خطيرة منها:

أ - الالتهاب الردي.

ب - انسداد الأمعاء.

ج - النزيف الدموي المعوي.

د - الناسور.

٣ - سرطان الأمعاء الكبير الخبيث:



وللوقاية من هذه الأمراض أو علاجها لا بد من وجود النخالة في الطعام [د. فاروق مساهل: الإعجاز الطبي في الحديث النبوي، النخالة، مقال بمجلة: الوعي الإسلامي، عدد ٢٤٠، ذو الحجة ١٤٠٤هـ/ سبتمبر ١٩٨٤م، ص: ٦٣-٦٥ باختصار شديد، وانظر: د. مهدي رزق الله: السيرة ١/ ٥١١-٥١٣].

٣٣- الختان:

قال ﷺ عن ختان الرجال: «الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظافر ونتف الإبط». [البخاري ٥٥٥٢، واللفظ له، صحيح مسلم ٢٦١]. وعنده أنهن عشرة وعددهن هنا.

كشف العلم الحديث أن عدم الختان للذكور له مضاعفات منها:

إن الإفرازات قد تتجمع خلف القلفة، مما يؤدي إلى الالتهابات المزمنة في الحشفة.. وإلى تكوين أنسجة ليفية من شأنها أن تؤدي إلى ضيق فتحة البول، مما يؤدي بالتالي إلى احتباس البول، مما يؤدي بالتالي إلى احتباس البول، ويندرجاً في المختونين.

ووجد أن سرطان القضيب من أسبابه عدم الختان.

وتكمن الجراثيم في القلفة وتنتهز الفرصة أثناء الاتصال الجنسي، فتدخل للمهبل، والرحم، والمبيض، وتعشعش فيها، مما يؤدي إلى تأخر الحمل، بل إلى العقم أيضاً. [محمد كامل عبد الصمد: الإعجاز العلمي في الإسلام، السنة النبوية، ص ٣٨].

وطالبت منظمة الصحة العالمية وبرنامج الأمم المتحدة لمكافحة الإيدز بإدراج ختان الرجال ضمن استراتيجيات الوقاية من نقل مرض الإيدز.

وتفيد توصيات خبراء دوليين في الصحة العالمية أن بالإمكان إنقاذ ملايين الأشخاص، ولا سيما في إفريقية، في حال تعميم الختان، وجنوبي إفريقية تجربة فيها.



٣٤- الاتصال الجنسي أثناء الحيض:

قال ﷺ عن العلاقة بين الرجل وزوجته أثناء الحيض: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» [صحيح مسلم: ٢٣٠٢].

أثبت العلم الحديث أن إدخال القضيب إلى الفرج والمهبل في أثناء الحيض، ليس إلا إدخالاً للميكروبات في وقت لا تستطيع فيه أجهزة الدفاع أن تقاوم، كما أن وجود الدم في المهبل والرحم يساعد على نمو تلك الميكروبات وتكاثرها، وانتقال الأذى إلى الرجل إذا جامعها في هذه الحالة، وقد يكون الجماع أثناء الحيض سبباً في سرطان عنق الرحم. [عبد الصمد، ص: ٤٦].

٣٥- استخدام التراب في غسل سؤر الكلب:

قال ﷺ: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليقره ثم ليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب» [البخاري ١٧٠، مسلم ٢٨٠، ٦٤٦، ٦٤٩]، وفي لفظ مسلم: «وعفروه الثامنة في التراب».

كشفت الأبحاث العلمية الحديثة أن الكلب ينقل إلى الإنسان كثيرًا من الأمراض، منها: الجرب، وداء الكلب، وهو داء خطير، ومرض (كسيت إيداتيكا) الذي يتولد بدخول بيوض الدودة المسماة: (تيتا أكنيا كوكس)، وتوجد بكثرة في أمعاء الكلب، وغيرها من الأمراض، [انظر: د. عبد الله المصلح وآخرون: الإعجاز العلمي: ص ٣٠٤].

وثبت أن التراب عامل كبير على إزالة البويضات والجراثيم، وكذلك لأن ذرات التراب تندمج معها، فتسهل إزالتها جميعًا.

كما قد يحتوي التراب على مواد قاتلة لهذه البويضات. [عبد الصمد، ص: ٥٠ - ٥١].

وقام العلماء في العصر الحديث بتحليل تراب المقابر ليعرفوا ما فيه من الجراثيم، وكانوا يتوقعون أن يجدوا فيه كثيرًا من الجراثيم الضارة، وذلك لأن كثيرًا من البشر يموتون بالأمراض الإنتانية الجرثومية، ولكنهم لم يجدوا في التراب أثرًا لتلك الجراثيم الضارة



المؤذية، فاستتجوا من ذلك أن للتراب خاصية قتل الجراثيم الضارة، ولولا ذلك لانتشر خطرهما واستفحل أمرها. [عبد الحميد طهراز: الأربعون العلمية - من الإنترنت].

٣٦- تحريم زواج الأخوة من الرضاع؛

قال ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» [البخاري ٥٠٩٩، مسلم ١٤٤٤]، وفي لفظ مسلم: «... من الولادة».

أثبتت الأبحاث العلمية الحديثة وجود أجسام في حليب الأم المرضعة الذي يترتب على تعاطيه تكون أجسام مناعية في جسم الرضيع بعد جرعات تتراوح من ثلاث إلى خمس جرعات، وهذه هي الجرعات المطلوبة لتكوين الأجسام المناعية في جسم الإنسان، حتى في حيوانات التجارية المولودة حديثاً، والتي لم يكتمل نمو جهازها المناعي، فعندما ترضع اللبن تكتسب بعض الصفات الوراثية الخاصة بالمناعة من اللبن الذي ترضعه، والتي تكون مشابهة لأخيها أو لأختها من الرضاع في هذه الصفات الوراثية.

ولقد وجد أن تكون هذه الجسيمات المناعية يمكن أن يؤدي إلى أعراض مرضية عند الإخوة في حالة الزواج. [عبد الصمد: ١٠٩].

٣٧- تحريم الخمر؛

قال ﷺ لطارق بن سويد الجعفي رضي الله عنه عندما قال إنه يصنعه للدواء: «إنه ليس بدواء، ولكنه داء» [مسلم ١٩٨٤].

قال الطبيب (لا نسروا): (إن إدمان الغول [الخمر] يحدث ضمور المبيض عند المرأة). وقال الطبيب (برقوله): (شاهدت أثناء تشريح جثث مدمني السكر ضموراً وتصلباً في الخصي، ولم أشاهد الحيوانات المنوية في ٨٦٪ من الحوادث التي شرحتها، وهذا يوضح لنا أسباب العقم والعنة المشاهدين عند كثير من مدمني الخمر).



٣٨- التدخين:

عن أم المؤمنين، أم سلمة رضي الله عنها قالت: «نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر» [مجمع الزوائد للهيتمي ٢٦٦٣٤ - صحيح لغيره].

والمسكر كما هو معلوم: هو كل ما يذهب العقل من خمر أو مخدرات، والمفتر هو الدخان. ولأن التدخين يضر بكل أعضاء الجسم، تبنت هيئة الصحة العالمية التحذير من أخطاره، وهو بالإحصاء (تجارة الموت الخاسرة). وهذا عنوان كتاب نشرته الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط ١٤١٤ هـ.

وأصدر الأستاذ الكبير، المحامي الأمريكي (لاري وايت) كتاباً قدم له وزير الصحة الأمريكي بعنوان: (Merchants of Death)، أي (تجار الموت) ويعني بهم [تجار التدخين].

ومن الأمثلة على أضرار الدخان الصحية أن هيئة الصحة العالمية نشرت عام ١٩٨٦م تقريراً مفاده: أن التدخين يتسبب في ٩٠٪ من حالات سرطان الرئة، ٩٠٪ من سرطان الحنجرة، و ٧٥٪ من حالات الالتهاب الشعبي المزمن، وانتفاخ أسناخ الرئة، والتهاب الجيوب الأنفية، وحساسية الأنف، وأمراض الحساسية والربو.

ومن السرطانات التي يلعب التدخين دوراً رئيساً فيها: سرطان الفم، والشفة واللسان، والحنك، واللثة، والبلعوم، والمريء، والبنكرياس، والكبد، والمثانة، والكلية، وعنق الرحم، والثدي، وغيرها.

٣٩- ماء زمزم:

قال ﷺ عن ماء زمزم: «إنها مباركة، إنها طعام وطعم»، أي: تشبع كالطعام [مسلم ٢٤٧٣]، وقال: «ماء زمزم لما شرب له». [مسند ابن حنبل، حسن ١٤٨١].



قال الشيخ عبد الرشيد إبراهيم، التركي الأصل، الروسي الجنسية، صاحب الرحالة المشهورة: (عالم الإسلام) إنه جربه لعلاج أمراض المثانة والعيون، فنجح فيها بحمد الله تعالى. [أحمد عبد الله الباتلي: ماء زمزم لما شرب له، مقالة بمجلة الحرس الوطني، السنة ١٥، ع ١٤٢، ذو الحجة ١٤١٤هـ / مايو - يونيو ١٩٩٤م. ص: ٣٢].

وقال الباتلي: (وهناك سيدة مغربية ألقت كتابًا عنوانه: (فلا تنس الله) ذكرت فيه أنها أصيبت بالسرطان، وقال لها الأطباء: لا علاج لهذا السرطان، فلما ذهبت إلى مكة، داومت على شرب ماء زمزم أيامًا، ثم قالت: وجدت أن الكريات الحمراء التي كانت تشوه جسدي قد اختفت نهائيًا).

وشفيت امرأة تدعى يسرية عبد الرحمن حراز من قرحة قرمزية في عينها اليسرى بعد استعمالها ماء زمزم. [محمد كامل عبد الصمد: الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة، نقلًا عن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: م. نايف منير فارس، ص ٥٠٣].

ويقول الدكتور فاروق عنتر إن حصاة في الحالب خرجت عندما شرب ماء زمزم، ولم تخرج بالأدوية، ونصححه الأطباء قبل هذا بعملية جراحية، فجريت ماء زمزم، وكانت المعجزة التي تمثلت في نزول الحصوة مع أول بول بعد شرب ماء زمزم. [م. منير فارس، ص: ٥٠٤-٥٠٥].

ومن أحدث معجزات الشفاء بماء زمزم قصة امرأة سودانية تدعى إخلاص مضوي بركات - نحو الخمسين عامًا من العمر - ارتخت حبالها الصوتية، وبدأت رحلة العلاج إلى الهند، ترانزيت جدة، فكانت فرصة أداء العمرة. وعندما شربت من ماء زمزم، كانت المفاجأة أن ردت السلام على امرأة بالحرم بصوت واضح!! هكذا حكى لنا القصة قريبها عمر الشيخ الديببائي، جلسنا في حلقة تلاوة وتدبر القرآن الصباحية بمسجد الشهيد محمد عبده بالخرطوم - حي المعمورة، مربع ٨١، في يوم الثلاثاء ١١ / ٣ / ٢٠١٤م. وقد حكيت لنا مثل هذه الروايات، ولكن لم ندونها لضعف الأسانيد.



٤٠- الصيام:

قال ﷺ: «عليك بالصوم فإنه لا مثل له» [النسائي، السنن الكبرى ٢١٩٠ - صحيحه الألباني].

أثر الصيام الإسلامي في الوقاية من الأمراض:

قال الباحثان: رياض البيبي وأحمد القاضي بنشر بحوثهما في هذا الخصوص، خاص إفرازات الأمعاء للسموم، وتناقص نسبة التخمر الذي يسبب دمامل وبثورًا مستمرة، أخضع الباحثان متطوعين للتجارب من مختلف الأعمار، ومن الجنسين، وهم في حالة الصيام الإسلامية، لمراقبة دقيقة، وفحوص طبية عديدة على مدى أيام متتالية في رمضان، وكانت النتيجة.

١- تخفيض الانفعالات النفسية على الرغم من الاستثارات المختلفة التي تعرض لها الصائمون.

٢- كان هناك انخفاض واضح في سُميات الجسم.

٣- مقارنة مع حالة نفس المجموعة عندما لم يكونوا صائمين، انخفضت الدهون الخفيفة [الضارة بالصحة] في فترة الصيام، مقارنة بها قبل وبعد الصيام.

كما أثبتت العديد من البحوث أن الصيام يقوي جهاز المناعة لدى الصيام، فيقي الجسم من أمراض كثيرة.

الصيام الإسلامي وأثره في كبح الرغبة الجنسية:

قال ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه وِجَاء».

وجد العلماء المحدثون أن الصيام الإسلامي مثبط للرغبة الجنسية وكايع لها.



الصيام الإسلامي وزيادة الخصوبة:

أجرى الدكتور سمير عباس، والدكتورة عبد الله باسلامة، بكلية الطب، جامعة الملك عبد العزيز، بالمملكة العربية السعودية - عام ١٩٨٦ - بدراسة نظرية في مستوى الخصوبة عند الرجال في الحياة الطبيعية، ومدى تأثير الصيام بالطريقة الإسلامية على ذلك، وكانت النتيجة أن الصيام الإسلامي يزيد الخصوبة عند الرجال.

ولاحظ الباحثان من إحصاءات المستشفى الجامعي بجدة، أن عدد حالات الحمل تصل إلى معدل كبير في شهر شوال، مقارنة بشهور السنة الأخرى.

حصول التوازن بين آليات الهدم والبناء في الجسم أصبح واضحاً لدى علماء الطلب إذ أن إعطاء فرصته للجسم ليتوقف عن البناء وتخزين الطاقة أمر في غاية الأهمية لتجدد الخلايا، وذلك بالتخلص من الخلايا الهرمة، والإنزيمات المستهلكة.

علاج الصيام لبعض الأمراض:

جاء في بحوث منشورة أن الصيام الإسلامي يعالج عددًا من الأمراض الخطيرة، أهمها:

١ - الأمراض الناتجة عن السمنة: كمرض تصلب الشرايين وضغط الدم، وبعض أمراض القلب.

٢ - يعالج بعض أمراض الدورة الدموية الطرفية، مثل: مرض الرينود، ومرض برجر.

٣ - يعالج مرض التهاب المفاصل المزمن [الروماتويد].

٤ - يعالج ارتفاع حموضة المعدة، وبالتالي يساعد في التئام قرحة المعدة مع العلاج المناسب.

٥ - الوقاية من مرض داء الملوك [النقرس].

٦ - يساعد على عدم تكون بعض الحصيات الكلوية.



٧- تنشيط الذاكرة، كما أكد ذلك بتجربته الخاصة الصحافي (توم برنز، من مدرسة كولمبيا للصحافة).

[انظر: www.Khayam.com/ashab/tab-albadat-malfat/alsum-foued]

هل يؤثر الصيام الرمضاني المتكرر سلباً على مرضى زرع لهم كلي؟

طرح هذا السؤال مجموعة من الباحثين بقسم طب الكلى وأمراضها وزراعة الكلى، بمستشفى الملك فهد وجامعة الملك سعود بن عبد العزيز للعلوم الصحية، ومدينة الملك عبد العزيز الطبية، بالرياض - السعودية - وكانت الإجابة بعد الأبحاث التي أجريت، أن الصيام لا يؤثر سلباً على المرضى الذين زرع لهم كلي. [المزيد من المعلومات، انظر: م. فارس: الإعجاز، ص: ٣٤٥ - ٣٥٢].

ذكر اختصاصيون في الطب الباطني كانوا ضيوفاً على برنامج (صحتك) بالفضائية السودانية، حلقة يوم الجمعة ٢٣ شعبان ١٤٣٣ هـ - ١٣ / ٧ / ٢٠١٢ م، ذكروا حقائق طبية عن هذا الموضوع، خلاصته:

- لا يصوم زارعي الكلى إلا بعد عام، وكذلك المنقول منه كلي.
 - مصاب الكلى لا يصوم إلا بعد استشارة الطبيب، هذا هو الأمثل.
 - من الناس من صام بعد أربعة شهور ولم يصبه شيء.
 - بعد السنة من الزراعة، يجب على الزارع مراجعة الطبيب.
 - الصيام ينفع مريض ضغط الدم المرتفع، والسكري والقات، والسرطانات، وتصلب الشرايين، والروماتيزم، والقضاء على الخلايا السرطانية في بدايتها.
- [كان الضيوف: د. محمد أحمد حسن عبد الجليل، ود. إبراهيم محمد المبارك، ود. هشام..].

٤١- لحم الخنزير:

قال ﷺ: «من لعب بالتردشير فكأنها صبغ يده في لحم خنزير ودمه» [صحيح مسلم ٢٢٦٠].



قال النووي في شرحه لهذا الحديث: (والنردشير هو النرد، فالنرد أعجمي معرب، وشير معناه حلو - نسبة إلى واضعها أردشير بابك، من ملوك الفرس - ومعنى صبغ يده في لحم الخنزير ودمه في حال أكله منها، وهو تشبيه لتحريمه بتحريم أكلهما). والنرد: هو ما يعرف الآن بلعبة الطاولة.

وعن أبي ثعلبة الخشني، أنه سأل رسول الله ﷺ، قائلاً: «إنا نجاور أهل الكتاب وهم يطبخون في قدورهم الخنزير، ويشربون في أنيتهم الخمر، فقال رسول الله ﷺ: «إن وجدتم غيرها فكلوا واشربوا» [سنن أبي داود ٣٨٣٩].

فحديث مسلم وأبي داود صريحان في حرمة لحم الخنزير، أما ما جاء في تحريمه ضمناً، فعند الإمام أحمد [١٧٧٥٢] صحيح، والبخاري [٥٤٨٨، ٥٤٩٦].

لقد وصف القرآن الكريم حيوان الخنزير بأنه رجس ﴿أَوَلَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، والرجس: الشيء القذر، والأقذار والنجاسات هي السبب الأكبر في إصابة الإنسان بالأمراض المختلفة، لما فيها من جراثيم وطفيليات، فالخنزير ينقل إلى الإنسان كثيراً من الكائنات الخطرة.

يصاب الخنزير بعدد كبير من الأمراض البوائية لا تقل عن [٤٥٠] مرضاً ويقوم بدور الوسيط لنقل أكثر من [٧٥] مرضاً وبائياً للإنسان، غير الأمراض العادية الأخرى التي يسببها أكل لحمه، مثل: تليف الكبد وعسر الهضم والحساسية الغذائية وتصلب الشرايين وتساقط شعر الرأس وضعف الذاكرة والعقم، وتنشيطه لمرض الربو والروماتيزم وكثرة الأكياس الدهنية، علاوة على آثاره السيئة على العفة والغيرة في التكوين النفسي.

ينقل الخنزير بمفرده [٢٧] مرضاً إلى الإنسان، وينتقل أكثر من [٦١] مرضاً من الخنزير إلى الإنسان عن طريق تناول لحمه ومنتجاته؛ وأهم هذه الأمراض، هي



الحويصلات الخنزيرية، والحمى المتموجة، والدودة الكبدية، وداء وايل، وداء المكبسات اللحمية، والتهاب السحايا والمشيمة، وداء اليرقات الشريطية الجواله، وداء الدودة الوحيدة المسلحة، وداء المصורות الذيفانية المقوسة، وداء الشعريات الحلوزونية، والديدان السوطية، وداء السل، وداء المبيضات الفطرية، والالتهابات المعوية، وجراثيم السالمونيلا والشايجالا، وغير ذلك.

كما تنتقل عن طريق المخالطة والتربية الحيوانية أو التعامل مع منتجات الخنزير ومخلفاته عدة أمراض لا تقل عن [٣٢] مرضاً، وأكثر الناس إصابة بها هم عمال الزرائب والجزارات والأطباء البيطريين، وأهم هذه الأمراض، علاوة على بعض الأمراض السابقة، الجمرة الخبيثة، الكلب الكاذب، الزحام الزقي، الحمى القلاعية، الحمرة الخنزيرية، الديدان الرئوية الخنزيرية، الجرب الفائر السعار، داء النوم، الديدان الفنفزية، وغير ذلك.

كما تنتقل عدة أمراض لا تقل عن [٢٨] مرضاً، عن طريق تلوث الطعام والشراب بمخلفات الخنزير. [أ.د عبد الله المصلح ود. عبد الجواد الصاوي وآخرون: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص: ٣٠١-٢٠٣].

٤٢- مفاصل الإنسان:

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل. فمن كبر الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح الله، واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس، أو شركة وعظماً عن طريق الناس، وأمر بمعروف أو نهي عن منكر، عدّد تلك الستين والثلاثمائة السلامى، فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار». [صحيح مسلم ١٠٠٧].

قال بريدة رضي الله عنه: سمع رسول الله ﷺ يقول: «في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة» قالوا: فمن الذي يطيق ذلك يا رسول



الله؟ قال: «النخامة في المسجد تدفنها، أو الشيء تنحيه عن الطريق، فإن لم تقدر فركعتا الضحى تجزئ عنك». [مسند الإمام أحمد ٢٢٩٩٨ - صحيح لغيره].

المفصل هو الالتقاء بين أي عظمتين أو عظمة وغضروف أو غضروفين، في أي موضع بجسم الإنسان، ما دام بينهما فاصل.

والإعجاز هنا: أثبت الطب الحديث أن عدد المفاصل الموجودة في الجسم البشري [٣٦٠] مفصلاً في زمن يستحيل فيه معرفة هذا العدد بهذه الدقة، حيث أن معظم هذه المفاصل دقيقة، وفي أماكن يصعب تحديدها بالملاحظة المجردة، ولم تحدد المفاصل بدقة إلا بعد تقدم علم التشريح وعلم الأنسجة. [د. المصلح وآخرون: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص ٧٥ - ٧٧].

والأعجب من ذلك إفادة الباحث عبد الباسط، رئيس المجمع العلمي في القرآن والسنة بمصر، حيث يقول: (إنه علمياً كان معروف ٣٤٠ مفصلاً إلى غاية سنة ٢٠٠٦م، حينما توصل العالم الألماني شنين لاكتشاف مفصل مركب من ١٠ مفاصل بسيطة داخل الأذن على يسار الدماغ، مما يعني أن نفس العدد على الجهة اليمنى ليصبح المجموع ٣٦٠ مفصل).

وأكد عبد الباسط أنه بمجرد عرض الحديث النبوي على عالم التشريح الألماني شنين قال ثلاث جمل: (عشرين سنة وأنا أشرح المفصل وأنتم مكتوب في كتبكم، لماذا لم يكتشفه أحد منكم، منكم الله، إنكم تركتمونا في ضلال!!).

٤٣ - معجزة عَجَبِ الذنب:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي قال: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خلق وفيه يركب». [صحيح مسلم: ٢٩٥٥ / ٣ المختصر، ابن ماجه ٤٢٦٦ وغيرهما].



وفي لفظة آخر له: «وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا هو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة». [صحيح مسلم ٢/٢٩٥٥ واللفظ له، البخاري ٤٨١٤ - فتح الباري].

وفي لفظ آخر لأبي هريرة أيضًا: «إن في الإنسان عظمًا لا تأكله الأرض أبدًا، فيه يركب يوم القيامة، قالوا: أي عظم يا رسول الله؟ قال: عجب الذنب». [صحيح مسلم ٢/٢٩٥٥؛ أحمد (٨١٨٠) صحيح على شرط الشيخين].

عجب الذنب والحقيقة العلمية:

إن عجب الذنب في علم الأجنة هو: «الشريط الأولي، الذي يتكون إثر ظهور كافة طبقات الجنين، وخاصة الجهاز العصبي، ثم ينكمش ويندثر هذا الشريط، ويبقى منه أثر داخل الفقرات العصبية الأخيرة، وهو ما يسمى بعظم العصعصي [عجب الذنب] انظر: المصلح: الإعجاز العلمي، ص ٧٠ - ٧١].

إن من أبرز وجوه الإعجاز في الحديث، أن هذا الشريط الأولي لا يتعرض للفناء مهما تعرض للظروف القاسية، كالنيران الشديدة أو المواد الحارقة مثل حمض الكبريت المركز، أو غيرها، وقد حفظه الله ﷻ دليلاً على صدق نبينا محمد ﷺ، فكما خلق منه الإنسان في المرة الأولى يعاد تركيبه في المرة الثانية للبعث والنشور والوقوف بين يدي الخالق ﷻ. [المرجع نفسه، ص: ٧٤].

٤٤ - الدباء، [القرع، اليقطين]:

أخرج البخاري بسنده إلى أنسب بن مالك رضي الله عنه قال: «إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، فذهبت مع رسول الله ﷺ، فرأيتَه يتبع الدباء من حوالى القصعة، فلم أزل أحب الدباء من يومئذ». [البخاري ١٩٥٠]، وفي رواية ثانية: فقرب إلى رسول



الفصل الثلاثون: بعض المعجزات النبوية

الله ﷺ خبزاً ومرقاً فيه دباء وقديد. [البخاري ٥٣٧٩، ٦٥٧-٦٥٨، ٣٨٠٣؛ سنن أبي داود، ٣٢٨٨، ٣٢١٣، الموطأ ١٠٠٣، الدارمي ١٩٦١، الشمايل ١٣٥].

وفي رواية عن أنس أيضاً هـهـ: أن النبي ﷺ كان يعجبه القرع. [أبو الشيخ: الأخلاق ٦٥٤ / يتقوى؛ مسند الإمام أحمد ٣ / ١٦٠، و٣ / ١٧٤].

وفي رواية عن أنس هـهـ أيضاً: كان رسول الله ﷺ يحب الدباء، فإذا كان عندنا منه شيء أثرناه به» [أبو الشيخ ٦٥٥، صحيح لما قبله].

وفي رواية عن أنس هـهـ أيضاً: كان النبي ﷺ يكثر من أكل الدباء فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر من أكل الدباء. قال: «إنه يكثر الدماغ ويزيد في العقل» [أبو الشيخ، ٦٦٣ - ضعيف جداً]. وعلى الرغم من ضعف إسناد هذا الحديث إلا أن الحقائق العلمية تدل على صحة معناه.

يقول أحد الاختصاصيين: ما أحب عليه الصلاة والسلام شيئاً إلا وجدت في ذلك سرّاً عظيماً، فماذا في اليقطين؟

تبلغ نسبة الماء فيه ٩٤.٥ ٪، يحتوي على كمية قليلة من السكر والألياف، وتعطي المئة غرام منه ٦٥ حريرة فقط، فهو غذاء جيد لمن أراد إنقاص وزنه، وهو فقير جداً بالصوديوم، فهو يناسب المرضى المصابين بارتفاع ضغط الدم، وغني بالبوتاسيوم الذي يلزم الذين يتناولون الحبوب التي تدر البول، كما أنه يحتوي على البوتاسيوم والكالسيوم والمغنيسيوم والفسفور والحديد والكبريت والكلور، وهو غني بالفيتامينات، وفي طليعتها فيتامين (أ). [فارس: الإعجاز...، ص: ٤١٨] وفيتامين (س) - بحسب إنعام اللوبائي - وهناك أدلة حديثة تشير إلى أن اليقطين يفيد في الوقاية من السرطان، وقد نشرت مجلة الأبحاث البيوكيميائية عام ١٩٨٥ دراسة أجريت في المعهد الوطني



للسرطان في الولايات المتحدة، أشارت هذه الدراسة على أن اليقطين فعلاً واقياً من السرطان الرئوي عند سكان نيوجرسي في الولايات المتحدة الأمريكية [قبسات من الطب النبوي، باختصار] [فارس، نفسه، ص ٤٨١].

وقد اكتشف العلماء الألمان حديثاً أن في القرع مواد ومركبات تعمل على تنشيط الخلايا الدماغية، وتنمي التلافيف المخية المسؤولة عن الاستيعاب والذكاء، مثل مادة [Encephalic-stimulant] وهذا مصداقاً للحديث: (إنه يكثر الدماغ ويزيد في العقل). [وقد أصدر العلماء الألمان مؤخراً قراراً واجب التنفيذ في جميع المؤسسات المعنية لتعويد الطلاب والناشئين منذ باكورة أعمارهم على الإكثار من تناول القرع في وجبات غذائهم، كما يوصون كل العاملين في ميدان النشاط الذهني من مفكرين وخبراء ومدرسين ودارسين أن يركزوا على العناية بتناول هذه المادة الثمينة في غذائهم].

ويحتوي على عدد من المواد الفعالة، مثل: الكوركوبيتين - البيوتوزيد - حامض التروллин واللوسنين والبتروزين. ولبعض هذه المواد تأثير مقو لعضلة القلب ووظائف الكليتين، وتأثير ضد التهاب المجاري البولية، ويزيد من إدرار البول، وإزالة الشعور بالعطش، ويفتت الحصى والرمل في الكلى ويزيل التهاباتها.

وقد أعطى تناول القرع المسلوق مع السكر والحليب نتائج عظيمة في معالجة تضخم البروستات عند الشيوخ وكبار السن، كما أن بذور القرع تعمل على زيادة قدرة الإخصاب خصوصاً عند سحقها وخلطها مع بذور الشام وبذور الخيار، وتفيد في تخليص الجسم من السوائل الزائدة، وتنصح به اللوباني للحمية [لأنه يحول هرمون تستستيرون إلى هرمون أقوى، وهو المؤثر بشكل قوي على البروستاتا ونمو الخلايا فيها، وهذا يمنع تضخمها، كما ترى اختصاصية التغذية إنعام اللوباني].



ويحتوي على كميات وافرة من فيتامينات: [أ، ب، ج] وبروتينات سهلة الهضم والامتصاص، ودهون وعناصر معدنية كثيرة، مثل الحديد والكالسيوم والبوتاسيوم والفسفور والمنجنيز، وقد سبق ذكر معظم هذه العناصر.

وحسب اللوباني، فهو ملين للمعدة، ومسكن للآلام ومريح للصدر، وتحتوي الثمار على مواد تتمتع بقدرة على تخفيف التقلصات، وكذلك طرد الديدان من الجسم، ومواد تتحد مع مستقبلات الكوليسترول في الأمعاء، فتحول دون امتصاصه في الدم، وبذلك يؤدي إلى خفض مستوى الكوليسترول في الدم.

وينشط الكبد، ويمنع اليرقان، ويزيل الصداع والشقيقة خاصة النوع النفسي، أكلاً أو وضعاً على مكان الألم.

ومهدئ للأعصاب وأمراض النفس، ويزيل الحرارة والحمى، وينفع في أمراض الصدر والسعال، وينشط اللثة، ويكافح أوجاع الأسنان، وملين للطبيعة، وبذره طارد للدود، خاصة الدودة الوحيدة، ويطرد الدودة الشريطية، ويعالج العجز الجنسي والأرق.

وتوصلت دراسة صينية إلى أن تناول اليقطين قد يعطي الفرصة لمرضى السكر من النوع الأول بعدم أخذ حقن الأنسولين يومياً، أو التقليل من هذه الحقن بشكل كبير.

وأوضحت الدراسة أن لب اليقطين يقلل من الخلل في خلايا البنكرياس ويجعلها أكثر قدرة على إنتاج الأنسولين، مؤكدين أن هذه النتائج مهمة للغاية، وما زالت هناك حاجة لإجراء المزيد من الدراسات لمعرفة مدى إمكانية إصلاح الخلل في البنكرياس لدى الإنسان عن طريق لب اليقطين.

وينقع كعلاج للحروق والالتهابات.



ومن طرق الاستعمال:

- لطررد الدود: يقشر ٣٠- ٥٠ جرامًا من البذور، وتندق حتى تصبح كالعجينة، ثم تمزج بمقدار من الحليب، وتشرب لمدة ثلاثة أيام، ويؤخذ بعدها مسهل قوي.
- لعلاج العجزي الجنسي: تؤخذ كميات متعادلة من بذور القريع والخيار والشمام وتقشر وتندق وتذاب في السكر، وتؤخذ ثلاث ملاعق كل يوم.

٤٥- التلبينة:

أخرج الأئمة: البخاري ومسلم وأحمد والترمذي بأسانيدهم إلى عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال ﷺ: «التلبينة مجمة لفؤاد المريض، تذهب ببعض الحزن» لذا كانت إذا مات الميت من أهلها، فاجتمع لذلك النساء ثم تفرقن إلا أهلها وخاصتها، أمرت ببرمة من تلبينة فطبخت، ثم صنع ثريد فصببت التلبينة عليها، ثم قالت: كلن منها، فإن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «...الحديث» [البخاري ٤٩٩٧، مسلم ٤١٠٦، ابن ماجه ٣٤٣٧، مسند الإمام أحمد ٢٣٣٧١، ٢٤٠٣٦، ٢٣٣٦٠، ٢٣٣٦٠؛ الترمذي ١٩٦٢].

ومن ألفاظ أحمد [٣٤٣٧]: «...عليكم بالبغيض النافع: التلبينة، وقال: «وكان رسول الله ﷺ إذا اشتكى أحد من أهله لم تزل البرمة على النار حتى ينتهي أحد طرفية - يعني يبرأ أو يموت».

وفي لفظ لأحمد [٢٤٠٣٦، ٢٣٣٦٠] قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قيل له: إن فلانًا وجع لا يطعم الطعام، قال: «عليكم بالتلبينة، فحسوها إياها، فوالذي نفسي بيده إنها لتغسل بطن أحدكم كما يغسل أحدكم وجهه بالماء من الوسخ» ولفظ الترمذي [١٩٦٢]: قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ أهله الوعك أمر بالحساء فصنع، ثم أمرهم فحسوا منه، وكان يقول: «إنه ليرقق فؤاد الحزين ويسرو عن فؤاد السقيم كما تسرو إحداكن الوسخ عن وجهها».



والتلبينة، حساء الشعير المطبوخ بنخالته، وسميت كذلك لشبهها باللبن الحليب بياضاً ورقة [د. زغلول النجار: الإعجاز العلمي في السنة النبوية ٢ / ٨٩].

ومعنى مجمة: مريحة لفؤاد المريض [نفسه].

يقول د. النجار: (وحساء الشعير قاطع للعطش، مدر للبول، سهل الهضم، نافع لحالات السعال وخشونة الحلق، وصعوبة التنفس، ولجلاء ما في المعدة، ولأمراض الكلى والمثانة، ولإطفاء حرارة الجسم بصفة عامة، ولتقوية الأجسام المضادة.

وقد أثبتت الدراسات الحديثة التي قام بها كل من الدكتور ماهر مهران محمد، والمهندسة سحر مصطفى كامل، والمهندس عبد الكريم التاجوري، من كل من وزارة الزراعة المصرية، وكلية الزراعة، جامعة القاهرة، والسيدة زينبا هاوريش من جامعة ألبرتا الكندية أن الشعير يحتوي على عدد من المركبات الكيميائية التي تساعد على خفض نسبة الكلويسترول في الدم من مثل مادة بيتاجلوكان، والفيتامينات [أ، ب، د] وأشباه فيتامين [هـ] [Tocotriends]، والمواد الضابطة لضغط الدم والممانعة للاضطراب، من مثل مركبات كل من البوتاسيوم والمغنسيوم، والكالسيوم، والفسفور، والناثريوم، والحديد، والنحاس، والكوبالت، والزنك، والمضادات للعوامل المؤكسدة في جسم الإنسان.

وهذه العوامل، مما يجعله سريع الغضب والانفعال ويملاً قلبه الاكتئاب والحزن. وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن هذه المركبات الكيميائية - منفردة ومجمعة - تأثيراً إيجابياً على المواصلات بين الخلايا العصبية، مما يعين على التخفيف من حالات الاكتئاب، والميل إلى الرضا، وانسراح الصدر، وطمأنينة القلب، والتعبير الطبي (تخفيف حالات الاكتئاب): ويكاد يكون هذا مطابقاً لما جاء في حديث رسول الله ﷺ من قوله «يذهب ببعض الحزن».



رحالات الاكتتاب تشخص اليوم بالخلل الكيميائي في جسم الإنسان، وعلاجه أساسًا يكون بالغذاء المعالج لهذا الخلل، من مثل حساء الشعير الغني بالمواد النافعة في مثل هذه الحالات.

٤٦- الحلبة؛

قال ﷺ: «لو تعلم أمتي ما في الحلبة لأشتروا ولو بوزنها ذهبًا» [الهيتمي: المجمع (٤٧/٥)، من إخراج الطبراني بسند فيه متروك - الخبيري] والمذكور عن فوائده يدل على أن متن هذا الحديث صحيح.

قال د. النجار [ص: ٩٤]: (وللحلبة فوائد عديدة، منها: أنها مدرة للحليب عند الأمهات المرضعات، وفاقحة للشهية، ومعاونة جيدة في حالات الهضم، ومضادة للالتهابات، ولذلك تستخدم في علاج آلام المفاصل، وفي علاج الجروح المختلفة.

وللحلبة دور فعال في علاج أمراض البول السكري، فقد ثبت أن جرامين من الحلبة المطحونة يعادلان وحدة واحدة من عقار الأنسولين، وذلك لاحتواء بذور الحلبة على سلاسل البيبتيدات المرتبطة بالزنك، والتي يعزى إليها التأثير على نسبة السكر في الدم؛ هذا بالإضافة إلى ما بها من الأحماض الأمينية والكبريتية التي تساعد على تحويل السلاسل البيبتيدية في البنكرياس إلى بنسلين فعال، كما أشار إلى ذلك الأستاذ الدكتور عبد الباسط محمد سيد، أستاذ الفيزياء الحيوية الجزيئية والطبية بالمركز القومي للبحوث - الدقي - القاهرة، وذلك في كتابه القيم (التداوي بالأعشاب والطب النبوي)، حيث أكد أن مرضى السكر يعانون نقصًا في الرابطة الكبريتية التي تربط بين السلاسل البيبتيدية لتعطي جزيء الأنسولين الفعال، لذلك فإن الكبريت في صورته العضوية في نبات مثل نبات الحلبة يزيد من فاعلية البنكرياس، مما يعين في معالجة أمراض السكري).



(وتحتوي بذور الحلبة على ٢٩٪ من المواد البروتينية و ٦٪ من الزيوت الثابتة والطيارة، وعلى نسب عالية من فيتامينات ب ١، ب ٢، ومادة النياسين، وحمض البانتونين، والتريجونيللين، والكولين، والسابونين، ومادة الديوسجين والأمينات ثلاثية الميثيل، وهي مواد لها تأثيرها على أعراض الدورة الشهرية عند البالغات. هذا بالإضافة إلى العديد من العناصر من مثل: الحديد، والفسفور، والأنزيمات، والهرمونات، والمواد الصمغية).

وجاء في صحيفة (أخبار اليوم السودانية) الثلاثاء ٣ شواء ١٤٣٠هـ / ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٩م، العدد ٥٣٧٨، الآتي: (أكد الدكتور سعيد شلبي، أستاذ الباطنة والكبد بالمركز القومي للبحوث بمصر، أن احتساء مشروب الحلبة بعد تناول كعك العيد يجنب الإنسان الآثار الضارة له، لاحتوائه على مادة (الجلالكتوفتان) التي تخفض مستوى السكر والكوليسترول في الدم).

٤٧- العدس:

جاء في فيض القدير للمناوي [٣٥ / ٤] أن ابن السني أخرج فيما رواه عن أبي هريرة مرفوعاً: «أن نبياً من الأنبياء اشتكى إلى الله قساوة قومه، فأوحى الله إليه وهو في مصلاه، أن مر قومك يأكلوا العدس، فإنه يرقق القلب ويدمع العينين ويذهب الكبر». يقول د. النجار في ضوء هذا الحديث الذي ذكره: (وتحتوي حبوب العدس على نسبة عالية من البروتين ٣٤٪ والكاربوهيدرات ٢٦٪ والدهون ١٠٤٪ بالإضافة إلى نسب متباينة من مركبات كل من الفوسفور، والمغنيسيوم، والكالسيوم، والنا تريوم، والبوتاسيوم، والحديد، والمنجنيز، والزنك، والنحاس، ونسب متباينة كذلك من الفيتامينات: أ، ب ١، ب ٢، ب ٦، ب ١٢، ج، د، وأعدد من الهرمونات والأنزيمات المختلفة).

وحبوب العدس المطبوخة لها قيمة غذائية كبيرة، ونابتها يمثل علاجاً لكثير من الأمراض من مثل فقر الدم، وقشرها يعالج الإمساك، ويعمل على إدرار البول، وهو



مضاد لكثير من الفطريات، ولذا فإنه يساعد على حفظ الأسنان من التسوس، ولصقات وكماذات معجون العدس المسلوق تفيد في علاج الالتهابات، والجروح، ودمامل مختلف القروح.

والعدس لم يكن شائعاً في جزيرة العرب على عهد رسول الله ﷺ، ولذا يعتبر وصفه له في هذا الحديث الشريف من معجزات الرسول ﷺ.

وجاء ذكره في القرآن: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْشِي عَلَى بَنَاتِهِ لَبِئْسَ مَا تَجْعَلُونَ لَكُمُ الْمَوْتَىٰ وَلَبِئْسَ الَّذِي كُفِّرَتْ عَنْكُمْ أَلْفُ عَشْرَ سَنَةً﴾ [البقرة: ٦١]

جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية: أن معنى الأدنى: الدنيئة. قلت: لماذا لا يكون الأدنى بمعنى الذي في تناول اليد، أو متوفر أو يكثر وجوده، أو الأرخص سعراً، أما المن والسلوى الوارد في الآية ٥٧ من البقرة: ﴿وَلَلْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلٰوٰى كُلَّوٰىنَ طَبَعَتْ مَارَزَقْتَكُمْ وَمَا ظَلَمُوْنَا وَلٰكِنْ كَانُوْا اَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ﴾ [البقرة: ٥٧] فنادر الوجود، فالمن: طعام أو شراب متميز، ينزل على شجر الزنجبيل، والسلوى: طير السمان أو ما يشبهه).

٤٨ - التين؛

جاء في تفسير القرطبي [٢٠ / ١٤٠] من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة؛ قلت: التين: لأن فاكهة الجنة بلا عجم، كلوا منه فإنه يقطع البواسير ونقع النقرس» [بلا عجم: بلا نوى - بلا بذور صلبة].

وفي رواية لأبي ذر رضي الله عنه قال: أهدى للنبي ﷺ تسل تين، فقال: «كلوا». وأكل منه، ثم قال: «لو قلت.. الحديث».



قال دكتور النجار عن ثمرة التين: (... فإنها تعتبر غذاء منشطاً ومريحاً للأعصاب...

وقد ثبت بالتحليل الكيميائي الدقيق أن ثمرة التين تحوي كمية كبيرة من الألياف، حوالي ١٨.٥٪، ونسبة عالية من الكربوهيدرات في حدود ٥٣٪ بها فيها من السكريات الأحادية والمركبات النشوية، ونسبة من البروتينات في حدود ٣.٦٪ وأملاح العديد من العناصر من مثل: البوتاسيوم، والكالسيوم، والمغنسيوم، والفوسفور، والحديد، والنحاس، والزنك، والكبريت، والصوديوم، والكلور؛ بالإضافة إلى العديد من الفيتامينات، والإنزيمات، والأحماض، والمواد المطهرة، والمواد الهلامية، ونسبة كبيرة من الماء.

وهناك أنزيم خاص للتين يعرف باسم أنزيم التين، أو أنزيم فيسين *Ficin*، ثبت أن له دوراً مهماً في عملية هضم الطعام، وقد تمكن اليابانيون من عزل مادة كيميائية أخرى من ثمرة التين، وهي مركب كيميائي من نوع البنزألدهايد *Benzaldehyde*، ثبت أن لها قدرة على مقاومة مسببات الأمراض السرطانية، وقد استعملت تلك المادة بالفعل في علاج بعض الحالات المتقدمة من هذا المرض، وقد شفيت بإذن الله شفاء تاماً.

وبثمرة التين مجموعة من المركبات النشوية التي ثبت لها دور فعال في حماية الدم من البكتريا والفيروسات والطفيليات العديدة التي تتسبب في كثير من أمراض الدم، مثل: فيروس، التهاب الكبد، وتعرف هذه المركبات النشوية باسم مجموعة السورالينز، وهي موجودة بوفرة في ثمار التين وفي دبسه، وعصائره، وأنواع المرببات المصنوعة منه.

كذلك ثبت للتين فوائد عديدة في علاج حالات البواسير والإمساك المزمن، والنقرس، وأمراض الصدر، واضطراب الحيض، وحالات الصرع، وتقرحات الفم، والتهابات اللثة، واللوزتين والحلق، وفي علاج البهاق، وإزالة الثآليل، واندمال الجروح والتقرحات؛ لأنه به مواد قاتلة للجراثيم، ومضادة لكل من البكتريا والفيروسات والديدان، وبه مواد كذلك تساعد على إدرار اللبن.



وكون التين يقطع البواسير راجع غالبًا إلى احتوائه على مكونات مسهلة، وأخرى قابضة، وأما نفعه في حالة النقرس، فراجع إلى ما يملكه من قدرة على إذابة أملاح حمض البولييك المترسبة في المفاصل عن الإفراط في أكل اللحوم الحمراء مما يؤدي إلى خلل في تمثيل الأحماض في داخل خلايا الجسم

وهنا يعجب الإنسان من حديثه ﷺ عن فوائد التين في علاج البواسير والنقرس في زمن لم يكن لأحد حوله إدراك شيء من ذلك... [النجار: الإعجاز العلمي في السنة النبوية، ج ٢، ص: ١٥٥-١٢٢].

وجاء في صحيفة الصحافة السودانية في ١/٢/٢٠١٣م، عدد ٧٠٠٥، الجمعة ٢٠/٣/١٤٣٤هـ، تحت عنوان: (علماء يعتنقون الإسلام بسبب سورة: التين والزيتون).

(أعلن رئيس فريق بحث ياباني إسلامه بعد أن تأكد من إشارة ذكر كل ما توصل إليه الفريق في القرآن الكريم منذ أكثر من ١٤٣٨ عامًا).

وتعود قصة الخبر كما ذكرت وسائل إعلام وصحف عربية إلى أن البحث عن مادة الميثالويندز، وهي مادة بروتينية يفرزها مخ الإنسان والحيوان بكميات قليلة، تحتوي على مادة الكبريت، لذا يمكنها الاتحاد ببسر مع الزنك والحديد والفسفور.

وتعتبر هذه المادة مهمة جدًا لجسم الإنسان، حيث تعمل على خفض الكوليسترول، والتمثيل الغذائي وتقوية القلب وضبط التنفس، ويزداد إفراز هذه المادة من مخ الإنسان تدريجيًا بداية من سن ١٥ - ٣٥ سنة، ثم يقل إفرازها بعد ذلك حتى سن الستين عامًا، لذلك لم يكن من اليسير الحصول عليها من الإنسان.

وبالنسبة للحيوان فقد وجدت بنسبة قليلة جدًا، لذا اتجهت الأنظار إليها في النباتات، حيث قام فريق من العلماء اليابانيين بالبحث عن هذه المادة السحرية التي لها



أكبر الأثر في إزالة أعراض الشيخوخة، فلم يعثروا عليها إلا في نوعين من النباتات: هما التين والزيتون. وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ [التين].

وبعد أن تم استخلاصها من التين والزيتون، وجد أن استخدامهما من التين وحده، أو من الزيتون وحده، لم يعط الفائدة المرجوة لصحة الإنسان، إلا بعد خلط المادة المستخلصة من التين والزيتون معاً.

قام بعد ذلك فريق العلماء الياباني المذكور بالوقوف عند أفضل نسبة من النباتين لإعطاء أفضل تأثير علاجي، فكانت نسبة [١] من التين إلى نسبة [٧] مقادير من الزيتون هي النسبة الأفضل.

ومن جانبه قام الدكتور السعودي طه إبراهيم خليفة بالبحث في القرآن الكريم، فوجد أنه ورد ذكر التين مرة واحدة، أما الزيتون فقد ذكر ست مرات صراحة، ومرة واحدة بالإشارة ضمناً في سورة «المؤمنون»: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصَبِغٍ لِّلْأَكْثَنِ﴾ [المؤمنون]. وقام دكتور خليفة بإرسال كل المعلومات التي حصل عليها وجمعها من القرآن الكريم إلى فريق البحث الياباني المذكور، وكانت النتيجة أن أعلن أفراد فريق البحث إسلامهم بعد هذا البحث).

٤٩- الرمان؛

قال ﷺ: «ما من رمانة إلا وفيها حبة من رمان الجنة» [السيوطي: الجامع الكبير ١/٧١٩].

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يأخذ الحبة من الرمان فيأكلها، قيل له: يا ابن عباس، لم تفعل هذا؟ قال: «أنه بلغني أن ليس في الأرض رمانة إلا تلتح بحبة من حب الجنة، فلعلها هذه» [الطبراني: الكبير ١٠٤٦٦، رجال الصحيح كما قال الهيثمي].



وعن ربيعة بنت عياض الكلابية، قالت: «سمعت علياً عليه السلام يقول كلوا الرمان بشحمه، فإنه دباغ المعدة [أحمد: ٢٢١٥٣؛ المجمع ٥/ ٤٨، وقال الهيثمي: رجاله ثقات].

يقول د. النجار بعد إيراد هذا الحديث والأثرين:

(ويستخرج من كل من قلف شجرة الرمان وغلاف ثمرتها صبغة تحتوي على مركبات القانين والبلليتين، وهي بالإضافة إلى فوائدها الصبغية، فإنها كذلك مواد قلبية قابضة تستخدم في دباغة الجلود، وفي تلوين العجائن التي تستخدم في صناعة الأسنان المستعارة).

ويبلغ وزن المادة الصالحة للأكل من ثمرة الرمان حوالي ٥٦ ٪. هذا بالإضافة إلى نسب ضئيلة من الدسم، ونسب متفرقة من أملاح البوتاسيوم، والكالسيوم، والمغنيسيوم، والفوسفور، والحديد، والنحاس والكبريت، والكلور، بالإضافة إلى عدد من الفيتامينات - خاصة (ج)، والأحماض - خاصة حمض البوريك.

ولقد لاحظ الدارسون أن لكل من ثمرة الرمان وقشرتها خواص تساعد على سهولة هضم الطعام بصفة عامة، والدهون بصفة خاصة، كما أن لها فعلاً قابضاً مضاداً لكل من الجراثيم والطفيليات، ولذلك استخدمها بكفاءة في معالجة حالات الإسهال، والزحار - الدستاريا -، كما استخدمها كمسكنات لآلام المعدة، وكمركبات طاردة للديدان، خاصة نقيع قشرة الرمان بعد غليه وتبريده.

كذلك فإن لب ثمرة الرمان يهدئ من السعال، ويستخدم كمادة صابغة تتميز بالثبات وعدم تغير اللون».

ومن الفوائد المعروفة لكل من قشرة وشحم ثمرة الرمان استخدامها بعد تجفيفها في علاج حالات الزيادة في حموضة المعدة، وما قد ينتج عنها من قرح الجهاز الهضمي



ويستخدمان كذلك في علاج قروح الإضجاع [القرح السريرية] التي كثيراً ما تصيب قعيدي الفراش، وينصح كل من الحوامل والمرضعات بعدم التداوي بنقيع قشر الرمان أو نقيع قلفه. وصدق الرسول الكريم ﷺ، وجل جلال من هداه إلى هذا الإعجاز!).

٥٠- الحجامة:

لقد وردت عدة أحاديث في فضل الحجامة، بلغت نحو العشرين، نذكر منها باختصار:

أ- «إن كان في شيء من أدويتكم خير، ففي شرطة محجم أو شربة عسل أو لذعة بنار، وما أحب أن أكتوي». [البخاري ٦٥٨٣، ٥٠٧٣، مسلم ٢٢٠٥].

ب- «إن أمثل ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري»، أي: العود الهندي [البخاري ٥٢٦٣].

ج- «خير ما تداويتم به الحجامة» [المرجع نفسه ١٩٣٤].

د- «إن من خير دوائكم الحجامة». [المرجع نفسه ١٩٣٤٠].

هـ- «خير الدواء الحجامة والفصد» [البخاري ٦٥٨٣].

و- «إن يكن في شيء شفاء ففي مصة الحجام ومصة العسل» [البخاري معلقاً ١٠ / ١١٦].

ز- «إن كان دواء يبلغ الداء، فإن الحجامة تبلغه» [الموطأ ٢ / ٩٧٤، من بلاغات الإمام مالك].

ح- «الحجامة تنفع من كل داء إلا الهرم، فاحتجموا». [الدليمي ٢٧٨٢، الطبراني: الصغير ٢٣٦].

ط- «إذا اشتد الحر فاستعينوا بالحجامة، لا يتبّع الدم بأحدكم فيقتله». [الحاكم، ٧٥٩٠].

ي- «نعم الدواء الحجامة، تذهب الدم، وتجلو البصر، وتخفف الصلب». [الحاكم ٨٢٥٨].

ك- «نعم العبد الحجام، يذهب الدم، ويخفف الصلب، ويجلو عن البصر»

[سنن الترمذي، ١٩٧٨، سنن ابن ماجه ٣٤٦٩].

ل- عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يحتجم في الأخدعين وبين

الكتفين» [مسند الإمام أحمد ٢١٥٥، ٢٩٨١، ٣٠٧٨- صحيح].



م- أن ابن عباس رضي الله عنه قال: «احتجم النبي ﷺ وأعطى الحجام أجره» [البخاري (١٠ / ١٢٤)، ك. الطب، ب، السعوط؛ صحيح مسلم (١٢٠٢)].

وقد وردت عدة أحاديث وأثار في وقت ومكان الحجامة.

ذكر الدكتور يحيى بن ناصر خواجي في بحثه الموسوم بـ: (الحجامة في ضوء الحديث النبوي والممارسة الطبية). والذي قدمه لندوة: (عناية المملكة العربية السعودية بالسنة والسيرة النبوية) في الفترة من ١٥ - ١٧ / ٣ / ١٤٢٥ هـ الموافق ٤ - ٦ / ٥ / ٢٠٠٤ م، ذكر التفسير العلمي المحتمل لتأثير الحجامة، فاستعرض خلاصة النظريات القديمة لتأثيرها، وهي: نظرية (القنوات الكهرومغناطيسية)، وهي أن الجسم يحتوي على قنوات تجري فيها الطاقة المغناطيسية، وهي تحدد صحة الإنسان وعافيته، فكلما كانت تسير هذه الطاقة وبدون عوائق يكون الإنسان صحيحاً؛ وإلا فإنه يصبح عرضة للأمراض، فالحجامة تعمل على تصحيح مسار الطاقة وتقويتها في قنوات الطاقة. وهذه النظرية - كما قال - فرعونية، انتقلت إلى آسية، ثم يذكر النظريات الأخرى الشرقية والغربية والإسلامية.

ولخص ميكانيكية عمل الحجامة في الآتي:

- أ- تنشيط النقاط الواقعة على المسارات المغناطيسية للجسم بهدف ما، مثل: مفعول مسكن، أو رفع المقاومة المناعية للجسم، أو معالجة الأخطاء المناعية في الجسم.
 - ب- تنشيط الدورة الليمفاوية للجسم الذي يؤدي إلى سرعة تنقية سوائل الجسم.
 - ج- تنشيط الدورة الدموية للجسم، فيغلب على ضعف التروية الدموية في أجزاء الجسم المختلفة، التي ينتج عنها مشاكل في بعض أجزاء الجسم.
- ومن فوائد الحجامة التي ذكرها د. خواجي: [ص: ٤٣ - ٤٤].



أ- امتصاص الأخلاط والسوم التي توجد تجمعات دموية بين الجلد والعضلات [منطقة الفاشية].

ب- تنشيط الدورة الدموية موضعياً.

ج- تقوية المناعة العامة في الجسم، وذلك بإثارة غدد المناعة.

د- تسليك العقد والأوردة الليمفاوية المنتشرة في كل أجزاء الجسم، فيمكنها تخليصه أولاً بأول من الأخلاط ورواسب السوم.

هـ- تنشيط أماكن ردود الفعل بالجسم.

و- تسليك مسارات الطاقة الحيوية التي تقوم على زيادة حيوية الجسم [اكتشفها الصينيون القدماء].

ز- العمل على مواءمة الناحية النفسية.

ح - تنشيط الغدد الصماء، خاصة الغدة النخامية.

ط - تنشيط مراكز المخ، والحركة، والسمع والإدراك، والذاكرة.

ي- دفع الضغط عن الأعصاب.

ك- امتصاص الأحماض الزائدة في الجسم.

ل- تحسين وتنشيط وظائف الجسم، كما أثبتت البحوث العلمية عن الحجامة، وهي:

- زيادة نسبة الكورتيزون في الدم - تحفيز إثارة المواد المضادة للسوم - تقليل نسبة

الكولسترول في الدم - تقليل نسبة البوليبيد في الدم - زيادة نسبة المورفين الطبيعي في الدم.

- وذكر د. خواجي [ص: ٤٤-٤٧] الحالات المرضية التي عولجت بالحجامة،

ومصدره كتاب: (الدواء العجيب) لمحمد أمين شيخو، وكتاب: الطب الصيني

التقليدي» لزهيني إهيري. ومن هذه الأمراض التي ذكرها:



- ١- أمراض الدم سرطان الدم - الرعاف - الناعور - [عرق لا يرقأ دمه] - خلل عوامل التخثر - احمرار الدم - فقر الدم - جلطات دموية.
- ٢- الجهاز الدوري: نقص تروية قلبية - احتشاء العضلة القلبية - ارتفاع ضغط الدم وهبوطه - الدوالي - آلام الصدر - تصلب الشرايين - ارتفاع توتر شرياني مزمن.
- ٣- الجهاز التنفسي: الربو - التهاب رئوي - ارتشاح رئوي - السعال المزمن.
- ٤- الجهاز البولي: التهاب مجرى البول - قصور كلوي - التبول غير الإرادي - تضخم البروستاتا - هبوط المثانة.
- ٥- الأمراض السرطانية: سرطان الدم - سرطان الثدي - سرطان الرحم - سرطان البروستاتا - سرطان القناة الكبدية الجامعة - كتل سرطانية تحت الجلد.
- ٦- الجهاز الهضمي: الإمساك - آلام البطن.
- ٧- أمراض الكبد: - تليفه - التهابه الأثنائي - اليرقان.
- ٨- أمراض الطحال: تضخمه.
- ٩- الأمراض المعدية:خراجات الجلدية - الحمى المالطية - تقرحات معدية - الإيدز - الزكام - الرشح - النكاف.
- ١٠- الأمراض المناعية: مرض متلازمة بهجت - تحسس الجلد.
- ١١- العقم عند الرجال: نتيجة نقص عدد أو زيادة عدد الحيوانات المنوية.
- ١٢- أمراض العظام: الروماتيزم - تضيق القناة الشوكية - فتوى نواة لبية في فقرات العمود الفقري - الانزلاق الغضروفي - آلام الظهر - تمزق أربطة المفاصل.
- ١٣- سكر الدم وارتفاعه.
- ١٤- زيادة الشحوم الثلاثية والكوليسترول.



١٥ - الجهاز العصبي: الشلل - احتشاء دماغي نازف - صرع - ضمور الدماغ - الشقيقة - الصداع - ضعف الرؤية - عرق النسا - شلل العصب الوجهي.

١٦ - الوهم العام: اعتلال عضلي - الأرق - تدمع العين بسبب عيب خلقي أو خلل عصبي.

١٧ - عسر الحيض وهبوط الرحم.

قال د. خواجي [ص٤٦]: (وتأكيدًا لما سبق فإن هناك بعض الحالات المرضية التي عولجت بالحجامة وتحسنت حالتها، وهي كما يلي): ذكر عشر حالات، ثم ذكر محظورات الحجامة، [ص٤٨] والضوابط اللازمة لاتخاذها لممارسة الحجامة بالطرق الآمنة. [ص٥٠ - ٧٠].

ويقول الباحث د. خواجي في آخر عناوين بحثه: (أوجه الإعجاز العلمي والطبي في بعض أبحاث الحجامة):

(بعد الإطلاع على الأبحاث التي تناولت الحجامة كما ورد في كتاب (الدواء العجيب) لمحمد أمين شيخو، والذي جمعه عبد القادر يحيى الشهير بالديراني، والذي أضاف إلى عنوان الكتاب معجزة القرن العشرين الذي شفى منه مرضى القلب القاتل: ومرضى الشلل والناعور [عرق لا يرقأ دمه]، والشقيقة، والعقم، والسرطان، والذي قام على أبحاث هذا الكتاب فريق طبي سريري مكون من ثمانية أساتذة طب سريري، وسبعة أساتذة في الطب المخبري ينتمون لجامعة دمشق بسوريا.

وقامت وكالات الأنباء العالمية والسورية والفضائية والإذاعات الدولية وبعض صحف العالم بالاهتمام بنشر هذا الفتح الطبي الوقائي والشافي من الأمراض التي عجز عن شفائها الطب الحديث في هذا العصر الحاضر؛ مما دفعني لدراسة هذا الكتاب الذي



يجوي خمسمائة صفحة مليئة بالبحوث السريرية والمختبرية، وعرضه على فئة من الاختصاصين في مجال الطب السريري والمختبري لمناقشة بعض الحالات وبعض التحاليل التي ظهر فيها الإعجاز العلمي والطبي كشفاء لبعض الأمراض المستعصية على الطب الحديث، مثل: الشلل النصفي، أو مرض الناعور، والسرطان، وغيرها من الأمراض المزمنة التي في مفهوم الطب الحديث ليس لها علاج، وهنا يتجلى الإعجاز العليم والطبي في الحجامة، التي حث عليها الرسول ﷺ، ومارسها صائماً ومعتماً، ومن سياق هذه الأحاديث نجزم بأن الحجامة لهذا فوائد كثيرة سواء استطاعت الأبحاث والدراسات اكتشافها أم لا، ففوائدها محتمة، فهو ﷺ لا ينطق عن الهوى، علمه من علمه، جهله من جهله (...).

٥١- الخل:

قال ﷺ: «نعم الأدم، أو الإدام الخل» [مسلم ١٠٥١ / ١٦٤].

وفي لفظ: «نعم الأدم الخل» [مسلم ٢٠٥١ / ١٦٥]، وفي لفظ: «نعم الأدم الخل، نعم الأدم الخل» [مسلم ٢٠٥١ / ١٦٥].

ورواه غير مسلم. جاء في كتاب (الأربعون العملية) لعبد الحميد محمود طهراز، أن الخل يحتوي على كمية قليلة من البروتين والنشويات، كما يحتوي على الصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنسيوم والفسفور والحديد والزنك والكلور.

ويقول الدكتور سيريل سكوت وموريس هانسن في كتابهما عن فوائد خل التفاح، أنه:

١- يمنع الإسهال، لاحتوائه على مادة قابضة.

٢- ينشط عملية الهضم والاستقلاب في الجسم.

٣- يمنع نخر الأسنان.



٤ - يقتل الطفيليات في الأمعاء.

٥ - يمكن استعماله لتحسين الهضم عند أولئك الذين لديهم نقص في حمض المعدة. كما يقوم بفعل مطهر للأمعاء، وبعض الناس ينصح باستعماله لغرغرة الفم والحلق، فيطهر الفم من الجراثيم (قبات من الطب النبوي) باختصار، نقلاً عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة ك: م. فارس].

٥٢- نهى النبي ﷺ عن النفخ في الشراب والطعام؛

عن أبي المثني الجهني، قال: كنت جالساً عند مروان بن الحكم، فدخل أبو سعيد رضي الله عنه، فقال له مروان: «سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن النفخ في الشراب؟ قال: نعم. فقال له رجل: إني لا أرتوي بنفس واحد، قال: أمط الإناء عن فيك ثم تنفس، قال: فإن رأيت قذى؟ قال: أهرقه». [الحاكم ٧٢٠٨ وصححه ووافقه الذهبي].

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الطعام والشراب [الألباني. صحيح الجامع للسيوطي].

قال رضي الله عنه: «إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء» [البخاري (١٤٩)].

وعن ابن عباس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الطعام والشراب» [الألباني: صحيح الجامع للسيوطي].

قال رضي الله عنه: «إذا شرب أحدكم، فلا يتنفس في الإناء» [البخاري (١٤٩)].

ماذا يقول الطب الحديث عن هذا الهدى النبوي؟

يقول الطب الحديث: في الإنسان تعيش بكتريا يكون عددها أكثر من عدد خلاياه، ولكنها بفضل الله تعالى ورحمته نافعة للجسم وغير ضارة، بحيث أنها تقوم بعمليات تنشيط التفاعلات اللازمة للهضم.



توجد بعض من هذه البكتريا بالملايين في الفم، ويسمى نوع من هذه البكتريا: (Helicobacter pylori). لكن تلك البكتريا عند خروجها من الفم تكون ضارة بدرجة كفيفة بأن تقتل ذلك الإنسان في بعض الأحيان، وأن تصيبه بمرض خطير في أحيان أخرى.

تقوم تلك البكتريا عندما تخرج من الفم بوساطة النفخ بالتحوصل، ثم يتناول الإنسان ذلك الطعام حيث تتواجد البكتريا فيه بشكل كبير جداً، وتكون في أتم الاستعداد للدخول إلى داخل الجسم، تخيل كم مرة يقوم الإنسان بالنفخ في ذلك الطعام، وكم هي الكمية من البكتريا المتواجدة فيه!! تبدأ الرحلة من الفم ومن المري إلى أن تصل إلى المعدة، فتقوم تلك البكتريا بالتنشيط وإفراز إنزيم اليوريا (Usease enzyme). الذي يسبب التهاب الأغشية المبطنة للمعدة، مسبباً بذلك خرقاً في جدار المعدة، حيث تبدأ المعدة بهضم نفسها وحدث تآكل بجدار المعدة، مما يؤدي إلى هضم المعدة لنفسها.

تسبب تلك البكتريا أيضاً ضعفاً في إفراز الأنسولين بالبنكرياس، مما يؤدي إلى ارتفاع نسبة السكر بالدم، وحدث مرض السكري.

وكما يقول المثل العربي: الوقاية خير من العلاج، و: درهم وقاية خير من قنطار علاج، فإن الوقاية من ذلك كله تتمثل في الحفاظ على نظافة الفم واستعمال السواك أو الفرشاة والمعجون، أو حتى المضغضة كما يحدث عند الوضوء.

٥٣- معجزات الحجر الأسود الحسية والمادية:

عندما وقف أعداء الإسلام في أوروبا على حديث النبي ﷺ: «الحجر الأسود من الجنة»، ظنوا أنهم قد وجدوا دليلاً على أن الإسلام دين خرافات، فسعوا للحصول على



قطع منه لتحليلها مختبرياً ليقولوا أنه مجرد حجر من أحجار البازلت المنتشرة حول البيت الحرام، أو قطعة من حجر نيزكي، وكانت الخطة أن جندوا رجلاً بريطانياً يدعى برتون ليقوم بسرقة قطع من الحجر الأسود، فأرسل إلى المغرب العربي، حيث درس اللغة العربية على اللهجة المغاربية لمدة ثماني سنوات، ذهب بعد ذلك إلى مصر، فانضم إلى الحجاج المصريين بصفته حاجاً مسلماً مغربياً، وعندما وصل الكعبة اغتنم فرصة الساعات التي تسبق الفجر؛ لأن الإنسان في ذلك الزمان، قبل (١٠٠) سنة، يمكنه أن يطوف وحده في تلك الساعات، فتمكن من قطع ثلاث قطع صغيرة بقطعة ليزر، وطار بها إلى القنصلية البريطانية بجدة، فاحتفوا بهذا الإنجاز، وحجزوا له على سفينة ليصل إلى بريطانيا، وهناك بدءوا في إجراء التحاليل اللازمة، ولم يصلوا إلى مبتغاهم، وصدق الله العظيم القائل في محكم التنزيل: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤]، فأرسلوا ثلاثة قطع منه إلى أمريكا، الواحدة مثل حبة الحمص، أجريت عليها التجارب الدقيقة اللازمة، وكانت المفاجأة أن الحجر الأسود ليس من حجارة الأرض أو نيازك السماء، ولم يبق إلا الاحتمال الثالث، وهو أنه من الجنة!! وأن من صفاته: أنه لا يغطس في الماء، ولو سخن على لهب أو كسيتيلي (خاص بقطع الحديد) لا يسخن، وأنه من أشباه الموصلات، وأنه يطلق (٢٠) إشعاعاً غير مرئي في اتجاهات مختلفة بموجة قصيرة، وكل إشعاع واحد يخرق (١٠) آلاف رجل مصطفون.

وعندما وقف برتون على هذه الحقائق أعلن إسلامه، وكتب كتاباً من جزأين بعنوان: (رحلة إلى مكة)، حكى فيه قصته مع الحجر الأسود.

وعقب إسلام كارنار - عالم الفضاء الأمريكي الذي سبق ذكره - قام بتفسير ظاهرة تقبيل الحجر الأسود أو حتى الإشارة إليه، وقف على حقيقة أخرى مذهلة، وهي أن



الحجر الأسود يسجل اسم كل من قبله أو أشار إليه، بل يسجل اسم الأم كذلك، وقد سبق إلى هذه الحقيقة الإمام الشافعي رحمته الله، فقال: إضافة إلى هذا الحجر الأسود يسجل الاسم مرة واحدة فقط، ويضع علامات بعدد المرات التي حج أو اعتمر فيها الشخص!! [انظر أقرب المراجع: نت، مع إضافات من المؤلف من مراجع أخرى مختصة في الإعجاز العلمي].

٥٤- اللبن (الحليب):

قال ﷺ: «من أطعمه الله طعامًا فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه، فإنه ليس شيء يجزئ مكان الطعام والشراب غير اللبن» [أحمد (١٩٧٨) - حسن؛ الترمذي (٣٤٥٥) - حسن، أبو داود (٣٧٣٠)، البيهقي (الشعب) (٥٩٥٧)، ابن ماجه (٣٣٢٢) - حسن، وغيرهم].
لقد تمثل الإعجاز العلمي الحسي في هذا الحديث في الحقائق العلمية الغذائية المعجزة التالية:

أن الحليب (اللبن) هو الوحيد من بين الأغذية الذي يحتوي على جميع المواد الغذائية - كما أثبت الطب الحديث - حيث يحتوي على:

١- المواد البروتينية: وهي على نوعين:

الأول: (كازيونوجين) (Caseinogen)، وهو فسفور بروتيني.

والثاني: (لاتكواليومين) (Lacto allumine).

٢- المواد الدهنية: حيث يتركب دهن اللبن من: الكسرايد - (Eylyceride)، وهو موجود في اللبن بشكل قطرات مستديرة، وتوجد في اللبن صبغة صفراء تسمى (Lipacherome)، تكسبه صفوته المعروفة، ويفقد اللبن كثيرًا من خواصه الغذائية عندما تنزع قشده.



٣- المواد النشوية.

٤- المعادن: وأهمها: الصوديوم، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والمغنيزيوم.

٥- الفيتامينات: جميعها: أ، ب١، ب٢، د، هـ وأكثرها خاصة: أ، د، أما ج، فقليلة.

واللبن غذاء أساسي لمرضى القرحة المعوية، أو قرحة الإثني عشر، لما له من خاصية معادلة أحماض المعدة وحماية جدارها من الإصابة بالأمراض، فضلاً عن فوائده الغذائية الأخرى، سهل الهضم.

وهو غذاء وعلاج لمرضى الكبد، حيث يتكون اللبن من مادة (اللاكتوز) - أي: نشا اللبن - الذي لا يمتص، وإنما يتحلل وينتج عنه حامض يمنع امتصاص بعض المواد الأخرى بالأمعاء التي قد تكون سبباً في حدوث الغيبوبة الكبدية؛ لذلك يعد اللبن وقاية لمرضى الكبد من حدوث الغيبوبة الكبدية، وخاصة إذا كان مريض الكبد يحدث له إسهال نتيجة تناول اللبن.

وقد تبين أيضاً أن المواد البروتينية الموجودة باللبن وما بها من أحماض أمينية لا تتوافر إلا في البروتين الحيواني، وما بها من خاصية عظيمة لتواجد مادة (الأومونيا)، مما جعل لبروتين اللبن ميزة دون سواه، وقد ثبت أن الامتناع عن تناول المواد البروتينية لمدة عشرة أيام يؤدي إلى اضطراب ميزان بروتينات الدم، ويؤدي إلى اضطراب الهرمونات والصحة العامة.

ومما هو جدير بالذكر: أن اللبن صلة وثيقة بقوة الرجل الجنسية.

وقد اكتشف العلماء الاختصاصيون في الكيمياء وعلم التغذية، أنواعاً من الأحماض في اللبن تساعد على عدم تجلط الدم أو الإصابة بالذبحة الصدرية. [حسيني: الإعجاز العلمي (١/٨)]، كما يفيد الأعصاب بصورة عامة.



وقد أدرك الرياضيون في شمالي أوروبا أهمية اللبن، فأصبحوا يتخذونه غذاءً ضرورياً يعينهم على ممارسة الرياضة، ولا سيما رياضة المصارعة.

ولم يعرف الغرب عادة شرب اللبن إلا بعد الحروب الصليبية، ويستهلكون الآن أضعاف استهلاك العرب، خاصة بعد أن أثبت العلم والطب الحديث مدى أهمية الحليب كغذاء بشري، وهو ما سبق به الرسول ﷺ العلم والطب الحديث!!

قال الباحث المهندس فارس [الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية (ص ٤٥٧)]: (يعتبر الحليب أكثر غذاء متكامل وجد على سطح الأرض، حيث أنه صمم ليكون غذاءً لكل مولود للحيوانات اللبونة، كالأبقار والماعز والضأن، والإنسان (المرأة)، وبذلك فإنه يؤمن كميات كافية من الغذاء، ومع ذلك فإنه فقير بفيتامين (C٢) والحديد، إلا أن الأطفال يولدون وفي أجسامهم كمية من الحديد وفيتامين (C) تكفيهم لعدة أسابيع.

والجدير بالذكر: أن الرسول ﷺ اختار اللبن يوم المعراج.

أما حليب الإبل فقد سبق ذكر ما فيه من المعجزات الطبية والغذائية في فقرة: ألبان وأبوال الإبل).

٥٥- معجزة التوجيه النبوي في (النهي عن زواج الأقارب):

ذكر ابن قتيبة [في مؤلفه: (غريب الحديث)، بدون إسناد] أن رسول الله ﷺ قال: «اغتربوا لا تظنوا». ومعنى الحديث: أن التزاوج بين الأقارب يخشى منه أن يأتي النسل ضعيفاً في بدنه وعقله.

وقيل: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لبني السائب: «يا بني السائب، إنكم قد أضويتم، فانكحوا في الغرائب» - أي: تزوجوا من النساء الغريات. [ابن عبد ربه: العقد الفريد (٦/ ١١٧)].



فعلى الرغم من ضعف الحديث والأثر من ناحية الإسناد، إلا أن الطب الحديث يثبت صحة المتن.

ومن شهد بهذا البروفسير / ميونخ آرنولد، أستاذ علم الوراثة الفرنسي.

٥٦- معجزة الاستشفاء بإلية شاة الأعرابية:

قال الرسول ﷺ: «شفاء عرق النساء، إلية شاة أعرابية، تذاب ثم تجزأ ثلاثة أجزاء، ثم يشرب على الريق، في كل يوم جزء» [ابن ماجه (٣٤٦٣)، صححه الألباني في الصحيحة (١٨٩٩)].

قام بالتجربة العلاجية السريرية الدكتور: زهير رابح - اختصاصي أمراض الروماتويد والروماتيزم، ورئيس قسم العلاج الطبيعي بأحد المستشفيات الخاصة - أثبت أن هذه الإلية تحتوي على مجموعة من الدهون، منها نوع مفيد جدًا في هذا المجال، اسمه: (Omega Three) وشفع بحثه بشهادات بعض الذين شفوا نتيجة هذه الوصفة النبوية!

٥٧- الإعجاز العلمي الطبي في (الإثمء):

قال الرسول ﷺ: «عليكم بالإثمء، فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر». [ابن ماجه (٣٤٩٥) صحيح].

وفي لفظ من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أكمالكم الإثمء، يجلو البصر وينبت الشعر» [أحمد (٢٠٤٧) - قوى محققوه إسناده على شرط مسلم، وغيره].

ولابد أن يُلفت النظر إلى أن الإثمء كثيرًا ما يغش بسلفايد الرصاص، بدلًا عن سلفايد الأنتموني - الخرصين - (Antimony) (sb٢٥٣) (Sulphide).

لقد أظهرت التجارب العملية في الأحياء الدقيقة قدرة الكحل على إبادة الجراثيم والطفيليات التي تمرض العين وتعيق البصر ونمو الشعر.



كما وأن للكحل قدرة على تشييط الالتهابات في العين ومناطق الجلد المختلفة، لقدرته على منع تصنيع الموثينات واللبوكوترايينات التي تعتبر من أهم وسائط الالتهابات. ومن ناحية أخرى عامة: فللكحل أيضًا قدرة على إبادة طفيليات البلهارسيا (داء المنشقات) والليشمانيا [البروف كمال الدين حسين الطاهر: معجزات الطب النبوي المحمدي: الترسيخ على ضوء علم الأدوية الحديث، (ص ٢٤١)، ط (١٤٣١هـ / ٢٠١٠م)].

٥٨- الإعجاز الطبي في الاضجاع على الشق الأيمن:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا منجأ منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، واجعلهن آخر كلامك، فإن مت مت على الفطرة» [البخاري (٦٩٣٤)، مسلم (٤٨٨٤)، وغيرهما].

يقول د. ظافر العطار: (حين ينام الشخص على بطنه يشعر بعد مدة بضيق في التنفس، لأن ثقل كتلة الظهر العظمية تمنع الصدر من التمدد والتقلص عند الشهيق والزفير؛ كما أن هذه الوضعية تؤدي إلى انثناء اضطراري في الفقرات الرقبية وإلى احتكاك الأعضاء التناسلية بالفراش، مما يدفع إلى ممارسة العادة السرية، كما أن الأزمة التنفسية الناجمة تتعب القلب والدماغ.

ولاحظ باحث استرالي: ارتفاع نسبة موت الأطفال الذين لا ينامون على أحد الجانبين. كما نشرت مجلة التايم اللندنية دراسة بريطانية مشابهة، تؤكد ارتفاع نسبة الموت المفاجئ عند الأطفال الذين ينامون على بطونهم.

ومن المعجز حقًا: توافق هذه الدراسات الحديثة مع ما نهي عنه معلم الخير محمد ﷺ، فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: رأى رسول الله ﷺ رجلاً مضطجعاً على بطنه،



فقال: «إن هذه ضجعة يبغضها الله ورسوله» [أبو داود (٤٣٨٣)؛ أحمد (١٤٩٩٣)، الترمذي (٢٦٩٢) - صحيح].

ويقول العطار: أما النوم على الظهر فإنه يسبب التنفس الفموي، لأن الفم يفتح عند الاستلقاء على الظهر لاسترخاء الفك السفلي، لكن الأنف هو المهيأ للتنفس لما فيه من شعر ومخاط لتنقية الهواء الداخل، ولغزارة أوعيته الدموية المهيأة لتسخين الهواء.

وهكذا فالتنفس من الفم يعرض صاحبة لكثرة الإصابة بنزلات البرد والزكام في الشتاء، كما يسبب جفاف اللثة، ومن ثم يؤدي إلى التهابها الجفافي، كما أنه يثير حالات كامنة من فرط التصنعع أو الضخامة اللثوية، وفي هذه الوضعية أيضًا فإن شراع الحنك واللهاة يعارضان فرجات الخيشوم، ويعيقان مجرى التنفس، فيكثر الغطيط والشخير، كما يستيقظ المتنفس من فمه ولسانه مغطى بطبقة بيضاء غير اعتيادية إلى جانب رائحة فم كريهة، كما أنها تضغط على ما دونها عند الإناث فتكون مزعجة كذلك، وهذه الوضعية غير مناسبة للعمود الفقري، لأنه ليس مستقيمًا، وإنما يحوي على انثناءين: رقبتي وبطني، كما يؤدي عند الأطفال إلى تفلطح الرأس إذا اعتادها لفترة طويلة.

أما النوم على الشق الأيسر، فهو غير مقبول أيضًا؛ لأن القلب حينئذ يقع تحت ضغط الرئة اليمنى، والتي هي أكبر من اليسرى، مما يؤثر في وظيفته ويقلل نشاطه، وخاصة عند المسنين. كما تضغط المعدة الممتلئة عليه، فتزيد الضغط على القلب والكبد الذي هو أثقل الأحشاء لا يكون ثابتًا، بل معلقًا بأربطة، وهو موجود على الجانب الأيمن، فيضغط على القلب وعلى المعدة، مما يؤخر إفراغها.

وقد أثبتت التجارب التي أجراها غالتيه وبوتسييه: إن مرور الطعام من المعدة إلى الأمعاء يتم في فترة تتراوح بين ٢ - ٤ ساعة إذا كان النائم على الجانب الأيمن، ولا يتم ذلك إلا في ٥ - ٨ ساعات إذا كان على جنبه الأيسر.



كما يعتبر النوم على الجانب الأيمن من أروع الإجراءات الطبية التي تيسر وظيفة القصبات الرئوية اليسرى في سرعة طرحها لإفرازاتها المخاطية، هكذا ينقل الدكتور الراوي؛ ويضيف قائلاً: إن سبب حدوث توسع القصبات للرئة اليسرى دون اليمنى هو لأن قصبات الرئة اليمنى تتدرج في الارتفاع إلى الأعلى، حيث إنها مائلة قليلاً، مما ييسر طرحها لمفرزاتها بوساطة الأهداب القصصية؛ أما قصبات الرئة اليسرى فإنها عمودية، مما يصعب معه طرح المفرزات إلى الأعلى، فتتراكم تلك المفرزات في الفص السفلي، مؤدية إلى توسع القصبات فيه، والذي من أعراضها كثرة طرح البلغم صباحاً. هذا المرض قد يترقى مؤدياً إلى نتائج وخيمة، كالإصابة بخراج الرئة والداء الكلوي، وإن من أحدث علاجات هؤلاء المرضى هو النوم على الشق الأيمن.

٥٩- الإعجاز العلمي الطبي في لحوم الأسماك وزيتها؛

أخرج البخاري [٣٦٤٥] من رواية أنس رضي الله عنه: أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة، فأتاه يسأله عن أشياء، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه. قال النبي ﷺ: «أخبرني به جبريل آنفاً» قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة، قال الرسول ﷺ: «أما أول أشرط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة وراء الرجل نزعت الولد» قال ابن سلام رضي الله عنه: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله...

والإعجاز العلمي الطبي الذي يعنينا في هذا الحديث الشريف، أن خبراء التغذية وأطباء القلب في العالم، يوصون بتناول وجبتين من لحوم الأسماك في الأسبوع على الأقل، وقد لفت الرسول ﷺ النظر إلى نعمة لحوم الأسماك، كما في الحديث المذكور.



والسمك والحوث سيان... وزيت السمك الذي ينصح به الأطباء علاجاً لارتفاع الفليسيريدات الثلاثية (Triglyceries)، وهي إحدى دهون الدم، يستخلص من كبده الحوت، وتناول السمك لا يفيد في الوقاية من مرض شرايين القلب وارتفاع دهون الدم فحسب، بل إن له فوائد أخرى في علاج صداع الشقيقة، ومرض المفاصل نظير الرثوي، وغيرها كثير. [م. منير فارس: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة، (ص ٢٩٧)].

٦٠- الإعجاز العلمي في أخطار الإعلام الفضائي:

ورد في الأثر من حديث حذيفة رضي الله عنه: «ليوشكن أن يُصَبَّ عليكم شر من السماء حتى يبلغ الفيافي». قيل لأبي عبد الله حذيفة بن اليمان رضي الله عنه الراوي -: وما الفيافي يا أبا عبد الله؟ قال: «الأرض القفر» أي: الصحراوية [ابن أبي شيبة: المصنف: (١٩٢٤٦) بسند صحيح، موقوفاً على حذيفة رضي الله عنه].

ويمكن أن نتأمل في ضوء هذا القول ما تبثه الإذاعات والتلفزيونات والفضائيات التنصيرية والإباحية والجوالات المحمولة وما شابه ذلك.. وقد أعدت الرسائل الجامعية وألفت الكتب في هذا الجانب، خاصة المؤلفات التي وضحت الآثار السالبة للإعلام الفضائي.

ومن الأمثلة على البرامج التلفازية ذات الآثار السالبة على الشباب المسلم برنامج (إستار أكاديمي)؛ الذي صاحب فكرته الدكتور الإسرائيلي (مالخوم أخنوف). ويمكن الحصول على الحوار الذي أجرته معه قناة إسرائيلية في إبريل (٢٠١٤م)، موجود على الشبكة العنكبوتية.

ومن الأمثلة على الآثار السالبة للجوالات المحمولة برنامج بلاك بيري (Black Berry)، ويعني التوت الأسود، وهو نوع من الهواتف الذكية التي تدعم



خط البريد الإلكتروني. وتم تطويره من قبل شركة (Research in motion) الكندية. ويمكن الحصول على معلومات كافية موجودة على الشبكة العنكبوتية.

ومن أخطار البلاك بيرى الشريرة التي يتحقق فيها مفهوم الحديث المذكور، فقد جاء في مجلة الصحة والطب عن البلاك بيرى وأخطاره ما يلي:

(لقد أعلن رسميًا في مجلة الصحة والطب الصادرة عن طريق مؤسسة دبي للإعلام، بأن ملاك البلاكبيرى الذين يستخدمونه أكثر من خمس ساعات يوميًا سيعانون من اختلال في الأعصاب، بحيث تقلل من قدرتهم على التركيز، وستؤثر على الجهاز المناعي، بحيث سيكون الشخص قليل المناعة، وكثير الإرهاق. وجاء هذا الخبر بعد تصريح من الحكومة الألمانية بمنع بيع البلاك بيرى للأشخاص الذين تقل أعمارهم عن الحادي والعشرين سنة، ويبيعه لما هم دون ذلك.

وقد جاء هذا التصريح وفقًا للدراسة التي أجريت بجامعة ميونخ لألفي شخص من ملاك البلاك بيرى قبل وبعد امتلاكهم للبلاك بيرى وأثبتت الدراسة علميًا أن صغر حجم الهاتف واستخدامه لفترات طويلة تقلل عمل وظائف حذقية العين المتصلة بالأعصاب، وتؤثر على الجهاز المناعي، فأرجو منكم جميعًا نشر هذا الخبر، وعدم الاستهانة بهذا الأمر، لأن صحة الإنسان أهم من أي شيء آخر. فلنحاول التقليل من استخدام البلاك بيرى، تجنبًا لأي أضرار مكن أن تضر بصحتنا).

وعن أخطار البلاك بيرى بالذات على الأطفال المراهقين، نقول: نعم الجهاز يقدم محتوى مرئي وصوتي كالذي يقدمه الكمبيوتر، ويحدد المستخدم ما يريد، ولكن الإشكالية التي تواجه البلاك بيرى هي مدى الحرية فيه، وبعدها المستخدم المراهق عن رقابة الأهل، يعني: أنه يستطيع استخدامه داخل البيت وخارجه، بينما الكمبيوتر لن



يستخدمه إلا في البيت أمام أعين الوالدين والأخوة الأكبر سنًا. فإن حرية استخدام هذا الجهاز + ضعف الرقابة + مراهق + (ماذا قد تكون النتيجة المتوقعة؟!).

وهذا بالإضافة إلى احتمالية وجود من يتصيد هؤلاء المراهقين من الجنسيتين عن طريق هذا الجهاز، وذلك ليس الوصول لمجموعات المحادثة، والوصول إلى كل ما ينشر فيها. [انظر: النت].

٦١- الإعجاز العلمي الطبي في العطاس والتثاؤب:

قال ﷺ: «إن الله يحب العطاس، ويكره التثاؤب، فإذا عطس فحمد الله، فحق على كل مسلم سماعه أن يشمته، وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان فليرده ما استطاع، فإذا قال ها، ضحك منه الشيطان». [البخاري (٦٢٢٣)، أحمد (٩١٦٥)، الترمذي (٢٦٧٠)، أبو داود (٤٣٧٣) - كلها صحيحة].

يقول الأطباء: التثاؤب دليل على حاجة الدماغ والجسم إلى الأوكسجين والغذاء، وعلى تقصير جهاز التنفس في تقديم ما يحتاجه الدماغ والجسم من الأوكسجين، وهذا ما يحدث عن النعاس والإغماء وقبيل الوفاة.

والتثاؤب: هو شهيق عميق يجري عن طريق الفم، وليس الفهم بالطريق الطبيعي للشهيق، لأنه ليس مجهزًا بجهاز لتصفية الهواء كما هو في الأنف، فإذا بقي الفم مفتوحًا أثناء التثاؤب تسرب مع هواء الشهيق إلى داخل الجسم مختلف أنواع الجراثيم والغبار والهباء والهوام؛ لذلك جاء الهدي النبوي برد التثاؤب على قدر الاستطاعة، أو سد الفم براحة اليد اليمنى أو بظهر اليسرى.

والعطاس هو عكس التثاؤب. فهو قوي ومفاجئ يخرج معه الهواء بقوة من الرئتين عن طريق الأنف والفم، فيجرف معه ما في طريقه من الغبار والهباء والهوام والجراثيم التي تسربت إلى جهاز التنفس، لذلك كان من الطبيعي أن يكون العطاس من الرحمن؛



لأن فيه فائدة للجسم، وأن يكون التثاؤب من الشيطان، لأن فيه ضرراً للجسم، وحق على المرء أن يحمد الله ﷻ على العطاس، وأن يستعيذ به من الشيطان في حالة التثاؤب). [انظر: (الحقائق الطبية في الإسلام) (ص ١٥٥)، (الأربعون العلمية): لعبد الحميد طهراز].

٦٢- الإعجاز العلمي الطبي في مرض الطاعون:

قال ﷺ: «الطاعون شهادة لأمتي، ووخذ أعدائكم من الجن، غدة كغدة الإبل تخرج من الآباط والمراق، من مات فيه مات شهيداً، ومن أقام فيه كان كالمرباط في سبيل الله، ومن فرّ منه كان كالفار من الزحف». [أحمد (١٨٧٠٧) صحيح، والمراق: أسفل البطن، الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في فوائد أبي بكر بن خلاد، حسنه السيوطي].

وإن سبب الطاعون هو ميكروب صغير يبلغ طوله ميكرون ونصف [والميكرون: واحد من مليون من المتر].

وقد اكتشف ميكروبه عام (١٨٩٤م) في الوباء الذي اكتسح الصين، وقد اكتشفه العالمان: يرسن وشييا سابور، وكيستو، في هونغ كونغ كلاهما على حدة.

وفي عام (١٨٩٨م) أكد العالم الفرنسي بول لويس سيمون: أن الذي ينقل ميكروب الطاعون برغوث الفئران، وعادة ما يعيش الميكروب على الحيوانات القارضة، فإذا ما ابتداء الوباء انتقل بوساطة البراغيث والحشرات إلى الفئران المنزلية، ومنها إلى الإنسان، كما قد ينتقل الميكروب بوساطة جردان البواخر التي تعيش في مخازن السفن.

ويتكاثر هذا الميكروب في معدة البرغوث حتى يسدها، فيزداد إحساس البرغوث بالجوع، ويزداد عندئذ نهمه وقرصه وعضه، فيمص الدم، فتدخل محل الوخزة والقرصة، وينتقل الميكروب بوساطة الأوعية اللمفاوية الموجودة في أطراف المنطقة الأربية - أي: أسفل البطن - أما إذا كانت العضة في اليد أو الذراع، فتنتقل الميكروبات



إلى غدة الإبط الليمفاوية، فإذا كانت العضة في الوجه أو العنق انتقلت الميكروبات إلى غدة في العنق. [فارس، الإعجاز (ص ٢٨٠-٢٨١)].

تأمل الوصف النبوي لهذا الداء: «غدة كغدة الإبل، تخرج في المراق». أليس هذا وصفًا دقيقًا وبلغًا كل البلاغة؟!

أما النوع الثاني: الطاعون الرئوي، فهو أشد فتكًا من الغددي -أي: النوع الأول- ولا يكاد ينجو منه أحد.

٦٣- إعجابه ﷺ بأكل البطيخ بالرطب:

قالت عائشة رضي الله عنها: «إن النبي ﷺ كان يأكل البطيخ بالرطب. [الترمذي (١٨٤٣)؛ أبو داود (٣٨٣٦)؛ أبو الشيخ: أخلاق النبي ﷺ (ص ٦٨٨) وكلها صحيحة]. وفي لفظ: «إن النبي ﷺ كان يعجبه البطيخ بالرطب» [أبو الشيخ (٦٧٣) - صحيح]، وفي لفظ: «إن النبي ﷺ كان يجمع بين الرطب والبطيخ» [أبو الشيخ (٦٧٨) - صحيح؛ أحمد (١٤٢/٣ - ١٤٣) - صحيح].

لقد أثبت الطب الحديث أن من فوائد البطيخ:

- ١- يحتوي على كمية من مضادات الأكسدة.
- ٢- مصدر ممتاز لفيتامين سي، ومصدر جيد جدًا لفيتامين أ، ب، ج، ب١، ب٦.
- ٣- جاء على شبكة الإعلام العربية (Moheet.com) أن في البطيخ مادة أقوى من الفياجرا والزينيكال [عقار لإزالة البدانة - مضاد]. وهذا ما أكدته دراسة طبية نشرت على موقع (العلم يوميًا - Science Daily) العلمي الإلكتروني. حيث أكدت أن الفياجرا مهمتها تنحصر في تنشيط الدورة الدموية في عضو واحد، أما البطيخ فينشط كل الجسم وبدون آثار جانبية. وأكدت ذلك أيضًا دراسة في جامعة (A & M) بتكساس الأمريكية.
- ٤- يحتوي على كمية كبيرة من الحديد والمغنيزيوم، يمتصها الجسم بيسر.



- ٥- مفيد في علاج أمراض التهاب الكبد والحوصلة الصفراوية.
- ٦- يعالج الإمساك والسمنة لوجود حمض أميني فيه.
- ٧- مدر للبول، ولذا يقي من تكوين الحصى بالكلى.
- ٨- يفيد في علاج الأمراض الطفيلية.
- ٩- تساعد أليافه العالية النسبة على مقاومة السرطانات.
- ١٠- مع قشره وبذوره مفيد لعلاج حصى الكلى والمثانة.
- ١١- يزيد في إدرار الحليب عند الأمهات المرضعات.
- ١٢- ملطف للأنسجة المخاطية.
- ١٣- به مواد طبيعية تعزز مناعة الجسم البشري.
- ١٤- يقي عصيره من حمض التايفود.
- ١٥- يفيد في علاج الروماتيزم.
- ١٦- لقشره فعالية كبيرة لعلاج خمسة أمراض طبقاً لدراسة صينية، وهي:
أ- ارتفاع ضغط الدم المزمن.
ب- التهاب الكلى.
ج- احتباس البول.
د- الاستسقاء.

هـ. الإمساك المزمن. [انظر طريقة التحضير في كتابنا: مختصر السيرة النبوية]

وخلاصته:

- لعلاج الضغط: تجفيف قشر البطيخ، ثم طحنه حتى يتحول إلى مسحوق، ثم يؤخذ منه عشرون غراماً، ويقلب جيداً في الماء حتى الغليان، ثم يشرب يومياً لمدة لا تقل عن شهر بلا توقف.



- لعلاج الكلى: تقطيع قشره بأحجام صغيرة جدًا، ووضعها في الماء، وتقليبها على النار حتى تصبح عجينة. تحفظ في وعاء زجاجي محكم الإغلاق. يتناول المريض منه ملعقة على الريق لمدة لا تقل عن ثلاثة أسابيع.

- ولعلاج احتباس البول، والاستسقاء، والإمساك، فيقطع قشره قطعًا صغيرة ثم وضعها في الماء، مع إضافة شرائح رقيقة من البندورة أو بياض بيضة واحدة بعد فصله عن الصفار، ويتم أثناء ذلك تقليبه على النار لمدة خمس دقائق، ثم يشرب باردًا يوميًا لمدة خمسة أسابيع. [ومن المراجع: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، طبعة الرشد، (ص ٨٦١-٨٦٤)].

٦٤- الكمأة؛

والكمأة: نبات طفيلي صحراوي بلا ساق أو أوراق أو أزهار، ينمو في باطن الأرض، ويكثر في الخريف، ويعرف بـ: الفقع.

قال ﷺ عنها: «الكمأة من المنّ، وماؤها شفاء للعين» [البخاري (٤٤٧٨)، مسلم (٢٠٤٩)] يعني: ممنون بها علينا من الله ﷻ، لأن الإنسان لا يبذل فيها أي جهد؛ وفشل من حاول استزراعها، لتبقى معجزة نبوية إلى قيام الساعة!!

أثبت العلم الحديث أن الكمأة غنية بالفيتامين (ب٢)، الذي يعالج عدة أمراض، مثل: التهابات الجلد الدهني، ونوع معين من التهاب اللسان؛ إضافة على ما أشار إليه الحديث من علاجها للعين؛ حيث اتضح خلوها من الصادات الحيوية، وأن ماءها يمنع حدوث التليف التالي لمرض التراخوما، عن طريق التدخل في تكوين الخلايا المولدة للألياف. ولما كان معظم مضاعفات التراخوما هي اضطرابات التليف، لذا فإن ماءها يقوم بدور أساس في منع حدوث مضاعفات التراخوما. [انظر: د. الشطي: الطب النبوي، (ص ١٨٥)، ومصدره: العوضي: الطب النبوي، (ص ١٨٥)، ومصدره: العوضي: الطب الإسلامي، (ص ٤١٣-٤١٧)].



٦٥- الصبر:

عن نبيه بن وهب، قال: خرجنا مع أبان بن عثمان، حتى إذا كنا بمَلَلٍ اشتكى عمر ابن عبيد الله عينية، فلما كان بالروحاء اشتد وجعه، فأرسل إلى أبان بن عثمان يسأله، فأرسل إليه أن أضْمِدْهَا بالصبر، فإن عثمان رضي الله عنه حَدَّثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «في الرجل إذا اشتكى عينية وهو محرم، ضَمِدْهَا بالصبر» [مسلم (١٢٠٤)].

بعد أربعة قرون من قول الرسول ﷺ عن الفائدة الطبية للصبر، قال ابن سينا في كتابه (القانون في الطب): (إنه ينفع من قروح العين وجربها وأوجاعها، ومن حكة المآق... ويخفف رطوبتها، وله قوة قابضة مجففة للأبدان منومة. والصبر الهندي كثير المنافع، مجفف بلا لذع، وفيه قبض يسير). [د. حسان شمس باشا: نبات الصبر بين الإعجاز النبوي والطب الحديث، مقال بمجلة التضامن الإسلامي، مكة، السنة (٤٨)، (ج٧)، محرم ١٤١٤هـ / يوليو ١٩٩٣م)، (ص ٣٢-٣٣)].

وقال فيه الرازي: (...) وهو أيضًا نافع للعين مجفف للجسد [المصدر السابق].

وقال داود الأنطاكي: (والاكتحال به يحد البصر، ويذهب الجرب والحرقة، وغلظ الأجفان) [المصدر السابق].

واعترفت الأبحاث الحديثة من أمريكا بصحة هذه الوصفة الطبية النبوية. فقد نشرت مجلة (Cutis) الأمريكية الشهيرة مقالاً عن الصبر عام (١٩٨٦م)، جاء فيه: (... لقد تبين من خلال الدراسات السريرية الحديثة، أن للصبر دوراً في معالجة التهابات الجلدية الشعاعية، وسحجات الجلد السطحية، وفي تقرحات قرنية العين، وفي قروح الرجلين...) [المصدر السابق].

وقد اكتشف العلماء وجود أربع مواد كيميائية فعالة في الصبر، وهي:



أ. برادي كينيار: مادة تزيل الألم والحكة والاحتقان، ولها فعل مقبض للشرابين، مما يخفف الانتفاخ والاحمرار الحاصل مكان الالتهاب، ولذا ترى شركات التجميل تدخل مادة الصبر في المستحضرات التي تعالج حرق الشمس.

ب. لاكنات المغزيوم: مادة تمنع تشكل الهيستامين (وهي المادة التي تسبب الحكة في الجلد). ويفسر لنا هذا فاعلية الصبر في علاج لدغات الحشرات.

ج. مضاد البروستانلاندين: مادة مخففة أيضًا للألم والالتهاب، مثلما تفعل حبوب الأسبرين.

د. مادة الأنتراكينون: يعزى لها الفعل المسهل للصبر.

وأثبتت الأبحاث الطبية الحديثة: أن الصبر يفيد في علاج التهاب المفاصل الرثواني. وهو مرض مؤلم جدًا، قد يؤدي إلى حدوث تشوه في المفاصل، وإعاقة شديدة في حركتها، ويصيب المفاصل الصغيرة في اليدين والقدمين بشكل خاص. [د. حسان: نبات الصبر... نفسه، (ص ٢٣)].

٦٦- عدم الاتكاء أثناء الأكل:

قال ﷺ: «لا أكل متكئًا» [البخاري ٥٠٨٣].

ثبت علميًا أن سير الطعام عبر المريء، واستقبال المعدة له في حالة انتصاب الجسم جلوسًا، يساعد على عمليات الهضم في سهولة ويسر، بخلاف الأمر عند الاتكاء أو الوقوف أو السير أثناء الأكل. [مجلة العلم والإيمان، عدد (١٧ سنة ١٩٧٧م)، (ص ٢٤)].

٦٧- تحريم أكل لحم الجوارح وكل ذي ناب:

قال ﷺ: «حرم على أمتي كل ذي مخلب من الطير، وكل ذي ناب من السباع» [مسلم (٤٩٧٠) وغيره].

ولقد أثبت علم التغذية الحديث: أن الشعوب تكتسب بعض صفات الحيوانات التي تأكلها، لاحتوائها على سميات ومفرزات داخلية تسري في الدماء، وتنتقل إلى



معدة البشر، فتؤثر في أخلاقهم [عبد الصمد: الإعجاز العلمي في الإسلام (ص ٨٣-٨٤)].

٦٨- الإعجاز العلمي الطبي في الاستنشاق والاستنثار في الوضوء:

قال ﷺ: «أسبغ الوضوء، خلل بين الأصابع، وبالع في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً» [الترمذي؛ أبو داود؛ النسائي؛ ابن ماجه؛ أحمد (٣٣/٤) - صحيح].

إن لهذه الطريقة في الوضوء فوائد طبية كثيرة، منها: أنه يزيل المفرزات المتراكمة في جوف الأنف؛ والغبار اللاصق على غشائه المخاطي، كغبار المنزل والطلع وبعض بذور الفطريات والعفنات المتناثرة في الهواء. يربط جوف الأنف للمحافظة على حيوية الأغشية المخاطية داخله، كما أنه يزيل الكائنات الدقيقة التي تعلق في جوف الأنف وتستقر به.

ولقد أثبتت الدراسات والبحوث: أن أنوف من لا يصلون، وبالتالي لا يتوضؤون، تعيش بها مستعمرات جرثومية عديدة وبكميات كبيرة من الجراثيم العنقودية والمكورات الدموية والمزدوجة (والدفترويد والبروتيس والكليبسيلا)، وأن أنوف المتوضئين ليس بها أي مستعمرات من الجراثيم، وفي عدد قليل منهم وجد قدر ضئيل من الجراثيم، ما لبث أن اختفت بعد تعليمهم الاستنشاق الصحيح.

كما أن نسبة التخلص من الجراثيم الموجودة بالأنف تزداد بعدد مرات الاستنشاق، وأنه بعد المرة الثالثة يصبح الأنف خالياً تماماً منها، لذا فقد وصى النبي ﷺ بالمبالغة في الاستنشاق وتكراره ثلاثاً، ليتم بهذا القضاء على مخزن من مخازن الكائنات الدقيقة في هذا المكان المهم والحيوي، إذ هو المدخل للجهاز التنفسي [يوسف الحاج: الإعجاز



(٢/ ٧٣٤)؛ مجلة المعجزة، عدد (٨- جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ/ مايو ٢٠١١م) - (ص ٤٩- ٥٤)، بتفاصيل مهمة].

٦٩- الإعجاز العلمي الطبي في نضح بول الصبي الرضيع الذي لم يأكل الطعام، وغسيل بول الصبيّة الرضيعة قبل أن تأكل الطعام؛
جاءت أحاديث من رواية أم الفضل [متفق عليه؛ أحمد؛ أبو داود]، وأم الفضل [أحمد، وأبو داود، والحاكم. صحيحة]، ولبابة بنت الحارث، وعلي بن أبي طالب [الحاكم، والترمذي حسن، وصححه على شرط الشيخين]، وغيرهم.

استخدم الطب تقنية البروف: هانز كريستيان جرام، الذي اكتشف عن طريقها في عام (١٨٨٤م) الصبغ البكتريا وتصنيفها إلى النوعين المعروفين إلى اليوم في كافة المعامل العالمية: جرام سالب (حمراء اللون)، وجرام موجب (بنفسجية اللون).
ومنها تمت التجربة، فإذا ما في بول الذكور والإناث من البكتريا إنما هي من النوع الأحمر (سالبة الجرام)، ولا أثر أثبتة للون البنفسجي.

وتقطع الفحوصات الطبية المجهرية: أن بول الرضيعات الإناث يحمل من الجراثيم نسبة تزيد (٩٥٪) على جراثيم الرضع الذكور.

وأثبتت التجارب تزايداً مضطرباً في عدد الميكروبات في بول الذكور مع تقدم العمر، بينما تتناقص في بول الإناث، مما يوجب غسيل الثوب من بولها دون تفرقة عقب الفطام، هكذا أخبر المعلم، شاهداً للنبي ﷺ بالرسالة!!.

وتقول المجاهر الحديثة: إن هذا النوع من البكتريا لا يوجد إلا في فضلات المراحيض، وهو السبب في الرائحة العفنة للبراز بالذات، وهو من أشرس وأشد أنواع الجراثيم العدوانية فتكاً، والمتسبب الرئيس في سائر التهابات المثانة والكلية والحالب



والجهاز البولي؛ واسمه: بكتريا المرحاض (القولون). وسبحان الله العظيم القائل:

﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

٧٠- الإعجاز العلمي الطبي في الشفاء:

قال ﷺ: «عليكم بالشفاء، فإن الله جعل فيه شفاءً من كل داء» [ابن السني: عمل اليوم والليلة - الطب، ضعفه الألباني؛ وأبو نعيم: في الطب من دلائل النبوة - ضعيف؛ السيوطي: الجامع الصغير - ضعيف]؛ وفي رواية: «ماذا في الأمرين من الشفاء: الصبر، والشفاء» [أبو داود: المراسيل (٤٧٧) - قلت: ومعناه صحيح لكثرة فوائده؛ البيهقي «السنن» (٣٤٦/٩)، ونقله عنها السيوطي في الجامع الصغير (٧٩٠٦)، وضعفه حمدي الدمرداش محمد، والألباني في ضعيف الجامع (٥٠٦٧)، والسلسلة الضعيفة (٤٤٤٢)].

يعرف الشفاء بـ: حب الرشاد. ومن فوائده الطيبة: تناوله ساخناً يلين البطن، ويخرج الدود، ويحرك شهوة الجماع، وإذا طبخ مع الحساء أخرج الفضول من الصدر، ويمسك تساقط الشعر؛ وإذا تضمد به مع الماء والملح أنضج الدمامل؛ ينفع الربو وعسر التنفس؛ وينقي الرئة، ويدر الطمث.

وإن شرب منه بعد سحقه وزن خمسة دراهم بالماء الحار أسهل الطبيعة، وحلل الرياح، ونفع من وجع القولنج البارد؛ إذا سحق وشرب نفع من البرص، وإن لطخ عليه وعلى البهق الأبيض نفع منهما، ونفع من الصداع الكائن من البرد والبلغم، يؤكل من غير طبخ، ويجب ألا يضاف إليه الملح للاستفادة من خواصه الطبيعية.

وتفيد مادة اليخضور الموجودة فيه امتصاص الروائح من الجسم، كما أن أوراقه مدرة للحليب عند المرضعات.

غني بمادة اليود، مما يجعله سهل الهضم، كما يحتوي على الحديد والكبريت والكلس والفوسفور والمنغنيز والزرنيخ، وغني بفيتامين (ج، C). ويحتوي على عنصر من



الفصل الثلاثون: بعض المعجزات النبوية

المضادات الحيوية المبيدة للجراثيم، مفيد لعلاج فقر الدم، خافض للضغط، كما يرى د. جان فالينه [يوسف الحاج: الموسوعة، (ص ٨٤٤-٨٤٥)، ومن مراجعه: الكحال بن طرخان: الأحكام النبوية في الصناعة الطبية... إلخ].





الفصل الحادي والثلاثون المعجزات العلمية في القرآن الكريم

القرآن الكريم معجزة الرسول ﷺ الكبرى، والدليل على صدقه وعلى وجود الله تعالى، أما الأمثلة التي يمكن ذكرها باختصار، والخاصة بالحقائق العلمية التي يشتملها الطب الحديث فهي كثيرة، وستحدث عنها في المبحث التالي:

• المعجزات الخاصة بالحقائق العلمية التي أثبتتها الطب الحديث:

• الأول: أوصاف الجنين في رحم أمه:

يقول المولى ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝١٤ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٥﴾ [المؤمنون: ١٣-١٤-١٥].

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْتُمُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ۝٥﴾ [الحج: ٥]. ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ [الحج: ٦].

[الحج: ٦] ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٥-٧].

ولقد كتبت الأبحاث والكتب في هذه المعجزة، وخاصة تناولها في كتب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وكانت هذه المعجزة سبباً في إسلام كثير من كبار العلماء المستشرقين، أو غيرهم من كبار العلماء في أوروبا وآسيا وإفريقية.



ومثال ذلك: شهادة بوشي ردي كوزار - مدير مرصد طوكيو - الذي قال: (إنني لا أجد صعوبة في فهم أن القرآن كلام الله، فإن أوصاف الجنين في القرآن لا يمكن بناؤها على المعرفة العلمية للقرن السابع الميلادي، والاستنتاج الوحيد المعقول، هو أن تلك الأوصاف قد أوحيت إلى محمد بن عبد الله نبي الإسلام) [انظر: أ.د مهدي رزق الله، جهود المنصفين من المستشرقين في الإشادة برسول الإسلام محمد ﷺ يأتي ذكره].

أما فيما يتعلق بالإعجاز العلمي عمومًا وإثباته وجود الله ﷻ وصدق رسالة محمد ﷺ، فيمكن التمثيل لذلك من شهادات رجال عظماء أسلموا بسبب ذلك.

أ- الطبيب الفرنسي علي سلمان بنوا: الذي قال في سبب إسلامه: (بدأت قبل أن أسلم في دراسة القرآن بالعقلية الغربية المفكرة الناقدة، وإني مدين بالشيء الكثير للكتاب العظيم الذي ألفه السيد مالك بن نبي (الظاهرة القرآنية)، فاقننت بأن القرآن كتاب وحي من عند الله، وإن من بين آيات هذا القرآن الذي أوحى إليه منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، ما يحمل النظريات نفسها التي كشفت عنها الأبحاث العلمية).

ب- حامد مرقص - ماركوس - الألماني، الصحفي والمؤلف، الذي قال عن الأسباب التي رغبت في اعتناق الإسلام: (إن الإسلام لم يدعو إلى مبادئ أو عقائد تتنافى مع العلم الحديث).

ج- الطبيب الفرنسي الكبير موريس بوكاي، صاحب كتاب (الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، والذي كان الملك فيصل رحمه الله سببًا في حفزه على قراءة القرآن بلغته الأصلية، فتعلم اللغة العربية، وقرأ القرآن، ووقف على أسرار المعجزة في كافة المجالات العلمية، فأسلم، وكتب كتابه المذكور، الذي ترجم إلى عدة لغات، منها العربية والإنجليزية.



قال بوكاي هذا: إن من أسباب اعتناقه الإسلام: (اتفاق نص القرآن مع معطيات العلم الحديث -أي: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم).

د- الدكتور جرينيه، الذي كان عضوًا في مجلس النواب الفرنسي قال عندما سئل عن سبب إسلامه: (إني قد تتبعت كل الآيات القرآنية ذات الارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية، التي درستها منذ صغري، وأعلمها جيدًا، فوجدتها متطابقة كل التطابق مع معارفنا الحديثة. فأسلمت، لأنني تيقنت أن محمدًا ﷺ أتى بالحق الصراح من قبل أكثر من ألف سنة، من قبل أن يكون له معلم أو مدرس من البشر؛ ولو أن كل صاحب فن من الفنون، أو علم من العلوم، قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جديًا، كما قرأت أنا أيضًا، لأسلم بلا شك، إن كان عاقلًا وخاليًا من الأغراض) [انظر التبشير والاستشراق، أحقاد وحملات، لمؤلفه الشيخ د. عبد الحليم محمود، نقلًا عن: أساليب الغزو الفكري، للدكتور علي جريشة؛ والزبيق، (ص ٢٩)].

هـ- البروفسير بروسو يوشاديكروراي، أحد مشاهير العلماء الاختصاصيين في علم الفلك، وقد شغل منصب مدير مرصد طوكيو الفلكي في اليابان، زار السعودية، وأجريت معه مناظرة علمية كبيرة بجامعة الملك عبد العزيز، شهدها حشد كبير من العلماء المتخصصين في علوم الفلك والجيولوجيا، وإلى جانبهم بعض علماء المسلمين مثل الشيخ الدكتور عبد المجيد الزنداني، وبعد أن طرحت عليهم مفاهيم القرآن العلمية في علم الفلك والحقائق الكونية، وبعد أن تفهمها كروزاي بعمق، شرح الله تعالى صدره للإسلام، وكتب بخط يده قائلاً: (بعد أن قدمت إلى هنا، وجدت أن في القرآن حقائق علمية كثيرة، والكون وما يحويه من كل شيء مشروح ومفسر في القرآن من أعلى نقطة في هذا الوجود، حتى أن كل شيء فيه أصبح مفهومًا، وإني أعلن إسلامي).



الثاني: ومن الأمثلة على الإعجاز الطبي في القرآن الكريم، والدالة على وجود الخالق وصدق نبوة محمد ﷺ، علم البصمات.

مثل:

- بصمة البنان البشري: قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾ (٤) [القيامة: ٤]. فقد أثبت العلم الطبي الحديث عدم تشابه بصمات البشر، ولذا يلحظ استخدام البصمات في التحقيق الجنائي لمعرفة مرتكبي الجرائم الذين يتركون وراءهم بصماتهم على الأشياء التي يمسونها بأيديهم.

- بصمة الرائحة: كما في قصة يوسف وأبيه يعقوب عليه السلام، ومكان الشاهد قوله ﷺ: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِبْرَ قَالَ أَبُوهُمَ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَرِّدُونِ﴾ (١٤) [يوسف: ٩٤].

- البصمة الصوتية: ومثالها قصة النملة مع سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿حَقَّ إِذَا تَوَّأَ عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكَنَكُمُ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨) [النمل: ١٨].

وهكذا النملة تتعرف على صوت سليمان عليه السلام من بصمة صوته؛ وقد أثبت العلم الحديث صحة هذه المعلومة، ولذا أصبحت البنوك في أوروبا وأمريكا تخصص لبعض العملاء خزائن لا تفتح إلا ببصمة الصوت، لأن بصمات البشر الصوتية لا تتشابه.

- بصمة الشفاه: لقد ثبت علمياً أن للشفاه بصمة مميزة، لدرجة أنه لا يتفق فيها اثنان في العالم!! تؤخذ حتى من أعقاب السجائر.

- بصمة العين: أثبت العلم التجريبي أنه لا يوجد تشابه بين العيون، وقد صُنع جهاز لهذا الغرض، يستفاد منه في التحقيق الجنائي.

- البصمة اللونية: قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ أَلْوَانَكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٢) [الروم: ٢٢].



انطلاقاً من تفسير وتدبر هذه الآية الكريمة، قام البروفسور اللواء الطيب عمر عبدالعزيز وفريقه بجامعة الرباط الوطني السودانية بدراستها، فوجدوا بعد تجارب علمية عميقة أجريت على ثلاثمائة توأم، بدا في الظاهر تشابه كل توأمين من حيث اللون، ولكن في الحقيقة يختلفون في ألوانهم، وقد أجريت مع الدكتور عمر حوارات تلفازية سودانية عن هذا الكشف الإعجازي، الدال على أن القرآن الكريم يحمل في طياته وصدقه إثبات صحة نبوة الرسول محمد ﷺ، ووجود خالق لهذا الكون ومن فيه وما فيه.

وواصل الدكتور عمر أبحاثه في تفسير تدبر الآية السابقة، وتوصل إلى أن اختلاف الألسن يعني الاختلاف في بصمات الألسن مثلما هو في بصمات اليد البشرية، وعرفت بالبصمة اللسانية، وقد عرضت التجربة على إحدى القنوات السودانية.

- البصمة الرحمية: قال الدكتور عبد الباسط محمد السيد، أستاذ التحاليل الطبية بالمركز القومي بمصر، واستشاري الطب التكميلي: (إن العالم روبرت غيلهم [زعيم اليهود في معهد إنشتاين الأمريكي، والاختصاصي في علم الأجنة] أعلن إسلامه بمجرد معرفة الحقيقة العلمية والإعجاز القرآني في سبب تحديد عدة الطلاق للمرأة بمدة ثلاثة شهور، والآية المعنية هنا: ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَرْبِصُ أَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. حيث أفاد المتحدث أن اقتناع العالم إليهم كان بالأدلة العلمية، التي مفادها أن اتصال الزوجين ينتج عنه ترك الرجل لبصمته الخاصة لدى المرأة، وأن كل شهر من عدم الاتصال البيولوجي يسمح بزوال نسبة معينة تتراوح ما بين (٢٥ إلى ٣٠٪)، وبعد الأشهر الثلاثة تزول البصمة كلياً؛ مما يعني أن المطلقة تصبح قابلة لتلقي بصمة رجل آخر.

وتلك الحقيقة العلمية دفعت عالم الأجنة اليهودي للقيام بالتجربة في حي أفارقة مسلمين أمريكيين، تبين له أن كل النساء يحملن بصمات أزواجهن فقط، فيما بينت التجارب العلمية على نساء -متحركات وغير مسلمات-، أنهن يحملن بصمات متعددة



من اثنين إلى ثلاث، مما يوضح أنهم يمارسن العملية الجنسية خارج الأطر الشرعية الزوجية، وأجرى التجارب على زوجته، وكانت الحقيقة المذهلة أن زوجته تحمل ثلاثة بصمات!! وأن واحدًا فقط من ثلاثة أبناء هو ابنه من صلبه! وعلى إثر ذلك اقتنع أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يضمن للمرأة الحصانة، وأن المرأة المسلمة أنظف امرأة على وجه الأرض).

الثالث: اللبن [الحليب]:

وقد سبق ذكر الإعجاز في الحليب - حديث النبي ﷺ.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَنْ لَّكَرُفٍ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُفَكَّرَ مَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ۝﴾ [النحل: ٦٦]. وقال: ﴿وَلَنْ لَّكَرُفٍ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُفَكَّرَ مَا فِي بُطُونِهَا وَلَكَرْفٍ فِيهَا مَنفَعٌ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ٢١].

تشير آية النحل [٦٦] إلى أن مراحل تكوين الحليب مجملة في أربعة مراحل:

أ- مرحلة الهضم.

ب- مرحلة الاستخلاص من بين الفرث.

ج- مرحلة الاستخلاص من بين الدم.

د- مرحلة تصنيع الحليب في الضرع.

لقد خلص مؤلفو (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة) -الزنداني ورفقاؤه - إلى وجه الإعجاز في هذا، قائلين (... ما كان أحد يعلم قبل اكتشاف أجهزة التشريح -وظائف الأعضاء- في القرنين الماضيين أسرار ما يجري في الجهاز الهضمي عند الحيوان والإنسان، ووظائف ذلك الجهاز المعقد وعلاقته بالدورة الدموية ومراحل تكوين اللبن -الحليب- في بطون الأنعام، فلما تكاملت صناعة الأجهزة والتجارب العلمية



عبر قرون، عرف الإنسان أن مكونات اللبن تستخلص بعد هضم الطعام من بين الفرث وتجري مع مجرى الدم، لتصل إلى الغدد اللبنية في شروع الإنث، التي تقوم باستخلاص مكونات اللبن من بين الدم دون أن تبقى أي آثار في اللبن من الفرث أو الدم، وتضاف إليه في حويصلات اللبن مادة سكر اللبن التي تجعله سائغاً للشاربين.

كانت هذه الأسرار محجوبة عن البشر، فلم يكتشفوها إلا بعد رحلة طويلة من التجارب والبحوث العلمية التي استغرقت قرونًا، واستخدمت فيها أجهزة صنعت لأول مرة على أيدي الباحثين لم يكن لها وجود عند البشر قبل ذلك، ولكن القرآن كشفها أمام قارئيه بأجل عبارة وأوجز لفظ قبل أكثر من (١٤٠٠) سنة.

فمن علّم محمدًا ﷺ من بين سائر البشر في ذلك الزمن أسرار الجهاز الهضمي والجهاز الدموي والجهاز الدوري، ودقائق ما يجري في غدد اللبن، إلا الذي يعلم السر في الأرض والسماء، ويعلم أسرار ما خلق من الكائنات، فيكون ذلك شاهدًا على أن القرآن نزل بعلم الله العزيز الحكيم الخبير، وأن محمدًا ﷺ رسول الله تعالى.

قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴿النساء: ١٦١﴾).

الرابع: أثر القرآن الكريم في شفاء الأمراض:

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا

خَسَارًا ﴿الزمر: ٢٣﴾).

ويقول سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبًا لَّأَقَالُوا لَوْلَا فَصَّلَتْ ءَايَاتُهُ ؕ أَعْجَبِي وَعَرَبِي قُلْ هُوَ

لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ (فصلت: ٤٤).



إن من الدراسات الأبحاث العلمية التي أجريت في هذا المجال: ما قام به الدكتور أحمد القاضي، رئيس مجلس إدارة معهد الطب الإسلامي للتعليم والبحوث في أمريكا، ومستشار عيادة (بنما سيتي) بولاية فلوريدا الأمريكية من تجارب علمية حول تأثير القرآن الكريم على الإنسان فيزيولوجيًا ونفسيًا على مرحلتين.

المرحلة الأولى: وهدفها إثبات ما إذا كان للقرآن أي أثر على وظائف أعضاء الجسم، وقياس هذا الأثر إن وجد، فكانت النتائج أن (٩٧٪) ممن أجريت عليهم البحوث سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين، وسواء كانوا يعرفون العربية أم لا يعرفونها، ظهرت عليهم تغيرات وظيفية تدل على درجة التوتر العصبي التلقائي، حيث كان للقرآن الكريم أثر مهدئ للتوتر، تم تسجيله بأحدث أجهزة المراقبة الإلكترونية المزودة بالحاسب الآلي لقياس أي تغيير في فيزيولوجية وظائف أعضاء الجسم.

ومن المعروف: أن التوتر يؤدي إلى نقص المناعة في الجسم، مما يتسبب في إحداث خلل في التوازن الداخلي الوظيفي للجسم، وبذلك فإن الأثر القرآني المهدئ للتوتر يمكن أن يؤدي إلى تنشيط وظائف المناعة في الجسم لمقاومة الأمراض، أو الشفاء منها.

المرحلة الثانية: وهدفها معرفة ما إذا كان الأثر المهدئ للتوتر وما يصحبه من تغيرات في وظائف الأعضاء، عائدًا إلى الكلمات القرآنية في حد ذاتها بغض النظر عما إذا كانت مفهومة أو غير مفهومة لدى السامع، فتم تلاوة آيات قرآنية وقراءات باللغة العربية على متطوعين غير مسلمين، ومن غير الناطقين بالعربية، بحيث تكون مطابقة للقراءات القرآنية من حيث اللفظ والصورة والواقع على الأذن، ولم يكن في استطاعة المتطوعين أن يميزوا بينها لجهلهم بالعربية، فكانت النتائج ايجابية كالتالي:

نسبة الأثر المهدئ للتوتر للقرآن الكريم على المتطوعين (٥٦٪)، في حين كانت النسبة في القراءات غير القرآنية المقاربة في اللفظ (٥٣٪)، وقد قدمت هذه النتائج



للمؤتمر السنوي السابع عشر للجمعية الطبية في [سانت لويس] بولاية ميسوري.
[موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة: يوسف الحاج أحمد (ص ٥٩٨-٥٩٩). وانظر: تفاصيل طرق الوصول إلى هذه النتائج، (ص ٥٩٩-٦٠١)].

الخامس: أثر القرآن الكريم في الصلاة الخاشعة على الجسم:

لقد توصلت الأبحاث العلمية الطبية الحديثة إلى أن الخشوع في الصلاة يؤدي إلى تنشيط واضح في المراكز التي لها علاقة بالمشاعر الإيجابية كالرحمة والشفقة.
عرضت هذه النتيجة في البرنامج الذي يقدمه أحمد الشقيري، بعنوان: (خواطر)، في رمضان عام (١٤٣٥ هـ). وخلاصة التجربة كالتالي:

وضع مادة: [Radio active] في الدم. تسير هذه المادة في الدورة الدموية إلى المخ، يتم بعد هذا عمل صورة للمخ، ثم يوضع في جهاز لمدة ساعة أو (٤٥) دقيقة، ثم تؤخذ صورة للمخ، وبعدها يصلي المتطوع صلاة بدون خشوع، وبعدها تؤخذ صورة للمخ، والنتيجة لا يوجد تغير، وبعدها قام المتطوع بأداء صلاة خاشعة، ويتم عمل صورة للمخ، وهنا كانت المفاجأة بوجود تغير جذري في المخ، يتمثل في الآتي:

- ١ - قل النشاط في الجزء المخصص للتفكير، أي أصبح أقل حيوية.
 - ٢ - قامت وظائف الجسم بالاستسلام للنشاط الذي تقوم به -وهو الصلاة-.
- فقراءة الآية: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ بخشوع، عنيت الاستسلام النفسي- والروحي لمالك هذا اليوم، وهو الله ﷻ، وقراءة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: استسلام المصلي لله تعالى أثناء الصلاة الخاشعة. ويدعو: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ دعوة: يا الله بعدما أخرج من الصلاة وأعيد تنشيط الجزء الأساسي من حياة الإنسان، وهو التفكير.



وعندما أرجع وأفكر في أمور حياتي والمشاكل: أهدني الصراط المستقيم. فالخشوع يؤدي إلى تنشيط واضح في المراكز التي لها علاقة بالمشاعر الإيجابية كالرحمة والشفقة. إن تكرار الاسمين: الرحمن، الرحيم، من أسماء الله الحسنى، في كل ركعة، يجسد مفهوم الرحمة الإلهية، وبالتالي إذا صلى الإنسان بخشوع تتجسد هذه الرحمة في دماه، وهذا مؤشر إلى أن الإنسان الخالي من الرحمة، والذي يصلي خمس مرات على الأقل في اليوم، ليسال نفسه قائلاً لها: ماذا فعلت صلاتك لهذا الجزء من دماغك، لم لم تنشطه؟! ويؤدي الخشوع أيضاً إلى الانخفاض الواضح في نشاط الجزء السفلي، والذي يتناسب مع مشاعر الاستسلام.

إن التواصل والصلة تزيد في الصلاة، تزيد الصلة بالله، ويقل الجزء المسئول عن الاستقلالية في الدماغ، فتزيد صلة العبد بربه. إن ما يحدث في الدماغ ووظائف العقل، هو تماماً ما تعنيه أول سورة في القرآن، وهي الفاتحة.

وصدق الله العظيم القائل: ﴿ أَتْلُ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَأَ الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۚ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وهناك تجربة عملية عن أثر الدعاء -الابتهال إلى الله تعالى-، وتلاوة القرآن، والصلاة الخاشعة -صلاة الحاجة- في شفاء مريض السرطان.

(طبيب مسلم يكتشف سرًا هامًا في لندن لعلاج مريض من سرطان الدم)، تحت هذا العنوان نشرت مجلة الاعتصام [عدد صفر ١٤٠٦هـ / نوفمبر وديسمبر ١٩٨٥م]، قصة فحواها: أن أحد مرضى السرطان -باكستاني- في بريطانيا، كشفت التحليلات المختلفة عن انتشار مرض سرطان الدم في جسمه بشكل ملحوظ، مما دعا الاستشاري البريطاني بالمركز العالمي إلى استبقاء المريض بالمركز وإعطائه العلاج المناسب للحد من انتشار



المرض، ومحاولة السيطرة عليه، وعندما علم المريض بحقيقة مرضه ومدى خطورته التي تكمن في عدم إمكان السيطرة على المرض، وأن وفاته ستكون خلال فترة محدودة، عندما علم المريض بهذه الحقائق الطبية، اتجه إلى الله تعالى بالدعاء وتلاوة القرآن والصلاة الخاشعة، مؤمنًا بأن شفاؤه في القرآن: ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾، ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ومن العجيب - والكلام هنا للدكتور سالم اليافعي، مساعد الاستشاري البريطاني - أن أحد المرضى، وهو بريطاني الجنسية، كانت لديه الحالة نفسها تقريبًا، وعندما علم بتفاصيلها انهار تمامًا، ونقص وزنه، وضعف بدنه حتى مات بعد ستة شهور، في حين أن المريض المسلم المؤمن بربه، كانت التحليلات الأسبوعية تثبت وقف انتشار المرض وانتهائه بعد أقل من ستة أشهر، خرج بعدها من المستشفى متوجهًا إلى بيت الله الحرام ليؤدي عمرة الشكر لله تعالى.

فالدعاء واللجوء إلى الله تعالى بصدق ويقين وإيمان يثير ويفجر قوى سرية في جسم الإنسان تقوى بها مناعته، وذلك بفرز هرمونات ومواد كيميائية داخلية تضيف عليه حيوية عجيبة، وهذا مما دفع د. اليافعي إلى تقديم بحث بعنوان: (القرآن والسرطان)، في المؤتمر العالمي الثالث للطب الإسلامي، الذي عقد في تركيا، في أكتوبر (١٩٨٤م)، تناول فيه تأثير القرآن في المعالجات الطبية للأمراض، لاسيما السرطان [د. محمد كامل عبد الصمد: الإعجاز العلمي في الإسلام - السنة النبوية، (ص ١٥٥-١٥٦)].

ويقول الأستاذ الدكتور محمد راتب النابلسي [في كتابه: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الإنسان، (ط ٥)، (ص ٣٧٠)] عند كلامه عن (العبادات شفاء من أمراض كثيرة): (ولا أنسى أن امرأة ذهبت إلى بلد غربي لتعالج من مرض، ألا وهو داء الشقيقة - الصداع النصفي -، آلام مستمرة في الرأس، طبيب لا يعرف الله ﷻ سألها:



من أين أنت؟ فقالت: من سورية، قال: أتصلين؟ قالت: لا، فقال: صلي يذهب ما بك! فعجبت وانزعجت، عجبت من أنها ركبت الطائرة، ودفعت آلاف الليرات ليقال لها: صلي، ولكنها لم تعجب حينما بين لها الطبيب أن أحد أسباب الشقيقة ضعف في تروية الشرايين في الدماغ، وأن السجود يوسع هذه الشرايين، ويجعل الدم يتدفق نحو الرأس، فبهذا السجود، وذاك الركوع، وهذا الوضوء، هذا كله في أصله عبادات، وقربات، واتصال بالله، ولكن لو درسه علماء اختصاصيون، وعلماء في التربية البدنية، وعلماء في أمراض الأوعية والشرايين لوجدوا العجب العجاب).

ويذكر د. النابلسي [المرجع السابق، (ص ١١٩)]: أن ثمة دراسة أجريت في جامعة أمريكية عن أثر الصلاة والدعاء في تخفيف الآلام، والدراسة موضوعية (١٠٠٪)، والتعليل الطبي: هناك بوابات للألم، والألم له مسار من النهايات العصبية إلى النخاع الشوكي، على البصلة السيسائية، إلى قشرة الدماغ، هذا طريق الآلام، وعلى هذه الطريقة بوابات.

هذه البوابات تتحكم بها الحالة النفسية للمريض، فإذا كان مؤمناً، وراضياً بقضاء الله وقدره، أغلقت هذه البوابات، فلم يصل من الألم إلى قشرة الدماغ إلا النزر اليسير، وهذا شيء ثابت، فالذي يتمتع بإيمان قوي تكون آلامه الحسية الناتجة عن بعض الأمراض أقل بكثير، لأن بوابات الألم مغلقة عنده، وهذا ما أكدته هذه الدراسة، فالعلاج عن طريق الصلاة والدعاء يخفف الآلام التي يتحسسها المريض العادي، وتأثر إيجابياً (٥٧٪) ممن شارك في التجربة.

السادس: الإعجاز العلمي الطبي في تحريم اللواط:

قال الله تعالى في تحريم اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿٣٦﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].



النظرة العلمية:

يرى علماء الاجتماع، أن هذه الفاحشة المنكرة التي تنفر منها الطبائع الكريمة، هي أسوأ ما ينزل الإنسان إلى أحط الحضيض من الكرامة الآدمية، وأن إشاعتها وتفشيها وتعودها يؤدي إلى تعطيل سنة الزواج التي هي سنة الله تعالى في خلقه، والتي هي طريقة التناسل الطبيعية والتكاثر الذي عليه عمارة الأرض وإصلاحها.

ثم إن علماء الطب: يرون في جريمة اللواط من الأخطار الصحية لفاعلها مثلما يصيب الزناة، من أمراض جنسية خبيثة يصعب البرء منها، مثل: الزهري والسيلان والقرحة والجرب، كما أنه يفقد الإنسان السيطرة على عملية التبرز، فيحدث منه عن غير إرادة، وقد يفضي الأمر بالمجنني عليه في هذا الفسق أن يصبح مختنئاً إذا لزمته هذه العادة منذ صغره، ويفقد بذلك رجولته [القرآن وإعجازه العلمي: محمد إسماعيل إبراهيم، (ص ١٢١)].

ومن أخطر الأمراض التي اتضح أن اللواط ينقلها بين الشواذ، وهو مرض الإيدز -نقص المناعة المكتسبة- طاعون العصر!!.

السابع: براءة اختراع دولية لقطرة عيون قرآنية:

قال الله تعالى: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

هذا هو المرض الذي أصاب يعقوب، المياه البيضاء.

والحزن من بين مسببات هذا المرض، حيث أنه يسبب زيادة هرمون (الأدرينالين)، ويعتبر هذا مضاداً (للأنسولين)، وبالتالي فإن الحزن الشديد أو الفرح الشديد، يسبب زيادة مستمرة في هرمون (الأدرينالين)، الذي يسبب بدوره زيادة في سكر الدم، وهو أحد مسببات العتامة، هذا بالإضافة على تزامن الحزن مع البكاء.

وكان ما فعله يوسف ﷺ بوحى من الله تعالى، أن طلب من إخوته: ﴿أَذْهَبُوا

بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].



﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ۖ﴾ (٩٤) ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ ۖ﴾ (٩٥) ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَازْتَدَّ بِصِيرٍ ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٩٦) [يوسف: ٩٤-٩٦].

من هنا كانت بداية بحث د. عبد الباسط محمد سعيد -الباحث بالمركز القومي للبحوث بمصر-، إلى أن توصل إلى قطرة من العرق تشفي هذا المرض، نال بها براءة اختراع أوروبية عام (١٩٩١م)، وأمريكية (١٩٩٣م) .. [فارس].

وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

الثامن: من الأسرار المعجزة في صلاة المسلمين:

يقول الدكتور عمر عبد الكافي -على اليتوب-: اجتمع اثنا عشرة عالماً من شتى التخصصات، منذ أربع سنوات في سويسرا، وأخذوا يفكرون في كيفية معالجة الآثار السالبة والضارة بصحة الإنسان من جراء استخدام الهواتف النقالة ومشاهدة التلفاز، إذ أن هذه الأجهزة تخرج منها موجات كهرومغناطيسية ضارة بصحة الإنسان، اجتمعوا وقرروا -وليس من بينهم عالم مسلم-، أن التخلص من هذه الموجات يكون بممارسة حركات رياضية عدة مرات في اليوم، وتشبه حركة السجود في صلاة المسلمين، ولكن بشروط ثلاثة، هي:

١- أن تكون هذه الحركة على الأرض.

٢- أن تكون على أعظم سبعة: الوجه - اليدين - الركبتين - القدمين.

٣- أن يتجه إلى كعبة المسلمين برأسه، لأنها مركز مغناطيس الكرة الأرضية. وإذا انصرف رأسه في غير اتجاه مركز الطاقة -أي: الكعبة- فلن تنصرف منه هذه الطاقة الضارة!! لم يقرأ هؤلاء كتباً في فقه العبادات الإسلامية!! ولكن الله تعالى قادهم إلى هذه الحقيقة المدهشة حقاً: ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَيُفَرِّحُوا ۖ فَذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨) [يونس: ٥٨].



التاسع: الاستعادة من شر القمر في أيامه البيض:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾

[الفلق: ١-٣].

وقال الرسول ﷺ - وهو آخذ بيد عائشة رضي الله عنها -: «يا عائشة! استعيذي بالله من شر هذا - وأشار إلى القمر -، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب» [صحيح الجامع (٧٩١٦)، وجاء في تفسير معنى (الغاسق إذ وقب): الليل إذا أقبل].

وقال قدامة بن ملحان رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بصيام الأيام البيض الثلاثة - ١٣ و ١٤ و ١٥ - ويقول: «هن صيام الدهر».

والسؤال الذي يطرح نفسه في ضوء الآية الكريمة المذكورة والحديثين النبويين المذكورين، هو: ما الشر الكامن في القمر في أيامه البيض، وما حكمة صيام الأيام البيض بالذات؟!.

لعل الجواب عن هذا السؤال هو نتائج أبحاث الدكتور ليبر [اختصاصي علم النفس بميامي الأمريكية]: (التأثير القمري) و(الجنون القمري)، وخلاصتها: إن أخلط الجسم تكون هائجة في منتصف الشهر القمري، لتزايد النور في جرم القمر، وحتى هيجان البحر يكون في هذه الأيام، وقمة المد البحري، ولأن (٨٠٪) من مكونات الجسم من الماء، فكذلك هيجان النفس البشرية.. والعلاج: الصيام الذي تقل فيه المياه في الجسم. وأخذ الباحث ملفات دوائر الشرطة في الأيام التي تقابل الأيام البيض، فوجد أن نسب الحوادث أعلى بكثير من بقية الأيام، خاصة بين مدمني الكحول، والميالين إلى الحوادث، وذوي النزعات الإجرامية، وأولئك الذين يعانون من عدم الاستقرار العقلي والعاطفي. وقد سبق ابن سينا في كتابه: (القانون) ليبر في مسألة وقت هيجان الأخلط، إذ قال عند كلامه عن الحجامة: (ويؤمر باستعمال الحجامة، لا في أول الشهر، لأن الأخلط لا



تكون قد تحركت وهاجت، ولا في آخره، لأنها تكون قد نقصت، بل في وسط الشهر، حين تكون الأخلاط هائجة بالغة في تزايدها، لتزايد النور في جرم القمر... [بحث منشور بمجلة جامعة أم القرى، العدد رقم (٥٠)، رجب (١٤٣١هـ)، بعنوان: (الإعجاز الرقمي والزماني في السنة النبوية)، د. محمد بن ظافر بن عبد الله الشهري]، وقد تصدى د. محمود عبد الله نجار في مقال له على النت - مخطئاً ليبر وغيره على النتائج والأقوال المذكورة.

العاشر: أهمية الرضاعة الطبيعية وفوائدها:

قال الله تعالى: ﴿وَالْوِلْدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّيَ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

تذكر منظمة الصحة العالمية، أن عشرة ملايين طفل، يتوفون في العالم الثالث سنوياً؛ نتيجة أمراض الجهاز الهضمي والإسهال، وأغلب هذه الوفيات ناتجة عن تغذية الأطفال بالألبان المصنعة بواسطة القارورة، حيث لا يتم التعقيم كما ينبغي، وتكون الكمية من اللبن مخففة بالماء، وتسبب إصابة أكثر من تسعة ملايين طفل بنقص شديد في التغذية، مما يؤدي إلى إصابتهم بالعديد من الأمراض والوفيات المبكرة.

ولذا ترى المنظمات الصحية العالمية التي تعنى بشؤون الأطفال وصحتهم، مثل: اليونيسيف ومنظمة الصحة العالمية، أن إرضاع المواليد من أمهاتهم لمدة عامين، سينقذ بإذن الله تعالى أكثر من عشرة ملايين طفل يتوفون سنوياً بسبب الإسهال وسوء التغذية، وأمراض أخرى كثيرة.

وتذكر مجلة (اللانسييت) الطبية البريطانية المشهورة، في افتتاحيتها عام (١٩٩٤م)، أن الرضاعة تنقذ مليوناً من الأطفال، بما توفره من تحسين جهاز المناعة، وهذا الرقم غير الملايين العديدة الذين يمكن أن تنقذهم الرضاعة، والذين يتوفون نتيجة الإسهال والأمراض المعدية الأخرى. [يوسف الحاج أحمد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة (٧٣٩/٢)].



وقد أوجز يوسف الحاج أحمد في موسوعته المذكورة [٧٩٤-٧٩٦] فوائد الرضاعة الطبيعية، في ثمان عشرة نقطة فيما يتعلق بالطفل الرضيع، وفي إحدى عشرة نقطة تتعلق بالأم والمجتمع.

ومن الفوائد المتعلقة بالطفل الرضيع من حيث حليب الأم:

- ١- أنه جاهز التعقيم، بينما ألبان القارورة تحتوي على العديد من الميكروبات، خاصة في العالم الثالث؛ والتعقيم يخفض حدوث الالتهابات الميكروبية.
- ٢- يحتوي على مضادات الأجسام، والبروتينات المناعية، ومجموعة كبيرة من خلايا الدم البيضاء المقاومة للأمراض؛ إضافة إلى أكثر من مائة إنزيم.
- ٣- يحتوي على بكتيريا مفيدة تدعى العصية اللبنية المشقوقة، تقوم بوقاية الطفل من كثير من أمراض الجهاز الهضمي.
- ٤- يحتوي على مادة الإنترفرون المهمة التي تقاوم الفيروسات.
- ٥- يحتوي على مواد مضادة للسموم، خاصة سموم بكتريا (ضمات) الكوليرا.
- ٦- لا يسبب أية حساسية للطفل، بينما (٣٠٪) من متناولي الألبان المجففة يصابون بالحساسية.
- ٧- فقير في الحامض الأميني فينيل ألانين، مما يقلل أية مضاعفات خطيرة عند الأطفال الذين يعانون من مرض وراثي يسمى (بيلة فينيل كيتون).
- ٨- غني بالزنك، الذي تختفي معه أية مظاهر للأمراض الوراثية.
- ٩- تكثر وفيات المهد بين الأطفال الذين يتغذون على غير لبن الأم.
- ١٠- يندر الإمساك بين أطفال الرضاعة الطبيعية.
- ١١- تساعد الرضاعة الطبيعية على سلامة الفك، وحسن نمو الأسنان.
- ١٢- تحمي الرضاعة الطبيعية من مجموعة خطيرة من الأمراض، مثل سكري البول (النوع الأول)، وتصلب الشرايين، وبعض أنواع السرطانات، والسمنة، وتخفف من



وقع أمراض وراثية كثيرة وخطيرة، مثل: التليف الكيسي، ومرض سبلياك (المرض الجوفي) الذي يصيب الجهاز الهضمي، والأمراض التي سبق ذكرها.

١٣- يحتوي حليب المرضعة على كمية ذائبة من فيتامين (د)، يسهل امتصاصها، فيقي من مرض الكساح، الذي يحدث بنسبة غير قليلة بين الأطفال متناولي الألبان المجففة.

١٤- يحتوي حليب الأم على مادة (لاكتوفرين) التي تساعد على امتصاص الحديد بصورة أفضل، مقارنة بمن يتغذون على لبن الماشية.

١٥- تؤدي الرضاعة غير الطبيعية إلى زيادة في عدد من الهرمونات في جسم الطفل، مثل: الأنسولين، والموتولين، والنيوروتنسين.

١٦- يحتوي حليب الأم على أحماض دهنية غير مشبعة وحيدة ومتعددة، وهي مهمة لبناء الجهاز العصبي، بينما يحتوي لبن الأبقار على أحماض دهنية مشبعة لها علاقة فيما بعد بتصلب الشرايين والسمنة، كما توجد في لبن الأم خثائر خاصة تساعد على تحلل الدهون ويسر امتصاص الكالسيوم.

١٧- يحتوي حليب الأم على المعادن المطلوبة بكميات متناسبة ومتناسقة يتيسر امتصاصها، أما لبن الأبقار فيحتوي على كميات أكبر غير مفيدة، بل ترهق الكلية في محاولة طردها، وهذا مما يعرض الكلى للأمراض.

١٨- يكون الأطفال الذين يحرمون من الرضاعة الطبيعية، أكثر عرضة للاضطرابات النفسية والسلوكية والانحراف.

أما أهم فوائد الرضاعة الطبيعية للأمر:

- ١- لا يحتاج حليب الأم على تحضير ومعاناة، فهو جاهز ومعقم.
- ٢- تنبه عملية الرضاعة أثناء مص الثدي الغدة النخامية الخلفية لتفرز هرمون الأوكسيتوسن، المهم جدًا لإعادة الرحم المتضخم بعد الولادة إلى حجمه ووضع



الطبيعي، وبالتالي يمنع النزف الشديد أثناء النفاس، كما أنه يقي الأم من حمى النفاس الخطيرة.

- ٣- يعود جسم المرضعة إلى وضعه الطبيعي كما كان قبل الحمل.
- ٤- تقوم الرضاعة الطبيعية بدور وقائي للحماية من سرطان الثدي والرحم.
- ٥- تقي الرضاعة الأم من الجلطات التي تحدث أثناء فترة النفاس.
- ٦- تعتبر الرضاعة التامة خلال الشهور الستة الأولى، من أهم وأفضل وسائل منع الحمل.

وأما أهم فوائد الرضاعة الطبيعية للمجتمع:

- ١- توفير ثمن الألبان المجففة التي تبلغ آلاف الملايين من الدولارات سنوياً.
- ٢- توفير آلاف الملايين من الدولارات التي تنفق سنوياً على علاج الأمراض الخطيرة، الناتجة عن التغذية بالقارورة.
- ٣- إنقاذ حياة ملايين الأطفال الذين يتوفون بسبب عدم التعقيم والإسهالات والإنتانات المختلفة.
- ٤- إنقاذ اليافعين والشباب من الانحرافات النفسية والسلوكية، ولهذا مردود اجتماعي واقتصادي يقدر بآلاف الملايين من الدولارات سنوياً.
- ٥- تقلل من إصابة البالغين بأمراض عديدة خطيرة، مثل: تصلب الشرايين، والبول السكري، وسرطان الثدي والرحم، ولكل هذه مردود صحي واقتصادي يقدر بآلاف الملايين من الدولارات سنوياً.

الحادي عشر: الإعجاز العلمي الطبي في أن أقل مدة للحمل ستة أشهر:

قال تعالى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحاف: ١٥]؛ وقال: ﴿وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [الناس: ١٤]؛ وقال: ﴿وَالْوِلْدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: جزء من الآية ٢٣٣]. فإذا حذفنا مدة الإرضاع الكاملة وهي حولين، أي (٢٤) شهراً من (٣٠) شهراً، التي هي



مدة الحمل والإرضاع معًا، فإذا بقي ستة أشهر، وهي مدة الحمل التي يمكن للجنين أن يبقى حيًا إذا ولد بتمامها.

وقد اعتمد الصحابة رضي الله عنهم هذا الفهم الذي أفتى به ابن عباس، وذلك عندما هم عثمان بن عفان رضي الله عنه بتطبيق حد الزنا على امرأة ولدت لستة أشهر، ظنًا منه أن بداية حملها قبل الزواج، فقال ابن عباس رضي الله عنه: «أما أنها لو خاصمتكم بكتاب الله لخاصمتكم، قال تعالى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾، فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر»، فبرئت المرأة.

والإعجاز هنا: أن الطب الحديث قرر أن أقل مدة للحمل يمكن أن يبقى بعدها الجنين حيًا إذا ولد بتمامها هي ستة أشهر، فالولادة قبلها تسمى إسقاطًا، والجنين فيها غير قابل للبقاء حيًا، والولادة بعدها وقبل تمام الحمل لتسعة أشهر تسمى خداجًا أو ولادة مبكرة؛ والخديج قابل للبقاء حيًا، لكن الطب يوصي بعناية خاصة به، خاصة إذا ولد لسبعة أشهر، فإنه يعيش بإذن الله تعالى، وهكذا سبق القرآن الكريم وفهم الصحابة رضي الله عنهم الطب الحديث!! [موسوعة الإعجاز العلمي: يوسف الحاج (١/ ١٢٧)، ومرجعه: أبحاث الدكتور محمود ناظم النسيمي: مدة الحمل من الناحية الطبية والفقهية والقانونية - رسالة جامعية].

الثاني عشر: الإعجاز العلمي الطبي في (الناصية):

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَشَفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿٥٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِرَةٍ ﴿٥٦﴾﴾ [العلق: ١٥-١٦]؛ وقال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَرَبِّكَ مَآئِينَ دَآئِبَةٍ إِلَّا هُوَ أَخِذْ يُنَاصِيَهَا إِنْ رَزَقَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦]؛ وقال: ﴿تَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالتَّوَصِيِّ وَالْأَقْدَامِ ﴿٥١﴾﴾ [الرحمن: ٤١]. وفي الحديث النبوي الشريف: «... ناصيتي بيدك» [أحمد: المسند (١/ ٣٩١)، وصححه الألباني ومحققو الموسوعة الحديثية]. والناصية منبت الشعر في مقدم الرأس، أو مقدمة الرأس. والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة.



ووجه الإعجاز في الآيات المذكورة والحديث الشريف: هو أنها أشارت بدقة علمية متناهية إلى أن القشرة الجبهية الأمامية المختفية في عمق ناصية الإنسان، هي مركز القرار عنده لضبط تصرفاته من حيث الصدق والكذب والخطأ والصواب والاتزان والانحراف، وهذا ما كشفت عنه الدراسات العلمية الحديثة في النصف الثاني من القرن العشرين [التفاصيل في موسوعة يوسف الحاج ومجلة المعجزة عدد (٨)].

يقول عالم كندي مشهور في علم المخ والتشريح والأجنة - في مؤتمر طبي عقد بالقاهرة -: (منذ خمسين سنة فقط تأكد لنا أن المخ الذي تحت الجبهة مباشرة، الذي في الناصية، هو الجزء المسؤول عن الكذب والخطأ، وهو المكان الذي يصدر منه الخطأ، وأن العين ترى بها والأذن تسمع منها، فكذلك كان هذا المكان الذي يصدر منه القرار، هذا مصدر اتخاذ القرار، فلو قطع هذا الجزء من المخ الذي يقع تحت العظمة مباشرة، فإن صاحبه في الغالب لا تكون له إرادة مستقلة؛ لا يستطيع أن يختار أجلس.. أجلس.. قم.. قم.. امش.. يفقد سيطرته على نفسه، مثل واحد تقلع له عينه فإنه لا يرى..) [وانظر هنا مجلة المعجزة، عدد (٨)، (ص ٥٩)].

(واليوم في دول الغرب يتحدثون عن جهاز يوضع حول ناصية من أرادت الدولة استجوابهم، ليدل على صدقه أو كذبه، بإشارات تطلقها الناصية عند الخبر الصادق، بخلاف الخبر الكاذب) [وغداً عصر الإيمان؛ الزنداني؛ موسوعة الإعجاز العلمي: يوسف الحاج (١٦٣-١٦٤)].

الثالث عشر: الإعجاز العلمي الطبي في تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير؛

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ﴾ [البقرة: ١٧٣]. وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أُهْلِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣].



أ. تحريم الميتة؛

لقد تحقق ضرر أكل الميتة علميًا، وظهر خطرهما على حياة الإنسان، وذلك لأن احتباس دم الميتة في عروقها المتشعبة إلى أنسجتها، ييسر للجراثيم التي تعيش متطفلة على الحيوان في الفتحات الطبيعية والأمعاء والجلد، أن تنتشر بسرعة وسط اللحم من خلال السائل الزلالي في الأوعية والعروق، وتتكاثر وينتج عنها مركبات كريهة الرائحة، سامة التأثير؛ كما قد يموت الحيوان بسبب مرض معين، فتنتقل جرثومة المرض إلى الإنسان فتؤذيه، وقد تهلكه، كما في مرض السل، والجمرة الخبيثة، وجراثيم السلمونيلا، وداء الكلب.

وقد حرم الله ﷻ أيضًا الميتة بسبب الاختناق أو بسبب الرّض، سواء كان ذلك الرض بالوقد أو التردّي من مكان عال، أو بواسطة النطح من حيوان آخر، كذلك ما أكل السبع؛ لأن تلك الأنواع إضافة إلى أن دماءها محتبسة في أنسجتها وما ينتج عن ذلك من الأخطار المذكورة في الميتة، إلا أن الاختناق يزيد من سرعة تعفن الجثة، والرّض يسبب انتشارًا للدم تحت الجلد وداخل اللحم والأنسجة في الأماكن المرضوضة، وقد تكون به سحجات وجروح تسهل دخول جراثيم الهواء إلى الأنسجة فتعجل بتحللها وفسادها، وما تحمله السباع من جراثيم وكائنات دقيقة فتاكة بين أنيابها تؤدي نفس النتيجة بأنسجة الحيوان ولحمه، مما تجعله يشكل خطرًا داهمًا على حياة الإنسان حينما يؤكل لحمه. [الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: بروف المصلح وآخرون، (ص ٢٩٩-٣٠٠)].

ب. تحريم الدم؛

كان الإنسان غافلاً عن أهمية هذا التحريم، ولكن التحليلات التي أجريت للدم قد أكدت أن هذا القانون كان مبنياً على أهمية خاصة بالنسبة للصحة؛ فالتحليل يثبت أن



الدم يحتوي على كمية كبيرة من (حمض البوليك)، وهو مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت كغذاء.. وهذا هو السر في طريقة الذبح الإسلامي التي أمرنا الله بها، إذ أنها تركز على الوريد الرئيس في العنق ليخرج أكبر قدر ممكن من الدم، ويصبح بذلك اللحم أقل ضرراً. [موسوعة الإعجاز العلمي.. يوسف الحاج (١/ ٥٩)].

بل يعتبر الدم من أصلح الأوساط لنمو شتى الجراثيم وانتشارها، وحينما يسفح الدم بالذبح أو الفصد فإنه ينزل عن الأوعية الدموية، وتفقد كريات الدم البيضاء قدرتها على التهام الجراثيم، وتموت خلايا جهاز المقاومة والمناعة، وتنهدم آلياته، فتتكاثر الجراثيم بسرعة مذهلة، وتفرز سموماً (Toxins) فتاكة قد تكون أشد مقاومة لحرارة الطبخ من الجراثيم ذاتها. [الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: بروف المصلح وآخرون، (ص ٣٠٠)].

الرابع عشر: الإعجاز العلمي الطبي في إشارة القرآن الكريم إلى دور الجلد والأمعاء في الإحساس بالألم؛

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا سَفِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٦﴾ [النساء: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ٥٧﴾ [محمد: ١٥].

لقد وجد علماء التشريح أن الجلد هو الجزء الأغنى بنهايات الأعصاب الناقلة للألم والحرارة، واثبتوا أن المصاب باحترق الجلد كاملاً لا يشعر بالألم كثيراً نتيجة تلف النهايات العصبية الناقلة للألم، بخلاف الحروق الأقل درجة (الدرجة الثانية)، حيث يكون الألم على أشده نتيجة لإثارة النهايات العصبية المكشوفة.

كما أثبتوا أيضاً: أن الأمعاء خالية من الداخل من المستقبلات الحسية، بينما توجد بكثافة عالية في منطقة المساريقا التي تقع بين الصفاق الجداري والطبقة الخارجية للأمعاء المغلفة بال: الرض صفاق الحشوي، ويوجد في هذه المنطقة عدد كبير من



جسيمات باسيني الناقلة للحرارة والألم، ويبلغ حجم الصفاق الجداري (٢٠٤٠٠) سمك مكعب، وهو يساوي نفس حجم الجلد الخارجي للجسم. [الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: المصلح وآخرون، (ص ٨٠-٨١)].

وأوجه الإعجاز باختصار:

أ. بين الله تعالى أن الجلد هو محل العذاب؛ فربط بين الجلد والإحساس بالألم في الآية الأولى، وأنه حينما ينضج الجلد ويحترق ويفقد تركيبه ووظيفته، يتلاشى الإحساس بألم العذاب، فيستبدل بجلد جديد مكتمل التركيب، تام الوظيفة، تقوم فيه النهايات العصبية المتخصصة بالإحساس بالحرارة وبآلام الحريق، بأداء دورها ومهمتها؛ فتجعل هذا الإنسان الكافر بآيات الله تعالى يذوق عذاب الاحتراق بالنار.

ولقد كشف العلم الحديث: أن النهايات العصبية المتخصصة للإحساس بالحرارة وآلام الحريق لا توجد بكثافة إلا في الجلد، وما كان بوسع أحد من البشر قبل اختراع المجهر وتقدم علم التشريح الدقيق، أن يعرف هذه الحقيقة التي أشار إليها القرآن الكريم منذ أكثر من (١٤) قرناً...!!

ب. هدد القرآن الكريم الكفار بالعذاب بهاء حميم يقطع الأمعاء، كما في الآية الثانية [محمد: ١٥]. ثم انضح السر في التهديد أخيراً باكتشاف أن الأمعاء لا تتأثر بالحرارة، ولكنها إذا قطعت خرج منها الماء الحميم إلى منطقة المساريقا، الغنية بمستقبلات الحرارة والألم والنهايات العصبية الناقلة لها إلى المخ، فيشعر الإنسان عندئذ بأعلى درجات الألم!! وهكذا يتجلى الإعجاز...!!

الخامس عشر: الإعجاز العلمي في آية ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٣٥) [الأنعام: ١٢٥].



يرى العلم الحديث في هذه الآية حقيقة علمية تؤكد وجود الضغط الجوي، الذي اكتشفه أحد العلماء الإيطاليين المسمى تورشيلي في منتصف القرن السابع عشر، فقد قاس هذا الضغط وقدره بما يساوي وزن (٧٦ سم ٣) من الزئبق، وقد اجتهد بعد ذلك علماء الطبيعة في دراسة الغلاف الجوي وغازاته وارتفاعه ومقدار وزنه وتخلخله، وأن الإنسان على سطح الأرض يتحمل قدرًا معينًا من هذا الضغط على جسمه، فإذا ارتفع الإنسان بالصعود على جبل أو ركوب الطائرة، فإن هذا القدر من الضغط يقل تدريجيًا بحسب مقدار الارتفاع، ويؤثر ذلك في تنفسه، ويشعر بضعف، حتى إذا وصل إلى ارتفاع (١٢٠٠٠ قدم) فوق سطح البحر، يحس بصعوبة شديدة في التنفس، وضيق في الصدر، يجعل مجرد الكلام متعذرًا عليه، فهل بعد ذلك برهان على أن هذا القرآن كلام الله ﷻ الذي يعلم السر وأخفى؟! [محمد إبراهيم إسماعيل: الإعجاز...، (ص ٨٩)].

ومن علماء الطبيعة الذين أثبتوا هذه الحقيقة العلمية (بليز باسكال)، عام (١٦٤٨ م). [موسوعة الإعجاز العلمي: يوسف الحاج (١/ ٣٤٧)؛ وانظر: التفاصيل العلمية لهذه الحقائق في (ص ٣٤٨-٣٤٩)].

السادس عشر: الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) (الطارق: ٥-٧).

ظهر من الدراسات الطبية الحديثة: أن الصلب هو منطقة العمود الفقري للرجل، وأن الترائب هي عظام الصدر للمرأة، كما أظهرت التحاليل الكيميائية: أن الماء الدافق، هو سائل الرجل المنوي الذي يحتوي على الحيوانات الحية في المنطقة، وقد سمي دافقًا؛ لأنه يندفع وقت الملامسة الجنسية من ذكر الرجل وحدون، دون الأنثى التي لا يتدفق منها سوى إفرازات تسيل لمجرد تليين الجهاز التناسلي وترطيبه. [محمد إسماعيل: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: يوسف الحاج (١/ ١٢٣-١٢٤)].



السابع عشر: الإعجاز العلمي الطبي في العلاقة بين القلب والعقل (المخ)؛

لقد احتل القلب مكانة محورية في الفكر الديني والأخلاقي منذ فجر التاريخ وفي جميع الحضارات، وأنه ليس مجرد عضلة تضخ الدم في شرايين الإنسان، بل مركز الشعور والفكر والخير والشر.

وجاءت الديانات السماوية لتؤكد هذا المفهوم؛ وإذا أحصينا عدد ذكر لفظ القلب بهذا المفهوم في القرآن، لوجدنا أنها قد وصلت إلى (١٣٧) مرة، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، و: ﴿لَا مَن أَعْرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأَيْمَنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وجاء كذلك هذا المفهوم في الحديث النبوي الشريف الصحيح: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» [البخاري (٥٢)، مسلم (١٥٩٩)، أحمد (١٨٣٧٤) - صحيح على شرط الشيخين؛ أبو داود (٣٣٣٠)، الترمذي (١٢٠٥)، ابن ماجه (٣٩٨٤)، البزار (٣٢٦٧) وكلها صحيحة].

وخلال الربع الأخير من القرن العشرين، حدث انفجار معرفي في علوم القلب، فقد توالى الاكتشافات التي أظهرت أن القلب ليس مجرد مضخة، وأن علاقته بالمخ ليست علاقة العبد بالسيد، بل إن السيادة تبادلية.

ويمكن تلخيص تلك الاكتشافات في النقاط التالية:

١ - يعمل القلب كمغناطيس قوي ومولد كهربائي فعالاً، ويؤثر المجال الكهرومغناطيسي للقلب على نشاط المخ الكهربائي، ويمتد هذا التأثير ليصل إلى جذع المخ (مركز التحكم في الجهاز العصبي اللاإرادي)، ولويزة المخ (مركز الوظائف



الانفعالية)، والمهاد (المحطة الأولى للأحاسيس)، وأخيرًا إلى القشرة المخية المسؤولة عن نشاطنا الفكري والشعوري والسلوكي.

ومن خلال هذا التواصل يؤثر القلب على وظائف المخ المختلفة، وتحمل هذه الموجات الكهرومغناطيسية الكثير من المعلومات، مثلها مثل موجات التليفونات والراديو والتلفزيون والفضائيات وانت، ويعتقد الباحثون الكهرومغناطيسيون في حدوث تبادل للمشاعر بين الأشخاص بشكل سلمي أو إيجابي، من خلال تداخل هذه المجالات.

٢- للقلب مخ صغير! وهو قادر على تنظيم عمله بمعزل عن تحكم مراكز المخ (الكبير)، بل ويشارك هذا المخ الصغير في توجيه النشاط الكهربائي لأغناخنا.

٣- يعمل القلب كغدة صماء تفرز عددًا من الهرمونات التي تشارك في توجيه عمل المخ (بالإضافة لوظائفها الأخرى)، وأهمها هرمون التعاطف (الأكسيتوسين).

يشير اكتشاف هذه الوظائف، إلى أن للقلب دورًا هامًا في الشعور وفي التفكير. [رحلة عقل: د. عمرو شريف، مكتبة الشروق الدولية، (ط٦ / ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م)، (ص ٢٧٧- ٢٧٨)، (ص ١٩٢)؛ مجلة المعجزة، عدد (٤)، (ص ٤١)].

وقد توصل العاملون في حقل تغيير القلوب، إلى أن القلب الاصطناعي لا تكون فيه أية عواطف ولا انفعالات. [موسوعة الإعجاز العالمي في القرآن والسنة: يوسف الحاج (١٥٣/١)؛ مجلة المعجزة، جامعة الحمد - العدد الرابع - (جمادى الأولى ١٤٢٩هـ / مايو ٢٠٠٨م)، (ص ٣٦، ٤٠)].

ويقول العلماء: أن النتائج التي توصلوا إليها، والخلل الكبير في الإدراك والفهم الذي يعاني منه صاحب القلب الاصطناعي، يؤكد بأن القلب له دور أساسي في الفهم والإدراك، وأن القلب هو أكثر من مضخة. [مجلة المعجزة، العدد نفسه، (ص ٤٢)].



لقد أجرى العالم بول بيرسال - المتخصص في علم المناعة، ومؤلف كتاب: (شفرة القلب) بحثًا شهيرًا عام (٢٠٠٢م)، تحت عنوان: (تغيرات في شخصيات المزروع لهم توازي شخصيات المتبرعين)، شمل (٧٤) شخصًا تم زرع أعضاء لهم، منهم (٢٣) زرع القلب خلال (١٠) سنوات، وكانت النتائج: إن شخصية الإنسان تتبدل جذريًا بمجرد انتزاع قلبه [المرجع نفسه، (ص ٤٣)].

ومن البحوث المهمة في هذا الموضوع، بحث الأستاذة الدكتورة: آمنة محمد صالح الفكي، والبروف عمر عبد العزيز موسى، والأستاذ يوسف عفيفي، السودانيون. وقد قدم البروف عمر بحثه إلى مؤتمر الهيئة العالمية للإعجاز العلمي، الذي عقد بالسودان عام (١٤٣٣هـ)، بعنوان: (كيف ثبت أن العقل في القلب).

أما البروف آمنة الفكي -مستشارة طب الأطفال، ومديرة عام منظمة علوم الوعي والجهاز العصبي- فقد قالت في مؤتمر علوم الوعي الأول حول فرضية (الوعي بين القلب والدماغ): إن العلوم والأبحاث الطبية كانت تجزم بأن الحركة الإرادية تصدر من خلايا الدماغ فقط، وفندت هذه الفرضية، وأبانت أن الأبحاث أثبتت أن المخ وقاع المخ هما مصدر الحركة اللاإرادية فقط (مثال ذلك: حركة اليدين أثناء السير التي تتم بدون تحكم الإنسان)، أما في حالة الحركة الإرادية فالدماغ يستجيب لأوامر القلب، ويقوم بالتنفيذ الفوري بوساطة إشارات مردودة إلى العضو المراد تحريكه؛ ونوهت إلى أنها بهذه الحثيات، قدمت فرضيتها في مؤتمر (نحو تفسير علمي لظاهرة الوعي والحركة اللاإرادية) بالسويد، حيث وجدت قبولًا كبيرًا، مما دفعها للمشاركة في مؤتمر علوم الوعي الدوري الأخير بجامعة أريزونا الأمريكية؛ وأضافت: بأن مركز دراسات علوم الوعي بالجامعة منحها براءة الملكية الفكرية، مقرًا بأن القلب هو مصدر اتخاذ القرار، ومنشأ النية والوعي لحدوث أية حركة إرادية ومصدر القرار والإرادة الحرة..



واتفق معها البروفسور مالك بدري - استشاري علم النفس - الذي أكد دور القلب في الوعي والتفكير، وقال: إن الغرب توصل إلى دور القلب وتأثيره على الدماغ والجهاز العصبي، إلا أنهم أخفوا هذه الحقائق، وتوقع أن تواجه فرضية الدكتوراة آمنة حربًا خاصة من (الماديين)، وقال عن الفرضية الجديدة: ستحدث نتائج خطيرة في الأبحاث الطبية...

وخالف الشيخ عبد الجليل النذير الكاروري الفرضية، وقال: إن القيادة في الرأس وليس القلب، وإنه في المنخ، والحبل الشوكي يتخذ القرار، وبالتالي توجه الأوامر إلى الأعضاء بما فيها القلب. [انظر النت].

أما فيما يتعلق بالمجموعة الثانية: الحقائق القرآنية العلمية التي يثبتها القرآن الكريم وتؤديها الحقائق العلمية التاريخية، فيمكن التمثل لها بالآتي:

الثامن عشر: قصة إرم ذات العماد:

قال تعالى: ﴿إِرمَ ذَاتَ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٧-٨].

ظن الباحثون من غير المسلمين إلى عهد قريب، أن قصة إرم ذات العماد وعاد من الخرافات، استنادًا إلى أن المنطقة التي ذكر بأنه هذه الحضارة قد عاشت فيها هي منطقة الربع الخالي، ولكن أراد الله تعالى أن يكشف زيف هذا الظن، فسخر علماء غير مسلمين لتصوير هذه المنطقة بالأقمار الصناعية على مرتين، فوجدوا آثار نهرين، أحدهما كان يجري إلى الشرق، ويجري الآخر إلى الغرب، ووجدوا آثار بحيرة وبقايا آثار مدينة، لها قلعة تقوم على أعمدة عظيمة، وهكذا كشفت الآثار التاريخية القديمة صحة ما جاء في القرآن، وأنه وحى من الله ﷻ خالق الوجود، [انظر م. فارس، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية، (ص ٢٦) وما بعدها].



التاسع عشر: قصة أهل الكهف:

قال الله تعالى عنهم: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٢].

لقد أثبت علم الآثار مكان الكهف الذي ذكر في القرآن الكريم، وهو قرية الرجيب، ذلك الاسم الذي حرف من (الرقيم): ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ ١ إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتينا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً ١٠﴾ [الكهف: ٩-١٠]، وتقع القرية المذكورة شرقي الأردن.

ويكفي دلالة: على أن هذا الأثر التاريخي من الآثار التي يقصدها من يزور الأردن. ويرجح: أن حادثة أصحاب الكهف قد وقعت في عهد الإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠ م)، وفي قصتهم عظة وعبرة وإعجاز تاريخي دل على وجود الخالق صاحب القدرة على البعث وإعادة الخلق، ودل قوله تعالى: ﴿وَقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨] على حقيقة علمية طبية، وهي أن الرقاد على السرير لمدة طويلة دون تقلب يحدث ما يسمى بالقرحة السريرية. [انظر محمد حسني، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية (١/ ١٠٤-١٠٩)].

العشرون: تكوين سطح القمر وسطح الأرض:

عندما وقف العلماء عند الآية القرآنية الكريمة: ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ٣٠﴾ [الأنبياء: ٣٠]، توصلوا إلى حقيقة علمية أثرية بعد إجراء تحاليل مختبرية للصخور التي جلبها الإنسان من على سطح القمر، أن تكوين مواد القمر هي نفس تكوين مواد الأرض!! [محمد حسني، الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية (١/ ٢٦٢-٢٦٣)].



ويكفي هذا دلالة على أن وراء هذا الكون إله خالق، وكل عاقل يعلم أن محمدًا ﷺ لا يملك أدوات الوصول إلى مثل هذه المعلومات التي لم تُعرف إلا في أواخر القرن العشرين!!!

الحادي والعشرون: قصة فرعون موسى ﷺ

جاءت الإشارة إلى فرعون موسى -منفتح بن رمسيس الثاني- في الآية مكان الشاهد: ﴿أَلْقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١١) ﴿أَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ﴾ (١٢) [يونس: ٩١-٩٢].

اتفقت الكتب السماوية على حدوث واقعة غرق فرعون موسى في البحر، وانفرد القرآن بذكر نجاة بدن الفرعون، وسكتت الكتب السماوية الأخرى -التوراة والإنجيل- عن مصير الجثة، وبعد مضي ثلاثة آلاف سنة، وجدت جثة الفرعون منفتح محنطة في المقابر الملكية المصرية، وجرى عليها التحليل الطبي المناسب، وتحقق من أن الجثة له، وعندما بدأت تتغير قام العلماء الأطباء بتجديد التحنيط لتظل باقية في المتحف المصري، وقد شارك الطبيب بوكاي في هذا العمل الكبير، ومن دلالات هذا الانفراد دحض مزاعم القائلين بأن القرآن الكريم يستقي معلوماته من الكتب المقدسة السابقة، وغيرها من الأساطير. [انظر: حسني، (ص ٢٢٥)].

وهناك إعجاز آخر يتعلق بفرعون موسى ﷺ، وهو: (أنه عندما أعلنت نتائج الفحوصات التي أجرتها لجان علمية عالمية متخصصة، مصرية وأوروبية وأمريكية، نصت على أن جميع الموميات المصرية قد بدأت تظهر عليها آثار التحلل بتأثير أنواع فريدة من البكتيريا (ما عدا جثة الفرعون منفتح) فرعون موسى!!). [موسوعة يوسف الحاج (١/ ٤٤)، ومرجعه: (الإعجاز العلمي في الجغرافية)].



الثاني والعشرون: قصة الاسم: (هامان) في القرآن الكريم:

ورد ذكر هامان في القرآن الكريم كوزير لفرعون مصر، وأن من مهام وظيفته تنفيذ أوامر الفرعون، التي منها أوامر البناء المعماري، أي الرئيس المشرف على مهندسي وعمال مقالع الأحجار والتشييد في دولة الفرعون، بل الوزير الأول، بدليل أن رسالة موسى ﷺ وجهت له مع فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبينٍ ﴿١٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَجْنَّ وَقُرُوتَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر: ٢٣-٢٤] وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَجْنَّ وَخُتُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: ٨].

إن هذا الاسم المشهور (هامان) في القرآن الكريم لا ذكر له البتة في التوراة والإنجيل وغيرهما، وهذا مما أثار فضول العالم الفرنسي المسلم وعملاق التشريح - الذي سبق ذكره - الدكتور موريس بوكاي، فقام بالبحث في سر هذا الاسم، فذهب إلى أحد المختصين في تاريخ مصر القديمة، وعرض عليه الاسم، وطلب منه ترجمة معنى هذا الاسم باللغة الهيروغليفية - لغة مصر القديمة - فأتى له الخبر بكتاب: (قاموس أسماء لأشخاص أعلام في الإمبراطورية الجديدة)، وفتح القاموس، وكانت المفاجأة أكبر من أي تصور، كان معنى الاسم (هامان)، أنه الرئيس المشرف على مهندس وعمال مقالع الحجر والبناء! هنا قال بوكاي للخبر: (لو قلت إني قد وجدت مخطوطة عمرها أكثر من (١٤٠٠) سنة، كتب فيها أن هامان كان وزيراً لفرعون، ورئيساً للمهندسين المعماريين والبنائين، ماذا تقول في ذلك؟ هنا انتفض الخبر من مكانه، وصرخ قائلاً: مستحيل!، لم يرد ذكر هذا الاسم إلا على الأحجار الأثرية لمصر، وبالخط الهيروغليفي، أحدهما موجود في متحف (هوف) بفيينا، عاصمة دولة النمسا، ولا يذكر هذه المعلومة إلا شخص قام بفك رموز اللغة الهيروغليفية، أي: معنى كلمة (هامان)، ولم يتم هذا



العمل إلا عام (١٨٢٢م)، أين هذه المخطوطة؟! وحينئذ فتح بوكاي المصحف وقال للخبير، وهو يشير بأصبعه إلى الآيات مكان الشاهد، والتي هي: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣٨) [القصص: ٣٨]، والآية التي نصها: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنِي لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٩) [سَبَبِ السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا] [غافر: ٣٦-٣٧].

وهكذا كان الإعجاز التاريخي الذي لا ينكره إلا مكابر، ودل على أن وجود الله تعالى حق، وأن القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن الرسول ﷺ نبي ورسول من الله ﷻ، وأن القرآن أصيل.

والإعجاز العلمي التاريخي الآخر في قصة هامان، وفي ضوء الآية ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُّ عَلَى الطِّينِ﴾ وهو كما يقول السيد عبد الله السر علي: (في هذه الآية دليل على طريقة صنع الأهرامات من قبل الفراعنة، فهي عبارة عن طين مكون من رمل الصحراء ومياه النيل بعد تسخينه، فيتصلب، وهذه هي طريقة رفع الحجارة العملاقة التي أعجز فهمها العلماء، فإن الفراعنة لم يرفعوا صخوراً، إنما رفعوا طيناً ثم سخنوه ليصبح صخوراً، وقد أثبت تحليل هذه الصخور كيميائياً ذلك). [صحيفة الانتباهة السودانية، الجمعة (١٥/٢/١٤٣١هـ، ٢٨/٢/٢٠١٢): مقال للبروفسير محمد عبد الله الريح، في عموده (غيبونة الدخول في غيبوبة بسبب الغيبنة)] ولم يتم التوصل إلى هذه الحقيقة العملية إلا بشرح الآيات المذكورة!!.

رحم الله تعالى الشيخ الطنطاوي -المفسر المصري- القائل: إن نحواً من (٧٥٠) آية قرآنية ترتبط بالقضايا العلمية، بينما لم تتجاوز آيات الأحكام في القرآن (٤٠٠) آية! [انظر: الإنترنت].



الثالث والعشرون: قصة سفينة نوح عليه الصلاة والسلام:

يقول الله ﷻ في قصة نوح ﷺ مع الطوفان: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وُدُسِرَ ۖ وَجَرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۝ ١٤ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝ ١٥﴾ [القمر ١٣-١٥] و﴿وَقِيلَ يَتَآرَفُ أَتْلَى مَاءٍ ۚ وَنَسَمَاءُ أَقْلَى وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُصِيَ الْأَمْرُ ۖ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ ١١﴾ [هود: ٤٤].

إن الإعجاز العلمي التاريخي في قصة سفينة نوح ﷺ ورسوها على جبل الجودي، هو ما كشفت عنه الأبحاث العلمية الأثرية الحديثة. يقول الأستاذ حسني: (فمن الأبحاث العلمية في هذا الصدد، تلك الحملات التي يقوم بها علماء الجيولوجيا والتاريخ: الكشف عن سفينة سيدنا نوح ﷺ فوق جبل الجودي بتركيا، إذ يقول جون موريس، الباحث العلمي الذي قاد حملتين كشفيتين متتاليتين في هذه المنطقة التي يقع فيها جبل الجودي في تركيا عام (١٩٧٢ و ١٩٧٣م): أخذت هذه المشاهد الغربية لسفينة سيدنا نوح تظهر على الجبال منذ سنة (١٩٤٠م)، عقب هزة أرضية عنيفة حدثت في ذلك العام، ومنذ ذلك الحين أخذ مئات من الناس يؤكدون رؤية هذا المنظر في كل عشرين سنة أو نحو ذلك حين يتراجع الجليد ويتضاءل وتظهر هذه المشاهد، وبعد ذلك تعود الثلوج لتغطيها في أسابيع قليلة).

وكان غنام عجوز يدعى جورج هاجوبيان قدر رأى عندما كان يرعى الغنم بصحبة عمه في عام (١٩٠٤م)، بقايا سفينة خشبية غريبة في أعلى جبل الجودي، وكان ذلك بعد أربع سنوات من الجفاف، حيث أخذت الثلوج في الذوبان بشكل كبير، مما أدى إلى بروز ما يسميه هاجوبيان بالفلك المقدس، ولقد تسلق هاجوبيان السفينة الضخمة وصعد إلى السطح بمساعدة عمه، ثم نظر من الشبايك وصرخ بأعلى صوته، فترددت أصدااء الصوت بين جنبات السفينة.



ويقرر العلماء أن الجبل قد ارتفع من جراء انفجارات بركانية إلى ثمانية عشر ألف قدم بفعل فيضانات مدمرة، وأن وجود بلورات ملحية على عمق ستة آلاف قدم في الجبل يعتبر شاهداً مادياً على وجود فيضان ارتفعت به المياه عن معدلها بقدر اثني عشر ألف قدم.. وأن الفيضان حمل السفينة إلى أعلى الجبل.. وبقيت كذلك لمدة عام تقريباً، فلما بدأت المياه في الانخفاض ظلت السفينة ملتصقة بقمة الجبل.

ولقد أكدت الدراسات العلمية التي قام بها المهندس الفرنسي فوناندنافارا عام (١٩٥٥م) على قطعة خشبية من هذه السفينة، وأنها بقايا بلوط أبيض قديم مصممة يدوياً، وأن تاريخ صنعها يرجع إلى أكثر من (١٠٠) ألف سنة تقريباً مضت، مما يجعلها متزامنة مع عهد سيدنا نوح عليه السلام، وأيدها دراسات أجريت عام (١٩٩٩م) على قطعة من خشب هذه السفينة.

إن هذه السفينة ظلت محفوظة في الجبل.. مستورة عن البصر لأكثر من (١٠٠ ألف) سنة تقريباً، ثم جاءت هزة أرضية محسوبة ومقدرة.. من مائة عام أو يزيد قليلاً لتخرج بها السفينة من الخفاء إلى العلن، وهذه آية، وأن الجليلد ليحيط بالسفينة إحاطة تامة، فيغطيها تغطية شاملة لمدة سنة كاملة، ثم تتكشف للناس بضعة أسابيع لتكون آية، وأن الجليلد بدرجة المنخفضة يعتبر من أفضل طرق الحفظ، وما به من بلورات ملحية أشد حفظاً وأعمق أثراً.

يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: ٤٩).

جاءت خاتمة الآية: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩) فهي إشارة إلى أنها حقيقة لن تظهر إلا متأخراً، وكان النصر لمحمد عليه السلام وأتباعه ودين الإسلام، ولكن أراد الله تعالى أن يحفظ السفينة من الهلاك حتى تشهد بصدق الرسول عليه السلام والرسالة ووجود المرسل.



لقد كان هذا الكشف الأثري التاريخي العظيم ضربة موجعة لمصادقية الإنجيل، الذي يقول: إن السفينة قد رست على جبال أراراط أو أارات [سفر التكوين: (٨-٤)]، وما زادهم غضباً أن القرآن الكريم لم يخطئ في تحديد موقع سفينة نوح ﷺ، جبل الجودي، وسبحان الله تعالى الذي أثبت لدينا أنه معجزة من الله ﷻ، وأنه الدين الحق، وغيره الباطل، وأن وجود الله يثبت التاريخ والعقل.. [حسني، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، قصة نوح ﷺ].

وللإجابة عن سؤال: هل كان الطوفان عامًا لكل الكرة الأرضية؟ فالجواب: لا، والدليل على هذا:

لقد أثبت العالم السير (ليونارد وولي)، رئيس البعثة التي شارك فيها المتحف البريطاني وجامعة بنسلفانيا الأمريكية عام (١٩٢٠م)، والتي قامت بالحفريات في (تل العبيد) شمالي مدية (أور العراقية)، لقد اكتشفت هذه البعثة طبقات عميقة من الطمي طمرت فيها الأواني والتمائيل الفخارية، وأجزاء من الطين لا تزال منطبعة عليها آثار أعواد القصب (البوص) المضغوط عليها.

وقد استدل (ليونارد) من الفحص المجهرى لكميات الطمي، أنه يتكون من مواد جرفت بها المياه (دفعة واحدة) من المنطقة الوسطى لنهر الفرات، في شكل فيضان عظيم ارتفاعه لم يكن أقل من خمسة وعشرين قدمًا [وقد ورد في نصوص التوراة أن ارتفاع الطوفان (٢٦) قدمًا].

واستقر رأي (ليونارد) على أن الطوفان لم يشمل الدنيا كلها، ولكنه كان سيلاً عرمًا طغى على وادي دجلة والفرات، وأغرق كل المنطقة المأهولة بين الجبال شرقاً والهضبة الصحراوية غرباً، وهي المنطقة الآهلة بسكان الدنيا وقتئذ:



وقد سجل سكان الوادي بعد الطوفان قصة الطوفان على اثني عشر لوحًا من الفخار؛ وذكروا فيه غرق سكان هذه المنطقة باستثناء رجل تقي ورع بنى سفينة وأخذ معه فيها أفراد أسرته وبعض الحيوانات والدواب، وهؤلاء وحدهم كتبت لهم النجاة [من كتاب: الأرض التي نعيش عليها: تأليف (روث مور) وترجمة إسماعيل حقي]. وينطبق هذا مع نصوص الآيات القرآنية التي نزلت بعد الطوفان؛ وبتطابق هذه المكتشفات الأثرية مع الآيات القرآنية نرى الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؛ لأن الآيات القرآنية دلت على أن الطوفان كان شاملاً لقوم نوح ﷺ فقط، وهذا لا يقضي أن يكون عامًا للأرض، إذ لا دليل على أن البشر المعنّين، وهم قوم نوح ﷺ كانوا يقطنون الأرض كلها، بل كانوا منحصرين في منطقة معينة طغى عليها الطوفان. [موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة (١/ ٤١-٤٢)؛ والإعجاز العلمي في الجغرافيا هو مرجعه].

الرابع والعشرون: قصّة أهل القرية التي كانت حاضرة البحر:

قال الله تعالى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا تَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٣).

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره [تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان] لهذه الآية: ﴿وَسَأَلَهُمْ﴾ أي: أسأل بني إسرائيل ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أي: على ساحله في حال تعديهم وعقاب الله إياهم، ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾، وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموا ولا يصيدوا فيه صيدًا، فابتلاهم الله وامتحانهم، فكانت الحيتان تأتيتهم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ أي: كثيرة طافية على وجه البحر، ﴿وَيَوْمَ لَا تَسْبِتُونَ﴾ أي: إذا ذهب يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾، أي: تذهب في البحر فلا يرون



منها شيئاً ﴿كَذَلِكَ نَبَلِّغُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١١٣) ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله، [قال المحقق الشيخ اللويحق، كذا في ب. وفي أ: يبلهم]. وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا فلو لم يفسقوا، لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر، فتحيلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفراً، وينصبون لها الشباك، ثم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فرق: [كما في الآية ١٦٤ من الأعراف] معظمهم اعتدوا وتجروا وأعلنوا بذلك، وفرقة أعلنت بنهيهم والإنكار عليهم، وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم، ونهيهم لهم... [وجاء في خبر الفرقة الأولى الآية (١٦٦) من الأعراف]: ﴿فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَآثُهُوا عَنهُ﴾ أي: قسوا فلم يلينوا ولا اتعظوا. ﴿فَلَنَلَهُمْ﴾ قولاً قدرياً: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، فانقلبوا بإذن الله قردة، وأبعدهم الله من رحمته، ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوبُكَ﴾ أي: أعلم إعلاماً صريحاً: ﴿لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُوءُهُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يهينهم ويذلهم.

وجاء ذكر هذا العذاب كذلك في سورة البقرة (١٦٦): ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (٦٥)، وجاء ذكر مثل هذا العذاب في سورة المائدة (٦٠): ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٦٠).

قال محمد حسني يوسف [الإعجاز العلمي في القرآن والسنة النبوية (٢/ ٧٢)]: (هذه الآيات ستقطع بأن الله ﷻ قد شاء فأمر، فتحول بعض العصاة لأمره، المخالفين لما قدره في حينهم، وفي زمانهم، إلى قردة، قردة فعلاً، وإلى خنازير فعلاً.

بالإضافة إلى المفاجأة الكبرى والقبلة التي تفجرت، وهي: أنه تم اكتشاف موطن القرية التي كانت حاضرة البحر التي سكنها من القديم بعض صيادي اليهود الذين



عصوا الله ﷻ، فمسخهم قردة وخنازير، وتم العثور على هذه الموميات في تاريخ (٢/ ١ / ٢٠٠٢م)، حيث يقول الذين عثروا على الموميات في رسائل لهم للأستاذ محمد عيسى داود ما نصه: نحن مجموعة من الشباب، فينا عالم الآثار، وفينا عالم الجيولوجيا، وفينا عالم الأحياء، وبعض طلبة العلم في دراسات الآثار، وأصول الدين؛ مكن الله ﷻ لنا الأمر، ووقفنا للعثور على موطن القرية التي كانت حاضرة البحر، التي سكنها من القديم بعض صيادي اليهود الذين عصوا الله ﷻ، فمسخهم قردة وخنازير، ومرسل لمعالكيم مندوبنا عن طريق غزة، عمل لكم الشريط المصور لمومياتهم المحنطة تحنيطاً بدائياً لتبعية بلاد الشام وقتئذ لمصر، وتأثر أهلها بعبادات المصريين؛ وكذلك مرسل لكم الصور الفوتوغرافية. وقد تأكد لنا أنهم بشر أنبت الله لهم ذيولاً وأذناً، وأبقى أشكالهم البشرية لمزيد عذابهم النفسي، حيث يرى بعض علمائنا أنهم وإن حل عليهم العذاب هنا قرب طبرية وأماكن أخرى بجوارها، إلا أن بعضهم لم يتحمل هذا الوضع، فهرب إلى صحراء مصر وغيرها من بلاد الشام).

إن هذا الأثر التاريخي المادي من أوضح الأدلة على أن القرآن ليس من تأليف محمد ﷺ كما يزعم أعداء الإسلام، بل هو وحي من الله تعالى الموجود حقاً.

الخامس والعشرون: آثار قوم صالح ﷺ (ثمود):

هم الذين قتلوا ناقة صالح ﷺ، على الرغم من تحذير النبي صالح لهم بعدم الإقدام على هذا الفعل: ﴿وَيَقَوْمَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسِوْهُ فَإِذَا خَذُكُمُ الْعَذَابُ فَرِيْتُ ۚ﴾ (١١) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۚ﴾ (١٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۚ﴾ (١٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَنِيحٍ ۖ﴾ (١٧) كَانَ لَمْ يَفْتَنُوا فِيهَا إِلَّا إِنَّا ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدَ لَثَمُودَ ۚ﴾ (١٨) [هود: ٦٤-٦٩].



إن الإعجاز في قصة هلاك ثمود هو بقاء آثارهم إلى يومنا هذا، وهذه شهادة للتاريخ على صدق الرسول ﷺ عندما عاد من غزوة تبوك يقود جيشه المنتصر، مر في الطريق على الحجر من ديار ثمود، الذين غضب الله تعالى عليهم لعصيانهم أمره بعدم ذبح ناقة نبي الله صالح [البخاري (٢٢٧٧)، مسلم (٢٩٨٠)]. وعندما سارع الناس إلى دخول مساكن أهل الحجر، نهاهم الرسول، وقال لهم: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين» [أحمد، المسند (٢٣١/٤)، وحسن ابن كثير إسناده كما في البداية (١٣/٥)]، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي [البخاري (٢٣٨٧)، مسلم (٢٩٨١)]، وعندما نزلوا الحجر استقوا من آبارها وعجنوا من مائها العجين، فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بطرح ذلك العجين للإبل ويريقوا ذلك الماء، وأن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة [البخاري (٢٣٨٧) - (٢٣٧٩)، مسلم (٢٩٨١)].

وما زالت آثار ثمود باقية شاهداً على صدق رسالة النبي ﷺ ونبوته، وعلى صدق القرآن، وعلى وجود الله ﷻ الذي أوحى قصة ثمود إلى نبيه ورسوله محمد ﷺ.

وسبحان الله العظيم القائل في آثار عاد ثمود: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ بَيَّنَّا لَكُم مِّن مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ فَصَدَّهُم مِّنَ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٧٨].

السادس والعشرون: ظلمة الفضاء

أكد الدكتور عبد الباسط محمد السيد، الباحث ورئيس المجمع العلمي لهيئة الإعجاز في القرآن الكريم والسنة بمصر، أن العالم (كارنار)، من أبرز علماء الفضاء، أسلم وفقد وظيفته بوكالة ناسا الأمريكية بسبب اعتناقه الإسلام، وكان ما يعرف بشباك (وان ألان)



الذي من خلاله تصعد سفينة الفضاء والموجود في القرآن الكريم، سبباً لهداية كارنار لطريق الحق، لقد اهتدى العلماء إلى هذا الشباك بعد أبحاث طويلة لتخطي عقبة أن الأشعة الكونية أشد من الأشعة النووية، وتعرض السفينة الفضائية إلى الحريق في حال الصعود في الفضاء بشكل عشوائي، والحل لهذه المعضلة هو اكتشاف الشباك المذكور.

قال عبد الباسط: أن ذات الشباك الذي تسير فيه سفينة الفضاء موجود في القرآن الكريم في الآية: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (١٥) [الحجر: ١٥]. وأفاد عبد الباسط: أنهم أعطوا دليلاً لكارنار بأن الكون كله ظلمة بعد مرور الشباك، وقوله: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ تعني: الظلمة، مضيئاً: وقوله: ﴿أَيُّ لُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ كأنها لديك النهار يكسو الليل وبعد سلخه كسلخ الذبيحة لا يبقى سوى الظلام، وعلى إثر ذلك أسلم العالم كارنار.

السابع والعشرون: انشقاق القمر

لقد أسلم داود موسى بيدكوك -رئيس الحزب الإسلامي البريطاني- عندما علم من علماء أمريكيان، وذلك عام (١٩٧٨م) صحة قصة انشقاق القمر الذي ورد في القرآن الكريم، عندما استمع إلى حوار تلفازي على قناة الـ (BBC) عن رحلات الفضاء، وكان ضيوف البرنامج ثلاثة من العلماء الأمريكيين، وأدار الحوار معهم المذيع البريطاني المشهور: جيمس بيرك. تقول القصة باختصار شديد:

(أهدي لبيدكوك نسخة مترجمة من القرآن الكريم، وعندما وقف عند الآية: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١-٢]، وضع القرآن جانباً بحجة أن مثل هذه الخرافات هي التي جعلتهم يكذبون القرآن، ودارت الأيام، وكان موعده مع الهداية عندما قدر له أن يشاهد تلك الحلقة التلفازية مع رواد الفضاء الأمريكيين، وعندما استنكر المحاور



صرف أموال طائلة على رحلات الفضاء، وهناك من يموت من الجوع في بعض البلاد المتخلفة، فرد أحد الرواد بأنهم وقفوا على حقيقة علمية لا تقدر بثمن، وهي اكتشافهم أن القمر قد انشق ذات يوم، وقد وقفوا على آثار الانشقاق، وهنا قفز بيدكوك من كرسيه ونطق بالشهادتين!! ثم تعمق في دراسة القرآن والسنة وحضارة الإسلام، حتى أصبح رئيساً للحزب الإسلامي البريطاني). [انظر الأحاديث الواردة في قصة انشقاق القمر في كتاب السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، للمؤلف: دكتور مهدي رزق الله].

الثامن والعشرون: الإعجاز العلمي التاريخي في حروب الروم والفرس:

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ غَلِبَتِ الرُّومُ ۚ﴾ (٢) فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۚ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفِرُّ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَتَصَّرِ اللَّهُ يُنْصَرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ [الروم: ١-٦].

إن سبب نزول هذه الآيات هو وقوع معركة بين مملكتي فارس والروم في منطقة بين أذرعاء وبصرى، قرب البحر الميت، حيث انتصر فيها الفرس سنة (٦١٩م).

وحزن المسلمون لهزيمة الروم، لأنهم مثلهم أهل كتاب سماوي، بينما الفرس مجوس يعبدون النار، فأنزل الله ﷻ قرآناً يواسي به المؤمنين ويرد فرحة الكافرين، فوعد الله تعالى المسلمين بأن الفرس ستغلب في المعركة الثانية بعد بضع سنوات، وأن نصر الروم سوف يتزامن مع نصر المسلمين على المشركين، والبضع: هو رقم بين الخمسة والسبعة، أو بين الثلاثة والتسعة، كما يقول أهل اللغة العربية، وقد تحقق ما وعد به القرآن الكريم بعد سبع سنوات، حيث وقعت معركة أخرى بين الفرس والروم عام (٦٢٦م)، انتصر فيها الروم، وتزامن ذلك مع انتصار المسلمين على مشركي قريش في غزوة بدر الكبرى، فكانت الفرحة فرحتين، وهكذا تحقق وعد الله تعالى المعجز: نصر وفرح، نصر استبعده



مشركو مكة؛ لأن قوة الفرس كانت ضاربة، مما حدا بأحد المشركين أن يقول معبراً عن رأي جماعته: (محمد عاقل وما هو بمجنون، لقد جعل دينه كله ومستقبله كله والإسلام كله مرهون بانتصار دولة مهزومة، إنه حدد زمناً قريباً يكون في حياته؛ فلو أنه مرت عشر سنوات ولم تنتصر الروم راح الإسلام والقرآن ومحمد...).

وعندما تحقق ما قاله الله تعالى في القرآن، قالوا: لا يمكن أن يكون هذا من عند بشر! هذا صنع الذي يحكم البشر، فأسلموا! هذا هو الإعجاز العلمي التاريخي الأول، أما الإعجاز الثاني في هذه الآيات الكريمة:

أنها قررت حقيقة جغرافية لم تكن معروفة عند أحد في ذلك الوقت، حيث أخبرت أن الروم خسروا المعركة الأولى مع الفرس في أدنى منطقة من الأرض، ولكلمة (أدنى) معنيين: أقرب وأخفض؛ فهي من جهة أقرب منطقة لشبه الجزيرة العربية، ومن جهة أخرى هي أخفض منطقة على سطح الأرض، إذ إنها تنخفض عن مستوى سطح البحر بـ (١٣١٢) قدم، (حوالي ٤٠٠ متر)، كما جاء في الموسوعة البريطانية، [الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: أ. د. عبد الله المصلح وآخرون، (ص ١٩٣-١٩٨)؛ الموسوعة: يوسف الحاج (١/ ٢٦٩-٢٧٢)].

التاسع والعشرون: ملك مصر زمن يوسف عليه الصلاة والسلام:

جاء في الموسوعة العلمية في الإعجاز القرآني للدكتور سمير عبد الحليم: (إن القرآن يذكر حكام مصر القدامى بلقب فرعون، وقد وردت كلمة (فرعون) في (٧٤) موضعاً، لكن في سورة يوسف لم يذكر القرآن لقب فرعون بل الملك! قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف: ٤٣].

وفي أواخر القرن التاسع توصل (شامبليون) -عالم الآثار الفرنسي- إلى حل رموز الكتابة (الهيروغليفية)، وأثبت العلم أن النبي يوسف عليه الصلاة



والسلام عاش في مصر أيام الملوك الرعاة (الهكسوس) من عام (١٧٣٠) إلى (١٥٨٠ قبل الميلاد).

أما المجموعة الثالثة: المعجزات الكونية

فيمكن تلخيصها في التالي:

الثلاثون: الإعجاز العلمي الكوني في قوله تعالى: ﴿وَالسَّيِّدَاتُ يَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يس: ٣٨).

يقرر علم الفلك بأن الشمس لها مجموعة من الكواكب والأقمار والمذنبات تتبعها دائماً وتخضع لقوة جاذبيتها، وتجعلها تدور من حولها في مدارات متتابعة بيضاوية الشكل، وجميع أفراد هذه المجموعة تنتقل مع الشمس خلال حركتها الذاتية. والخلاصة: أن المجموعة الشمسية تجري في الفضاء بسرعة محدودة، وفي اتجاه محدود، وتبلغ هذه السرعة حوالي (٧٠٠ كلم) في الثانية، وتتم دورتها حول المركز في مدى (٢٠٠) مليون سنة ضوئية، ولم يتوصل علماء الفلك إلى معرفة هذه الحركة واتجاهها إلا في أوائل القرن العشرين، فأين هذا من وقت نزول القرآن، حيث لم يكن محمد النبي الأمي ولا قومه يعرفون شيئاً من ذلك، إنه الإعجاز!! [محمد إبراهيم، الإعجاز العلمي...، (ص ٧٢)].

الحادي والثلاثون: الإعجاز العلمي في ذكر بروج السماء والقسم بها:

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الحجر: ١٦]. وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]. (البروج): تكوينات نجمية جميلة تراها كل يوم في السماء في أماكن وأوضاع شتى، ليس من الضروري أن تربطها أية علاقة فيزيائية... تمر أمامها الشمس أثناء دورانها الظاهري من حول الأرض، فالبروج كأنها منازل الشمس في دورانها أثناء السنة؛ وعدد



هذه البروج اثني عشر، وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

إن بعض نجوم البرج الواحد قد تكون قريبة نسبياً من الأرض، بينما يقع البعض الآخر على مسافة بعيدة نسبياً، كل ما نعرفه عن نجوم البرج الواحد أنها تبدو من الأرض في نفس الاتجاه. [موسوعة الإعجاز العلمي... يوسف الحاج (١/٣٠٣)؛ محمد إسماعيل إبراهيم: الإعجاز العلمي...، (ص ٧١)].

الثاني والثلاثون: الإعجاز العلمي الحسي في قسم الله تعالى بـ﴿وَاللَّهُ ذَاتُ الْبَاطِنِ﴾.

تشير الآية القرآنية الكريمة إلى أن أهم صفة للسماء هي أنها ذات رجع؛ فما معنى الرجوع، وما إعجازه؟

الرجع في اللغة كما يقول ابن منظور في معجم لسان العرب: هو محبس الماء. وقال اللحياني: سميت السماء بذات الرجع لأنها ترجع الغيث.

وهي مشتقة من الرجوع، وهو العودة والعكس.

ومعنى الآية: أن السماء تقوم بوظيفة الإرجاع والعكس، وقد جاء العلم الحديث ليؤكد هذا التفسير، فقد كشف علماء الفلك أن طبقة التروبوسفير التي هي إحدى طبقات الغلاف الجوي للأرض، تقوم بإرجاع ما تبخر من الماء على شكل أمطار إلى الأرض من خلال دورة دائمة سميت بدورة تبخر الماء.

كما اكتشف علماء الفلك أيضاً: أن طبقة التروبوسفير، وهي التي تضم طبقة الأوزون تقوم بإرجاع وعكس الإشعاعات الضارة المافوق بنفسجية إلى الفضاء الخارجي، وبالتالي فهي تحمي الأرض من كميات كبيرة من ضوء الشمس وحرارتها إلى الأرض، كما نصت على ذلك الموسوعة البريطانية.



أما طبقة التيرموسفير، فإنها تقوم بعكس وإرجاع موجات الراديو القصيرة والمتوسطة التردد (AM و SW) الصادرة من الأرض، وهذا ما يفسر إمكانية استقبال هذه الموجات من مسافات بعيدة جدًا، وقد ذكرت ذلك بالتفصيل الموسوعة البريطانية.

يتضح مما تقدم: أن أهم صفة للسماء كشف عنها العلماء في القرن العشرين هي أنها ذات رجع! ووجه الإعجاز في الآية هو دلالتها الواضحة على أن أهم صفة للسماء هي أنها ذات رجع، وهذا ما كشفه العلم الحديث في القرن العشرين.

الثالث والثلاثون: الإعجاز العلمي الكوني الحسي في قسم الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ ذَاتُ الصَّدْعِ﴾ (الطاقة، ١٢).

سبحان الله ﷻ الذي وصف الأرض من قبل (١٤٠٠) سنة بأنها ذات صدع، لأن هذه الشبكة الهائلة من الصدوع العملاقة أو الأودية الخسيفة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض، بعمق يتراوح بين (٦٥ و ١٥٠ كم)، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض، إحاطة كاملة في كل الاتجاهات تتصل ببعضها البعض، وكأنها صدع واحد.

وسبحان الله العظيم الذي أقسم بالأرض ذات الصدع من قبل أكثر من (١٤٠٠) سنة تفخيماً لظاهرة من أروع ظواهر الأرض وأكثرها إبهاراً للعلماء، وأشدها لزوماً لجعل الأرض كوكباً صالحاً للحياة ولل عمران؛ لأنه بدونها لم يكن ممكناً للأرض أن تكون صالحة لذلك؛ فعبر هذه الصدوع العملاقة خرج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض؛ ولا يزالان يتجددان؛ وعبر النشاط الملازم لها تحركت ألواح الغلاف الصخري الأولى للأرض، فتكونت القارات والسلاسل والجزر البركانية، وتجددت قيعان المحيطات، وتزحزحت القارات، وتبادلت اليابسة والمحيطات، واثارت البراكين



لتخرج قدرًا من الحرارة الأرضية الحبيسة في داخل الأرض، والتي كان من الممكن أن تفجرها لو لم تتكون تلك الصدوع العملاقة؛ وخرجت كميات هائلة من المعادن والصخور ذات القيمة الاقتصادية مع هذه الثورات البركانية، ونشطت ديناميكية الأرض، وثبتت ألواح غلافها الصخري بالجبال.

ومن هنا: كان القسم القرآني بالأرض ذات الصدع من قبل (١٤٠٠) سنة. والعمل الكوني لم يصل إلى كشف تلك الحقيقة إلا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين، ولم يكن لأحد في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، إلمام بتلك الحقيقة الأرضية، أو بإدراك لشيء من جوانبها؛ ولا يمكن لعاقِل أن يتصور مصدرًا لها قبل أكثر من (١٤٠٠) سنة، ولكن الله تعالى الخالق هو الذي أخبر بذلك. [أ. د. المصلح وآخرون: الإعجاز العلمي...، (ص ٢٠٤-٢٠٥)].

وهذا سبق القرآني بالإشارة إلى تلك الحقيقة الأرضية وإلى غيرها من الحقائق الكونية، هو ما يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى الخالق.

الرابع والثلاثون: الإعجاز العلمي الكوني الحسي في قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

إن مسألة نشأة الكون من القضايا التي تكلم فيها الفلاسفة والعلماء، ولكنها كانت خبط عشواء، فلقد تعددت النظريات والتصورات إلى أن تحدث عالم الفلك البلجيكي (جورج لوميتير George Le Maitre) سنة (١٩٢٧م) عن أن الكون كان في بدء نشأته كتلة غازية عظيمة الكثافة واللمعان والحرارة، أسماها البيضة الكونية.

ثم حصل في هذه الكتلة، بتأثير الضغط الهائل المنبثق من شدة حرارتها، انفجار عظيم ففتتها وقذفها مع أجزائها في كل اتجاه؛ فتكونت مع مرور الزمن الكواكب



والنجوم والمجرات، وقد سمي بعض العلماء هذه النظرية بـ(الانفجار العظيم - Big Bang).

وفي عام (١٨٤٠م) أيد عالم الفلك الأمريكي (من أصل روسي) جورج غاموف George Gamov نظرية الانفجار العظيم، مما مهد الطريق لكل من العالمين: (بنزياز Penziaz) و(ويلسون) سنة (١٩٦٤م)، اللذان التقطتا موجات راديو منبعثة من جميع أرجاء الكون، لها نفس الخصائص الفيزيائية في أي مكان سجلت فيه، لا تتغير مع الزمن أو الاتجاه، فسميت (النور المتحجر)، أي: النور الآتي من الأزمنة السحيقة، وهو من بقايا الانفجار العظيم الذي حدث في الثواني التي تلت نشأة الكون!!

وفي سنة (١٩٨٩م) أرسلت وكالة ناسا قمرها الاصطناعي (Gobe Explorer)، والذي قام بعد ثلاث سنوات بإرسال معلومات دقيقة إلى الأرض تؤكد نظرية الانفجار العظيم، وسمي هذا الاكتشاف باكتشاف القرن العشرين.

ومعنى الآية: أن الأرض والسموات بما تحويه من مجرات وكواكب ونجوم، والتي تشكل بمجموعها الكون الذي نعيش فيه، كانت في الأصل عبارة عن كتلة واحدة ملتصقة. وقوله تعالى: ﴿رَتَقًا﴾ أي: ملتصقين، إذ الرتق هو: الالتصاق، ثم حدث لهذه الكتلة الواحدة (فتق) أي: انفصال وانفجار تكونت بعده المجرات والكواكب والنجوم، وهذا ما كشف عنه علماء الفلك في نهاية القرن العشرين.

أوليس هذا التوافق مدهشاً للعقول؟! يدعوها للإيمان بخالق هذا الكون مسبب الأسباب؟! قال تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]. [موسوعة

الإعجاز العلمي: يوسف الحاج (١/ ٣٧٧-٣٨١)].



الخامس والثلاثون: الإعجاز العلمي الحسي في قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُونَ﴾

قَوْلِ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ ﴿١٨﴾ (ق، ١٨).

لقد أثبت العلم الحديث أنه ما من صوت ولا حركة من الحركات إلا وهو موجود ومسجل في الكون، لا يتلاشى أو يزول نهائياً؛ فالقول الذي أخبر الله ﷻ عنه بقوله: ﴿مَا يَلْفُظُونَ﴾، ما هو إلا موجات صوتية باقية في الأثير، يمكن سماعها مرة أخرى، غير أنه ليس لدينا الأجهزة الملائمة لاسترجاع هذه الأصوات وتمييزها، وهذا لا ينفي وجود الملك الرقيب العتيد، الذي يدون ما ينطق به الإنسان.

وكذلك الأعمال مرسومة بكافة أحوال المرء بما تشيعه من موجات حرارية معلقة في الهواء يمكن تجميعها إذا توفرت الأجهزة القادرة على ذلك لإعادة تحركات وأحوال الإنسان، غير أن البشر عاجزون عن ذلك.

هذا ما أثبتته نظريات العلوم الحديثة في إمكانية استرجاع أقوال وأعمال الناس لمحاسبتهم، ولقد جاء كتاب الله ﷻ قبل هذا بقرون ليخبر الناس أنه في الآخرة سيعطى كل امرئ سجيلاً لأعماله. [كيف ولماذا اعتنقوا الإسلام: د. محمد إبراهيم الحسن و: إبراهيم ابن صالح المعتاز، (ط ١)، مكتبة الخريجي، (ص ٤٤)، الإسلام يتحدى: وحيد الدين خان].

السادس والثلاثون: الإعجاز العلمي في جعل الله تعالى الجبال أوتاداً للأرض:

قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا ۖ ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۖ ﴿٧﴾﴾ (النبا: ٦-٧).

عندما خلق الله ﷻ القارات، بدأت في شكل قشرة صلبة رقيقة تطفو على مادة الصهير الصخري، فأخذت تميد وتضطرب، فخلق الله تعالى الجبال البركانية التي كانت تخرج من تحت تلك القشرة، فترمي بالصخور خارج سطح الأرض ثم تعود منجذبة إلى الأرض، وتتراكم بعضها فوق بعض، مكونة الجبال؛ وتضغط بأثقالها



المتراكمة على الطبقة اللزجة، فتغرس فيها جزراً من مادة الجبل، الذي يكون سبباً لثبات القشرة الأرضية واتزانها.

وجه الإعجاز:

في الوقت الذي كان فيه الإنسان يجهل حقيقة الجبال، والذي ظل حتى منتصف القرن التاسع عشر، جزم القرآن الكريم في هذه الآية بأن الجبال تشبه الأوتاد شكلاً ووظيفة، وتبين حديثاً صدق هذا التشبيه الدقيق، فبما أن للوتد جزء ظاهر فوق سطح الأرض وجزء منغرس في باطن قشرة الأرض، ووظيفته تثبيت ما يتعلق به، فكذلك الجبال لها جزء ظاهر فوق قشرة الأرض، وجزء منغرس في باطنها يتناسب طرداً مع ارتفاعها وعلوها؛ ووظيفة الجبال هي تثبيت ألواح قشرة الأرض ومنعها من أن تميد وتضطرب بفعل الطبقة المنصهرة تحتها...

ولقد وصف الله تعالى وظيفة الجبال، فقال: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وهنا الإشارة إلى الطريقة التي تكونت بها الجبال البركانية بإلقاء مادتها من باطن الأرض إلى الأعلى، ثم عودتها لتستقر على سطح الأرض.

إن من ينظر إلى الجبال على سطح الأرض لا يرى لها شكلاً يشبه الوتد أو المرساة، وإنما يراها كتلاً بارزة ترتفع فوق سطح الأرض، كما عرفها الجغرافيون والجيولوجيون. ولا يمكن لأحد أن يعرف شكلها الوتدي، أو الذي يشبه المرساة إلا إذا عرف جزءها الغائر في الصهير البركاني في منطقة الوشاح، وكان من المستحيل لأحد من البشر أن يتصور شيئاً من ذلك حتى ظهرت نظرية السير (جورج ايري) عام (١٨٥٥م).

فالجبال أوتاد بالنسبة لسطح الأرض، فكما يختفي معظم الوتد في الأرض للتثبيت، كذلك يختفي معظم الجبل في الأرض لتثبيت قشرة الأرض، وكما تثبت السفن



الفصل الحادي والثلاثون: المعجزات العلمية في القرآن

بمراسيها التي تغوص في ماء سائل، فكذلك تثبت قشرة الأرض بمراسيها الجبلية التي تمتد جذورها في طبقة لزجة نصف سائلة تطفو عليها القشرة الأرضية.

فمن أخبر محمد ﷺ بهذه الحقيقة الغائبة في باطن القشرة الأرضية وما تحتها على أعماق بعيدة تصل إلى عشرات الكيلومترات، قبل معرفة الناس لها بأكثر من ثلاثة عشر قرنًا؟! ومن أخبره بوظيفة الجبال... وهي الحقيقة التي لم يعرفها الإنسان إلا بعد عام (١٩٦٠م)؟!

وهل شهد خلق الأرض وهي تتمد؟ وتكوين الجبال البركانية عن طريق الإلقاء من باطن الأرض وإعادتها عليها لتستقر الأرض؟!

إنها البيئة العلمية المعجزة المحسوسة الشاهدة بأن مصدر هذا القرآن هو خالق الأرض والجبال، وعالم أسرار السموات والأرض، القائل: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان: ٦).

السابع والثلاثون: معجزة أن السماء كانت دخانًا في بدء خلق الكون؛

قال تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ۖ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ٩-١١).

يصرح القرآن الكريم هنا أن السماء كانت في بدء خلق الكون دخانًا، ويأتي العلم الحديث اليوم مصدقًا لما جاء به القرآن!!

فالعلم الفلكي (جيمس جينز) يقول: (الراجع أن مادة الكون بدأت غازًا منتشرًا خلال الفضاء بانتظام، وإن السدائم خلقت من تكاثف هذا الغاز).

إن تشبيه مادة خلق السموات بالدخان دون الهباء أو البخار أو الهواء يشير إشارة مذهشة رائعة إلى أن مادة السماء الأولية قبل خلقها كان لها من الصفات الهامة ما يشبه



صفات الدخان العادي الذي يتصاعد من النيران... كانت مادة مظلمة بذاتها، مفككة الأجزاء، خفيفة، ومنتشرة في الفضاء كما يتتشر السحاب، ساخنة إلى حد ما، وهي كالدخان العادي؛ كانت حاوية لرقائق أنواع المادة الثلاثة الصلبة والسائلة والغازية [م. فارس، (ص ١٦٥)].

الثامن والثلاثون: معجزة أن القمر كان في القديم كوكباً مشتعلاً؛

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَيْلٌ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ مَّحَوَّاتٍ لَّيْلٌ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

تشير الآية الكريمة إلى حقيقة علمية لم تكتشف إلا في القرن العشرين، وهي أن القمر كان في القديم كوكباً مشتعلاً ثم أطفأ الله تعالى نوره.

وقد ورد هذا الكشف العلمي على لسان حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنه، حيث يقول: (كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، وهو آية الليل، فمحي؛ فالسواد الذي في القمر أثر ذلك المحو) [الإعجاز العلمي في القرآن: محمد سلامة محمد علي].

إن هذا الاستنباط لابن عباس رضي الله عنه من القرآن الكريم، كان منذ أكثر من (١٤٠٠) سنة، فماذا يقول علماء الفلك؟ لقد اكتشفوا أن القمر كان مشتعلاً في القديم ثم مُحِيَ ضوؤه وانطفأ، فقد أظهرت المراصد المتطورة والأقمار الاصطناعية الأولى صوراً تفصيلية للقمر، وتبين من خلالها وجود فوهات لبراكين وارتفاعات وأحواض منخفضة، ولم يتيسر للعلماء معرفة طبيعة هذا القمر تماماً حتى وطئ رائد الفضاء الأمريكي (نيل آرمسترونغ) سطحه عام (١٩٦٩م)، ثم بوساطة وسائل النظر الفلكية الدقيقة، والدراسات الجيولوجية على سطحه، وبعد أن تم تحليل تربته، استطاع علماء الفضاء القول -حسب ناسا- بأن القمر قد تشكل منذ (٤,٦ سنة)، وتعرض خلال تشكله لاصطدامات كبيرة وهائلة مع الشهب والنيازك، وبفعل درجات الحرارة الهائلة



تم انصهار حاد في طبقاته، مما أدى إلى تشكيل الأحواض التي تدعى ماريّا (Maria)، وقمم وفوهات تدعى كرايترز (Criaters)، والتي قامت بدورها بإطلاق الحمم البركانية الهائلة، فملأت أحواضه في تلك الفترة، ثم برد القمر، فتوقفت براكينه وانطفأت حممه، وبذلك انطفأ القمر، وطمس بعد أن كان مشتعلًا. [فارس: الإعجاز العلمي...، (ص ١٧٩)].

لقد فرق الله تعالى بين الضياء والنور في الشمس والقمر، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وفي أكثر القواميس: لا فرق بين النور والضياء، ولكن الله تعالى فرق بينهما، فالأشعة التي تأتي من مصدر ضوئي غير مباشر سميت بالنور، فقد كشف العلم الحديث أن الشمس هي مصدر الضياء، والضياء ينعكس على القمر فيعطي نورًا...!! [فارس، (ص ١٩٤)].

التاسع والثلاثون: الإعجاز العلمي المحسوس في قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ

الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]؛

من معاني كلمة (مسجور) المسخن.

لقد ثبت علميًا وجود براكين نارية تخرج من قاع البحر، ولم يعرف ذلك إلا في النصف الثاني من القرن العشرين. وقد أمكن تصوير هذه البراكين وقياس حرارة الماء الموضعية حول النار الخارجية من قاع البحر.

وتدل كلمة المسجور -أي: المسخن- تدل على وجود نار تحت البحر فتسخنه، وهي نار البراكين المكتشفة حديثًا، وقد تكلم عنها القرآن قبل عشرات القرون، وهذا دليل قاطع على أنه وحي الله تعالى أنزله على محمد ﷺ.



وهنا نشير إلى ما ورد على لسان البروفسير (شرويدر)، وهو من أكبر أساتذة علم البحار الألمان، قال في ندوة عقدت بجامعة الملك عبد العزيز السعودية بعد أن عرضت عليه هذه الحقائق عن علم البحار، وبعد أن سمع معنى الآيات القرآنية، ووجهت إليه عدة أسئلة؛ قال بالحرف الواحد: (إن ما سمعته في هذه الندوة، وما وجه إليّ من أسئلة ليثبت أن كل ما نكتشفه نحن العلماء كان مذكورًا من قبل الله الخالق المجيد، مما يعني أن هنالك علمًا واحدًا وحقيقة واحدة، وإلها واحدًا؛ وإنني أطالب بنشر هذا العلم في مثل هذه المجامع العلمية، ومن خلال العالم كله).

من المؤكد إن هذا العلم ليس من عند محمد ﷺ؛ لأنه عاش في عصر لا يمكن للإنسان أن يغطس لمسافة عميقة في البحر إلا بوساطة معدات وأوكسجين وأدوات غطس حتى يصل إلى هذه الحقائق العلمية التي تؤكد صدق رسالته، ووجود خالق يعرف أسرار ما خلق. [م. فارس، (ص ١٠١)].

الأربعون: الإعجاز العلمي في القسم الإلهي بـ (الجوار الكنس):

قال تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْخَنَسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ۝١٦﴾ [التكوير: ١٥-١٦].

ولفظه: (خَنَسٌ): تعني في اللغة: اختبأ واختفى، وهي صيغة مبالغة: تعني أجرام مبالغ في اختفائها.

لقد أقسم الله ﷻ بحقيقة لم يعرفها العلماء إلا منذ سنوات قليلة، وهي الثقوب السوداء، وهي هالة من النجوم العملاقة تتركز عادة في قلب المجرات، وتعتبر مراكز ثقل للمجرات، وهي هالة كثيفة جدًا للمادة، لا يكاد العقل البشري أن يتصورها، تتكدس فيها المادة، بحيث تتلاشى المسافات البينية بين مكونات الذرات، لأن الذرة أغلبها فارغ، وحجم المادة فيها ضئيل للغاية، فإذا تلاشت المسافات بين اللبنة



الأساسية للذرة تضاعل حجمها تضاعلاً شديداً حتى لا تكاد تدرك؛ وبتكديس المادة في داخل النجم العملاق تصبح له جاذبية فوق التصور، تحول دون انفلات الضوء منه، وحينئذ يختفي هو ومركز ثقل المجرة؛ لأن كل ما في المجرة من أجرام مترابط بجاذبية الثقب الأسود كمركز للثقل لها.

ولكي يتكون ثقب أسود لا بد أن تنضبط كتلته، وهي تعادل السرعة الكونية أو سرعة الضوء؛ وعلى سبيل التشبيه فإن نجماً في حجم الشمس التي يبلغ قطرها (١٣٩٢٠٠٠) كيلومتراً، تحتاج إلى الانضغاط حتى يصبح قطرها (٣) كيلومترات فقط كي تتحول إلى ثقب أسود.

أما الجوار الكنس... قالوا: الكنس في اللغة مثل (خنس) بمعنى اختبأ واختفى أيضاً؛ ولكن التكرار هنا ما معناه أنه ليس للتأكيد، ولذلك خلصت إلى أن الكنس هن من الكُنُس، بمعنى مسح صفحة السماء، وليست من الاختفاء. [موسوعة الإعجاز العلمي: يوسف الحاج (١/ ٤٠٠)، ومرجعه: من آيات الإعجاز في القرآن الكريم، للدكتور زغلول النجار، (ص ٢٦٢) - الثقوب السوداء].

وصدق الله العظيم القائل: ﴿سَتْرِيَهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

الحادي والأربعون: الإعجاز العلمي في مصدر الحديد:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال أشهر علماء العالم في مجاله، البروفسير استروخ، من وكالة الفضاء الأمريكية ناسا: (لقد أجرينا أبحاثاً كثيرة على معادن الأرض، وأبحاثاً معملية... ولكن المعدن الوحيد الذي يحير العلماء هو الحديد، فذرات الحديد لها تكوين مميز، إن الإلكترونات



والنيوترونات في ذرة الحديد لكي تتحد فهي محتاجة إلى طاقة هائلة تبلغ أربع مرات مجموع الطاقة الموجودة في مجموعتنا الشمسية، ولذلك فلا يمكن أن يكون الحديد قد تكون على الأرض، ولا بد أنه عنصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكون فيها).

[م. فارس: الإعجاز العلمي.. (ص ٥٣)؛ يوسف الحاج: موسوعة الإعجاز العلمي...، (١/ ٢٢٨)؛ والزناداني: وأنزلنا الحديد، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة - العدد (٢٣)؛ د. زغلول البخار: موسوعة الإعجاز العلمي - جريدة الأهرام - يوليو (٢٠٠١م)؛ أ. د. علي الطاهر شرف الدين: تأصيل العلوم الطبيعية بين مستلزمات النهضة وتحديات العولمة - مجلة التعليم العالي والبحث العلمي - العدد (٣)، عام (٢٠٠٤م)؛ د. مبارك ضرار عبد الله: المعادن والعناصر الكيميائية في القرآن الكريم - مجلة أبحاث الإيمان - العدد (٢٠)، (رجب ١٤٢٧هـ/ أغسطس ٢٠٠٦م)، (ص ١٥٧-١٥٨)؛... إلخ].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن علماء الكيمياء قد وجدوا أن معدن الحديد هو أكثر المعادن ثباتاً، ولم يتوصل العلم إلى الآن من اكتشاف معدن له خواص الحديد في بأسه وقوته ومرونته وشدة تحمله للضغط، وهو أيضاً أكثر المعادن كثافة، حيث تصل كثافته إلى (٧٨٧٤ كم/٣)، وهذا يفيد الأرض في حفظ توازنها، كما يعتبر الحديد الذي يشكل (٣٥٪) من مكونات الأرض، أكثر العناصر مغناطيسية وذلك لحفظ توازنها. [يوسف الحاج (١/ ٢٢٦)].

وتجدر الإشارة كذلك إلى حديث نبوي عن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: الحديد والنار والماء والملح».

وقد أخرج هذا الحديث: الديلمي [مسند الفردوس؛ والسيوطي: جمع الجوامع؛ وابن كثير: الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف؛ والعجلوني: كشف الخفاء؛ والقرطبي: التفسير].

وعلى الرغم من صحة متن هذا الحديث في ضوء المكتشفات العلمية الحديثة، إلا أن علماء الحديث قد حكموا عليه بالوضع، لأن فيه سيف بن محمد بن أخت سفيان



الثوري، الذي عدوه من الكذابين الوضاعين للحديث، ومن أولئك العلماء: ابن الجوزي، والإمام أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وأبو داود وزكريا الساجي، والنسائي، والدارقطني.

وجاء في حديث آخر فيه: أن الملائكة عندما عجبت من شدة الجبال، فقالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: «نعم، الحديد...» [الترمذي (٣٣٦٦)؛ أحمد (١٢٢٥٣)، ضعفه محققو الموسوعة الحديثية، وخرجه].

الثاني والأربعون: الصورة التي أذهلت العالم:

تقول الدكتورة أميرة الشنواني -دكتوراه في العلوم السياسية- في صحيفة الأهرام المصرية (٢/٣/٢٠٠٤م) ما خلاصته:

(... وبينما كنت أشاهد برنامج (صباح الخير يا مصر)، رأيت الإعلامي المتميز تامر أمين يطلعنا على صورة وخبر في إحدى الصحف، نقلاً عن بعض وكالات الأنباء، قائلاً: (إن علماء الفضاء يقولون إن الكرة الأرضية عندما تلتقط لها صور من الفضاء دائماً تبدو في ظلام دامس، أو كأنها مجموعة من الصخور المظلمة، ولكن في آخر رحلة فضائية أطلقت فيها وكالة الفضاء الأمريكية قمرها الاصطناعي، ظهرت الأرض كالمعتاد كلها ظلمة، ما عدا بقعتين اثنتين ظهرتتا مضيئتين بنور ساطع واضح، وهما الكعبة والمسجد النبوي!!) [وانظر: عرس، م. عبد الوهاب، مقال بعنوان: (نور الحق)، جريدة الجمهورية، بعددها الصادر يوم الخميس (١١/٣/٢٠٠٤م)؛ و: د. السيد فتحي عبد الشافي وسعد المنسوب محمد الشيخ: الحقائق العلمية المعاصرة عن الإنسان والكون في القرآن الكريم، (ص ٣٠٩-٣١٩)].

يقول الأستاذ الشيخ محمد عبد الجواد محمد [في مقال له بمجلة المجاهد، عدد (٢٨٧)، ربيع أول ١٤٢٥هـ/ مايو ٢٠٠٤م]: (إن هذه الصورة... هي تفسير علمي محسوس، وتصديق



لكل ما ذكره القرآن الكريم عن الإسلام والقرآن والنبى ﷺ، وهو أن كل واحد من الثلاثة نور، بل تصحيح لفهمنا لمعنى النور كلما أطلق على الإسلام والقرآن وصاحب الرسالة ﷺ، فكنا نقره بأنه نور معنوي وليس محسوسًا تسجله الكاميرات وتشاهده العين.. فإذا بوكالة ناسا تكشف لنا أن أنوارهم حقيقية محسوسة تصورها كاميرات وكالة الفضاء الأمريكية ناسا). [انظر: الحقائق العلمية...: عبد الشافي والشيخ، (ص ٣١١-٣١٢)]. والحمد لله تعالى.

الثالث والأربعون: إعجاز القرآن في وصف ظلمات البحار العميقة وأماجها الداخلية؛

قال الله تعالى: ﴿أَوَظَلُمْتُمْ فِي بَحْرِ لَيْلِي بِغَشْنِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِبرْهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٤٠).

لقد اكتشف العلم التجريبي خلال القرون الثلاثة الماضية، وبعد توفر الأجهزة الدقيقة، وبتضافر جهود أعداد كبيرة من الباحثين وعلماء البحار، الحقائق التالية: وجود ظلمات في البحار العميقة، ووجود أمواج داخلية فيها مخالفة للأمواج السطحية، وأن هذه الظلمات مترابطة بعضها فوق بعض، حيث تزداد بالتدرج مع زيادة العمق حتى تنعدم الرؤية تمامًا، وهذا ما قررته الآية المذكورة [النور: ٤٠].

لقد ذكر القرآن الكريم معلومات دقيقة عن وجود ظلمات في البحار العميقة، وأشار إلى سبب تكوينها، ووصفها بأن بعضها فوق بعض، ولم يتمكن الإنسان من معرفة هذه الظلمات إلا بعد عام (١٩٣٠م)، وأخبر القرآن عن وجود موج داخلي في البحار لم يعرفه الإنسان إلا بعد عام (١٩٠٠م)، كما أخبر بأن هذا الموج الداخلي يغطي البحر العميق، الأمر الذي لم يعرف إلا بعد صناعة الغواصات بعد الثلاثينيات من القرن العشرين؛ كما أخبر القرآن عن دور الموج السطحي، والموج الداخلي في تكوين ظلمات البحار العميقة، وهو



أمر لم يعرف إلا بعد تقدم العلم في القرون الأخيرة، كما أن الأسماك في تلك الأعماق السحيقة ليس لها عيون، بل مجهزة بأعضاء منيرة خلقها الله تعالى في جسمها ينير طريقها!!

من أخبر محمدًا ﷺ بهذه الأسرار في أعماق البحار في وقت كانت وسائل البحث العلمي التجريبي فيه معدومة، والخرافة والأسطورة هي الغالبة على سكان الأرض في ذلك الزمان، خاصة في مجال البحار؟! إنه الله ﷻ: ﴿الَّذِي يَعْلَمُ الْسَّرَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]. [الإعجاز العلمي في القرآن والسنة - منهج التدريس الجامعي - أ.د. عبد الله المصلح، ود. عبد الجواد الصاوي، بالاشتراك مع أحد عشر- عالمًا، على رأسهم الشيخ الدكتور عبد المجيد الزنداني، (ص ٢٢٧-٢٢٨)، وانظر التفاصيل في (ص ٢١٦-٢٢٧)، وهي مهمة جدًا. وانظر كذلك: موسوعة الإعجاز العلمي للعلامة يوسف الحاج (١/ ٤٣٩-٤٤٤) بعنوان: (ظلمات البحار، وحركة الأمواج)].

كان البروفسير (شرايدر) [وهو من أكبر علماء البحار بألمانيا الغربية] يقول: (إذا تقدم العلم فلا بد أن يتراجع الدين...)، لكنه عندما سمع معاني آيات القرآن بهت وقال: (إن هذا لا يمكن أن يكون كلام بشر!!). [انظر الموسوعة ليوسف الحاج (١/ ٤٤٤)].

الرابع والأربعون: الإعجاز العلمي في القسم بـ(مواقع النجوم):

قال تعالى: ﴿فَلَا أَفْصَحُ مَوَاقِعَ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَكَسْرٌ لِّتَوَعَّلُمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦].

إن القسم بمواقع النجوم يوجه الانتباه إلى أن المسافات بين النجوم تبلغ حدودًا لا يتصورها الخيال، فمثلًا نجد أن أقرب نجم إلينا في مجرتنا وهي الشمس تبعد عنا بمقدار (٥٠٠) ثانية ضوئية، بينما النجم الذي يليها في القرب يبعد عنا بمقدار أربع سنوات ضوئية تقريبًا، والسنة الضوئية تدل على مدى المسافة التي يقطعها الضوء في



مدة سنة كاملة، علمًا بأن سرعة الضوء تساوي (٣٠٠٠٠٠ كم) في الثانية؛ ثم إن هناك مدلولًا علميًا آخر عن مواقع النجوم، وهو أن موقع الشمس بالغ الدقة في وضعه لكي تستقيم معه الحياة على كوكبنا الأرضي، لأنها لو تقدمت عن موضعها الحالي لاحتُرقت الأرض من شدة حرارتها، ولو تأخرت عن موضعها لبردت الأرض وتجمدت فيها البحار والمحيطات، وتصبح غير صالحة لحياة البشر عليها. [القرآن وإعجازه العلمي: محمد إسماعيل إبراهيم، (ص ٦٢)].

قال مراجع كتاب: (الله يتجلى في عصر العلم: د. محمد جمال الدين الأفندي، (ص ١٦٤)): (... ويحدث علماء الفلك بأن المسافات بين النجوم تبلغ حد الخيال، فإن مجموعات النجوم التي تُكوّن أقرب مجرات السماء منا تبعد عنا بنحو (٧٠٠) ألف سنة ضوئية، والسنة الضوئية تعادل عشرات الملايين من الكيلومترات).

الخامس والأربعون: الإعجاز العلمي الاجتماعي في بيت العنكبوت:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخْتَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤١﴾ [العنكبوت: ٤١].

ما دلالة قوله تعالى: (اتخذت)، بالتأنيث وليس التذكير؟ وما دلالة قوله تعالى: (بيت العنكبوت)، ولم يقل: خيط العنكبوت؟!

جاء في كتاب: (العلوم في القرآن) للدكتورين: محمد جميل الحبال ومقداد مرعي الجوارى [بتصرف من فارس، (ص ٦٥)]: (هنا معجزة، (اتخذت) دلالة على الأنثى، فالأنثى هي التي تصنع البيوت، وتفرز مادة البناء، وفي الآية إعجاز علمي اجتماعي هائل، فأولاً: من ناحية المتانة فقد ثبت أن خيط العنكبوت كخيط من أقوى المواد، بل أقوى من الحديد والألمنيوم كخيط من الناحية العلمية الميكانيكية، وإنما هنا المقصود



بيت العنكبوت: الوهن الاجتماعي، ففي دراسة علم الحشرات وتصرفات وسلوك الحشرات وجدوا أن بيت العنكبوت من أوهن البيوت اجتماعيًا؛ فالأنثى عندما يلقحها الذكر تقوم بقتله!! وعندما تفقس البيوض وتنتج العناكب، تقتل العناكب بعضها البعض، ويحدث الأكل فيما بينها، فهي إشارة إعجازية رائعة على وهن البيت اجتماعيًا، فالذي يتخذ من دون الله تعالى أولياء فهو في وهن اجتماعي شديد كحال سلوك العناكب في محيطها الاجتماعي...).

السادس والأربعون: موت الوليد بن المغيرة وأبي لهب وزوجته أم جميل والعاص بن وائل السهمي على الكفر:

قال الله تعالى عن الوليد: ﴿سَأُخْلِدُ سَقْرًا ۝﴾ [المدثر: ٢٦]. وقال عن أبي لهب: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝﴾ [السد: ٣]. وقال عن أم جميل: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝﴾ في جِدِّهَا حَبْلٌ مِّن مَّسِيٍّ ۝﴾ [السد: ٤-٥]. وقال عن العاص بن وائل: ﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرْنَا بِنَبَاٍ وَقَالَ لَا وَتَيْكَ مَا لَا وَوَلَدًا ۝﴾ [الأنعام: ٧٧]. ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبِ أَمَّا تَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۝﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۝﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝﴾ [مريم: ٧٧-٨٠].

والإعجاز هنا: كان من الممكن أن يدعوا الإسلام نفاقًا، ولكن لم يحدث ذلك، فهااتوا على الكفر!! ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٨٥]؛ ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۝﴾ [يوسف: ١١١]؛ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [الجاثية: ٦]؛ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ۝﴾ [النساء: ٨٦].

ومع وجود الآلاف من مثل هذه المعجزة البينة لم تخل حتى مجتمعات المسلمين من الكفر والنفاق، وصدق الله تعالى القائل: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝﴾ [الأنعام: ٧].



السابع والأربعون: التفسير العلمي لقوله: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَنُفِثَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ (ص: ٣٣):

لقد فُسرَت هذه الآية قديمًا بأن النبي ﷺ عندما عُرِضَت عليه الخيل في وقت صلاة العصر، شغلته وألهته عن الصلاة، فتملكه الغضب، وأخذ يقطع سيقان هذه الخيول وأعناقها بالسيف، وينافي هذا التفسير ما جاء في الآية من أن سليمان ﷺ كان نعم العبد الأواب، فكيف يصدر عن نبي أثنى عليه القرآن الكريم هذا الشئ أن يكون قاسيًا إلى حد قتل الخيول البريئة التي هي عدة المؤمنين في قتال أعداء الدين والذود عن حياض الأوطان بغير ذنب جنته، وقد فُسرَت الآيات بعد ذلك تفسيرًا معقولًا أقرب إلى الواقع المفهوم، وهو أن سليمان ﷺ عُرِضَت عليه بعد الظهر الخيل الأصيل التي تسكن حين وقوفها وتسرع حين سيرها، فقال سليمان ﷺ: إني أُشربت حب الخيل لأنها عدة الخير، وهو الجهاد في سبيل الله، وأن حبها نشأ عن ذكري لربي، وما زال مشغولًا بعرضها حتى غابت عن ناظريه؛ ثم إنه أمر بردها عليه ليتعرف على أحوالها، فأخذ يمسح سوقها وأعناقها ترفقًا بها وحبًا لها واستئناسًا لها.

وبعد أن تقدم العلم كثيرًا نجد أن الإنسان قد توصل في مجال الطب البيطري إلى أن ما فعله سليمان ﷺ كان هو الأسلوب الأمثل في معاملة الحيوانات، واستئناسها، بإدخال الطمأنينة والهدوء عليها، بأن يربت على رؤوسها ورقابها وظهورها عندما يريد فحصها أو استخدامها، ومن ذلك يتضح ما بين التفسيرين من فرق شاسع. [القرآن وإعجازه العلمي: محمد إسماعيل إبراهيم، (ص ٤٥-٤٦)].

الثامن والأربعون: توسط مكة لليابسة:

يقول الأستاذ: محمد حسين يوسف [في كتابه: الإعجاز العلمي في أسرار القرآن الكريم والسنة النبوية (١/ ١٩٧-١٩٨)]: (أما عن توسط مكة لليابسة فقد أشار إلى ذلك العلم



الحديث على يد البروفسور: حسين كمال الدين، أستاذ المساحة بجامعة القاهرة رحمته، حيث يبين أن زاوية الانحراف المغناطيسي عند مكة تساوي صفراً؛ ولذا فإن خط الطول الأساس المار بمكة هو خط مستقيم؛ في حين أن خط جرينتش خط مائل منحنى، وعنده تكون زاوية الانحراف المغناطيسي كبيرة، ولو استبدل خط جرينتش بخط مكة لاستقام مقياس الزمن العالمي، وبعبارة أخرى: لو اختير خط الطول الأساس المار بمكة المكرمة، ورسمت خطوط الطول الأخرى موازية له، لانتظم شكل الخرائط.

وخلاصة القول:.... ولا يستطيع أحد أن يفسر لماذا لا يوجد انحراف مغناطيسي كبير في خط طول مكة، علماً بأنه موجود مثل الخطوط الأخرى، ولكن هي آية من آيات الله العلي القدير، وكرامة من كرامات هذا المكان لتشهد على أنه بيت الله تعالى القديم).

التاسع والأربعون: اتساع الكون:

في أواخر الستينات اكتشف (هابل) أن الكون يتسع ويتباعد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] مما حير (أينشتاين) الذي وضع نظرية ثبوت الكون، وجعله يزور (هابل) في مرصده ليرى هذا الكشف المذهل، ولو قرءوا تفسير ابن زيد لهذه الآية، وجدوا أنه يصل إلى طرف من هذا الكشف.

ومما يجدر ذكره القول: إن استخدام اسم الفاعل (لموسعون) يفيد الاستمرار، ويعني أننا وسعنا السماء ونوسعها وسنوسعها، ولو أردت أن تتحقق من توسع الكون، فانظر إلى السماء في يوم مظلم لترى الكم الهائل من النجوم في هذا الكون. [يوسف الحاج: سبق ذكره (١/ ٣٢١)].

الخمسون: ذكر السمع قبل البصر في آيات خلق الإنسان في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

عظم الله تعالى حاستي السمع والبصر عندما وصف ذاته العلية في أول سورة الإسراء، فقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١)، وقد خص الله تعالى هاتين الحاستين بالذكر



في العديد من الآيات لأنها أدوات التلقي والإيمان وقبول الهداية، وقد جاء ذكر السمع قبل البصر في كثير من الآيات، ولكن في حالة سلب النعمة يوم الحساب كما قال علماء الدين: (يأتي ذكر البصر مقدماً على السمع)، ومن هذا المنطلق بدأت فكرة البحث في مراحل النمو الجنيني، ولأن خلق السمع والبصر مقام إنشاء فقد توقعت [الكاتبة البروف: سوسن أحمد عبد الرحمن، أستاذ علم التشريح والأجنة، كلية الطب، جامعة عين شمس، مصر]، أن يرد ذكر السمع قبل البصر في آيات الخلق، وفعلاً جاء خلق السمع والبصر في خمس سور في القرآن الكريم: [النحل: ٧٨؛ المؤمنون: ٧٨، السجدة: ٧-٩؛ الملك: ٢٣؛ الإنسان: ٢]، وكلها جاء فيها ذكر السمع قبل البصر، وكذلك في الحديث الصحيح جاء ذكر السمع قبل البصر.

قال حذيفة بن أسد الغفاري: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا مرَّ بالنطفة ثنيان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً، فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها...» [مسلم (٢٦٤٥)].

وبالبحث في مراجع علم الأجنة وجدنا أن المسميات التي وضعها العلماء الغربيون في القرن العشرين ترجمتها الحرفية، هي ما جاء في الحديث الصحيح منذ أكثر من (١٤٠٠) سنة، فقد جاءت كلمة (شق) في رواية الإمام مسلم المذكورة: [٢٦٤٥] (خلق). أما شق السمع ففي رواية: عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن: «سجد وجهي لمن خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته، فتبارك الله أحسن الخالقين» [الترمذي (٣٤٢٥) - صحيح؛ أحمد (٢٤٠٢٢) - صحيح؛ الحاكم (٢٢٠/١) - صحيح] فكلمة شق سمعه وبصره فائقة الإعجاز؛ لأن شق البصر يوجد في الأنبوبة العصبية قبل إطلاقها، ثم تبرز من الشق حويصلة البصر، أما شق السمع فإن الأذن الخارجية تتكون حول شق في العنق يسمى الشق الأول، ثم تنمو لأعلى حتى



تخاذي العينين، أما تصوير الوجه وتعديل وضع العينين فجاء مصداقاً للحديث الشريف بعد اليوم الثاني والأربعين لكي تتضح معالم الآدمية ويتم نمو جهاز السمع [الأذن الخارجية وتتعظم العظيـمات الثلاث الموجودة في الأذن الوسطى] المطرقة والسندان والركاب]، وتتعظم قوقعة الأذن الداخلية فتصبح كلها مثل عظام الشخص البالغ، وكذلك تتم إحاطة ألياف السمع العصبية إحاطة تامة بغمد الميلين في الحياة الجنينية، لأن الجنين في ظلمات ثلاثة: ظلمة جدار البطن وجدار الرحم والأغشية المحيطة بالجنين - المشيمة.

ويكون الوليد ضعيف البصر، ولا يتم نمو البقعة الصفراء المسؤولة عن الإبصار المركزي إلا في وجود الضوء، وتحاط ألياف العصب البصري إحاطة تامة بغمد الميلين بعد ثلاثة أو أربعة شهور من الولادة، وتزيد شدة الإبصار تدريجياً حتى تصل إلى خمس إبصار البالغ في ستة شهور، ولكن حاسة السمع تسود على حاسة البصر حتى هذا العمر، أما ما يترتب على حاسة السمع فهو الكلام؛ لأن السمع نوع من الإحساس يتم تحويله إلى لغة قبل أن يتم تخزينها في المخ؛ ولذلك فإن الطفل الذي لا يسمع لا يتكلم أبداً، أما من يتكلم بلسان الأم فمن السهل عليه بحاسة السمع أن يحاكي لغات أخرى وبدون أن يعلم كيف تكتب هذه اللغات.

الواحد والخمسون: الإعجاز العلمي في الإشارة إلى (الأغشية حول الجنين): الظلمات الثلاث؛

قال الله ﷻ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦].

يقول علم الأجنة الحديث: إن الجنين في بطن أمه يكون محاطاً بثلاثة أغشية صماء لا ينفذ منها الماء ولا الضوء ولا الحرارة، وهي الأغشية التي تعرف باسم المنبرية



والأميونية، والخوربونية؛ هذا الغشاء الذي لا ينفذ منه الضوء والحرارة ولا الماء، ألا يسمى باللغة العربية ظلمة؟! وقالوا بتعبير يفهمه العوام: هي: ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة!!.

الثاني والخمسون: الإعجاز العلمي في الإشارة القرآنية إلى حقيقة نقصان الأرض من أطرافها:

قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٤١﴾ [الرعد: ٤١]. وقال: ﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ٤٢﴾ [الأنبياء: ٤٤].

نلاحظ أن الآية التي تبدأ بـ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ تلفت نظرنا إلى أن الإنسان في يوم من الأيام بعد أن تتقدم العلوم وتتقدم الاكتشافات التكنولوجية، سوف يرى الأرض رأي العين من الفضاء، وفي هذا الوقت سوف يتأكد من وصف الأرض الذي ذكرته الآية، وهكذا تجربنا الآية القرآنية بوصف دقيق لشكل الأرض، ثم تجربنا أيضًا بأن الإنسان في يوم من الأيام سوف يرى ذلك بعينه من الفضاء!!

ويمكن إجمال آراء العلماء في تفسير ظاهرة إنقاص الأرض من أطرافها على النحو التالي:

- ١ - أن الأرض تنكمش بسبب هروب ملايين الأطنان من الغازات والأبخرة والمواد السائلة والصلبة من فوهات البراكين، مما يؤدي إلى إنقاص الأرض من أطرافها.
- ٢ - نتيجة دوران الأرض حول محورها؛ فقد انبعجت قليلاً عند خط الاستواء، وتفلطحت قليلاً عند القطبين حتى أصبح الفرق بين القطر القطبي والقطر الاستوائي للأرض هو (٤٢ كم)، وهذا إنقاص للأرض من أطرافها؛ وهذا الرأي هو ما ذكره



أصحاب التعليق العلمي في تفسير المنتخب، (ص ٣٦١، ٤٧٩) [المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية: المنتخب في تفسير القرآن، (ط١٨ / ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م)].

٣- تأكل عوامل التعرية من قمم الجبال، وتلقي بها في المنخفضات، وهذا إنقاص للأرض من أطرافها.

٤- إن في طغيان البحار على اليابسة إنقاص للأرض من أطرافها. [د. السيد فتحي عبد الشافي والأستاذ سعد المنسوب محمد الشيخ: الحقائق العلمية المعاصرة عن الإنسان والكون في القرآن الكريم، (ص ١٨٠-١٨١). وانظر: آراء المفسرين القدامى في تفسير الآيتين؛ ومن المحدثين صاحب الظلال...].

الثالث والخمسون: الإعجاز العلمي في الإشارة القرآنية إلى البرازخ المرئية وغير المرئية بين مياه الأنهار ومياه البحار والمحيطات:

يقول الله ﷻ: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَنْتَهِمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠]؛ و: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان: ٥٣]؛ و﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١].

يقول الأستاذ حسن يوسف، في كتابه: العلم يقول: القرآن هو الحق [ص ٥٠]: (قد أثبت العلم الحديث بالعديد من القياسات والاستشعار عن بعد بالأقمار الصناعية، اكتشاف كتل جبلية على هيئة سلاسل في قيعان البحار والمحيطات، تسمى (الجبال البحرية)، وهذه الجبال توجد في الحد الفاصل بين البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي عند مضيق جبل طارق، كما توجد أيضًا سلسلة من الجبال بين شمالي الأطلنطي وجنوبه، وذلك في صورة حزامين عرضيين من الجبال، يفصلان بين أمريكا الجنوبية من جهة الجنوب، وبين كندا وأوروبا من جهة الشمال، كما توجد سلسلة أخرى بين



البحرين الأبيض والأسود. وجميع هذه السلاسل الجبلية تساعد بدرجة معينة على ألا يطغى ماء البحرين على الآخر).

والعامل الآخر: اختلاف خصائص كل من مياه البحرين عن الآخر، من حيث درجة الملوحة والحرارة ومقدار الكثافة، وأنواع الأحياء المائية فيه، وقابلية ذوبان الأكسجين في مياهه، وغير ذلك من الخصائص الأخرى، وجميعها تقوم بدورها كبرزخ وحاجز غير مرئي بين البحرين يمنع طغيان أحدهما على الآخر.

((والحجر المحجور): مكان تنزل به مياه الأنهار، فحجرها الله ﷻ على البحر، وجعلها شيئاً منفصلاً تماماً عن البحر، أي مكاناً معزولاً حسب قوة اندفاع مياه النهر، وسمي علمياً: (عصب النهر)، أو: (مصببات الأنهار).

والمحجور: أي محجور على حياة أسماك خاصة لا تعيش في مياه البحار، ولا تعيش في مياه الأنهار، فهي محجورة في منطقة مصب الأنهار، وهذا الحجر المحجور أو منطقة (مصب الأنهار)، هي المنطقة الفاصلة أيضاً بين نهاية مجرى النهر والحاجز الذي وضعه الله ﷻ خلف الحجر المحجور الذي يفصل بين مياه النهر والبحر). [ماهر أحمد صوفي: آيات الله في البحار، دار البيان، (١٩٩٦م)، (ص ٦٦)].

(ومن أمثلة هذه الظاهرة البحرية عيون الماء العذب التي تفيض قرب البحرين وقطر) داخل مياه الخليج العربي المالحة، ونهر النيل الذي يصب في البحر الأبيض المتوسط، ومياه نهر الأمازون الذي يصب في المحيط الأطلنطي، وكذلك يوجد هذا (برزخ) عند ملتقى نهر الكنجو الجامونة في مدينة (الله آباد). [د. أحمد فؤاد باشا: الإسلام والعولمة - مفاهيم وقضايا، كتاب الجمهورية عدد (يوليو ٢٠٠٠م)، (ص ١٢٢)].

ويضيف د. زغلول النجار بوجود هذه الظاهرة عند مصبي دمياط ورشيد بمصر، وفي دولة البحرين [كتابه: من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، (ص ٢١) وما



بعدها]. وانظر كذلك تفاصيل كلامه عند د. عبد الشافي والمنسوب [سبق ذكره، (ص ٢٢٥) وما بعدها].

الرابع والخمسون: الإعجاز العلمي في الإشارة إلى منازل القمر:

قال المولى رحمه الله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٣٩].

فالمنازل المشار إليها هنا: فأول ما يبدو القمر صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يكون بدرًا، ثم يتناقص حتى يرجع إلى حالته في تمام شهر في شكل العرجون القديم، سباطة النخلة إذا شاخت ويبست واعوجت، لتشبه الهلال الذي ينتهي إليه القمر.

﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، منازل القمر: أوضاعه المختلفة بالنسبة للأرض والشمس، وهي التي تنتج منها أوجه القمر، ومن ثم يمكن تحديد الشهر القمري، وهو العلامة الفلكية الظاهرة لتحديد الشهر، ويتم القمر دورته حول الأرض في (٢٩) يومًا، و(١٢) ساعة، و(٤٤) دقيقة، و(٢.٨) ثانية [المنتخب، (ص ٢٨٥)].

ويقصد بـ (وقدره منازل): جعله ينزل كل ليلة منزلًا من النجوم، وهي (٢٨) منزلًا كل شهر، وتسمى هذه المنازل (البروج).

فبالشمس تعرف الأيام، وبدوران القمر تعرف الشهور والأعوام، وبهذا يعرف الإنسان الأعوام والشهور والأيام. [د. السيد الجميلي: الإعجاز العلمي في القرآن، (ص ٢٠)].

وقد انتهت بحوث الفلكيين إلى أن القمر أول الشهر يكون (المحاق) لانمحاق نوره واختفائه، ثم بعد سبعة أيام يصير إلى (الربيع الأول)، ثم يصير (بدرًا) وسط الشهر، ثم يتحول إلى (الربيع الثاني) بعد الأسبوع الثالث، ثم يكون في المحاق آخر الشهر، وهكذا دواليك. [نفسه، (ص ١٩)].



أما الحديث عن تفاصيل هذه المنازل، فليرجع إليها عند: د. محمد أحمد سليمان [سياحة فضائية في آفاق علم الفلك، (ص ٥١-٥٢)]، كما نقلها عنه د. عبد الشافي والمنسوب [الحقائق العلمية المعاصرة، (ص ٢٤١-٢٤٢)].

الخامس والخمسون: الإعجاز العلمي في: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ﴾ [١] الطارق: ١؛

يقول الأستاذ حسن يوسف [العلم يقول: القرآن هو الحق: (ص ١٢)]: (يقول علماء الفلك وعلماء الفيزياء الكونية: إن هناك نوعًا من النجوم تمر بمرحلة من عمرها تتكدس فيها المادة، وتتعاذل فيها الشحنات الكهربائية، بحيث لا يوجد بها شحنات موجبة أو سالبة.. وتحدث هذه النجوم نبضات تشبه نبضات القلب، وقد سماها العلماء من أجل ذلك: (النجوم النابضة). وهذه الأصوات التي تحدثها هذه النجوم هي أقرب ما تكون إلى أصوات الطرقات على الأبواب، وقد سجل العلماء أخيرًا هذه الطرقات لهذه النجوم، وهكذا نرى دقة التسمية، عندما سمي القرآن هذا النجم بأنه النجم الطارق، هذا السر الغريب من أسرار هذا الكون العجيب). [وانظر تفصيل هذه الظاهرة عند: د. زغلول: من آيات الإعجاز في القرآن الكريم، (ص ٥٥)؛ ونقل ذلك عنه: د. عبد الشافي والمنسوب: الحقائق العلمية المعاصرة...، (ص ٢٦٣-٢٦٥)] وكما قال د. زغلول: (فإن [سماع أصوات للنجم مسجلة على (CD)، وهي وثيقة علمية معترف بها] سماع صوتين: صوت يشبه نبضات القلب، وصوت يشبه الطرق بسرعة على الباب، فالطرق على الباب حينما يكون قريبًا منا، وكلما يبتعد يقل فيشبه نبضات القلب، طرق يتسارع، كالطرق على الباب، سجل في ناسا). [نفسه].

السادس والخمسون: الإعجاز العلمي في: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [٢]؛

قال المولى رحمه الله: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ﴾ [١] وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ [٢] النَّجْمُ الثَّاقِبُ [٣] [الطارق: ٣-١].



يقول علم الفلك الحديث: (النجوم النيوترونية تزداد كتلتها عن كتلة الشمس بما يقارب (٤.١)، بداية عندما يبدأ النجم بالانهيار على نفسه ينكمش بسرعة ويزيد الضغط على ذرات مواده فتتطم الذرات، ويتكون المائع الإلكتروني، ويزداد سمكه فيبقى عاجزاً عن تحمل الضغط الناتج من ثقل النجم وجاذبيته، وتكون النتيجة أن تُسحق جاذبية النجم (المائع الإلكتروني) كما سحق من قبل قشرة الذرة، ويستمر انهيار العملاق الأحمر على نفسه، فتلتصق الإلكترونات بالبروتينات، ثم تتحد معها مكونة نيوترونات جديدة، وتبدأ طبقات النجم وهي تنهار في التطلع إلى منقذ ينقذها من برائن هذا الوحش المسمى بقوة ثقل النجم والذي يسحق كل ما يجده أمامه؛ وفي النهاية تتحد كل الإلكترونات بالبروتونات، فيصبح النجم عبارة عن نيوترونات منضغطة على بعضها بدون وجود أي فراغ، فتصل كثافة النجم إلى رقم قياسي يصعب تصويره، ويتقلص العملاق الأحمر إلى ما يسمى بالنجم النيوتروني (Pulsars)، فالكُرّة من المادة النيوترونية في حجم كرة القدم يبلغ وزنها خمسين ألف بليون طن، فإذا وضعت هذه الكرة على الأرض أو على أي جرم سماوي آخر فلن يتحمل سطحه هذا الوزن الهائل، فتسقط الكرة خلال الأرض أو خلال الجرم السماوي تاركاً وراءه ثقباً يتناسب مع حجمه...). [يوسف الحاج: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، (ص ٣٣٢-٣٣٣)؛ وانظر تفاصيل أخرى (ص ٣٣٣-٣٣٤)، ومرجعه: د. يحيى المحجري: آيات قرآنية في مشكاة العلم].

السابع والخمسون: الإعجاز العلمي في الإشارة إلى انشقاق السماء كالوردة الحمراء المدهنت:

قال الله ﷻ: ﴿فَإِذَا أُنشِقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (الرحمن: ٣٧). [٣٧].



فسر المفسرون القدامى والمحدثون أن هذا المشهد سيحدث يوم القيامة من شدة الهول، ولكن الدكتور زغلول النجار [من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، (ص ٦٥-٦٦)] ساق حقيقة حدثت بالفعل تمثل هذا المشهد الكوني البديع، فيقول: (ولكن من رحمة الله تعالى بنا أنه أبقى لنا من الشواهد الحسية والظواهر المرئية في صفحة الكون ما يؤكد على إمكانية حدوث كل ما أخبر عنه في كتابه الخاتم عن مظاهر الآخرة، ومنها تصدع السماء وانشقاقها حتى تصير وردة كالدهان.

ومن أمثلة ذلك: ما أرسله إلينا تليسكوب هابل الفضائي من صور لعدد من النجوم عند انفجارها؛ ففي (٣١/ أكتوبر/ ١٩٩٩م) قامت مؤسسة الفضاء الأمريكية ناسا بنشر عدد من الصور التي بثها هذا التليسكوب الفضائي لنجوم في مرحلة الانفجار في سديم يعرف باسم (سديم عين القط)، وهذه النجوم على مسافة منا تقدر بحوالي ثلاثة آلاف من السنين الضوئية، وكل نجم من تلك النجوم المنفجرة يبدو في الصورة على هيئة وردة حمراء عملاقة، لها من صفاء اللون ما جعل العلماء يصفونها بالتعبير الذي ترجمته (وردة حمراء مدهنة)، وكأنه التعبير القرآني بدقته اللفظية والدلالية).

الثامن والخمسون: المؤيدات العلمية المادية المحسوسة على وجود أحياء على الكواكب الأخرى؛

قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِنَّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩].

يقول الدكتور السيد الجميلي في كتابته [الإعجاز العلمي في القرآن، (ص ٩٤)]: (إن هناك اتفاق بين العلماء على ما يؤكد وجود حياة على المريخ والزهرة، وذلك لأنها يحتويان على ذرات النيتروجين والكربون التي تعد هي أصل الحياة.

وقد اتفقت آراء العلماء على أن المريخ والزهرة هما أكثر الكواكب ملائمة ومواءمة ومناسبة للحياة، وهذا أمر مجمع عليه من غير نكير....)، ويسرد الأستاذ عبد الرزاق



نوفل في كتابه [الله والعلم الحديث، (ص ٢١٢) وما بعدها] عدة أحداث حدثت على الأرض تؤكد على وجود أحياء على الكواكب العلوية الأخرى، وأهمها السفن الفضائية الغريبة، والأطباق الطائرة، والأجهزة التكنولوجية المتقدمة جدًا، والتي تهبط على الأرض، والتي تتكون من عناصر معدنية يستحيل وجودها على الأرض في صورتها التي عليها مثل الكوبالت الخالص، فيقول تحت عنوان (سكني الكواكب): أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع، إلى أن في السماء أحياء عقلاء يسبحون له، وأن القرآن الكريم هو أول كتاب تعرض لوجود أو وصل إلى شواهد وأدلة تعتبر فتحًا جديدًا في العلم الحديث.

جاء في كتاب للميجور (دونالد كيهو)، القومندان في سلاح البحرية الأمريكية، أنه في (٣٠/٦/١٩٠٨م)، حدث في وسط سيبيريا أن سقط ما سمي في ذلك الوقت، شهابًا جبارًا، وقد بلغ الدمار الذي أحدثه، أنه اعتبر من أعظم الكوارث الطبيعية التي حلت بكوكبنا، وقد أثبت عالم روسي هو البروف (ليابونوف) عام (١٩٥٣م)، أي: بعد دراسة (٤٥) عام، أن ذلك الحدث لم يكن جرمًا سماويًا إطلاقًا، وإنما سفينة كوكبية آتية من كوكب الزهرة، وأن من مات من الأهالي بسبب الحادث كان موتهم بأعراض مرض غامض ينطبق على من يموت بالإشعاع الذري، وأن الحديد الباقي لا يشبه حديد النيازك ولا حديد الأرض إطلاقًا.

وفي ربيع (١٩٥٣م) وجد في (كونكتكت) الأمريكية كرة معدنية غريبة قطرها متر، وفي داخلها أسطوانة تدور بسرعة كبيرة، وقد نقلت هذه الكرة الغامضة في الحال إلى المعامل لتحليلها، ونزلت نتيجة التحليل كالصاعقة على علماء الطبيعة والكيمياء، الذين استولى عليهم الذعر والذهول، فقد ثبت أن ذلك المعدن كان من الكوبالت في حالته الطبيعية الخالصة، ليس له وجود على الكرة الأرضية، وكان القرار الذي اتخذ بشأنه وهو أنه من كوكب آخر.



ويقول الفلكيون في الوقت الحاضر: إنه من المؤكد أن هناك ملايين الكواكب مسكونة بمخلوقات ذكية، وقد أبدت هذه النظرية بعض الوقائع التي لوحظت خلال السنوات الثلاث الأخيرة، وأهم هذه الأدلة هو بلا شك الانفجار الغامض الذي حدث في المريخ عام (١٩٤٩م)، وقد لحظ هذه الظاهرة فلكي ياباني مشهور اسمه: (تسوينوساهيكي)، ويرى أن هذا الانفجار قد حدث بوساطة مخلوقات على درجة هائلة من الذكاء، أطلقت من مكانها قذيفة على المريخ للبحث والدراسة والاختبار.

ومما أذيع في (١٥/١/١٩٥٧م) أنه قد تكونت جمعية في مدريد تضم مائة عضو، وتطلق على نفسها جمعية (أصدقاء الزائرين من عالم الفضاء)، وذلك لدراسة الظواهر غير العادية التي تؤكد بأن الأرض يزورها رجال الفضاء، أو على الأقل من كواكب أخرى.

وذكر نوفل شواهد أخرى في هذا المجال في التواريخ التالية: (نوفمبر ١٩٥٤)، (١٧/١/١٩٥٧م)، أوائل عام (١٩٦٤م، ١٩٦٧م، ١٤/٢/١٩٦٩م). [انظره: في المرجع المذكور، ونقله عنه: د. عبد الشافي والأستاذ المنسوب: الحقائق العلمية المعاصرة، (ص ٢٩٢-٢٩٤)].

التاسع والخمسون: الإشارة العلمية الإعجازية في عدم استطاعة الإنسان إنقاذ ما يسلبه الذباب:

قال الله ﷻ: ﴿رَأَيْتُمَا النَّاسَ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَجَمَعُوا لَهُ ۖ إِنَّكَ الْذِّبُّ تَدْعُوتُ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۗ﴾ (٣١) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٣٢﴾ [الحج: ٣١-٣٢].

يقول علم الأحياء الحديث: عن الذباب إذا وقف على أي طعام، بحيث تعلق بأرجله جزيئات منه، فإنه يصب في الحال على هذه الجزيئات عصارات هاضمة



بوساطة خرطوم، فتزيد ما علق بأرجله، ثم يمتصه الذباب، بحيث لا يستطيع أحد أن ينقذ أو أن يسترد ما سلبه الذباب.

معلومة دقيقة في غاية الغرابة، تخبرنا بها الآية القرآنية عن هذه الحشرة الصغيرة، معلومة لم يكن يعلمها أحد في العالم كله وقت نزول القرآن!! [حسين يوسف: العلم يقول: القرآن هو الحق، (ص ٩٧). وانظر: تفاصيل شرح الجهاز الهضمي للذبابة عند د. عبد الحميد محمد عبد العزيز: الإعجاز الطبي في القرآن الكريم، (ص ٨٨-٨٩). نقلاً عن: د. عبد الشافي والمنسوب: الحقائق العلمية المعاصرة، (ص ٢٩٩-٣٠٠)].

الستون: الإعجاز الغيبي في كفاية الله ﷻ نبيه محمد ﷺ المستهزئين:

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

نقف وقفتين عند هذه الآية:

الأولى: ما هي صور الاستهزاء التي مارسها الكفار ضد الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ، خاصة في العهد المكي.

والوقفة الثانية: عند مصير زعماء من المشركين استهزءوا بالرسول ﷺ وأصحابه ﷺ.

الوقفة الأولى: هو ما حكاه القرآن الكريم، كما في الآيات القرآنية الآتية:

١- ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَّا إِنَّهُمْ لَكَايِلٌ إِنَّهُمْ كَانُوا لَمِنَ الْبَاطِلِ﴾ [الأنعام: ٥٣].

٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا

أَنقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المطففين: ٢٩-٣١].

٣- ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ

أَوْ أَفِئْنَا بِعَذَابٍ إِلَيْنَا﴾ [الأنفال: ٣٢].



روى البخاري [ح ٤٦٤٨] أن هذه الآية نزلت في أبي جهل -أحد كبار المستهزئين-.

ومما جاء في أحداث السيرة من صور الاستهزاء:

٤- قول الوليد بن المغيرة -أحد كبار المستهزئين: «أينزل القرآن على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيمي الفريقين؟! -يعني بالقريتين: مكة والطائف». فنزل فيه قول الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

٥- قول أبي جهل، عندما أنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: ٤٥]، تخويفاً للمشركين بها، قال: «يا معشر قريش: هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزبد! والله لئن استمكنا منها، لنتزقمن منها»، وزعم أنه سيطاً رقبة الرسول ﷺ إذا غبر وجهه بين ظهراي قريش -أي: صلى أمامهم-، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿١﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿٢﴾﴾.

وشجرة الزقوم من أخبث الشجر المربتهامة، نبتها في الجحيم، وطعام الأثيم: أي طعام ذوي الإثم الكبير أمثال أبي جهل وزمرته من المستهزئين.

٦- أما عن الاستهزاء الجماعي [فانظر: المطففين: ٢٩-٣١؛ والأنعام: ٥٢، ١٠].

٧- وضع عقبة بن أبي معيط -من كبار المستهزئين- سلا جزور بين كتفي الرسول ﷺ وهو ساجد في صلاته، وشيعته يتهايلون بعضهم على بعض ويضحكون، فلما قضى صلاته دعا عليهم، يقول ابن مسعود رضي الله عنه -راوي الخبر-: «فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحق، لقد رأيت الذين سمى، صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر» [البخاري (٢٩٣٤)؛ مسلم (١٧٩٤)].



٨- وكان أبو الأصداء، أو ابن الأصداء، يقول للرسول ﷺ: إنا يعلمك أهل الكتاب أساطيرهم؛ ويقول للناس: هو مُعَلَّمٌ مجنون. [البلاذري: أنساب الأشراف (١/ ١٥٠)].

٩- كان الأسود بن عبد يغوث الزهري -أحد كبار المستهزين- إذا رأى المسلمين قال لشذمته: «قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر»، ويقول للنبي ﷺ: «أما كُلمت اليوم من السماء يا محمد!!» [نفسه].

١٠- وللعاص بن وائل -أحد كبار المستهزين- قصة مشهورة مع خباب رضي الله عنه، يقول خباب: «كنت قيناً [أي: حداذاً] بمكة، فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفاً، فجئت أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يملكك الله ثم يحبك، قال: إذا أماتني الله ثم بعثني ولي مال وولد فسأقضيك، فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَدًا ۚ ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۚ ﴿٧٨﴾﴾» [مریم: ٧٧-٧٨] - [البخاري (٤٧٣٣)؛ مسلم (٢٧٩٥)].

١١- وكان الحارث بن عيطلة يقول مستهزئاً بالبعث: «لقد غر محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومروور الأيام والأحداث». وفيه نزلت الآية: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوْنَهُ﴾.

١٢- عتبة بن أبي لهب، من سفهاء المستهزين:

روى البيهقي [الدلائل (١٩٦/٢)]، وأبو نعيم [الدلائل، (ص ٣٨٩ - ٣٩٠)]، وابن عساكر [التاريخ (٦٥/١١)]، وابن كثير [التاريخ (٤٢١/٧)] قصة استهزائه، فقالوا: (وكان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام، وتجهز معهما هبار بن الأسود، فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمد فلاؤدینه في ربه، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد: أنا أكفر بالذي دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى؛ فقال ﷺ: «اللهم سلط



عليه كلبًا من كلابك»، وأبو طالب حاضر، فوجم منها، وقال: «ما أغناك عن دعوة ابن أخي»، ثم انصرف عنه، فرجع إلى أبيه، فقال له: أي بُني، ما قلت له؟ قال: كفرت بالآله الذي يعبد، قال: فما قال لك؟ قال: قال: «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك». فقال أبو لهب: أي بني، والله ما آمن عليك دعوة محمد. وخرجوا إلى الشام، قال هبار: فسرنا حتى نزلنا الشراة، وهي مأسدة [أي مكان أسود]، فنزلنا إلى صومعة راهب، فقال: يا معشر العرب، ما أنزلكم هذه البلاد، وإنما مسرح الضيغم؟ [أي: الأسود]. فقال لنا أبو لهب: يا معشر قريش إنكم قد عرفتم كبر سني وحقي. فقلنا: أجل يا أبا لهب، فقال: إن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة، والله ما آمنها عليه، فأجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، وأفرشوا لابني عليها، ثم افرشوا حولها، ففعلنا، فجاء الأسد، فشم وجوهنا، فلما لم يجد ما يريد، تقبض، ثم وثب، فإذا هو فوق المتاع، فشم وجهه، ثم هزمه هزيمة، ففضخ رأسه، فقال: سيفي يا كلب (قتلني)، فلم يقدر على غير ذلك (ومات مكانه)، ووثبنا، فانطلق الأسد، وقد فضخ رأسه، فقال أبو لهب: قد عرفت والله ما كان لينفلت من دعوة محمد). [انظر القصة أيضًا محققة في: صحيح السيرة النبوية للشيخ محمد بن رزق طرهوني (٢/ ٢٢٩-٢٣٠)، حاشية (٩٤٠)، (ص ٦٦٥) وما بعدها].

١٣- أبو لهب، عبد العزى بن عبد المطلب عم النبي ﷺ:

وقصصه في إيذاء الرسول ﷺ ومحاولات صد الناس عن دعوته مشهورة، ومما سجله القرآن الكريم: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾... [المسد: ١-٣]؛ وذلك يوم صدع الرسول ﷺ بالدعوة علناً من على جبل الصفا، واجتمع إليه الناس، فقال لهم: «أرايتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟» قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم»، قال أبو لهب: تباً لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟! ثم قام منصرفاً. فنزلت: ﴿تَبَّتْ﴾ [البخاري (٤٩٧١-٤٩٧٢)؛ مسلم (٢٠٨)].



١٤- أم جميل -العوراء، أو أروى- بنت حرب بن أمية، زوجة أبي لهب، وأخت أبي سفيان. حاولت الاعتداء على الرسول ﷺ بحرج، فحماه الله ﷻ منها. [البیهقي: دلائل النبوة (١٩٦/٢)، بإسناد حسن لغيره]، وكانت تحمل الحطب ذي الشوك لتضعه في طريقه، كما حكاها القرآن الكريم: [المسد: ٤].

والوقفه الثانية: عند مصير زعماء المستهزئين:

ولبيان الوعيد الإلهي لنبیه ورسوله محمد ﷺ -أي: كفايته له من المستهزئين-:

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ (٥٠)، نذكر الأمثلة التالية:

روى البيهقي بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنه [الدلائل (٨٥/١)] في قوله ﷺ:

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ (٥٠)، قال: المستهزون هم: الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن عبد المطلب -أبو زمعة، من بني أسد بن عبد العزى-، والحارث بن عيطل السهمي، والعاص بن وائل السهمي، فأتاه جبريل ﷺ، فشكاهم إليه ﷺ، فأراه الوليد أبا عمرو بن المغيرة، فأوماً جبريل ﷺ إلى أبجله [عرق غليظ في اليد أو الرجل إذا قطع نزع حتى الموت، ومثله الأكحل]، فقال ﷺ لجبريل ﷺ: «ما صنعت به؟» قال جبريل ﷺ: «كفيته»، ثم أراه الأسود بن عبد المطلب، فأوماً جبريل إلى عينيه، فقال: «ما صنعت؟ قال: كفيته»، ثم أراه الأسود بن عبد يغوث الزهري، فأوماً جبريل إلى رأسه، فقال ﷺ: «ما صنعت، قال: كفيته»، ثم أراه الحارث بن عيطل السهمي، فأوماً إلى رأسه أو إلى بطنه، فقال ﷺ: «ما صنعت؟ قال: كفيته»، ومربه العاص بن وائل فأوماً إلى أخمصه، فقال: «ما صنعت؟ قال: كفيته».

فأما الوليد بن المغيرة فمر برجل من خزاعة وهو يريش [يبري] نبلاً له، فأصاب أبجله فقطعها. [وفي رواية أن جبريل مر به فأشار إلى جرح بأسفل كعب رجله، كان قد أصابه قبل ذلك بستتين، فانتفض به فقتله].



وأما الأسود بن عبد المطلب فعمي، ومنهم من يقول: نزل تحت سمرة [شجرة طلع] فجعل يقول: يا بني! ألا تدفعون عني؟ قد قتلت. فجعلوا يقولون: ما نرى شيئاً، وجعل يقول: يا بني! ألا تمنعون عني؟ قد هلك، ها هو ذا أظعن بالشوك في عيني، فجعلوا يقولون: ما نرى شيئاً، فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه. [وفي رواية أن جبريل دحى في وجه الأسود بن عبد المطلب ورقة خضراء فعمي]، وفي رواية للبلاذري أنه كلم رسول الله ﷺ بكلام شق عليه، فدعا عليه أن يعمي بصره ويثكل ولده، فذكر العمى، وقتل ولداه زمعة وعقيل يوم بدر [البلاذري: أنساب الأشراف (١/ ١٤٨-١٤٩)]. [وفي رواية بزيادة: مقتل ابنه الحارث أيضاً].

وأما الأسود بن عبد يغوث الزهري، فخرج في رأسه قروح، فمات منها [وهو ابن خال الرسول ﷺ]. [وفي رواية أن الأسود بن عبد يغوث الزهري هذا، مر به جبريل ﷺ، فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات من ذلك]. وقال البلاذري في الأنساب: أنه خرج من أهله فأصابته السموم فاسود وجهه حتى صار حبشياً، فأتى أهله فلم يعرفوه، وأغلقوا دونه الباب، فرجع متلددًا [أي: يتلفت يمينًا وشمالًا تحيرًا] حتى مات عطشًا. وذكر رواية أخرى -أي البلاذري- ويقال إن جبريل أوماً إلى رأسه فضربته الأكلة فأمتخض رأسه قيحًا، ويقال: أوماً إلى بطنه، فاستسقى بطنه، ومات حبناً -أي: بعظم البطن- ويقال: إنه عطش فشرب الماء حتى انشقت بطنه [أنساب الأشراف (١/ ٣١-١٣٢)]. [ورواية فعل جبريل ﷺ ههنا عند: الطبراني والضياء في المختارة، بسند صحيح].

قال الشامي [السبل (٢/ ٦٠٦)]: وروى ابن أبي حاتم والبلاذري بسند صحيح عن عكرمة أن جبريل حنى ظهر الأسود حتى احقوقف صدره، فقال ﷺ: «خالي خالي، فقال جبريل: دعه عنك يا محمد، فقد كفيته». قال الشامي [٢/ ٦٠٦]: (ولا تعارض بين هذه الروايات لاحتمال أن جميعها حصل له).



وأما الحارث بن عطل، ويقال الحارث بن قيس السهمي، وهو ابن العَيْطَلَّة، فأخذه الماء الأصفر في بطنه حتى خرج من فمه فمات منها. [وفي رواية: أن جبريل مر به، فأشار إلى رأسه فتحرك القيح فيه فقتله]. قال الشامي في السبل: (فأكل حوتًا مملوحًا، فلم يزل يشرب عليه الماء حتى انقذ بطنه. ويقال: إنه أصابته الذبحة. وقال بعضهم: امتخض رأسه قيحًا. وأما العاص بن وائل: فبينما هو كذلك يومًا إذ دخل في رأسه شِرقَة [نوع من الشوك] حتى امتلأت منها. فكان هلاكه.

وفي رواية: أن جبريل ﷺ مر به، فأشار إلى أخمص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف، فربض به حماره على نبات خفيف، فدخلت في أخمص رجله منها شوكة فقتلته). وفي رواية البلاذري: (... ركب حمارًا له، ويقال: بغلة بيضاء... وأن رجله انتفخت من هذه الشوكة حتى صارت كعنق البعير، وقال: ويقال: إنه لما ربض به حماره أو بغلته لدغ فمات مكانه!).

أما أبو جهل -عمر بن هشام بن المغيرة المخزومي- فقد كان مصيره القتل كافرًا يوم بدر. [انظر: قصته في أحداث غزوة بدر عند البخاري (٣١٤١)؛ ومسلم (١٧٥٢)؛ وغيرهما]. أما النضر بن الحارث -أحد زعماء المستهزين- الذي كان على رأس وفد كفار قريش إلى المدينة ليأتي من اليهود بأسئلة تعجيزية لتطرح على محمد ﷺ، فقالت لهم يهود: سلوه عن أهل الكهف وذوي القرنين والروح، ولكن الله ﷻ أبطل كيدهم وأنزل قرآنًا في الإجابة عن هذه الأسئلة [انظر: أحمد: الفتح الرباني (١٨/١٩٦-١٩٧)، وإسناده صحيح]. وذهب إلى فارس ليجمع قصص ملوكهم، وجلس يحدث بها، ويقول: إنها أفضل من قصص قرآن محمد [انظر في كتب التفسير: لقمان: ٦؛ القلم: ١٥].

وكان مصيره القتل صبرًا من بين أسرى بدر، لأنهم من مجرمي الحرب [ابن هشام (٣٤٧/٢)، من حديث ابن إسحاق، بإسناد منقطع].



أما أمية بن خلف -أحد كبار المستهزين- الذي أنزل الله ﷻ فيه: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُزْمَةً﴾ [الهمزة: ١] [انظر: التفاسير، والسبل للشامي (٢/ ٦١٢)]، فقد قتل يوم بدر كافراً على يد بلال رضي الله عنه -فقد كان من أشد الناس تعدياً لبلال، لأنه كان سيده حينذاك. [البخاري (٢٣٠)؛ ابن هشام (٢/ ٣٢٩) من حديث ابن إسحاق، بسند حسن].

وأما أبي بن خلف -أحد كبار المستهزين- فقد قتله النبي ﷺ بحربة يوم أحد [ابن هشام (٣/ ١٢٢-١٢٣)]، من حديث ابن إسحاق بسند منقطع؛ ابن كثير: البداية (٤/ ٣٢)، من رواية أبي الأسود عن عروة، ومن رواية الزهري عن ابن المسيب، وكلاهما مرسلًا، ومراسيل ابن المسيب قوية].
وأما عقبة بن أبي معيط، فقد أسر يوم بدر، وأمر النبي ﷺ بضرب عنقه، لأنه كان من مجرمي الحرب [ابن هشام (٢/ ٣٤٧) من حديث ابن إسحاق، بدون إسناد؛ وانظر ما جاء عنه في كتب التفسير: ابن كثير (٦/ ١١٦) حاشية ٥] عند قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿٢٧﴾ يَوَيْلَ لِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانَا خَلِيلًا﴾ ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ ﴿٢٩﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]، [الطبري: التفسير (١٧/ ٤٤٠)، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي].

وأما مصير عتبة بن أبي لهب فقد ذكرناه في قصة استهزائه بالرسول ﷺ والقرآن الكريم.
وأما مصير أبي لهب فقد أهلكه الله بداء العَدَسَةِ [بثرة تخرج بالبدن فتقتل]. وهو مرض كانت العرب تتشاءم به وتفر من ظهر عليه، فلما أصابه هذا الداء تركه أهله حتى مات، ومكث مدة لا يدفن حتى خافوا العار، فحفروا له حفرة فرموه فيها. وفي رواية: أنهم رموا على جثته أحجاراً من السطح فغطته وصارت قبراً له. [انظر الشامي: السبل (٢/ ٦١٠)].
وأما مصير أم جميل، فبينما هي ذات يوم تحمل حزمة من الحطب أعيثها، فقعدت على حجر لتستريح، أتاهها ملك فجذبها من خلفها بالحبل الذي كان في عنقها فخنقها به، فهلكت من ساعتها. [السبل (٢/ ٦١٠)].



الفصل الحادي والثلاثون: المعجزات العلمية في القرآن

وأما مصير أبي الأصداء؛ فقد روي أن الرسول ﷺ دعا عليه، فعندما كان على جبل اجتمعت عليه الأروى [أنثى الوعل] فنطحته حتى قتلتها. [انظر: أنساب الأشراف (١/ ١٥٠)].
ولقد كفى الله ﷻ كل المستهزئين، غير الذين ذكرنا أمثال: عتيب [حفيد الأسود ابن عبد يغوث]؛ وحارث بن زمعة [ابن عم عتيب]؛ والأخنس بن شريق؛ وطعيمة بن عدي، الذي قتل صبراً وهو أسير يوم بدر، لأنه كان من مجرمي الحرب [البخاري ٤٠٧٢]؛ والعاص بن منبه، الذي مات بسم شوكة هو في طريقه إلى الطائف؛ ومنبه بن الحجاج، الذي عمي ثم هلك متألماً؛ وزبير بن أمية، الذي مات موبوءاً. [انظر: أنساب الأشراف (١/ ١٢٤-١٥٦)، فقد ذكر قصص المستهزئين ومصيرهم. تحقيق د. محمد حميد الله].

وحتى الكلاب ردت بطريقتها على من استهزأ بالرسول ﷺ بعد وفاته بقرون، وذلك بدليل القصة التي رواها ابن حجر [في: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٣/ ٢٠٢)]، ونصها: (كان النصراني ينشرون دعائهم بين قبائل المغول طمعاً في تنصيرهم، وقد مهد لهم الطاغية هولاء سبيل ذلك بتأثير من زوجته النصرانية ظفر خاتون.. وفي حفل بمناسبة تنصر أحد أمراء المغول، شتم أحد المتحدثين الرسول ﷺ، فزجر كلب كان مربوطاً وهاج، ثم وثب على الشاتم، فخلصوه منه. فقال بعض الحضور للشاتم: هذا بكلامك في حق محمد ﷺ، فقال: كلا، بل هذا الكلب عزيز النفس، فعندما رأي أشير بيدي ظن أنني أريد ضربه، ثم عاد للاستهزاء والسب المقذع للنبي ﷺ، عندها قطع الكلب رباطه ووثب على عنق المستهزئ، فقلع زوره في الحال، فمات المستهزئ من فوره؛ عندها أسلم نحو أربعين ألفاً من المغول).

وانتقم الله ﷻ كذلك بالذين استهزءوا بسنة الرسول ﷺ، ومثال ذلك ما ذكره ابن خلكان [في وفيات الأعيان (٣/ ٣١٧)]: (... بلغنا أن رجلاً يدعى أبا سلامة، من ناحية بصرى، كان فيه مجون واستهتار، فذكر عنده السواك وما فيه من الفضيلة، فقال:



والله لا أستاذك إلا في المخرج - يعني: دبره - فأخذ سواكاً فوضعه في مخرجه ثم أخرجه، فمكث بعد تسعة أشهر وهو يشكو من ألم في البطن والمخرج، فوضع ولدًا على صفة جردان، له أربعة قوائم ورأسه كرأس السمكة، وله أربعة أنياب بارزة، وذنب طويل، وأربعة أصابع، وله دبر كدبر الأرنب. ولما وضعه صاح ذلك الحيوان ثلاث صيحات، فقامت ابنة ذلك الرجل فرضخت رأس الحيوان الغريب، وعاش ذلك الرجل بعد وضعه له يومين ومات في الثالث، وكان يقول: هذا الحيوان قتلني وقطع أمعائي).

قال ابن كثير [في البداية ١٣ / ٢٦٣]: (وقد شاهد ذلك جماعة من أهل تلك الناحية وخطباء ذلك المكان، ومنهم من رأى ذلك الحيوان حيًا، ومنهم من رآه بعد موته). [وانظر: مجدي الشهاوي: دعوات المظلوم وعجائب قدرة الله في الظالمين؛ والنووي في بستان العارفين، ص ٥١].

ومثال آخر ذكره ابن القيم [في مفتاح السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة (١/ ١٠٦-١٠٧)، تحقيق: عصام الدين سيد الصباطي]، ونصه: (وقال أحمد بن مروان الملايك في كتاب المجالسة له: حدثنا زكريا بن عبد الرحمن البصري. قال: سمعت أحمد بن شعيب يقول: كنا عند بعض المحدثين بالبصرة، فحدثنا بحديث النبي ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العمل رضا بما يصنع» وفي المجلس معنا رجل من المعتزلة فجعل يستهزئ بالحديث، فقال والله لأطرقن غداً نعلي بمسامير فأطأ بها أجنحة الملائكة، ففعل ومشى في النعلين فجفت رجلاه جميعاً، ووقعت فيها الآكلة [داء يأكل الأعضاء] قلت: أخرج هذا الحديث: أبو داود (٣٦٤١، ٣٦٤٢) - وصححه الألباني؛ الترمذي (٢٦٨٣)، وقال: حسن صحيح؛ ابن ماجه (٢٢٣)؛ البيهقي: الأدب (١٠٤٥، ١٠٤٦)، وفي الشعب (١٦٩٦، ١٦٩٧)، حسن - كما قال محققو ترغيب المنذري (ح ١٠٦).

وقال الطبراني: سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجي، قال: كنا نمشي ومعنا رجل ماجن متهم في دينه، فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها، كالمستهزئ، فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط.



ومثال ثالث: أن أعين بن ضبيعة المجاشعي اطلع في هودج عائشة، عليها السلام أيام موقعة الجمل، يريد أن ينظر إليها، وكان من أرباب الفتن، فقالت عليها السلام: «إليك عني لعنك الله»، فقال: والله ما أرى إلا حميراء، فقالت: «هتك الله سترك، وقطع يدك، وأبدى عورتك». فقتل بالبصرة وسلب، وقطعت يده، ورمي عرياناً في خربة من خرابات الأزد. [ابن كثير: البداية ٧ / ٢٤٥].





الفصل الثاني والثلاثون

السيرة النبوية موضع إشادة المستشرقين المنصفين

إن الإشارة إلى شهادات منصفة لعدد من أعلام المستشرقين أو أعلام غير مسلمين، بعظمة النبي محمد ﷺ ورسالته، لم تلجئنا إليها الحاجة أو الضرورة، ولكن لكونها شهادة من أناس ينتمون إلى ملل مخالفة للإسلام ونبي الإسلام، وتعطي بعداً يتمثل في أن ذلك المستشرق أو هذا لو لم ير الحقيقة سافرة يستحيل عليه وأمثاله طمسها، لذا فلا يجد بداً من إبدائها ولو مكرها، على الرغم من أن كتب بعضهم تطفح بالعديد من الدس الصليبي عمدًا، أو بمعلومات غير صحيحة جهلاً أو بسوء فهم أو اغترار بآراء آخرين لهم أهداف وأغراض لا تمت للحقيقة بصلة.

لقد تركز معظم ما اقتبسناه من كتابات هؤلاء الأعلام من غير المسلمين أشادوا بالنبي محمد ﷺ من حيث خلقه العظيم الذي أشاد به الله ﷻ في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الفلم: ٤]، وما دعا إليه من هذه الأخلاق العظيمة وطبقه في حياته من القيم الحضارية، التي قادت بعضهم إلى الاعتراف بسبق وأصالة الإعلان الإسلامي العالمي لحقوق الإنسان على غيره من المواثيق والإعلانات العالمية قديماً وحديثاً، بل قادت بعضهم إلى اعتناق الإسلام والدعوة إليه بحماس يلفت الأنظار، وهي قيم العقلانية في العقيدة والفكر، والقيم الإنسانية التي على رأسها قيمة الرحمة ومعانيها مثل: الشفقة، والعطف، واللطف، والفضل، والتسامح، واللين، والغفران، والعفو، والقيم الأخرى الكثيرة مثل: العدل، والمساواة، والتوازن، والحقانية (حقوق الإنسان)، والمرونة، ونبذ القومية، والعصبية، والعنصرية، والقبلية، والظلم، والفساد الخلقي، والفرقة، والتكبر، والغلو،



والجفاء، وحقوق المرأة، والطفل، والضعفاء، مثل المسنين والمعوقين، والمرضى، وغير المسلمين، والجيران، والأرحام، وكل الكائنات ذات الكبد الرطب، وأسرى الحرب. وأشاد بخصائص الإسلام التي مصدرها القرآن الكريم الذي هو مصدر أخلاق النبي ﷺ، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عندما سئلت عن خلقه: «كان خلقه القرآن». وتصدرت قيمة الرحمة كل القيم، ولا غرابة في ذلك؛ لأن الله تعالى بعثه رحمة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال ﷺ عن نفسه: «أنا الرحمة المهداة». والدليل على ذلك: تكرار مفردة الرحمة و مترادفاتا ومعانيها (٩٧٠) مرة في القرآن الكريم.

أما تكرار هذه القيم في السنة والسيرة النبوية، فهي بلا شك أكبر من هذا العدد بكثير، وسوف تتضح لنا هذه الحقيقة من أقوالهم.

• أقوال الفئة الأولى الذين أسلموا، منهم:

١- أصحاب النجاشي:

الملك الحبشي الذي أسلم في زمان الرسول ﷺ، بعد هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة، وكان من أسباب إسلامه ما علمه من المسلمين عن صدق الرسول ﷺ، وأن ما جاء به لا يختلف عما جاء به عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام.

٢- اللورد هدلي (البريطاني):

الذي تسمى بـ: (الحاج اللورد هدلي الفاروق) (مهندس من أغنى البريطانيين وأعلى حسبا). يقف مندهشاً عند معاملة النبي ﷺ للأسرى من المشركين في معركة بدر الكبرى، ملاحظاً فيها ذروة الأخلاق السمحة والمعاملة الطيبة الكريمة، ثم يتساءل: (أفلا يدل هذا على أن محمداً لم يكن متصفاً بالقسوة ولا متعظشاً للدماء كما يقول خصومه؟ بل كان دائماً يعمل حقن الدماء قدر المستطاع).



٣- محمد أسد (النمساوي):

[سياسي وصحفي ومؤلف]، قضى خمسة أعوام بالحجاز ونجد، وأغلبها بالمدينة المنورة، كان اسمه ليوبولد فايس، له كتابان هامان هما: (الإسلام على مفترق الطرق)، و(الطريق إلى مكة).

وأصدر جريدة شهرية أسماها (عرفات)، يترجم فيها معاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية: يقول عن محمد ﷺ: (... لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير المملوء رحمة، وخيراً، وحناناً، وحكمة، وحجىً، ونهى، وأفكاراً غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه...) ويقول أيضاً عن محمد ﷺ: (ولم يكن متكبراً).

٤- لين بول:

[مستشرق بريطاني]، له (رسالة في تاريخ العرب)، قال فيها: (إن محمداً كان يتصف بكثير من الصفات الحميدة، كاللطف، والشجاعة، ومكارم الأخلاق، فقد كان رسولاً من الله...) إلى أن قال: (إن ما أتصف به محمد من الصبر، واحتمال المكاره، والعفو عند المقدرة، لبرهان لنا واضح على أنه كان صادقاً، إذ يقول كما قال الله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، فمحمد ذو يقين راسخ وقوة عزيمة هائلة).

يذكر فهمي عبدالوهاب في كتابه (محمد رسول الله في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه وكتابه): أن لين بول قد اعتنق الإسلام عام (١٩١٤م)، ويبدو أن مما دعاه لاعتناق الإسلام هو ما ذكرناه من أقواله.

٥- السير جلال الدين لودبرنتون (البريطاني):

[من رجال الدولة وبارون] يقول: إنه درس سيرة الرسول ﷺ فأدرك أنه من المستحيل أن يتطرق الشك إلى حديثه وصدق دعوته إلى الحق وإلى الله، وأنه ناقش العقائد



المسيحية السائدة واحدة تلو الأخرى، فانتهى إلى تعظيم الإسلام، واقتناعه به، وإيمانه بأنه دين الحق، والصدق، واليسر، والتسامح، دين الإخلاص في الحب والأخوة.

٦- يوسف إسلام - سابقاً كان استينفنس - (البريطاني):

[المغني الشهير]. من أسباب اعتناقه الإسلام: عظمة سيرة الرسول ﷺ في كافة جوانب الحياة [الخليبي (ص ١١٥)].

٧- إبراهيم خليل (المصري):

[كان قسيساً ومنصراً قبطياً، درس اللاهوت في جامعة برينستون الأمريكية، له كتاب (بشارات محمد في التوراة والإنجيل)].

من أسباب اعتناقه الإسلام:

أ- عظمة السيرة النبوية في كافة المجالات.

ب- سعة المغفرة والرحمة والعفو في السيرة النبوية [العشي، ص ١٠٧، الخليبي، ص ١٠٥، ١١١].

٨- مريم جميلت:

أمريكية يهودية، أسلمت، وكان من أسباب إسلامها صفة الرحمة للعالمين في كتاب الله ﷻ وسيرة محمد ﷺ وألفت كتاب بعنوان: (Islam Versus AHI - Elkitab، past and present)، ومعناه: موقف الإسلام من أهل الكتاب قديماً وحديثاً. ولها مكاتبات مع الشيخ أبي الأعلى المورودي، فأسلمت على يديه، وتزوجت باكستانياً مسلماً.



● الفئة الثانية: الذين أشادوا برسول الله ورسالته ولم يسلموا

● ٩- آرلونوف:

[باحث وكاتب روسي، كتب عن محمد ﷺ في مجلة الثقافة الروسية، المجلد السابع، العدد التاسع]. أشاد بدور النبي ﷺ في توحيد العرب تحت مدنية وحضارة راقية.

● ١٠- كارلين أرمسترونق:

كاتبة بريطانية وأستاذة في جامعة Baeck للدراسات اليهودية، مؤلفة أفضل كتاب بعنوان: (The Battle for God)، الذي ترجم إلى أكثر من ثلاثين لغة، ولها كتاب عن الإسلام، وكتاب عن بوذا، وكتاب عن سيرة الرسول محمد ﷺ.

قالت: إن محمدًا ﷺ جاء بتوحيد سليم وبسيط، وهو عندها ما فشلت فيه الديانات السابقة، واستأصل جذور العنف عند العرب، وجعلهم مستعدين للانطلاق في مرحلة جديدة من تاريخهم، وإنه كان محبذًا للحوار والصلح مع أعدائه، ولذا قالت متسائلة عن أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر): (كيف يمكن أن نجد علاقة بين ما جرى ومحمد؟).

● ١١- السير توماس أرنولد:

المستشرق البريطاني المشهور، صاحب كتاب الدعوة إلى الإسلام. أشاد بروح الأخوة في الإسلام وتميز نظام الإسلام السياسي، وسماحة الإسلام، وقال: (إن محمدًا يعد نموذجًا للداعية الإسلامي، ومنبع الرحمة) [محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ١٧٥، ١٧٩)].

● ١٢- أندرو وليامز:

المستشرق الأمريكي، قال في كتابه (أمريكي في البلاد العربية): (إن محمدًا ترك رسالة ضخمة لنشر الدين وإقامة الحضارة، ودعا إلى أخوة جديدة بين المسلمين، تقوم على المساواة بينهم) [نفسه، (ص ١٨٣)].



١٣- واشنطن أيرفينج:

الأمريكي والقصصي وكاتب السير المشهور، أبو الأدب الأمريكي، ومخترع الأقصوصة، من كتبه (محمد وخلفاؤه)، الذي فيه: (والرسول ﷺ كان عادلاً يحب العدل...).

وفي مؤلفه (حياة محمد)، أشاد بروح العفو والرحمة والشفقة التي أبداهها محمد تجاه مواطنيه عند فتح مكة، وتوج بها انتصاره [حياة محمد ﷺ (٧٢)].

وفي كتابه (محمد وخلفاؤه)، أشاد بقدراته العقلية، وحبه العدل، ونفى الأهداف الدنيوية في دعوته ودأبه لإيصال الناس إلى التوحيد الصافي والصحيح، وأنه لم يسع للحرب من أجل الحرب وسفك الدماء، بل فرض عليه الواقع الحرب، فكان لابد من مواجهة القوة بالقوة، فهي من صنع الظروف لا التخطيط المسبق، وهاجم من أساءوا فهم الرسول محمد ﷺ، ويقول: (وأكثر من ذلك وجه هذه القوى التي كانت تفتك ببعضها البعض نحو الأخوة الإسلامية في إيمان واحد، وجعلها أهلاً لأن تحمل رسالة سلام إلى أمم الأرض، لا لهدف حربي توسعي يهدف إلى التوسع والسيطرة العمياء، بل لهدف جهادي يهدف إلى توعية شعوب الأرض بالمعنى المطلق لله الواحد، ليرتفع بالفكر الإنساني إلى مصاف (الوعي) الجدير بإنسانية الإنسان، وهذا ما يميز الرسول ﷺ، ولم يكن مجرد عبقرية حربية كغيره من الفاتحين) [محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ١٨٥، ١٩٠)].

١٤- ريدي بارت:

العالم الألماني الكبير، والأستاذ الجامعي الكثير التصانيف، التي منها: ترجمته للقرآن الكريم، وكتاب في سيرة النبي ﷺ، له رسالة (محمد والقرآن)، قصد بها تفهيم رسالة محمد ﷺ، وكان شديد التعاطف مع الإسلام، وهذا واضح في قوله: (كان من بين ممثلي



حركة التنوير من رأوا في النبي العربي ﷺ أدلة الله، ومشرعًا حكيمًا ورسولًا للفضيلة، وناطقًا بكلمة الدين الطبيعي الفطري، ومبشرًا به [نفسه، ص ١٩٢].

١٥- بوسورت سميث:

عالم فيزيائي ومفكر إنجليزي كبير، من كتبه: (محمد والإسلام)، و(حياة محمد)، قال في كتاب (محمد والإسلام): (لا نستطيع أن نقول في حقه إلا إنه رجل عظيم بعقله، وعلمه، وأخلاقه، وبلاغته وتدينه).

وقال في كتاب (محمد والمحمدية): (كانت مهمة محمد إنسانية، أن يرتقي بالإنسان ويعلمه ويحضره، فقد كان أكثر من مخلص صادق وأمين، كان محمد ﷺ إنسانًا حتى العظم).

١٦- مارسيل بوازار:

المفكر والقانوني الفرنسي المشهور، كان دبلوماسيًا، وخاصة لدى الأمم المتحدة، له أربعون كتابًا، يقول في كتابه (إنسانية الإسلام) [ص ٤٦]: (وكما يظهر التاريخ الرسول ﷺ قائدًا عظيمًا ملء قلبه الرأفة، يصوره كذلك رجل دولة صريحًا قوي الشكيمة، له سياسته الحكيمة التي تتعامل مع الجميع على قدم المساواة، وتعطي كل ذي حق حقه... لا بد أن محمدًا ﷺ الذي عرف كيف ينتزع رضا الجماهير به إنسان فوق مستوى البشر حقًا، وأنه لا بد أن يكون نبيًا حقيقيًا من أنبياء الله)، ويقول: (لقد كان محمد نبيًا قبل أن يكون مصلحًا اجتماعيًا) [محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ١٨٥، ١٩٠)].

وقال: (وعلى الرغم من قتاليته ومنافحته، فقد كان محمد ﷺ يعفو عند المقدرة). [نفسه، (ص ٢٠١) - معدي، (ص ١١٤، ١١٥)].

يعد ما كتبه في إنسانية الإنسان من الكتابات العميقة والمنصفة للرسول ﷺ في جانب الأخلاق الإنسانية.



١٧- الكولونيل ر.ف بودلي (الإنجليزي): من كتبه (حياة محمد).

أنهى في كتابه المذكور بالأئمة على المتعصين من الكتاب وما راحوا يرجونه من أباطيل عن الإسلام منذ الحروب الصليبية، وعزا ذلك إلى أنهم لم يفهموا محمدًا وشريعته، وأشاد بوضوح سيرة محمد ﷺ في كتابه المذكور، قائلًا: (إننا لا نجد بين أيدينا ما دونه معاصرو موسى أو كونفوشيوس أو بوذا، ولا نعرف شيئًا عن الثلاثين سنة التي مهدت الطريق للسنوات الثلاثة من حياة عيسى، التي بلغ فيها أوجه، ولكننا نجد أن قصة حياة محمد ودعوته موجودة بين أيدينا وواضحة كل الوضوح....).

وفي شأن فرية إصابة محمد ﷺ بالصرع يذكر ويقول: (وهل يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي يتمتع بها محمد ﷺ قبل مماته بأسبوع... وقد ذخر عقله بأفكار لامعة، وما كان الله ليجعل من أحد نبيًا مصابًا بالصرع، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو بلا شك محمد ﷺ). وأشاد بقيمة المساواة التي جاء بها محمد ﷺ [ولنا دراسة نقدية لكتابه المذكور، انظر النت].

١٨- واصف بطرس غالي:

[مفكر مصري نصراني]. عينه سعد زغلول وزيرًا للخارجية مصر في حكومته، ومع هذا عارض سعد زغلول في مسألة خلع الحجاب، عندما بدأ سعد في الخلع بزوجه صفية زغلول، ووقف مع معارضة علي الشمسي، ومما جاء على لسانه: (لقد عمل محمد جهد طاقته لتحرير النساء، وكذلك بالقذوة الحسنة التي استنها).

ويعد من أكبر أنصار المرأة، إذ كان عظيم الاحترام والتكريم للنساء [انظر: مجلة المنار ومجلة البيان، والإنترنت].

وقال: إن المعاصرين يحاولون أن يكتشفوا الأعمال الباهرة التي حققها محمد أو أن يعالجوا حياته الزوجية على أساس من التحليل النفسي، فلا يزيدون على أن يضيفوا



إلى أوجه التحامل وإلى الآراء الهوائية أحكامًا من زيف العلم [محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٢٣٨)].

ومن الأعمال الباهرة التي أشاد بها: وضع الرسول ﷺ أساس الحضارة العربية الإسلامية والأمة العربية والإسلامية.

١٩- الكونت هنري دي بولا نضلييه: المؤرخ الفرنسي.

ألف العديد من الكتب، منها: (حياة محمد).

كان أول مؤرخ أوروبي ينصف النبي محمد ﷺ في هذا الكتاب، وأبدى فيه إعجابه به وبالإسلام ومبادئه، خاصة عقيدة التوحيد الصافية، وأنكر على من أتهم محمدًا بالنقائص [نفسه، ص ٢٤٠-٢٤١].

٢٠- إميل درمنغهم:

من كبار رجال الفكر الفرنسيين، من مؤلفاته العديدة: (حياة محمد)، عرّض بالأب لا منس الفرنسي، قائلًا: (إنه من أشدهم تعصبًا، وقد ذهبت بهجة كثير من تحقيقاته لشدة تحامله على الإسلام ونبيه).

أشاد بخلق النبي ﷺ في السلم والحرب، فقال (.... كان حكيماً رقيق القلب، عظيم الإنسانية)، وأشاد بالقيم الحضارية في معاملة المدنيين أثناء الحرب، وفي النفس والأموال: الأجراء والمسنين والأطفال والنساء والرهبان، وعدم هدم المنازل وإتلاف الزرع والضرع، إلا لضرورة حربية قاهرة [انظر كتابه المذكور، ترجمة زعيتر، (ط ٢/ ١٩٨٨ م)، (ص ٣٥٠)].

وأشاد بعدم اغتراره بالمال والجاه، وتفضيله لإسلام رجل واحد على أعظم الغنائم [نفسه، ص ٣٦٠، معدي، ص ١٢١].



٢١- دوزي:

المستشرق الهولندي الكبير، صاحب المؤلفات الكثيرة، التي منها: (تاريخ المسلمين في أسبانيا)، قال فيه: (... لقد جاء محمد بتعاليم رفعت مستوى البشر إلى عالم الكمال) محمد ﷺ عند علماء الغرب، ص ٢٥٢].

٢٢- جارسان دي تاسي:

أحد أبرز المستعربين الفرنسيين، ومن أقواله المنصفة: (محمد نبي حقيقي بكل معنى الكلمة، ولا يمكننا إنكار أنه هو المرشد القائد إلى طريق النجاة) [نفسه، ص ٢٥٣].

٢٣- فردريك ديتريسي:

المستشرق الألماني، صاحب الإنتاج الغزير.

قال في كتابه: (مقولات أرسطو طاليس): (إن علوم الطبيعة والفلك والفلسفة والرياضيات التي أنعشت أوروبا في القرن العاشر الميلادي مقتبسة من قرآن محمد، بل أن أوروبا مدينة للإسلام الذي جاء به محمد) [نفسه، ص ٢٥٤].

وقال: إننا لو أنصفنا الإسلام لاتبعنا ما جاء به من تعاليم وأحكام، لأن كثيرًا منها ليس في غيره... ويظهر من حياة محمد أن دعوته لهذا الدين لم تكن إلا عن سبب سماوي، إننا نقول هذا لو أنصفناه فيما دعا إليه ونادى به، وإن من اتهم محمدًا بالكذب فليتهم نفسه بالوهن والبلادة، وعدم الوقوف على ما صدع به من حقائق. [نفسه، ص ٢٤٥].

٢٤- جون دي قنبرت:

المستشرق السويسري: قال في كتابه (محمد والإسلام): (كلما ازداد الباحث تنقيبًا في الحقائق التاريخية الموثقة المصادر فيما يخص الشرائع المحمدية ازداد احتقارًا لأعداء محمد، مثل ماركس و....).



٢٥- رينيهديكارت:

عالم الرياضيات والفيزياء، والفيلسوف الفرنسي المشهور، قال في كتابه الذي أشتهر به (مقالة الطريق): (ولو أنصفنا المسلمين لكننا معهم جنبًا إلى جنب، لأن رسالتهم فيها ما يتلاءم مع كل زمان، صاحب شريعتهم محمد لم يأت التاريخ برجل هو أعظم خلقًا منه).

٢٦ - الكسندر ديما الأب:

[الروائي والكاتب المسرحي الفرنسي الكبير، أحد أغزر الفرنسيين إنتاجًا]، قال في (الفرسان الثلاثة): (كان محمد معجزة الشرق، لما في دينه من معالم، وفي أخلاقه من سمو، وفي صفاته من محامد)، ويقول عن محمد ﷺ: (إنه المعلم الرحيم). [نفسه، ص ٢٦٤].

٢٧- ول ديورانت:

الفيلسوف والمؤرخ الأمريكي المشهور، له سلسلة مؤلف (قصة الحضارة) مع زوجته آربيل وفي (٤٢) مجلدًا، ألفاه في (٥٠) عامًا!!

نفى تهمة الإصابة بالصرع عن النبي ﷺ، ووصفه بأنه كان من أعظم عظماء التاريخ، وموجه الأمة العربية، وكبح جماعة التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلادة القديم، دينًا سهلًا واضحًا وقويًا، وصرحًا خلقيًا قوامه البسالة والعزة والقومية. [نفسه، (ص ٢٦٦-٢٦٧)، ومصدرهما: (قصة الحضارة) (١٣/٢١/٢٢/٤٧)].

وقال: (كان محمد الحاكم المتسامح والحكيم المشرع) [مهدي، (ص ١٢٩)، ومصدره: (تراث الإسلام)، تصنيف شاخت وبروزت (١/٦٧/٦٨)].

٢٨- ريتين:

المستشرق الأسباني الكبير، قال في كتابه: (تاريخ سوريا ولبنان): (دين محمد قد أكد إذًا من الساعة الأولى لظهوره، وفي حياة النبي أنه عام، فإذًا هو صالح لكل جنس، وكان صالحًا بالضرورة لكل عقل، ولكل درجة من درجات الحرارة).

ثم قال: (إليك يا محمد وأنا الخادم الحقير أقدم إجلالي بخضوع وتكريم، إليك أطأطأ رأسي، إنك لنبي حق من الله، قوتك العظيمة كانت مستمدة من عالم الغيب الأزلي الأبدي) [محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٢٧٦)].

٢٩- جاك ريسلر:

المستشرق الفرنسي المعاصر، الحاصل على جائزة الأكاديمية الفرنسية على كتابه: (الحضارة العربية)، لكونه دراسة أساسية وأصلية لمعرفة الإسلام، يقول في كتابه المذكور: (لزاماً على محمد أن يبرز في أقصر وقت ممكن تفوق الشعب العربي، عندما أنعم عليه بدين سام في بساطته ووضوحه، وكذلك بمذهبه الصارم في التوحيد في مواجهة التردد الدائم للعقائد الدينية الأخرى، وإذا ما عرفنا أن هذا العمل العظيم أدرك وحقق في أقصر أجل، أعظم أمل لحياة إنسانية، فيجب أن نعتز أن محمداً يظل في عداد أعظم الرجال الذين شرف بهم تاريخ الشعوب والأديان) [نفسه، (ص ٢٧٦)، الحضارة العربية، (ص ٣٢)].

ويقول في الكتاب ذاته عن النبي ﷺ: (إنه يسعى على الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة..) [الحضارة العربية، (ص ٥١)؛ نقلاً عن محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٢٧٦)].

٣٠- آرنست رينان:

مستشرق ومفكر فرنسي كبير، تعددت مؤلفاته، التي منها: (مستقبل العلم)، أحد كبريات كتب القرن التاسع عشر.

هاجم في كتاباته الأخيرة موقف (فولتير) من الرسول ﷺ بقوله: (دلتنني تجربتي العلمية والتاريخية أنه لا صحة لما أريد إلصاقه بالنبي محمد من كذب وافتراء، مصدره



بعض العادات القومية التي أراد بعض المحتالين كقولير أن يتوجهوا بها إلى الناحية التي تشفي سقام ذهنيهم الوقحة، وتعصبهم الذميم، كقوله: إنه يميل إلى التسيد والسيطرة، مع أن محمدًا كما أثبتت الوقائع التاريخية وشهادات أكبر علماء التاريخ كان على العكس من ذلك، بريئًا من روح الكبرياء، متواضعًا، صادقًا، أمينًا، لا يحمل المقت لأحد، وكانت طباعه نبيلة، وقلبه طاهر، رقيق الشعور [الإسلام والثقافة العربية: أنور الجندي، (ص ٢٣٧)]. قلت: انظر العَلَمَ رقم (٣٥) إذ لقولير شهادة منصفة أيضًا.

٣١- برتملي سانت هيلر:

مستشرق ألماني: قال في كتابه: (المستشرقون وعقائدهم): (... فكان النبي محمدًا داعيًا إلى ديانة الإله الواحد، وكان في دعوته هذه لطيفًا ورحيمًا حتى مع أعدائه، وإن في شخصيته صفتين من أجل الصفات التي تحملها النفس البشرية، وهما: العدالة والرحمة) [نفسه، (ص ٢٣٤)؛ محمد النبي العربي: عمر أبو النصر، (ص ٢١)].

وقال في كتابه (مع الشرق): (لقد كان محمد أذكى العرب في عهده، وأكثرهم تقوى وتدينًا، وأرحبهم صدرًا، وأرأفهم بأعدائه وخصوم دينه، وإن دينه الذي دعا إلى اعتقاده كان جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته) [الجندي - نفسه، (ص ٢٣٤)؛ أبو النصر، (ص ٢١)].

٣٢- لوثر ويستودارد:

كاتب اجتماعي، ومؤرخ أمريكي؛ من أهم كتبه: (العالم الإسلامي)، الذي يشيد فيه بدور محمد ﷺ في توحيد العرب، ونقلهم من العداوة إلى الأخوة، وفي رأسه نور للناس وهدى للعالمين. [نقلًا عن محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٢٨٦ - ٢٨٧)].



ويقول أيضًا: (إن البشرية تفتخر بانتساب رجل كبير كمحمد إليها، إذ أنه رغم أميته استطاع قبل أربعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع سنكون، نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة) [نفسه، ص ٢٨٧].

٣٣- سينرستن:

مستشرق سويدي، أستاذ اللغات السامية، أسهم في دائرة المعارف الإسلامية، له عدة مؤلفات، منها: (القرآن الإنجيل المحمدي)، و: (تاريخ حياة محمد)، وقال في هذا الأخير: (إننا لن نصف محمدًا إذا أنكرنا ما هو عليه من عظيم الصفات وحيد المزايا [ص ١٨]. فلقد خاض محمد معركة الحياة الصحيحة في وجه الجهل والهمجية... شريعته أكمل الشرائع، وهو فوق عظماء التاريخ) [نقلًا عن: محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٢٩٢)].

٣٤- برنارد شو:

مستشرق إنجليزي، فيلسوف وروائي ساخر، وكاتب مسرحي يعد الأعظم منذ شكسبير. قال: (إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد، هذا النبي العربي الذي وضع دينه دائمًا موضع الاحترام والإجلال، فإنه أقوى دين علا هضم جميع المذنبات، خالداً إلى الأبد، وإني أرى كثيرًا من بني قومي، قد دخلوا هذا الدين على بينة، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في هذه القارة -يعني أوروبا-) [نفسه، (ص ٢٩٦)].

ويقول: (وإذا أراد العالم النجاة من شروره فعليه بهذا الدين، إنه دين السلام والتعاون والعدالة، في ظل شريعة متمدينة محكمة، لم تنس أمرًا من أمور الدنيا... وقد ألفت كتابًا عن محمد، ولكنه صودر لخروجه عن تقاليد الإنجليز) [نفسه، ص ٢٩٦].

ويقول: (... ولذلك يمكنني أن أكّد نبوءتي فأقول: إن بوادر العصر الإسلامي الأوروبي قريبة لا محالة، وإني أعتقد أن رجلًا كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق في



العالم بأجمعه اليوم لثم له النجاح في حكمه، ولقاد العالم إلى الخير، وحل مشاكله على وجه يحقق للعالم كله السلام والسعادة المنشودة).

ويقول: (لقد طبع رجال الكنيسة في القرون الوسطى الإسلام بطابع أسود حالك، إما جهلاً وإما تعصباً... فعندهم أن محمداً كان عدواً للمسيح، ولقد درست سيرة محمد الرجل العجيب، وفي رأيي أنه بعيد جداً أن يكون عدواً للمسيح، إنما ينبغي أن يدعى منقذ البشرية) [نفسه، (ص ٢٩٦)].

ويقول: (كان محمد روح الرحمة...) [كتابه: عظمة الإسلام، (م ١)].
ويقول: (إنه إذا سنحت الفرصة لديانة بالسيطرة على إنجلترا أو حتى أوروبا في السنوات المائة القادمة، فقد يكون الإسلام) [محمد ﷺ عند علماء الغرب (ص ٣٧٦)].
وقال: (... وكان الأولى أن يوصف بأنه مخلص الإنسانية) [نقلاً عن علي الجرجاوي: حكمة التشريع (١/ ٦٦)].

٣٥- أن ماري شيمل:

كبيرة علماء الإسلام الألمان.

مما قالته عن محمد ﷺ: (لقد كان محمد إنساناً بما فيه الكفاية ليعرف نقاط الضعف في البشر بمن فيهم النساء...) [محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٢٩٦)].

٣٦- فرنسوا فولتير:

الفيلسوف والروائي والكاتب الفرنسي المشهور، دافع على لسان الكون تبولان دي فيلييه عن الإسلام فقال: (إن أقل ما يقال عن محمد: أنه جاء بكتاب، وجاهد، أما عيسى فلم يترك شيئاً مكتوباً، ولم يدافع عن نفسه، ولقد امتلك محمد شجاعة



الإسكندر وحكمة توما، أما عيسى فقد نزع دمًا بمجرد أن أدانه قضاته، والإسلام لم يتغير قط، أما أنتم ورجال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة).

وقال عن محمد ﷺ: (... لقد كان بالتأكيد رجلًا عظيمًا جدًا... وقام بأعظم دور يمكن لإنسان أن يقوم به على وجه الأرض)، ويقول في كتابه (محمد ﷺ): (والواقع أن المزايا التي كان يتصف بها محمد تحقق الانتقاد محققًا ولا تترك مكانه إلا الإعجاب به والتقدير لشخصيته...) ويقول: (... من بين كل المشرعين والفاحين ليس منهم أحد سجلت سيرته بموثوقية وتفصيل دقيقة من قبل معاصريه، كما هو الحال في سيرة محمد...) [نفسه، ص ٣٠٦]، وانظر العَلَمَ رقم (٢٩) من هذا البحث.

٣٧- كوسان دي برسفال:

مستشرق فرنسي، وكاتب معروف، ومؤرخ مشهور.

قال في كتابه (تاريخ العرب)، عن محمد ﷺ: (ذلك الرجل الذي جاء إلى قومه بدين جديد بعد أن توفرت دواعي النبوة، وإن دينه خال من الشكوك والضلالات، وقد جاء بالمعجزات دليلاً على دعوته المباركة، ثم ارتحل إلى المدينة، وبعد فتح مكة عفا عن أعدائه فيها فأمنوا) [نفسه، (ص ٣٠٧-٣٠٨)].

٣٨- توماس كارليل:

كاتب اسكتلندي، وفيلسوف ومؤرخ وعالم أخلاق.

قال في كتابه (محمد رسول الهدى والرحمة) [ص ٤]: (... ويزعم المتعصبون والملحدون أن محمدًا لم يكن يريد بدعوته إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان، كلا وأيم الله، لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير، ابن الغفار والفلول،



المتوقد المقلتين، العظيم النفس، المملوء رحمةً وخيراً وحناناً وبراً وحكمةً وحجىً وإربةً ونهىً، أفكار غير دنيوية ونوايا خلاف طلب الجاه والسلطان...).

وقال في كتابه المذكور [ص ٧]: (من العار أن يصغي إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين إن دين الإسلام كذب، وإن محمداً لم يكن على حق، لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة، فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزمان لملايين كثيرة من الناس، فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التي عاشت عليها هذه الملايين وماتت أكذوبة أو خديعة مخادع؟! ولو أن الكذب والتضليل يروجان عنده هذا الرواج الكبير، لأصبحت الحياة سخفاً وعبثاً، وكان الأجدر بها أن لا توجد، هل رأيتم رجلاً كاذباً يستطيع أن يخلق ديناً ويتعهده بالنشر بهذه الصورة! إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتاً من الطوب لجهله بخصائص مواد البناء، وإذا بناه فما ذلك الذي يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد، فما بالك بالذي يبنّي بيتاً دعائمه هذه القرون العديدة، وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس!!

وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلاً كاذباً متصنعاً متزعباً بالحيل والوسائل لغاية أو طمع، وما الرسالة التي أداها إلا الصدق والحق، وما كلمته إلا صوت حق صادر من العالم المجهول، وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء).

وبعد أن ذكر تأثير الإسلام على العرب وفضله عليهم، قال: (وإني لأحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع... وهو رجل عظيم...) [نفسه، (ص ٣٠٨-٣١١)].

٣٩- البارون برناكاراديفو:

مستشرق فرنسي، ومؤلف مكثراً، متعصب ضد الإسلام، أسهم في تحرير دائرة (المعارف الإسلامية). قال عن النبي ﷺ في كتابه (مفكرو الإسلام): (وكان حليماً تقيّاً،



حسن الأخلاق...)، وقال: (إن محمدًا كان هو النبي والملهم، لم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا التي كان عليها، إن شعور المساواة والإخاء الذي أسسه محمد بين أعضاء الكتلة الإسلامية، كان يطبق تطبيقًا عمليًا حتى على النبي نفسه) [نقلًا عن: هذا هو الإسلام، (ص ٨٧) نفسه، (ص ٣١١-٣١٣)].

٤٠- بول كازانوف:

أحد كبار علماء فرنسا، له كتابًا: (حضارة الشرق) و: (الإسلام بين الإنصاف والاحمود). قال في الكتاب الأول [ص ٢٣]: (يهمني أن أجهر بأني لا أسلم أصلًا بكل نظرية يفهم منها الريب بصدق محمد، إن سيرة النبي العربي من بدايتها إلى نهايتها تدل على أنه ثابت رصين أمين...).

ويقول: (... إن كل تاريخ النبي العربي يدل على أن خلقه جدي عملي محمود..)
[نفسه، (ص ٣١٣-٣١٤)].

٤١- أوغستون كرستان:

رجل فكر إيطالي، قال في كتابه (الكياسة الاجتماعية): (وانك لتجد في كل موضع من القرآن الذي جاء به محمد إلى العرب آيات تحث على فعل الخير، وأما هو فقد كان أمينًا وأعدل رجل، ولا يسعنا إلا أن نقدر له جهوده في سبيل دينه وعقيدته).

ثم يقول: (لقد جعل محمد الإخاء والمحبة ركنين للمجتمع الإسلامي، وهذا لعمرى تقدم باهر إذا قارنا عهد الإسلام بعهد الجاهلية أيام كان أرباب الثروة والسيادة يزددون بصلفهم المساكين ويسومونهم الخسف...) [نفسه، (ص ٣١٧)].

٤٢- إيظلين كوبولد: شاعرة بريطانية.

قالت في كتابها (الأخلاق) [ص ٦٦]: (... وكان يعمل في سبيل الله والإنسانية)، وقالت في كتابها (البحث عن الله): (بعث -أي: محمد- هذه الأمة



بعثًا جديدًا يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات، فغلبت العالم وحكمت فيه آجالًا وآجالًا...).

وتقول فيه: (إن العظمة والعبقريّة يهزان القلوب ويثيران الأفئدة، فما بالك بالعظمة إذا انتظمت مع النبوة، وما بالك بها وقد راحت تضحي بكل شيء في الحياة في سبيل الإنسانية وخير البشرية).

٤٣- القس لوازون:

مستشرق فرنسي. قال عن محمد ﷺ في كتابه: (الشرق) [ص ٦١]: (... ومهما تحدثنا عنه فليس بالكثير في حقه، لأنه جاء إلى العالم بدين جمع فيه كل ما يصلح للحياة...) [نفسه، (ص ٣١٧-٣١٨)].

وقال في إحدى محاضراته، [كما جاء في مجلة: (المقتطف)، المجلد الرابع، العدد السابع]: (وكان على أعظم ما يكون من كريم الطباع وشريف الأخلاق ومنتهى الحياء وشدة الإحسان، وكان على خلق عظيم، وشيم مرضية، شغوفًا على الأطفال، مطبوعًا على الإحسان، غير متمشّدق في نفسه، ولا صلف في معاملته مع الناس...) [نفسه، (ص ٣١٩-٣٢٠)].

٤٤- غوستاف لوبون:

من أعظم فلاسفة فرنسا في القرن العشرين.

قال في كتابه: (الحياة)، عند حديثه عن العرب في الشرق [ص ٤٣]: (إن محمدًا على الرغم مما يشاع عنه على وجه عام، قد ظهر بمظهر الحلم الوافر ورحابة الصدر الفسيحة إزاء أهل الذمة، وحرر بلادًا واسعة من الروم والفرس، وترك أهلها في طليعة الأمم). وقال في كتابه: (الدين والحياة) [ص ٦٧]: (... وقد كان محمد ذا أخلاق عالية، وحكمة، ورقة قلب، ورأفة، ورحمة، وصدق، وأمانة... إذا ما قيسَت قيمة الرجال



بجليل أعمالهم، كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمدًا، مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله... [نفسه، (ص ٣٢٠-٣٢٢)].

٤٥- فلور أندريه:

مستشرق ألماني، قال: (كان محمد رحيمًا بالضعفاء، بشوشًا، سهل المعاملة، طاهر القلب...) [انظر الشبكة العنكبوتية (النت)].

٤٦- جان ليك:

مستشرق أسباني. قال في كتابه: (العرب) [ص ٤٣]: (... حياة محمد التاريخية لا يمكن أن توصف بأحسن مما وصفها الله ﷻ بألفاظ قليلة، بين بها سبب بعث النبي ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]).

ويقول: (... وقد برهن لنفسه على أن لديه أعظم الرحمات لكل ضعيف، ولكل محتاج إلى المساعدة، كان محمد رحمة حقيقية لليتامى والفقراء وابن السبيل والمنكوبين والضعفاء والعمال وأصحاب الكد والعناء، وإني بلهفة وشوق لأصلي عليه وعلى أتباعه) [ما قبله، ص ٣٢٦].

٤٧- جول لا بوم:

عالم فرنسي. قال عن محمد ﷺ في: (الفهرس) المترجم إلى اللغة العربية، الذي وضعه للقرآن الكريم [ص ٦٣]: (... وإذا بالعالم يتسع لأضواء هداة، فكأن بالعالم وقد خلق من جديد، وفتح عينيه على مبادئ عالية سامية) [نفسه، ص ٣٢٩].

٤٨- الماركيز دي لا بلاس:

من مشاهير علماء الفلك الفرنسيين. رياضي وفيزيائي.



قال: (ولكن دين محمد وشريعته اجتماعيان لحياة البشر، فنحن نعرف لمحمد بأنه عظيم بدينه ومبدئه وعقليته، فلا محيص عن الأخذ بتعاليمه) [نفسه، ص ٣٢٩].

٤٩- الفونس دي لامارتين:

من أشهر الشعراء الفرنسيين. يقول في كتابه: (تاريخ الأتراك) [بالفرنسية، (٢/ ٢٧٦-٢٧٧)] بعد أن ذكر دور محمد ﷺ في حركة التاريخ: (... هو ذا محمد، على كل المستويات، حيث تقاس العظمة الإنسانية، أي رجل هو الأكبر....) [نفسه، ص ٣٣١].

وبعد أن أشاد بجهاد محمد ﷺ وصبره وحميته في الدعوة التي جاء بها، قال: (كل هذا لأعظم دليل على أنه لم يكن يضمّر خداعاً أو يعيش على باطل أو مين، بل كان وراءها عقيدة صادقة...) [من كتاب: السفر إلى الشرق، ص ٨٤].

وقال [ص ٤٧]: (إن محمداً فوق البشر ودون الإله، فهو رسول بحكم العقل، ودلالات المعجزات تعضد ذلك، وإن اللغز الذي حله محمد في دعوته، فكشف فيها عن القيم الروحية، ثم قدمها لأمة العرب ديناً سماوياً، وسرعان ما اعتنقوه، وهو أعلى ما رسمه الخالق لبني البشر... أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة وافية، أدركت ما فيها من عظمة وخلود...). ويقول: (... أي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثلاً أدرك محمد، وأي إنسان بلغ من مراتب الكمال مثلاً بلغ، لقد هدم الرسول المعتقدات الباطلة التي تتخذ وساطة بين الخالق والمخلوق) [نفسه، (ص ٣٣٢)، وانظر كتابه: تاريخ الأتراك - بالفرنسية - (٢/ ٢٧٦-٢٧٧)، باريس، (١٨٤٥م)].

٥٠- لايتنر:

باحث إنجليزي، حصل على أكثر من شهادة دكتوراه في الشريعة والفلسفة واللاهوت، يقول: (بقدر ما أعرف من دين اليهود والنصارى، أقول بأن ما علمه محمد



ﷺ ليس اقتباسًا، بل قد أوحى إليه به، ولا ريب في ذلك، طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحي من لدن عزيز عليم... [من كتاب: دين الإسلام، (ص ٤-٥)، نقلًا عن نفسه، (ص ٣٣٦)]. ويستطرد قائلًا: (إن الديانة النصرانية التي ود محمد ﷺ إعادتها لأصلها النقي كما بشر بها المسيح، تخالف التعاليم السرية التي أذاعها بولس، والأغلاط التي أدخلها عليها شيع النصارى....).

(....) ولقد صار دينه الواسطة لإرشاد وتمدن الملايين من البشر، ولولا هذا الدين للبثوا غرقى في التوحش والهمجية، ولما كان لهم هذا الإخاء المعمول به في دين الإسلام). [لايتنر: دين الإسلام، (ص ٢٥)، نقلًا عن: نفسه، (ص ٣٣٦)].

يقول عن تعدد أزواجه: (... فلا ريب أن لزواجه في مرحلة الكبر أسباب حقيقية غير التي يتمشدد بها كتاب النصارى بهذا الخصوص، وما هي تلك الأسباب يا ترى؟ لا ريب أنها شفقتة على نساء أصحابه الذين قتلوا...) [نفسه، ص ٣٣١].

ويقول: (... إني لأجهر برجائي بمجيء اليوم الذي به يحترم النصارى المسيح احترامًا عظيمًا، وذلك باحترامهم لمحمد ﷺ، ولا ريب في أن المسيح المعترف برسالة محمد ﷺ وبالحق الذي جاء به، هو المسيح الصادق) [نفسه، (ص ٦)، نقلًا عن: محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٣٣٧)].

ويصف النبي ﷺ نفسه بأنه المتسامح الأكبر، وأن صفة التسامح كانت وما زالت إحدى المميزات والسمات الراقية للدين الإسلامي، ذكر هذا في كتابه: (أخلاق المسلمين وعاداتهم). وقال: (بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان، فوجدته في النبي محمد ﷺ).

٥١- فريد فون بسمارك:

صحفي ألماني. يعمل رئيسًا لمجلس شورى الصحافة الألمانية.



قال في تقرير نشرته الأنباء العالمية في أعقاب نشر الصور المسيئة للرسول ﷺ عام (٢٠٠٧م): (إني أدعي أن حضرة محمد قدوة ممتازة، وليس بالإمكان إيجاد قدوة كمحمد ثانية).

٥٢- ماسنيون؛

مستشرق فرنسي شهير. قال السيد سيان الندوي، في كتابه (الرسالة المحمدية) [ص ٦٧]: (وقد قال لي يوماً، وأنا في فرنسا، مستشرق اسمه ماسنيون: يكفي لتعرف أوروبا محاسن الرسول ﷺ ومحامده، أن ينقل كتاب (الشفاء) للقاضي عياض إلى إحدى اللغات الأوروبية).

٥٣- وليام موير؛

مستشرق ومنصر إنجليزي، من المتعصبين ضد الإسلام، جمع كتاباته في السيرة بعنوان (حياة محمد وتاريخ الإسلام)، هدفه مساعدة البعثة التنصيرية التي عمل معها، يقول في هذا الكتاب: (لقد امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير، كما فعل نبي الإسلام محمد).

ويقول: (وباختصار، فإنه مهما ندرس حياة النبي ﷺ نجدها على الدوام عبارة عن كتلة فضائل مجسمة مع بقاء سريرة وخلق عظيم، وستبقى تلك الفضائل عديمة النظير على الإطلاق في جميع الأزمان، في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل) [الوحي المحمدي، (ص ١٠٥)].

ويقول في كتابه (حياة محمد ﷺ)، [ص ١٤]: (... ومن صفات محمد ﷺ الجليلة والجديرة بالذكر والحرية بالتنويه: الرقة والاحترام... فالسماحة والتواضع والرأفة



والرقة تغلغلت في نفسه، ورسخت محبته عند كل من حوله، وكان يكره أن يقول: لا...)، وعدد بعض أخلاقه، وذكر في صفحة (٨٠) من الكتاب المذكور: إن من عقيدة الإسلام، أن الإنسان أخو الإنسان، وأشاد بسماحته في عفوه عن ألد أعدائه يوم فتح مكة [حياة محمد، ص ٨٨].

نقل عنه رامبا كريشناور أو (ك.س.): رئيس المجلس الهندي للبحوث والفلسفة، ورئيس قسم الفلسفة في جامعة (مايزوري) في الهند: (إن فحوى موضوعي هو الكتابة عن تاريخ الديانة، وعن الرسول الذي يعتبر شخصية تاريخية)، حتى أن السير وليام موير، الذي يعتبر ناقدًا عدائيًا، يقول عن القرآن الشريف ما يلي:

(ليس هناك على الأرجح من كتاب آخر استطاع الحفاظ على نقاء نصه على مدى (١٢) قرنًا، إن حياة النبي محمد وأعماله بتفاصيلها ليست غامضة، وهي باقية للأجيال القادمة، لقد تم تشويه صورة الإسلام لأسباب سياسية وغيرها).

٥٤- إدوارد مونتغ،

مستشرق فرنسي، أستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف، قال في كتابه: (حاضر الإسلام ومستقبله): (أما محمد فكان كريم الأخلاق حسن العشرة...).

وقال في كتاب (محمد والقرآن)، [ص ٢٢]: (لقد منع محمد الذبائح البشرية، ووأد البنات، والخمر، والميسر، وكان لهذه الإصلاحات تأثير غير متناه في الخلق، بحيث يجب أن يعد محمد في صف أعظم المحسنين للبشرية، وأن الانقياد لإرادة الله تتجلى في محمد والقرآن بقوة لا تعرفها النصرانية) [نفسه - محمد عند علماء الغرب (ص ٣٤٦ - ٣٤٧)].

وقال: (... ندر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثل محمد ﷺ، وإن ما قام به من إصلاح وأخلاق وتطهير المجتمع، يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين للإنسانية).



وقال في كتابه (العرب): (... وبالجملّة: كان محمد ﷺ أذكى وأدين وأرحم عرب عصره...).

٥٥- جوهان، دافيرميخائيلس؛

لاهوتي ألماني شهير، ومستشرق.

أشاد في كتابه (العرب في آسيا) بإخلاص محمد ﷺ وعقيدته وصفاته الكمال فيه.... وقال: (ولم نعرف عن دينه إلا ما يتلاءم مع العصور مهما تطورت... وحرى بكل الشعوب أن تأخذ بتعاليمه). [محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٣٥٢)]

٥٦- د/ تيو دور نولدكه؛

شيخ المستشرقين الألمان، يقول في كتابه: (تاريخ القرآن): (نزل القرآن على محمد نبي المسلمين، بل نبي العالم، لأنه جاء بدين عظيم، وشريعة كلها آداب وتعاليم، وحرى بنا أن ننصف محمدًا في الحديث عنه، لأننا لم نقرأ عنه إلا صفات الكمال، فكان جديرًا بالتكريم).

وكرر اعترافه بصحة نبوة محمد ﷺ، مثل قوله: (لا بد لنا من الاعتراف بأن محمدًا كان في الحقيقة نبيًا...) [نفسه، ص ٣٤٥].

٥٧- مايكل هارت؛

مستشرق أمريكي، صاحب الكتاب المشهور (المائة الخالدون)، الذي اختار فيه محمدًا ﷺ على رأس القائمة، وقال في تبريره: (إن اختياري لمحمد ليكون رأس القائمة التي تضم الأشخاص الذين كان لهم أعظم تأثير عالمي في مختلف المجالات، ربما أدهش كثيرًا من القراء... ولكن في اعتقادي أن محمدًا كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمر وأبرز في كلا المستويين الديني والديني) [نفسه، ص ١٥٦].



٥٨- مونتغمري وات:

مستشرق بريطاني، من أشهر كتبه: (محمد في مكة)، و: (محمد في المدينة)، استنكر الطعن في محمد ﷺ من قبل إخوانه المستشرقين المتعصبين. [محمد في مكة، ص ٢٥].

وأشاد بأمانته وقوة عزيمته، إلى أن قال: (فلو لم يكن نبياً ورجل دولة وإرادة، ولم لم يضع ثقته في الله ويقتنع بشكل ثابت أن الله أرسله، لما كتب فصلاً مهماً في تاريخ الإنسانية، ولي أمل أن هذه الدراسة عن حياة محمد ﷺ يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام من جديد برجل هو أعظم رجال أبناء آدم). [نفسه، محمد في مكة (ص ٥١٢)].

وأشاد بالعدالة والنزاهة المتأصلة في شخصه، ورحمته لأهل الذمة.

٥٩- هيربرت جورج ولز:

كاتب وأديب بريطاني. له (معالم تاريخ الإنسانية)، و: (موجز تاريخ العالم)، ومما قاله: (... إن ديانة محمد كان فيها روحاً حقيقية من العطف، والكرم، والإخاء، وعلو النفس، والمعاني التي يشغف بها أهل البادية). [شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي (ص ٣٩)].

ويقول: (إن محمداً يستحق كل إعجابنا وتقديرنا كمصلح عظيم، بل ويستحق أيضاً لقب النبي، ولا يصغى إلى أقوال المغرضين وآراء المتعصبين، فإن محمداً عظيم في دينه وفي شخصيته، ومن تحامل على محمد فقد جهله وغمطه حقه). [محمد عند علماء الغرب، ص ٣٧٠].

قال في (معالم تاريخ الإنسانية) [٣/ ٦٤٠ - ٦٤١]، عن رسالة محمد ﷺ: (إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسباحة، كما أنها إنسانية السمة، ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية...)، وقال: (محمد أعظم من أقام دولة العدل والتسامح).



٦٠- أدموند بيرك:

فيلسوف إنجليزي. يقول: (إن رسالة محمد إلهية، لم تسبق ولن تلحق). [محمد فهمي عبد الوهاب: محمد ﷺ رسول الإسلام في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه، (ص ٥٩)].

٦١- الجنرال آيزنهاور:

رئيس أسبق لأمريكا. قال في خطاب له بذكرى مرور عشر سنوات على إنشاء الأمم المتحدة: (إن محمدًا رسول العلم والحضارة). [نفسه، ص ٦٤].

٦٢- شبلي شميل:

النصراني، والطبيب، والعالم الطبيعي، والمصطلح الاجتماعي اللبناني الشهير: يقول (إن محمدًا نبي الإسلام -عليه الصلاة والسلام- أكمل البشر من الغابرين والحاضرين، ولا يتصور مثله في الآتين).



نماذج لأقوال نصارى عرب منصفة:

لقد أفتخر شعراء عرب نصارى بالانتماء إلى حضارة الإسلام والإشادة
بشأن الرسول ﷺ.

ولنقف قليلاً مع بعض هؤلاء الشعراء الذين منهم:

٦٣- **مارون عبود:** [انظر: محمد صلى الله عليه وسلم عند علماء الغرب، ص ٤٥٥]

شاعر وأديب كبير، ونقادة عنيف، كثير التصانيف، سمى ولده محمداً، وعرف بأبي
محمد، كما سمى ابنته فاطمة، تقلد منصب رئيس الجامعة الوطنية في عالية (لبنان)، له
من قصيدة: (النبي محمد):

طَبَعْتَكَ كَفَ اللَّهُ سَيْفَ أَمَانٍ كَمَنْ الرَّدَى فِي حِدِهِ لِلْجَانِي
الْعَدْلُ قَائِمُهُ وَفِي إِفْرَنْدِهِ سَوْرُ الْهَدَى نُزِلَتْ بِسَحَرِ بَيَانٍ
وَعَلَيْكَ أُمْلَى اللَّهِ مِنْ آيَاتِهِ شَهْبًا هَتَكُنْ مِدَارَ الْبُهْتَانِ
لَوْلَا كِتَابُكَ مَا رَأَيْنَا مُعْجَزًا فِي أُمَةٍ مَرْصُوصَةِ الْبَنِيَانِ
حَمَلْتَ إِلَى الْأَقْطَارِ مِنْ صَحْرَائِهَا قَبَسَ الْهَدَى وَمِطَارَفَ الْعِمْرَانِ
هَادٍ يُصَوِّرُ لِي كَأَنَّ قَوَامِهِ مِتْجَمَّرٍ مِنْ عُنْصُرِ الْإِيمَانِ
لَكَ فِي السَّمَاءِ مَنْصَةٌ قَدْسِيَّةٌ قَامَتْ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْمِيزَانِ
مَا كُنْتَ سَفَاحًا وَلَمْ تَسْفِكْ دَمًا إِلَّا بِحَقِّ الْعَادِلِ الْبَدِيَانِ
لَوْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ تَسِيغُ عَقُولَهُمْ وَحَيًّا لَكُنْتَ كَأَوْدَعِ الْحِمْلَانِ
لَوْلَا اِعْتِدَاؤُهُمْ عَلَيْكَ وَجُورُهُمْ مَا خَضْتَ حَرْبًا طَاعَنًا بِسَنَانِ



٦٤- إلياس نصل:

سوري، هاجر إلى البرازيل، له عدة دواوين، قال من قصيدة له في النبي ﷺ:

إني ذكرتكَ يا محمد ناشراً روح الأخوة في بني الإنسان
يامن يثير حماستي بكماله عذراً إذا شاهدت ضعف لساني
هي باقة تهدي إليك زهورها من خير ما يزهبه بستانِي

[من قصيدة بها (٨٣) بيتاً: محمد ﷺ عند علماء الغرب، (ص ٤٥٨-٤٥٩)]

٦٥- عبد الله يوركي حلاق:

السوري، ومؤسس مجلة (الضاد) الحلبية. يقول عن محمد ﷺ في قصيدته

(قبس من الصحراء):

أحمد والمجد نسج يمينه مجدت في تعليمك الأديانا
إني مسيحي أجل محمدًا وأراه في سفر العلى عنوانا
ولأنه داس الجهالة وانتضى سيف الجهاد وحطم الأوثانا

٦٦- جاك صبري شماس:

الشاعر السوري، يقول في قصيدته (أوراق اعتماد):

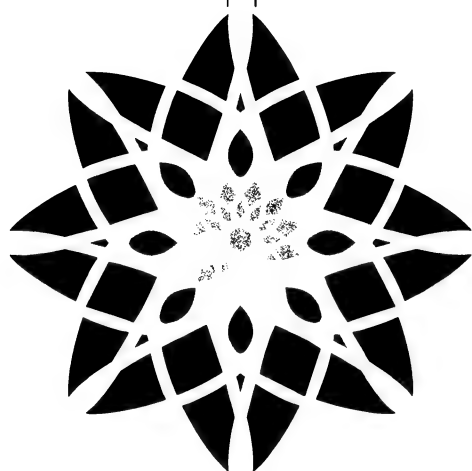
إني مسيحي أجل محمدًا وأجل ضادًا مهدد الإسلام
وأجل أصحاب الرسول وأهله حيث الصحابة صفوة ومقام
كحلت شعري بالعروبة والهوى ولأجل طه تفخر الأقلام
وأودعت روحي في هيام محمد دانت له الأعراب والأعجام



[انظر -هداك الله- هذه النقول من مقال بقلم الشاعر جاك صبري شماس، بعنوان: (شخصية الرسول ﷺ في عيون الشعراء العرب النصارى)، منشور بمجلة: (منار الإسلام) الإماراتية، العدد (٣٦٣)، السنة (٣١) ربيع الأول ١٤١٦ هـ / أبريل-مايو ٢٠٠٥م، (ص ٦٦-٦٧)].

ونقول في الختام: إن خصائص الإسلام، التي هي خصائص نبيه محمد ﷺ، كانت وراء اعتناق أولئك الأعلام الإسلام أو الإشادة به ونبيه ﷺ من قبل من لم يسلم لأسباب يعلمها. ويتضح لنا جلياً أن تناول السيرة النبوية تأليفاً وتدریساً يجب أن ينطلق من خصیصة الشمولية للسيرة النبوية، وليس فقط الوقوف عند أحداث الغزوات والسرايا وإهمال الجوانب الأخرى للسيرة، كما جاءت في موسوعة: (نصرة النعيم...)، وفي مؤلفات، مثل: حقوق الإنسان، والإعجاز العلمي في السنة والسيرة النبوية، والقرآن الكريم، معجزة الرسول ﷺ العظمى. وقد تضمنت شهادات الأعلام الذين ذكرناهم كنماذج الإشادة بهذه الشمولية، مما يعني أن واجب الدعوة إلى الإسلام يقتضي تقديم الإسلام لكل البشرية بمن فيهم المسلمين وفق هذه الرؤية الشمولية المهمة جداً، وهذا ما يحاول أن يقوم به مؤلف هذا الكتاب، خلال مسيرته الأكاديمية والدعوية، بل تفرغ لها حالياً. وكان هدفي من اختيار موضوع هذا الكتاب: تنبيه أساتذة السيرة إلى هذا الجانب.





الفهارس

أولاً: فهرس المصادر والمراجع

أ- المصادر القديمة:

- * القرآن الكريم.
- * ابن الأثير: علي بن محمد بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ).
- أسد الغابة في معرفة الصحابة: دار الشعب، القاهرة، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٩م.
- * الأزرقى: أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى (ت ٢٥٠هـ).
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الثقافة، بيروت ومكة المكرمة، ط ٣، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- * ابن إسحاق: محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى (ت ١٥١هـ).
- السير والمغازي: تحقيق الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- * بحرق: محمد بن عمر بحرق الحضرمي الشافعي (ت ٩٣٠هـ).
- حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار ﷺ، المنسوب خطأ إلى ابن الديبع: اعتنى به: محمد غسان تصوح عزقول، دار الحاوي، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- * البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ).
- التاريخ الكبير: جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن - الهند، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م، ودار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- الأدب المفرد: حققه وقابله على أصوله سمير بن أمين الزهيري، مستفيداً من تخرجات وتعليقات الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- الجامع الصحيح: المكتب الإسلامي، استانبول، تركيا، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.



- * البكري: أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧هـ).
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: تحقيق مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م.
- * البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ).
- أنساب الأشراف: تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، مصر، د. ت.
- * البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ).
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعة جي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- السنن الكبرى: دائرة المعارف النظامية، حيد آباد، الدكن - الهند، ط ١، ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م.
- شعب الإيوان: تحقيق البسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م، وتحقيق آخر لمحمد العيد بسيوني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٠هـ.
- * الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ).
- سنن الترمذي: أشرف على التعليق والطبع عزت عبيد الدعاس، دار مكتبة دار الدعوة، حمص - سورية، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
- مختصر الشرائع المحمدية: اختصار وتحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية بالأردن ومكتبة المعارف بالرياض، ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- * ابن الجوزي: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ).
- زاد المسير في علم التفسير: المكتب الإسلامي بيروت، ط ١، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- الوفا بأحوال المصطفى: تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- * ابن أبي حاتم: أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ).



- الجرح والتعديل: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، ط ١، ١٢٧٢هـ - ١٨٥٥م، ودائرة الكتب العلمية، بيروت.
- * الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري (ت ٤٠٥هـ).
- المستدرک علی الصحیحین: مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض، د. ت.
- * ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي (ت ٣٥٤هـ).
- السيرة النبوية وأخبار الخلفاء: تصحيح وتعليق الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- * ابن حبيب: أبو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ).
- المحجّر: رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت. وطبعة دائرة المعارف الإسلامية، حيد آباد، الدكن، سنة ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م.
- * ابن حجر: أحمد بن علي بن محمد الكناني (ت ٨٥٢هـ).
- الإصابة في تمييز الصحابة: مطبعة السعادة، مصر، ط ١، ١٣٢٨هـ - ١٩١٠م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- * ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعد (ت ٤٥٦هـ).
- الفصل في الملل والأهواء والنحل: المطبعة الأدبية، القاهرة، ١٣١٧هـ - ١٨٩٩م.
- * الحموي: ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ).
- معجم البلدان: دار صادر، بيروت، ١٣٧٩هـ - ١٩٥٦م.
- * الحميدي: أبو بكر عبد الله بن الزبير (ت ٢١٩هـ).
- مسند الحميدي: تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، من سلسلة منشورات المجلس العلمي، كراتشي - باكستان، عالم الكتب، بيروت، د. ت.
- * ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).



- المسند: تحقيق أحمد محمد شاكر، لم يذكر الناشر، مصر، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.
- المسند (الموسوعة الحديثية): تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط وآخرين، إشراف الدكتور عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- فضائل الصحابة: تحقيق وصي الله بن محمد عباس، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- * ابن خياط: خليفة بن خياط العصفري (ت ٤٦٣ هـ).
- تاريخ خليفة بن خياط: تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، ط ٢، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- * الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل (ت ٢٥٥ هـ).
- سنن الدارمي: طبع بعناية محمد أحمد دهمان دار إحياء السنة النبوية، القاهرة، د. ت.
- * أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ).
- سنن أبي داود مع معالم السنن للخطابي: أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي (ت ٣٨٨ هـ)، إعداد وتعليق عبيد الدعاس، نشر وتوزيع محمد علي السيد، سورية، ط ١، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م.
- المراسيل: تحقيق عبد العزيز السيرواني، دار القلم، بيروت، ط ١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- * أبو داود: سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي (ت ٢٠٤ هـ).
- مسند الطيالسي: ترتيب أحمد بن عبد الرحمن البنا الساعاتي، المنيرية بالأزهر، مصر، ط ١، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م.
- الديار بكري: حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٦٦ هـ).
- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس: مؤسسة شعبان، بيروت، والمطبعة الوهبية، مصر رجب، ١٢٨٣ هـ - ١٨٦٦ م.
- * الذهبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ).



- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: مجلد قسم السيرة ومجلد قسم المغازي، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

* ابن زبالة: محمد بن الحسن بن زبالة (ت ١٩٩هـ).

- المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ، رواية الزبير بن بكار: تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، إحياء التراث الإسلامي، ط ١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

* الزرقاني: محمد بن عبد الباقي بن يوسف أبو عبد الله (ت ١١٢٢هـ).

- شرح المواهب اللدنية للقسطاني: أحمد بن محمد بن أبي بكر، شهاب الدين، أبو العباس (٩٣٢هـ)، دار الطباعة الأميرية، مصر، ١٢٨٧هـ - ١٨٦١م.

- شرح موطأ الإمام مالك بن أنس: مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٤م.

* الزركشي: محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ).

- إعلام الساجد بأحكام المساجد: تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

* ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ).

- الطبقات الكبرى: دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

* السمهودي: علي بن عبد الله بن أحمد الحسيني (ت ٩١١هـ).

- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى: مطبعة الآداب والمؤيد، مصر، ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م.

* السهيلي: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي (٥٨١هـ).

- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية: لابن هشام، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

* ابن سيد الناس: محمد بن محمد أبو الفتح اليعمري المصري (ت ٧٣٤هـ).

- عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير: دار المعرفة، بيروت.

* السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ).



- تهذيب الخصائص النبوية الكبرى: هذبه وخرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ عبدالله التليدي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ٢، ١٤١٠هـ.
- * ابن شبة: أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (ت ٢٦٢هـ).
- تاريخ المدينة المنورة: تحقيق فهم محمد شلتوت، نشر السيد حبيب محمود أحمد، دار الأصفهاني، جدة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- * ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد (ت ٢٣٥هـ).
- كتاب المغازي: تحقيق الدكتور عبد العزيز بن إبراهيم العمرين دار إشبيليا، السعودية، الرياض، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- المصنف في الأحاديث والآثار: تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م وله طبعات أخرى.
- * أبو الشيخ: عبد الله بن محمد جعفر بن حيان الأصبهاني (ت ٣٦٩هـ).
- أخلاق النبي ﷺ وآدابه: تحقيق السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- أخلاق النبي ﷺ وآدابه: دراسة وتحقيق عصام الدين سيد الصَّبَّاطي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط ٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- * الصالحى: محمد بن يوسف الصالحى (ت ٩٤٢هـ).
- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد وآخرين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- * الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ).
- المعجم الكبير: تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، وزارة الأوقاف العراقية، إحياء التراث الإسلامي، العراق، ط ١، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- المعجم الكبير: تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت.



- * الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن زيد (ت ٣١٠هـ).
- تاريخ الرسل والملوك: دار المعارف، مصر، ط ٤، د. ت.
- * طرهوني: الشيخ محمد بن رزق بن طرهوني.
- صحيح السيرة النبوية المسماة: السيرة الذهبية: دار ابن تيمية، القاهرة، ط ١، ١٤١٠هـ.
- * ابن طولون: محمد بن طولون الدمشقي (ت ٩٥٣هـ).
- إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين: تحقيق محمود الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- * ابن أبي عاصم: أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني (ت ٢٨٧هـ).
- كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة: لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٤٠٥هـ.
- * ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري (ت ٤٦٣هـ).
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: بهامش الإصابة لابن حجر.
- الدرر في اختصار المغازي والسير: تحقيق الدكتور شوقي ضيف، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
- * عبد الرزاق: بن همام بن نافع أبو بكر الصنعاني (ت ٢١١هـ).
- المصنف: تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، منشورات المجلس العلمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- * أبو عبيد: القاسم بن سلام البغدادي اللغوي (ت ٢٢٤هـ).
- الأموال: تحقيق وتعليق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ودار الفكر، القاهرة، بيروت، ط ٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- * عروة: بن الزبير بن العوام (ت ٩٣هـ).
- المغازي: برواية أبي الأسود عنه، جمع وتحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، مكتب التربية العربية لدول الخليج، الرياض، ط ١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- * ابن عساكر: علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم الدمشقي (ت ٥٧١هـ).



- تاريخ مدينة دمشق: قسم السيرة النبوية تحقيق نشاك عزوي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- * ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري (ت ٢٧٦هـ).
- المعارف: تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.
- * ابن قم الجوزية: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٧٥٢هـ).
- زاد المعاد في هدي خير العباد: تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٣، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- * ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ).
- البداية والنهاية: تحقيق محمد عبد العزيز النجار، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ويطلب من مكتبة الفلاح بالرياض، د.ت.
- البداية والنهاية: تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- تفسير القرآن العظيم: تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميليه، كتاب الشعب، القاهرة، ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.
- * ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ).
- سنن ابن ماجه: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر العربي، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- * مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشري النيسابوري (ت ٢٦١هـ).
- صحيح مسلم: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- * المنذري: أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت ٦٥٦هـ).
- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف: تحقيق الشيخ مصطفى محمد عمارة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- * النسائي: أبو عبد الرحمن بن شعيب (ت ٣٠٣هـ).



- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م.
- عمل اليوم والليلة: تحقيق د. فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥ م.
- * النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت ٦٧٦ هـ).
- شرح صحيح مسلم: دار الفكر، بيروت، د.ت.
- * أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت ٤٣٠ هـ).
- دلائل النبوة: تحقيق الدكتور محمد رواس قلعة جي، وعبد البر عباس، دار النفائس، بيروت، ط ٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- * ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٨ هـ).
- السيرة النبوية: تحقيق الدكتور همام عبد الرحيم سعيد ومحمد عبد الله أبو صعليلك، مكتبة المنار، الأردن، ط ١، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.
- * الهيثمي: أبو بكر نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (ت ٨٠٧ هـ).
- كشف الأستار عن زوائد البزار: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٣٩٩ هـ - ١٩٦٧ م.
- موارد الظمان على زوائد ابن حبان: تحقيق محمد بن عبد الرزاق حمزة، دار مكتبة الهلال، بيروت، د.ت.
- * الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ).
- أسباب النزول: مطبعة هندية، مصر ١٣١٥ هـ - ١٨٩٧ م.
- * الواقدي: محمد عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ).
- كتاب المغازي: تحقيق الدكتور مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.
- * اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٢ هـ).
- تاريخ اليعقوبي: دار صادر، بيروت ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م.

ب- المراجع الحديثة:

* آرثر كريستنسن:

- إيران في عهد الساسانيين: ترجمة يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.

* الألباني: محمد ناصر الدين الألباني.

- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١،

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

تخريج أحاديث فقه السيرة: للغزالي، بحاشية فقه السيرة للغزالي.

- حجة النبي ﷺ: المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٧، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- دفاع عن الحديث النبوي والسيرة والرد على جهالات الدكتور البوطي في كتاب

(فقه السيرة): مؤسسة ومكتبة الخافقين، دمشق، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

- صحيح سنن الترمذي: مكتب التربية العربي لدولة الخليج، الرياض، ط ١،

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- صحيح سنن ابن ماجه: المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

* الألوسي: محمد شكري.

- بلوغ الأرب في أحوال العرب: تحقيق بهجت الأثري، دار الكتب العلمية،

بيروت، ط ٢، ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م.

* الباكري: حسين أحمد الباكري.

- مرويات غزوة أحد: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة

المنورة للحصول على درجة الماجستير ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

* باوزير: أحمد محمد العليمي باوزير.

- مرويات غزوة بدر: رسالة منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

للحصول على درجة الماجستير، مكتبة طيبة، ط ١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.



* أبو بكر الجزائري:

- هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا محب: مكتبة لينة، دمنهور، مصر، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

* البلادي: عاتق بن غيث.

- معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية: دار مكة، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

* البوطي: الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

- فقه السيرة النبوية: دار الفكر، دمشق، ط ٧، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م.

* حامد عبد القادر.

- زرادشت الحكيم: نبي قدامى الإيرانيين، حياته وفلسفته، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م.
* حسن شحاتة سلطان.

- كونفرشيوس: مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م.

* ابن حميد: صالح بن عبد الله بن حميد.

- موسوعة نصره النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ: إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح بن حميد وعبد الرحمن بن ملوح، دار الوسيلة، جدة، ط ١، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

* الحكمي: حافظ بن محمد عبد الله الحكمي.

- مرويات غزوة الحديبية: رسالة منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، المجلس العلمي، إحياء التراث الإسلامي، ط ١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.



- * الدوم: محسن أحمد الدوم.
- مرويات غزوة فتح مكة: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- * رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي.
- إظهار الحق: إدارة إحياء التراث الإسلامي، الدوحة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- * أبو زهرة: الشيخ محمد أبو زهرة.
- الديانات القديمة: دار الفكر العربي، مصر، ١٣٨٥هـ - ١٩٥٦م.
- * زهير سالم.
- عثرات وسقطات في كتاب المنهج الحركي للسيرة النبوية: دار عمار، الأردن، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- * الساعاتي: أحمد بن عبد الرحمن البنا.
- الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني مع بلوغ الأماني في أسرار الفتح الرباني: دار الشهاب، القاهرة، د.ت.
- * السامرائي: عبد الله سلوم.
- الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية: رسالة ماجستير منشورة، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- * السعود: سليمان بن علي السعود.
- أحاديث الهجرة: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- * السندي: أكرم حسين علي السندي.
- مرويات تاريخ يهود المدينة في عهد النبوة: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.



- * السندي: عبد القادر حبيب الله السندي.
- الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك: رسالة منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، مكتبة المعلا، الكويت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- * الشامي: صالح أحمد الشامي.
- من معين السيرة: المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.
- * أبو شهبة: محمد محمد.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة: دار القلم، دمشق، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
- * الشهري: عوض أحمد سلطان الشهري.
- مرويات غزوة خيبر: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- * الصوري: الكاهن السامري أبو الحسن إسحاق (مترجم).
- التوراة السامرية: نشر وتعريف الدكتور حجازي السقا، دار الأنصار، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- * الصوباني: محمد.
- السيرة النبوية الصحيحة: قراءة جديدة - مؤسسة الريان، ط١، الرياض، ١٤٢٠هـ.
- القصيمية: دراسة نقدية لنصوص السيرة النبوية، دار طيبة، ط١٤٠٩هـ.
- * عرجون: محمد الصادق إبراهيم عرجون.
- محمد رسول الله ﷺ - منهج رسالة -: دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- * العمري: الدكتور أكرم ضياء العمري.
- المجتمع المدني في عهد النبوة - الجهاد ضد المشركين -: لم يذكر الناشر ومكان النشر، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.



- المجتمع المدني في عهد النبوة - خصائصه وتنظيماته الأولى - :المجلس العلمي للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، إحياء التراث الإسلامي، المدينة المنورة، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق - دراسة مقارنة في العقد المكي - رسالة غير منشورة، قدمت لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض للحصول على درجة الدكتوراه، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

* الغضبان: منير محمد.

- المنهج الحركي للسيرة النبوية: مكتبة المنار، الأردن، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

* عمير: إبراهيم بن محمد عمير.

- مرويّات غزوة الخندق: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

* عون: الدكتور عون الشريف قاسم.

- دبلوماسية محمد ﷺ: رسالة دكتوراه منشورة، قسم التأليف والنشر، جامعة الخرطوم، د.ت.

* قريبي: الدكتور إبراهيم بن إبراهيم قريبي.

- مرويّات غزوة حنين: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الدكتوراه، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

- مرويّات غزوة بني المصطلق: رسالة منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، المجلس العلمي، إحياء التراث الإسلامي، د.ت.

* المباركفوري: الشيخ صفى الرحمن المباركفوري.

- الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ١٣٩٦هـ -

١٩٧٦م.



- * محمد رواس قلعة جي: الأستاذ الدكتور.
- دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ من خلال سيرته الشريفة: دار
النفايس، بيروت، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
* مهدي رزق الله أحمد: الأستاذ الدكتور.
السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات
الإسلامية، الرياض، ط ١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
* الندوي: أبو الحسن علي الحسني.
السيرة النبوية: دار الشروق، جدة، ط ١، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م، ماذا خسر العالم
بانحطاط المسلمين، مطابع علي بن علي الدوحة، ط ١٠، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.
* هارون رشيد محمد إسحاق.
- صحيفة المدينة: دراسة حديثة وتحقيق، رسالة غير منشورة، قدمت لجامعة الملك
سعود بالرياض للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
* الندي: علي بن حسام الدين الهندي.
- كنز العمال من سنن الأقوال والأفعال: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٥، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
ملاحظة: المصادر والمراجع التي ورد ذكرها أقل منها ثلاث مرات، أو كانت
الاستفادة منها قليلة جداً لم نذكرها هنا، واكتفينا بذكرها في حواشي الكتاب.



ثانيًا: فهرس الموضوعات

- شكر وتقدير ٥
- الإهداء ٦
- المقدمة ٧
- منهج البحث ومميزات الطبعة الثالثة: ٧
- أهداف دراسة السيرة النبوية: ٨
- تمهيد [١]** ١١
- مكة قبل الإسلام ١١
- نشأة مكة: ١١
- تعدد بناء الكعبة: ١٥
- عمل ابن الزبير رضي الله عنه وغيره في عمارة الكعبة: ١٨
- مقام إبراهيم عليه السلام: ١٩
- [٢] حالة العالم حين بعث محمد ﷺ** ٢١
- ١- في الجزيرة العربية: ٢١
- أولاً: الحالة السياسية: ٢١
- أ - الملك باليمن: ٢١
- ب - الملك بالحيرة: ٢٣
- ج - الملك بالشام: ٢٣
- د - مكة: ٢٤
- هـ - يثرب: ٢٦



- و- الطائف: ٢٧
- ثانيًا: الحالة الدينية عند العرب في الجزيرة العربية: ٢٨
- ١- محمد ﷺ: ٣٣
- ٢- زيد بن عمرو بن نفيل: ٣٤
- ٣- ورقة بن نوفل: ٣٥
- ٤- قُس بن ساعدة الإيادي: ٣٥
- ٥- أمية بن أبي الصلت: ٣٦
- ٦- ليث بن ربيعة العامري ثم الكلابي ثم الجعفري: ٣٦
- ثالثًا: الحياة الاجتماعية عند العرب في الجزيرة العربية: ٣٧
- ٢- في خارج الجزيرة العربية: ٤١
- أ - جوانب من الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في ظل اليهودية: ٤١
- أولًا: جوانب من الحياة الدينية: ٤١
- ثانيًا: جوانب من الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات اليهودية: ٤٦
- ب - جوانب من الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في ظل المسيحية: ٤٧
- أولًا: الحياة الدينية: ٤٧
- ثانيًا: الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات النصرانية: ٥٠
- ج - جوانب من الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في ظل المجوسية: ٥١
- أولًا: الحياة الدينية: ٥١
- ثانيًا: الحياة السياسية والاجتماعية في ظل المجوسية: ٥٤
- د - جوانب من الحياة الدينية والاجتماعية في ظل الديانات الصينية: ٥٦
- أولًا: الحياة الدينية: ٥٦
- ثانيًا: الحياة الاجتماعية: ٥٧



- هـ - جوانب من الحياة الدينية والاجتماعية في ظل الديانات الهندية: ٥٧
- أولاً: الحياة الدينية: ٥٧
- ثانياً: الحياة الاجتماعية: ٥٨
- الفصل الأول: من المولد إلى المبعث**
- ٦١
- المبحث الأول: نسب الرسول ﷺ ٦١
- حكم وفوائد من هذا الاصطفاء: ٦٢
- المبحث الثاني: الحتان والتسمية ٦٢
- المبحث الثالث: اليتيم ورعاية الجد ثم العم ٦٤
- حكمة يُتم الرسول ﷺ: ٦٦
- المبحث الرابع: من إرهاصات النبوة عند ميلاده ٦٧
- المبحث الخامس: رضاعة الرسول ﷺ ٦٧
- حكمة الرضاعة في البادية: ٧٠
- المبحث السادس: الرضاعة في بادية بني سعد وحادثة شق الصدر ٧١
- حكمة شق الصدر: ٧٣
- المبحث السابع: رحلته إلى الشام ٧٣
- الحكمة من أقوال أهل الكتاب في صفة محمد ﷺ: ٧٥
- المبحث الثامن: رعيه الغنم في صباه، والحكم من ذلك ٨٢
- المبحث التاسع: عناية الله له وحفظه من أمور الجاهلية ٨٣
- المبحث العاشر: حرب الفجار ٨٥
- المبحث الحادي عشر: شهوده حلف الفضول أو المطيبين ٨٦
- أ- زواجه من خديجة ٨٩
- ب- حكم وفوائد من هذا المقطع: ٩٢



- المبحث الثاني عشر: مشاركته في بناء الكعبة ٩٣
- أ- مشاركته في بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود في مكانه: ٩٣
- ب- حكم وعبر من هذا المقطع: ٩٥
- المبحث الثالث عشر: من إرهابات النبوة: ٩٥
- أ- من إرهابات النبوة عند أهل الكتاب وكهان العرب عندما قارب زمن بعثة الرسول ﷺ ... ٩٥
- ب- بعض الحكم والعبر: ٩٨
- المبحث الرابع عشر: التحث في غار حراء ٩٩
- المبحث الخامس عشر: الإرهابات قبيل البعثة ١٠٠
- أ- من إرهابات النبوة قبيل البعثة: ١٠٠
- ب- العبر والعظات: ١٠١
- المبحث السادس عشر: الوحي ١٠١
- أ- نزول الوحي: ١٠١
- ب- العبر والعظات والدلائل: ١٠٣
- المبحث السابع عشر: انقطاع الوحي ١٠٥
- أ- فترة انقطاع الوحي ثم تنابعه: ١٠٥
- ب- الحكمة من هذا الانقطاع: ١٠٥
- المبحث الثامن عشر: مراتب الوحي ١٠٦
- المبحث التاسع عشر: مراتب الدعوة ومراحلها ١٠٧
- أ- مراتب الدعوة: ١٠٧
- ب- مراحل الدعوة خلال حياة الرسول ﷺ: ١٠٧
- وقفه عند فقه هذه المراحل: ١٠٧
- المبحث العشرون: بداية الدعوة ١٠٨



- أ- المرحلة الأولى: الدعوة السرية: ١٠٨
- ب- العبر والعظات في هذا المقطع: ١١٣
- المبحث الحادي والعشرون: تطور الدعوة ١١٤
- أ- المرحلة الثانية: الجهر بالدعوة: ١١٤
- ب- دروس وعبر من هذا المقطع: ١١٦
- المبحث الثاني والعشرون: المشركون والدعوة ١١٧
- أ- أساليب المشركين في محاربة الدعوة الإسلامية: ١١٧
- ومن أبرز تلك الأساليب: ١١٧
- الأسلوب الأول: محاولة التأثير على عمه أبي طالب: ١١٧
- الأسلوب الثاني: التهديد بمنازلة الرسول ﷺ وعمه أبي طالب: ١١٨
- الأسلوب الثالث: الاتهامات الباطلة لصد الناس عنه: ١١٩
- الأسلوب الرابع: السخرية والاستهزاء والضحك والغمز واللمز والتعالي على المؤمنين: ١٢١
- الأسلوب الخامس: التشويش: ١٢٤
- الأسلوب السادس: طلبهم أن تكون للرسول معجزات أو مزايا ليست عند البشر العاديين .. ١٢٤
- الأسلوب السابع: المساومات: ١٢٥
- الأسلوب الثامن: سب القرآن ومنزله ومن جاء به: ١٢٧
- الأسلوب التاسع: الاتصال باليهود للإتيان منهم بأسئلة تعجيزية للرسول: ١٢٨
- الأسلوب العاشر: الترغيب: ١٢٨
- الأسلوب الحادي عشر: التهيب: ١٢٩
- الأسلوب الثاني عشر: الاعتداء الجسدي: ١٢٩
- أ- الاعتداء الجسدي على الرسول ﷺ: ١٢٩
- ب- الاعتداء الجسدي على الصحابة من قريش بمكة: ١٣٢



- ج- الاعتداء الجسدي على المسلمين العرب من خارج مكة: ١٣٤
- د- الاعتداء الجسدي على الموالي: ١٣٥
- ومن أبرز من نالهم الاعتداء الجسدي من الموالي بمكة: ١٣٦
- أ- آل ياسر عليه السلام: ١٣٦
- ب- بلال رضي الله عنه: ١٣٧
- ج- خباب بن الأرت رضي الله عنه: ١٣٨
- د- عامة الموالي المستضعفين: ١٣٩
- العبر والعظات: ١٤٠
- الأسلوب الثالث عشر: ملاحقة المسلمين خارج مكة والتحريض عليهم: ١٤٢
- الأسلوب الرابع عشر: المقاطعة العامة: ١٤٣
- الأسلوب الخامس عشر: محاولة قتل الرسول ﷺ: ١٤٣
- الأسلوب السادس عشر: شن الحرب عليه: ١٤٣
- المبحث الثالث والعشرون: مكان اللقاء ١٤٣
- المبحث الرابع والعشرون: الهجرة إلى الحبشة ١٤٤
- أ- الهجرة الأولى إلى الحبشة: ١٤٤
- ب- الهجرة الثانية إلى الحبشة: ١٤٦
- ج- قريش تسعى لإعادة المهاجرين: ١٤٧
- د- حكم وعظات وعبر من هذا المقطع: ١٤٩
- المبحث الخامس والعشرون: إسلام النجاشي ١٥٠
- المبحث السادس والعشرون: إسلام حمزة وعمر ١٥١
- أ- إسلام حمزة رضي الله عنه: ١٥١



- ب- إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ١٥٢
- ج- عظام وعبر وحكم من هذا المقطع: ١٥٥
- المبحث السابع والعشرون: المقاطعة ١٥٦
- أ- المقاطعة العامة: ١٥٦
- ب- عظام وعبر من هذا المقطع: ١٥٨
- المبحث الثامن والعشرون: وفاة عمه ١٥٩
- أ- وفاة أبي طالب: ١٥٩
- ب- الحكمة من وفاة أبي طالب قبل قيام الدولة الإسلامية: ١٦١
- فائدة: ١٦١
- المبحث التاسع والعشرون: وفاة خديجة رضي الله عنها: ١٦١
- المبحث الثلاثون: زواجه من سودة رضي الله عنها: ١٦٢
- المبحث الحادي والثلاثون: رحلة الطائف ١٦٣
- أ- هجرته ﷺ إلى الطائف: ١٦٣
- ب- عظام وعبر: ١٦٧
- المبحث الثاني والثلاثون: التسلية الربانية ١٦٩
- أ- الإسراء والمعراج: ١٦٩
- شق الصدر: ١٧٠
- الإسراء: ١٧٠
- المعراج: ١٧٠
- العودة: ١٧١
- موقف قریش من الإسراء والمعراج: ١٧٢



- الأدلة على أن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معًا: ١٧٣
- ب- دلالات وعظات وعبر: ١٧٣
- المبحث الثالث والثلاثون: البحث عن وطن للدعوة ١٧٥
- أ- عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل: ١٧٥
- ب- عظات وعبر: ١٧٩
- المبحث الرابع والثلاثون: البيعة ١٨٠
- أ- بيعة العقبة الأولى: ١٨٠
- ب- بيعة العقبة الثانية: ١٨١
- نتائج وعبر من بيعة العقبة الثانية: ١٨٦
- فائدة: ١٨٨
- الفصل الثاني: الهجرة إلى المدينة** ١٨٩
- المبحث الأول: أسبابها: ١٨٩
- أولًا: الابتلاء والاضطهاد: ١٨٩
- ثانيًا: وجود حماية للدعوة تمكنها من السير في طريقها: ١٩٠
- ثالثًا: التكذيب والإخراج: ١٩٠
- رابعًا: مخافة الفتنة في الدين: ١٩٠
- خامسًا: الإذن للمسلمين بالقتال: ١٩٠
- أول المهاجرين: ١٩١
- ما وقع للمسلمين في سبيل الهجرة: ١٩٢
- هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن معه من المسلمين: ١٩٣
- المبحث الثاني: هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ١٩٦
- أولًا: تأمر قريش: ١٩٦



| | |
|-----|--|
| ١٩٧ | ثانيًا: الإذن بالهجرة. والتخطيط لها ثم الشروع فيها: |
| ٢٠٣ | الطريق إلى الغار: |
| ٢٠٤ | في الغار: |
| ٢٠٦ | التوجه إلى المدينة: |
| ٢١١ | الوصول إلى المدينة: |
| ٢١٤ | الأحكام والدروس المستفادة من أحداث الهجرة إلى المدينة: |
| ٢١٧ | فائدة: |
| ٢١٩ | الفصل الثالث: أسس بناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية بالمدينة |
| ٢١٩ | المبحث الأول: بناء المسجد |
| ٢٢٤ | أحكام وحكم في قصة بناء المسجد النبوي الشريف: |
| ٢٢٥ | المبحث الثاني: المؤاخاة والحكمة منها |
| ٢٢٥ | أ- المؤاخاة: |
| ٢٢٩ | ب- حكم وعبر من المؤاخاة: |
| ٢٣٠ | المبحث الثالث: صحيفة المدينة |
| ٢٣٠ | أولًا: مضمون الصحيفة: |
| ٢٣٠ | أ- بنود الصحيفة المتعلقة بالمسلمين: |
| ٢٣١ | ب- بنود الصحيفة المتعلقة بالمشرّكين: |
| ٢٣١ | ج- بنود الصحيفة المتعلقة باليهود: |
| ٢٣١ | د- بنود الصحيفة المتعلقة بالقواعد العامة: |
| ٢٣٢ | ثانيًا: إسناد الصحيفة: |
| ٢٣٢ | ثالثًا: دلالات وأحكام وعبر من صحيفة المدينة: |
| ٢٣٤ | المبحث الرابع: إنشاء السوق الإسلامية |



| | |
|-----|---|
| ٢٣٧ | الفصل الرابع: |
| ٢٣٧ | القسم الأول: متفرقات |
| ٢٣٧ | المبحث الأول: تسمية يثرب بطيئة، وطابة والمدينة |
| ٢٣٨ | المبحث الثاني: بعض المتاعب الصحية |
| ٢٣٩ | المبحث الثالث: قريش تهدد المهاجرين والأنصار |
| ٢٤٢ | القسم الثاني: النشاط الجهادي |
| ٢٤٢ | العسكري والسياسي قبل غزوة بدر الكبرى |
| ٢٤٢ | المبحث الأول: الإذن بالقتال |
| ٢٤٣ | المبحث الثاني: الغزوات والسرايا قبل غزوة بدر |
| ٢٤٣ | أولاً: أهداف الغزوات والسرايا: |
| ٢٤٤ | ثانياً: الغزوات والسرايا والأحلاف والأحداث الهامة: |
| ٢٤٤ | ١- غزوة الأبواء (وَدَّان): |
| ٢٤٥ | ٢- غزوة بواط من ناحية رَضْوَى: |
| ٢٤٥ | ٣- غزوة سَفْوَان (بدر الأولى - بدر الصغرى): |
| ٢٤٥ | ٤- غزوة العُشَيْرَة: |
| ٢٤٦ | ٥- سرية نَخْلَة: |
| ٢٤٧ | أحكام وعبر في قصة سرية نخلة: |
| ٢٤٩ | - تحويل القبلة: |
| ٢٤٩ | - فريضة صيام رمضان: |
| ٢٥١ | الفصل الخامس : غزوة بدر الكبرى: الأحداث والنتائج |
| ٢٦٢ | المبارزة: |
| ٢٦٢ | الملائكة تشهد بدرًا: |



| | |
|-----|---|
| ٢٦٤ | مصرع الطغاة: |
| ٢٦٤ | أ- أبو جهل: |
| ٢٦٥ | ب- أمية بن خلف: |
| ٢٦٦ | ج- العاص بن هشام بن المغيرة: |
| ٢٦٦ | دفن قتلى المشركين في القلب [البئر التي لم تطوى]: |
| ٢٦٧ | الغنائم: |
| ٢٦٩ | الأسرى: |
| ٢٧٣ | مكانة غزوة بدر في التاريخ: |
| ٢٧٤ | أحكام وحكم من غزوة بدر: |
| ٢٧٩ | الفصل السادس: النشاط الجهادي والأحداث بين غزوتي بدر وأحد |
| ٢٧٩ | المبحث الأول: سرية قتل عصماء بنت مروان |
| ٢٧٩ | المبحث الثاني: مؤامرة لاغتيال الرسول ﷺ |
| ٢٨٠ | المبحث الثالث: سرية سالم بن عمير لقتل أبي عَفَك |
| ٢٨٠ | المبحث الرابع: غزوة بني قَيْنُقَاع |
| ٢٨٠ | أ- تاريخ الغزوة: |
| ٢٨١ | ب - أسبابها: |
| ٢٨٢ | ج- الحصار والإجلاء: |
| ٢٨٣ | د- أحكام وعبر: |
| ٢٨٤ | المبحث الخامس: سرية قتل كعب بن الأشرف |
| ٢٨٥ | عظات وعبر: |
| ٢٨٥ | المبحث السادس: غزوة ذي أمر |
| ٢٨٧ | الفصل السابع: غزوة أحد: الأحداث والنتائج |



| | |
|-----|--|
| ٢٨٧ | تاريخ الغزوة: |
| ٢٨٧ | أسبابها: |
| ٢٨٧ | عدّة المشركين: |
| ٣٠٦ | ب- أحكام وحكم وعظّات وعبر من غزوة أحد: |
| ٣١٣ | الفصل الثامن: الغزوات والسرايا والأحداث بين أحد والمربِيع |
| ٣١٣ | المبحث الأول: غزوة حمراء الأسد |
| ٣١٣ | أ- معالم غزوة حمراء الأسد |
| ٣١٤ | ب - عبر في هذه الغزوة: |
| ٣١٤ | المبحث الثاني: سرية الرجيع |
| ٣١٩ | المبحث الثالث: سرية بئر معونة |
| ٣٢١ | حكم وأحكام وعبر ودروس من سريتي الرجيع ومعونة |
| ٣٢٢ | المبحث الرابع: غزوة بني النضير |
| ٣٢٢ | أولاً: تاريخ غزوة بني النضير: |
| ٣٢٣ | ثانياً: سبب الغزوة: |
| ٣٢٤ | ثالثاً: الإنذار: |
| ٣٢٥ | رابعاً: الجلاء وشروطه: |
| ٣٢٧ | خامساً: حكم وعبر من غزوة بني النضير: |
| ٣٢٧ | المبحث الخامس: غزوة بدر الموعد |
| ٣٢٨ | المبحث السادس: غزوة ذات الرّقاع |
| ٣٢٩ | ١ - قصة الأعرابي: |
| ٣٢٩ | دروس وعبر من هذه القصة: |
| ٣٣٠ | ٢ - قصة الحراسة: |



| | |
|--|-----|
| دروس وعبر في هذا المقطع من السيرة: | ٣٣٠ |
| ٣- قصة جمل جابر: | ٣٣٠ |
| درس وعبرة في هذه القصة: | ٣٣١ |
| المبحث السابع: غزوة دُؤمة الجندل | ٣٣٢ |
| الفصل التاسع: غزوة (بني المصطلق) أحداث ونتائج | ٣٣٣ |
| الموقف الأول | ٣٣٤ |
| الموقف الثاني: حديث الإفك | ٣٣٦ |
| أحكام وعبر في غزوة المريسيع: | ٣٣٩ |
| الفصل العاشر: غزوة الخندق (الأحزاب) أحداث ونتائج | ٣٤٣ |
| تاريخ الغزوة: | ٣٤٣ |
| سبب الغزوة: | ٣٤٣ |
| من دلائل النبوة أثناء حفر الخندق: | ٣٤٦ |
| ١- دور نعيم بن مسعود: | ٣٥١ |
| ٢- معجزة الرياح والبرد: | ٣٥١ |
| حكم وعبر في غزوة الخندق: | ٣٥٣ |
| الفصل الحادي عشر: غزوة بني قريظة | ٣٥٧ |
| مصير بعض سبي بني قريظة: | ٣٥٩ |
| أحكام وحكم ودروس وعبر من غزوة بني قريظة: | ٣٦٠ |
| الفصل الثاني عشر: أبرز الغزوات والسرايا والأحداث بين غزوة بني قريظة والحديبية | ٣٦٣ |
| المبحث الأول: سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلام بن أبي الحقيق (أبي رافع) | ٣٦٣ |
| المبحث الثاني: سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء | ٣٦٤ |



| | |
|-----------|--|
| ٣٦٥ | فوائد من قصة ثمامة: |
| ٣٦٦ | المبحث الثالث: سرية كُرْز بن جابر الفهري إلى العُرَيْنِّين |
| ٣٦٩ | الفصل الثالث عشر: عمرة وطم وهدنة الحديبية |
| ٣٦٩ | المبحث الأول: أحداث الحُدَيْبِيَّة |
| ٣٨٠ | المبحث الثاني: فقه وحكم ودروس في صلح وهدنة الحديبية |
| ٣٨٥ | الفصل الرابع عشر: غزوة خيبر |
| ٣٨٦ | تاريخ الغزوة: |
| ٣٩٤ | بعض فقه وحكم وعبر ودروس غزوة خيبر: |
| ٣٩٩ | الفصل الخامس عشر: رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء والزعماء |
| ٣٩٩ | تمهيد: |
| ٣٩٩ | المبحث الأول: كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي |
| ٤٠١ | المبحث الثاني: كتاب النبي ﷺ إلى كسرى |
| ٤٠٢ | المبحث الثالث: كتاب النبي ﷺ إلى قيصر |
| ٤٠٤ | المبحث الرابع: كتاب النبي ﷺ إلى الحارث بن أبي شَمِر الغساني |
| ٤٠٤ | المبحث الخامس: كتاب النبي ﷺ إلى هُوَذَة بن عَليّ الحنفي صاحب اليمامة |
| ٤٠٤ | المبحث السادس: كتاب النبي ﷺ إلى المَقُوقَس |
| ٤٠٥ | المبحث السابع: كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن سَاوَى العَبْدِي |
| ٤٠٥ | المبحث الثامن: كتاب النبي ﷺ إلى جَيْفَر وعبد ابني الجَلَنْدَى |
| ٤٠٦ | المبحث التاسع: رسائل أخرى متفرقة |
| ٤٠٨ | المبحث العاشر: فوائد وحكم وعبر في هذا المقطع من السيرة: |
| ٤٠٩ | الفصل السادس عشر: عمرة القضاء |
| ٤١٣ | الفصل السابع عشر: ٤١٣ السرايا والأحداث بين عمرة القضاء وسرية مؤتة ٤١٣ |



| | |
|---|-----|
| المبحث الأول: سرية الأخرم بن أبي العوّجاء السلمي | ٤١٣ |
| المبحث الثاني: إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد | ٤١٣ |
| المبحث الثالث: سرية غالب بن عبد الله إلى الكديد | ٤١٥ |
| المبحث الرابع: دروس وعبر من أحداث هذه السرية | ٤١٦ |
| الفصل الثامن عشر: سرية مؤتة | ٤١٧ |
| أحكام وحكم ودروس وعبر من أحداث هذه السرية: | ٤٢٢ |
| الفصل التاسع عشر: أبرز السرايا بين سرية مؤتة وغزوة فتح مكة | ٤٢٣ |
| المبحث الأول: سرية ذات السلاسل | ٤٢٣ |
| فوائد فقهية في أحداث هذه السرية: | ٤٢٤ |
| المبحث الثاني: سرية أبي قتادة إلى بطن إضم | ٤٢٥ |
| فائدة ودروس في هذه السرية: | ٤٢٦ |
| الفصل العشرون: غزوة فتح مكة | ٤٢٧ |
| الأحكام والدروس والعظات والعبر المستفادة من غزوة الفتح: | ٤٤١ |
| الفصل الحادي والعشرون: غزوات حنين والطائف | ٤٤٥ |
| المبحث الأول: غزوة حنين | ٤٤٥ |
| سرية أوطاس: | ٤٥١ |
| المبحث الثاني: غزوة الطائف | ٤٥٤ |
| المبحث الثالث: أهم الأحكام المستنبطة من غزوتي حنين والطائف: | ٤٦٠ |
| الفصل الثاني والعشرون: السرايا والأحداث بين غزوتي الطائف وتبوك | ٤٦٣ |
| المبحث الأول: سرية الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفّين | ٤٦٣ |
| المبحث الثاني: إسلام كعب بن زهير عند منصرف الرسول ﷺ من الطائف | ٤٦٣ |
| المبحث الثالث: المصدقون | ٤٦٤ |



- المبحث الرابع: سرية عبد الله بن حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ ٤٦٥
- المبحث السابع: من فوائد هذا المقطع ٤٦٧
- المبحث الثامن: سرية علي بن أبي طالب إلى الفُلس وإسلام عَدِيٍّ بن حاتم الطائي .. ٤٦٧
- الفصل الثالث والعشرون: ٤٦٩ غزوة تبوك (أو العُسْرَة) ٤٦٩**
- أصل التسمية (تبوك): ٤٦٩
- التسمية بغزوة العسرة: ٤٦٩
- تاريخ الغزوة: ٤٧٠
- سبب الغزوة: ٤٧٠
- الإنفاق في هذه الغزوة: ٤٧١
- موقف المنافقين من غزوة تبوك: ٤٧٤
- موقف المؤمنين من الخروج إلى تبوك: ٤٧٦
- عدد الصحابة في جيش تبوك: ٤٧٧
- المتخلفون عن غزوة تبوك: ٤٧٨
- المسلمون في تبوك: ٤٨١
- الرجوع إلى المدينة: ٤٨٤
- وقفة مع بعض الآيات التي نزلت بمناسبة غزوة تبوك: ٤٨٥
- معجزات وقعت للرسول ﷺ في أحداث تبوك: ٤٨٦
- الأحكام والفوائد والدروس المستنبطة من غزوة تبوك: ٤٨٧
- الفصل الرابع والعشرون: الوفود ٤٩٣**
- ومن بين الوفود التي قدمت على رسول الله ﷺ غير ما ذكرنا: ٥٠٠
- أحكام وعبر وفوائد من أخبار الوفود: ٥٠١
- الفصل الخامس والعشرون: الأحداث والسرايا والبحوث بين تبوك والوفاة ٥٠٣**



- المبحث الأول: حجة أبي بكر عليه السلام ٥٠٣
- المبحث الثاني: بعث أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل عليهما السلام إلى اليمن ٥٠٤
- المبحث الثالث: بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد عليهما السلام إلى اليمن ٥٠٥
- المبحث الرابع: سرية جرير بن عبد الله البجلي عليه السلام إلى ذي الحَلْصَة ٥٠٦
- فوائد من هذه السرية: ٥٠٧
- المبحث الخامس: حجة الوداع ٥٠٧
- المبحث السادس: أحكام ومبادئ وعبر من حجة الوداع ٥٠٩
- المبحث السابع: سرية أسامة بن زيد عليه السلام إلى الشام ٥١١
- عظات وعبر: ٥١٢
- الفصل السادس والعشرون: المرض والوفاة** ٥١٣
- عظات وعبر وأحكام ووصايا: ٥٢١
- الفصل السابع والعشرون: ٥٢٣ أمهات المؤمنين رضي الله عنهن** ٥٢٣
- ٢- سودة بنت زمعة بن قيس عليها السلام: ٥٢٣
- ٣- عائشة بنت أبي بكر عليها السلام: ٥٢٥
- ٤- حفصة بنت عمر بن الخطاب عليها السلام: ٥٢٦
- ٥- زينب بنت خزيمة الهلالية عليها السلام: ٥٢٧
- ٦- أم سلمة - هند بنت أبي أمية - المخزومية عليها السلام: ٥٢٨
- ٧- جُوَيْرِيَة بنت الحارث عليها السلام: ٥٢٩
- ٨- زينب بنت جحش عليها السلام: ٥٣٠
- ٩- رَيمَجانَة بنت زيد بن عمرو بن خُتَافَة عليها السلام: ٥٣١
- ١٠- أم حبيبة - رَمْلَة بنت أبي سفيان بن حرب عليها السلام: ٥٣١
- ١١- صفية بنت حيي بن أخطب النضيرية عليها السلام: ٥٣٣



- ١٢- ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها: ٥٣٤
- ١٣- السراري: ٥٣٥
- حكمة هذا التعدد: ٥٣٥
- الفصل الثامن والعشرون: بعض شمائل الرسول ﷺ** ٥٣٩
- ومن أبرز هذه الصفات الخلقية أو الشمائل: ٥٣٩
- ١- التقشُّف في الطعام: ٥٣٩
- ٢- التقشُّف في الفراش: ٥٤٠
- ٣- تواضعه ﷺ: ٥٤٠
- ٤- خُلُقُه: ٥٤١
- ٥- شجاعته: ٥٤٢
- ٦- حياؤه: ٥٤٣
- ٧- التيسير والرفق: ٥٤٣
- ٨- الحذر من الغضب: ٥٤٤
- ٩- الحلم والأناة: ٥٤٤
- ١٠- الوصية بالجار: ٥٤٤
- ١١- رحمته: ٥٤٥
- ١٢- رحمته بالمرضى: ٥٤٥
- ١٣- رحمته ﷺ بالإناث: ٥٤٦
- ١٤- رحمته بزوجاته: ٥٤٦
- ١٥- رحمته ﷺ بالضعفاء عموماً: ٥٤٧
- ١٦- رحمته ﷺ بالأعداء في الحرب والسلام: ٥٤٩
- ١٧- عدله ﷺ: ٥٥٠



- ١٨- حنه ﷺ على صلة الأرحام: ٥٥٠
- ١٩- إعراضه ﷺ عما يكرهه: ٥٥٠
- ٢٠- عدم ذكره عيب الطعام واستجابته مدحه: ٥٥١
- ٢١- من جامع صفاته وإرشاداته ﷺ: ٥٥١
- الفصل التاسع والعشرون: بعض الخصائص التي فُضِّل بها النبي ﷺ** ٥٥٧
- ١- صاحب الرسالة العامة: ٥٥٧
- ٢- في كتابه الناسخ والمنسوخ: ٥٥٧
- ٣- أكثر الأنبياء تبعًا: ٥٥٧
- ٤- خاتم الأنبياء والمرسلين: ٥٥٧
- ٥- حماية كتابه من التحريف والتبديل وجعله من المعجزات: ٥٥٨
- ٦- جعله الله - أمانة لأصحابه من العذاب والفتن في حياته: ٥٥٨
- ٧- إقسام الله - بحياته، القسم إنما يقع بالمُعَظَّم: ٥٥٨
- ٨- يسأل عنه الميت في قبره: ٥٥٨
- ٩- النداء بوصف الرسالة والنبوة: زيادة في التكريم: ٥٥٩
- ١٠- نهى الله المؤمنين عن مناداته باسمه. زيادة في التكريم كذلك: ٥٥٩
- ١١- تولى الله تبرئته عما ينسبه إليه أعداؤه. والرد عليهم بنفسه: ٥٥٩
- ١٢- اختصاصه بشرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر: ٥٥٩
- ١٣- غفر الله تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخر: ٥٦٠
- ١٤- خصه الله بفاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، والسبع الطوال، والمفصل، والمئين: .. ٥٦٠
- ١٥، ١٦، ١٧، ١٨- ذكر ما فضل به عن باقي الأنبياء: ٥٦٠
- ١٩- أن الله تعالى قرن اسمه باسمه في كتابه: ٥٦٠
- ٢٠- أعطاه الله تعالى مفاتيح خزائن الأرض بيده: ٥٦٠



- ٢١- ذكر في القرآن بعض أعضائه: ٥٦١
- ٢٢- اختصه الله ﷺ بالإسراء والمعراج: ٥٦١
- ٢٣- الرؤية من خلفه كما يرى أمامه: ٥٦١
- ٢٤- اختص بصلاة العشاء عن سائر الأنبياء: ٥٦١
- ٢٥- فضله الله تعالى بدرجة الوسيلة والفضيلة يوم القيامة: ٥٦١
- ٢٦، ٢٧- شرفه الله تعالى بالمقام المحمود والشفاعة يوم القيامة: ٥٦٢
- ٢٨، ٢٩- اختص بأنه أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة: ٥٦٢
- ٣٠- أول من يقرع باب الجنة: ٥٦٢
- ٣١- اختصاصه بأن كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه: ٥٦٢
- ٣٢- أول من يمر على الصراط: ٥٦٢
- ٣٣- واختصه بأن يكون ما بين منبره وبينه روضة من رياض الجنة: ٥٦٣
- ٣٤- يدخل من أمتة الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، مع كل ألف سبعون ألفاً: ... ٥٦٣
- ٣٥- اخصته الله تعالى بالدعوة المستجابة: ٥٦٣
- ٣٦- اختص في الدنيا بأن جعل الله أمتة خير الأمم: ٥٦٣
- ٣٧- تحريم التكني بكنيته. ولم يثبت ذلك لأحد من الأنبياء: ٥٦٣
- ٣٨- أحل الله ﷺ له الهدية بخلاف غيره من ولادة الأمور: ٥٦٣
- ٣٩- تحريم الزكاة والصدقة عليه وعلى آله وعلى مواليه وموالي آله: ٥٦٤
- ٤٠- إسلام قرينه: ٥٦٤
- ٤١- لا ينام قلبه: ٥٦٤
- ٤٢- التجاوز لأمتة عن حديث النفس والخطأ والنسيان: ٥٦٤
- ٤٣- حفظ أمتة من الهلاك والاستتصال: ٥٦٤
- ٤٤- عدم اجتماع أمتة على ضلالة: ٥٦٥



- ٤٥- لا يعدم عصر من عصور أمته من جماعة ظاهرة على الحق: ٥٦٥
- ٤٦- اختص الله تعالى أمته بأنهم شهداء الله ﷻ في الأرض: ٥٦٥
- ٤٧- ميز الله تعالى أمته يوم القيامة بالغُرِّ والتَّحْجِيلِ من أثر الوضوء: ٥٦٥
- ٤٨- أبيح له الوصال في الصوم دون غيره من أفراد أمته: ٥٦٦
- ٤٩- اختُصَّ بإباحة الزواج له من غير ولي ولا شهود: ٥٦٦
- ٥٠- أبيح له الزواج بأكثر من أربع نسوة بلا تقييد بعدد: ٥٦٦
- ٥١- لا يُنْقَضُ وضوؤه بالنوم مضطجعاً: ٥٦٦
- ٥٢- يقبل شهادة من يشهد له والحكم لنفسه وولده. ويشهد لنفسه وولده: ٥٦٦
- ٥٣- القضاء بعلم نفسه: ٥٦٧
- ٥٤- أبيح له الاصطفاء من الغنمة قبل القسمة: ٥٦٧
- ٥٥- أبيح له دخول مكة بلا إحرام، وإباحة القتال فيها ساعة: ٥٦٧
- ٥٦- أن أزواجه اللاتي توفي عنهن محرمات على غيره أبداً: ٥٦٧
- ٥٦- وأن أزواجه أمهات المؤمنين: ٥٦٧
- ٥٧- أن كذباً عليه ليس ككذبٍ على غيره: ٥٦٧
- ٥٨- من رآه في المنام فقد رآه حقاً: ٥٦٧
- ٥٩- أن الأرض لا تأكل لحمه كسائر الأنبياء: ٥٦٨
- ٦٠- من استهان به أو سبه كفر: ٥٦٨
- ٦١- اختصه الله تعالى بالعصمة في الأقوال والأفعال: ٥٦٨
- ٦٢- حرم الله تعالى عليه خاتنة الأعين: ٥٦٨
- ٦٣- لا يورث كسائر الأنبياء فالأنبياء لا يورثون: ٥٦٨
- ٦٤- أخبر الله - بغفران ذنب نبينا من غير أن يذكر له ذنباً: ٥٦٩
- ٦٥- اتخذ خليلاً كما اتخذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام خليلاً: ٥٦٩



- ٦٦- تقدم نبوته قبل نفخ الروح في آدم ﷺ: ٥٦٩
- ٦٧- اختصه الله تعالى بالحكم والفتوى في حالة الغضب، لأنه مأمون منه: ٥٦٩
- ٦٨- اختصاصه ﷺ بوجوب صلاة الليل: ٥٦٩
- ٦٩- اختصاصه ﷺ بتحريم أكل ما له ريح كريهة: ٥٦٩
- ٧٠- اختصاصه ﷺ بتحريم الكتابة والشعر: ٥٧٠
- ٧١- اختصاصه ﷺ بتحريم إمساك كارهته: ٥٧٠
- ٧٢- اختصاصه ﷺ بإباحة الصلاة بعد العصر: ٥٧٠
- ٧٣- اختصاصه ﷺ بإباحة القتال بمكة المكرمة والقتل بها: ٥٧٠
- ٧٤- ومن خصائصه أن له النكاح بلفظ الهبة وبلا مهر ابتداء وانتهاء: ٥٧١
- ٧٥- ومن خصائصه ﷺ إباحة النظر إلى الأجنبية والخلو بهن: ٥٧١
- ٧٦- ومن خصائصه أنه كان يزوج من شاء من النساء بمن شاء من الرجال بغير رضاهن .. ٥٧١
- ٧٧- ومن خصائصه ﷺ وجوب جلوس أزواجه من بعده في بيوتهن: ٥٧٢
- ٧٨- ومن خصائصه ﷺ أن تطوعه في الصلاة قاعدًا كتطوعه قائمًا: ٥٧٢
- ٧٩- ومن خصائصه ﷺ أن عمله كان له نافلة: ٥٧٢
- ٨٠- ومن خصائصه ﷺ أن المصلي يخاطبه بصلاته: ٥٧٢
- ٨١- ومن خصائصه ﷺ أنه كان لا يجوز لأحد الخروج من مجلسه إلا بإذنه: ٥٧٣
- ٨٢- ومن خصائصه ﷺ وجوب محبته ومحبة أهل بيته وأصحابه: ٥٧٣
- ٨٣- ومن خصائصه ﷺ أن أولاد بناته ينسبون إليه بخلاف بنات غيره: ٥٧٣
- ٨٤- ومن خصائصه أن رؤياه وحي، وكل ما رآه فهو حق: ٥٧٣
- ٨٥- ومن خصائصه ﷺ تشریفه بالصلاة عليه: ٥٧٣
- ٨٦- ومن خصائصه ﷺ أن أصحابه كلهم عدول بإجماع من يعتد به: ٥٧٤
- ٨٧- اختصاصه ﷺ بالصلاة عليه حين موته أفرادًا بغير إمام وبغير دعاء الجنازة المعروف: .. ٥٧٤



- ٥٧٤ ٨٨- اختصاصه ﷺ بدفنه في بيته حيث قبض:
- ٥٧٤ ٨٩- إكرامه ﷺ بحياته في قبره واستغفاره لأمتة:
- ٥٧٤ ٩٠- كان السواك في حقه ﷺ واجبًا:
- ٥٧٤ ٩١- كان له ﷺ أن يُقبل وهو صائم بغير كراهة:
- ٥٧٥ ٩٢- وكان بوله ودمه يُتبرك بهما، ولم ينكر ذلك:
- ٥٧٥ ٩٣- اختصاصه ﷺ بالغسل وعليه قميصه حين موته:
- ٥٧٦ ٩٤- اختصاصه بأن لم يوجد له مثلما يخرج من أوساخ البطن عندما أرادوا غسله بعد موته: ..
- ٥٧٦ تنبيه:

الفصل الثلاثون: بعض المعجزات النبوية (دلائل النبوة) ٥٧٩

- ٥٧٩ ١- القرآن الكريم: المعجزة العظمى الباقية:
- ٥٨٠ ٢- انشقاق القمر:
- ٥٨٠ ٣- استسقائه ﷺ ربه ﷻ لأمتة حين تأخر المطر:
- ٥٨١ ٤- نبع الماء الطهور من بين أصابعه:
- ٥٨١ ٥- تكثير ماء الآبار:
- ٥٨٢ ٦- تكثيره ماء المزدتين [القريتين]:
- ٥٨٢ ٧- تكثير اللبن في القدح:
- ٥٨٢ ٨- تكثيره السمن في العكة:
- ٥٨٢ ٩- تكثير الشعير:
- ٥٨٣ ١٠- تكثيره التمر:
- ٥٨٣ ١١- تكثيره اللحم:
- ٥٨٣ ١٢- تكثير حَيْسٍ أم سليم والدة أنس:
- ٥٨٤ ١٣- تكثيره فضلة أزواد أصحابه:



- ١٤- تسبيح الطعام والشراب بين يديه ﷺ: ٥٨٤
- ١٥- انقياد الشجر له ﷺ وسلامها عليه: ٥٨٤
- ١٦- تحرك الجبل فرحاً به ﷺ: ٥٨٥
- ١٧- تحرك المنبر من أسفل شيء منه. ٥٨٦
- ١٨- وسبق ذكره معجزة تنكيس الأصنام بمجرد الإشارة إليها يوم فتح مكة: ... ٥٨٦
- ١٩- قصصه المعجزة مع الحيوانات: ٥٨٦
- (أ) انقياد الحيوانات له ﷺ: ٥٨٦
- (ب) شكوى الحيوانات إليه: ٥٨٦
- (ج) بركته ﷺ في الحيوانات: ٥٨٧
- (د) شهادة الحيوانات والطيور ﷺ بالرسالة: ٥٨٧
- (هـ) شهادة الغزالة له بالرسالة واستنجاده به: ٥٨٨
- ٢٠- معجزاته في الإنسان: ٥٨٨
- (أ) تحمل سفينة هبطت الأتقال: ٥٨٨
- (ب) إنبات الشعر: ٥٨٨
- (ج) مسح على رأس أبي زيد الأنصاري ٥٨٩
- (د) ونفت ﷺ في يده الشريفة ووضعها على ظهر ويطن عتبة بن فرقد. ٥٨٩
- (هـ) تفل ﷺ على ذراع محمد بن حاطب ٥٨٩
- (و) رش على جابر ٥٨٩
- (ز) عن حمزة بن عمر الأسلمي ٥٨٩
- ٢١- معجزاته في الأشياء غير الحية: ٥٨٩
- (أ) ٥٨٩



- ٥٩٠ (ب)
- ٥٩٠ (ج)
- ٥٩٠ ٢٢- في إخباره بأمر غيبية:
- ٥٩٢ ٢٣- المعجزات المتعلقة بعصمته من الاغتيال:
- ٥٩٤ المعجزات المتعلقة بالمكتشفات الطبية الحديثة
- ٥٩٤ ٢٤- التمر:
- ٥٩٥ ٢٥- الحبة السوداء:
- ٥٩٧ ٢٦- الحناء:
- ٥٩٧ ٢٧- الزيتون:
- ٥٩٨ ٢٨- التسوك بمسوك شجر الأراك:
- ٥٩٨ ٢٩- العسل:
- ٥٩٩ ٣٠- أبوال وألبان الإبل:
- ٦٠٠ ٣١- حديث الذباب:
- ٦٠٢ ٣٢- النخالة: [الرّدة].
- ٦٠٣ ٣٣- الحتان:
- ٦٠٤ ٣٤- الاتصال الجنسي أثناء الحيض:
- ٦٠٤ ٣٥- استخدام التراب في غسل سور الكلب:
- ٦٠٥ ٣٦- تحريم زواج الأخوة من الرضاع:
- ٦٠٥ ٣٧- تحريم الخمر:
- ٦٠٦ ٣٨- التدخين:
- ٦٠٦ ٣٩- ماء زمزم:
- ٦٠٨ ٤٠- الصيام:



- أثر الصيام الإسلامي في الوقاية من الأمراض: ٦٠٨
- الصيام الإسلامي وأثره في كبح الرغبة الجنسية: ٦٠٨
- الصيام الإسلامي وزيادة الخصوبة: ٦٠٩
- علاج الصيام لبعض الأمراض: ٦٠٩
- هل يؤثر الصيام الرمضاني المتكرر سلبًا على مرضى زرعتم لهم كلى؟ ... ٦١٠
- ٤١ - لحم الخنزير: ٦١٠
- ٤٢ - مفاصل الإنسان: ٦١٢
- ٤٣ - معجزة عَجَبِ الذَّنْب: ٦١٣
- عجب الذنب والحقيقة العلمية: ٦١٤
- ٤٤ - الدباء، [القرع، اليقطين]: ٦١٤
- ومن طرق الاستعمال: ٦١٨
- ٤٥ - التليينة: ٦١٨
- ٤٦ - الحلبة: ٦٢٠
- ٤٧ - العدس: ٦٢١
- ٤٨ - التين: ٦٢٢
- ٤٩ - الرمان: ٦٢٥
- ٥٠ - الحجامة: ٦٢٧
- ٥١ - الخل: ٦٣٢
- ٥٢ - نهى النبي ﷺ عن النفخ في الشراب والطعام: ٦٣٣
- ٥٣ - معجزات الحجر الأسود الحسية والمادية: ٦٣٤
- ٥٤ - اللبن (الحليب): ٦٣٦



- ٥٥- معجزة التوجيه النبوي في (النهي عن زواج الأقارب): ٦٣٨
- ٥٦- معجزة الاستشفاء بإلية الشاة الأعراية: ٦٣٩
- ٥٧- الإعجاز العلمي الطبي في (الإثمد): ٦٣٩
- ٥٨- الإعجاز الطبي في الاضجاع على الشق الأيمن: ٦٤٠
- ٥٩- الإعجاز العلمي الطبي في لحوم الأساك وزيوتهما: ٦٤٢
- ٦٠- الإعجاز العلمي في أخطار الإعلام الفضائي: ٦٤٣
- ٦١- الإعجاز العلمي الطبي في العطاس والتشاؤب: ٦٤٥
- ٦٢- الإعجاز العلمي الطبي في مرض الطاعون: ٦٤٦
- ٦٣- إعجابه ﷺ بأكل البطيخ بالرطب: ٦٤٧
- ٦٤- الكمأة: ٦٤٩
- ٦٥- الصبر: ٦٥٠
- ٦٦- عدم الاتكاء أثناء الأكل: ٦٥١
- ٦٧- تحريم أكل لحم الجوارح وكل ذي ناب: ٦٥١
- ٦٨- الإعجاز العلمي الطبي في الاستنشاق والاستنثار في الوضوء: ٦٥٢
- ٦٩- الإعجاز العلمي الطبي في نضح بول الصبي الرضيع الذي لم يأكل الطعام ٦٥٣
- ٧٠- الإعجاز العلمي الطبي في الثفاء: ٦٥٤
- الفصل الحادي والثلاثون: المعجزات العلمية في القرآن الكريم** ٦٥٧
- المعجزات الخاصة بالحقائق العلمية التي أثبتتها الطب الحديث: ٦٥٧
- الأول: أوصاف الجنين في رحم أمه: ٦٥٧
- الثاني: ومن الأمثلة على الإعجاز الطبي في القرآن الكريم، والدالة على وجود الخالق وصدق نبوة محمد ﷺ، علم البصمات ٦٦٠
- الثالث: اللبن [الحليب]: ٦٦٢



- الرابع: أثر القرآن الكريم في شفاء الأمراض: ٦٦٣
- الخامس: أثر القرآن الكريم في الصلاة الخاشعة على الجسم: ٦٦٥
- السادس: الإعجاز العلمي الطبي في تحريم اللواط: ٦٦٨
- النظرة العلمية: ٦٦٩
- السابع: براءة اختراع دولية لقطرة عيون قرآنية: ٦٦٩
- الثامن: من الأسرار المعجزة في صلاة المسلمين: ٦٧٠
- التاسع: الاستعاذة من شر القمر في أيامه البيض: ٦٧١
- العاشر: أهمية الرضاعة الطبيعية وفوائدها: ٦٧٢
- ومن الفوائد المتعلقة بالطفل الرضيع من حيث حليب الأم: ٦٧٣
- أما أهم فوائد الرضاعة الطبيعية للأم: ٦٧٤
- وأما أهم فوائد الرضاعة الطبيعية للمجتمع: ٦٧٥
- الحادي عشر: الإعجاز العلمي الطبي في أن أقل مدة للحمل ستة أشهر: ٦٧٥
- الثاني عشر: الإعجاز العلمي الطبي في (الناصية): ٦٧٦
- الثالث عشر: الإعجاز العلمي الطبي في تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير: ٦٧٧
- أ. تحريم الميتة: ٦٧٨
- ب. تحريم الدم: ٦٧٨
- الرابع عشر: الإعجاز العلمي الطبي في إشارة القرآن الكريم إلى دور الجلد والأمعاء في الإحساس بالألم: ٦٧٩
- الخامس عشر: الإعجاز العلمي في آية ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾. ٦٨٠
- السادس عشر: الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٥-٧]. ٦٨١



- السابع عشر: الإعجاز العلمي الطبي في العلاقة بين القلب والعقل (المخ): ٦٨٢
- الثامن عشر: قصة إرم ذات العماد: ٦٨٥
- التاسع عشر: قصة أهل الكهف: ٦٨٦
- العشرون: تكوين سطح القمر وسطح الأرض: ٦٨٦
- الحادي والعشرون: قصة فرعون موسى ﷺ: ٦٨٧
- الثاني والعشرون: قصة الاسم: (هامان) في القرآن الكريم: ٦٨٨
- الثالث والعشرون: قصة سفينة نوح عليه الصلاة والسلام: ٦٩٠
- الرابع والعشرون: قصة أهل القرية التي كانت حاضرة البحر: ٦٩٣
- الخامس والعشرون: آثار قوم صالح ﷺ (ثمود): ٦٩٥
- السادس والعشرون: ظلمة الفضاء ٦٩٦
- السابع والعشرون: انشقاق القمر ٦٩٧
- الثامن والعشرون: الإعجاز العلمي التاريخي في حروب الروم والفرس: ٦٩٨
- التاسع والعشرون: ملك مصر زمن يوسف عليه الصلاة والسلام: ٦٩٩
- ٧٠٠ أما المجموعة الثالثة: المعجزات الكونية
- الثلاثون: الإعجاز العلمي الكوني في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ .. ٧٠٠
- الحادي والثلاثون: الإعجاز العلمي في ذكر بروج السماء والقسم بها: ٧٠٠
- الثاني والثلاثون: الإعجاز العلمي الحسي في قسم الله تعالى بـ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ (١١) ... ٧٠١
- الثالث والثلاثون: الإعجاز العلمي الكوني الحسي في قسم الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصُّلْعِ﴾ (١٢) ... ٧٠٢
- الرابع والثلاثون: الإعجاز العلمي الكوني الحسي في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهُمَا آفَاءً كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ... ٧٠٣
- الخامس والثلاثون: الإعجاز العلمي الحسي في قوله: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ٧٠٥
- السادس والثلاثون: الإعجاز العلمي في جعل الله تعالى الجبال أوتادًا للأرض: ٧٠٥



- السابع والثلاثون: معجزة أن السماء كانت دخانًا في بدء خلق الكون: ٧٠٧
- الثامن والثلاثون: معجزة أن القمر كان في القديم كوكبًا مشتعلًا: ٧٠٨
- التاسع والثلاثون: الإعجاز العلمي المحسوس في قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾ ٧٠٩
- الأربعون: الإعجاز العلمي في القسم الإلهي بـ(الجوار الكنس): ٧١٠
- الحادي والأربعون: الإعجاز العلمي في مصدر الحديد: ٧١١
- الثاني والأربعون: الصورة التي أذهلت العالم: ٧١٣
- الثالث والأربعون: إعجاز القرآن في وصف ظلمات البحار العميقة وأماجها الداخلية: ٧١٤
- الرابع والأربعون: الإعجاز العلمي في القسم بـ(مواقع النجوم): ٧١٥
- الخامس والأربعون: الإعجاز العلمي الاجتماعي في بيت العنكبوت: ٧١٦
- السادس والأربعون: موت الوليد بن المغيرة وأبي لهب وزوجته أم جميل والعاص بن وائل السهمي على الكفر: ٧١٧
- السابع والأربعون: التفسير العلمي لقوله: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ طَفْفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ ٧١٨
- الثامن والأربعون: توسط مكة اليابسة: ٧١٨
- التاسع والأربعون: اتساع الكون: ٧١٩
- الخمسون: ذكر السمع قبل البصر في آيات خلق الإنسان في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف: ٧١٩
- الواحد والخمسون: الإعجاز العلمي في الإشارة إلى (الأغشية حول الجنين): الظلمات الثلاث: ٧٢١
- الثاني والخمسون: الإعجاز العلمي في الإشارة القرآنية إلى حقيقة نقصان الأرض من أطرافها: ٧٢٢
- الثالث والخمسون: الإعجاز العلمي في الإشارة القرآنية إلى البرازخ المرئية وغير المرئية بين مياه الأنهار ومياه البحار والمحيطات: ٧٢٣
- الرابع والخمسون: الإعجاز العلمي في الإشارة إلى منازل القمر: ٧٢٥



- الخامس والخمسون: الإعجاز العلمي في: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالْطَّارِقَ﴾ [الطارق: ١]: ٧٢٦
- السادس والخمسون: الإعجاز العلمي في ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾: ٧٢٦
- السابع والخمسون: الإعجاز العلمي في الإشارة إلى انشقاق السماء كالوردة الحمراء المدهنة: .. ٧٢٧
- الثامن والخمسون: المؤيدات العلمية المادية المحسوسة على وجود أحياء على الكواكب الأخر ٧٢٨
- التاسع والخمسون: الإشارة العلمية الإعجازية في عدم استطاعة الإنسان إنقاذ ما يسلبه الذباب: ٧٣٠
- الستون: الإعجاز الغيبي في كفاية الله ﷻ نبيه محمد ﷺ المستهزين: ٧٣١
- الفصل الثاني والثلاثون: السيرة النبوية موضع إشادة المستشرقين المنصفين .. ٧٤٣**
- أقوال الفئة الأولى الذين أسلموا، منهم: ٧٤٤
- ١- أصحاب النجاشي: ٧٤٤
- ٢- اللورد هيلي (البريطاني): ٧٤٤
- ٣- محمد أسد (النمساوي): ٧٤٥
- ٤- لين بول: ٧٤٥
- ٥- السير جلال الدين لودبرنتون (البريطاني): ٧٤٥
- ٦- يوسف إسلام - سابقاً كان استيفنس - (البريطاني): ٧٤٦
- ٧- إبراهيم خليل (المصري): ٧٤٦
- ٨- مريم جميلة: ٧٤٦
- الفئة الثانية: الذين أشادوا برسول الله ورسالته ولم يسلموا ٧٤٧
- ٩- آرلوف: ٧٤٧
- ١٠- كارلين آرمسترونق: ٧٤٧
- ١١- السير توماس آرنولد: ٧٤٧



- ١٢- أندرو وليامز: ٧٤٧
- ١٣- واشنجتون أيرفينج: ٧٤٨
- ١٤- ريدي بارت: ٧٤٨
- ١٥- بوسورت سميث: ٧٤٩
- ١٦- مارسيل بوازار: ٧٤٩
- ١٧- الكولونيل ر.ف بودلي (الإنجليزي): من كتبه (حياة محمد). ٧٥٠
- ١٨- واصف بطرس غالي: ٧٥٠
- ١٩- الكونت هنري دي بولا نفيليه: المؤرخ الفرنسي. ٧٥١
- ٢٠- إميل درمنغهم: ٧٥١
- ٢١- دوزي: ٧٥٢
- ٢٢- جارسان دي تاسي: ٧٥٢
- ٢٣- فردريك ديتريسي: ٧٥٢
- ٢٤- جون دي قنبرت: ٧٥٢
- ٢٥- رينيهديكارت: ٧٥٣
- ٢٦- الكسندر ديا الأب: ٧٥٣
- ٢٧- ول ديورانت: ٧٥٣
- ٢٨- ريتين: ٧٥٣
- ٢٩- جاك ريسلر: ٧٥٤
- ٣٠- آرنست رينان: ٧٥٤
- ٣١- برتملي سانت هيلر: ٧٥٥
- ٣٢- لوثر وبستودارد: ٧٥٥



- ٣٣- سندرستن: ٧٥٦
- ٣٤- برنارد شو: ٧٥٦
- ٣٥- آن ماري شيمل: ٧٥٧
- ٣٦- فرنسوا فولتير: ٧٥٧
- ٣٧- كوسان دي برسفال: ٧٥٨
- ٣٨- توماس كارليل: ٧٥٨
- ٣٩- البارون برناكاراديفو: ٧٥٩
- ٤٠- بول كازانوف: ٧٦٠
- ٤١- أوغستون كرستان: ٧٦٠
- ٤٢- إيفلين كوبولد: شاعرة بريطانية. ٧٦٠
- ٤٣- القس لوازون: ٧٦١
- ٤٤- غوستاف لوبون: ٧٦١
- ٤٥- فلور أندريه: ٧٦٢
- ٤٦- جان ليك: ٧٦٢
- ٤٧- جول لابوم: ٧٦٢
- ٤٨- المركيز دي لابلاس: ٧٦٢
- ٤٩- الفونس دي لامارتين: ٧٦٣
- ٥٠- لايتنر: ٧٦٣
- ٥١- فريد فون بسمارك: ٧٦٤
- ٥٢- ماسنيون: ٧٦٥
- ٥٣- وليام موير: ٧٦٥



- ٥٤- إدوارد مونته: ٧٦٦
- ٥٥- جوهان، دافير ميخائيلس: ٧٦٧
- ٥٦- د/ تيو دور نولدكه: ٧٦٧
- ٥٧- مايكل هارت: ٧٦٧
- ٥٨- مونتغمري وات: ٧٦٨
- ٥٩- هربرت جورج ولز: ٧٦٨
- ٦٠- آدموند بيرك: ٧٦٩
- ٦١- الجنرال آيزنهاور: ٧٦٩
- ٦٢- شبلي شميل: ٧٦٩
- نماذج لأقوال نصارى عرب منصفة: ٧٧٠
- ٦٣- مارون عبود: ٧٧٠
- ٦٤- إلياس نصل: ٧٧١
- ٦٥- عبد الله يوركي حلاق: ٧٧١
- ٦٦- جاك صبري شماس: ٧٧١
- الفهارس: ٧٧٣**
- أولاً: فهرس المصادر والمراجع ٧٧٥**
- أ- المصادر القديمة: ٧٧٥
- ب- المراجع الحديثة: ٧٨٤
- ثانياً: فهرس الموضوعات ٧٩٠**